

SCOTT HAWKINS
سكوت هوكينز



THE LIBRARY AT
MOUNT CHAR

مكتبة
جبل تشار



مكتبة ياسمين

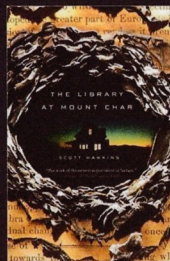
رواية
ترجمة: نورهان البدوي

مكتبة جبل تشار

سندخل مكتبة تضم أسرار الكون!

لا تختلف كارولين كثيراً عن الآخرين من حولها، كانت امرأة أمريكية عادية ذات يوم، لكن ذلك كان منذ وقتٍ طويل جداً، قبل وفاة والديها. قبل أن يأخذها والآخرين رجلٌ أطلقوا عليه اسم الأب. وخلال السنوات التي تلت ذلك، لم تحظَ كارولين بفرص كثيرة للتعاطي مع العالم الخارجي. وتربّت برفقة أشقائها بالتبني وفقاً لعادات قديمة نشأ عليها ذلك الأب. انكفؤوا على دراسة الكتب في مكتبته، وتعلّموا بعضاً من أسرار قوته.

الآن، الأب مفقود -بل وربما ميت- والمكتبة التي تحوي أسرارهِ متروكة بلا حراسة. تجمع كارولين الأدوات التي تحتاج إليها للمعارك الوشيكة، ومعها إمكانية السيطرة على الكون بأكمله. رواية مكتبة جبل تشار مليئة بشخصياتٍ لا تُنسى، بحبكة ستصدمك مع كل صفحة تطويها. مزيج من الرعب والفكاهة، مفعمة بالإثارة التي تُقضم لأجلها الأطفال.



t.me/yasmeenbook

غلاف: محمود هشام



www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

مكتبة
جبل تشار



للنشر والتوزيع

مكتبة ياسمين

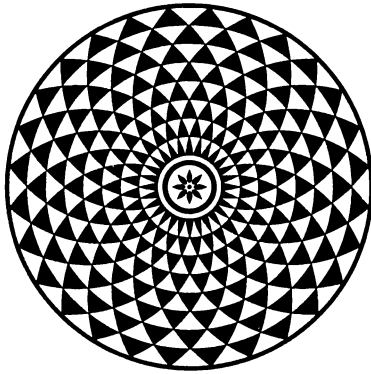
t.me/yasmeenbook

- العنوان الأصلي: The Library at Mount Char
- العنوان العربي: مكتبة جبل تشار
- حقوق النشر: Copyright © 2015 by Scott Hawkins
This edition published by arrangement with Crown, an imprint of the Crown Publishing Group, a division of Penguin Random House LLC
- تأليف: سكوت هوكينز
- ترجمة: نورهان البدوي
- تحرير: أحمد حسين
- تدقيق لغوي: سمية حمادة
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير / 2025 م
- رقم الإيداع: 25536 / 2024 م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-431-1
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب



إلى هيدر، زوجتي الحنونة والصبورة للغاية،
مع حبي الجم وامتنانني الفائض

الجزء الأول



المكتبة في جاريسن أوكس

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل الأول

شروق الشمس

1

سارت كارولين وحدها، عارية القدمين مخضبةً بالدماء، على طريق من حارتين مرصوف بالأسفلت يطلق عليه الأمريكيون «الطريق السريع 78». كان معظم المكتبيين، بما فيهم كارولين، قد أطلقوا مفهوماً جديداً على هذا الطريق وهو «ممر التاكو»، وسُمِّيَ تيمناً بالمقهى المكسيكي الذي يتسللون إليه في بعض الأحيان. حدثت نفسها: «كان مذاق الجواكامولي طيباً للغاية» فقررت بطنها. خشخش أوراق البلوط بلونها البرتقالي المحمر وهشاشتها المبهجة، تحت قدميها وهي تسير، وأنفاسها تخرج في أبخرة بيضاء تختلط بنسيم ما قبل الفجر. وخنجر السبج الذي استخدمته لقتل المحقق ماينر يستقر بارتياحٍ أسفل ظهرها، حاد وخفيٌّ. وكانت تبتمسم.

السيارات نادرة على هذا الطريق، لكن وجودها ما يزال مألوفاً. فعلى مدار نزهتها الليلية، رأت خمساً منها. والسيارة التي توقفت الآن متهاكة، من طراز فورد إف-250، هي الثالثة اليوم ليُلقي سائقها نظرةً من كثبٍ على المتجولة. انتقل السائق بالسيارة إلى الجانب المقابل لجانبه من الطريق، والحصى يقرقع أسفل منها، ثم توقف هناك دون أن يُطفأ محركها. لمَّا فُتحت

النافذة، هاجمتها رائحة تبغ ممضوغ، وشحم قديم، وقش. كان السائق رجلاً أشيب، يجلس إلى جواره كلبٌ رعي ألماني. راح الأخير يتفحصها في ريب من مجلسه على مقعد الراكب.

حدثت نفسها: «آآخ، تبأ!». وهذا لأنها لم ترغب في إيزائهما.

قال الأشيب: «رباه! أهناك حادث؟».

كان صوته دافئاً بالاهتمام، اهتمامٌ حقيقي، ليس اهتمام الضواري المزيف الذي تقنّع به الرجل الأخير. وما إن سمعت كلماته حتى عرفت أن العجوز ينظر إليها كما ينظر الأب إلى ابنته، واسترخت قليلاً.

أجابت بعينين مثبتتين على الكلب: «لا. لا شيء من هذا القبيل. مجرد فوضى في الحظيرة. بسبب الفرس».

بالطبع لم يكن هناك حظيرة، ولا فرس. لكنها عرفت من رائحة الرجل أنه سيُبدى تعاطفاً مع الحيوانات، وسيتفهم أن التعامل معها قد يكون دموياً. تابعت: «ولادة عسيرة، عليها وعليّ».

رسمت ابتسامةً حزينة على شفثيها ورفعت يديها مشيرةً إلى جذعها. صار فستانها الحريري الأخضر أسود متيبساً من آثار دماء المحقق ماينر. ثم أضافت: «لقد أفسدتُ فستاني».

علّق الرجل بنبرة جافة: «جربي القليل من مشروب الصودا».

زمجر الكلب قليلاً، فأسكته الرجل: «اهدأ يا صديقي».

لم تكن على يقين مما يعنيه «مشروب الصودا»، لكن بإمكانها أن تستشف من نبرة الرجل أنها مزحة. ليست مزحةً من النوع الذي يُقهقه فيه المرء بأعلى صوته، بل مزحة مواسة.

نخرت وهي تُجيب: «سأفعل ذلك».

سألها مجدداً بقلقٍ جليّ: «هل الفرس بخير؟».

- أجل، إنها بخير. والمُهر بخير كذلك. لكنها ليلة طويلة. وخرجت لأُصفيّ ذهني فحسب.

- عارية القدمين؟

رفعت كتفيها باستخفاف وأجابت: «الأهالي يربون أطفالهم على الصلابة في هذه المنطقة».

وكان هذا الجزء من جوابها صحيحًا.

- أترغبين في توصيلة؟

- لا، لكن شكرًا لك. منزل والدي في ذلك الاتجاه، ليس بعيدًا.

وكان ذلك الجزء صحيحًا أيضًا.

- أيها؟ أهو المنزل عند مكتب البريد؟

- إنه في جاريسن أوكس.

شردت عينا العجوز بعيدًا لهنيتها، وحاول أن يتذكر كيف له معرفة ذلك الاسم. فكَرَّ في الاسم مليًا، ثم استسلم في النهاية. كان لكارولين أن تُخبره أن بإمكانه قيادة سيارته إلى جاريسن أوكس أربع مراتٍ في اليوم وكل يوم لآلاف السنين، وسيظل ناسيًا، لكنها لم تفعل.

علَّق العجوز هائمًا: «أوه! صحيح».

ثم اختلس نظرةً إلى ساقها بطريقه لم تكن أبوية قط، وسألها: «متأكدة أنك لا تحتاجين إلى توصيلة؟ صديقي لا يمانع، أليس كذلك؟». وربَّت على الكلب البدين في المقعد المجاور له. اكتفى صديقه بالمشاهدة، ونظرات شرسة ومتشككة لا تفارق عينيه البنيتين.

- لا بأس. ما زلتُ أصفِّي ذهني. لكن شكرًا لك.

وتمددت عضلات وجهها لتُبدِي تعبيرًا يشبه البسمة.

- عفواً.

حرَّك السائق ناقل السرعة، وسار مبتعدًا، غامرًا إياها بسحابة دافئة من عادم السيارة. وقفت كارولين تتابع المشهد حتى اختفت الأضواء الخلفية للسيارة عند منعطف الطريق. ثم حدَّثت نفسها: «كفاني اجتماعيات لهذه الليلة». وسرعان ما تسلَّقت الجرف وتسللت إلى أعماق الغابة. ما زال القمر مرتفعًا في السماء، وما زال بدرًا منيرًا. يُطلق الأمريكيون على هذا الوقت من العام «أكتوبر» أو أحيانًا «الخريف»، لكن المكتبيين يعتمدون في حساب الوقت على مراقبة حركة السماء. والليلة توافق القمر السابع، قمرُ الحزن الأسود. وتحت ضوءه المنير انسَلَّت الظلال التي تلقيها فروع الأشجار العارية على ندوبها.

سارت ميلاً أو يزيد حتى وصلت إلى الشجرة الجوفاء، حيث خَبَّأت معطفها. نفضت عنه قشر اللحاء، ثم التقطته ونظَّفته قدر إمكانها. احتفظت بقُصاصَة من قماش الفستان الملطَّخ بالدماء لأجل ديفيد وتخلَّصت من الباقي، ثم طَوَّقت نفسها بالمعطف، وحجبت وجهها بغطاء الرأس. كانت مغرمةً بهذا الفستان، وقماشه الحريري لطيف الملمس، لكنها وجدت الراحة في ملمس القطن الخشن للمعطف. كان ملمسًا مألوفًا، وهو كل ما اهتمت بتجربته حقًا من الثياب.

شرعت في التوغل داخل الغابة، والحجارة المغطاة بأوراق الأشجار وقش الصنوبر تمنحها شعورًا لطيفًا وهي تحتك بباطن قدميها، وتُلطِّف شعورًا بالحكة لم تكن تدري أنها تشعر به.

حدَّثت نفسها: «بعد الحَيْد⁽¹⁾ القادم ستظهر جاريسن أوكس». أرادت أن تحرق المكان عن بكرة أبيه، لكنها في الوقت نفسه رأت شيئًا من البهجة في رؤيته ثانيةً.

إنها الديار.

2

لم تكتسب كارولين ولا أي من الآخرين أمانة المكتبة بالولادة. في يومٍ من الأيام، بدا كأنه منذ وقتٍ طويل، كانوا يحملون طباعًا أمريكية راسخة بلا شك. تتذكر ذلك، ربما بقليلٍ من الضبابية؛ كان هناك شيءٌ يُسمى «المرأة الآلية» وشيءٌ آخر يُسمى قوالب «ريسز بزبدة الفول السوداني». وفي يومٍ صيفي حين كانت كارولين في عُمر الثامنة تقريبًا، كان للأب أعداء، فتحركوا ضده، لكنه نجا من الهجوم، كما نجت كارولين وقلّة من الأطفال الآخرين، لم ينجوا أبائهم.

(1) الحيد هو نتوء صخري حاد القمة شديد الانحدار ويمثل أعلى نقطة ارتفاع في المرتفعات (المترجمة).

استرجعت ذرات الدخان الأسود وهي تنقل لها صوت الأب وتفوح برائحة الأسفلت الذائب، تذكرت الحفرة العميقة حيث كانت بيوتهم، وقد أمست تُضيء بلونٍ برتقالي باهت من خلفه وهو يتحدث إليهم.

قال الأب: «أنتم الآن «خُدَّام الكتب». إنها كلمة قديمة، تجمع بين معنى كلمتي «أمين مكتبة» و«تلميذ». سأخذكم إلى منزلي. وسأتبع النهج القديم في تربيبتكم، كما تربيْتُ أنا. وسأخصكم بالعلوم التي تعلمتها».

ولم يسألهم عما يريدون.

في بداية الأمر بذلت كارولين ما بوسعها دون نكران للجميل. لقد رحلت أمها وأبوها، رحلا وتركاهما. وهي تستوعب ذلك. صار الأب هو كل ما لديها الآن، وفي بداية حياتها معه بدا أنه لا يسألها فعل الكثير. لكن منزل الأب كان مختلفًا. فبدلاً من الحلوى والتلفاز، كانت الظلال والكتب القديمة، مكتوبة بخط اليد على ورق من الجلد السميك. أدرك الأطفال بعد فترة أن الأب يعيش منذ وقتٍ طويل. والأهم من ذلك أنه على مدار حياته الطويلة هذه قد برع في صنعة العجائب. يستطيع الأب استدعاء البرق، أو إيقاف الوقت. وتناديه الحجارة باسمه. كان العلم النظري والعملي لهذه المهارات مُرتبًا في اثني عشر فهرسًا، واحدًا لكل طفل كما تبين فيما بعد. وكان كل ما سألهم إياه هو الاجتهاد في دراساتهم.

ظهر أول طرف خيطٍ لعيني كارولين عما يعنيه كل هذا حقًا، بعد بضعة أسابيع. كانت تدرس على ضوء أحد الفوانيس المضاءة بالمصابيح، وقد وزَّعت هنا وهناك في أنحاء الأرضية الخضراء المائلة للزرقة للمكتبة. في تلك الأثناء، قفزت مارجريت ذات الأعوام التسعة آنذاك، عن الأرفف المظلمة المرتفعة للفهرس الرمادي. كانت تصرخ، وأفقدتها الرعب قدرتها على الرؤية فتعثرت بطاولة صغيرة وسقطت منزلقةً بالقرب من قدمي كارولين. فأرشدتها كارولين للاختباء تحت مكتبها.

ظلت مارجريت ترتجف في الظلال لعشر دقائق أو يزيد. راحت خلالها كارولين تمطرها بالأسئلة همسًا، لكنها لم تتحدث، ربما فقدت القدرة على ذلك. لكن دموع مارجريت مصبوغة بالدماء، ولمَّا جذبها الأب معيدًا إياها إلى أكوام الكتب، تبولت على نفسها. وكان هذا جوابًا كافيًا. تُفكر كارولين أحيانًا في رائحة الأمونيا الدافئة المنبعثة من بول مارجريت حين اختلطت

برائحة الكتب القديمة، وصرخاتها التي ترددت في جنبات أكوام الكتب. في تلك اللحظة تحديدًا بدأت تفهم ما يحدث.

كان الفهرس الذي خُصَّت به كارولين مملًا أكثر من كونه مربعًا. فقد أوكل إليها الأب مهمة دراسة اللغات، ولعام كامل تقريبًا استمرت في استذكار كتبها الأساسية بجِدٍّ. لكن الروتين أثقلها بالضجر. وفي الصيف الأول لتدريبها، حين كانت في عُمر التاسعة، ذهبت إلى الأب وضربت الأرض بقدمها، وقالت: «لا مزيد من الكتب! لقد قرأتُ ما يكفي منها. وأعرف ما يكفي من الكلمات. أريد قضاء الوقت في الخارج».

انكمش الأطفال في خوفٍ من النظرة التي علت وجه الأب. فكما وعدهم، ها هو يُربيهم كما تربي هو. وعانى معظمهم، بما فيهم كارولين، بعض الندوب السابقة. ورُغم ما علا وجه الأب من سحابة غضب، لم يضربها هذه المرة. وبعد هنيهة قال: «حقًا؟ حسنٌ جدًا».

حلَّ الأب مزلاج الباب الأمامي للمكتبة، وقادها إلى الخارج حيث ضوء الشمس الساطع والسماء الزرقاء للمرة الأولى منذ أشهر. ابتهجت كارولين، لا سيما وقد سار بها الأب إلى خارج الضاحية متخذين طريق الغابة. رأت ديفيد في طريقها. كان فهرسه عن القتل والحرب، ومن ثمَّ رآته بالخارج يؤرّج سكينه في الحقل عند نهاية الطريق. أما مايكل الذي كان يتدرب ليصبح سفيرًا للأب لدى الوحوش، وقف متوازنًا على فرع شجرة قريبة يتشاور مع عائلة من السناجب. وفي طريقها لوّحت كارولين لكليهما. توقف الأب عن السير عند شاطئ بحيرة صغيرة خلف الضاحية. وكارولين المرتجفة فرحًا تُبلل قدميها العاريتين في المياه الضحلة وتختطف لمسةً للشراف.

من موقعهما على الشاطئ نادى الأب الأيل إيشا. كانت إيشا قد أنجبت مؤخرًا، فجاءت هي وشادنهما الذي أطلقت عليه اسم آشا، كما أمرا بالطبع. استهل الأيل والشادن لقاءهما بتقديم فروض الولاء إلى الأب بصدق بالغ وبشيءٍ من الإسهاب. تجاهلت كارولين هذا الجزء من اللقاء، ففي ذلك الحين كانت تضيق ذرعًا بأولئك الذين يبدون خضوعًا مبالغًا فيه للأب. وعلى أي حال، تراءى لها أن فهم الأيل صعب.

حين انتهت الرسميات، أمر الأب إيشا أن تُدرب كارولين كما تُدرب شادنهما. وحرّص على استخدام كلمات بسيطة لكي تستطيع كارولين فهمها.

أبدت إيشا عزوفًا في بادئ الأمر. يملك الأيل الأحمر عشرات الكلمات التي تُعبر عن الرشاقة، ولا شيء منها ينطبق على قدمي كارولين البشرية، كبيرتين منعدمتي الرشاقة إذا قُورنتا بالحوافر الرقيقة لآشا والشوادن الآخر. لكن إيشا وفيّة لـ نوبونونجا، إمبراطور هذه الوحوش، وهو بدوره وفيٌّ للأب. ولم تكن غبية أيضًا، لذلك لم تتفوه بأي اعتراض.

طيلة ذلك الصيف درست كارولين مع الأيل الأحمر للوادي. وكان هذا آخر وقتٍ لطيف عاشته في حياتها، وربما أسعد وقتٍ عاشته أيضًا. تحت إشراف إيشا راحت تركض بمهارة تتحسن مع مرور الوقت على امتداد ممشي الغابة السفلية، وتثبُّ على شجرات بلوط مغطاة بالطحالب مطروحة أرضًا، وتركع على ركبتيهما لتمتص رحيق أزهار الحندقوق، وترتشف قطرات الندى الصباحي. في ذلك الوقت قد مضى عام تقريبًا على وفاة والدة كارولين، وصديقتها الوحيدة منبوذة. كان للأب صفات كثيرة، ولم يكن اللطف من بينها قط. لذلك حين نادت إيشا كارولين لترقد إلى جانبها وجانب شادنهما طلبًا للدفع، وهو ما حدث في الليلة الثلجية الأولى من العام، انفتح شيء داخل قلب كارولين. لم تبكِ ولم تظهر ضعفًا من أي نوع، فلم يكن هذا من طبيعتها، لكنها احتفظت لإيشا بمحبة جمّة جعلت ارتباطها بها ارتباطًا عميقًا.

لم يمضِ طويلًا حتى أعلن الشتاء عن حضوره الكلي بعاصفة رعدية مروّعة. لم تخش كارولين هذه الظواهر، لكن مع كل ومضة من البرق تتملّك إيشا وآشا رجفة شديدة. صار ثلاثتهم عائلة الآن. اتخذوا ملجأً من العاصفة تحت أكمة من شجر الزان، يحمل كل من كارولين وإيشا الصغيرة آشا بينهما ويعانقانهما لإبقائهما دافئة. استلقى ثلاثتهم معًا طيلة تلك الليلة. شعرت كارولين خلالها بجسميهما الضئيلين يرتجفان، وشعرت بهما ينتفضان مع كل دويٍّ لصوت الرعد. حاولت تهدئتهما بالعناق، لكنهما يجفلان للمستها. ومع تقدم الليل، راحت تبحث في ذاكرتها عن الكلمات التي تعلمتها من دروس الأب لتهدئتهما؛ «لا تقلقا» لن تكون كافية، أو حتى «ستنتهي العاصفة قريبًا» أو «ستحسن الأمور في الصباح».

لكن كارولين طفلة كسولة. حاولت مهما حاولت، لم تستطع العثور على أي كلمات.

قُبيل الفجر شعرت برجفة إيشا، ورفسها للأرض بحوافرها، وركلها أوراق الشجر المتساقطة لتكشف عن الطُفال الأسود تحتها. وبعد برهة صار المطر المتساقط على جسم كارولين دافئاً وشعرت بمذاقه مالحاً في فمها.

ومض البرق حينئذ، فرأت ديفيد. كان يقف فوق رأسها على فرع شجرة على بعد عشرة أمتار تقريباً، تتقلص عضلات وجهه في ابتسامة شريرة. من يده اليسرى تدلى الطرف الخطافي من سلسلة فضية متقنة الصنع. ودون رغبةٍ منها، تتبعت كارولين طول تلك السلسلة على الضوء الأخير للقمر. ولماً ومض البرق ثانيةً، حدّقت كارولين إلى عين إيشا الخاوية، وقد علقت هي وشادنهما على طرف رمح ديفيد. مدّت كارولين يدها لتتحسس الخطاف البرونزي الناتئ من جذع الأيل. كان المعدن دافئاً، يهتز اهتزازاً طفيفاً بين أناملها ويضخّ ضربات الضعيفة الباهتة لقلب إيشا الرقيق.

عندئذ قال ديفيد: «أمرني الأب أن أراقب وأنصت. لو أنك عثرتِ على الكلمات المناسبة، لكان من المفترض أن أتركهما أحياء».

ثم سحب السلسلة نحوه مستخلصاً إياها من جسديهما، وتابع: «يقول الأب إنه قد حان وقت العودة إلى الديار». وراح يلفُ السلسلة على نفسها بحركات رشيقة مُدرّبة: «لقد حان الوقت لتبدئي الدراسة الحقيقية». واختفى متلحفاً بالعاصفة.

نهضت كارولين ووقفت في الظلام وحدها، في تلك اللحظة وإلى الأبد.

3

الآن وبعد مُضي ربع قرن على ذلك الحادث، تركع كارولين على أربع خلف قاعدة صنوبرة راقدة على جنبها، تسترق النظر من بين أيكّة كثيفة من الأشجار الإبرية. لو أنها أمالت رأسها قليلاً لنعمت برؤية واضحة على امتداد الهضبة وحتى ساحة الثور المكشوفة. كان عرضها نحو عشرين متراً أو يزيد، عادة ما تكون خالية. أما المعالم الوحيدة التي تستحق الملاحظة فكانت الثور نفسه والركام الجرانيتي لقبر مارجریت. الثور الذي ينتصب في

مركز الساحة المكشوفة تمامًا، تمثال أجوف مصنوع من البرونز بحجم يفوق الحجم الطبيعي قليلًا. ويلمع بلون ذهبي ناعم تحت أشعة الشمس الصيفية. أحيطت الساحة المكشوفة من الجهة القريبة بأبىكة من أشجار الأرز البرية تختبئ كارولين بداخلها الآن. وعلى الجهة البعيدة، يقف ديفيد ومايكل على حافة انحدار شديد الميل منحوت في الهضبة ليُفسح مزيدًا من المساحة للطريق السريع 78. وعلى الجانب الآخر من الطريق، على بعد 20 قدمًا أو أكثر إلى الأسفل، تدلت لافطة خشبية متهالكة تحدد المدخل إلى جاريسن أوكس، من سلسلة صدئة. وإذا عبث بها النسيم، يمكنك أن تسمع الصرير من تلك المسافة إلى الأعلى.

لا بد أن كارولين قد تسلفت إلى مكان قريب جدًا، قريب بما يكفي لتُحصي عدد اللفائف الزوجية الشعثاء في ضفائر مايكل الشقراء، قريب بما يكفي لتسمع طنين الذباب حول رأس ديفيد. وكان الأخير يسلي نفسه باستجواب مايكل عن أسفاره. أجفلت كارولين حال رؤيتها لهذا المشهد. فقد كان فهرس مايكل عن الحيوانات، وقد تعلّم ما ورد فيه ربما على نحو مبالغ فيه، حتى صارت لغة البشر صعبةً عليه، بل ومؤلمة. وبخاصة حين يكون حديث الخروج من الغابة. والأسوأ من ذلك أنه يفتقر إلى الدهاء.

كانت إيميلي قد زارت أحلام المكتبيين في الليلة الماضية، وأخبرتهم أن ديفيد يطلب اجتماعهم عند الثور «قبل غروب الشمس». وهذا تعبير يختلف تمامًا عن «في أقرب وقت ممكن». تمييز لن يغفله أحد سوى مايكل. مع ذلك، ربما هذا أفضل. فقد علقت جينيفر بمفردها مع ديفيد لأسابيع، ينتظران معًا أخبارًا عن الأب. والآن، وبينما ينشغل ديفيد بتعذيب مايكل بالأسئلة، تنهمك جينيفر -أصغر المكتبيين حجمًا وأقلهم مكانة- في نبش قبر مارجريت. كانت تجتاز الساحة المكشوفة ذهابًا وإيابًا في جهد، بظهرٍ محدودب من ثقل قطع الجرانيت التي كان حجم الواحدة منها في حجم الرأس، وشعرها الأشقر النحاسي مخضل بالعرق. ولكن بعد قضاء أسابيع بمفردها مع ديفيد، ربما تراءى لها في حمل الجرانيت تحت الشمس الملتهبة شيء من السكينة.

زفرت كارولين تنهيدة مثقلة في جنبات عقلها. وحدثت نفسها: «أعتقد أن عليّ النزول إلى هناك ومساعدتهما». فلو لم تأت مساعدتي بأي ثمار، أقله سيتشتت انتباه ديفيد على ثلاث ضحايا بدلًا من اثنتين.

عدا أن كارولين لا تفتقر إلى الدماء. وهذا يعني أنها ستُنصت لما يُقال أولاً.

وقف ديفيد ومايكل يُطلان بأعينهما على جاريسن أوكس. وكان مايكل مثل أسود الجبال من حوله عاريًا تمامًا. أما ديفيد فقد ارتدى سترة واقية من الرصاص وتنورة رقص بلون الخزامى ملطخة بالدماء. كانت السترة الواقية من الرصاص تخصه، أما تنورة الرقص فمن خزانة ابن السيدة ماجيلكاتي. وفي هذا تتحمل كارولين على الأقل جزءًا من الخطأ.

حين صار جليًا لهم استحالة العودة إلى المكتبة، على الأقل ليس على المدى القريب، أوضحت كارولين للآخرين عن ضرورة ارتداء ملابس أمريكية حتى يتسنى لهم الاندماج في المجتمع. أومؤوا جميعًا بالموافقة دون أن يفهموا حقًا ما تحدث عنه، وشرعوا في تنقيب خزانات السيدة ماجيلكاتي. اختار ديفيد تنورة الرقص لأنها أقرب شيء لإزاره المعتاد الذي يغطي عانته. فكَرَّت كارولين في توضيح السبب وراء عدم اعتبارها لهذا الاختيار «اندماجًا في المجتمع» ثم عدلت عن الفكرة. فقد تعلمت أن تستمتع بلحظات الضحك متى أخذت فرصتها وأعلنت عن نفسها.

تغضن أنفها، وحملت لها الريح رائحة عفن. حدثت نفسها: «هل عادت مارجريت؟». ثم أدركت أن رائحة العفن تأتي من ديفيد. بعد فترة لن تلاحظ الكثير من الرائحة، لكن كارولين غابت كثيرًا عنهم. حام الذباب حول رأسه في سحابةٍ وعلا طنينه.

منذ عام أو عامين، تبني ديفيد عادةً جديدة وهي اعتصار الدماء من قلوب ضحاياه على شعره. كان رجلًا غزير الشعر، ولم يُثمر له القلب الواحد بأكثر من بضع ملاعق حساء، ولهذا زادت الدماء المُرَاقَة سريعًا. ومع مرور الوقت، تبيَّس هذا الخليط من الشعر والدماء في شيء يشبه الخوذة. وفي لحظة فضول سألت بيتر عن مدى قوة هذا الخليط. نظر بيتر، الذي كان فهرسه يضم الرياضيات والهندسة، إلى السقف لهنيهة وراح يُفكر. بدا كمن غرق في التأمل وهو يُجيبها: «قوي جدًا». إن الدماء المتخثرة أصلب مما تظنين، لكنها هشة أيضًا. وستميل خصلات الشعر إلى التخفيف من تلك الصلابة. إنها تعمل عمل حديد التسليح نفسه في الخرسانة. ممم».

مال على دفتره وخربش أرقامًا على الورقة لهنيهة، ثم أومأ قائلاً: «أجل. قوية جدًا. قد تتمكن من إيقاف رصاصة من عيار 22، أو حتى من عيار 9 ملم».

ظل ديفيد لفترة من الوقت يقطر الدماء على لحيته أيضًا، لكن الأب أجبره على إزالتها حين صار من الصعب عليه أن يُحرّك رأسه. وكان كل ما تبقى منها شاربٌ طويل بعض الشيء يشبه شارب فو مانتشو.

سأل ديفيد بنبرة حازمة، وهو يهز كتفي مايكل: «أين كنت؟».

كان يتحدث لغة «بيلابي» وهي لا تشبه الإنجليزية في أي شيء، ولا تشبه أي لغة حديثة أخرى. تابع ديفيد: «كنت تضيع وقتًا في الغابة بلا هدف، أليس كذلك؟ لقد أنهيت مهمتك منذ أسابيع! إياك أن تكذب علي!».

كاد مايكل يُصاب بنوبة زعر؛ دارت عيناه في محجريهما بجنون، وصار كلامه متقطعًا، يستحضر الكلمات بجهد جهيد.

- كنت... مو - سافرًا.

- مو - سافرًا؟ أتعني «مسافرًا»؟ مسافرًا أين؟

- كنت مع... مع... الكائنات الصغيرة. أمرني الأب. أمرني الأب أن أدرس طرق الحيوانات المسالمة والصغيرة.

- طلب منه الأب أن يدرس سلوك الفئران.

كانت هذه الترجمة من جينيفر التي أَلقت بتعليقها من وراء كتفها وهي تنخر من ثقل الحجارة: «كيف تتحرك. وكيف تختبئ وما شابه».

صرخ بها ديفيد: «عودي إلى العمل! أنتِ تضيعين النهار كله!».

عادت جينيفر بتناقل إلى كومة الصخور ورفعت صخرةً أخرى وهي تئن تحت حملها. وديفيد بطوله الذي تجاوز الأقدام الستة وبنيته العضلية القوية، يتبعها بعينه. ظنّت كارولين أنها رأت شبح ابتسامة على وجهه. ثم أعاد انتباهه مجددًا إلى مايكل: «آه. الفئران. من بين كل الحيوانات اخترت هذه!». هزّ رأسه في استياء وأكمل: «أتعرف، لم أظن يومًا أن ما سأقوله ممكن، لكن ربما تفوقت على كارولين في انعدام الفائدة».

أما كارولين، آمنة في مخبئها السري، فقد أتت بإيماءة وقحة.

أسقطت جينيفر في عُجالة صخرة أخرى بين الشجيرات، فدوى ضجيج عنيف. أقامت ظهرها لاهثةً ومسحت جبهتها بيد مرتعشة.

- كارولين؟ ماذا؟ أنا... لا أعرف... أنا ...

- كُفَّ عن الكلام. والآن دعني أستوضح الأمر: بينما كنا جميعًا نقتل أنفسنا في محاولة العثور على الأب، كنت أنت هناك تلعب مع حفنة من «الفئران»؟

- الفئران... أجل. فكرت...

رَنَّ صوت فرقة خفيض في أنحاء الساحة المكشوفة. وكارولين التي كانت خبيرة بصفعات ديفيد أجفلت مجددًا. وحدثت نفسها أنه: «قد استخدم قوته كلها في تلك الصفعة».

قال ديفيد: «لم أسألك عما «فكرت فيه». الحيوانات لا «تفكر». أليس هذا ما تريد أن تصير عليه يا مايكل؟ حيوانًا؟ بالحديث عن الموضوع، أليس هذا ما أنت عليه فعلًا؟».

أجاب مايكل بنبرة رقيقة: «قل ما تحب».

كان ديفيد مولياً ظهره لكارولين، لكنها استطاعت تصوّر وجهه بوضوح. سيبتسم، على الأقل سيرتسم شبح ابتسامة على وجهه. وحدثت نفسها: «لو أن الصفعة سببت نزفاً، لربما يتكرم علينا بنظرةٍ إلى غمازتيه حين يبتسم ابتسامة عريضة».

- اخرس... فحسب. أنت تصيبني بالصداع. اذهب لمساعدة جينيفر أو افعل أي شيء.

زأر واحدٌ من أسود الجبال التي تحيط بمايكل، قاطعها مايكل بعواء خفيض فسكتت على الفور.

ضاقت عينا كارولين، فمن وراء ديفيد رأت من حركة العشب على الطرف الغربي للوادي أن اتجاه الريح يتغير. وفي لحظةٍ سيقف ثلاثتهم في الاتجاه المقابل لحركة الريح، عوضاً عن أن يقفوا في اتجاه الريح كما كانوا، وهذا يعني أنهم سيشمون رائحتها. وفي أثناء الوقت الذي قضته مع الأمريكيين تأقلمت كارولين مع بيئتهم إلى حد أن عطورهم -مارلبورو وشانيل وفيدال ساسون- لم تعد تُدَمِّع عينيها، لكن مايكل وديفيد لم يتأقلموا عليها. ومع قدوم الريح من اتجاه الغرب، لن يدوم اختباؤها طويلاً.

خاطرت كارولين بالتحديق إلى أعينهم مباشرةً، وكانت إيشا قد علّمتها أنها بهذا الفعل تجذب الانتباه، لكنّ الإتيان به لا مفرّ منه أحياناً. والآن راحت تأمل أن يتشتت انتباههم بشيءٍ إلى جهة الشمال من موقعها. وكما هو متوقع، بعد هنيهة التقطت عينا مايكل عتّة ترفرف لتهبط على ركام الحجارة الذي يُحدد قبر مارجریت. تبعه ديفيد وأسود الجبال بأعينهم كما تفعل الضواري تماماً. وسرعان ما استغلت كارولين تلك اللحظة لتتسلل عائدة إلى الدغل.

دارت حول الهضبة، جنوباً ثم شرقاً. ولما صارت على مسافة نصف كيلو متر منهم، عادت إلى نقطة البداية مُجدداً، لكنها تسير هذه المرة دون حذر زائد، وأعلنت عن وصولها حين سحقت غصناً تحت قدمها عمداً.

قال ديفيد: «آه، كارولين! تبدين أشدّ صخباً وحماسة من ذي قبل. ستصيرين أمريكية حقيقة قريباً. لقد سمعتك تتعثرين طيلة الطريق من سفح الهضبة إلى هنا. تعالي».

ففعلت كارولين كما أمرت.

رمق عينيها وتغلغل فيهما وهو يُداعب خدها في رقة بأصابعه المسوَّدة من الدماء المتخثرة.

- في غياب الأب، يجب على كل واحد منّا أن يُراعي الاعتبارات الأمنية. فعبء هذا الحذر يقع على عاتقنا جميعاً. أتفهمين؟

- بالتأ

كان ما يزال يلاطف خدها بيده، وباليد الأخرى سدّد لها لكمة أصابت الضفيرة البطنية⁽¹⁾ أعلى بطنها. كانت قد توقعت هذا -حسناً، ربما هذا أو شيء من هذا القبيل- مع ذلك فرّ الهواء من رثتيها. لم تسقط على ركبتها رغم ذلك، وحدثت نفسها وهي تتلذذ بالمذاق المعدني لمقتها إياه: «على الأقل لم أمنحه اللذة التي كان يشعر بها إذا فقدت توازني».

دقق ديفيد النظر إليها بعينين فتآكتين. ولمّا لم يرَ منها أي بادرة تمرد، أوماً في استحسان وانصرف.

- اذهبي وساعديهما في إزالة ركام القبر.

(1) الضفيرة البطنية العصبية: هي ضفيرة عصبية ذاتية تتكون من عقد عصبية متداخلة، بجوار الشريان الأورطي، تقع حول أصول التفرعات الشريانية الخارجة من الأورطي البطني، على مستوى الفقرة القطنية الأولى. (المترجمة)

أجبرت كارولين نفسها على أخذ نفس عميق، وبعد هنيهة انقشع الضباب الذي خيم على زوايا رؤيتها. سارت نحو ركام قبر مارجريت. وعُشب الخريف الجاف يُدغدغ ساقها العاريتين. هدرت شاحنة تمر بالطريق السريع 78، امتصته الأشجار الكثيفة فجاء مكتومًا.

قالت كارولين: «مرحبًا جين. مرحبًا مايكل. منذ متى وهي ميتة؟». لم يجبها مايكل بالكلام، لكنه لما اقترب منها، تنشق عنقها بمودة، فبادلته التنشق في تهذيب.

أجابت جينيفر: «مرحبًا كارولين».

أسقطت جينيفر الحجر الذي تحمله بين الشجيرات ومسحت العرق عن حاجبها. ثم أضافت بعينين محتقنين بالدماء: «إنها ميتة منذ آخر اكتمال للقمر. إذن، كم من الوقت مرّ؟ نحو أسبوعين إلى الآن».

في الواقع، كان قد مرّ ما يقارب أربعة أسابيع. حدثت كارولين نفسها بقليل من العبوس: «إنها منتشية مجددًا». ثم أضافت بمزيدٍ من التسامح: «لكن مَنْ يمكنه لومها على ذلك؟ لقد كانت بمفردها مع ديفيد».

كان كل ما أجابت به كارولين: «يا إلهي! هذه مدة أطول من المعتاد. ماذا تفعل كل تلك المدة؟».

ألقت عليها جينيفر نظرة استغراب وأجابت: «تبحث عن الأب بالطبع. ماذا تظنين أنها تفعل؟».

رفعت كارولين كتفها في لا مبالاة: «لن نعرف أبدًا».

مثلما يقضي مايكل معظم وقته مع الحيوانات، تشعر مارجريت بارتياح شديد في رفقة الموتى.

- هل حالفك أي حظ في عودتها؟

أجابت جينيفر وهي تشير بعينيها إلى كومة الصخور: «سنرى قريبًا». فهمت كارولين مغزى إيماءتها وسارت إلى كومة الصخور ورفعت صخرة متوسطة الحجم. عمل ثلاثتهم معًا في صمتٍ مُطبق وكفاءة سريعة مكتسبة من التدريب. ونتيجةً لانشغال ثلاثتهم بالمهمة، لم يمض طويلاً حتى رُفعت كومة الصخور كلها، متناثرة في أنحاء الشجيرات المحيطة بالساحة المكشوفة. لم تهبط الأرض من تحت كومة الصخور إلا قليلاً منذ الدفن. كانت

التربة ما تزال لينة نسيبًا، انحنوا على ركبهم وراحوا يحفرون التربة بأيديهم. لمَّا تعمَّق الحفر ستة أقدام صارت رائحة جثة مارجريت نفَّاذة. وكتمت كارولين رغبة في القيء كان سببها أنها لم تتولَّ مهمة نبش القبر منذ بعض الوقت. حرصت كارولين على ألا يراها ديفيد، ولمَّا صار عمق الحفرة قرابة قدمين لامست يدها شيئًا طريًّا. فقالت: «وصلتُ إليها».

ساعد مايكل في التخلص من الأوساخ. وكانت مارجريت جثة بنفسجية منتفخة ومتعفنة، وبدا محجرا عينيها كقدرين يغليان بالديدان. رفعت جينيفر نفسها إلى خارج القبر، وذهبت لجمع حاجياتها. وما إن كُشف عن وجه مارجريت ويديها، لم يُضع كارولين ومايكل وقتًا وخرجا من الحفرة من فورهما.

أخرجت جينيفر غليونًا فضيًّا صغيرًا من حقيبتها، وأشعلته بثقاب، ثم أخذت نفسًا عميقًا. أعقب ذلك تنهيدة مثقلة منها ووثبت إلى داخل الحفرة ثم شرعت في عملها. كانت موهبة جينيفر لا تخطئها أي عين سواء كانت منتشية أم لا. ومنذ عام منحها الأب وسام التقدير الأعظم، متنازلًا لها عن وشاح الشفاء الأبيض. وبذلك صارت، أعني هي وليس الأب، نابغة فهرسها. وكانت الوحيدة من بينهم من كرَّمها الأب كل هذا التكريم.

هذه المرة كان الجرح القاتل أخدودًا رأسياً في قلب مارجريت، يتخذ أبعاد سكين ديفيد عرضًا وعمقًا. اعتلت جينيفر الجثة ووضعت يدها على الجرح. ظلَّت على حالها هذا للمدة نفسها التي تستغرقها دورة ثلاثة أنفاس. راقبت كارولين المشهد باهتمام بالغ، موليةً الاهتمام للمراحل التي تنطق فيها جينيفر «العقل والجسد والروح» بأنفاس خافتة. وحرصت على ألا تبدي أي إشارة خارجية بما تفعله، فقد كانت دراسة أي علم خارج فهرسها، حسنًا، هذا فعل لن ترغب في أن يُمسك بك أحدهم وأنت تأتي به.

تحرك مايكل إلى الجانب الآخر من الساحة المكشوفة، بعيدًا عن الرائحة وراح يصارع أسود الجبال برفقته مبتسمًا. ولم يُعر بقية البشر من حوله أي اهتمام. أما كارولين فجلست مسندةً ظهرها إلى إحدى سياق الثور البرونزية، شديدة القرب بما يكفي لتترصد عمل جينيفر. ولمَّا رفعت جينيفر يدها عن الجثة، كان الجرح في صدر مارجريت قد اختفى.

نهضت جينيفر واقفة في القبر، خمَّنت كارولين أن وقوفها لاستنشاق شيء من الهواء النقي عوض عن أي مقاصد طبية. كانت رائحة النتانة بشعة

بما يكفي حيث تجلس كارولين، فما بالك بها داخل الحفرة. أخذت جينيفر نفساً عميقاً، ثم ركعت على ركبتيهما مجدداً. في هذه المرة قطبت حاجبيها، ونفضت إحدى الحشرات، ثم زادت من انحنائها على الجثة ووضعت فمها الدافئ على فم مارجريت البارد. ظلت على عناقهما هذا مقدار نفخ ثلاثة أنفاس، ثم عادت إلى الوراء وهي تكافح رغبة في القيء وشرعت تدلك بشرة مارجريت بمستحضرات مرطبة مختلفة. ومما أثار الاهتمام أنها راحت تدلك المستحضر في أنماط من الرموز المكتوبة للغة البيلابية أولها هو «الطموح» ثم «الإدراك» وأخيراً «الندم».

لما انتهت جينيفر نهضت وأسهرت إلى خارج القبر. وشرعت في السير نحو كارولين ومايكل، لكن عينيها اتسعتا بعد خطوتين. أحاطت فمها بيدها وارتدت إلى الشجرات الكثيفة ثانية ثم تقيأت. ولما فرغت معدتها عادت لتتنضم إلى كارولين. كانت خطواتها بطيئة ومهزوزة عن ذي قبل. وشريط رفيع من العرق يتلأل على حاجبها.

سألت كارولين: «تجربة سيئة؟».

أجابت جينيفر بأن أدارت رأسها إلى الجانب الآخر وبصقت. جلست بالقرب من كارولين وأراحت رأسها على كتفها لبرهة. ثم أخرجت غليونها الفضّي الصغير -هدية أمريكية من كارولين- وأشعلته ثانية. تعباً هواء الساحة المكشوفة بدخان الماريجوانا. ثم عرضته على كارولين.

- لا، شكرًا.

رفعت جينيفر كتفيها في لا مبالاة ثم سحبت نفساً آخر أعمق مما قبله. توهج الفحم المشتعل على طرف الغليون وانعكس على اللون البرونزي المصقول لبطن الثور. ثم قالت: «أتساءل أحياناً....».

- تتساءلين عن ماذا؟

- عما إذا كان الأمر يستحق هذا العناء. أعني البحث عن الأب.

تراجعت كارولين متسائلة: «هل أنت جادة؟».

تنهدت جينيفر: «أجل، أعني... لا. ربما. لا أدري. كل ما في الأمر... أنني أتساءل. هل سيسوء الوضع حقاً عما هو عليه؟ لو أننا تركنا الأمر، وسمحنا للدوق أو أي شخص كان، أن يتولى البحث عنه؟».

- لو استعاد الدوق قدراته إلى الحد الذي يستطيع معه التغذية مجددًا، ستكون حياتنا المعقدة هذه شيئًا من الماضي نترحم عليه. ولن يطول الأمر أيضًا. ربما خمس سنوات. وربما عشر.

أشعلت جينيفر غليونها مجددًا: «نعم، أعرف. وبدلاً من الدوق لدينا الأب. على الأقل... حسنًا على الأقل أسلوب الدوق بلا ألم. بل وهادئ حتى». أبدت كارولين وجهًا عابسًا ثم ابتسمت: «قضيتي أسابيع عصيبة مع ديفيد، أليس كذلك؟».

- لا، هذا ليس حسنًا ربما. بما أنك ذكرت الأمر، كانت في الحقيقة أسابيع عصيبة جدًا. وأين كنت أنت على أي حال؟ كان بإمكانني الاستعانة بمساعدتك.

رَبَّتْ كارولين على كتفها وقالت: «أنا آسفة. والآن أعطني هذا». مرَّرت لها جينيفر الغليون، فاستلَّت نفسًا صغيرًا. استأنفت جينيفر: «لكن ألا يزعجك هذا؟ هذا سؤال جاد».

- ماذا؟

لَوَّحت جينيفر بذراعها بمدى ضم القبر وجاريسن أوكس والثور، وقالت: «كل هذا».

فكَّرت كارولين في الأمر لبرهة: «لا. ليس تمامًا. لم أعد أنزعج من شيء». نظرت إلى شعر جينيفر ثم التقطت دودة كانت عالقة به. راحت تتلوى الدودة على طرف إصبع كارولين وهي تضيف: «كان يزعجني من قبل، لكنني تأقلمت». وسحقت الدودة بين طرفي إصبعيها: «يمكن للإنسان التأقلم على أي شيء تقريبًا».

استعادت جينيفر الغليون: «ربما يمكنك أنت. يخطر ببالي أحيانًا أننا الوحيدتان اللتان ما زالتا محتفظتين بقواهما العقلية».

خطر ببال كارولين أن تُرَبَّت على كتف جينيفر أو تعانقها أو شيء من هذا القبيل، لكنها عدلت عن الفكرة. كان الحديث بينهما أكثر حميمية مما تشعر هي بالارتياح معه. لذلك في محاولة منها لتغيير دفة الحديث أشارت باتجاه القبر: «كم من الوقت سيمضي قبل أن...؟».

أجابت جينيفر: «لست متأكدة. ربما يمضي بعض الوقت. لم تهبط إلى العالم السفلي مدة طويلة كهذه من قبل». كثر وجهها وبصقت مجددًا: «مقرف».

قالت كارولين: «مهلاً، أحضرتُ لك شيئاً».

راحت تفتش في حقيبة تسوقها البلاستيكية، ثم أخرجت نصف زجاجة من غسول الفم ليسترين.

أخذت جينيفر الزجاجة، وسألت: «ما هذا؟».

- ضعي بعضاً منه في فمكِ وتمضمضي به. لا تبلعيه. وبعد بضع ثوانٍ ابصقيه.

نظرت جينيفر إلى الزجاجة في ارتياب، محاولةً أن تُحدد ما إذا كانت تتعرض للسخرية أم لا.

- ثقي بي.

ترددت جينيفر لهنيهة ثم أخذت رشفة. واتسعت عيناها.

تابعت كارولين توجيهاتها بأن تتمضمض به، وراحت تُمثل المضمضة بنفخ خدها الأيسر أولاً ثم خدها الأيمن. وجينيفر تُقلدها.

- والآن ابصقيه.

فعلت جينيفر كما أمرت.

- شعور أفضل؟

- رائع! إنه ...

توقفت عن الحديث ونظرت من وراء كتفها نحو ديفيد. لم يكن ينظر نحوهما، لكنها أخفضت صوتها تحسباً: «إنه مدهش. عادةً أستغرق ساعات للتخلص من الطعم في فمي».

- أعرف. إنه اختراع أمريكي. يُسمى «غسول فم».

مررت جينيفر أصابعها على المُلصق لهنيهة ودهشة طفولية ترسم على وجهها. ثم مدت يدها بالزجاجة إلى كارولين في إحجام شديد.

- لا. احتفظي بها. لقد أتيتُ بها من أجلك.

لم تنبس جينيفر ببنت شفة لكنها ابتسمت.

- هل أنهيتِ عملك؟

أومأت جينيفر في إيجاب: «أظن ذلك. مارجریت جاهزة على أي حال، وقد سمعت النداء». ثم رفعت صوتها: «ديفيد؟ هل تحتاج مناً إلى شيء آخر؟».

كان ديفيد واقفاً يُولي ظهره لهما على حافة الجُرف، ينظر عبر الطريق السريع 78 إلى مدخل جاريسن أوكس. ولمّا سألته جينيفر لَوْح بيده في شروء.

رفعت جينيفر كتفها في حيرة: «أظن هذا يعني أن عملي هنا انتهى». والتفتت إلى كارولين: «إذن ما رأيك فيما يحدث؟».

أجابت كارولين: «لا أدري. لو أن الأب يعيش بين الأمريكيين، فقد عجزت عن العثور عليه. هل عرفت شيئاً؟».

- يقول مايكل إنه لا يعيش بين الحيوانات، الأحياء منهم أو الأموات.

- ماذا عن الآخرين؟

رفعت جينيفر كتفها غير متيقنة: «حتى الآن، لا أعرف إلا ما توصل إليه ثلاثتنا. سينضم إلينا البقية قريباً».

تمددت على العشب وأراحت رأسها في حجر كارولين: «شكراً لكِ على... ماذا يسمونه؟».

- ليسترين.

رددت جينيفر: «لي-ست-رين. شكراً لكِ». وأغلقت عينيها.

على مدار بقية اليوم، توافد المكتبيون الآخرون إلى الساحة المكشوفة، أزواجاً وفُرادى. يحمل بعضهم الهموم بين جنباته. تُمسك أليشيا بالشمعة السوداء، ما تزال مشتعلة كما كانت في الأطلال الذهبية لنهاية الزمان. ورايتشل وأطفالها الخيالون يهمسون فيما بينهم عن السيناريوهات المستقبلية التي لن تحدث أبداً. والتوءمان بيتير وريتشارد يراقبان باهتمام شديد دخول المكتبيين وهم يملؤون اثنتي عشرة نقطة للحلقة المبتورة، ويدرسان تنظيمًا متعمقًا يغفل عنه الآخرون جميعًا. والعرق على بشرتهما البنية يتلأأ على ضوء النار. وأخيرًا قبيل الغروب مدّت مارجریت يداً شاحبة مرتجفة خرجت من ظلام القبر إلى نور الدنيا.

أعلنت جينيفر دون أن توجّه حديثها لأحدٍ بعينه: «لقد عادت».

سار ديفيد إلى القبر مبتسمًا، ومدّ يده ليأخذ بيد مارجريت. بمساعدته استطاعت النهوض والوقوف على ساقين مرتعشتين، والأوساخ تتساقط من حولها كما يتساقط المطر. ثم رفعها ديفيد وأخرجها من القبر.

- مرحبًا يا حبيبتي!

وقفت أمامه لا تتعدى قامتها ساحة صدره، وأمالت رأسها إلى الوراء مبتسمة. نفّض عنها ديفيد أقذر الأوساخ العالقة بها، ثم رفعها إليه من عند المؤخرة وقبّلها، قبلةً طويلة حارة. تدلت قدماهما الصغيرتان رخوتين على بعد ستة أقدام تقريبًا فوق سطح الأرض السوداء. عرض لكارولين أنها عاجزة عن تخمين لون الثوب الذي دُفنت به مارجريت. ربما كان رماديًا متفحّمًا، أو درجات البشرة الطبيعية لدمية بهت لونها بفعل التعرض الطويل للشمس. أيًا كان اللون الحقيقي للثوب، فقد اندمج جيدًا بمارجريت نفسها. وعلّقت كارولين في قرارة نفسها: «نادرًا ما نراها هنا. وكل ما بقي منها حقيقةً هو الرائحة».

ترنحت مارجريت لهنيئة ثم جلست على كومة من التراب الناعم إلى جانب القبر. غمز لها ديفيد غمزة ذات مغزى ومرر لسانه على أسنانه، فضحكت مارجريت ضحكة بلهاء، وكتمت جينيفر شعورًا بالتقيؤ مجددًا.

قرفص ديفيد إلى جانب مارجريت وراح ينفش خصلات شعرها الأسود المُغبر. ثم نادى ريتشارد وبيتر والبقية: «حسنًا. ماذا تنتظرون؟ الجميع هنا الآن. اتخذوا أماكنكم».

اجتمعوا في دائرة غير مكتملة. وراحت كارولين تراقب ديفيد وهو يرمق الثور مضطربًا، وفي آخر المطاف نهض ليقف موليًا ظهره له. حدّثت كارولين نفسها: «لا يطيق النظر إليه إلى الآن».

استهل ديفيد الحديث: «حسنٌ جدًّا. قضيتم جميعًا مدة الشهر المطلوبة. من منكم سيعطيني إجابات؟».

لم ينبس أحدهم ببنت شفة.

- مارجريت؟ أين الأب؟

أجابت مارجريت: «لا أدري. ليس موجودًا في الأراضي المنسية. ولا يتجول في الظلمة الخارجية».

- إذن، الأب ليس ميتًا بعد.

- ربما ليس ميتًا.

- «ربما»؟ ماذا تعنين؟

بقيت مارجريت صامته لبعض الوقت. ثم أجابت: «سيختلف الأمر لو أنه مات في المكتبة».

- وكيف يختلف؟ ألن يذهب إلى الأراضي المنسية؟

- لا.

- إلى أين سيذهب إذن؟

بدت مارجريت كمن يراوغ وهي تُجيب: «لا يجدر بي القول».

فرك ديفيد صدغيه: «اسمعي، أنا لا أطلب منك أن تتحدثي عن فهرسك، ولكن... لقد غاب لفترة طويلة. علينا أن نفكر في كل الاحتمالات. وضحي لنا بشكل عام فحسب، ماذا سيحدث لو أنه مات داخل المكتبة؟ هل...».

قاطعته كارولين بنبرة لا تشبه الصياح: «لا تكن سخيًا». كان وجهها محتقنًا بالدماء: «لا يمكن أن يكون الأب ميتًا، لا في المكتبة ولا في أي مكان لعين آخر!». تتمم الآخرون بالموافقة، وهي تُضيف: «إنه... إنه الأب. أتعرف ماذا يعني هذا؟».

بدت أمارات الاستياء على وجه ديفيد لكنه لم يُعلق. ثم سأل: «مارجريت؟ ما رأيك؟».

رفعت مارجريت كتفها في لا مبالاة ظاهرة: «قد تكون كارولين على حق».

لم يبدُ ديفيد مقتنعًا بهذا الجواب: «مم. رايتشل؟ أين الأب؟».

أجابت وهي تفرد يديها لتتسع الصفوف الهادئة للأطفال الوهميين المصطفين من خلفها: «لا ندري. ما نعرفه أنه ليس موجودًا في أي مستقبل محتمل يمكننا رؤيته».

- أليشيا؟ ماذا عن المستقبل الفعلي؟ أهو موجودٌ هناك؟

مررت أصابعها خلال شعرها الأشقر الداكن في توتر: «لا. تحققت من المستقبل وصولًا إلى الموت الحراري في الفضاء العادي. لم أجد شيئًا».

- ليس موجودًا في أي مستقبل وليس ميتًا. كيف يعقل هذا؟

نظرت أليشيا ورايتشل إلى بعضهما وأبدتا حيرتهما. ثم قالت رايتشل: «لا بد أنه لغز، لا أستطيع تفسيره».

- هذا ليس جوابًا كافيًا.

- ربما لأنك تسأل الأسئلة الخاطئة.

سار ديفيد نحوها، وهو يرفع جانبي شفثيه في ابتسامة كريهة، وعضلات فككه تتيبس في غضب: «حقًا؟».

شحب وجه رايتشل، وهي تجيب: «لم أقصد ...».

تركها ديفيد تتدلل لبرهة، ثم لامس شفثيتها بإصبعه: «لاحقًا».

غاصت رايتشل في الأرض ورجفتها بادية للعيان تحت ضوء القمر.

- بيتر، يفترض أنك ماهر فيما يتعلق بكل الأشياء المجردة. الأرقام وما إلى ذلك. ما رأيك فيما يحدث؟

تردد بيتر، ثم قال: «هناك جوانب من عمل الأب لم يُسمح لي بالاطلاع عليها ...».

- أخفى الأب أمورًا عنًا جميعًا. أجب عن سؤالي.

أجاب بيتر: «قبل أن يختفي كان يعمل على شيء يُسمى تكامل الارتداد، وهو مفهوم يعني أن الكون منظم على نحو تكاملي. أي أنه مهما فهمنا من بواطن الكون، ومهما حللنا من ألغاز سيظل كل جواب يولّد سؤالًا جديدًا. وبدا الأب ...».

- آه! بحق الجحيم. هل تعرف أين الأب أم لا؟

- ليس تمامًا، ولكنك لو تتبععت هذا الخيط من التفكير، ربما تجد تفسيرًا ...

- ليس مهمًا.

- لكن ...

- توقف عن الكلام. كارولين، اجتمعي ببيتر لاحقًا وترجمي ما يقوله إلى شيء يفهمه الناس العاديون.

أجابت كارولين: «بالتأكيد».

- مايكل، ماذا عن «التل البعيد»؟ هل وجدت أي دليل على وجوده هناك؟

التل البعيد هو فردوس إله الغابة، حيث تذهب جميع الوحوش الصغيرة الصالحة بعد موتهم، شيءٌ أشبه بذلك على أي حال. لم تُدرك كارولين من قبل أن هذا الفردوس حقيقي. ولهذا السبب، لم تكن واثقة من قبل أيضًا أن إله الغابة حقيقي هو الآخر حتى هذه اللحظة.

- لا. ليس هناك.

في تلك الأثناء، تحسَّن حديث مايكل قليلًا.

- وماذا عن إله الغابة؟ هل هو ...

- إله الغابة نائم، ولم يحشد أي جيوشٍ ضدنا. تشيع المؤامرات المعتادة بين قطيعه، لكن لا شيء منها يهددنا مباشرة. ولا أرى سببًا يجعلني أظن ...

علّق ديفيد: «تظن؟ أنت؟ هذا مضحك حقًا». وأشاح بوجهه عنه: «إيميلي، ماذا عن ...».

قاطعه مايكل: «هناك شيءٌ آخر. سيأتينا زائر».

حدّق إليه ديفيد: «زائر؟ لماذا لم تُخبرني بهذا من قبل؟».

- لكمثني في فمي وأمرتني أن أظل صامتًا.

تشنّجت عضلات فك ديفيد مجددًا: «والآن أملك ألا تصمت. مَنْ القادم؟».

- نوبونونجا.

- ماذا؟ «إلى هنا؟»

أجاب مايكل: «إنه قلق على سلامة الأب، ويرغب في التحقق بنفسه».

علّقت كارولين: «اللعنة!».

صُدمت بالخبر؛ لم تكن تتوقع مجيء نوبونونجا بهذه السرعة. لكن ذهنها الحاضر آنذاك مكَّنّها من الحديث بصوتٍ خافت وبلغة إنجليزية، فلم يلتفت لها أحد.

- متى سيصل؟

قطّب مايكل حاجبيه: «س... سيصل، مم... حين يصل إلى هنا؟».

صرّ ديفيد على أسنانه: «هل لديك أي فكرة متى سيكون هذا؟».

- في وقتٍ لاحق.

- ومتى هذا بالتحديد؟

كانت يدُ ديفيد قد تكوَّرت في قبضة متأهبة.

علَّقت جينيفر بصوت خافت: « لا يفهمك يا ديفيد. هو لا يرى الوقت كما يراه الناس. لم يعد يراه بتلك الطريقة. ولكمُه لن يفيد ولن يغير ذلك في شيء».

راح مايكل ينقل عينين فزعتين بين جينيفر وديفيد: «لقد رآه الفنران! إنه يقترب منّا».

أرعى ديفيد قبضته، وفرك صدغيه، ثم قال: «انس الأمر، لا يهم. يصل نوبونونجا وقتما يصل. كل ما يمكننا فعله هو الترحيب به. بيتير، ريتشارد.. اجمعوا التمام».

انتفض التوأمان واقفين واندفعا ليطيعا الأوامر.

- كارولين! أريد منك العودة إلى أمريكا. نحتاج إلى قلب طاهر. سنقدمه إلى نوبونونجا عندما يصل. هل باستطاعتك إنجاز هذا الأمر؟

تساءلت كارولين في تردد: «قلب طاهر؟ ومن أمريكا؟ هذا ممكن».

أجابها مسيئاً الفهم: «الأمر بسيط. أحدثي قطعاً خلال الأضلاع فحسب». وحرَّك أصابعه فيما يشبه المقص عبر الهواء: «هكذا. وإذا لم تستطيعي إخراجِه من الصدر، أرسلني في طلبني».

- أجل يا ديفيد.

- هذا كل ما لدينا لهذه الليلة. كارولين، يمكنك الذهاب متى ما كنت جاهزة. أما البقية فيبقون على مقربة.

اختلس نظرةً مضطربة إلى الثور، ونادى: «ريتشارد، بيتير، أسرعوا في إحضار التمام. أريد.. مم.. العودة إلى منزل السيدة ماجيلكاتي». وغمز لمارجريت: «سيجهز العشاء قريباً».

جلست رايتشل على الأرض، واجتمع أطفالها حولها. أرادت كارولين أن تتحدث مع مايكل، لكنه وأسود الجبال برفقته قد اختفوا إلى داخل الغابة. بسطت جينيفر فُرشها الجلدية للنوم وأنت وهي تستلقي عليها. وانزلقت مارجريت في مدار حول ديفيد.

نبش ديفيد في حقيبة ظهره لبرهة، ثم قال: «هذه لك يا مارجريت. لقد أحضرتُ هدية». وأخرج الرأس المفصول عن جسد رجلٍ عجوز، ورفع الرأس من لحيته الطويلة الهشة. أرجح الرأس يمينًا ويسارًا عدة مرات قبل أن يقذف بها إلى مارجريت. أمسكتها بكلتا يديها، وهي تنتهّد قليلاً من ثقلها. مبتهجةً، ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة، فندت عن أسنان سوداء.

- شكرًا لك.

جلس ديفيد إلى جانبها، وأزاح خصلات الشعر عن عينيها. ثم صاح من وراء كتفيه: «كم سيستغرق الأمر؟».

- ساعة.

أجاب ريتشارد وهو يمرر أصابعه في إناءٍ من التمام: خصلات شعر إله الغابة التي أحضرها مايكل، والشمعة السوداء، وقصاصة القماش من فستان كارولين الذي يبسّته الدماء المتخثرة، وقطرة الشمع المتساقطة من الشمعة السوداء. ستتخذ هذه الأشياء دور العُقد في أداة تتبع متعددة الأبعاد، يوقنون حقًا -حسنًا، على الأقل لديهم شبه يقين- أنها سترشدهم إلى مكان الأب. حسنًا... ربما ترشدهم، فكارولين لديها شكوكها.

وافقه بيتر: «لن يستغرق أكثر من ذلك».

أخذت مارجريت الرأس في حجرها وراحت تلاطفه؛ تداعب خديه وتهدل له كما يهدل الحمام وتُمسّس حاجبيه الكثّين. وبعد مضي لحظات الاهتمام، رفرف جفنا الرجل الميت، ثم فتح عينيه.

دُهِشت مارجريت: «عينان زرقاوان! رائع يا ديفيد، شكرًا لك!».

هزَّ ديفيد كتفيه في تواضع.

اختلست كارولين النظر. ربما كانت عينا الرجل زرقاوين ذات يوم، أما الآن فصارتا تقريبًا غائرتين تغطيهما غشاوة. لكن كارولين تعرّفت الرأس، كان واحدًا من الشخصيات الهامشية في إحدى حكومات الأب، وذات يوم كان رئيس وزراء اليابان. عادةً ما يتمتع رجل كهذا بحماية مشددة. وحدثت نفسها: «لا بد أن ديفيد يُدرك مدى جرأته». رمش الرأس ثانية وثبّت الرجل عينيه على مارجريت. اضطرب لسانه وبدأت شفّته تتحركان، مع أنه دون رثيته لن يستطيع إصدار أي صوت بالطبع.

سأل ديفيد: «ماذا يقول؟».

بعد ستة أسابيع من النفي، تعلّم معظمهم شيئاً من الإنجليزية الأمريكية على الأقل، لكن كارولين الوحيدة التي تتحدث اليابانية.

مالت كارولين بالقرب من الرأس، وأنفها يشمئز من الرائحة. أمالت رأسها إلى الجانب ولا مست خدي الرجل، ثم قالت باليابانية: «**من فضلك، أعد ما قُلته ثانيةً يا سيد يامادا**». راح الرجل الميت يحاول ثانيةً، متوسلاً إليها بعينيه الضريرتين.

اعتدلت كارولين في جلستها ووضعت يديها في حجرها كما تفعل الخجول؛ اليد اليسرى فوق اليمنى بحيث تُخفي كفّ الواحدة منها أصابع الأخرى عن الأنظار. كانت تعابير وجهها هادئة، بل وهانئة أيضاً. تعي أنه يسهل على إيميلي قراءة أفكارها. وديفيد أيضاً يستشعر الأفكار، الطابع الأساسي لها على الأقل. يعرف حين يُبيّئ له أحدهم سوء نية. وفي المعارك يمكنه الولوج إلى عقول أعدائه، وفهم إستراتيجياتهم، ورؤية أسلحتهم التي ربما يرفعونها ضده. وظنّت كارولين أن له قدرة على التعمق في رؤيته إذا كانت هناك حاجة لذلك. لكن هذا لا يهم. لو أن إيميلي أو ديفيد قررا الولوج إلى أفكار كارولين، فلن يجدا سوى الرغبة في المساعدة.

لا شك أن العاطفة «الحقيقية» هي الجوهر الكامن للذات. لا يمكن إنكار المشاعر التي تبثها فينا، ولا يمكن تجاهلها، ولا يمكن إعادة توجيهها لوقتٍ طويل. ولكن بالتدريب والاهتمام يمكن إخفاؤها.

قالت كارولين: «إنه يسأل عن تشيكو وكيكو-شان. أظن أنهما ابنتاه. يريد أن يعرف ما إذا كانتا بخير».

أجاب ديفيد: «آه. أخبريه أنني بقرتُ بطنيهما ونزعت أحشاءهما لأجل التدريب. وأمهما أيضاً».

- أهذا صحيح؟

أجابها ديفيد بهزة من كتفيه في لا مبالاة.

وجهت كارولين حديثها باليابانية للرأس: «الجميع بخير يا يامادا-سان. والآن حان وقت الراحة، أليس كذلك؟».

أخبرته أنهم بخير وأن بإمكانه الاسترخاء الآن. سمح الرجل الميت لجفنيه أن يتدلّيا، فارتعشت دمعة وحيدة على طرف جفنه الأيسر. أمعنت مارجريت النظر إلى تلك الدمعة بعينين طامحتين متلائيّتين. ولما تحررت ونزلت على

خذّ يامادا، أمالت مارجريت رأسها كما يميل الطير رأسه عند الأكل، ولعقت الدمعة بمسحة وحيدة رشيقة من لسانها.

نفخ الرجل الميت خديه بالهواء ثم نفثه، بلحن هو الأرق والأتعس من بين ما سمعته كارولين من أصوات في حياتها. فضحك ديفيد ومارجريت معاً. ورسمت كارولين على وجهها ابتسامة مجاملة. ربما غالبتها الشفقة على الرجل المسكين؟ أو ربما الرائحة هي السبب. ومرة أخرى، لو كلف أحدهم نفسه العناء للاطلاع على أفكارها فلن يجد سوى القلق على الأب والرغبة الصادقة - وإن كانت رغبة متوترة قليلاً - في إرضاء ديفيد. لكن أطراف أناملها ترتجف لذكرى اهتزازات ضعيفة نقلها جذعُ رمح نحاسي اخترق أبدان أصدقائها، وفي قلبها تأججت كراهيتها لهم كما يتأجج لهيب شمسٍ سوداء.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل الثاني

البوذية للحمقى

1

«إذن... هل لك رغبة في اقتحام أحد المنازل؟».

تجمّد ستيف في مكانه لوقتٍ طويل وفغر فاه لقولها. ثم تنهّى إليه، من مكان قريبٍ من المشرب، صوت سلسلة من النقرات تصدر من أعماق الآلات الموسيقية الآلية، مما يعني أن أحدهم أسقط عملة معدنية في تجويفها. حطّ الجعة عن يديه إلى الطاولة دون أن يرتشف منها شيئاً، وراح يفكر: «ماذا كان اسمها؟ كريستي؟ كاثي؟».

أجابها أخيراً: «معذرة؟». ثم تبادر إلى ذهنه اسمها: «كارولين». وتابع: «أنتِ تمزحين، أليس كذلك؟».

سحبت نفساً من سيجارتها، فتوهج الفحم ملقياً ببريق برتقالي على نصف دزينة من أكواب خمر زجاجية ملطخة بالدهن وكومة صغيرة من عظام دجاجة. ثم قالت: «لا. أنا جادة تماماً».

أصدر صندوق الآلات الموسيقية الآلية طنيناً، وبعد برهة انفجرت الافتتاحية الرعدية لأغنية بيني جودمان «غني، غني، غني» في أرجاء الحانة،

مثل طبول الحرب لقبيلة بدائية ضالة. وفجأة صار قلب ستيف يردد في صدره.

- حسنًا. أنتِ لا تمزحين. لكن ما تتحدثين عنه جريمة خطيرة جدًّا.

لم تنبس ببنت شفة، واكتفت بالنظر إليه.

جاهد هو للعثور على حجة ذكية يقولها، لكن كل ما خرج من فمه كان: «أنا سبَّاك».

- لم تكن كذلك دومًا.

حدَّق إليها ستيف. ما قالته صحيح، لكن ما من سبيل لها لتعرف بهذا الأمر. كانت تراوده الكوابيس عن خوض حديث كهذا. وفي محاولة منه لإخفاء شعوره بالفزع، اختطف الجناح الأخير للدجاجة من الطبق وغمسه في صلصة الجبن الأزرق، لكنه توقف قبيل تناولها. أجنحة الدجاج هنا تُطهى جيدًا، ورائحة الخل والفلفل تُداعب أنفه في شيء يشبه التحذير. حينها قال: «لا أستطيع. عليَّ العودة إلى المنزل وإطعام بيتي».

- مَنْ؟

- كلبى. بيتى. إنه من سلالة كوكور ...

هزَّت رأسها رفضًا: «لهذا الأمر أن ينتظر».

حدَّث نفسه أن يُغير دفة الحديث، فقال مبتسمًا يائسًا: «هل أعجبك هذا المكان؟».

أجابت وهي تتصفح بأناملها المجلَّة التي كان يقرأها ستيف: «أعجبني جدًّا. أخبرني ماذا كان اسمه؟».

- وورويك هول. كان هذا المكان في العشرينيات حانة سرية للمشروبات المحظورة. ورثته كاثرى وهي المرأة التي تدير المكان، عن جدها، مع بعض الصور القديمة التي تُظهر المكان بشكله الأصلي. كاثرى من عشاق موسيقى الجاز، لذلك لما تقاعدت من عملها، رُمِّمت المكان وافتتحته ناديًا خاصًا.

ارتشفت كارولين من زجاجة الجعة: «صحيح». ثم التفتت لتتنظر إلى الصور المؤطرة: لوني جونسون، وروي إلدرديدج يحمل بوقه، وإعلان لحفل

شواء مأكولات بحرية كبير في الثالث والرابع من أكتوبر في عشرينيات القرن العشرين. «إنه مختلف».

- هو كذلك.

نفض ستيف سيجارة من علبة السجائر وعرض عليها اللعبة. التقطتها كارولين، حينها لاحظ أن أظفار يدها اليمنى ليست مطلية، بل ومقضومة حتى نقطة التقاء الجلد مع الظفر، وأن أظفار يدها اليسرى طويلة مقلّمة ومصبوغة بطلاء أحمر. حدث ستيف نفسه بغرابة ما رأى، ثم أشعل سيجارتيهما بعود ثقاب واحد، وقال: «بدأت المجيء إلى هنا لأنها الحانة الوحيدة في المنطقة حيث ما زال مسموحًا بالتدخين في الداخل، لكنه نال إعجابي تدريجيًا».

علّقت كارولين: «لِمَ لا تأخذ بعض الوقت للتفكير فيما عرضته عليك؟ أعرف أنني ألقيتُ بالأمر في وجهك فجأة. أين دورة مياه السيدات؟».

أجاب ستيف: «لا داعي للتفكير. الجواب هو لا. ودورة مياه السيدات في الخلف من هناك». وأشار بإبهامه من وراء كتفيه: «لم أدخل إلى دورة مياه السيدات من قبل، لكنني أعرف أنه في دورة مياه الرجال عليك أن تشد السلسلة النحاسية فوق المبولة ليتدفق الماء في المرحاض. لقد استغرقت برهةً لاكتشف الأمر». توقف عن الحديث قبل أن يسألها فجأة: «مَن أنتِ بالضبط؟».

أجابت كارولين: «قلتُ لك، أنا مكتبية».

- حسنًا.

في بادئ الأمر، أوحى له مظهرها إذ ترتدي سترة عيد الميلاد مزينة بتطريز أيل، ومن أسفلها سروال قصير ضيق يصلح لركوب الدراجة من سبانديكس، وحذاء مطاطي أحمر موصول بدفءات للساقين تعود إلى موضة ثمانينيات القرن العشرين، أوحى له كل هذا بأنها مصابة بانفصام الشخصية. أما الآن فصار يشك في استنتاجه.

حدّث نفسه: «حسنًا، ليست مريضة انفصام. ماذا إذن؟».

لم تُعنَ كارولين كثيرًا بالمظهر الشخصي، لكنها لم تفتقر إلى الجاذبية كذلك. ونبّهه حدسه إلى أنها في غاية الذكاء أيضًا. قبل نحو ساعة ونصف كانت تتسكع في المكان وهي تحمل زجاجتين من الجعة، قدّمت له نفسها وسألته إن كان بوسعها الجلوس معه. فأجابها ستيف، وهو الأعزب الذي لا يرتبط بأي شيء سوى كلبه، بالقبول طبعًا. تبادلوا الحديث لبعض الوقت،

كانت تمطره بالأسئلة وتُجيب عن أسئلته بردودٍ مبهمة. وطيلة كل ذلك الوقت كانت تمنع النظر إليه بعينين بنيتين داكنتين.

كان ستيف قد توصل بطريقة أو بأخرى إلى انطباع بأنها تعمل في الجامعة، ربما شيئاً مثل أستاذة لغويات؟ تحدثت الفرنسية إلى كاث، وأدهشت زبوناً آخر منتظماً، وهو إيدي هو، بطلاقتها في اللغة الصينية. وحدث نفسه: «هذه الصورة تتناسب أيضاً مع مكتبية». وراح يتخيلها بشعرها المجعد محاطة بأكوام مبعثرة من الكتب، وتتذمر وهي تشرب قهوتها من حجرة الموظفين، في كوب متسخ وتُخطط لعملية السرقة. ارتسمت على وجه ستيف ابتسامة عريضة وهز رأسه رفضاً: «مستحيل». ثم طلب دوراً آخر من الشراب.

هزمت الجعة كارولين في سباق العودة إلى الطاولة بفارق عدة دقائق. سكب ستيف لنفسه كأساً أخرى. ولما كان ثملاً، قرر أن يغير تشخيصه لها من انفصام الشخصية إلى «لا تبالي بالملابس اللعينة». «يدّعي» الكثيرون أنهم لا يبالون بأمر الملابس واختيارها، لكن هؤلاء الذين لا يبالون حقاً هم نادرو الوجود. وحدث نفسه: «لكني سمعتُ بهم من قبل».

كان هناك زميل لستيف في المدرسة الثانوية، اسمه بوب تقريباً، قضى عامين على جزيرة في جنوب المحيط الهادئ كجزء من مخطط غريب وناجح لتهرب المخدرات. ولما عاد كان فاحش الثراء، يمتلك سيارتي فيراري بحق السماء، لكنه يرتدي أي ملابس قديمة. تذكّر ستيف أيضاً أن بوب ذات مرة ... قالت كارولين: «لقد عدتُ. آسفة على التأخير».

كانت لها ضحكة بهيجة.

أجابها مشيراً إلى الشراب: «آملُ أنكِ مستعدة لدور آخر».

- بالتأكيد.

سكب لها الشراب في الكأس، ثم قال: «لو أنكِ لا تمانعين ما أقوله، هذا غريبٌ جداً».

- ماذا تقصد؟

- أمناء المكتبات الذين أعرفهم يستمتعون بشيء كشرب الشاي وقراءة قصص الغموض الدافئة، لا اقتحام المنازل ودخولها.

- صحيح، حسناً. هذا نوع مختلف من المكتبة.

- أخشى أنني بحاجة إلى مزيد من التوضيح.

ما إن نطق بالسؤال حتى ندم على ذكره. وحدث نفسه: «أنت لا تفكر حقًا فيما عرضته عليك، أليس كذلك؟». وتأمل سريعًا في مدى اتباعه لقيمه الروحية، ثم أردف لنفسه: «لا، مستحيل». لكن فضوله لا يستهان به. أوضحت كارولين: «لديّ مشكلة، وأخبرتني أختي أنك ربما تملك الخبرة المطلوبة لحلها».

- أي نوع من الخبرة نتحدث عنه هنا؟

- الأقفال المنزلية، لا شيء محدد على وجه الخصوص، وجهاز إنذار لوريكس.

- أهذا كل ما في الأمر؟

سرح بأفكاره إلى صندوق الأدوات في مؤخرة شاحنته؛ يحوي أدواته للسباكة، ومنها بلا شك مصباح كهربى ولحام وقاطع أنابيب ومفتاح ربط. لكن هناك أشياء أخرى أيضًا: مقص أسلاك ورافعة صغيرة وجهاز قياس متعدد ومسطرة معدنية صغيرة يمكنه استخدامها في... لا. حاول قمع الفكرة، لكن فات الأوان. شيء ما بداخله قد استيقظ من ثباته وبدأ يزحف إلى السطح.

- هذا كل ما في الأمر. بسيط جدًا.

- من هي أختك؟

- اسمها رايتشل. أنت لا تعرفها.

فكر في الاسم قليلًا: «أنت على حق. لا أتذكر أنني قابلتُ أحدًا بهذا الاسم». لا شك أن الفتاة ليست جزءًا من الدائرة الصغيرة - الصغيرة جدًا - من الأشخاص الذين يعرفون عن عمله السابق. فراح يسألها: «ومن أين عرفت هذه الرايتشل كل هذه المعلومات عني؟».

- صدقًا ليس الأمر واضحًا لي. لكنها بارعة جدًا في اكتشاف المخبوء.

- وماذا اكتشفت عني بالضبط؟

أشعلت كارولين سيجارة أخرى، ونفثت مناخرها عمودين توأمين من الدخان. ثم أجابت: «قالت إنك موهوبٌ في الأمور الميكانيكية وعندك ميل

للإجرام. وأنتَ نفَّذتَ أكثرَ من مئةِ عمليةِ سرقة. أظنُّ أنها قالت مئةِ واثنَتي عشرة».

كان كلامها صحيحًا، عدا أنها معلومات مضى عليها عشر سنوات تقريبًا. وفجأة اضطربت معدته؛ كانت الأفعال التي أقدم عليها، بل والأسوأ منها وهي الأفعال التي لم يُقدم عليها آنذاك، تدور في مدارات ليست بعيدة عن أفكاره. وعند سماعه لكلماتها، هبطت من مداراتها إلى مكنم أفكاره ومزقته إربًا. أجابها بنبرة هادئة: «أطلب منكِ المغادرة الآن. من فضلك».

أراد أن يقرأ مجلة سبورتنس إليستريتد، أراد أن يفكر في خط الهجوم لفريق كولتس، لا أن يفكر في كيفية فك شفرة قفل كويكسيت في ثلاثين ثانية حتى دون استخدام الأدوات المناسبة. أراد أن ...

- اهدأ. ربما كان هذا لصالحك.

ودفعت شيئًا على الأرض نحوه. ألقى ستيف نظرة خاطفة أسفل الطاولة ورأى حقيبة رياضية زرقاء.

- ألقِ نظرة داخلها.

رفع ستيف الحقيبة من يدها، شبه متوقع لما سيجده بداخلها. فتح السحاب وألقى نظرة خاطفة. نقود. الكثير من النقود. معظمها من فئة خمسين ومئة دولار.

أعاد ستيف الحقيبة إلى موضعها على الأرض ودفعها إليها من أسفل الطاولة.

- كم فيها؟

أطفاَت سيجارتها وأجابت: «ثلاثمئة وسبعة وعشرون ألف دولار تقريبًا».

- هذا مبلغ يثير الاستغراب.

- وأنا شخص يثير الاستغراب.

تنهَّد ستيف: «كلي آذان مصغية».

- إذن ستتولى المهمة؟

- لا. مستحيل.

خطرت له مقولة: «يتعهد البونزي بالامتناع عن أخذ ما لا يُعطى له». توقف عن الحديث مشوَّش الفكر عابس الوجه. في العام السابق بلغت ديونه الضريبية 58 ألف دولار، وديون بطاقته الائتمانية أقل من ذلك بقليل.

أشعل سيجارة أخرى واستأنف الحديث: «ربما أفعلها. لكن هذا مال كثير». - هل هو كذلك؟ لنفترض.

- هو مال كثير بالنسبة لي على أي حال. هل أنت ثرية؟

هزّت كتفها بلا مبالاة: «أبي ثري».

قال مفكرًا: «مم». أبٌ ثري.. هذا يُفسر بعض الأمور على أي حال. «ومن أين جئتِ بـ... كم قلتِ؟».

- ثلاثمئة وسبعة وعشرون ألف دولار. أتيتُ به من المصرف. المال ليس مشكلة كبيرة بالنسبة لي. هل سيكون هذا كافيًا؟ يمكنني أن أتيك بالمزيد.

- هذا سيفي بالغرض. لقد عرفتُ أشخاصًا - أشخاصًا أكفاء - سيقبلون مهمة كهذه مقابل ثلاثمئة دولار.

أنهى جملته وانتظر على أمل أن تلغي عرضها، أو ربما تطلب تقديمها إلى الأشخاص الأكفاء. لكنهما ظلّا محدقين إلى بعضهما لبعض الوقت.

- أنتَ الرجل الذي أريد لهذه المهمة. لو أن المشكلة ليست في المال، فما الذي يمنعك عن الموافقة إذن؟

خطر له أن يشرح لها محاولاته لأن يصير أفضل. أمكنه أن يقول: «أشعر أحيانًا أنني مثل نبتة جديدة، أنبتق من التربة، وأحاول أن أورق وأتمدد نحو الشمس». لكن ما نطق به حقًا كان: «أنا أحاول أن أفهم ما الذي سيعود عليك من هذا السرقة. أهذه واحدة من الرياضات المتطرفة التي يمارسها الأطفال الأغنياء؟ هل تشعرين بالملل؟».

أفلتت كارولين ضحكة مكتومة: «لا. بل أنا على النقيض تمامًا من الشعور بالملل».

- ما الأمر إذن؟

أجابت: «سُرِقَ مني شيء منذ أعوام. شيء ثمين». ورمقته بابتسامة قاسية، ثم أضافت: «وأنوي استعادته».

- سأحتاج إلى المزيد من التفاصيل. عن ماذا نتحدث؟ ألماس؟ جواهر؟ وتردد قليلاً قبل أن يضيف: «مخدرات؟».
- لا شيء من هذا. يمكننا القول إنه شيء له قيمة عاطفية. هذا كل ما يمكنني إخبارك به.
- ولماذا أنا تحديداً؟
- أتيت على رأس قائمة الترشيحات.

استغرق ستيف في التفكير. ومن وراء كتف كارولين، رأى إيدي هو وكاث على حلبة الرقص يتدربان على رقصة شارلستون. وفكر: «إن أداءهما يتحسن أيضاً». ثم استرجع شعور أن يكون المرء بارعاً في شيء. في وقتٍ ما، في بعض الدوائر الاجتماعية كان يتمتع بشيء من الشهرة. وجال بخاطره أن ربما تذكره أحدهم فرشحها لها.

قال أخيراً: «حسنًا. أظن أن بإمكانني قبول عرضك. لكن لدي بعض الأسئلة».

- اسأل.
- هل أنتِ واثقة مما نحن مقدمون عليه، أي أننا سنتعامل مع أجهزة إنذار سكنية عادية فحسب؟ لا خزائن ولا أقفال نادرة، لا شيء من هذا القبيل؟
- متأكدة.
- وكيف لك أن تعرفي؟
- أخبرتني أختي.

فتح ستيف فمه ليتساءل عن مدى جودة المعلومات التي تقدمها أختها، ثم تبادر إلى ذهنه أنه كان ليعجز عن تحديد عدد المهمات التي أنجزها، حتى لو صُوب سلاح إلى رأسه. «علاوة على أن الرقم مئة واثنًا عشرة مهمة يبدو صحيحًا». نفّض أفكاره وآثر أن يقول: «سؤال أخير. ماذا لو كان ما تبحثين عنه ليس موجودًا هناك؟».

رسمت ابتسامة هادئة: «ستحصل على النقود على أي حال». ومالت قليلاً نحوه وهي تضيف: «وربما مكافأة أيضًا». ورفعت حاجبها ثم منحته ابتسامة لعباً مقتضبة.

فكّر ستيف في الأمر. قبل أن تلقى عليه قنبلة السرقة هذه كان يأمل أن يتخذ الحديث بينهما منحى الغزل. أما الآن ...

- لنجعل الأمر بسيطاً. المال كافٍ لي. متى تودين البدء؟

- ستتولى المهمة إذن؟

كانت ساقاها قويتين ومصبوغتين بالسُمر. وحين تتحرك يمكنك رؤية العضلات تتحرك من تحت جلدها.

أجابها وهو يُدرك في قرارة نفسه مدى بشاعة الفكرة وسوئها: «أجل. أظن ذلك».

- إذن لا وقت أفضل من الآن.

2

كان واحد من أسباب إعجاب ستيف بحانة وورويك هول هو نظافة المكان. كل شيء يلمع: خشبٌ مصقول ونحاس يتلألأ ومقاعد جلدية متينة كأنها دعوة ودية لمؤخرتك بالاسترخاء، وأرضية مبلطة بالأبيض والأسود بطريقة كانت لتبهج إقليدس.

تتلاشى هذه الأجواء ما إن تطئ قدماك الباب الأمامي. ولكي تعود إلى العالم الحديث عليك أن تصعد عدة درجات عالية من الخرسانة الزلقة إلى الشارع. كانت بئر السلم مُسودة بأوساخ قديمة، وبدأت أشبه بمكان تقصده القطط الضالة لتقضي نحبها. تتراكم أكوام من الفضلات في الأركان: أعقاب سجائر وأكياس وجبات سريعة وزجاجة مياه داساني نصف ممتلئة بتبغ ممضوغ. كان الهواء في تلك الليلة بارداً، وهو ما أبقي رائحة القمامة في موضعها، أما حين يهل الصيف فيحبس أنفاسه حين يصعد الدرجات إلى الشارع.

لم تُعجب كارولين أيضاً بأكوام الفضلات. كانت قد خلعت حذاءها المطاطي ذا الرقبة داخل الحانة، لكنها انتعلته ثانية عند عتبة الباب الأمامي، ثم خلعتة مجدداً عند أعلى درجة من السلم. كانت دفءات ساقها مخططة

بألوان متعددة لقوس قزح لا يقارب الموضحة في شيء. فحدثّ ستيف نفسه:
«اللعة! يجب أن أسألها عن هذا الشيء».

- من أين حصلتِ على تلك الأشياء؟

- ماذا؟

أجابها بإشارة منه إلى الحذاء المطاطي.

- أنا أعيش مع سيدة، تملك هذه الأشياء في خزانيتها.

من دون حذاء المطر ذي الرقبة، كانت قدماها عاريتين. وموقف السيارات
مغطى بحصى مكسّر. لكن بدا أن السير عليه دون حذاء لا يزعجها.

- تلك هي شاحنتي.

كانت شاحنة عمل بيضاء قديمة بعض الشيء، محفورٌ عليها بحروف
حمراء على الباب: «هودجسون لأعمال السباكة». أما الأقفال على حقائب
المعدات فكانت من علامة «ميديكو» هي الأفضل على الإطلاق.

- أعرف أن الفتيات يحبن العبث بصناديق المعدات. حاولي أن تتمالكي
نفسك.

كان الهواء قد صار باردًا بعد مغيب الشمس، وتحولت أنفاس ستيف إلى
بخار أبيض وهو يتكلم.

أمالت كارولين رأسها نحوه، وعلى وجهها يرتسم تعبير متسائل. فقال:
«ليس مضحكًا. انسي الأمر».

صعد إلى السيارة من باب المقود، وراحت هي تتعثّر في فتح مقبض
الباب الآخر.

- هل الباب عالق؟

ارتسمت ابتسامة متوترة ومقتضبة على وجهها وهي تحاول بجذّ أكبر
فتح الباب. تمطّى بجسمه ومدّ يده عبر المقعد وفتح الباب من الداخل.

- شكرًا لك.

ألقت بجذائها المطاطي والحقيبة ذات الدولارات الثلاثمئة وسبعة وعشرين
ألفًا على أرضية السيارة لتسترخي بين زجاجات ماونتن ديو وأكياس اللحم
المقعد الفارغة. تكوّرت على نفسها على مقعد الكنبّة الأمامي، وطوت ساقها
أسفل منها، بمفاصل مرنة كما لو أنها طفلة في الثامنة من عمرها.

- لدي سترة إضافية في مؤخرة الشاحنة. هل تريدان استعارتها؟ الهواء بارد في الخارج.

هزّت رأسها رفضًا: «لا، شكرًا لك. أنا بخير هكذا».

أشعل ستيف محرك الشاحنة، فأصدر قرقرة العودة إلى الحياة. وبدأ الهواء البارد يخرج من منافذ الهواء في الشاحنة. فكّر في نفسه: «الفرصة الأخيرة، الفرصة الأخيرة للتراجع عن هذا الأمر». وألقى نظرة خاطفة على أرضية السيارة، وتحت الضوء الأصفر الباهت لمصباح الشارع أمكنه رؤية مبلغ من المال يظهر من قماش الحقيبة. قطّب وجهه كما يقطّب المرء وجهه عندما يتجرع دواءً مُرًا. ثم سأل: «هل معك عنوان ذلك المكان؟».

- لا.

- إذن كيف لي ...

- انعطف يسارًا بعد الخروج من موقف السيارات. سر لمسافة ميلين ثم

رفع يده لمقاطعتها: «ليس بعد».

- ظننت أننا سننجز الأمر الليلة؟

- هذا صحيح. لكن أولًا علينا أن نتكلم.

- آه. حسنًا.

- هل أقدمت على هذا الفعل من قبل؟

- ليس تمامًا. لا.

- هل أنت من النوع سريع الانفعال؟ هل تتوترين بسرعة؟

انعكست على وجهها ابتسامة عابسة مقتضبة: «أتعرف صدقًا لست واثقة مما إذا كنت كذلك أم لا. لو أنني كذلك حقًا، فأنا أسيطر على الأمر».

- حسنًا، هذا جيد. لا أعرف ماذا تتوقعين مما سنفعل، لكن هذا لا يشبه القفز. وبما أنك مقدمة على الأمر للمرة الأولى، ربما تشعرين بقليل من التوتر. هذا طبيعي. ولكن بعد أول مرتين، سيصير الأمر مملًا، بل وأشبه بمساعدة صديقٍ على الانتقال إلى شقة جديدة عن أي شيء رأيته في الأفلام.

كانت تومئ برأسها في إيجاب: «أفهم ذلك. أنا ...».

رفع يده مقاطعاً: « ثمة بعض الأمور التي يجب أن تضعيها في الحسبان أيضاً. هل لديك هاتف خلوي؟ ».

بدت الحيرة على وجهها لهنيهة، ثم هزّت رأسها نفياً.

- حقاً؟

- حقاً. لا أملك أي نوع من الهواتف. هل هذه مشكلة؟

- لا. كنتُ سأطلب منك التخلص منه. هذه الهواتف يمكن تتبعها. كل ما في الأمر أن الجميع يملكون الهواتف الخلوية هذه الأيام. إذن هل معكِ قفازات؟

- لا.

- لدي زوجان من القفازات يمكنكِ استخدامهما. ستضطرين إلى انتعال حذاءك المطاطي مجدداً.. بسبب آثار الأقدام. ما من احتمال أن تُجري الشرطة اختباراً كاملاً للشعر والألياف في مسرح الجريمة، وبخاصة في حادثة سرقة بسيطة، ولكنهم قد يرفعون البصمات. عدا ذلك، اتبعي خطواتي وحاولي ألا تلمسي أي شيء لست مضطرة إلى لمسه. أنتِ لا تملكين أي أسلحة، صحيح؟

- لا.

- حسناً، جيد. الأسلحة تجلب الأنباء السيئة.

لا يرغب ستيف في إيذاء أحدهم، وبخلاف ذلك هو مجرم مدان. ولو قبض عليه وفي حيازته سلاح ناري، فسينال عقوبة لا تقل عن خمس سنوات. وأضاف قائلاً: «سأجري بعض الترتيبات».

أخرج ستيف هاتفه الخلوي من جيبه وأزال منه بطاقة الاتصال. كان يعرف أن الشرطة قادرة على رسم خريطة دقيقة جداً لموقع الشخص من خلال أبراج الشبكة التي يتصل بها هاتفه في أثناء تحركه في أي منطقة. لذلك حدّث نفسه: «لو أنني أزلتُ البطاقة، سيكون تحديد الموقع مستحيلاً، أليس كذلك؟». لم يكن واثقاً من أفكاره. في السابق حين اعتاد ممارسة هذا العمل، لم تكن الهواتف الخلوية موجودة أصلاً. وخطر بباله أن يضع هاتفه الخلوي في واحد من صناديق الأدوات في مؤخرة الشاحنة. وتهياً له أن صندوق الأدوات سيثبه المصعد، إذ يعزل صندوق الأدوات الإشارة كما يعزل المصعد الأصوات الداخلية عن الخارج. «آه، اللعنة! سأحطم هذا الشيء

وأنتهي. ربما كان هذا مبالغة منه، لكن لو قرر أداء المهمة، فعليه أن يؤديها على أكمل وجه.

كانت شاحنته واقفة في الركن الخلفي لموقف السيارات، أسفل مصباح مضيء، لكنها بعيدة عن الجميع، وبعيدة عن مرأى الناس كذلك. ابتسمت شفتاه وهو يتذكر ذلك المثل القائل «العادات القديمة لا تموت». ثم انفتحت الخزانة المعدنية فوق إحدى عجلات الشاحنة بسلاسة مهّدت لها مفصلات جيدة التشحيم.

بدأ يخرج الأدوات من الصندوق: مثقاب ماكيتا لا سلكي، وزوجان من مفكات البراغي، ورافعة صغيرة، ومطرقة بوزن خمسة أرطال تقريبًا، وأداة فتح أقفال رفيعة كان قد صنعها بنفسه من صفيحة فولاذية اشتراها من متجر آيس هارديوير. كما تعرف من أجل التدريب فحسب. لفّ هاتفه الخلوي في منشفة وحطّمه بطرقتين من مطرقة. ثم وضع بقية الأدوات في حزام الأدوات مع زوجين من قفازات العمل الجلدية، ودسّ حزام الأدوات في حقيبة ظهر. جال بخاطره أن: «مرّ وقت طويل منذ أن أعدّ العدة هذه». واستشعر موجة جارفة من الحنين قبل أن يكبحها داخله بقوة. كم كره افتقاده لهذه الحياة كثيرًا! أراد أن يعيش حياة أفضل، وفي كثير من الأحيان حقق ذلك. لكن حتى بعد عشر سنوات، لم تفارق أفكاره قط تلك الصفحة التي أنهت عمله في السرقة والسطو، ولا الحكم القضائي الذي صاحبها، ولا الكلمات التي ألقيت على مسامعه «أنت أيها الأحمق الوضيع».

«لكن... هذه ثلاثمئة ألف دولار». فكّر، ثم تنهّد وسألها: «كم يبعد المكان؟».

- عشرون دقيقة تقريبًا.
- أي مكان هذا؟ منزل؟ شقة؟
- إنه منزل.
- منزل منفصل؟ ليس مزدوجًا أو شيئًا من هذا القبيل؟
- نعم، منزل منفصل. يقع ضمن مجمع سكني، لكن الحي من حوله شبه خالٍ. يعمل مالكة نوبة ليلية، لذلك أظن لدينا الوقت الكافي الذي نحتاج.
- حسنًا. ولكن أولاً، يجب أن نأتي بسيارة أخرى.
- لماذا؟

- حسنًا، واحدٌ من بين جملة الأسباب هو أن اسمي محفور على باب السيارة.
- آه. حسنًا.

قاد ستيف الشاحنة بهما إلى المطار، وصفَّها في موقف سيارات قصير الأجل، ثم حمل حقيبة ظهره على كتفه، وسارا معًا إلى محطة الوصول ومنها إلى الجانب الآخر. ثم استقلا حافلة من حافلات المطار إلى موقف السيارات طويل الأجل. تجوَّل بين الصفوف حتى وجد سيارة تحمل عقب تذكرة رآها في الضوء الخافت. كانت سيارة تويوتا كاماري زرقاء داكنة؛ واحدة من أكثر السيارات اعتيادًا على الطريق. وكان المالك قد صفَّها في اليوم السابق. مثالية!

قال ستيف: «انتظري هنا، هل يمكنكِ؟».

اتخذت كارولين موقفًا أمام عجلة السيارة من الجانب. وعلَّق ستيف الرافعة الصغيرة في فتحة الحزام، ووضع مقص الأسلاك في جيبه الخلفي. ثم أخرج شريحة طويلة من الصفيحة الفولاذية من حقيبة ظهره، وحشرها بين الإطار المطاطي لباب السيارة والنافذة، فانفتح قفل الباب. كان مستعدًا لانطلاق إنذار السيارة، لكن هذا لم يحدث. ومن داخل السيارة فتح صندوق السيارة وألقى بحقيبة ظهره فيه، ثم قال: «هل ستأتين؟».

دارت حول السيارة واستقلت مقعد المسافر. ثم علَّقت: «أنجزت الأمر سريعًا. كانت أختي محقَّة بشأنك».

- لهذا السبب يدفعون لي أموالًا طائلة.

أزال الغطاء المعدني عن عمود القيادة باستخدام الرافعة، وفكَّ مسمار قفل تشغيل المحرك باستخدام مفك البراغي. حينها عمل محرك السيارة تويوتا من المحاولة الأولى. كانت بعض المخارج من موقف السيارات آلية، لكن تمرير بطاقته الائتمانية سيجعل مسارًا إلكترونيًا يمكن تتبعه وسيكون دليلًا على سرقة السيارة كامري. لذلك أعاد الغطاء المعدني على عمود القيادة وجهَّز النقود الورقية قبل أن يصل إلى النافذة. لم يكن من داع للقلق، إذ كان حارس موقف السيارات وهو رجلٌ مستاء الوجه أسود البشرة في الخمسينات من عمره، يشاهد التلفاز. ولم يرفع عينيه إليهما قط.

وهكذا خرجا إلى ظلمة الليل مجددًا.

في قرارة نفسه، آمن ستيف أنه بوذي.

منذ بضع سنوات وبعد نزوة مرَّ بها، اقتنى نسخة من كتاب البوذية للحمقى من متجر بيع الكتب، وظل محتفظًا به أسفل الفراش. أما الآن فصارت زواياه مطوية من كثرة الاستخدام، وصفحاته ملطخة بدهن البيتزا وقطرات المشروب الغازي من القراءات المتكررة. وأحيانًا حين يهجره النوم، يتخيل نفسه وقد تخلَّى عن كل متاعه الدنيوي وانتقل للعيش في التبت. سينضم إلى أحد المعابد، ويفضل أن يقع المعبد في منتصف الطريق إلى قمة الجبل. سيخلق رأسه، وسيجد هناك أشجار الخيزران وحيوانات الباندا وأوراق الشاي. سيرتدي الكاسايا⁽¹⁾ البرتقالي، وربما ستُتلى الصلوات والتراثيل في فترات ما بعد الظهيرة.

جال بخاطره: «البوذية هي دين طاهر من الدماء». لم تسمع يومًا عن تعرُّض ثمانية أفراد، منهم طفلان، للتفجير في خضم الصراع الطويل بين البوذية وجماعات أخرى. لن يطرق البوذيون بابك أبدًا والمباراة التي تشاهدها تسير على أفضل حال ليسلموا إليك كتيبًا عن مدى روعة شخصية الأمير سدهارتا. أو ربما هي حقيقة أنه لم يعرف أي بوذي في حياته الواقعية، لكنه متعلِّق بأمل أن يكون البوذيون مختلفين حقًا.

ربما كان هذا كلامًا فارغًا؛ ربما لو أنك ذهبت إلى قداس بوذي، ستكتشف أنهم سخفاء ومحطَّمون مثل الجميع تمامًا. ربما يتبادلون النسيمة بين الصلوات عن ارتداء أحدهم لكاسايا الموسم الماضي، أو عن أن البخور التي أحرقتها «جون واي» الصغير ذات يوم كانت رديئة ورخيصة لأن عائلته فقيرة جدًا، ها ها ها. لكن ما يمر به الآن يحدث في ولاية فيرجينيا وهو مجرد سبَّك. فلماذا يتظاهر؟

لم يسرح بخياله حتى ليصل إلى شراء تذكرة طائرة، هذا أمرٌ لا شك فيه، لأن ستيف ليس غيبًا. لنفترض لغرض المناقشة أن رؤيته للمثل البوذية لها

(1) الكاسايا: هو اللباس المقدس للربهان البوذيين في جميع أنحاء العالم البوذي. لونه برتقالي، ويرمز للتخلي عن الملذات الدنيوية والالتزام بالحياة الرهبانية. (المترجمة)

أساس على أرض الواقع. ستظل تطارده حقيقة أنه ما زال وغداً حليق الرأس يرتدي كاسايا برتقالياً، ولا بد لهذه الحقيقة أن تنكشف عاجلاً أم آجلاً.

فكّر أن ثمة احتمالاً بظهور الحقيقة عاجلاً. إن تعاليم البوذية واضحة تماماً فيما يتعلق بأمر السرقة. «إذا قتلت أو كذبت أو سرقت... فإنك تقتل جذورك بيدك. وإذا عجزت عن السيطرة على أهوائك، فالأذى الذي سببته سيرتد عليك أذى فادحاً». وكتبت كلمة «فادحاً» بخطّ سميك.

شرد ثانية، وبإيماء ذهنية تشبه التنهيدة قال: «ومع ذلك، ها أنا ذا».

كانت كارولين تتحدث في الخلفية: «... يساراً إلى هناك».

- أعيدي ما قلته ثانية من فضلك.

- قلتُ لكْ انعطف يساراً إلى هنا، بجوار السيارة الحمراء.

كانا قد قطعنا عشرين دقيقة من القيادة، وكارولين تُملي عليه الاتجاهات. «يساراً هنا. يميناً على الطريق الرئيسي. مهلاً، آسفة، استدر بالسيارة». لصوتها نبرة غليظة وخافتة، وإيحاء تنويمي. أضف إلى ذلك مدى سوء حس الاتجاهات لدى ستيف. لم يمضِ أكثر من خمس دقائق على خروجهما من المطار وقد ضلّ طريقه فعلاً. لو أنهما قصدا فيجي.. ناجويا.. القمر.. لن يدرك ذلك.

سألها: «هل تعرفين حقاً إلى أين أنتِ ذاهبة؟».

- نعم بالطبع.

- هل نقرب من مقصدنا؟

- بضع دقائق أخرى. لم يبقَ إلا القليل.

جلست متكورة على نفسها في مقعد المسافر وظهرها مسند إلى الباب. كشفت وضعية جلوسها وسروالها القصير الضيق عن الكثير من ساقها. وراح هو يواجه صعوبة في غض بصره عن النظر إلى ساقها. ففي كل مرة يعبران بلوحة إعلانية أو لافتة طريق مثبتة على جانبها من الطريق، كان يختطف نظره. ولم تُبدِ أي ممانعة لنظراته أو حتى اهتماماً بملاحظتها.

- انعطف بالسيارة إلى هناك.

- هنا؟

أجابت: «لا، المدخل التالي. أين ذلك الـ... أجل!». وابتسمت إليه بعينين تلمعان بالوحشية تحت ضوء القمر: «إننا نقرب الآن».

الطريق مظلمٌ حالكٌ أمامهما. كانا قد خرجا من المدينة، وصارا على أطراف بلدة ريفية. شَقَّتِ السيارة طريقها إلى داخل حي شبه خالٍ. كان شاسعًا، أو ربما صُمِّمَ ليكون شاسعًا، يضم مساحة من الأفدنة تكفي لبناء مئات المنازل الملحقة بأفنية خلفية بحجم الطوابع البريدية. انتصبت قلة من منازل انتهى بناؤها هنا وهناك، وقلة أخرى دُكَّتْ أساساتها ثم نبتت الحشائش من بين شقوقها، لكن غالبية الأراضي ما تزال خاوية.

تمتم ستيف: «ممتاز».

أشارت كارولين وهي تقول: «هناك. هذا المنزل».

تتبع ستيف إصبعها إلى منزل ريفي صغير مطليّ بلون أخضر فاتح، لم تُخفِ الظلمة مدى بشاعته. ثم ميَّز مدخل السيارة الفارغ، ومصدر الإنارة الوحيد وهو مصباح شارع وحيد معلق في الزاوية.

دار حول الفناء ببطء، وهو ما ذكره بفيديو راب دون أن يجمع الأمرين أي قواسم مشتركة، وهو ما أشعره ثانيةً بالسُخف. على بُعد مئة متر تقريبًا، ينعطف الطريق انعطافًا كافيًا ليختفي المنزل عن الأنظار خلف أيكة من الأشجار. صفٌّ ستيف سيارته هناك ثم استدار لينظر إلى كارولين، وقال: «هذه هي الفرصة الأخيرة. أنتِ واثقة من رغبتك في الإقدام على الأمر؟ لو أنك تخبريني ما الذي تسعين لاسترداده يمكنني...».

لمعت عيناها كما تلمع أعين الضواري تحت ضوء القمر: «لا. يجب أن آتي معك».

- حسنٌ إذن.

اختلس نظرةً سريعةً إلى ساقها، ثم ترجَّلا من الشاحنة. منحته الرنة الهادئة لانغلاق الباب شعور السريّة المحبب إلى نفسه. استدار حول السيارة قاصدًا المؤخرة ليُخرج حقيبة ظهره.

- هل أنتِ ...

داعبت مؤخرة عنقه بأطراف أناملها، فاقشعر بدنه وانتصب الشعر القصير على رقبتة. التفت ليجدها شديدة القرب منه، قريبة جدًا حتى أمكنه تمييز رائحتها. وبدت له من رائحتها أنها لم تستحم منذ... حسنًا، منذ وقتٍ

طويل، لكنه جانب محمود من عدم الاستحمام لوقت طويل جعل رائحة المسك والأنوثة تفوحان منها، فاتسعت لهما فتحاً أنفه.

حَثَّته قائلة: «هيا بنا». وهي تنتعل الحذاء المطاطي فوق دفاءات الساقين. لَمَّا وصلا إلى المنزل، تحقق ستيف مما بداخل صندوق البريد. كان ممتلئاً عن آخره، قدرها بأسبوع كامل من الإعلانات. وخطر بباله: «لم يعد المالك إلى منزله منذ وقت طويل. هذا ممتاز». أخرج من الصندوق إحدى المجلات وأمالها بزاوية تمكنه من القراءة على ضوء القمر حتى استطاع قراءة الغلاف. كُتِبَ عليه «مجلة رئيس الشرطة *Police Chief Magazine* بحروفٍ زرقاء سميكة، وأُرسلت المجلة إلى... «المحقق مارفين ماينر». نظر ستيف إلى كارولين وسأل: «هل هذا الرجل شرطي؟».

- يبدو كذلك.
- ماذا فعل بكِ؟
- أفسد فستانى الحريري.
- وكيف فعل ذلك؟
- لطحه بالدماء.
- ممم. هل فكرتِ في غسله بمياه غازية؟
- أجل، لكنه وصل إلى مرحلة يستحيل معها تنظيفه. هل ستأتي معي أم لا؟
- حسنًا.. أظن أن الأمر لن يحدث فرقاً كبيراً، لو قمنا بالعمل على أكمل وجه. وعلى أي حال، يبدو أن المحقق ماينر ليس بالمنزل.
- ممم.
- تردد ستيف قليلاً، ثم اتخذ خطوات إلى مدخل السيارة واتجه صوب الباب الأمامي. رن الجرس، فلم يأتِه ردٌّ من الداخل.
- سألته كارولين: «لماذا دققت الجرس؟».
- لم أتوقع أن يُجيب أحد، لكن لو أن بالداخل كلباً بوليسياً أو كلباً من أي نوع، فمن الأفضل أن أعرف الآن.
- أه. فكرة جيدة.
- واكتسى صوتها بالنفور.

- ألا تحبين الكلاب؟

هزّت رأسها نفياً، وأجابت: «إنها خطيرة».

رمقها ستيف بنظرة متسائلة. في معظم الليالي حين يعود إلى المنزل، يهز بيتي، كلبه الأليف، ذيله في سعادة عارمة لدرجة أن مؤخرته تتأرجح معه. «ربما حين ينتهي هذا الأمر، سنذهب أنا وبيتي إلى التبت». تصوّر نفسه يتسلق التلة إلى المعبد البوذي في يوم ربيعي مشرق، وبيتي يقفز إلى جانبه، والسلام الداخلي بانتظارهما أعلى التلة.

لكن «العمل أولاً». هكذا ذكّر نفسه قبل أن يرفع ممسحة الأرجل عند عتبة الباب بحثاً عن مفتاح. ولمّا لم يجد شيئاً، مرر إصبعه أعلى إطار الباب. كل هذا وكارولين ترمقه بنظرة متسائلة.

- في أوقات كثيرة يترك الناس مفاتيح احتياطية قرب الباب.

لم يجد أي مفتاح، وصارت أطراف قفازه مترّبة: «حسنًا. سأضطر إلى الدخول عنوة».

سارا معاً إلى مؤخرة المنزل. وأخرج ستيف العتلة ثم حشرها بقوة بين الباب والقائم عند مستوى القفل. ودس في جيبه مفتاح فيليبس، ومفكاً مسطح الرأس، ومقص أسلاك.

- إذا انطلق صفير الإنذار، فعادةً يكون أمامك دقيقة كاملة لتعطيله. هذا يعطينا وقتاً كافياً. سنتنظرين هنا، فلا أريد التعثر بك في الداخل. أجابته كارولين بإيماء موافقة.

راح ستيف يضغط على الرافعة ويشدها إلى الخارج بمجهود زائد. انبعج قائم الباب بمقدار عدة سنتيمترات أو أكثر، وكان هذا الانبعاج كافياً ليتحرر اللسان من مكانه. ثم ارتد الباب منفثاً على ظلمة دامسة، وتدفق الهواء الدافئ من الداخل. انتظر ستيف قليلاً تحسباً لصفير الإنذار، لكن لم يحدث شيء.

- أظن أننا أحرزنا تقدماً. جهاز الإنذار لا يعمل.

الظلمة حالكة بالداخل، والستائر كلها منسدلة على النوافذ، أقمشة سميقة لم يستطع ضوء القمر ولا مصباح الشارع الوحيد التسلل خلالها. والإنارة الوحيدة في غرفة المعيشة تأتي من حامل ستريو ضخّم يتساوى ارتفاعه

مع طول ستيف نفسه. ألقى المستقبل بأضواء زرقاء خافتة على كرسي وثير متمدد يسبح فوق بحر من علب بيرة بوش المسحوقة.

سألت كارولين: «ماذا تنتظر؟».

جاء صوتها من أمامه. لم يثب ستيف من المفاجأة، لكنه أجفل. لأنه لم يسمع حفيف حركتها.

أجاب ستيف: «أمنح فرصة لعيني كي تعتادا الظلام».

ألقى نظرة من حوله، ووجد الميكروويف يومض بضوء أخضر لا يتوقف مشيرًا إلى منتصف الليل، ويلقي بضوئه على علبة بيتزا ملطخة بالدهن وكومة صغيرة من مناديل مطبخ مجمدة.

- مم ...

قصد المطبخ بخطوات خفيفة وفتح الثلاجة، وقد أغمض عينًا واحدةً لكيلا يعميه ضوء الثلاجة الأبيض المفاجئ. كانت شبه خالية من الطعام إلا من نصف برطمان فارغ من فاتح شهية وزجاجة بلاستيكية معصورة من المستردة الفرنسية في الباب، بالإضافة إلى صندوق من البيرة في المؤخرة. شعر ستيف بلسعة العطش في حلقه، فاستأثر هنيهة للتفكير في الصندوق أمامه، ثم أغلق الباب وشرب بعض الماء من كوب بلاستيكي في الحوض.

- كارولين؟ هل أنت عطشة؟

لم يسمع جوابًا.

طلَّ برأسه إلى خارج المطبخ، ونادى ثانيةً: «كارولين؟».

- نعم؟

تحركت ثانيةً. والآن يأتي صوتها من خلفه. وثب هذه المرة من المفاجأة، ثم استدار لينظر إليها؛ كانت شديدة القرب منه.

- أتريدين ...

نطقها بصوت خافت ثم تلاشى.

اقتربت منه، ومررت أصابعها على صدره: «أريد ماذا؟».

- مم؟

- سألتني عما أريد.

نطقت كلمتها الأخيرة بنبرة خافتة.

أجاب ستيف: «أه، صحيح. آسف. انقطع حبل أفكاري. هل تريدني مني أن أساعدك في البحث عن... أيًا كان ما تبحثين عنه؟».

أجابت كارولين بشيء لم يفهمه.

- ماذا كان هذا؟

- صيني. آسفة. أتقن الكثير من اللغات. وأحيانًا تتداخل الكلمات حين أشعر بالإنارة.

أشعلت لمستها الكهرباء في صدره، فتراجع مبتعدًا عنها. اعتادت عيناه الظلمة، وما كان يراه من قبل هيئاتٍ مبهمّة، صار الآن يراه أريكة، وتلفازًا، وكرسيًا، وطاولة. اتجه إلى خزانة بجانب التلفاز وفتحها. ثم علّق: «ليس سيئًا». كان المستقبل من ماركة ألمانية، وهو أفخم ممّا يكفله المنزل المتواضع. سألتها: «هل تريدني ستريو؟».

- لا.

أبدى الستريو الذي يملكه ستيف شيئًا من القصور، وبخاصة أنه لم يكن من ماركة فاخرة. ولذا مدّ يده لأخذ الستريو أمامه، لكن تردد في ذهنه: «مهلاً! هذه سرقة، صحيح؟». حامت يده حول سلك الكهرباء لبرهة... ثم سحب يده إلى الوراء، وفي قرارة نفسه يُوبخ نفسه الأمّارة على فعلها الشائن. «إذا قتلت أو كذبت أو سرقته... فإنك تقتلع جذورك بيدك».

لمّا رفع بصره متفقدًا ما حوله، كانت كارولين قد اختفت.

- مهلاً! أين ذهبت؟

- إنه هنا. لقد وجدته.

جاء صوتها من غرفة أخرى ملاصقة للمطبخ، فأجفل ستيف ثانيةً. «ماذا وجدت؟». تتبع صوتها؛ كانت في غرفة الطعام، تجلس على منضدة طويلة رسمية وقدمهاها تتدليان إلى الأسفل، وقد استحالت هيئتها إلى ظل أسود في الضوء الخافت لمصباح الشارع. وخزانة الأواني الخزفية تلوح من خلفها مثل عرش أسود مهيب.

- كارولين؟

أجابت وقد فرجت ساقها قليلاً: «تعال إلى هنا». فذهب إليها ووقف أمامها.

- أين هو هذا الشيء؟

مدّت ذراعها إليه، وتسَلَّلت يدها إلى مؤخرة رقبتة، ثم جذبتة نحوها، وقالت: «هنا».

تساءل ستيف، دون أي مقاومة تُذكر: «مهلاً، ماذا تقصدين؟».

أملت رأسها قليلاً إلى الأمام وقبَّلتة. كانت شفتاها ناعمتين مكتنزتين، ذاق فيهما أثر الملح والمعدن. سمح لنفسه بالانغماس في القبلية لبرهة، عدا أن من طبيعته ألا يغلق عينيه. ومن خلفها رأى انعكاساً على اللوح الزجاجي لخزانة الأواني الخزفية، لشيءٍ يتحرك. تراجع ستيف واستدار ليرى ما خلفه. وفي الظلال وقف رجلٌ عند زاوية الغرفة.. يقبض على سلاحٍ طويل.

قال ستيف رافعاً يديه: «ما هذا! انتظر لحظة...».

علَّقت كارولين: «أنا آسفة يا ستيف».

بطريقة أو بأخرى تمكَّنت من النزول عن الطاولة في هدوءٍ والتحرُّك إلى الجانب الآخر من الغرفة.

قال الرجل: «أنتَ قيد الاعتقال». وصوَّب المسدس نحو ستيف.

رفع ستيف يده رويداً رويداً: «حسناً. لا مشكلة».

خطا الرجل إلى بقعة مضاءة بإنارة مصباح الشارع الخافتة. كان شعره منتصباً وعيناه تدوران بجنون في محجريهما، مظهرٌ جعل ستيف يتساءل في نفسه: «ماذا أصابه؟ هل يتعاطى مضاداً للذهان؟ أهو مصاب بتليف دماغي؟».

كرر الرجل وهو يرفع المسدس إلى كتفه: «أنتَ قيد الاعتقال».

- حسناً. حسناً. هل عليّ أن أستدير الآن، أم...؟

- قف وإلا أطلقت النار.

سالت قطرات من اللعاب على جانب فم الرجل.

- انتظر! انتظر، ساً...

نطقت كارولين أخيراً: «أطلق النار».

أطلق الرجل النار. كان وميض فوهة المسدس هائلاً وبراقاً في الغرفة الصغيرة، لكن ستيف لم يسمع إطلاق النار قط. ولمَّا اتضحت له الرؤية كان قد سقط على ظهره وشخص ببصره للأعلى. ومن خلفه سمع طنيناً خافتاً.

دار بعينيه نحو الصوت، فرأى شريحة من الزجاج تسقط من خزانة الأواني الخزفية. أحدث سقوطها صوتاً جميلاً. واستغرق في التفكير: «ما هذا الذي في الأطباق؟ إنه داكن ويُقَطَّر».

انحنت كارولين حتى صارت في مجال رؤيته، وكررت: «أنا آسفة».

- أنا... ساعديني... عليَّ العودة إلى المنزل... عليَّ إطعام بيتي... عليَّ...
عـ...

مدَّت يدها ولامست خده.
ثم خيَّمت الظُّلَّة.

4

عندما مات ستيف، استغرقت كارولين برهةً لاستعادة توازنها. أغمضت عينيها وزفرت نفساً طويلاً.

كرر المحقق ماينر: «أنتَ قيد الاعتقال». كان قد عاد يترنح في أنحاء الغرفة، وصار الآن عند الزاوية، مولياً ظهره لها. أخذ خطوةً إلى الأمام واصطدم بالحائط. سارت كارولين نحوه وأدارته نحوها بلطف، ثم أخذت المسدس من يده. وتخلّى هو عنه بلا مقاومة.

بيدٍ خبيرة شغَّلت آلية الضَّخ في المسدس، وأعادت تحميل رصاصات جديدة في حجرة الخرطوشة، ثم وضعت على طاولة الطعام. حرصت كارولين على ألا تنظر إلى جثة ستيف، ثم أمسكت بكتفي المحقق ماينر ودفعته نحو المدخل المقوَّس الذي يفصل بين غرفة الطعام والمطبخ. وأمرته: «قِف هنا».

ركَّز نظرتَه عليها لهنيهة، ثم دارت عيناه في محجريهما مجدداً: «أنتَ قيد الاعتقال». ومع ذلك لم يتحرك من مكانه.

دارت كارولين حول جثة ستيف إلى الجانب الأيمن، والتقطت المسدس ثم لفَّت أصابع اليد اليسرى للميت حول آلية الضخ، وبيدها تثبَّت المسدس في موضعه. ثم وضعت سبابته اليمنى على الزناد، وصوَّبت المسدس نحو المحقق ماينر.

راقب ماينر هذا المشهد بلا اهتمام يُذكر، وهو يردد: «قف وإلا أطلقت النار».

ضغطت على الزناد. أصابت الرصاصة ماينر في صدره، قاضية على قلبه ورئتيه، وتسببت في لفظ كمية معقولة من أحشائه إلى خارج جسده من فتحة في ظهره بحجم قبضة اليد. ثم سقط على الأرض.

تركت المسدس يسقط وسارت نحو مفتاح الضوء. هناك خلعت قفازها الأيمن ومررت إبهامها عبر اللوحة النحاسية حول المفتاح، حريصة على ألا تترك أثراً آخر. ولما أنهت ما تفعله، أعادت ارتداء القفاز.

لما أنهت مهمتها آنذاك، تركت المسدس في قبضة ستيف. واستدارت لتواجهه. حتى في تلك اللحظة لم تسمح لنفسها بالبكاء. بل أثرت بلطف لا مثيل له أن تمد يدها وتغمض عينيه. وبلمسة حنون لخدته راحت تقول بالصينية: «أنا آسفة». ثم بلغة قبائل الكومانشي قالت: «أنا أحبك». وبالفرنسية عادت تعتذر، ثم بالأفريكانية عادت تردد: «أنا أحبك». وبالإسبانية تعتذر، ثم باللغة الهندية تقول: «أرجوك سامحني». وتعتذر بالهولندية ثم بالتشيكية، ثم بالجرمانية الفريزية تُردد: «أنا أحبك». وبالتركية تقول: «سأحل هذا الأمر». وبالبلوشية تُضيف: «ليس لدي فكرة». واستمرت على هذا المنوال.

جلست إلى جانب جثة ستيف، يهتز جذعها قليلاً إلى الأمام وإلى الخلف، وتحضن نفسها بذراعيها. ضمت رأسه إلى حجرها، وضوء القمر الفضي ينير الغرفة المكدّسة بالحطام. لمّا باتت وحدها استغنت عن الكذب. وقضت الليلة بأكملها تضمه إليها وتمشّط شعره بأطراف أناملها، وتحادثه بلطف وتقول: «أنا آسفة.. سامحني.. سأصلح الأمور.. أعدك أن كل شيء سيكون على ما يرام». ظلّت تردد كلماتها.. مرة وراء مرة.. بكل لغة عرفتتها الأرض.

قصة جانبية أولى



الرعد القادم من الشرق

بعد مقتل إيشا وآشا، أحضر ديفيد جثتي الأيلان معه إلى المكتبة، يحمل أحدهما على كتف والأخرى على الكتف الأخرى. وفي الصباح التالي، سلخ جلدهما فيما كان سابقًا ممر سيارة والذي ليزا. وأصرَّ الأب على أن تساعد كارولين في عملية السلخ. أقدمت على المساعدة دون شكوى، تُوصل جلود أصدقائها الطرية المغمورة بالدماء إلى ليزا لدبغها وصنع الجلود الصناعية منها، وتُسَلَّم أحشاءهما إلى ريتشارد لتصنيع أوتار القوس. ثم أخذ الأب بنفسه الجثتين بعد سلخهما، وبعد ظهيرة ذلك اليوم علَّقهما على سيخ الشواء، وفركهما بالسكر والكمون، ثم شواهما داخل الثور البرونزي.

طلبت كارولين من الأب ألا يثير ضجة كبيرة بمناسبة عودتها إلى الديار، لكنه أصرَّ على إقامة حفل، حضره جميع من كانوا في بلاط الأب. جاء سفير الأراضي المنسية حاملاً أسف امرأته لعدم الحضور. كان يرتدي ثوبًا أسود، ينفث الحرارة ويدخلها إلى عالم الأحياء البارد. حتى إن المونستروويكن الأخير قد أبدى ظهوره أيضًا، وهذا شرفٌ عظيم. إنه يعيش متحصنًا في قمة الهرم الأسود في نهاية الزمان، ونادرًا ما يظهر في العالم السابق. يقول البعض إنه مجرد تجسيد أكبر عمرًا للأب نفسه. ولهذا راقبته كارولين من كتب بحثًا عن أي علامات تؤكد هذا التخمين بأي شكل، لكنها لم تعثر على شيء. ثم حضر

آخرون أيضًا، نحو أربعة وعشرين ضيفًا بالإجمال: الدوق وليزيل وآخرين لم تعرفهم آنذاك. تبادل الضيوف النبلاء الضحك والمزاح وهم يتناولون الطعام. وفي ضوء النار البرتقالي كان دهن الأيل يتلألأ على خديهم.

عزفت كارولين عن الطعام. حتى قبل وصول الضيوف كلهم، استأذنت للعودة إلى حجرتها. وبررت غيابها برغبتها في إدراك ما فاتها من دراستها. رمقها الأب لهنيهة، ثم أومأ بالموافقة. وبعد أسبوع أو أكثر أخضعها لاختبار، وراح يسألها عن أحداث الصيف. اختار أولًا لهجة الماندرين الصينية، ثم لهجة التنانين السفلية. أخبرها الأب بمدى رضاه عن تقدمها في الدراسة، فابتسمت وأعربت عن شكرها.

واستمرت الحياة على هذا المنوال لبعض الوقت.

حتى ذلك اليوم الذي طرق فيه مايكل بابها.. ربما كان ذلك بعد عام من المأدبة. هذا يعني أنها قد بلغت العاشرة من عمرها آنذاك. كانت غرفة كارولين أسفل أرضية اليشم في المكتبة باردة ومظلمة، لكن بالخارج في أنحاء جاريسن أوكس كان الانقلاب الصيفي يقترب. سُمح لهم بالخروج في المساءات، ولكن بعد ما حدث في الأسبوع السابق، لم تعد تريد الخروج. ارتعش جسمها كلما تذكرت وحدثت نفسها: «ليس بعد ما حصل لرايتشل».

كان فهرس رايتشل معنيًا بالتنبؤ والتلاعب بالمستقبلات المحتملة. أحيانًا كانت تتنبأ من خلال الحسابات الرياضية، وأحيانًا أخرى تقرأ الطلائع في السحب أو في الأمواج. لكن في معظم الأحيان، تعرف رايتشل المستقبل من خلال إرسال وكلائها. وهؤلاء الوكلاء هم أطفالها، أو بالأحرى أشباحها. ولتجعل منهم وكلاء، كان عليها، وفق ما قاله الأب، أن تخنق الأطفال في مهودهم حين يبلغون تسعة أشهر. بل والأهم أن تفعل ذلك بنفسها كما قال الأب.

أدركت رايتشل ما ينتظرها قبل ثلاثة أسابيع من عيد ميلادها الثاني عشر. وبعد أسبوع حاولت الهرب. في إحدى الليالي حين كان الأب مسافرًا، هربت طلبًا للنجاة، انطلقت خلال الظلال الطويلة التي يلقيها الشفق الصيفي، عارية القدمين تدهس العشب الأصفر الذي صار متيبسًا بفعل الجفاف. رآها ثين بالطبع. وانقض عليها هو وحرَّاسه قبيل وصولها إلى لافتة الحي، ومزَّقوها إربًا، كل هذا والأطفال يشاهدون.

استغرقت في التفكير: «يُد راييتشل اليمنى، غارقة في الدماء تخرج مستغيثة من بين كومة الأجسام الفروية. فقدت إصبعين ومع ذلك تحاول بشق الأنفس أن...».

سمعت كارولين طرقات خافتة على باب غرفتها، تشبه خدش مخلب على سطح خشبي. لوهلة فكرت في تجاهله. كان الأب مسافرًا لإنجاز بعض المهمات، وديفيد قد بدأ ينظر إليها بنظرات أثارت عدم الارتياح في نفسها. وبما أن أبواب الغرف تُغلق من الداخل كما الخارج، فلو أنها ...

- كارولين؟

كان هذا صوت مايكل.

ابتسمت كارولين، وأزال المتاريس التي تغلق الباب من جهتها، ثم فتحت شقًا من الباب. وقف مايكل في الممر، عاريًا لُوحتة الشمس. وعلى كتفيه رأت قشورًا بيضاء ناعمة. «هل هذا ملح؟». كان قابضًا على قصاصة ورق. أشارت له بالدخول، ثم أغلقت الباب وراءه وأحكمتها بالمتاريس مرة أخرى.

بلغت مساحة غرفتها ثلاثة أمتار للطول ومثلها للعرض، اصطفت أرفف الكتب على كل حائط منها، وتكدّست الأرفف هذه بنصوص الأب وملاحظات كارولين عليها. ولا نوافذ بالطبع. كان لها أن تُضفي بعض الزينة على المكان، الأمر ليس محظورًا، وكثير من الآخرين قد علّقوا لوحة أو اثنتين، لكنها لم تفعل. ومكتبها هو الأثاث الوحيد الذي يستحق الذكر، إذ كان المكتب مميزًا لا يقتصر على الاستخدام العادي، كأنه مصنوع من خشب الكرز وسطحه من الجلد وتغطيه بعض النقوش الزخرفية الملونة. كانت حصيرة النوم متواضعة وبالكاد مريحة، لكن أرفف المكتبة مكتظة عن آخرها بالكتب، وأكوام مكدسة من الكتب على الأرض يصل ارتفاعها إلى الركبة ويتعثر بها كل من يمشي هنا وهناك.

رحّبت به كارولين: «مايكل!». وعانقته دون أن تهتم لعُريّه: «مرّ وقت طويل! أين كنت؟».

- في الـ ...

فتح فمه وأغلقه عدة مرات، دون أن يخرج صوت من بين شفثيه. وبعد بضع ثوانٍ أشار بيده إلى ما وراء ظهره إشارة مبهمّة.

خَمّنت: «الغابة؟».

- لا. ليس الغابة.

ومثل السباحة بحركات صامتة.

- المحيط؟

أجاب: «نعم. هذا». وابتسم لها ممتناً على المساعدة، ثم تابع: «أنا أعلم مع -أدرس مع- دايفر أي».

دايفر أي هي سلحفاة بحرية وواحدة من وزراء الأب. وفيّة وعتيقة، تتمتع بمسؤولية حصرية عن المحيط الهادئ، وتحمل وحدها مسؤولية حراسة المخلوقات في بحر أوكستك.

لامس مايكل خدَّ كارولين بإحدى يديه الغارقة في الملح، وقال: «افتقدتك».

- افتقدتك أنا أيضاً. كيف حال العالم الخارجي؟

قضت كارولين معظم وقتها داخل المكتبة نفسها، لا يقاطع هذه الخلوة إلا نزعات ميدانية من آن لآخر لاختبار طلاقتها في أي لغة جديدة.

تجهّم وجه مايكل وهو يُجيب: «مختلف. لا يشبه هذا المكان. المحيط عميق جداً».

استغرقت كارولين في التفكير لهنيئة، وبدا لها أنه لا جواب على مثل هذا الحديث.

- نعم. نعم، إنه مختلف.

- كيف هنا؟

- معذرة؟ لا أفهم.

- كيف... كيف الحال... هنا؟

- آه! حسناً، كل شيء كما هو تقريباً. ربما صار أسوأ قليلاً في الآونة الأخيرة. ما زالت مارجريت توقظ الجميع بصراخها. صدقاً أظن أنها جُنّت. لا بد أن السبب هو تلك الكتب الشنيعة المغطاة بخيوط العناكب، تلك التي يدفعها الأب لقراءتها. ومؤخراً صارت مقتنعة أن الأب يعتزم قتلها قريباً.

قلّبت كارولين عينيها في محجريهما وتابعت: «إنها تهوّل الأمور».

- آه. هذا محزن. وماذا عن ديفيد؟

كان مايكل وديفيد صديقين مُقَرَّبَيْن حين كانا أمريكيين. وما زالا يلعبان معًا الآن كلما أُتيحت الفرصة.

أجابت كارولين: «آه، أنتَ تعرف ديفيد. مهرّج كبير، يحب الجميع». قلّبت عينيها في محجريهما، وتابعت: «هو لطيف للغاية، لكنه دائم التفاؤل. قد يصبح هذا مزعجًا أحيانًا».

- صحيح. للذئاب قول

هنا أصدر مايكل عواء الذئاب.

- مم. نعم.

- إنها تعني.. مم.. «قلب رقيق لا يحتمل الصيد». ديفيد.. ربما يكون ودودًا جدًّا؟ رقيقًا جدًّا لا يصلح أن يكون مواجهة؟

علّقت كارولين برفق: «أظن أن الكلمة التي تقصدها «مقاتل». ربما أنتَ محق. كان الأب قد قال شيئًا مشابهًا منذ بضعة أسابيع».

- ماذا عنك؟

- قد تسوء الأمور أكثر.

كانت محقة، لكنها لا تعرف ذلك بعد. وظنّنت في قرارة نفسها أنها تكذب. ثم أثرت تغيير الموضوع فسألت: «ماذا لديك في الورقة؟». وأشارت إلى قصاصة الورق التي يقبض عليها.

رفع مايكل قصاصة الورق ونظر إليها، ثم تقطّب حاجباه. كانت الورقة مغطاة بالكتابة.. رأت بعينيها الكتابة المسمارية⁽¹⁾. وليست اللغة البيلابية. وقال: «يقول الأب...». وأشار بيده إلى الورقة من أعلاها إلى أسفلها، ثم ناولها إياها.

- آه، أجل.

اعتادت كارولين أن يرسل الأب إليها طفلًا أو أكثر طلبًا للترجمة، ومايكل بالكاد يتذكر كلمات اللغة البيلابية. فقد تلقى معظم تعليمه من الغابات

(1) الكتابة المسمارية: هي طريقة كتابة استعملت لكتابة عدة لغات منها السومرية والأكدية وهي طريقة تعتمد على النقش. وهي نوع من الكتابة تنقش فوق ألواح الطين والحجر، والشمع، والمعادن، وغيرها. وهذه الكتابة كانت متداولة لدى الشعوب القديمة بجنوب غرب آسيا. (المترجمة)

والمخلوقات التي تعيش فيها، ولم يتلقَّه من الكتب. أخذت الورقة من يده وفحصتها لبرهة. ثم سألت: «هل أقرأ عليك الورقة كاملة؟».

تغضن وجهه مايكل أَلَمًا: «هل يمكنكِ ...». عصر قبضتيه كأنما ينازع مع الكلمات ونظر إليها في يأس: «لستُ... الكلمات صعبة، الآن. صعبة عليّ». أردفت برفق: «أعرف ذلك. سألخصها لك».

اعتلت وجهه نظرة فارغة فأوضحت: «سأستخدم كلمات قليلة. امنحني دقيقة».

دققت في الوثيقة بعين متمرّسة، وقالت: «إنها وثيقة قديمة. حسنًا، بل هي نسخة منها. لكنها تتحدث عن معركة وقعت في القرن الثاني، ربما منذ خمسة وستين ألف عام مضى». لم يفهم مايكل ما قالته كذلك، فحاولت مجددًا بكلمات أبسط: «منذ وقت بعيد جدًا. الكثير من فصول الشتاء والكثير من الحيوانات مرّت».

قال: «آه. حسنًا».

- إنها تتحدث عنها... مم. لحظة واحدة.

سارت كارولين إلى الحائط الخلفي وأنزلت لفيفة ورق قديمة ومُغبرة. فحصتها في عجالة قاصدة البحث عن شيء بعينه. ثم أومأت قائلة: «إنها تتحدث عن الأب، بشكل أو بآخر».

- الأب؟

- حسنًا، نوعًا ما. تقول الوثيقة هنا إن.. مم.. «البزوغ» لم يجرِ كما خُطط له في الأساس.

و«البزوغ» هو ما أطلقه الجميع على المعركة التي وقعت إيدانًا بنهاية العصر الثالث. وكل ما حدث بعدها يعتبر جزءًا من العصر الرابع، العصر الحالي، العصر الذي يحكمه الأب.

- سار الشروق الأول كما خُطط له، ثم اقتيد.. مم.. الصامتون! أظن أنها الصامتون.. إلى الظلال. لكن حين شنَّ الأب الهجوم الأخير ضد الإمبراطور... مهلاً! تقول الوثيقة إن الأب قد تعرّض «للنفي والذل».

نظرت إلى مايكل بحاجبين مرفوعين. لكنه أجابها بنظرة بلهاء: «أنا... أنا

لا...».

- تعني الجملة أن الأب كان يتلقى ضربًا مؤلمًا.

بدا مايكل مصدومًا: «الأب؟».

رفعت كتفيتها مستغربة: «هذا ما يُقال هنا. على أي حال، تلقى الأب ضربًا مؤلمًا من الإمبراطور». كانت كارولين قد سمعت بالإمبراطور من قبل، لكن فيما عدا حقيقة أنه كان موجودًا وأنه حكم العصر الثالث، لم يُعرف عنه الكثير. وجمال بخاطرها: «لا بد أنه كان رجلًا ذا بأسٍ شديد ليتحلى بالجرأة وينفي الأب».

- هراء... ضرب، ضرب... الأمور تبدو سيئة جدًا للأب... ثم ...

خفت صوت كارولين حتى تلاشى.

- ثم ماذا؟

نظرت إليه: «أسفة». وقرأت بصوتٍ مرتفع: «ومن الشرق أتى الرعد. وعند سماع هذا الصوت، أبلخا (هذا اسم اعتادوا أن يطلقوه على الأب) انتفض أبلخا ونهض. ولمّا نظر نحو الشرق، ارتأى له أن الرعد ما هو إلا صوت رجل، وأن هذا الرجل معروف لديه. هذا الرجل...». مم، لا أعرف ما معنى هذه الكلمة. «كان لهذا الرجل مكانة ما مقربة إلى الإمبراطور، ومستشاره الأمين. ثم أدرك هذا الرجل منبع الحكمة، وانضم إلى أبلخا دون النظر إلى النتائج. وما أن رأى أبلخا ذلك... ممم، غضب؟ لا، ليس غضب. بل قلبه المحارب».

«وما أن رأى ذلك، تجدد قلب أبلخا المحارب، ونهض منتصبًا. وكذلك فعلت جيوش أبلخا التي تمزّقت». قُتِلت على ما أظن. «وانتفضت مجددًا». هراء، هراء... ضرب، ضرب، ضرب... «آه، وبذلك بزغ فجر العصر الرابع للعالم، وهو عصر أبلخا».

ناولت كارولين الورقة لمايكل وسألته: «هل ما قلته مفهوم؟».

أومأ لها بالإيجاب.

- حسنًا، جيد. إذن ما الفائدة من كل هذا؟

رفع مايكل كتفيه في استسلام، وأجاب: «سأقابل هذا الرجل غدًا، وأبدأ تعليمي معه».

- آه!

غمر الحزن قلبها؛ كان مايكل هو أقرب صديق حظيت به. فكَّرت أن تسأله عن مدة غيابه، لكنه لن يعرف. وجال بخاطرهما: «حَسَنًا، أَقْلَهُ مَا تَزَالُ أَمَامَنَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِأَكْمَلِهَا». في المكتبة عليك أن تنتهز لحظاتك السعيدة أينما وجدتَها.

يسأل مايكل: «اسمه. ماذا كان اسمه؟».

- الأب؟

- لا. رعدُ الشرق. الرجل.

ضيَّقت كارولين عينيها ونظرت إلى المخطوطة بين يديها الصغيرتين خشنتي الملمس الملطختين بحبر دائم، ثم قالت: «نوبونونجا. كان اسمه نوبونونجا».

الفصل الثالث

الإنكار الذي يمزق الأوصال

1

في الصباح التالي لقتلها المحقق ماينر للمرة الثانية، استيقظت كارولين على أرضية غرفة المعيشة في منزل السيدة ماجيلكاتي. كان ذلك بعد الفجر بقليل. ظلَّت راقدة على وضعها كدأبها، مغمضة العينين، حريصة على ألا تُبدي أي إشارة بأنها قد استعادت وعيها. ودومًا ما كانت الصباحات هي أصعب ما تواجهه في يومها. فكما عرفت من قبل، لا أحد، لا الأب ولا ديفيد ولا حتى إيميلي، يمكنه قراءة أفكارها في أثناء النوم، لذلك كانت هذه فرصتها الوحيدة للتخطيط لما تريد فعله. عدا أنها حين تستفيق من نومها، يصعبُ عليها أن تمنع حقيقة مشاعرها من الاختلاط بأكاذيب عقلها الواعي، ونتيجة لذلك ترتعش أصابعها عادةً.

استنشقت الهواء في الغرفة، لتعرف ما يمكنها فعله بتلك الطريقة. كان مايكل قد رحل. فكما اتفقا، غادر هو قبل شروق الشمس، على أن يلتقيا لاحقًا عند الثور البرونزي.

لا يزال معظم الآخرين متناثرين في المنزل غارقين في النوم. من غرفة النوم الخلفية التقطت أنفها رائحة باهتة لعرق حامض ودماء طازجة، إنها رائحة ديفيد، وقد اختلطت بعطن التربة البنية واللحم الفاسد، وهذه رائحة

مارجريت. أما أليشيا فتنام بالقرب منها. كانت قد عادت لتوها من المستقبل البعيد وما زالت تفوح برائحة الميثان. والسيدة ماجيلكاتي تُعد الطعام في المطبخ: قهوة وبطاطس مقلية في الثوم ونوع من الصلصلة.

فتحت كارولين عينيها قليلاً. لا تزال الغرفة الأمريكية هذه غريبةً عليها، مثل حلم لا تتذكر منه إلا الفتات. وفقاً للتقويم الشمسي، كانت كارولين في عمر الثلاثين تقريباً، لكن التقويم الشمسي ليس إلا جزءاً من الكون. ولَمَّا تراءى لها أن تخمّن عمرها الحقيقي، عجزت عن الإتيان بأبسط تخمين. إنها تفهم كل اللغات، القديمة منها والحديثة، البشرية والحيوانية، الحقيقية والمُتخيّلة. وتستطيع التحدث بمعظمها أيضاً، رغم ما تتطلبه بعضها من أدوات خاصة. كم عدد ما تفهمه من لغات؟ عشرات الآلاف؟ مئات الآلاف؟ وكم من الوقت استغرقت في تعلّمها؟ حتى في الأيام الحالية، لا تزال تحتاج إلى قرابة أسبوع لتتقن لغة جديدة. ولكن حين تنظر إلى المرأة، لا ترى إلا امرأة شابة. كان الأب قد أعطاها أشياء لتحسين ذاكرتها، ولمساعدة عقلها على العمل أسرع. لكن الزمن يسير بطريقة مختلفة داخل المكتبة، هذا صحيح تماماً. وكارولين، دوناً عن أيٍّ منهم، قد أمضت حياتها بأكملها داخل المكتبة.

لذلك، فإن أمريكا التي كانت موطنها يوماً ما صارت الآن غريبةً عليها. وهذا الشيء الذي يسمى «أريكة» رغم ما يمنحه من راحة، كان مرتفعاً جداً عن الوسائد التي اعتادت الجلوس عليها. وعند زاوية الغرفة كان هناك صندوق يسمى «تلفاز» أو «تليفزيون» يعرض الصور المتحركة، لكن لا يمكنك الدخول إليه أو لمس الأشياء بداخله. كما اختفت الشموع والمصابيح الزيتية، وهكذا يستمر الحال.

كانت السيدة ماجيلكاتي امرأة أمريكية من الأحياء، استضافتهم في بيتها بمحض إرادتها الحرة. «حسناً... تقريباً». صحيح أن ليزا أجرت معها حديثاً وأقنعتها، لكن تأثيره كان مؤقتاً فحسب. وصحيح أن جينيفر أعطتها مسحوقاً أزرق ثبّط من فضولها بشأن غرابة أطوارهم. لكن السيدة ماجيلكاتي أرملة تعيش بمفردها وقد أحبّت وجود صحبة.

مرّ على وجودهم في منزل السيدة ماجيلكاتي قرابة ستة أسابيع. ففي الليلة الثانية لنفهم من جاريسن أوكس والمكتبة، صار من الجليّ لهم أن ذاك السبب الذي يمنعهم من الدخول إلى جاريسن أوكس لن ينقشع الآن. وكان بيتر وبعض الآخرين يتذمرون بسبب النوم، والجميع جوعى. كان بإمكانهم

اللجوء إلى أي أحد في بلاط الأب، لكن ديفيد عارض الفكرة لطيشها. وقال: «لن نلجأ إلى أي أحد حتى نعرف مَنْ وراء ما حدث».

وفي الأفق تلالأت أضواء أمريكا.

لذا انطلقوا معًا، يسرون شرقًا في الحارة المرورية المتجهة غربًا للطريق السريع 78. وبعد قرابة ميل أو أكثر خارج واديهم، صعدوا تلةً ودخلوا أول حيٍّ قابلوه، ثم طرّقوا على بابٍ عشوائي. كان ذلك قبيل منتصف الليل. وقفت كارولين في المقدمة، وديفيد من خلفها يفوقها طولًا ويقبض على رمح بيده. أما السيدة ماجيلكاتي وهي أرملة لم يزورها ابنها الوحيد قط، فأجابت الباب الذي طرّقه وخرجت إليهم بثوبها المنزلي.

بادرت كارولين بنبرة مشرقة: «مرحبًا! نحن طلاب تبادل ثقافي أجنبي! حدث خلل ما في البرنامج، وليس لدينا مكانٌ نقيم فيه! إننا نتساءل إن كان بإمكانك إيوأنا لهذه الليلة؟».

ارتدت كارولين عباؤها الطلابية، ثوبٌ قطني باللون الأخضر الرمادي يشبه الكيمونو وله غطاء رأس، مربوطٌ بشريط حزامي من عند الخصر. وارتدى الآخرون مثلها تمامًا. لكنهم لم يشبهوا طلاب التبادل الأجنبي في شيء.

قالت لهم كارولين بصوتٍ خافت باللغة البيلابية: «ابتسموا». ففعلوا كما أمرت، ورغم اجتهداهم، لم تشعر السيدة ماجيلكاتي بأي ارتياح نحوهم. حدّثت كارولين نفسها: «حسنًا، استحق الأمر المحاولة». تتمتع الكثير من الثقافات بعادة إيواء الغرباء. «من الواضح أن أمريكا ليست واحدة من تلك الثقافات».

أجابت السيدة ماكيلجاتي: «مم... أظن أن هناك فندق هوليداي إن على الطريق، هناك. على اليسار».

قالت كارولين: «صحيح، لكن هذا لن يناسبنا». ثم باللغة البيلابية أردفت: «ليزا، هل لك...؟».

تقدمت ليزا ولامست خذً السيدة ماجيلكاتي. أجفلت المرأة العجوز في بادئ الأمر، ولكن ما إن تحدّثت ليزا حتى انبسطت قسماً وجهها. لم تكن الأصوات التي صدرت عن ليزا من أي لغة تعرفها كارولين، ولو أنّ لهذه الأصوات أي نوع من القواعد أو الأنماط حتى، لم تلاحظها كارولين قط. وعلى

أي حال كان كل هذا خارج نطاق فهرسها، لكنها أثّرت في العجوز كما أثّرت في كل الأمريكيين. بعد هنيهة قالت المرأة: «بالطبع يا عزيزتي. ألن تتفضلوا بالدخول؟».

فدخلوا جميعًا.

حتى مع تأثير ما أحدثته ليزا بها من سحر، ظلّ استقبال السيدة ماجيلكاتي فاترًا معهم في بادئ الأمر. وأدركت كارولين أنها خائفة. راحت تطرح الكثير من الأسئلة، وبدت غير راضية عن إجابات كارولين. ثم أثّر موضوع الطعام. سألت السيدة ماجيلكاتي: «أنتم جائعون؟ حقًا؟».

- نعم. إذا لم يكن هناك مشكلة، فأني شيء لديك سـ ...

أجابت بابتسامة عريضة، ربما للمرة الأولى منذ سنين: «سأعد لكم طاجن لازانيا! لا، بل طاجني لازانيا! الفتيان في مرحلة النمو! لن تستغرق أكثر من دقيقة!».

في الحقيقة، استغرق الأمر بضع ساعات، لكنها أعدّت أيضًا مقبلات أخرى أطلقت عليها اسم «فاتحات شهية» وتعني «تسلية الفم»، وهو تعبير حاز إعجاب كارولين كثيرًا. كانت فاتحات الشهية هذه وجبات خفيفة بحجم اللقيمات من الجبن والزيتون والسلامي والخبز المحمص في الزيت والثوم وأطعمة أخرى من هذا القبيل، بالإضافة إلى النبيذ. وغلّيون جينيوفر الفضي قد دار بين الجمع بضع دورات لإضفاء الأجواء الرائعة. وبحلول الثالثة صباحًا حين قدّمت اللازانيا، كان الجميع في حالة مرح وبهجة، يتضحكون ويستشعرون راحة مؤقتة.

لم تتعكر الأجواء إلا من حادث سيئ وحيد. أنهى ديفيد حصته من الزيتون، فنهض إلى الطاولة طلبًا لمزيد من النبيذ. وغمس إصبعه في معجون الجبن والتهم بعضًا منها. فضربته السيدة ماجيلكاتي على ظهر يده.

حينها تجمّد الجميع كلّ في مكانه.

فكرت كارولين: «يا للأسف. كانت الأمور تسير على ما يرام».

تجهّم وجه ديفيد. ولقامته الفارعة التي تجاوزت قامة العجوز، أمالت رأسها إلى الخلف وتلاقت أعينهما. في ذلك الوقت كانت قد عرفت أنهم لا يتحدثون الإنجليزية، على الأقل لا يجيدونها. رفعت إصبعها أمام وجهه، وعليه اتسعت عينا ديفيد.

أشاحت كارولين بوجهها بعيداً واستعدت لحدوث ما هو أسوأ.
أشارت السيدة ماجيلكاتي إلى الحوض. بدا ديفيد في حيرة من أمره،
وحقيقةً شاركه الجميع الحيرة نفسها ... لكن العجوز لا تزال على قيد الحياة
على الأقل.

تحدّث ريتشارد بعد برهة: «مم... ديفيد؟».
حدّق إليه ديفيد بنظرة مرعبة. فاستطرد ريتشارد وهو يُمثّل ما يقوله
بلغة الإشارة: «أظن أنها تريد منك فتح الصنبور؟ لتغسل يديك؟».
فكّر ديفيد فيما قاله لهنيهة، ثم أومأ برأسه. اتجه إلى الحوض وفتح
الصنبور. في حين أن كارولين تحدّث نفسها يائسة: «آخ، لا. سيغرقها في
الماء. سيسلقها. سيفعل بها شيئاً».

لكن ديفيد لم يُقدم على أي فعل. بل غسل يديه؛ ترك الماء النظيف ينساب
على يديه ويزيل عنها القذارة المتراكمة والدماء المتجلطة، ثم فركهما فركاً
قوياً برغوة شيءٍ يسمى بالموليف. ولمّا أنهى ديفيد غسل يديه، صارتا
نظيفتين ولامعتين حتى منتصف ساعده. ثم رفعهما أمام السيدة ماجيلكاتي.
قالت المرأة بالإنجليزية: «أنت ولدٌ مطيع. ما اسمه يا عزيزتي؟».
أجابت كارولين بشفتين خدرتين: «ديفيد. اسمه ديفيد».
- أنت ولدٌ مطيع يا ديفيد.

ابتسم لها ديفيد. ثم حدث أشدّ ما رآته كارولين في حياتها زهولاً. راح
ديفيد ينقّب في الأعماق الحجرية لذاكرته وعاد إليها بعبارة إنجليزية متعثرة:
«شكراً... جدة».

ابتسمت السيدة ماجيلكاتي.
فابتسم ديفيد.

رفعت السيدة ماجيلكاتي خدها نحوه.
انحنى ديفيد إلى ما يقارب خصره، وطبع قبلةً على خدها.

نظرت جينيفر إلى غليونها الصغير، طرفت جفنيها، ثم نظرت إلى الأعلى.
- هل ترون ما أراه يا أصدقاء؟

أجاب بيترو: «نرى! أجل نرى».

أحضرت السيدة ماجيلكاتي ملعقة نظيفة، وغرفت بعضاً من خليط الجبن والبيض. أطعمت الخليط إلى ديفيد، ثم استخدمت الملعقة لتمسح ما تساقط على ذقنه من قطرات. ربّت ديفيد على بطنه وتمتم بأصوات تعني «لذيذة».

جالت كارولين بعينها في أنحاء مطبخ السيدة ماجيلكاتي، فلم ترَ إلا أعيناً متسعة وأفواهاً فاعرة.

ملاً ديفيد كأسه بالنبيذ وعاد إلى الطاولة.

نظر إليهم وتساءل: «ماذا؟ آه، بحق الجحيم. أنتم تتصرفون دومًا وكأنني غول أو شيء من هذا القبيل».

2

الآن وبعد مُضي ما يزيد على شهر، نهضت كارولين وسارت على أطراف أصابعها بين الأجسام النائمة إلى الحرم المقدس للسيدة ماجيلكاتي. على الموقد راحت تغلي برفق صلصلة صفراء، إلى جانب مكونات أخرى من كريمة وبيض وزبدة. وقفت السيدة ماجيلكاتي أمام رف البهارات الشامل تنقر خدها بإحدى أصابعها وهي تفكّر. وقالت بنبرة آسفة وهي تهز ليمونة بلاستيكية صغيرة: «نفد الليمون الطازج».

ارتسمت ابتسامة على وجه كارولين. للسيدة ماجيلكاتي روحٌ نقيّة. كل ما أرادته في هذه الحياة هو أن تطعم أحدهم. «وقد كانت ماهرة في هذا الأمر». تبين أن الفطور كان وجبة «بيض بني». وكارولين التي لا تهتم عادةً بالطعام قد تناولت حصتين. ولمّا عرفت عن الاستزادة في الأكل، مشيت تنهّدي إلى دورة المياه لتنظيف نفسها.

ما إن خرجت من دورة المياه حتى رأت عيني بيتر متسعتين تراقبانها. في صمتٍ وضعت إحدى أصابعها على صدرها بزاوية معينة، وتوافقت تلك الزاوية مع ارتفاع الشمس في السماء عند العاشرة صباحًا. في ذلك الوقت ستلتقي بيتر ومايكل عند الثور. فوقًا لما قاله أطفال رايتشل الأشباح يتوقع وصول نوبونونجا اليوم. وسيلتقيهم جميعًا في نهاية اليوم، لكن كارولين

كانت قد رُتبت للقاء خاص يجمعها بمايكل وبيتر وأليشيا أولاً. أوماً بيتر متفهماً في صمت. أما أليشيا فلم تستيقظ بعد، لكن بيتر سيبلغها بالموعد. حين عادت إلى المطبخ، وجدت جينيفر جالسة إلى الطاولة وأمامها فنجانٌ من القهوة السوداء يتصاعد منه البخار.

قالت جينيفر بالبيلاوية: «صباح الخير».

- صباح الخير. هل نمت جيداً؟

كانت ابتسامتها دافئة ونابغة من داخلها، ومع أنهما تحظيان بالخصوصية في تلك اللحظة، لم تبدِ لجينيفر الإيماءة التي تبادلتها مع بيتر. لا شك أنها تحب جينيفر، لكن في لقاءهم مع نوبونونجا سيناكشون مسائل حياة أو موت. وفي رأي كارولين أن جينيفر قد غرقت في غليونها وخوفها منذ وقتٍ طويل جداً. «لم تعد ذات نفع».

نظرت السيدة ماجيلكاتي من وراء كتفها موجهة حديثها إلى كارولين: «هل لك أن تسألي صديقتك إن كانت جائعة؟».

أجابتها: «ستتناول بعض الطعام». ثم وجهت حديثها إلى جينيفر: «أمل أن تكوني جائعة».

تأوهت جينيفر: «ما زلتُ أتعافى من تأثير العشاء. هل الفطور لذيذ حقاً؟». أومات كارولين بجديّة: «غير معقول. لا أعرف كيف تعدّه».

ببهجة حقيقية راحت السيدة ماجيلكاتي تقلّب إناءً من الماء المغلي ثم كسرت بيضة في دوامة الماء.

تنهّدت جينيفر، وقالت: «حسناً، لا مشكلة». ثم فتحت حقيبتها الجلدية الصغيرة حيث تحتفظ بمخدراتها وتنهّدت ثانية. كانت شبه فارغة: «لا أظن أنك تذكرتِ...».

قاطعتها كارولين: «في الحقيقة... تذكرت».

ابتسمت جينيفر ابتسامة عريضة: «أنتِ بطلتي!».

قصدت كارولين حقيبتها وأخرجت حزمة مغلفة بورق الألمونيوم في حجم كتاب ورقي الغلاف، وقذفت بها إلى جينيفر: «تفضلي يا مدخنة».

قلّبت جينيفر الحزمة بين يديها، ورمقتها بنظراتٍ متشككة، ثم سألت: «ما هذا؟».

أجابت كارولين: «يسمونه حشيشًا. أعتقد أنه سيعجبك. من النوع نفسه الذي تدخينه عادةً، لكنه أشدُّ تأثيرًا أو شيء كهذا».

حلَّت جينيفر الحزمة، شمَّتْها، ثم اقتطعت بإصبعيها قطعة. دسَّتْها داخل غليونها وأشعلته. وبعد هنيهة: «أوه!».

- هل أعجبك؟

أومأت بإيجابٍ وهي تنفث الدخان من منخاريها. سعلت قليلًا، ثم زفرت الدخان بتهنيدةٍ راضية. وقالت مجددًا: «أنتِ بطلتي».

استلت نفسًا آخر من الغليون ثم عرضته على كارولين.

- لا، شكرًا. الوقت مبكر قليلًا بالنسبة لي.

- كما تشائين.

أنهت جينيفر كلمتها وأخذت نفسًا أخيرًا، ثم أخفت الحزمة في حقيبتها الصغيرة. جلستا في صمتٍ لبعض الوقت تشردان في مشهد السيدة ماجيلكاتي وهي تطهو الطعام.

استطردت جينيفر بالبيلابية وهي تهزُّ رأسها أسفًا: «المسكينة».

- ماذا تقصدين؟

- قلبها جمر. هذا بارد جدًا.

- قلبها ماذا؟

رمقتها جينيفر بنظرة متشككة، وعَلَّقت: «ظننتُ أنكِ تتقنين كل اللغات؟».

أجابت كارولين: «هذا صحيح وخطأ في الآن نفسه. أعني أنني أفهم الكلمات التي نطقَ بها، لكن لا معنى لها لديّ. أظن أنه مصطلح متخصص. هل هو تعبير... من فهرسك؟ (ثم أردفت في عجالة) لا أطلب منك تفسير أي شيء!».

كان الحديث عن فهرسك هو الأمر الوحيد المحظور عليهم حظرًا حقيقياً متعنّتًا. لم يُفصح الأب عن السبب تحديداً قط، لكنه كان شديد التعنُّت والجدية حيال هذا الأمر. الاعتقاد العام يقول إنه لم يرغب في أن يصير أي واحد منهم ذا قوة فائقة، ولكن بعد ما حدث لـ ديفيد، لم يجرؤ أحدٌ على السؤال قط.

أوضحت جينيفر: «لا بأس. القواعد مختلفة قليلًا لدي. يمكنني الحديث عن الحالات الطبية، عن أعراضها، عن تشخيصها، تعقيدات المرض المحتملة،

أي شيء يجوز للمريض أن يهتم بمعرفته. كل ما في الأمر أنني لا يمكنني الغوص في أي تفاصيل فنية عن طرق العلاج».

- حقًا! لم أعرف ذلك.

لم تتجاذب كارولين وجينيفر أطراف الحديث كثيرًا، أقله لم تفعل ذلك منذ سنين.

أضافت كارولين: «إذن... ماذا؟ هل لديها صمام تالف، أو شيء كهذا؟».

- لا، لا. مرضها ليس جسمانيًا. «قلبها جمر» هو مرادف آخر لكلمة متلازمة.

- تعبير مفرط في الزخرفة.

رفعت جينيفر كتفها في لا مبالاة: «يتمتع الأب بطابع شعري».

حدّقت إليها كارولين: «أيًا يكن. إذن ممّ تعاني؟».

زمت جينيفر شفيتها وهي تُنقّب عن الكلمات الصحيحة: «إنها تخبز براونيز».

- «براونيز؟» تقصدين براونيز؟

أومأت جينيفر بإيجاب: «صحيح! هذا بالضبط! أنتِ تفهمين الأمر حقًا».

- مم... لا، جينيفر. آسفة، لكني لا أفهمكِ على الإطلاق.

تجهّم وجه جينيفر وأوضحت: «إنها تخبز البراونيز، ولا تأكلها أبدًا. لكنها تخبزها على أي حال. وتفعل ذلك كل بضعة أيام».

- ما زلت لا ...

- تغني أحيانًا وهي تخبزها. هكذا عرفت الأمر. لا حاجة للكلمات، مجرد

سماع غناء أحدهم أو دندنته تُخبرني بكل شيء.

سألت كارولين وهي تائهة جدًّا: «كل شيء عن ماذا؟».

أوضحت جينيفر: «اضطراباتنا. هي لا تخبز البراونيز لنفسها، بل لشخص فقدته منذ وقتٍ طويل».

- زوجها؟

كان زوج السيدة ماجيلكاتي قد تُوفي قبل عامين.

أجابت جينيفر: «لا. ليس زوجها. لقد قضى معظم سنين زواجهما في العمل. هذا ما عُرف عنه. بالإضافة إلى أنه حظي بنساء أخريات. حاولت أن تتحدث معه عن الأمر ذات مرة، فضربها بسبب ذلك».

- يا إلهي!

كانت حركات السيدة ماجيلكاتي نشيطة في المطبخ وعيناها تنظران بعيدًا.

تابعت جينيفر: «لكن كان لها طفلٌ ذات يوم. وله تخبز البراونيز، لكن هي نفسها لا تدرك تلك الحقيقة».

- ماذا حدث؟

أجابت كارولين: «كان الولد يمارس الجنس بانحراف وفي أي مكان. وهو ما أغضب والده غضبًا شديدًا. ذات يوم عاد الزوجان إلى المنزل ليجدها على الأريكة مع أحدهم. لم تمنع الأم الأمر، ليس كثيرًا، لكن هذا أثار جنون والده. وانقض على الصبي يضربه ضربًا مبرحًا. كسر ساقه اليسرى، وكسر فكه السفلي في مكانين مختلفين. رقد في المستشفى لوقتٍ طويل، والعظام التأمّت في نهاية المطاف. لكن الضرر الذي أصاب روحه كان كارثيًا. فقد ربطت الصبي ووالده علاقة قوية حين كان أصغر سنًا. ثم حطّمه الضرب. بدأ في تعاطي المخدرات، الأمفيتامين في غالب الأحيان، وأي شيء آخر تقع عليه يده. انعزل عنهما، وكان يقضي أيامًا كاملة بعيدًا عن البيت. وفي إحدى المرات لم يعد إلى البيت. تحدّثا معه مرة أو مرتين بعد ذلك ...». قطعت جينيفر حديثها وأشارت إلى الشيء المعلق على الحائط.

أجابت كارولين: «يسمى هاتفًا».

كانت قد سألت ماينر أن يشرح لها أمر الهواتف قبل أن تقتله للمرة الأولى.

- نعم. هذا الشيء. تحدّثا معه مرتين على الهاتف ف، وترك لهما رسالة ذات مرة. كان يعيش في مكان يسمى دينيفر، ثم انتقل إلى مكان آخر يسمى ميامي. ثم انقطعت المكالمات الهاتفية بينهم تمامًا. كان ذلك قبل عشر سنين.

- وأين هو الآن؟

هزّت جينيفر رأسها: «ميتٌ ربما. لا أحد يعرف حقًا. في بادئ الأمر كان هذا مصدر عذابها. كل مكالمة هاتفية، كل طريقة على الباب، كل هذا يُدمي

جرحها ويعمّقه. ظلّت تستلقي يقظة كل ليلة لسنوات طويلة. تعافى زوجها من الصدمة... تجاوزها ونسي. كان رجلًا من طبعه ألا يُعمّق شعوره بأي شيء، كما كان طبع والد السيدة ماجيلكاتي. لكن أونيس عجزت عن تجاوز الأمر. ظلّت ترقد في الظلام وتنتظر عودة ابنها الصغير. وأصبح كل ما تملكه الآن هو الانتظار».

نظرت كارولين إلى المرأة الحزينة تتحرك برشاقة ونشاط في مطبخها، وشعرت بشيء يتحرك بداخلها. كان هذا هو الشعور بالتعاطف رغم أنها لم تعرفه بهذا اللفظ. بل هو شيءٌ تشعر به عادة. ثم علّقت برفق: «أوه. فهمت».

- تظن أنه لو تقرر لابنها أن يعود إلى دياره الآن، فستشبه عودته شعور الاستيقاظ من حلم. ستستعيد قدرتها على الشعور مجددًا. لكن الفتى لن يعود، ورغم أنها لن تسمح لنفسها بالاعتراف بهذه الحقيقة، فهي تعرفها في قرارة نفسها. ولهذا تخبز البراونيز تكريمًا لذكرى طفلها. لا يسعها الإقلاع عن الأمر؛ راحة مزيفة أفضل من عذاب مستمر، أليس كذلك؟ عالمها باردٌ جدًّا، وهذا هو الشيء الوحيد الذي يبعث في نفسها الدفء.

نظرت جينيفر إلى العجوز وهي تطهو البيض في مطبخها وابتسمت في حزن: «قلبها جمر».

استطردت كارولين: «علينا فعل شيء». ارتجفت سبّابتها اليمنى رجفة غير ملحوظة: «يمكن لرايتشل أن تعثر على ابنها. حتى لو كان ميتًا، يمكنكِ...».

حدّقت إليها جينيفر مدهوشة: «هذا لطفٌ منك يا كارولين». ثم هزّت رأسها أسفًا: «أخشى أن هذا لن يفيد. لا تسير الأمور هكذا كما تظنين أبدًا. المشكلة التي نواجهها مع القلب الجمر هو أن الذاكرة تنحرف دومًا عن حقيقة الذكريات. إنها تحتفظ في ذاكرتها بنسخة مثالية من ابنها، ونسيت تمامًا كم كان أنانيًا، وكم استمتع بتوجيه الإهانات البسيطة لهما. لم يكن قط من قبيل الصدفة أن رأياه هكذا على الأريكة. لو أنه عاد الآن فلن يتحسن شيء. وسرعان ما سيرحل مجددًا، عدا أن هذه المرة لن تنعم بالراحة التي يمنحها إياها الوهم. بل ربما تدمرها عودته. لم تعد قوية كما كانت».

- ماذا إذن؟ أليس هناك ما يمكننا فعله؟

هَزَّت جينيفر رأسها أسفًا: «لا. ليس في هذه الحالة. إما أن تجد طريقة لتُسَلِّمَ بغياب الفتى، وإما أن تموت تحت وطأة ذكرياتها».

- فهمت.

بعد ذلك جلسنا في صمت. شربت جينيفر قهوتها وطلبت الثانية. وراحت كارولين ترتشف صودا الليمون على مهل.

استيقظ الآخرون وأخذوا يدخلون الغرفة واحدًا بعد الآخر. ترجمت كارولين طلبات الفطور المتبادلة بينهم وبين السيدة ماجيلكاتي، ثم عبارات الشكر، وساعدت في غسل الأواني حين بدا التوقيت ملائمًا. ثم أعلنت للجميع أنها ستخرج في نزهة، وتسلك إلى الغابة متجهة غربًا نحو الثور.

في أثناء سيرها، شعرت كارولين بالظلمة والبرودة الشديدين في أعماق قلبها. وتساءلت هل دندنت أو غنّت من قبل في حضور جينيفر. مؤكّد أنها لم تفعل ذلك طيلة السنوات العشر الأخيرة، ليس منذ أن بدأت الخطة تتشكّل في ذهنها، لكنها لا تستطيع أن تتذكر ما كان قبل ذلك. فكّرت: «لو أن جينيفر تعرف، فهي لم تُبِدِ أي إشارة على ذلك، لكن...». قلبت الأمر في عقلها لبعض الوقت، ثم تجاهلت المسألة تمامًا. ربما تعرف جينيفر، وربما تشك بالأمر. وربما لا تعرف. لا يهم.

فات الأوان على الرجوع الآن.

3

بعد ساعة وقفت كارولين على طرف الساحة المكشوفة تراقب الطريق السريع 78. على الجانب البعيد من الطريق أسفل التل، سمعت صرير اللافتة الخشبية المتهالكة لجاريسن أوكس في مهب الريح. كانت لافتة مبهرجة بالزخارف، مثلها مثل لافتات العقارات، لكن الحروف الخشبية البارزة قد صارت فضية وتشققت بمرور الزمن. وخطر لكارولين أنها مثالية حقًا، فمن بين ما يتميز به الأب من مهارات، كان ماهرًا جدًّا في التمويه.

أبكرت قليلًا في وصولها، لذلك وقفت في مكانها تجمع شتات أفكارها. كان الثور البرونزي يلوح من ورائها، متلألئًا في لمعانٍ ومهابة، لا يختبئ

بعيدًا عن الأنظار خلف الأشجار. كان الاتفاق بينهما على اللقاء في ذلك المكان، لكنها لم ترد أن تظل قريبة منه وقتًا أطول من اللازم.

راحت تفكر في نوبونونجا. من الضروري أن يسير لقاؤهما الخاص ذاك على أفضل حال، وحاولت أن تفكر فيما يمكن أن تفعله لتتملق ضيفهم النبيل. التفكير السليم يقول بأنها كانت راغبة في إحضار قلب ستيف، المنقوع حاليًا في كيس ذي سحاب داخل درج الخضراوات في ثلاجة السيدة ماجيلكاتي، لكن هذا التصرف سينبّه ديفيد أن هناك أمورًا تحدث من وراء ظهره.

عدا ذلك لم تستطع التفكير في اقتراحات أخرى. لم تلتق ونوبونونجا من قبل، ولا تعرف الكثير عنه عدا ما سمعته من مايكل. بدا جليًا أنه يشتهي اللحم النيء، كما هو حال الكثيرين من وزراء الأب. ثم تبادرت إلى ذهنها المعلومات التي قرأتها عن «الرعد القادم من الشرق» لكنها معلومات مضى عليها زمن طويل. زمن طويل جدًا في الحقيقة. على عكس معظم حلفاء الأب، لم يفقد نوبونونجا حظوته قط، ولم يُجرّد من مكانته البتة. وفكرت: «لا بد أنه وفيّ إذن. وفاء لا يتزعزع». مؤكد أن علاقتهما أعمق من ذلك، فقد كان الأب ونوبونونجا صديقين أيضًا، وهو أمر غريب إذا ما فكرت في الأمر. لكن مايكل أحبه دون تحفظ، لذلك ربما كان من النوع الخلق. علاوة على أنه اشتهر بذكائه. «ربما يمكننا...».

من مكان بعيد خلفها، من عمق أعماق الغابة، جاءها صوت صرير خشب. أمالت كارولين رأسها وقد أصابتها حالة تأهب مفاجئة. «يبدو القادم ضخّم البنيان». لا تزال تذكر كثيرًا مما تعلّمته من فترة إقامتها مع إيشا وآشا وهو الوثوق بأن هذا ليس صوت سقوط شجرة. «لا. هذا صوت غصن يتكسر». يتكسر تحت قدمي كائن ضخّم بلا شك، هذا واضح من الصوت. «ربما كان باري أوشيا؟ لا شك أن الوقت مبكر على...».

التفت حول الصخرة لتحصل على زاوية رؤية أفضل، ثم استخلصت التركيز من عينيها، وألجمت حواسها كلها وسخرت تركيزها جُلّه للتصنّت. على الطريق بالأسفل مرّت سيارة بعيدة بعض الشيء. ومن مكان آخر ليس ببعيد صاح طائر سبد بشيء لم تفهمه كارولين في تلك اللحظة. بدا نداؤه عاجلاً جعلها تحدّث نفسها: «كان مايكل ليفهمه».

«تكسير».

هذه المرة صار صوت التكسير قريباً.

بسرعة قفزت من فوق الصخرة وقد تملكها حذر مفاجئ. عاشت إيشا وآشا حياتهما ترتعدان خوفاً من الدببة. لم ترَ واحداً من قبل، لكن مايكل أكد لها أن هناك قليلاً منها في الأرجاء، وقليلًا من مخلوقات أخرى غير طبيعية، مثل النيوموفوروز وما شابهها. «لم تشكل أي من تلك المخلوقات أي خطر حين كان الأب بالجوار، أما الآن... أظن أنه حان وقت الرحيل».

لكنها في الحقيقة ليست قلقة؛ أي مخلوق غير طبيعي سيميز رائحة المكتبة تفوح منها، وسيرتعد خوفاً. أسوأ الاحتمالات أن هذا دب جائع، وبعد الأهوال التي تعرّضت لها هذا الأسبوع، لا تقبل أن تخاف من شيء كهذا. صوت تكسير آخر.

زعم طائر السبد مجدداً. وخرج أرنب من الدغل مذعوراً يقفز متجهاً نحو الجرف.

«كائنٌ من كان، لا شك أنه قادم نحوي».

تنهّدت وانطلقت مهرولةً نحو الثور. تحرّكت بمهارة علمتها إياها إيشا، ومزيد من الحرص تعلّمته بنفسها. حركتها سريعة جداً، لا تصدر أي صوتٍ على الإطلاق. وما زال القلق لم يطرق باب قلبها. كان للثور وجود على مستوياتٍ متعددة بخلاف المستوى المادي؛ استشعرت الحيوانات هذا الحضور أكثر من البشر، وهو ما أقلق راحتهم. لن يجروُ أي وحشٍ طبيعي على الاقتراب منه. لو أنها صارت حتى على مرمى حجرٍ منه، ستكون في أمان.

عن جانبها سمعت فجأةً حفيف أوراق، خافتاً لكن لا تخطئه أذن. «هل هذا... هل يتعقّبني؟».

قطعاً لا.

لكن على بعد مئة مترٍ تقريباً، رأت ما كان يطاردها. نصف مختبئ خلف أليكة من زهور الزعفران.

«نمر؟ حقاً؟ وفي فيرجينيا؟».

التقت أعينهما. برفق دفع النمر أوراق جذع الداتورا الشوكية التي كشفت عن ملامح وجهه. وسمح لها أن تلقي نظرةً خاطفة على هيئته كاملة -فراء برتقالي، وخطوط سوداء، وبطنٌ أبيض- ثم انطلق نحوها. جدّ السير برشاقة

مثل المنوم مغناطيسيًا، وعيناه الخضراوان تتحركان هنا وهناك. اتسعت فتحتا منخاريه. وذيله الذي قارب طوله ثلاثة أقدام يتمايل برفق في أعقابه. حثَّتها غريزتها أن تتوقف عن الحركة ثم تركض في الاتجاه الآخر بأسرع ما يمكنها. لكنها استدارت نحوه وبفعل الأدرينالين رغمًا عنها ركضت في اتجاهه. سحبت خنجر السبج من غمده عند مؤخرة ظهرها. وأخذت تصيح، لكنها صرخة حرب، لا صرخة هلع، صوت بشري خافت ووحشي. اتسعت عينا النمر قليلًا في استغراب.

وفجأة اختفت من أمامه. وبقفزة واحدة اتجهت يسارًا واختبأت تحت صنوبرة كثيفة. ولمَّا حاد بصرها عنه، والأهم هو أن بصره قد حاد عنها هي، قفزت نحو صنوبرة أخرى صغيرة. قدرت ارتفاعها بنحو متر ونصف عن الأرض، ولَفَّت ساقها حولها، ثم ذراعيها. وبدأت تتسلق الشجرة هربًا، متشبثةً إلى الأعلى باللحاء الخشن يخدش صدرها وبطنها وفخذيها. واخترقت عينيها نثرات منه وهي تتسلق.

بعد بضع ثوان أَلَقَتْ نظرةً إلى الأسفل وتفاجأت بأنها على بعد تسعة أمتار تقريبًا في الهواء. كانت الأرض من أسفلها خاوية. ولوهلةٍ نعمت بفكرة أنها تخيلت الأمر برمته، وأن هذا ...

ثم فكَرَّت: «لا، كان نمرًا، أنا متأكدة».

انسلَّ خفية من وراء الصنوبرة الكثيفة في تراخ. جرَّبت أن تُنصت لأي صوتٍ من كُثب، فلم تسمع شيئًا. وفكَرَّت: «لا بد أنه كان يعبث معي في السابق. يصدر أصواتًا خافتة ويكسر الأغصان تحت قدميه، ليرى ما سأفعله. لا بد أنه ...».

رفع النمر عينيه نحوها وزأر. جاهدت كارولين رغبةً في التبول على نفسها. ثم تسلقت قرابة نصف متر آخر لأعلى الصنوبرة. إلى أقصى ارتفاع تجرؤ للوصول إليه. كان سُمك اللحاء يتضاءل كلما ارتفعت، وانتابها قلق من أن وزنها قد ...

جثم النمر على وركيه، ورفع أحد مخالبه الضخمة، عاينه لبعض الوقت ثم لعقه.

بعد هنيهة، ظهر مايكل في محيطها، ونادى: «كارولين؟».

كانت نبرة كلامه قاسية متقطعة، النبرة نفسها التي يتبادل بها الحديث مع الحيوانات.

- لماذا أنتِ فوق الشجرة؟

أغمضت عينيها بقوة وصرّت على أسنانها، ثم أجابته: «مرحباً مايكل. خرجتُ أشمُّ بعض الهواء النقي وأتدرب. وظننت أن تسلق شجرة سيكون ممتعاً. كيف حالك اليوم؟».

- أنا بخير.

بدا عليه الحيرة من نبرة الغضب في صوتها، لكنه أضاف: «عليك النزول إلى الأسفل يا كارولين. تبدين سخيفة».

- نعم. نعم، لا أشك أنني أبدو كذلك.

وشرعت في النزول.

لما لامست قدمها الأرض، نظر إليها مايكل والنمر لبرهة، ثم أوماً مايكل برأسه إلى الأرض. أجابته كارولين بنظرةٍ بلهاء في غير فهم. فأشار إلى الأرض ثانية، وربّت على بطنه.

«آه، نعم».

استلقت على ظهرها وكشفت عن بطنها. حكَّ النمر أنفه ببطنها، وهو يتشمم الهواء هنا وهناك. ولمّا انتهى، نهضت كارولين. وقالت: «زيارة اللورد نوبونونجا شرف كبيرٌ لنا».

ترجم مايكل حديثها بدمدما عميقة لها تردد مدهش يصدر من صدره الصغير.

ثم وجهت كارولين حديثاً جانبياً إلى مايكل: «ألم تتمكن من إخباري بأنه نمر لعين يا مايكل!».

حدّق مايكل إليها. كانت نظرتة بلهاء ساذجة. في تلك اللحظة كان بإمكانها أن تخنقه بيديها وهي تبتسم.

- ألم تعرفي؟ ظننتُ أن الجميع يعرف.

بعدما أنعم عليها نوبونونجا بالمباركة، عادت كارولين أدراجها للقاء بيتر وأليشيا. أرادت أن تنبّههما بأمر نوبونونجا، وتجنّبهما المواجهة المخيفة التي تعرّضت لها. كانت أعصاب الجميع متوترة بالفعل.

اعترضت كارولين سبيلهما عند الجرف، على بعد نصف ميل تقريباً من الموضوع الذي التقت فيه نوبونونجا، وهما يسيران جنباً إلى جنب. أدهشها أن تراهما معاً، فسألتهما: «ماذا قلتما لديفيد؟».

كان فهرس بيتر هو الرياضيات، وأليشيا تستكشف تقلبات المستقبل واحتمالاته. وعجزت عن التفكير في أي سبب منطقي يتطلب خروجهما معاً. تبادلنا نظرات خاطفة، وبادر بيتر بالجواب: «إننا، مم...». ثم تراجع وقد احمرّت وجنتاه خجلاً.

أمسكت أليشيا بيده وشبّكت أصابعها بأصابعه، ثم قالت بلهجة حاسمة: «إننا نخرج لنزهات قصيرة معاً بين حين وآخر، وقد مضى وقتٌ على هذا الأمر. لم يفكر أحد حيال الأمر اليوم. ظننتُ أنك تعرفين؟».

- ولماذا تخرجان... أوه! أنا، مم... أوه. فهمت (فركت كارولين جبهتها حرجاً، وأضافت) آسفة. تتوالى الأدلة اليوم لتنبهني إلى أن أشحذ مهارات الملاحظة لدي. لكن لا تهتمان لذلك. وصل نوبونونجا.

- وصل؟ أين؟

أشارت كارولين إلى الطريق السريع 78 أسفل الجرف. كان نوبونونجا يتهادى على امتداد الحارة المتجهة شرقاً، وسيارة تسرع في الاتجاه المعاكس. رأت كارولين السائق يتثاءب. كان الأب قد ألقى بتعويدة على الضاحية فلا تبدو مثيرة للاستكشاف في نظر الأمريكيين، لكن لا يدري أحدٌ ما فعل بالضبط.

سألت أليشيا: «أهذا هو؟».

- أهو نمر؟

أجابت كارولين بنبرة مزهوّة: «آه، آسفة. ظننتُ أنكما تعرفان! نعم، هذا هو. فريدٌ من نوعه، أليس كذلك؟».

عَلَّقَ بَيْتَر: «لا أظن أنني رأيت نمرًا من هذا القرب من قبل».

أجابت كارولين: «بل رأيت. ورأيت أنه أنا أيضًا. كان هناك نمر في الغابة حين عدتُ من... من رحلتي الصيفية». الصيف الذي قضته برفقة إيشا وآشا. وأكملت: «أنا شبه متأكدة أنه كان نوبونونجا. لكنني رحلتُ مبكرًا. لو أننا عُرضنا عليه، ما كنتُ لأذكر».

قال بَيْتَر: «آه صحيح. تذكرت الآن».

سألت أليشيا: «أهذا ما - مَنْ - كان مايكل يتعلم على يديه؟ ظننتُ أن نوبونونجا مم... رجل». راقبت مشيته لهنيهة ثم علَّقت: «رائع. رائع... جدًا». أجابت كارولين: «ليس نوبونونجا وحده من يتعلم مايكل على يديه. في كل مرة أتحدث مع مايكل يكون عائدًا من مكانٍ مختلف: إفريقيا، الصين، أستراليا. لكن نوبونونجا دومًا هو مَنْ يتولى أمر تقديمه للمعلمين الآخرين. إنه يحظى باحترام كبير».

- له مظهر مخيف، أليس كذلك؟

أومأت كارولين بالموافقة: «بلى. حقًا أنتِ لا تعرفين كم هو مخيف». سككت عن الكلام قليلًا، ثم استأنفت بفتور: «أتساءل إن كان هو السبب وراء هذا».

- ماذا تقصدين؟

فركت كارولين صدغيها: «أكره أن أعترف بذلك، لكن وجهة نظر ديفيد تستحق التفكير. لم يغيب الأب طويلًا هكذا من قبل». نظرت إليهما نظرة طويلة هادئة، وتابعت: «من المرجح أن حادثًا قد وقع له. حادثًا سيئًا. ربما مميت».

- أنتِ لا تفكرين جدًّا في

أجابت كارولين: «كل ما قلته هو «ربما»». كانت أصابعها ترتجف ثانية، فأخفتهم في قبضتها، وأضافت: «لكن... أظن أنكما ستتفقان معي على أن عدد المخلوقات القادرة على إيذاء الأب صغيرٌ نسبيًا. لا يدور في رأسي سوى ثلاثة فحسب: ديفيد والدوق ونوبونونجا».

علَّقت أليشيا: «قد يكون هناك آخرون. بعض المخلوقات التي لا نراها كثيرًا. ربما كيو33- نورث؟». لكنها كانت تنظر إلى نوبونونجا، وتفكر.

- أهو المخلوق ذو اللوامس؟

- لا، ذاك بييري أوشيا. أما كيو33- نورث هو المخلوق الذي يشبه جبلاً جليدياً له أذرع، أتذكره؟ الذي يسكن النرويج في الشمال.

- آه صحيح.

قال بيتر: «ما زلتُ أعتقد أنه ديفيد. هل تذكران ما ...».

قاطعته كارولين: «نعم أذكر. إذا أخذنا كل شيء في الاعتبار، أظن أنني أتفق معك. يساورني شك أن ديفيد هو مَنْ وراء كل هذا. لهذا اقترحتُ أن نتقابل، لو أن ديفيد قد انقلب على الأب، لا بد أنه قد خطط لشيء للتعامل مع نوبونونجا أيضاً. ويجب أن يعرف نوبونونجا بهذا. لربما يخطو نحو فخ».

قالت أليشيا: «نوبونونجا عتيق. يقول البعض إن عمره ستون ألف سنة، ويقول بعض آخر إنه أكبر من ذلك. أنا نفسي لم أقارب الثلاثين حتى يا كارولين. إننا بالكاد أطفال في نظره. أأنتِ واثقة أنه بحاجةٍ إلى نصيحةٍ منّا؟».

أجابت كارولين: «والأب عتيق أيضاً. فأين هو الآن؟». وانتظرت، لكنها لم تتلقَ جواباً من أحد عن سؤالها. لذلك اختتمت كلامها: «هيا بنا، لا نريد أن نتأخر».

اتخذوا طريقهم متجهين نحو الثور، يسرون على امتداد حافة الجرف. وثلاثتهم يراقبون نوبونونجا بافتتان في أثناء سيرهم. كان قد هبط الدرجات وعبر الطريق، ويقف الآن أمام لافتة جاريسن أوكس. مرّت شاحنة صغيرة مسرعة على الطريق السريع 78، أصدر الكلب الجالس في صندوقها نباحاتٍ مرتبكة، لكن بدا أن السائق لم يلاحظ.

راح نوبونونجا يتمشّي ذهاباً وإياباً أمام اللافتة، مرة.. مرتين.. ثلاث مرات. بدا بيتر مفتوناً برؤيته، واضطرت أليشيا أن تسحبه لكيلا يسقط عن الجرف. ولما صاروا على بعد مئة وثمانين متراً تقريباً، زأر نوبونونجا منادياً مايكل. أسرع الأخير هابطاً الدرجات وعبر الشارع ليلبي نداء أستاذه. تبادلوا الحديث لبعض الوقت، زمجرة خشنة لم تستطع كارولين سماعها، وإيماءات. ثم حكَّ نوبونونجا صدر مايكل بكتفه.

راح مايكل يخطب الأرض بيديه ورجليه في انزعاج واضح. سمح له النمر أن يعبر عن انزعاجه لهنيهة، ثم زأر. صمت مايكل، وعاد أدراجه عابراً الطريق، ثم قرفص على الدرجة السفلى من الثور، ورأسه بين يديه منكسراً. فكَرَّت كارولين: «أتساءل عما كان هذا؟».

أدار نوبونونجا ظهره للطريق السريع. واجه جاريسن أوكس، ووضع أحد مخالبه الضخمة على الطريق المؤدي إلى المكتبة. وبأنانة وتؤدة بدأ السير إلى الأمام.

- مهلاً... ماذا يفعل؟

أجابت أليشيا: «كيف يبدو لك؟ إنه يبحث عن الأب».

علّق بيتر: «لكن، إذا كان... أيّاً ما كان اسمه...».

قالت كارولين: «نعم. ذلك الشيء». ونادت مايكل: «مايكل، هل أخبرته عن...».

صرخ مايكل: «اصمتي يا كارولين!». انتاب كارولين شيء من القلق حين رآته يبكي، وهو يتابع: «اصمتي! يحتاج إلى التركيز!». أومأت كارولين برأسها في كثير من التجهّم هذه المرة. وقالت: «صحيح. سيفعلها. سيبحث عن الأب».

كانت اللافتة عند مدخل التجمع السكني هي المعلم البارز لحدود الحاجز الذي يمنعهم عن الدخول إلى المكتبة. إذا عبرت اللافتة بخطوة أو اثنتين فستبدأ في الشعور بالأعراض؛ صداع، وخدر، وضيق تنفس، وعرق، وما يشبهها. اختلفت الأعراض من شخص لآخر، فكل من مسّته تلك الأحداث عاش تجربة فريدة، وإن لم يشعر بها الجميع بالقوة نفسها. حبس الآخرون أنفاسهم في انتظار معرفة ما إذا كان نوبونونجا مُحصناً ضد هذه الأعراض أم لا. وتحت وطأة أكاذيبها ارتعشت أطراف أصابع كارولين وتظاهرت بأنها تقبض أنفاسها أيضاً.

عبر نوبونونجا اللافتة بتؤدة دون أن تظهر عليه أعراض انزعاج واضحة. علّقت أليشيا متأثرة بهيبة الموقف: «إنه يعبر اللافتة حقاً». لمّا حاولت أليشيا من قبل عبور اللافتة، لم تخطُ أبعد من خطوتين عنها. وبدأت مقلتها

تنزفان دمًا. عادت أدراجها بعد ذلك، ومع أن جينيفر قد أوقفت النزيف. ظلت رؤيتها ضبابية لأيام.

وصل ديفيد إلى أبعد نقطة، وخطا ثماني خطوات. ثم عاد أدراجَه والدماء تتفجّر من أذنيه وعينيه وأنفه. لم يصرخ -فليس من السهل دفع ديفيد للصراخ- لكن عندما وصل إلى النقطة الأبعد وقُبيل أن يعود أدراجَه أصدر أنينًا خافتًا، كأنه أنين حيوانٍ يتألم.

والآن تجاوز نوبونونجا -بخطوات أربع طويلة- تلك النقطة التي توقف عندها ديفيد.

قال بيتر: «لا يبدو أن هذا الشيء يؤثر فيه».

- ربما لا.

كانت اللافتة على بعد ثلاث قطع سكنية عن باب الدخول إلى المكتبة، وشقّ نوبونونجا طريقه عابرًا القطعة الأولى دون أن تظهر عليه أي من أمارات الانزعاج. ثم توقف عند تقاطع الطرق الأول ونظر من وراء كتفه إلى مايكل.

صاح النمر: «هذا ريساك أيريال». لم يتحدث بلغة النمر، بل باللغة البيلابية الشائعة لديهم. كان صوته مزمرًا بعض الشيء، لكنه مفهومٌ تمامًا للسامعين. وأكمل: «الآن أفهم ما يحدث. إنها إرادة أبلاخا أن أطارد الرمز - وأدمره، لو استطعتُ ذلك».

سأل بيتر مستغربًا: «هل يستطيع الكلام؟».

وسألت أليشيا: «ما معنى ريساك أيريال؟».

أجابت كارولين: «تعني «الإنكار الذي يمزّق الأوصال». والآن اصمتا! أريد المشاهدة».

أخذ نوبونونجا خطوة أخرى.

علّقت أليشيا والأمل يتسع في نبرتها: «إنه محصّن. عرفتُ ذلك. يبدو أننا سنعود إلى الديار بعد ...».

قاطعتها كارولين: «انظري».

بعد ثلاث خطواتٍ من لافتة توقف التي تميز تقاطع الطرق الأول، توقف نوبونونجا. رفع مخلبًا ضخماً، فترأى لعيني كارولين الثاقبتين أنه يرتجف.

استدار نوبونونجا نحو مايكل مجددًا، ودموع من الدماء تتقاطر من عينيه الخضراوين على خطمه.

صرخ مايكل: «لا!». ثم قال شيئًا بلغة النمر، وراح يركض نحو نوبونونجا. صرخت كارولين بدورها: «مايكل! لا!». راقبت المشهد بعينين مفزوعتين، ومايكل يركض باتجاه جاريسن أوكس. ظنّت من قبل أنها جاهزة لما سيأتي بعد ذلك، للقرارات التي يجب أن تتخذها، لكن ...

«ليس مايكل. ليس بعد».

راحت تركض وراءه. كانت سريعة –أسرع من الجميع عدا ديفيد– لكن مايكل بعيد جدًا عنها. انطلقت مسرعة تهبط الجرف، حتى كادت تسقط. لكن لحظة وصولها إلى الأسفلت، كان مايكل قد عبر الطريق.

- لا!

قطع مايكل مسافة عشرين قدمًا أو يزيد بين الطريق ولافتة جاريسن أوكس بسرعة جنونية أعجزت كارولين عن التدخل. وبانطلاقة ثانية قطع ثمانية أقدام أخرى أو يزيد.

«لا!».

ثم سقط مايكل كمن أُصيب برصاصة في رأسه. ورقد جسده بلا حراك. صرخت كارولين مجددًا: «مايكل!». وصوتها يختلج بحسرة حقيقية. طفت على أفكارها ذكريات يوم عودته من المحيط لزيارتها، بسمرة ذهبية لفحت ذراعيه النحيلتين، ورائحة الملح تفوح منه.

اقتربت منها سيارة بي إم دبليو ذهبية مسرعة وصغير البوق يتعالى. زعقت كارولين في السيارة بأسنان مكشوفة مثل أسنان القرد. انحرف السائق فجأة إلى جانب الطريق، دون أن يفقد السيطرة على السيارة، ثم اندفع مسرعًا تاركًا خلفه رذاذًا من الحصى. قطعت كارولين مئة قدم بينها وبين مايكل في بضع ثوانٍ، وهي تركض عابرة الحاجز، وتماّمًا كما فعل مايكل قبل قليل –هي أملت أن يبدو الأمر هكذا– سقطت بوجهها على الأسفلت.

لكن حيث رقد مايكل بلا حراك، نهضت كارولين. راحت ترفع ثقلها مستندةً إلى مرفقيها وركبتيها. كان أنفها مكسورًا، وشلال من الدماء ينهمر على وجهها من الجروح البليغة في أنفها وخدها.

زحفت خطوة واحدة إلى الأمام، ثم تلتها بأخرى. كانت حركتها تشبه التشنجات.. حركات متقطعة، كأنما أعصابها ما عادت تؤدي وظيفتها. وظننت أن أدائها التمثيلي مقنع. لا تميز ارتجافها المفتعل عن ارتجافها الحقيقي، وكان لهذا جانب إيجابي في تمويه ارتعاش أصابعها الذي كان يباغتها أحياناً. خطوة الثالثة. ثم خطوتين أخريين وتبلغ كاحل مايكل.

أمسكت به من كاحله، ثم تقيأت ما كان في معدتها من البيض وصودا الليمون. ولمّا أحكمت قبضتها عليه، استدارت وبدأت في الحركة إلى الورا نحو الطريق الرئيسي وهي تجرُّ مايكل خلفها.

خطوة بخطوة شقّت لهما طريقاً إلى مكان آمن. وما إن خرجت من البوابة الحديدية، حيث يتوقف التأثير، انهارت على بطنها من فرط الإرهاق. وبعد لحظة اقترب بيتر وأليشيا في بطاء وحذر.

سألت أليشيا: «هل أنت بخير؟».

انقلبت كارولين على ظهرها وتهوَّعت عدة مرات دون أن تتقيأ، ووجهها غارق في الدماء.

أجابت: «سأكون بخير على ما أظن. مايكل...؟».

سعل مايكل وتقيأ.

- اقلباه... اقلباه على جانبه. حتى لا يختنق بقيئه.

ففعلا ما أمرتهما به، ومايكل يسعل أكثر وأكثر ويلفظ دماء من فمه.

قالت كارولين: «علينا أن نوصله إلى جينيفر». ومسحت الدماء عن عينيها بإصبع مرتعشة، ثم سألت: «ماذا عن نوبونونجا؟ أين...؟».

نظر بيتر بعيداً حيث نوبونونجا، وهزَّ رأسه أسفاً: «قطع مسافة قطعة سكنية ونصف قبل أن يسقط. يرقد الآن على جانبه. ظل صدره مضطرباً لبعض الوقت لكنه (ونظر إلى كارولين)... لم يعد يتحرك».

عصرت كارولين عينيها. وقالت بالعربية: «ابن العاهرة!». ثم بالإنجليزية: «اللعة!» وبالعربية مجدداً: «دُعر». ثم بالفرنسية: «خراء!». ثم بالإنجليزية مجدداً: «خراء.. خراء!». انقلبت على جانبها ودفعت بنفسها لوضعية الجلوس. ضيقت عينيها وشردت بنظرها نحو موضع نوبونونجا، ورأت أن بيتر محق فيما قاله. حدثت نفسها: «لا يصدر عنه أكثر من رجفة». وكتمت ابتسامة

بسيطة لا مبالية. ثم قالت: «حتى لو استطعتُ التوغل إلى ذلك الحد، وهو ما أظن أنه ليس باستطاعتي، سيكون وزنه ثقيلًا جدًا عليّ. لن أستطيع تحريكه. ليس بمفردى».

نظر إليها بيتر بمزيج من الإجلال والارتياح، وسألها: «هل توجد كلمة تجمع بين معنى «الشجاعة» و«الحماقة» في الوقت نفسه؟».

أجابت بشيء من الانزعاج من طعن بيتر المنطوي في كلماته: «نعم، يوجد الكثير منها». وفكرت في أن تشرح له كيف تنطبق عليه «هو» كلمة «زَمَل». لكنها لم تُقدم على ذلك، وفكرت أن مثل هذا التصرف سيجلب عليها نتائج عكسية. وأثرت أن تزحف حتى وصلت إلى مايكل وفحصت نبضه بأطراف أناملها. رفرِف جفناه استجابةً للمستها، وسأل: «كارولين؟ كارولين، أين...». قرأ الجواب في عينيها، ثم تأوه. تحرّكت شفتاه لكن لم يخرج منهما شيء. كان حزنه عميقًا لا تصيغه كلمات.

راحت تخلل شعره بأصابعها وهي تهدده: «ششش... ششش، مايكل. ششش».

كان هذا كل ما استطاعت النطق به.

5

بعد ساعة أو يزيد، أصبح جليًا أن مايكل سيكون بخير -جسمانيًا على الأقل- لكن قلبه مفطور، يذرف دموعًا بريئة لا تسقط إلا من عيني طفل صغير. أرادت كارولين أن يتحركا إلى مكان ليس مكشوفًا للعيان إلى هذا الحد، فالبقاء قريبًا من الطريق الرئيسي يوتر أعصابها، لذلك اجتمعوا ثلاثتهم ليساعدوا مايكل على صعود الدرجات المؤدية إلى الساحة المكشوفة المحيطة بالنور. لكن بدلًا من أن يقصدوا النور نفسه، آثروا التوغل في الغابة؛ ملاذ مايكل الآمن.

في مكان ليس ببعيد عنهم يجري جدول ماء من فوق منحدر صغير، وصوت خريره يبعث البهجة في النفس. تذكرت كارولين المكان الذي قضت فيه صيفها رفقة إيشا وأشا.

هو الخيار الأفضل إذن، لن تستطع رؤية الضاحية، ولا جسد نوبونونجا من هناك. ولعجز مايكل عن المشي وفقدانه التوازن، ساعدوه على الوصول إلى ذلك الجدول. وهناك أرقدوه على الأرض إلى جانب الجدول حتى يستريح. ربما لسوء فهم منهما، ترك بيتر وأليشيا الاثنین وحدهما. لكن كارولين ومايكل ليسا حبيبين. هذا لا يعني أنهما لم يحاولا، بل جرّبا ذات مرة حين كانا -مم- في أوائل العشرين من عمرهما؟ كان ذلك منذ عقد مضى رغم أنها بدت مدة أطول. خطر لها أن قضاء تلك الليلة معًا لا بد فكرتها هي، رغم أنها لا تتصور فيما كانت تفكر آنذاك. لا تتذكر إن كان لها أي اهتمام حقيقي بالجنس، وقطعًا ليس بعد حادثتها مع ديفيد. هل كانت تلك الليلة مع مايكل عرضًا من أعراض يأسها، أم ربما شعورًا جليًا بالوحدة؟ لم تعرف قط.

ذات ليلة غاب فيها الآخرون عن المكتبة أغوته كارولين.. تقريبًا. أو على الأقل حاولت إغواءه. وانتهى الأمر بينهما نهاية سيئة. لأسباب لم تفهماها كارولين قط، كان مايكل عاجزًا عن إتيانها. كان راغبًا في ذلك، وأمکنها أن تستنتج ذلك من عنفوان قبلته، والتعطش الذي دفعه لنشب أظفاره فيها ما إن فهم ما ترمي إليه. لكن مهما فعلت، ظل عاجزًا. وبعد مضي وقت طويل مربك من المحاولات، دفعها مايكل برفق شديد بعيدًا عنه. في تلك الليلة تدفأ بالنار نفسها دون أن يتلامسا. استيقظت في الليل وسمعت يبكي في نومه. ثم رحل قبل الفجر في اليوم التالي. وبعد ذلك تضاءلت المرات التي رآته فيها وتضاءلت.

مع ذلك، ظل الود بينهما متبادلًا، حتى لو لم يكونا شديدي القرب. لا يكتّان لبعضهما أي ضغينة، ويسرعان لحماية بعضهما متى استطاعا. ولهذا أهمية وشأن كبير بين البيلابيون. احتضنته كارولين في حجرها طوال عصر ذلك اليوم الخريفي، تطبطب جرحه بكلمات مثل: «أنا آسفة حقًا» و«أعرف أنكما كنتما صديقين». كان للكلمات مذاق الرماد في شفيتها. ورغم أنها تعرف كل كلمة تحدث بها أحدٌ على ظهر الأرض، عجزت عن التفكير في أي شيء تقوله لتخفيف حزنه. وكل ما استطاعت فعله هو أن كفكت دموعه بأطراف أناملها.

قبيل الغروب، نهض مايكل. غسل وجهه في الجدول، ووقف مناديًا بيتر وأليشيا. أجابا نداءه بعد بضع دقائق، ووجنتاهما متوردتان، وثوب أليشيا مقلوب.

استهل كلامه: «قال نوبونونجا شيئًا قبل أن يرحل».

أحياناً يبدو مايكل مثل الطفل، لكنه لم يكن ضعيفاً قط.

اكتسب صوته الهدوء والحكمة رغم حزنه، وهو يكمل: «عليكم جميعاً أن تسمعوا ما قاله».

ابتدأت أليشيا، وهي تمد يدها لتربّت عليه: «نحن آسفون حقاً يا مايكل». أوماً لها أن لا بأس، واستطرد: «جميعكم تعرفون أن نوبونونجا هو -أعني كان- أعمق مما يُظهر، صحيح؟ إنه عتيق. وحكيم. وقد أخبرني أنه فهم ما يحدث هنا. قال إن الأب لن يسمح بأن يطاله أي أذى. ويبدو الآن أنه كان مخطئاً في هذا الجزء». وأشار إلى الضاحية من خلفه، ثم أكمل: «ومع ذلك، سنكون حمقى لو أهملنا أفكاره الأخرى».

- ماذا قال؟

أجاب مايكل: «لقد عرف ما في الأمر. عرف ذلك الشيء الذي يمنعنا من الدخول إلى المكتبة. لقد رآه من قبل. كانوا قد استخدموه في العصر الثالث. ويسمونه ريساك أيريال».

- نعم، سمعناه يقول ذلك. ماذا تعني إذن؟

أجابت كارولين: «تعني «الإنكار الذي يمزق الأوصال»».

علّق بيتر: «نعم عرفنا ذلك يا كارولين، لكن ما معنى هذا؟».

رفعت كارولين كتفها في غير معرفة وهي تفكر في «القلب الجمر» ثم أجابت: «رخصة شعرية؟».

علّقت أليشيا: «أنا أعرف معناها».

- حقاً؟

- نعم. لكنني لستُ عازمة على قول شيء. إنها جزء من فهرسي.

كان فهرس أليشيا منوطاً بالمستقبل البعيد.

بادر بيتر: «حسناً، إذن لا...».

وضعت يدها على ذراعه قائلة: «لا بأس. هذا الإنكار يحدث اليوم».

سألت كارولين: «ماذا تعرفين عنه؟ أعني ما يمكنك إخبارنا به».

فكرت أليشيا: «حسناً... لا يمكنني قول الكثير من حيث التفاصيل الفنية. لن أستطيع صياغتها. لكنني أعرف أنها شيء أشبه بآلية دفاع حدودية

محيطية. ببساطة هي نطاق كروي يرتكز على مستوى الندم. أي هناك نوع من الرمز مرتبط بها ...».

سأل بيتر: «رمز؟ مثل ماذا؟».

- قد يكون أي شيء. لا بد للرمز أن يكون جسمًا ماديًا حقيقيًا، لكنه مجرد مرسة في نهاية الأمر. وكلما اقتربت من الرمز، اشتدت تأثيراته وصارت أقوى.

علقت كارولين بنبرة صوت متفكرة: «هذا يتفق مع الوصف».

- انتظري. هناك المزيد. لا بد أن يوجد مُحفّز أيضًا.

- لا أفهم.

- المحفّز هو شيء مرتبط بأحد الأشخاص، وهو ما يفعل عمل ريساك أيريال.

- شيء مثل ماذا؟

هزت أليشيا كتفها في حيرة: «قد يكون شيئًا داخليًا مثل عاطفة أو تجربة أو ذكرى... شيء من هذا القبيل. الأناس الذين يتشاركون هذا الشيء يشعرون بتأثيرات ريساك أيريال. أما بالنسبة إلى الآخرين فكأن لا وجود له».

- هذا منطقي أيضًا.

سألت كارولين: «مَن مِن بيننا قد يعرف كيفية صنع مثل هذا الشيء؟ ديفيد؟».

- لااااا... لا. ليس ديفيد. الريسك له تطبيقات دفاعية، هذا أمر لا جدال فيه، لكنه ليس برمح أو ما يشبه ذلك. بل هو أمر في غاية التعقيد.

رمقتها كارولين بنظرة متشككة، وقالت: «تقولين إن هذه الأشياء شائعة جدًا في المستقبل. هل تباع مثلًا، أم... ماذا؟ إذا أردت الحصول على واحدة، ما مدى صعوبة أن تحصل على ...».

صاحت أليشيا: «ليست أنا! والجواب لا. عليك تغيير شكل الزمكان الموضوعي أي الزمان والمكان. تصميم هذا الشيء له مواصفات محددة. لا يمكنك شراء واحدة من السوق، حتى في المستقبل».

تابعت كارولين النظر إليها. فقال بيتر: «ماذا بك يا كارولين! نعرف أنها ليست».

- صحيح، حسنًا. أظن أنني أميل لتصديقك.

حين ظهر الحاجز -ريساك أيريال- للمرة الأولى، قرروا جميعًا اختباره بأنفسهم. وخرجت أليشيا بنزيف داخلي خطير. لم تظهر عليها الأعراض من فورها، لكن في غضون يوم أو اثنين، صار جسمها أشبه بكدمة واحدة كبيرة جدًا. وظلت على ذلك الحال لأسابيع. إذن، مهما كانت طبيعة هذا المحفز، فقد أثر عليها.

سأل بيتر: «لو أنه ليس ديفيد، فمن إذن؟».

نظرت إليه أليشيا بنظرة حنونة، وقالت: «أكره أن أقول هذا يا عزيزي، لكن المرشح الأكثر توقعًا هو، حسنًا... أنت؟».

- أنا؟ بربك يا أليشيا، تعرفين ...

رفعت أليشيا يدها وقالت: «أنا أعرف هذا. لكن ربما كارولين ومايكل لا يعرفان». واستدارت إليهما: «الريساك هو بناء حسابي». وبالتالي هو جزء من فهرس بيتر. وجهت له كلامها: «آسفة يا عزيزي».

قال بيتر: «يا أصحاب، أنا لم أسمع بهذا الشيء من قبل قط. إما أن تصدقوني وإما لا، الأمر متروك لكم، لكن ...».

قاطعته كارولين رافعة يدها: «لا بأس. أنا أتذكر ما حدث لك، وأصدقك».

يوم أضرم ذلك الحاجز لأول مرة، يوم اختفى الأب، عبر بيتر الالفة بخطوتين ثم بدأ الدخان يتصاعد من جلده. وحالما تمكّن من العودة، كان جلده قد تقرّح كاملاً.

سأل بيتر: «من، إذن؟».

أجابت كارولين: «لست متأكدة مما سأقول، لكن لدي فكرة. هذا المحفز الذي تتحدثين عنه، هل هناك أي طريقة تمكننا من معرفته؟».

- ربما لكنني لا أعرفها. لماذا؟

أجابت كارولين: «حسنًا، خطر ببالي أن الموتى ما يزالون يتلقون طرودًا معظم الأيام. علاوة على أن هناك دومًا شخصًا يدخل بسيارته لتوصيل ذلك الخبز الدائري الكبير المغطى بالجبن الذي يعشقه ديفيد».

صحح لها بيتر: «بيتزا؟ أنا أيضًا أحبها. وهذه نقطة جيدة. لو أن تأثير الريسك فعّال على الأمريكيين، لتراكمت أكوام من الموتى في الشارع بعد كل هذا الوقت».

تابعت كارولين: «صحيح. خطر ذلك ببالي أيضًا. أنتِ قلتِ إن الرمز يمكن أن يكون أي شيء، لكن مجال تأثيره مستدير مثل الكرة. لو أن الأمر كذلك، يمكننا رسم حدود التأثيرات وحينها سنعرف مكان الرمز. صحيح؟».

عقب بيتر مبتسمًا: «وإذا عرفنا مكانه...».

أنهت أليشيا جملتها: «يمكننا أن نبحث عن أحد لنقله». كانت تضحك وهي تنهي حديثها، ثم أضافت: «كارولين! أنتِ عبقرية! يا أيتها المكتبة، ها نحن قادمون!».

- مم، حسنًا، ما زال الوقت مبكرًا على الاحتفال. فمن بين جملة ما علينا عمله، ما زلنا بحاجة إلى العثور على أمريكي مناسب. هل تعرفون أحدًا؟

هزّوا رؤوسهم مجتمعين.

- سيقع هذا الأمر على عاتقك أنتِ يا كارولين. لا أحد منّا يتحدث لغتهم حتى.

أجابت: «صحيح. حسنًا. هذا معقول. سأتوصل إلى حل. علينا أن نفكر أيضًا في أمر الحراس».

ظلوا يحيكون الخطة معًا حتى حلّ الظلام وأحكم قبضته على السماء. تظاهرت كارولين أنها تقاوم الفكرة التي اقترحوها في بادئ الأمر، لكنها سمحت لهم في نهاية المطاف أن يقنعوها بضرورة إشراك ديفيد في الخطة أيضًا.

قصة جانبية ثانية



لحظة يفسدُ القلب

1

في نهاية العام الثالث من تدريبها، كانت كارولين قد نسيت العالم الخارجي تقريبًا. ألحق غالبية الآخرين دراساتهم بالنزهات أو العطلات القصيرة على الأقل. يرحل مايكل إلى الغابة أو المحيط، ويقتل ديفيد عشرات من الرجال في كل قارة. ثم تتبعهم مارجريت إلى الأراضي المنسية. وتعيد جينيفر بعضهم إلى الحياة.

لم تتطلب دراسات كارولين أي ترحال. يُجلب إليها المتحدثون الأصليون بأي لغة تريدها حين تحتاج إلى التدريب، وبعد الصيف الذي قضته مع إيشا وآشا لم تعد تهتم بالعطلات. لذلك تمحور عالمها حول المكتبة، وصارت دراساتها هي المهرب الوحيد. قضت طفولتها داخل دائرة من ضوء المصابيح الذهبية، تُحيطها من كل الجوانب أكوام من الكتب على وشك أن تتهاوى، لفائف ورقوق مهترئة يكسوها الغبار. وذات يوم حين كانت في الحادية عشرة من عمرها تقريبًا - حسب التقويم المتعارف عليه على الأقل - خطر لها

أنها لم تعد تذكر ملامح والديها الحقيقيين، لأن الزمن يسير بمنحني مختلف في المكتبة.

لم تعد تحصي العدد الدقيق للغات التي تتقنها بعدما وصلت إلى العدد خمسين - لم تمثل لها الجوائز شغفًا - لكنها اعتقدت أنه مهما كان هذا العدد، فلا شك أن العدد كبير جدًا. كانت إحدى أكثر اللغات تحديًا في نظرها هي لغة الآتول، قبيلة كانت تسكن سفح جبال الهيمالايا وفنى أفرادها منذ أكثر من ستة آلاف عام. لم تتأثر القبيلة ولغتها بأي مؤثرات خارجية، فكانت معزولة لغويًا، وقواعدها غير قابلة للاختراق، ولأفرادها عادات ثقافية غير مألوفة. إحداها هو تعبير «أوزان إيا - Uzan-iya»، وهو ما يطلق على اللحظة التي يعتزم فيها قلبٌ بريء على ارتكاب جريمة القتل. حسب تعاليم الآتول، كانت الجريمة نفسها فعلًا ثانويًا مقارنةً بهذا الفساد الأولي. وتراءى لكارولين أن ذلك المفهوم، وما يتضمنه من معانٍ، بديع. دارت هذه الأفكار في رأسها ذات عصر يوم صيفي جاف حين أدركت في شيءٍ من الغضب أن معدتها تفرقر. متى أكلت آخر مرة؟ قبل يوم؟ قبل يومين؟

هبطت إلى مخزن المؤن، لكنه كان خاويًا. نادى بيتر، الذي كان فهرسه يتضمن إعداد الطعام. لكنها لم تسمع جوابًا. سارت إلى الباب الأمامي وخرجت إلى جاريسن أوكس.

كانت جينيفر جالسةً في الشرفة الأمامية تدرس: «مرحبًا كارولين! من الجيد أن أراك في الخارج كنوعٍ من التغيير».

- هل يوجد أي طعام؟

ضحكت جينيفر: «هل طردكِ الجوع؟ لا أستبعد ذلك. نعم، أظن أن بعض الموتى قد جاؤوا بمخزون من البقالة الأسبوع الماضي».

- أيهم؟

- المنزل الثالث.

- شكرًا لك. تريدين مني أن أحضر لك شيئًا؟

أجابت جينيفر: «لا. لست جائعة. ولكن...». ألقت نظرات متحفظة على امتداد الشارع، وتابعت: «هلاً أتيتِ إلى غرفتي الليلة؟».

- لماذا؟ ما الأمر؟

- جلب لي مايكل هذه من رحلته الأخيرة.

ورفعت كيسًا صغيرًا به أوراق خضراء.

- ما هذه؟

- تسمى ماريجوانا. يفترض أنك إن دخنتها، ستجعلك تشعرين بشعور جيد. نعتزم أن نجربها الليلة.

فكرت كارولين في الأمر ثم أجابت: «لا أستطيع. لدي اختبار في الغد». في آخر مرة لم تجب فيها كارولين عن أحد الأسئلة، جلدها الأب عشر جلادات بسوطه.

- آه، حسنًا. في المرة القادمة؟

أجابت كارولين: «يسعدني ذلك». توقفت لهنيهة ثم قالت: «ربما تسألين مارجريت أيضًا إن كانت تود الانضمام إلينا. أظن أنها تحتاج إلى شيء من المرح».

لم تعد مارجريت تصرخ في نومها كل ليلة حتى تستيقظ، ويا لها من راحة، لكن طرأت عليها قهقهة عصبية على القدر نفسه من السوء.

عبس وجه جينيفر، ثم قالت: «سأسألها». لكنها لم تبد راضية عن هذا الاقتراح.

فسألت كارولين: «ما المشكلة؟ اعتدتما أن تكونا صديقتين في السابق».

- تفوح من مارجريت رائحة عفنة يا كارولين. بالإضافة إلى أنني ومارجريت لم نقض وقتًا معًا منذ وقتٍ طويل. أنتِ تحتاجين حقًا إلى الخروج من غرفتك أكثر.

أجابت كارولين: «آه». عند التفكير بالأمر، كانت تفوح من مارجريت رائحة سيئة جدًا في المرات الأخيرة التي رأتها فيها. ثم أضافت: «حسنًا... حقيقةً هذا ليس خطأها».

- لا. ليس خطأها. لكن ما تزال تفوح منها رائحة عفنة.

قرقرت معدة كارولين، قرقره مسموعة لكليتهما. فقالت معذرة: «عليّ الذهاب لإحضار بعض الطعام. سأراك لاحقًا».

أسرعت كارولين عبر الشارع. صارت منازل جاريسن أوكس تنتمي إلى الأب الآن، لا سيما كل شيء يعيش بداخلها. في معظم المنازل يعيش بعض الموتى بمنزلة غطاء وهمي. وهؤلاء هم من تبقى من الآباء الحقيقيين للأطفال،

وبعض الجيران الآخرين الذين لم يتبخروا في «يوم التبني». ليست كارولين متأكدة تمامًا من طريقة تحولهم إلى موتى، لكن لديها تخميناً حيال الأمر.

على مدار عام أو يزيد، ظلَّ الأب يقتل مارجريت لمرتين أو ثلاث كل أسبوع. وكان يقتلها بطرق متنوعة. في المرة الأولى اختبأ خلفها بفأس في أثناء العشاء، وهو ما أجفل الجميع، لا سيما مارجريت نفسها. بعد ذلك قتلها بالرصاص، والسم، والشنق، إلى آخره. أحياناً كان يُفاجئها، وفي أحيانٍ أخرى لا. ذات مرة طعن قلبها بخنجر، لكن بعد أن أخبرها بما سيفعله، وقد وضع السكين أمامها على صينية من الفضة، وسمح لها بتأملها لثلاثة أيام وليالٍ. افترضت كارولين أن الفأس هو أسوأ الخيارين، لكن بدا أن مارجريت تتعامل مع الأمور بهدوء. وبعد يوم أو أكثر من النظر إلى السكين، بدأت تطلق قهقهتها العصبية تلك. «ولم تتوقَّف من بعدها قط». تنهَّدت كارولين: «مارجريت المسكينة».

لكن المقصود من كل هذا ليس مارجريت نفسها. فعندما كانت ميتة، كانت تقضي يوماً أو يومين عادةً في الأراضي المنسية تتدرب على الدرس التالي في فهرسها. ثم يبعثها الأب ويعيدها إلى الحياة. وعند هذا الحد، كانت كارولين قد رأت ما يكفي من البعث لتفهم أنها عملية تحدث على خطوتين.

أولها أن يعالج الأب -أو لاحقاً جينيفر- الجرح الذي أودى بحياتها في المرة الأولى. ثم يستدعي روحها لتعود إلى جسدها. ذات مرة أخذ الأب استراحة وسط عملية الشفاء ليذهب إلى دورة المياه. خلال ذلك الوقت نهض جسد مارجريت الذي شُفي من جرحه وتجوَّل في أنحاء الغرفة، يلتقط أشياء عشوائية ويقول: «آه، لا». مراراً وتكراراً. وكأنها ليست حاضرة كلياً.

خَمَّنت كارولين أن هذا هو مصدر الموتى، مما يعني أنهم «يعودون إلى الحياة» ولا «يُبعثون» كلياً. يبدو مثل البشر العاديين، على الأقل من مسافة بعيدة. يتجولون في المروج الخضراء ومحال البقالة بإيقاعٍ متسقٍ مقنع، لكنهم في حقيقة الأمر لا يزالون في الأراضي المنسية. كانوا يتفاعلون مع بعضهم وحتى مع الأمريكيين، يتبادلون الأطباق المطهَّوة ويملأون السيارات بالوقود، ويطلبون البيتزا ويطلون المنازل. يفعلون كل هذه الأمور بصورة آلية. كان هذا مفيداً، واعتقدت كارولين أنه أسهل من توظيف أمريكيين للعناية بالمروج. بإمكانهم أيضاً اتباع الأوامر لو أن المطلوب منهم هو شيء

يعرفون كيف يفعلونه فعلاً، وهذا أمرٌ مفيدٌ أيضاً. لكن ليس بإمكانهم تلقي التعليمات ولا تعلّم أشياء جديدة.

ربما تكمن أهميتهم في أنهم يمثلون نظاماً أمنياً محكماً. فبين حين وآخر يتصادف أن يدخل غريب إلى جاريسن أوكس ويطرق على الأبواب؛ مندوبو مبيعات، أو سائقو فيدإكس تائهون، أو مبشرون. في كثير من الأحيان لا يلاحظ هؤلاء الدخلاء أي شيء خارج عن المألوف. لكن ذات مرة استطاع سارقُ الدخول إلى أحد المنازل. وبعد رؤيته لما يحدث بالداخل لم يكن ليسمح له بالعودة إلى العالم الخارجي. ولما حاول التسلّل من النافذة، كان الموتى بانتظاره في الخارج. انقضّوا عليه ومزّقوه إرباً. وفعل به الأب ما فعله بالآخرين، ومنذ ذلك الحين والسارق يسكن في أحد المنازل بصفته «إيد» ابن عم أحدهم. أو أياً من كان.

ومع ذلك، كان مسموحاً لكارولين والمكتبيين الآخرين بالدخول والخروج كما يشاؤون. ولما كانت جائعة، فتحت كارولين باب المنزل الذي أشارت إليه جينيفر ودخلت. وجدت ثلاثة من الموتى بالداخل: فتاة صغيرة في الثامنة تقريباً، وفتى في عمر المراهقة، وامرأة بالغة.

قالت كارولين للمرأة: «أعدّي لي بعض الطعام».

مؤخراً انتقل تركيز كارولين في دراستها على اللغات الأسطورية، فشعرت بالإنجليزية غريبة على لسانها. وبدأ جلياً أن الكلمات التي خرجت من بين شفتيها بسوء ما شعرت به نفسه وهي تنطقها. لذلك اضطرت إلى تكرار ما قالته مرتين قبل أن يفهمها ما تبقى من هذه المرأة. ثم أومأت المرأة، وراحت تخرج أشياء من هنا وهناك: علبة من السمك، ومادة بيضاء من جرّة، ومادة خضراء لزجة فاحت برائحة الخل.

جلست كارولين إلى الطاولة بجانب الفتاة الصغيرة. كانت ترسم عائلة: أم وأب وبنيتين وكلباً. وقفت العائلة في الحديقة، وشيء يشبه الشمس لكنها لا تلقي بضياءها عليهم، كانت ضخمة في السماء، وفيما بقي من ذاكرة الفتاة الصغيرة. كانت الحرارة مرتفعة جداً والشمس قريبة للغاية. وبينما تراقب كارولين المشهد، أخذت الفتاة قلم شمع أصفر وأضافت بعض اللهب إلى ظهر الأب. وأدركت كارولين فجأة أن الدائرة الحمراء في فمه كانت صرخة.

نهضت كارولين سريعاً، فاحتكّ الكرسي الخشبي بالمشمع. لم تعد ترغب في البقاء هناك، ففرّت إلى غرفة العائلة، ووجدت صبيّاً في عمر المراهقة

جالسًا فاغر الفم أمام صندوق مضيء. وفكرت كارولين: «هل ما يزالون يكبرون، أم أنهم سيظلون هكذا دومًا؟». لم تتبين ما يفعله في بادئ الأمر، ثم خطر لها. «هذا تلفاز». ندت عنها ابتسامة بسيطة وفكرت ثانية: «أنا أذكر التلفاز». جلست على الأريكة إلى جانب الفتى الميت، وبدأ أنه لم يلحظ وجودها. فلوّحت بيدها لأعلى ولأسفل أمام مجال رؤيته.

التفت إليها بدوره، ونظر إليها دون أي اهتمام، ثم أشار إلى التلفاز وقال: «حان وقت المتحولين». وقطرة من اللعاب تتسرب على جانب فمه.

على الشاشة رأت روبوتات عملاقة تطلق على بعضها الأشعة.

بعد بضع دقائق دلفت المرأة وفي يدها طبق من طعام وعلبة حمراء كتب عليها «كولا». انقضت كارولين على الطعام في شهية، وتلذذت بمذاق الصودا السكري اللذيذ. شربتها بسرعة مفرطة فألهبت حلقها. كانت قد نسيت كل شيء عن الكولا. ظلت المرأة تشاهدها وهي تأكل ومسحة من القلق تعبر وجهها. ثم قالت: «مرحبًا. لا بد وأنتِ...». تلاشى صوتها (أو صوت الشيء الذي هي عليه) قبل أن تستأنف سؤالها، وهي توجه حديثها إلى الفتى: «هل أنتِ واحدة من أصدقاء دينيس؟ دينيس، هل هذه...». توقفت عن الكلام ثانية، ثم وجّهت الحديث إلى الصبي: «أنتِ لستِ دينيس. أين دينيس؟».

عرفت كارولين معنى المشهد الذي عاشته. لمّا أعاد الأب هؤلاء الجيران إلى الحياة، وزّعهم على البيوت توزيعًا عشوائيًا. فالفتى على الأريكة ليس ابن المرأة من الأصل، وربما الفتاة الصغيرة ليست ابنتها. والرجل الذي تنام إلى جانبه في الليل ليس زوجها...

- دينيس؟

نهضت كارولين، وأمسكت بالشطيرة، ثم ناولت الطبق إلى المرأة.

- شكرًا لك.

أجابتها المرأة بعقل غائب: «على الرحب والسعة يا عزيزتي». ثم نادى: «دينيس؟».

على التلفاز، كان روبوت يصرخ. أسرعت كارولين نحو الباب الأمامي ومنه إلى أشعة الشمس الصيفية، وهي تصفع الباب من خلفها. سيهدؤون ما أن تغادر المنزل.

لكن بعدما رأت ما كان بانتظارها، تمنّت لو أنها ظلّت بين الموتى. في منتصف طريقها وهي عائدة إلى المكتبة، تكاثفت سحب سوداء أمام قرص الشمس. وانخفض الضغط انخفاضاً يصم الأذان. وتقوّست قمم الأشجار إلى منتصف قامتها بفعل الريح المفاجئة. بين الحين والآخر، تسمع تصدعات خشبية تأتيها من انهيار الأغصان الهزيلة. لقد عاد الأب إلى الديار.

2

عرفوا بعودته من هزيم الرعد. كان من المتوقع أن يلتقوه في المكتبة. قدّموا من كل حذب وصوب واجتمعوا في الحديقة الملحقة بالمكتبة -مايكل قادمٌ من الغابة، وجينيفر من المرج وهكذا- قدّم الجميع ما عدا مارجريت. وهذا لأنها كانت برفقته.

قال الأب: «انظروا». ففعلوا، ورأوا ذراع مارجريت اليسرى وقد تعرّضت لكسر بليغ. تدلت منها خدرة، كأنها رمح من عظام اخترقت جلدها. تحرّكت جينيفر لمساعدتها، لكن الأب أشار لها ألا تفعل. ثم سأل برفقٍ كأنما يهمس إلى النسيم وحده: «لماذا لا تبكي؟».

لم يحر أحدٌ جواباً.

سأل مجدداً: «لماذا لا تبكي؟».

كانت نبرته هذه المرة أكثر توعّداً. وأضاف: «ألن يجيب أحد؟ لا شك أن أحدكم يعرف الجواب».

غمغم ديفيد بشيء، فقال الأب: «ماذا؟ لا أسمعك».

- قلتُ: «جان أيريال».

شعرت كارولين بطنينٍ في رأسها. إن المعنى المباشر للكلمات «جان أيريال» هو إنكار المعاناة. كانت العبارة بحد ذاتها بلا معنى، فالمعاناة موجودة، انظر حولك فحسب وستراها، لكن طريقة نطقه للكلمات أفادت بأن هذا اسم مهارة معينة. وفكرت: «هل هي نوع من التخدير الذاتي؟». تعرف كارولين أن الأب على معرفة واسعة بكل ما يتعلق بهذا الأمر، وعن كيفية سد

جروحك لإيقاف نزيفها، وعلاجها. «لكنه لم يأتمن أحد على هذه المهارة إلا ديفيد». وبشيء من الفزع الذي ينمو بالداخل شيئاً فشيئاً أدركت كارولين سبب كل ما يدور حولها، وتساءلت في قرارة نفسها: «لو أن مارجريت تعرف بشأن «جان أيريال»، فهذا يعني...».

- هناك مَنْ تقرأ خارج حدود فهرسها.

أصدر المكتبيون الصغار صوتاً يشبه حفيف أوراق الشجر الميتة. فكَرَّ الأب ملياً ثم قال: «لا ألوم مارجريت حقاً. دراساتها مؤلمة أحياناً. فَمَنْ يلومها على رغبتها في تخفيف ذلك الألم؟ لا. ليست مارجريت مَنْ كانت تقرأ خارج فهرسها». ونقر على أسنانه بأحد أظفاره، ثم تابع: «مَنْ إذن؟». همس ديفيد: «أنا. أنا مَنْ علّمها».

تحدث الأب بدهشة ساخرة: «أنت؟... أنتَ حقاً؟ مدهش. أخبرني يا ديفيد، لماذا برأيك لم أَعْلَمْ مارجريت مهارة «جان أيريال» بنفسي؟». - أنا... أنا لا أعرف.

دوى صوت الأب مثل هزيم الرعد: «لأنني لا أريد لها أن تتعلمها!». أجفلوا جميعاً إثر ذلك، جميعهم إلا ديفيد. كان المفضل لدى الأب، ويعرف ذلك تمام المعرفة.

- ومع ذلك... بما أنك اخترت أن تعلّمها مهارة «جان أيريال» فلا شك أنك أتقنتها. سأعترف بأنني مبهور حقاً. لَوَّح الأب بذراعه أن هلموا، وقال: «اتبعوني».

تبعوه جميعاً، خوفاً من ألا يتبعوه. ومعاً اقتفوا أثر الأب وديفيد إلى الشارع الرئيسي للضاحية، مرُّوا بمنازل الموتى، ولكم تمتت كارولين لو أنها ماتت معهم آنذاك. لم ترَ الأب غاضباً إلى هذا الحد قط. وبدا جلياً أن القادم أسوأ بكثير. عبروا الطريق وراءه، ثم صعدوا الدرجات الوعرة المنحوتة في الأرض. وهناك في الساحة المكشوفة على قمة التلة، وجدوا شواية الأب. تذكرت كارولين وجود هذا الشيء، لكنها لم تعره اهتماماً. كان قالباً أجوفاً من البرونز منحوتاً على شكل بقرة، أو بالأحرى ثور. يزيد حجمه قليلاً على الحجم الطبيعي، مصنوعاً من معدن أصفر، بسُمك نصف إنش تقريباً. احتفظ الأب بهذه الشواية في حديقة منزله الخلفي حين كان يتظاهر بأنه

أمريكي. وأحياناً في النزعات الجماعية للضاحية أو ما شابه، كان يطهو فيها «هامبرجر» وأحياناً لحم الخنزير. فكرت كارولين: «كم بدا إنساناً طبيعياً آنذاك». بالكاد تذكر الناس حينذاك -ربما والداها كذلك؟- وهم يعلّقون على الشواية غير المألوفة، لكنها لم تكن أمر جليلاً.

بعد فترة وجيزة من تبني الأب لهم، أمر بنقلها إلى الساحة المكشوفة. لم تكتشف السبب وراء ذلك قط، لكن لا بد أن هناك سبباً أو آخر. كان وزن الشواية ثقيلاً للغاية. اجتمع الموتى من حولها، وأخذوا يرفعونها معاً بقبضة رجل واحد، والعرق ينزُّ من جباههم وأجسادهم تتلوى تحت شمس الصيف الحارقة. تحرّكت الشواية ببطء شديد، وبجهد مضنٍ لا تزيد على بضعة سنتيمترات في المرة الواحدة، وأرجلها كالحوافر تترك من ورائها خنادق غائرة في العشب. استغرق تحريكها أياماً طويلة، وعديداً من عمليات الإحياء.

عندما رأتها كارولين للمرة الأولى منذ سنين، فجأة صار كل ما يدور في ذهنها: «آه، صحيح. هذا الشيء». ارتبطت ذكرياتها معها في كثير من الأحيان بحفلات طفولتها والهامبرجر وحفلات الشواء. وتذكرت: «كانت شطائر لحم الخنزير لذيذة ولها مذاق استثنائي».

ثم طفت على ذهنها ذكرى مظلمة. وجال بخاطرها: «حقيقةً رأيتها آخر مرة في احتفال عودتي إلى الديار». وتذكرت رؤية الكوة على جانب الشواية مفتوحة، وكثافة الدخان المتصاعد من داخلها لاحتراق أشجار الجوز. تذكرت كبحتها لصرختها حين انقشع الدخان ورؤيتها للحم بالداخل، وتعرّفت الانحناء الرشيق لعجيزة آشا، ورؤيتها لرأس إيشا المفصول يحدّق إليها، مسلوخة الجلد مفقوعة العينين. ووقع لها أن تلك اللحظة ربما كانت هي لحظة «أوزان إيا» التي مرّت بها. وفكرت: «صحيح، ربما الأمر كذلك. وحتى ذلك الحين ما زلتُ في حالة صدمة».

ووقع لها أيضاً أن الثور قد يستخدم في طهي أشياء أخرى غير لحم الخنزير. نظرت إلى ديفيد. لا بد أن الشيء نفسه قد خطر له، إذ كان يحدق إلى الثور بعينين متسعيتين من الذعر.

ورغم ذلك كان ديفيد شجاعاً. استطاع السيطرة على انفعالاته، وابتسم إلى الأب، ثم قال: «بربك. أنا آسف. لن أكررها ثانية». لم أقصد بفعلتي هذا أي شيء». واتخذ وضع الملاكمة مع خصم، وهي عادت معها أحياناً.

سار الأب نحو الثور وفتح الكوة على جانبه. كان الهيكل الخارجي مطلقاً بالبرونز -يحافظ الموتى على بقائه لامعاً مصقولاً- أما في الداخل فلا ترى إلا السواد الحالك. حينها رفع ديفيد، وهو ابن ثلاثة عشر ربيعاً آنذاك، يديه في استسلام. فأشار الأب إلى الداخل. لم يركع ديفيد على ركبتيه، لكنه راح يرتجف وهو يردد: «آه. آه، لا».

رفع الأب حاجبيه منتظراً المزيد من التعقيب، لكن ديفيد غرق في الصمت. احتلت كراهية كارولين لديفيد المركز الثاني بعد كراهيتها للأب، لكن في تلك اللحظة كادت أن تشعر بشيء من الأسف تجاه ديفيد. أعادت لها النظرة في عينيه وهو يصعد إلى داخل الثور، تعبيراً آخر من لغة قبيلة آتول: «وازن نياتاً»، وهي اللحظة التي تموت فيها بارقة الأمل الأخيرة.

لم تكن برونزية، تلك الأرتاج التي أغلق بها الأب كوة الثور، بل حديدًا سميكا، قديماً ومتآكلاً بالصدأ. قبل تلك اللحظة لم يخطر لكارولين قط أن تتساءل عن الغرض وراء تلك الأرتاج المتآكلة. ثم فهمت الآن، وأدركت أن: «اللحم لا يحاول الخروج من الكوة، لكن البشر يحاولون».

طيلة الساعة التالية أو أكثر، انهمك بقيتهم في جلب الخشب المقطع من المخزونات حول منازل الضاحية، ملء ذراع في المرة الواحدة. نادى الأب بعضاً من الموتى -الأم و«دينيس» من بينهم- وساعدوا أيضاً. حتى إن الأب نفسه انضم لخلية العمل.

تلاً الثور بلونه الذهبي المصقول تحت أشعة شمس ما بعد الظهر. وظلوا واحداً تلو الآخر يودعون ملء أذرعهم من الخشب حول قاعدته، بل في غالبية الوقت حول قاعدة الصنوبرة السميكة ولمسها اللزج بالصمغ. في وقت ما سقطت جينيفر على ركبتيها وهي تنتحب. كانت الألف من بينهم دوماً. أما مايكل، وهو من اعتاد التفكير مثل الوحوش أكثر من البشر في ذلك الوقت، فكان يراقب الخشب متكوّماً دون فهم المغزى من ذلك. ومارجريت أبدت اهتماماً فحسب.

قيل غروب الشمس، أشعل الأب عود ثقاب، واضطربت النار في أكوام الخشب، وانتشرت كالنار في الهشيم، وتحولت من بضعة أسنة من اللهب إلى نيران مشتعلة بالكامل في غضون دقائق. وخرج الدخان من منخاري الثور، مثل قطرات في بادئ الأمر، ثم تحوّل إلى نهر يجري.

واصلوا إنكاء النار طيلة الغروب، متوقعين طيلة كل هذا الوقت أن يسمعه يبكي، لكن ديفيد كان قويًا بحق. كانت النيران قوية بعد الظلام لدرجة أن عجزت كارولين عن الاقتراب من الثور لأكثر من عشرة أقدام. وحتى من تلك المسافة لفحت الحرارة الشعر على ذراعها. واصل الموتى اقترابهم البطيء المثقل من النار، غير واعين بجلودهم التي تُحمر وتقرح.

لكن قوة ديفيد كانت استثنائية. عندما حلَّ الظلام الدامس، وبدأ بطن الثور البرونزي يتلألأ بلون برتقالي معتم، حينها فقط بدأ ديفيد يصرخ.

متى استحضرت كارولين وجه الأب في ذهنها، لم يخطر لها إلا مضيئاً بلهيب نيران ذلك اليوم.

كم كانت نادرة تلك اللحظات التي رآته فيها مبتسمًا.

3

حتى قبيل فجر اليوم التالي، ظلَّت أصوات خافتة تخرج من الثور، أغلبها من احتراق الرأس والرقبة. تساءلت كارولين عن هذا الأمر حتى لاحظت أن منخاري الثور هما فتحتان حقيقيتان؛ أنبوبان مناسبان لأوقات احتراق الفحم بداخل الثور. لا بد أن الهواء المنبعث من تلكما الفتحتين بدا باردًا نسبيًا، وهو ذرة الرحمة الوحيدة التي شملت عالم ديفيد بأكمله.

فكرت كارولين: «أنتى له ألا يكون ميتًا بعد كل هذا؟».

لكن هذا هو مضمون فهرسه قطعًا. لقد درَّبه الأب على النجاة من الجروح الخطيرة ومواصلة القتال. بالإضافة إلى تلك الجرعات والعقاقير والحقن التي يتناولها. مثله كمثلهم جميعًا، كان ديفيد نتاجًا لما صنعه الأب. لذا مهما اشتدت رغبة الفتى في الموت، فلن يقدر أن يناله.

ما إن حَلَّت الظهيرة حتى خيمَّ عليه الصمت، صمتٌ رحيم بعذاباته. ظلَّ الأب يذكي النيران حتى قبيل حلول الظلام. ويقول إن ديفيد ما زال حيًّا. ولم يساور كارولين أي شك في قدرته على معرفة ذلك بطريقة أو بأخرى.

ثم أمرهم الأب أن يتوقفوا عن إنكاء النار بعيد غسق اليوم الثاني. وانطفأت النيران بحلول منتصف الليل. وفي صباح اليوم الثالث هدأت حرارة الثور بما

يكفي لفتحه، مع أن المعدن ما يزال ساخناً لدرجة أن ترك قرحةً أعلى ذراع كارولين حين احتكَّت به.

لم يكن ما بقي في الداخل بهذا السوء الذي خشيت كارولين أن تشهده. كان ديفيد تلميذاً نجيباً، ألمع من معظمهم. وفنونه قويةٌ جداً، ومهارته تأتي في المركز الثاني بعد الأب.

التهمت الحرارة جسده بأكمله تقريباً قبل أن يموت.

مدت كارولين ومايكل يد المساعدة لجينيفر في إخراجهِ من الثور. وما أثار دهشتها حقاً هو أن ما تبقى منه كان خفيفاً وجافاً وهشاً. وضعوه على نقالة مرتجلة صُنعت من لوح حديدي، وحملوه إلى واحدٍ من المنازل الشاغرة. وهناك أرقدوه في غرفة كبيرة من الطابق الرئيسي، بها أثاثٌ مغبرٌ ومتعفنٌ مكوّمٌ في أحد الأركان. جال بخاطر كارولين: «هذا ما يسميه الأمريكيون «غرفة المعيشة»»، فضحكت. ورأت مارجريت تبتسم أيضاً. أما البقية فنظروا إليها باستغراب.

راحت مارجريت تفحص الرفات المحترق من جمجمة ديفيد، وذراعاها متخذتان وضعية الملاك بفعّل حرارة النيران، وفمه ما يزال مفتوحاً مجسداً صرخته الأخيرة. التفتت مارجريت إلى الأب وقالت: «سيغوص إلى عمق كبير. هل لي أن أنضم إليه؟ وأساعده على العثور على طريق العودة؟».

هزَّ الأب رأسه: «اتركيه يتخبط».

تساءلت كارولين عن هذا الأمر. وفكّرت أن مارجريت تقصد أن ديفيد سيتعمق في «الأراضي المنسية» وهو ما استشفّت كارولين أنه المكان الذي يكون فيه المرء قبل ولادته وبعد مماته. ولكن هل سيغوص في أعماقها لأنه لم يمت من قبل قط، أم لأنه مات ميتة شنيعة؟ أم ربما ...

حدّق الأب إليها. ولمّا رأى أنه قد حاز انتباهها رمقها بنظرة خاطفة ذات مغزى. تبّعت نظرتَه إلى أعلى التل، إلى الثور. لا شك أن ما فكرت فيه من أسئلة كان خارج مضمون فهرسها. فكّرت كارولين في هلع: «إنه يعرف! أني له أن يعرف ما أفكر فيه؟». نحّت الأسئلة بعيداً عن أفكارها، لكن الأب لا يزال محدّقاً إليها. ذكّرها بؤبؤا عينيه بالسواد المشحّم لدواخل الثور. خشبتهَا نظرتَه في مكانها، ولوهلة تصورت نفسها بداخل ذاك الشيء، وأذناها تطنان من صليل إغلاق الباب. وشعاع الضوء الوحيد سيأتي خافتاً أو برتقاليّاً من

خلال المنخارين في الوقت الذي سترتفع فيه حرارة النيران. سيعم الدفء في بادئ الأمر، ثم يصير مزعجًا قليلًا، ثم ...

قالت يائسة بصوت يشبه الفحيح: «أبدًا!». وفكرت: «لن أفكر في الأمر ثانية أبدًا! أبدًا، أبدًا!».

عندئذٍ أشاح الأب بنظره عنها. شعرت بنظرته تنزاح عنها كأنها جملٌ مادي. واستغرقت في التفكير: «هكذا يشعر فأر الحقل، حين يرى ظل الصقر يمر بجانبه».

قال الأب: «جينيفر. احضري أمامي».

كان فهرس جينيفر هو العلاج؛ وثبت واقفة على قدميها وامتلئت أمامه.

- أنتِ ستعيدينه إلى الحياة. أعيدي جسمه إلى سابق عهده.

حتى تلك اللحظة مارست جينيفر فنون البعث على الحيوانات في غالبية الأحيان، وهؤلاء الذين هم على شفير الموت، حوادث اصطدام وما شابه.

قالت وهي تلقي بنظرة متشككة على الجثة: «سأحاول. ولكني ...».

«اجتهدي». قالها بغضب مكتوم، وأضاف: «أما بقيتكم، فأحضروا إليها

ما تطلبه».

بدأت جينيفر العمل. أخرجت من حقيبة أداوتها ثلاثة أكياس كبيرة من مسحوق ملوّن ونثرتها حول جسد ديفيد. وجلب لها البقية ماءً في غالبية الوقت، وأشياء أخرى أيضًا، مثل: ملح وعسل وقضيب تيس، وعدة أقدام من شريط ثماني المسارات⁽¹⁾. مضغت جينيفر الشريط في فمها حتى صار شفافًا، ثم بصقت المادة البنية في محجري عيني ديفيد. لم يكن لدى كارولين أي فكرة عن الهدف من هذا الشيء. ولمّا تذكرت نظرة الأب الثاقبة، أحجمت نفسها عن التفكير في شيء.

ظَلَّت جينيفر تعمل طيلة الليل، ومارجريت جالسة إلى جانبها، أما كارولين والبقية فخلدوا إلى الراحة.

(1) شريط ثماني المسارات هو شريط مغناطيسي استخدم في فترة الخمسينيات والستينيات لتسجيل الموسيقى، وسُمي بهذا الاسم لأنه يحتوي على 8 مسارات صوتية مستقلة. (المترجمة)

لمّا استيقظت كارولين في الصباح التالي، بدأ جسد ديفيد يستعيد شكله تدريجيًا. انتفخ اللحم الذابل لجذعه قليلًا، ومسحةٌ وردية قد ظهرت هنا وهناك وسط السواد الذي يغطيه. وبحلول عصر اليوم الرابع، امتدت هذه التحولات إلى ذراعيه، ثم ساقيه. في ذلك المساء، اتخذت رثاه شكلًا مميزًا، ثم قلبه، رغم أن نبضاته لم تدق بعد. وبحلول اليوم الخامس اكتست عظامه باللحم، لحم ما يزال أسود ومتفحمًا.

في اليوم السادس ندّى عنه أنين، فبعثت جينيفر بمارجريت تسأل الأب إن كان بإمكانها تخفيف آلامه. ركضت مارجريت بسرعة لفتت انتباه كارولين ورأت فيها شيئًا من الود. ثم عادت بإيماءة موافقة. لامست جينيفر جبهة ديفيد بأداة احتفظت بها في بقجتها، وبعد هنيهة توقف الأنين. لم يعرب لها عن شكره، ربما لأنه لا يستطيع، ليس بعد، ولكن حين أدار عينيه اللتين بلا جفون نحو جينيفر، رأت كارولين فيهما امتنانًا.

وفي صباح اليوم السابع، كان متعافياً تمامًا، على الأقل في نظر كارولين. ربما ليس صحيحًا، ليس بعد، لكن شفاءه صار وشيكا. غطّ في النوم، يعلو صدره ويهبط في إيقاع بطيء، بأنفاسٍ هادئة. غطّت جينيفر في النوم أيضًا؛ استراحتها الحقيقية الأولى منذ خمسة أيام. وعندما رأى مايكل صديقته كارولين مستيقظة، وضع إصبعًا على شفثيه أن تصمت. فأومأت كارولين، ثم جلست بالقرب منه.

في منتصف النهار، دفع الأب الباب لينفتح على مصراعيه، فأبصرت كارولين ضوءًا حال بينها وبين الرؤية لبرهة. سار نحو ديفيد وركله ليستيقظ. وثب ديفيد على قدميه كالبرق مجددًا، إلا من بعض الخدر والاضطراب. قال له الأب شيئًا بلغة القتل، وهي لغة لم تتقنها كارولين بعد. فبدأ على ديفيد شيء من التردد لوهلة، ثم ركع على ركبتيه. سأله الأب عن شيء، فأجاب. لم تعرف كارولين ما قيل، لكنه تكلم بتواضع شديد واحترام بالغ.

ثم قال الأب باللغة البيلابية: «وهكذا لا مزيد من مشاركة العلوم». مسح الغرفة بعينه، وسأل: «أهذا واضح؟ هل كلامي مفهوم؟».

انحنى الرؤوس واحدًا تلو الآخر في إذعان. كانت كارولين على يقين بأن هذا الإيماء نابع من إخلاصهم جميعًا، بلا استثناء، وأن إخلاصها لا يقل عنهم قيد أنملة.

حينها أوماً الأب راضياً. ثم غادر دون إغلاق الباب. لمّا رحل، سارت مارجریت نحو ديفيد. وقفت أمامه خجلاً، وذراعاها تتدليان إلى جانبها في بادئ الأمر، وما لبثت أن احتضنت نفسها بذراعيها. ثم مدت عنقها، وهو ما أثار دهشة الجميع، ولقمت أذنه بين أسنانها، عضه لطيفة لا تريق دماءً. وقالت: «كان غناؤك جميلاً!». وهربت بوجنتين تحمّزان خجلاً.

علّقت جينيفر بوجه جامد: «أظن أنها معجبة بك». فضحكوا جميعاً. ازداد ديفيد هدوءاً بعد ذلك، وصار أكثر تحفظاً، وأقل عرضة للضحك وإلقاء النكات. وبعد نحو شهر أو يزيد، كسر ذراع مايكل، بسبب الغش في رهان، كما قال ديفيد، على مسابقة رماية أُقيمت بينهما. وأقسم مايكل إنه لم يأت بفعل كهذا. عالجت جينيفر ذراعه دون تعليق. وبعد ذلك لم يعد مايكل وديفيد يتسكعان معاً.

في الشهر التالي، زارهم المونستروويكن الأخير، وكان واحداً من رجال البلاط المفضلين لدى الأب. فأقاموا احتفالاً على شرف زيارته. شعرت كارولين بارتياح لمّا رأت الخنزير الذي سيُطهى للاحتفال، ميّتا قبل شويه. لهذه الاحتفالات دوماً مكانة خاصة، حتى في نفسها. وأول الأسباب وأهمها هو الطعام الجيد. لكن هذه المرة لاحظت أن بهجة الأطفال الآخرين بكماء مكتومة، بطريقة أو بأخرى. وراحت السنة اللهب وهي تلعق بطن الثور تذكّرهم بأحداث سيئة.

في لحظة خاطفة، لمحت ديفيد بطرف عينها ينظر إلى النيران نظرة ذات مغزى. لم ينتبه ديفيد لرؤيتها له، ولا انتبهت مارجریت الواقعة إلى جانبه آنذاك. لم تنطق كارولين بعبارة «أوزان إيا» بصوت عالٍ، ولا حتى تجسدت في ذهنها بوضوح، فتعليمها ما يزال مستمراً، لكن.. ظلّت العبارة تطفو على نهر أفكارها طيلة ما تبقى من تلك الليلة. تعرّفت النظرة في عيني ديفيد على الفور، فقد رأتها كثيراً، تنعكس على البرك السوداء الراكدة في قلبها.

كان الصبي الذي وطئ إلى داخل الثور عدوانياً، وأحياناً يعامل بقيتهم بقسوة عارضة. لقد أحب ديفيد الأب حباً صادقاً. لكن صار مؤكداً لكارولين تأكيداً لا يزعه شك بأن هذا الحب الصادق لم يعد حقيقياً. «أوزان إيا» هذا ما كانوا يطلقونه على تلك اللحظة، في سهول الهيمالايا منذ ستة آلاف عام. «أوزان إيا» هي لحظة تطلخ نهر القلب الأبيض بسواد القتل.

ذات يومٍ سيتحرك ديفيد ليقتل الأب. لم تستطع تخمين متى سيأتي ذلك اليوم، كل ما عرفتُه هو أنه آتٍ لا محالة.
وللمرة الأولى، وقع لها أن تتساءل عمّا إذا كان ديفيد سيفيدها بشيء أم لا. وظلّت تفكر في هذا الأمر لشهورٍ طويلة.

الفصل الرابع

الرعد

1

كان إروين تشارلز ليفنجتون شابًا غريب الأطوار. والأدهى أنه يعرف ذلك عن نفسه، لأسباب أولها هو إصراره على أن يناديه الآخرون باسم إروين. فلا يقبل أن يناديه أحد باسم تشارلز أو باختصار «إي سي»، ولا يغفر البتة أن ينادوه باسم تشاك. بل إروين فحسب. عندما كان صغيرًا ظلَّ الناس ينادونه باسم تشاك طوال السنوات السبع الأولى من حياته تقريبًا. ثم التحق بصفوفِ دراسية متقدمة تناسب الأكبر منه بعامين، هذا لأنه كان طفلًا ذكيًا جدًّا، وأفلت المعلم اسمه القانوني سهوًا. لذا كان هذا هو النداء الذي أطلقه التوأمان ماكلسكي «إرررررووييييينننننن» عندما تربصا به بعد الحصة، «إرررررووييييينننننننننن!» وحشرا ورقة امتحان الجبر التي حصل فيها على تقدير ممتاز جدًّا بين شفتيه المزمومتين ثم إلى فمه، وصرخا «إرررررووييييينننننننننن!» وهما يضغطان على فكيه «إرررررووييييينننننننننن!» ثم رردا بلطفٍ وهما يجبراناه على ابتلاعها: «إروين»، كانت نبرتهما لطيفة وودودة تقريبًا وهما يضربانه حتى ابتسم وشكر لهما صنيعهما. وبعدهما شبَّ وصار مشاكسًا، راودته فكرة زيارة

التوأمين ماكلسكي، لكنه في نهاية المطاف قرر ألا يفعل. لقد لقناه درسًا قيمًا في الحياة في سن مبكرة، وفي المحصلة كان ممتنًا لهما على ذلك.

تمنّع إروين بعزيمة لا تلين وحظّ وفير، فشَبَّ ليصير رجلًا ذا بأس شديد. «إروين» كان هذا ما هتفت به الحشود حين شقَّ طريقه خلال خط الدفاع وأحرز لمسة الفوز في مباراة العودة إلى المدرسة في سنته الأولى من الثانوية. «إروين» كان اللقب الذي نادوه به في فورت براج⁽¹⁾ منذ يوم تجنيده -أو بالأحرى تجنيده الوشيك- وحتى يوم تقاعده. واحدٌ من الأسباب التي فضّل لأجلها هذا الاسم هو أن النداءين «الرقيب الأول» أو «رئيس الرقباء» كانا ثقيلين على اللسان ولم يُرد أن يفرض ذلك على رجاله. لكن السبب الأهم كان استمتاعه بأن يناديه ضباطه باسم «إروين»، واستمتاعه ببصيص التردد في أعينهم حين يأمرهم بهذا، لكنهم ينفذون أوامره على أي حال.

لم يعد إروين ضابطًا في الجيش. فبعدما قضى ثلاثين عامًا في الجيش، قرر بعد عودته من جولته الثالثة في أفغانستان، أنه قد قتل ما يكفي من الناس. لم يعانِ اضطراب ما بعد الصدمة أو أي شيء من هذا. وما زال يحب رجاله، وما زال يعتقد أن الأعداء ما هم إلا حفنة من الحمقى. كل ما في الأمر أنه اكتفى مما يفعله. حدث ذلك يوم ثلاثاء، وكان قد شاهد لتوه مروحية أباتشي مسلحة تفجّر أحرق في السادسة عشرة من عمره. كان تصرفًا صائبًا، وشعر بالامتنان نحو مَنْ يقود مروحية الأباتشي، إذ كان الصبي يحمل بندقية دراغونوف القنّاصة، مستهلكة قليلًا لكنها تعمل بكفاءة تامة، وعلى الأرجح لم يعزم الصبي على الخروج إلى التلال لصيد الماعز. في ظل ظروف مماثلة كان لیسعد بتصفية النذل الصغير بنفسه. لكن ما في الأمر هو أنه لم يعد راغبًا في التعرّض لمثل تلك الظروف مجددًا.

لذلك، وبعد فترة وجيزة، طلب تسريحه من الجيش وانطلق نحو العالم الخارجي. انتهى به المطاف إلى تدريس الفنون في مدرسة متوسطة. كان عملاً مرخيًا للأعصاب؛ ليس ما توقع تمامًا أن ينتهي إليه، ثم اتضح له أنه لا يحمل أي ضغينة ضد أصباغ تمبرا. وعلى العكس لقد أحب صنع الأواني الفخارية. والأكثر من ذلك أنه تفاجأ بأنه يتمتع بموهبة في صنعها. وقد أحبه الأطفال، واحترموه أيضًا. لم يضطر يومًا إلى رفع يده على أي واحدٍ من هؤلاء

(1) فورت براج هو الاسم السابق لفورت ليبرتي، قاعدة عسكرية أمريكية في شمال كارولينا. (المترجمة)

المشاكسين الصغار، ولو لمرة واحدة. في الحقيقة، بدا أن معظمهم يخشون جانبه قليلاً. وعلى ذكر ذلك، خشي المعلمون جانبه أيضاً. بل ومجلس إدارة المدرسة، لمرة أو مرتين. هل رأوا جثثاً محترقة مكومة لعمق عشرة أمتار حين نظروا إلى عينيهِ؟ هل تتبعه أشباح الموتى حين يسير في ممرات المدرسة؟ لا يعرف. ولكن ما إن تيقنوا أنه لن يطعنهم في الوجه أو يفجر أجسامهم، بدا الارتياح في نظراتهم. «حسناً، بدا شيء من الارتياح في نظراتهم. أعني معظمهم وليس كلهم».

بعد فترة استرخى هو الآخر. وأحبَّ الأطفال -أو بالأحرى سمح لنفسه أن يحبهم- بطريقة لم يعدها يوماً. لمّا عاد من الحرب، كانت قدرته على الحب موضع شك كبير، وكل ما عليك فعله هو إلقاء نظرة واحدة على الرفات المتفحّم لزواجه أو ربما تسأل عائلته التي نسيها تقريباً. في العالم المدني، كانت درجة الصوت التي يتحدث بها الناس منخفضة كثيراً عما اعتاده، لكنه ما زال يصيح بحديثه. عرف ذلك، لكن ليس بيده حيلة. خطر له أن ينهي حياته ببندقية. وبعد التفكير ملياً قرر المخاطرة. ماذا سيخسر حقاً؟ لذلك ذات مرة حين قبض على فتى صغير يدعى داشين مورنينج فلاور مينينديز -لن ينسى هذا الاسم طوال حياته، فمن يطلق على طفلٍ مثل هذا الاسم بحق السماء؟- لمّا لمح عيني الصغير داشين على طبق المعكرونة بالجبن البلاستيكي الصغير على مكتبه بالنظرة نفسها التي نظر بها الصوماليون النحفاء إلى وجباته العسكرية الجاهزة، أخذ الصبي جانباً معتقداً أنه فقير أو أن أمه مدمنة مخدرات أو تمر عائلته بظروف سيئة من هذا القبيل. من بحق الجحيم لا يستطيع توفير مالٍ مقابل شطيرة؟ نحن في أمريكا بحق السماء.

ثم اتضح أن والدته الصغير داشين لديها وفرة من المال. كانت تعمل حجارة أو شيئاً من هذا القبيل. والمال ليس مشكلة. بل المشكلة تكمن في والد الصبي، الذي كان معتقداً إحدى ديانات الهيبيز، وعلم الصغير داشين مبادئ تدعوا إلى اللاعنّف والتوجه إلى حل المشكلات بالحديث وكل هذا الهراء. كان إروين قد أوضح مدى غباء تلك الأفكار في اجتماع للآباء والمعلمين، وهذا الأب المجنون قد أتى على ذكر غاندي. لا شك أن الرجل مجنون، وأن الصغير داشين يعاني بسبب جنون والده. أما إروين وهو المعتاد على المشكلات التي يسببها الآباء المختلون لأبنائهم، أشفق على الصبي. واتضح أن الصغير ليس انطوائياً أو أيّاً من ذلك، بل معوّفاً بسبب سوء تربيته. وكل ما يحتاج إليه هو

التوجيه. وما إن توصَّل إروين لهذا الاكتشاف، حتى أدى صلاة شكرٍ لإله لا يؤمن به حقيقةً وشرع في توفير التوجيه المعني. علَّم داشين كيف يركل الأوغاد الصغار الآخرين في الخصيتين، ويُدمي أنوفهم، ويتسلل من ورائهم ويكبّل آذانهم بكلمات يديه.. علَّمه كل الأساسيات. في الحقيقة ربما تجاوز بعض الشيء في تعليمه الخدعة الأخيرة؛ شطح داشين في فعلها وانتهى المطاف بأحد الصغار الآخرين بعاهة دائمة وهي فقدان سَمعٍ طفيف. ولكن فيما بعد، صار داشين محبوبًا من الجميع، ولم يعد أحد يسرق نقوده، لذلك تبدو نهاية سعيدة. ثم انتقل داشين الصغير إلى المدرسة الثانوية في العام التالي. وأدرك إروين أنه لن يراه ثانيةً. لكن ذات يومٍ ديسمبري ممطر، قصد صندوق البريد أمام المنزل ذي الطابقين الذي كان يقيم فيه. يذكر ذلك اليوم تمامًا؛ اليوم الثامن عشر من الشهر موافقًا يوم سبت. والمدرسة مغلقة للعطلة الشتوية. كان لجيرانه في المنزل المجاور طفلان صغيران، عائلة مايكلسين، وانهمكوا جميعًا في تزيين شجرتهم. الساعة الثانية ظهرًا، وهو قد وصل إلى كوبه الثامن من السكوتش. باستطاعته سماع ترانيم عيد الميلاد عبر الحائط، مثل: Good King Wenceslas وجنجل بلز و Gramma Got Run Over by a Fucking Reindeer. لم يزعجه ذلك الهراء، ولم تتملكه غيرة من عائلة مايكلسين. بل كان سعيدًا لأجلهم. لم يشعر يومًا بأنه أخفق في حياته. فالثمالة بمفردك هو شيءٌ يفعله العزَّاب عادةً في الكريسماس. كما أنه لم يعد يفكر في البندقية الموجودة في زاوية خزانته. على الإطلاق. ثم فتح صندوق البريد، ويا لها من مفاجأة رائعة! فقد أرسل له داشين الصغير بطاقة كريسماس. أخرج البطاقة من صندوق البريد بيدين مرتعشتين، وفتح المظروف، وراح يقرؤه هناك أمام صندوق البريد تمامًا. وجاء فيه:

عزيزي إروين،

عيد ميلاد سعيد! أعرف أن البطاقة ليست أمرًا «رائعًا» لكنني أردت أن أرسلها لك لكي تعرف أن كل شيء يسير على ما يرام. المدرسة الثانوية سيئة لكنها ممتعة أيضًا، لو تعرف ما أعنيه. لولاك، ولولا مقابلتك، ربما ما كنت لأشعر بذلك. أردت

لك أن تعرف أنني مدرك لهذه الحقيقة. أردت أن أشكرك. وأردت
دعوتك لعشاء عيد الميلاد لكن أظن أن أبي ما زال غاضبًا.
داشين

ملحوظة: لدي صديقة الآن. هذه هي في الصورة. مثيرة،
أليس كذلك؟

بعدما أنهى قراءة البطاقة، عاد إروين إلى النصف الذي يشغله من المنزل
ذي الطابقين وبكى، المرة الوحيدة التي سيبكي فيها طيلة حياته البالغة
بأكملها. ظلَّ يبكي لساعة كاملة، ثم سكب ما تبقى من زجاجة السكوتش في
الحوض وفتح التلفاز وراح يشاهد تشارلي براون. وقبل أن يذهب إلى النوم،
طوى البطاقة ودسها في محفظته. وستظل هناك حتى يوم مماته.

بعد ذلك بفترة وجيزة بدأ يشعر بالتحسُّن، ويشعر بأنه أكثر شبهاً لنفسه
القديمة، وأقدر على القيام بالعمل الذي يتقنه. استقال من وظيفة التدريس في
نهاية العام الدراسي. شعر معظم زملائه بالارتياح، رغم أنهم كانوا مهذبين
ولم يقولوا أي شيء. أو ربما متوترين.
أيًا كان.

2

في أحد صباحات أكتوبر المشمسة، وصيف فيرجينيا يلفظ نسماته
الأخيرة في الهواء، وجَّه إروين سيارته المستأجرة – فورد توروس صغيرة
وقبيحة – في بقعة شاغرة من موقف السيارات، وانزلق متوقفاً وفي عقبه
سحابة من الغبار. وهو ما جذب انتباه ضابطين يُدخنان ويتبادلان الأكاذيب
عند زاوية السجن. ابتسم إروين ولوَّح لهما. ولم يكثرث.

ترجَّل من السيارة ونظر حوله، ثم بصق في الاتجاه العام للافقة التي كتب
عليها «سجن المقاطعة». صاح في الرجلين اللذين يدخنان سجائر مارلبورو
وقال: «تعرفان أن هذا الخراء سيقتلكما». ثم رفع قبعته وابتسم لهما ابتسامة
عريضة، وأضاف: «أحذركما فحسب».

حدّق الشرطي الأصغر سنّاً إلى إروين من فوق نظّاراته، كَمَن لا يصدق ما يراه. أما الضابط الأكبر سنّاً فضحك، وقال: «سأتذكر ذلك». في الحقيقة كان إروين مخطئاً. إذ لم يتبقّ في حياة هذين الشرطيين سوى أقل من ساعتين، لكن التدخين لن يكون عاملاً في فنائهما.

كان بهو السجن مثله مثل بهو كل منشأة حكومية أخرى بُنيت خلال السنوات العشرين الماضية: جدران من قوالب خرسانية معتمة مطلية بلون بني فاتح أو رمادي داكن أو شيء من هذا القبيل، وأرضية مشمعة من مادة اللينولويم -رخيصة لكنها تلمع بالنظافة- ونافورة ماء رمادية تصبّ ماءً فاتراً له مذاق البول. شرب إروين منه على أي حال. كان عطشاً، وقد تناول ما هو أسوأ من قبل.

جال بنظره حول البهو، فأحصى رؤوس نصف دزينة على الأقل من مدمني الميث في مراحل مختلفة من الإدمان، واثنين مخمورين، وفتى بشعر أحمر يرى إروين أنه مصاب بالانفصام حتى النخاع.

سار إلى النافذة تحت اللافتة التي تقول «تسجيل الزائرين هنا» وأخرج شارته. وبدأ: «نعم، أنا إروين، من وزارة الأمن الداخلي. أنا هنا لرؤية...». لم يرفع الملازم عينيه. كان رجلاً مكتنزاً في زي أخضر كُتب عليه «دائرة الإصلاحات» على أحد جيوبه، و«روجرز» على الجيب الآخر.

قال معاون وهو يدفع بلوح مشبكي للأوراق من خلال شقّ في النافذة الزجاجية: «املاً هذه».

- هل يمكنني ...

كرر المعاون: «املاً هذه. ثم نتحدث».

تنهّد إروين؛ تمتد الاستمارة لثلاث ورقات، بصفحاتٍ أمامية وخلفية. وما إن أنهى ملء الاستمارة حتى وجد طابوراً لا بأس به قد اصطف أمامه. اتخذ مكانه خلف سيدة بدينة لها قدمان قذرتان وبرفقتها فتاة نحيفة في نحو السادسة عشرة صُبغ على ظهرها وشم سيئ لفرقة لينيرد سكاينيرد. اندهش إروين قليلاً لرؤية هذا الوشم. إذ لا بد أن المغني الرئيسي للفرقة «روني فان زانت» قد توفي قبل عشر سنوات أو أكثر من مولد الفتاة. ثم فكّر: «لكن فرقة سكاينيرد ستظل خالدة لفئة معينة من الناس. تماماً مثل إلفيس أو فيرجين ماري». بغض النظر عن مدى وجود تلك الفئة من الناس، لا شك

أن هاتين المرأتين جزء منها. كان للسيدة البدينة طفل يدعى بيلي، وقد قُبض عليه في حمولة شاحنة من جبن مسروق.

جُبْن؟

اتضح أن هذه هي المرة الثالثة التي يتلقى فيها بيلي بضائع مسروقة، لذلك كان يواجه فترة إقامة ممتدة في السجن. بكت الأم بكاءً متواصلًا ومزعجًا، وراحت تقول بلهجة جنوب أمريكا أشياء مثل: «أنا ربيت أولادي تربية صالحة!» وتردها بين حين وآخر. أما الفتاة النحيلة فراحت تناولها مناديل كلينكس. وبين حين وآخر تقول شيئًا مثل: «لا أدري فيما كان يفكر» وتُرَبَّت على بطنها كأنما تحمي ما بداخله. فحَمَن إروين أنه سيُولد مغفل آخر فاشل ليحل محل بيلي في مجتمع المقطورات المنزلية بعد ستة أشهر أو قرابة ذلك.

بعد خمس عشرة دقيقة من البكاء المتواصل، عاد أخيرًا إلى النافذة. لم يكلف نفسه عناء الكلام، واكتفى بتمرير الاستمارة إلى الملازم وانتظار الحكم. فبصفته عسكريًا مخضرمًا لمدة ثلاثة عشر عامًا في البيروقراطية العسكرية، كان واثقًا من أنه ملأ الاستمارة كما ينبغي، لكن مع فئة معينة من الحمقى يستحيل أن تكون متأكدًا من ذلك.

فحص الضابط البدين الاستمارة بتمعن، الورقات الثلاث بصفحاتها الأمامية والخلفية. وبعد برهة أومأ وقال بإحباط جلي: «تبدو جيدة. سأحتاج إلى رؤية هويّتي إثبات مختلفتين أيها الضابط...». قاطع حديثه وألقى نظرة فاحصة على الاستمارة، ثم تابع: «... ليفنجتون؟ إروين ليفنجتون؟». ورفع عينيه ناظرًا إلى إروين للمرة الأولى.

أجاب إروين وهو يرفع شارته: «هذا أنا».

- هل أنت... أنتَ لست إروين ليفنجتون المعروف، أليس كذلك؟

فكَّر إروين: «اللعة! ها قد بدأنا». لو أن له أن يندم على شيء واحد في حياته -وهو ما حدث فعلاً- فهو سماحه لتلك اللعينة أن تُولف كتابًا عنه. بدا أمرًا محمودًا آنذاك، لكن الكتاب أدى لإنتاج فيلم. ولمَّا عُرض الفيلم، توفقت حياتها الكتابية عند ذلك الإنتاج الوحيد.

أجاب إروين: «ربما لست أنا».

- رئيس الرقباء إروين ليفنجتون؟ السرية ب، الكتيبة الثانية؟

أجابه إروين بنظرة. وللمرة الأولى منذ وقتٍ طويل جدًا، عاد إليه مذاق الغبار والكورديت. حاول التشبث بصورة داشين الصغير، وذكرى بطاقة عيد الميلاد، لكنه شعر فجأةً كالغريق وسط أمواج متلاطمة.

- الكتيبة الثانية في الجيش الخامس عشر؟

أجاب إروين: «تركتُ العمل منذ وقتٍ طويل». كانت نبرته لطيفة جدًا: «لو يمكننا أن...».

قال الرجل البدين: «أخي هو جيم روجرز».

رفع إروين رأسه لسماع ذلك، إذ لم يعد يشعر بالغرق، ثم قال: «كيف حال الرقيب روجرز؟».

- تحسَّن حاله كثيرًا يا سيدي. مرَّ بوقتٍ عصيب، لكنه يتحسَّن الآن. وأنجب ولدًا، وُلِدَ في مايو الماضي.

«لا تنادني بسيدي». وبعد برهةٍ أضاف: «كيف حال ساقه؟».

- يتحرك بشكل جيد. هذه الأيام، على أي حال. استغرقت إدارة المحاربين القدامى وقتًا لتوفير الساق الصناعية المناسبة.

منحته أخبار روجرز الجيدة دفعة معنوية بسيطة، فقال: «أخوك رجلٌ صالح. أبلغه أنني اطمأننتُ عليه. والآن، هل يمكننا...».

قاطعه معاون البدين: «لقد أخبرنا كثيرًا عنك يا سيدي. أخبرنا بما فعلته».

بدل إروين بين قدميه؛ دومًا ما تشعّره هذه المواقف بعدم الارتياح. طال الصمت قبل أن يُكرر إروين: «أخوك رجلٌ صالح».

- يقول أخي الكلام نفسه عنك. لا، هذا ليس صحيحًا. بل يقول إنك رجلٌ رائع. يقول إنك أفضل جندي ارتدى الزي العسكري يومًا، رجلٌ قوي ومقدام.

كان معاون البدين ينظر إليه بنظرة تقديس، وصوته يرتجف وهو يتكلم: «يقول إنك أنقذت حياته، حياته وحياة الجميع...».

زمجر إروين: «شكرًا لك». ثم أضاف بنبرة أهدأ: «كل هذه، مم، كل هذه أمور مبالغ فيها».

أجاب المعاون: «ما يقوله أخي نقيض ذلك يا سيدي». ثم خطر بباله أمر فظيع: فسارع مضيئاً: «آسفٌ لأنني جعلتك تملأ هذه الاستثمارات! لو أنني أعرف أنك أنت الرقيب الأول، ما كنت لأطلب هذا منك أبداً». ارتجفت شفاته وهو يقول كلمته: «أنا آسفٌ حقاً».

- لا عليك.

- من الذي أتيت لزيارته؟

- رجلٌ يدعى ستيف هودجسون.

اسودَّ وجه المعاون، وهو يجيب: «قاتل الضابط؟ ما شأنك به؟».

أخرج إروين نفسه من هذا المأزق بحذاقة، وأجاب كاذباً: «لا يمكنني الحديث عن الأمر. هذا من شؤون الأمن الداخلي».

- حقاً؟

أجاب إروين: «صحيح تماماً». استشف أن شقيق روجرز قد صدّق كذبه تماماً، وهو ما منحه شعوراً سيئاً. ليس أسوأ من شعوره لو اضطر إلى استكمال تلك المحادثة، لكنه سيئ على أي حال. ثم أضاف: «كل شيء سري وما إلى ذلك الخراء. أبلغ الرقيب روجرز أنني اطمأنتت عليه».

أجاب المعاون: «سأبلغه يا سيدي». ثم سأل بنبرة مترددة: «هل يمكنني... هل يمكنني أن أحصل على توقيعك؟».

وازن إروين بين خياراته. إما أن يضرب الرجل حتى يطرحه أرضاً فاقداً الوعي. وهذا ينجح أحياناً. وإما أن يمنحه توقيع، وفكر: «عادةً ما يتركوك وشأنك بعدما يحصلون على توقيعك». علاوة على أن الفناء غاص بكاميرات المراقبة. ثم أجاب أخيراً: «نعم بالتأكيد».

مرَّ المعاون لوحاً مشبكاً عليه ورقة فارغة من أوراق الكتابة. مهر إروين بتوقيعه، ثم أعادها إليه. أخذ شقيق روجرز التوقيع ووضعه في درج بيدين مرتجفتين. ثم قال: «سأضطر إلى نقل زيارتك إلى الكنيسة».

- الكنيسة؟

- نعم. حجرة الزيارة مكتظة. إلا إذا كنت مستعداً للانتظار.

- الكنيسة ستفي بالغرض.

دورة المياه ستفي بالغرض كذلك. كان يريد مخرجًا من هذا الموقف، بعيدًا عن شقيق روجرز وموكبه اللانهائي من الهراء البغيض الذي يتربص، مرتعشًا متحفزًا، تحت سطح كلامه المتلثم.

3

فتش شقيق روجرز حقيبة إروين وأخذ سلاحه، وترك له الحاسوب المحمول ومجلدات مانيلا. وبينما كانوا يجرون التفتيش، تسلل من ورائهم معاون آخر هامسًا. لذلك لم يندهش إروين حين ناوله رجل آخر - برتبة ملازم شرطة، وليس أقل من ذلك - بطاقة هوية زائر، وقاده عبر الردهة الطويلة إلى الكنيسة. ففكر إروين، وهو يهين نفسه لما هو قادم: «ربما يحمل هذا الرجل أعلى رتبة في المبنى».

وكما هو متوقع، حين وصلا إلى الباب المعدني، قال الضابط: «أنا، مم. أنا قرأت. قرأت الكتاب الذي كُتب عنك. حسنًا، معظمه. عن كل ما حدث في... كيف تنطق اسم ذلك المكان؟».

أجاب إروين: «نطنز».

- هل حقًا ما

قاطعه إروين: «لا».

قد تمر أسابيع دون أن يعرفه أحد، وقد تمر أيام يبدو فيها أن كل من يصادفهم في طريقه، حتى لو كانت صلته بالجيش طفيفة، قد قرأ الكتاب، أو شاهد الفيلم، أو ذلك الوثائقي على قناة التاريخ. ويبدو أن اليوم واحد من تلك الأيام.

أضاف إروين: «بل هراء تام». ثم فكر في نفسه: «ربما يجدر بي أن أطلق لحيتي؟».

- آه. أنا لا أقرأ كثيرًا، لكن ...

اندفع إروين إلى داخل الكنيسة، وأغلق الباب من خلفه. ثم جال بنظره في أنحاء الكنيسة. تحمله وظيفته لزيارة السجون أحيانًا، لكن هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها كنيسة سجن. كانت غرفة مربعة الشكل، بطول

ضلع ستة أمتار تقريباً، وبلا نوافذ. فاحت الغرفة برائحة الطلاء. كان قد توقع صفوفاً من كراسي معدنية قابلة للطي، وهو أمرٌ مألوف في ذلك النوع من المباني، لكنه رأى ستة مقاعد خرسانية طويلة مثبتة إلى الأرض، يتسع الواحد منها لثلاثة أو أربعة رجال. لكن ما أثار اهتمامه حقاً هو عدم وجود صلبان أمامه عند المنصة. «ربما هي المداراة السياسية؟». أما السمات الوحيدة المميزة لهذا المكان هي منصة بسيطة من خشب الصنوبر ولوحة مؤطرة على الحائط.

وتحت وطأة الملل، ورفض مؤخرته التي خاضت غمار معارك الأربعين أن تجلس على المقعد الأسمنتي، اتجه إروين نحو اللوحة ليلقي نظرة عليها. لم تكن سيئة، لكنها ليست جيدة كذلك. تميزت بتصوير تجريدي بسيط وتكعيبي لمجموعة صور من العصور الوسطى ووشوم السجن. ورجلٌ ضئيل الهيئة ذو بشرة حنطية - هل هو يسوع؟ أم أحدٌ آخر؟ - واقف في منتصف الصورة. تتوهج الشمس من خلفه، تاركةً وجهه في الظلال. يضم يديه معاً ويبارك جمعاً متنافراً من البشر والحيوانات المجتمعين في الضوء. وقف القديس والمبتهلون له محاطين بالظلمة.

انفتح باب الكنيسة، ودخل رجلٌ في منتصف العمر يرتدي بنطالاً باللون الكاكي وسترة إيزود عليها بقعة زيت. ثم سأل: «أنت ليفنجتون؟».

- نعم، أنا. نادني إروين.

- أنا لاري دورن.

- حسناً، مرحباً بك. أين الفتى؟

كان دورن هو محامي الدفاع العام لستيف هودجسون.

- سيأتي قريباً. طلبتُ منهم أن يمنحونا بعض الوقت بمفردنا. أريد التحدث معك.

أجاب إروين: «بالتأكيد. يسعدني ذلك».

هذا كذبٌ بلا شك. فقد تبادلوا الحديث عبر الهاتف عدة مرات من قبل. وفي رأي إروين، لا يعدُّ دورن كونه كومة من الخراء. لكنه مفتاح وصولنا إلى ذلك الفتى هودجسون.

وبينما انهمك دورن في الاطلاع على الأوراق، أشغل إروين نفسه بالتحديق إلى اللوحة. عند النظرة الأولى كان الظلام المحيط بالجمع أسود قاتمًا، لكن

عند النظر إليه من الزاوية اليمنى ستدرك أنه ليس أسود قاتمًا، ليس تمامًا. بل سترى طبقاتٍ من الألوان. فإذا نظرت إليها مباشرةً سترى هياكل في الظلام، ربما شياطين، وربما ...

قال دورن: «الأوراق سليمة».

- جيد. ليكن في علمك أنا لا أهتم البتة بالفتى هودجسون. السبب الوحيد الذي يدفعني للتحدث معه هو احتمالية معرفته أي شيء عن قضية أخرى نبحث فيها.

أجاب دورن: «يا لها من راحة!». وتلاشى صوته في نبرة ساخرة.

- ألسْتَ مهتمًا بأمره حقًا؟

- لا. لقد عرفت المحقق ماينر. وكانت بناتنا تلعب معًا أحيانًا.

- لا بد أن هذا صعب عليك، أعني الدفاع عنه؟

هزَّ دورن كتفيه في استنكار: «عن أي شيء أَدافع؟ لقد وجدوه فاقدًا الوعي على طاولة العشاء في غرفة معيشة ماينر. والمسدس الذي قُتل به ماينر في يدي الفتى. ويحمل بصماته». بدا دورن في تلك اللحظة كَمَن يريد أن يخلق عميله. وفكَّر إروين: «الأمر لا تبشر بالخير مع الدفاع».

- بصماته فحسب؟

- لا. وبصمات ماينر أيضًا. وبصمة إبهام على مفتاح الضوء من شخص آخر لم نتبينه قط.

فكَّر إروين في نفسه: «نعم، لكننا نعرف. وأنتم لا تعرفونها بعد».

- هل وجدت أي شيء آخر؟

- مثل ماذا؟

- أي شيء.

زَمَّ دورن شفّيته لبرهة مفكرًا. ثم رفع كتفيه، وقال: «نعم. وجدنا شيئًا آخر». وراح يبحث في أحد المجلدات، ثم ناول إروين مجموعة من الصور بمقاس 8 * 10 لمسرح الجريمة.

علَّق إروين: «الكثير من الأحشاء في خزانة الأطباق الخزفية هذه. هل تعرفون إلى مَنْ تنتمي؟».

وفكَّر: «ربما كارولين؟ أو ربما ليزا؟».

- ما زلنا بانتظار نتائج المختبر.

- أرى أن مسدسًا هو ما أحدث هذه الفوضى. هل هو مسدس الجريمة نفسه؟

رفع دورن حاجبه مستغربًا: «ملاحظة جيدة. هل تعمل في الطب الشرعي؟».

أجاب إروين: «ليس تمامًا». لقد قتل الكثير من الناس ليعرف ما تفعله البنادق. ثم تابع: «هذا جزءٌ من الرئة، أو يبدو كذلك. لكنها لا تنتمي إلى الضحية». كانت رثًا الضحية في المطبخ تقريبًا. «وهذا الفتى ستيف حيٌّ يرزق، لذلك هذه ليست رثته. هل بحثتم عن ذلك الأمر؟».

- لا، ليس تمامًا. إلام توصلت من فحصك؟

زفر إروين تنهيدةً مثقلة، وجال بخاطره: «كيف اجتاز هذا الرجل كلية الحقوق؟». ثم سأل: «هل بحث أحدٌ عن فتاته الغامضة؟».

أجاب دورن: «مَن؟ تلك الفتاة في الحانة؟ إنها من وحي خياله».

- ظننتُ أن لديكم شهودًا قد رأوهما معًا.

- صحيح. لكن هذا كل ما لدينا. لو أنها زارت منزل ماينر من قبل، فهي لم تترك أي بصمات أصابع، أو آثار أقدام، ولا حتى خصلة شعر واحدة. هل تعرف مدى صعوبة أن تدخل منزل أحدهم ولا تترك أثرًا؟

- لا أدري. أظنُّ أنه صعب جدًا. لكن الحقيقة هي أنها بالفعل تركت أثرًا.

تجهَّم وجه دورن: «أتمرح معي؟».

- لا.

تساءل دورن: «أي بصمة؟ تلك التي على مفتاح الضوء؟ ليست مدرجة في بيانات مكتب التحقيق الفيدرالي». يقصد بيانات نظام التعرف الآلي على بصمات الأصابع التابع لمكتب التحقيقات الفيدرالي.

- هذا صحيح. ليست مدرجة.

اعتزم إروين أن يترك عبارته الأخيرة معلَّقة في الهواء، تحمل في جعبتها كل التلميحات الشريرة حيال المعلومات التي توصل إليها، ثم انفتح الباب المؤدي إلى داخل الكنيسة بجلية عالية. وهو ما أحبط إروين، وأفسد عليه تلك اللحظة الممتعة.

دخل معاون آخر ممسكاً برجلٍ نحيف أبيض البشرة ذي شعرٍ بنيٍّ قصير. تعرّف إروين على ستيف هودجسون من صورته في الملف الجنائي. دفعه المعاون نحو إروين كأنما يتخلص من كيس قمامة في مكب نفايات.

ألقى إروين عليه نظرةً فاحصة. وراح يحدث نفسه: «أهذا هو؟ أهذا كل ما لدينا؟». لم يكن ستيف فتى صغيراً، لم يعد كذلك. «ربما في أوائل الثلاثين من عمره؟». وقف أمامه مرتدياً بدلة سجن برتقالية، لونها باهت وحوافها مهترئة. ولا يوجد على جسده أي وشوم ظاهرة. لم يبدو له مدمن مخدرات، لكن عينيه جاحظتان، منتبھتان وربما فزعتان قليلاً.

أوماً دورن إلى الحارس: «شكراً لك».

فقال الحارس: «سيتعين علي أن أحبسكما هنا يا مستر ليفنجتون. أنا أسف حقاً. ومع ذلك يا سيدي، إنه لشرف عظيم...».

قاطعه دورن: «لا مشكلة. شكراً لك».

أغلق الحارس الباب وعلى وجهه أمارات الإحباط.

راح الفتى هودجسون من فوره يسأل دورن عن شخصٍ يُدعى بيتي، ويستفسر منه عما إذا كان قد سمع أي خبر عنه. «مَن بيتي هذا؟». جالت برأسه تلك الخاطرة لكنه لم يقاطع حديثهما.

نظر دورن إلى الرجل كأنما ينظر إلى رجلٍ معتوه، وقال: «أليس لديك أمور أعقد تقلق بشأنها؟».

أمكن إروين أن يرى اليأس في عيني ستيف، لكنه أجاب بنبرة خالية من أي مشاعر: «صحيح. أعرف ذلك. إنني أتساءل فحسب عما...».

- نعم. حسناً. لا بأس. هاتفني صديقك. وقال إنه استضاف كلبك في منزله. هذا كل ما أعرفه.

أوماً هودجسون وانفرجت شفتاه عن ابتسامة صغيرة. وبدا جلياً أن القلق قد انزاح عن ظهره. جرَّ قدميه إلى واحدٍ من المقاعد الخرسانية، ونعل السجن الأزرق الرفيع الذي يرتديه يقرقع عند احتكاكه بمشمع الأرضية اللامع. لكن القيود لم تترك له مجالاً واسعاً للحركة.

فكّر إروين: «متهمٌ بجريمة قتل، وكل ما يهتم به هو كلبه؟».

لمَّا صار على مقربة، نهض إروين ومدَّ له يَدًا. نظر إليها ستيف مشدوهًُا، ثم مدَّ يده بطول السلسلة التي تربط قيوده وصافح إروين مصافحة لطيفة. - أنا إروين.

قال ستيف: «ستيف هودجسون». ففكرَ حيال هذا اللقاء لبرهة ثم قال: «لو قلتُ «سعدتُ بلبائك» فلن تعبر عن شعوري الحقيقي، لكنني أعترف بفضول نحو زيارتك. كيف يمكنني مساعدتك يا سيد...». أجاب إروين: «إروين. دومًا نادني إروين».

ضاعت عينا ستيف حيال سماعه لهذا الجواب، وفكرَ إروين: «ربما يتساءل إن كنتُ أمثلُ دور «الضابط الجيد»». قطع إروين شروده وأكمل حديثه: «أملُ أن أطرح عليك بعض الأسئلة. هل تمنع لو ناديتك باسم ستيف؟». - لا مانع. نادني بما تشاء.

جلس ستيف على أحد المقاعد الخرسانية، وأضاف: «لا أظن أن أجد معك سجائر، صحيح؟ أنا على استعداد لأفتك بأي شيء مقابل سيجارة مارلبورو». - آسف. لا أدخن. هل تريد بعض النشوق؟

لاحظ إروين أن ستيف قد اتخذ بضع خطوات ليستطيع الجلوس وظهره مستند إلى الحائط. ففعل إروين مثله.

فكرَ ستيف في الأمر قليلًا: «لا عليك. شكرًا لك على كل حال». استهل إروين الحديث: «لقد قرأتُ ملف قضيتك. وإذا كان ما تقوله صحيحًا، فيبدو أنك وقعت في ورطة كبيرة».

افتترت شفتا ستيف عن ابتسامة ساخرة، وأجاب: «صحيح. ما يدعو إلى الغرابة هو أنني فكرت في الأمر نفسه».

- هل لديك أي فكرة عن السبب وراء رغبتها في توريطك هكذا؟

ومرة أخرى بدا ستيف مشدوهًُا: «أنتَ تصدقني؟».

- لا أعرف بعد. أنتَ لم تقل الكثير.

رمق ستيف محاميه دورن بنظرة ملأها الاستياء. لم يُخف دورن قط حقيقة ظنّه عن تلك المرأة، بل لم يؤكد وجودها من الأساس. ثم أجاب: «حتى الآن لم يُبدِ أحدٌ اهتمامًا بالأمر. ولكن جوابي عن سؤالك هو: «لا. ليس لدي

فكرة عن السبب وراء رغبتها في توريطي. أو توريط أي شخص آخر في ذلك الأمر».

لكن ضوءاً خافتاً ومض في عينيه وهو ينطق بكلماته الأخيرة.

- لديك سجل جنائي نظيف، أليس كذلك؟

حدّق إليه ستيف بنظرة تقديرية طويلة، ثم أجاب: «لا يفوتك الكثير من التفاصيل، أليس كذلك؟ لا. ليس لدي سجل جنائي نظيف. ارتكبتُ خطأً منذ وقتٍ طويل. وتأذى أحد أصدقائي. ربما استولت كراهية شديدة على قلب والديه فقررا فعل ذلك بي، لو أنهما فكرا في الأمر حقاً. الحقيقة هي أن سيليا قد ماتت بأزمة قلبية منذ سبع سنين، وأطلق مارتن على نفسه الرصاص في العام التالي».

علّق إروين: «هذه قصة حزينة جداً».

- أتسخر مني؟

- لا أسخر منك. ولعلمك، أنا أفهم ما تشعر به. فعلتُ أشياء كثيرة أتمنى لو أمكنني التراجع عنها. أشياء تسلبني النوم في بعض الليالي. رmqه ستيف بنظرة فاحصة لبرهة، ثم هداً قليلاً: «حسنًا. آسف».

- هل تظن أن تلك الفتاة كارولين لها أي علاقة بما حدث معك في الماضي؟

قطّب ستيف حاجبيه وهو يجيب: «لا أرى أي علاقة لها بذلك. لكن هناك الكثير والكثير مما لا أفهمه عنها مطلقاً».

قال إروين: «لِمَ لا تحكي لي من البداية. أخبرني بكل شيء تذكره. خذ وقتك، يمكنني قضاء اليوم بطوله هنا».

4

«ثم سمعتُ رجلًا من ورائي».

استمر حديث ستيف قرابة الساعة. كانت ذاكرته قوية فيما يتعلق بالتفاصيل المرئية، وأضعف قليلًا فيما يتعلق بالكلمات الدقيقة التي تبادلاها

في حديثهما. ومما أثار الدهشة هو وصفه المُفصّل لملابس المرأة الغريبة؛ سروال دراجة قصير ودفاعات للساقين؟ ووفقاً لرأي إروين المهني، وجد في حديثه صدق الحقيقة. «لو أنّ هذا الرجل يكذب، فهو لا يعرف أنه يكذب». ببساطة ليس لدى الرجل أي فكرة عما حدث له ولا لماذا حدث له. وهو ما أشعر إروين بحزن شديد.

- ثم قال ذلك الرجل، ماينر، شيئاً يشبه «أنتَ قيد الاعتقال». وكررها مرتين على الأقل. كان يتصرف بغرابة، كأنما لا يعرف ما يحدث حوله. كأنه في حالة ذهول، أتفهمني؟

سأل إروين: «وماذا حدث بعد ذلك؟».

أطرق ستيف. ولاحظ إروين تجنبه النظر إلى السلاسل التي تقيد كاحليه.

- صدقاً! لا أذكر. كل ما أذكره هو ما جال في خاطري حينها «آه، اللعنة! معه مسدس». يمكنني تصور وجهه، لذلك لا بد أنني التفتُ إليه. لكن الذكرى التالية الواضحة في ذهني هي الاستيقاظ على الأرض. لا فكرة لدي عن المكان الذي أنا فيه، ورجلٌ يصرخ في وجهي.

علّق دورن: «لا بد أن هذا هو المحقق جيكوبسين. كان صديقاً للمحقق ماينر. وكان من المفترض أن يخرجنا للصيد معاً في ذلك الصباح. هو من اكتشف جثة ماينر، وأجرى الاعتقال الأول».

أجابه إروين كاذباً: «شكراً لك».

لم يكثر لجايكوبسين، وراح ينقر بقلمه على المقعد الخرساني، مستغرقاً في التفكير. ثم قال: «إذن أنتَ تنكر قتله؟ أعني ماينر؟».

- هل يهم؟

أجاب إروين: «ربما لا. لكني فضولي».

- أظن ذلك. أعني أنك قتلته.

علّق دورن متشككاً: «تظن!».

هزّ ستيف كتفيه: «كما قلتُ، أنا لا أذكر. آخر ذكرى واضحة في ذهني هي أنه كان حياً. وعندما استيقظتُ في الصباح التالي كان ميتاً. أنا لا أحمل أي ضغينة نحو الرجل». زفر تنهيدة مثقلة، ثم أكمل: «كم أتمنى لو أنني عدتُ إلى

المنزل وغطتُ في النوم. لا أعلم إذا كان ذلك سيفيده كثيرًا أم لا، أعني ذلك الرجل، لكنني على الأغلب سأكون في المنزل مع كلبتي».

- أتظن أنها كانت ستقتله على أي حال؟

أجاب ستيف بصدق لا مثيل له: «يا رجل، ليس لديّ أدنى فكرة!».

انتظر إروين بأذان مصغية، لكن هذا كل ما لديه. «جفت الكلمات بداخله». استغرق في تفكيره مليًا، ثم قال بعد برهة: «حسنًا. لقد كنت صريحًا معي. وأنا أقدر لك ذلك. الكثير من الرجال الذين أتحدث معهم يكذبون لأنهم يحبون مذاق الكذب على ألسنتهم. لذلك سأجنبك حركاتي الخاصة للاعتراف. لنقل إنني أملك خيطًا رقيقًا عن هذه المرأة - ليس بالكثير، البعض فحسب - وهو ما قد يفيدك في قضيتك. ربما يفيدك».

طرفت عينا ستيف مشدوهاً، وقال: «قل ما لديك».

ورفع دورن عينيه عن أوراقه.

- أنا شبه متأكد أن المرأة التي قابلتها تدعى كارولين سوباسكي. وما قلته أنت عنها يتوافق مع الفتات الذي نعرفه عنها.

بدا ستيف مصغيًا، وربما متفائلًا أيضًا. لكنه أحجم عن الحديث.

قال ستيف: «كلي أذان مصغية».

- كما قلت، أنا أعمل مع الأمن الداخلي. وأنا عميل خاص. مثل عميل خاص لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي، عدا أننا لسنا مضطرين لارتداء البذلات إذا لم نرغب في ذلك.

ارتدى إروين في ذلك اليوم قميصًا رماديًا وسترة زرقاء داكنة بسحاب وغطاء رأس، والبنطال الجينز الذي ارتداه له مقاس البنطال نفسه الذي كان يرتديه في حفل تخرجه في الثانوية العامة منذ ثلاثين عامًا.

- إذن ماذا تعمل بالضبط؟

- على حسب. في كثير من الأوقات أنا أتتبع الصدف المثيرة للاهتمام فحسب.

- ماذا تعني؟

- حسنًا، هذه الأيام يتدخل الأمن الداخلي في كل شيء تقريبًا. أنت تعرف ذلك، صحيح؟ سجلات الهواتف، وبحوث الإنترنت، والكتب في المكتبات

والأمور المصرفية... كل شيء. كل ذلك يدور في تلك الغرفة الكبيرة
مكيفة الهواء والمخصصة لهم في يوتا. وما يخرج منها هو كومة من
صدف غريبة قد تثير اهتمام أشخاص مثلي. تخيلا أن يشتري أحدهم
كيس سماد واحدًا من خمسة عشر أو عشرين متجرًا مختلفًا من متاجر
«هوم ديبوتس» فعلى الأرجح سيلاحظ النظام هذا النمط. أتفهمان
قصدي؟

- أظن ذلك.

- أو، كما يحدث في هذه القضية، لنقل إن ضابطًا يحرر تقريرًا. المساكين
يقضون حياتهم في تحرير التقارير. بالإضافة إلى كل الإجراءات
المعتادة التي تصحب التقارير.. وكلاء النيابة والمحامين والأرشفة..
يحدث أن تذهب نسخة من كل ذلك إلى تلك الماكينات في فيرجينيا.
وفي الجولة الأخيرة كانت واحدة من القضايا التي خرجت لنا هي ...
- قضيتي؟

سأل ستيف بحماس مفاجئ، وأضاف: «هل وجدتم دليلًا يُبرئني؟».

- لا. لم نختر قضيتك. لا شيء في قضيتك لا يمكن تفسيره. لكن الصلة
التي جلبتني هنا وانتهى بها الحال على مكتبي هي سرقة بنك. سرقة
بنك غريبة جدًا.

- غريبة من أي ناحية؟

أجاب إروين: «جزء من الغرابة كان في حجم المسروقات. في معظم
السروقات يأخذ اللص عشرة، أو ربما خمسة عشر ألف دولار. وفي كثير من
الأحيان لا يصل حجم المسروقات إلى ذلك الرقم أصلًا. لكن هذه المرة وصلت
المسروقات إلى ثلاثمئة ألف دولار».

علق ستيف، مستشهدًا بالمبلغ الذي قالت المرأة الغامضة بأنه في الحقيقة
القماشية الزرقاء: «ثلاثمئة وسبعة وعشرون ألفًا تقريبًا؟».

أومأ إروين: «في الحقيقة، نعم. خطر ببالي الشيء نفسه. وعلى أي حال،
كانت عملية سرقة ناجحة جدًا. بل نجحت نجاحًا غير مسبوق للكثير من تلك
العمليات. وهذا غير معتاد. لذلك اهتم الحاسوب بهذه القضية، وأحالها إليّ.
التفسير الوحيد لهذا النجاح هو أن المنفذين قد خضعوا للتدريب».

قطب ستيف جبينه وسأل: «تدريب؟ أتعني مدربين لدى الحكومة؟».

- صدق أو لا تصدق. اعتادت الاستخبارات السوفيتية إجراء تدريبات على هذه العملية تحديدًا في السبعينيات من القرن الماضي. لتدريب المتمردين أو شيء من هذا الهراء. ونحن أيضًا أجرينا هذه التدريبات، كجزء من دورة تأهيل القوات الخاصة. لم نعد نطبقها، لكن هناك الكثير من المعرفة العملية ما زال متداولًا. وعلى أي حال، هذا هو سبب استدعائي. تأتينا قضية مثل هذه كل بضعة أشهر، وعادةً ما يتضح أنها لا شيء يذكر في النهاية.

- وهذا ينطبق على قضيتنا أيضًا، أو على الأقل في هذه القضية ليس لدينا أي سبب للاعتقاد بأن السيدة سوباسكي متورطة في أي أعمال إرهابية. لكن الأمر الذي ليس واضحًا لنا هو ماهية عملها بالضبط. أعني أن صرّافي البنك ساعدوها في عملية السطو هذه. فما الخطب إذن؟

سأل دورن: «ماذا تقصد؟».

هز إروين كتفيه: «ما قلته للتو. في الساعة الثالثة تقريبًا بعد الظهر، دخلت السيدة سوباسكي -فتاتك كارولين- وفتاة أخرى، لم نتبين هويتها، إلى بنك ميدويست الإقليمي فرع أوك ستريت في وسط مدينة شيكاغو. لقد حصلنا على صورهما من كاميرا الفناء. انتظرتا في الطابور مثل العملاء الصالحين القلائل لما يزيد على ثلاث دقائق. ولمّا حان دورهما، اقتربا من الصرافة، وهي السيدة...». ألقى إروين نظرة على ملاحظاته وتابع: «أمرينا كريشنامورتي. تحدثت إليها المرأة التي لم نتعرف على هويتها بعد في هدوء تام لمدة سبع وثلاثين ثانية. ثم... أتعرفنا، لا بأس. شاهدنا بنفسيكما».

فتح إروين حاسوبه المحمول. ضغط على أحد برامج مايكروسوفت، وقضى بضع ثوانٍ في إغلاق المقاطع الإباحية، ثم ضغط «تشغيل». وقال: «هذا تسجيل كاميرا المراقبة من البنك».

وضع ستيف الحاسوب المحمول على أحد المقاعد الخرسانية. وراح دورن يشاهد من وراء كتفه.

سأل دورن: «لماذا تلبس هكذا؟».

بدت كارولين مقبولة نوعًا ما، وإن كان مظهرها قد عفا عليه الزمن قليلاً ببنطالها الجينز وقميصها الرجالي وقدميها الحافيتين. أما المرأة الأخرى فكانت تلبس روب حمام وقبعة راعي بقر.

أجاب إروين: «ليس لديّ أدنى فكرة. خطر ببالي أولاً أنها تتعاطى الميث، لكنني لا أظن ذلك. تبدو كأنها ناعسة جداً».

اتفق معه دورن قائلاً: «كما أن أسنانها كلها ما تزال سليمة. هل يمكن أنها تتعاطى عقاقير المهلوسات مثل إل إس دي؟».

نظر إليه إروين وستيف معاً.

فرفع دورن كتفيه في لا مبالاة وهو يُجيب: «نصف من يُقبض عليهم تقريباً وهم تحت تأثير هذا المهلوس يلبسون رداء حمام. إنه مثل أمر شائع بينهم».

فكّرَا في الأمر ملياً لبضع ثوانٍ، ثم أوماً إروين نحو الحاسوب المحمول، وقال: «ستزداد الأحداث إثارة».

كانت المرأة في رداء الحمام تتحدث إلى أمريتا كريشنامورتى. ناولتها كارولين حقيبة قماشية زرقاء، مثل الحقائب التي يستخدمها المرء ليأخذ بها أغراضه إلى الصالة الرياضية. فأشارت السيدة كريشنامورتى إلى صرافين آخرين وتجمعوا ثلاثتهم ليسمعوا ما يقال لهم. تحدثت إليهم المرأة في رداء الحمام لبضع ثوانٍ أخرى، ثم لمست خدّ كل واحدة منهم.

ثم تفرّق الصرافون وراحوا يملؤون حقائب بالمال. كانت وتيرة عملهم سريعة، ولا يُبطئون إلا للتخلص من العبوات الصبغية أو الأوراق النقدية المتسلسلة.

سأل دورن: «أهذه هي الأوراق النقدية المتسلسلة؟».

أوماً إروين بالإيجاب.

استمر المقطع لثلاث دقائق تقريباً. ولمّا انتهى، أعاد ستيف الحاسوب المحمول لصاحبه.

ثم علّق دورن: «لقد ساعدوا جميعاً».

أجاب إروين: «صحيح». وكنتم رغبة في تحية خبير الأمور البديهية. كان بحاجة إلى وجود دورن، لذلك تغاضى عن تعليقه، وتابع: «لقد ساعدوهما».

وتلك السيدة كريشنا مورتى كانت -مم، ماذا يسمونها- آه، مديرة الفرع. وتعمل هناك منذ اثني عشر عامًا تقريبًا. أما الاثنان الآخران فلم يَمْضِ على التحاقهما بالوظيفة سوى عام تقريبًا. ولم يثبت أن أيًا منهم على شفير الإفلاس أو شيء من هذا القبيل. وما كانوا ليلتحقوا بالوظيفة في المقام الأول لو أن لهم سجلات جنائية. ولكن تراهم في توقٍ شديد لملء تلك الحقيبة، ألا تظن ذلك؟». أوما دورن بإيجاب: «هذا غريب حقًا».

شرد إروين مفكرًا دون أن ينطق بشيء: «أليست بنفس غرابة أن يحافظ رجل على سجل جنائي نظيف طوال عشر سنوات، وفجأة يرتكب جريمة سرقة ويقتل شرطياً؟». أو ربما لا. سيناقش ذلك الأمر لاحقًا.

أما الآن فاستطرد قائلاً: «نعم، اعتقدتُ ذلك أيضًا. لذلك أجريت حديثًا معهم. بدوا في غاية اللطف. وكانوا ثلاثتهم يذكرون جيدًا أماكن زر الإنذار، لكن لم يبدُ على أحدهم أن أُصيب بالذعر أو أي من هذا، ولم يضغط أحدهم على زر الإنذار».

- هل قالوا لك السبب؟

أجاب إروين: «ليس في بادئ الكلام. وثلاثتهم طلبوا وجود محاميهم. لكن ما إن أقنعتهم بأنهم لن يُسجنوا، حدثتني أصغرهم سنًا. وقالت بأنها لم تضغط زر الإنذار لأنها، وهنا أقتبس كلامها: «لأنني كنتُ مشغولة جدًا في البحث عن العبوات الصبغية وأجهزة الإرسال اللاسلكية». تتحدث بواقعية مقنعة، أليس كذلك؟ فسألتها إن كانت تعرف سبب ما فعلته، فأجابت بأنها ليس لديها أدنى فكرة. أنا متيقن أنني أصدقها». نَدَّت عن ثغر إروين ابتسامة ساخرة، وهو يضيف: «لأصدقكم القول، أنا في حيرة من أمري. لذلك أتيتُ إلى هنا».

سأل ستيف: «ماذا تقصد؟».

- أملتُ أن أجد عندك بعض الأفكار الذكية حيال الأمر.

- عندي أنا؟

أوما إروين بإيجاب، وقال: «لقد قضيتَ معها وقتًا أطول من أي أحدٍ آخر. هل لفت هذا المقطع انتباهك لأي شيء؟ أعني هل حفَّز شيئًا في ذاكرتك؟». منحه إروين وقتًا للتفكير. ثم تحوَّل نظره مرة أخرى إلى تلك اللوحة المشوهة، وشرد: «تلك الهيئات في الظلمة سوادٌ في سواد، لكن يمكنك ...».

- ألا تظن أن الصرّافين مشتركون في السرقة؟

أجاب إروين: «نعم. لا أظن ذلك. فعلت ما بوسعي لمساعدتهم. فقدوا وظائفهم بالطبع، لكنني لا أظن أن أي محاكمة ستعقد لهم».

- وهل أنت متأكد أن المرأة في المقطع هي كارولين؟

- تطابق بصمات أصابع المرأتين.

- لكن كيف حصلت على اسمها؟ إنَّ تطابق بصمات الأصابع سيظهر لك الصلة بين القضيتين، لكن إذا عثرت على الاسم ستحتاج إلى شيء آخر يثبته.

فكر إروين: «فتى ذكي». ثم قال: «سجلات المواليد في المستشفيات».

ضاعت عينا دورن: «لا أعرف إذا كان هذا ممكناً من الناحية العملية».

هزَّ إروين كتفيه بلا اكتراث: «تتعلم شيئاً جديداً كل يوم، أليس كذلك؟ أنا أشبه الأخ الكبير إلى حد كبير. أستطيع الوصول إلى كل ما لا يخطر على بالك. ومع ذلك، لم نتوصل للكثير عن تلك المرأة، مع أن خبراء الحاسوب لدينا ماهرون جداً. ماذا يسمونها، التنقيب في البيانات؟». تظاهر إروين بالغباء، وهو من نشر أوراقاً بحثية عن التنقيب في البيانات.

علّق دورن: «سمعتُ بها». وكان إروين واثقاً شديد الثقة أنه يكذب.

- على أي حال، المهم أن هؤلاء المهووسين بالبيانات دائماً ما يعودون إلينا بنتيجة ما. لكن ليس هذه المرة. وأنا شبه متيقن أنهم لم يصلوا إلى شيء، لأن ماضي السيدة سوباسكي متوقف عند سنٍّ معينة.

سأل ستيف: «ماذا تعني بـ «متوقف عند سنٍّ معينة»؟».

أوضح إروين: «سأخبرك. حتى عمر الثامنة تقريباً، تظهر في السجلات مثلها مثل أي طفلٍ آخر. في سجلات المواليد والصور والمدرسة...». وراح يفتش في ملفه حتى أخرج صورة بمقاس 8 10 x، وألقى بها على الطاولة، ثم تابع: «هذه صورة للصف الثاني الابتدائي للسيدة جيليسبي. وكارولين في الصف الخلفي».

فحص ستيف الصورة. وانتظر إروين أن يستنتج الأمر، لكن لم يحدث شيء.

سأل إروين: «ألاحظ أي شيء آخر في تلك الصورة؟».

- هل يجدر بي أن ألاحظ شيئاً؟

- ربما لا. لقد استغرقت وقتاً أطول مما استغرقت أنت في النظر إلى الصورة. وربما يهيا لي أمور أنت لا تراها. لكن ألقِ نظرة على الفتاة في الصف الثاني، الثالثة على اليمين. ألا تذكر بإحداهن؟

استغرق ستيف بضع ثوانٍ أخرى، ثم استطرد: «أليس... تلك الفتاة تشبه المرأة الأخرى المشتركة في سرقة البنك. تلك المرأة التي تولت مهمة الحديث إلى الصرافين. الأنف نفسه، استدارة الوجه نفسها....».

قاطعه إروين: «صحيح. فكرتُ في ذلك أيضاً. اسم هذه الفتاة هو ليزا جارزا. نحاول الآن اكتشاف ما كانت تفعله طيلة الأعوام الخمسة وعشرين الماضية». رمقهما بنظرة ثابتة، وأكمل: «لكننا لم نجد عنها شيئاً هي الأخرى. لا شيء على الإطلاق».

أطلق دورن صفيراً خافتاً.

لماً لاحظ إروين مدى استعدادهما للقفزة التالية، أبرز لهما جوهرة التاج. كانت الصورة مأخوذة من إحدى الصحف. والاقتباس المكتوب أسفلها يقول: «التغلب على حرارة الصيف! كارولين سوباسكي في عمر السابعة تأخذ دورها على الزلاجة المائية». وفي الصورة فتاة ضاحكة بسنٍ أمامية مفقودة تنزلق على زلاجة بلاستيكية طويلة، تُطوّقها هالة من رذاذ الماء المتلألئ. وفي الخلفية يتجمهر حشد صغير من الأطفال، كلٌّ بانتظار دوره.

سأل إروين: «ما رأيك في هذه؟ هل تلاحظ أي شيء...».

قطع حديثه فجأة. وراح يتشمم الهواء. عجز في بادئ الأمر عن تبين الرائحة، ثم أدرك ماهيتها. «رائحة دماء». وفجأة شعر كأنما عاد إلى أفغانستان. ومدَّ يده لالتقاط بندقية M16 ليست موجودة.

من بعيدٍ سمع صرخات امرأة، ثم دوي طلقة نارية. ثم دوي طلقتين آخرين، وضحكة عميقة جهورية.

ثم... صراخ.

بعد ثلاثين ثانية، سمع إروين صليل مفاتيح تداعب القفل.
- آه، اللعنة!

انفتح الباب على مصراعيه ليظهر شقيق الرقيب روجرز راکعًا على الأرض، ورأس منكس، ووجنتان غارقتان بالدموع. أشار إلى ستيف بيده اليسرى. أما يده اليمنى، كما رآها إروين، فكُسرت في موضعين على الأقل. وقال: «هذا هو. أرجوك. لدي طفل...».

بالكاد توفر لإروين متسع من الوقت ليستوعب الكلمات قبل أن ينفجر رأس روجرز. انهار بقية جسده على الأرض، وانتهت حياته القصيرة نهاية رحيمة. ثم خطى أغرب رجل وضع رآه إروين في حياته مطلقًا فوق الجثة ودخل إلى الكنيسة.

كان رجلًا أبيض البشرة، طويل القامة مفتول العضلات، «عينة صحية» كما كانوا يقولون في الأيام الخوالي. وكان أول ما ورد في ذهن إروين أن الرجل قد صبغ جسمه بطلاء أحمر مثل تلك القبائل في كولومبيا. ثم: «لا. ليس طلاء جسم. بل دماء». الرجل مغطى بالدماء من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وقطع من اللحم ملتصقة بجسمه هنا وهناك. وبضعة أمتار من أمعاء دقيقة بشرية كانت تتدلى من كتفه.

راح الرجل الضخم يلوح بكتلة هرمية مربوطة في نهاية سلسلة طويلة. وعلى الطرف الآخر من السلسلة، سكينٌ بحجم منجل مثبت إلى مقبض معدني أصفر. «هل هذا برونز؟ وأيضًا ما هذا بحق الجحيم؟». رفض إروين في بادئ الأمر تصديق ما تخبره به عيناه، لكن حقيقةً كان الرجل يرتدي تنورة باليه. وجال بخاطره: «مم. هذا مشهد لا تراه كل يوم».

صاح الرجل الضخم: «اشتبييف؟». وراحت عيناه تتنقلان بين إروين وستيف ودورن، مذكرًا إروين بالسلاح الأمامي المثبت في طائرة الأباتشي. كانت له لكنة غريبة، لكنة لم يتبين إروين موضعها من العالم. ومخرج حرف «السين» عنده يقارب مخرج «الشين»، ويطيل نطق حرف «الياء» بشكل ملحوظ.

علّق دورن مصححًا: «مم... ستيف؟ أنتَ تبحث عن ستيف؟».

عاجله إروين: «إياك أن تفعل أيها المحامي».

تركَزَت عينا الرجل الضخم على دورن، وقال متسائلاً: «اشتيف؟».

صاح دورن مشيراً إلى ستيف: «هذا هو!».

ابتسم الرجل الضخم ابتسامة عريضة إلى دورن، فظهرت أسنانه بنية. «اشتيف؟».

أوماً دورن برأسه في حماسٍ هزلي، وبدأ لوهلةٍ شخصاً مجنوناً يستمتع بالموسيقى الصاخبة أكثر من كونه محامياً. وقال وهو يشير بإصبعه في الهواء نحو ستيف: «نعم. هذا هو!».

- أيها المحامي، لا أظن أن ...

وبسرعة الفهد وصل الرجل الضخم إلى جانب ستيف. ووضع ذراعه حوله، وهو يداعب خده بנصل سكينه. ولمحت عينا إروين المتمرستان أن النصل مدقوقٌ يدويّاً. وبدأ حادّاً للغاية. «هذا أيضاً مشهد لا تراه كثيراً».

- اشتيف؟

أجاب ستيف: «مم... نعم. هذا أنا».

واصل الرجل الضخم تمرير سكينه لأعلى خدّ ستيف وأسفله، مداعبة لطيفة نوعاً ما لا تريق دماءً. ثم، وبحركة سريعة لم تلتقطها عينا إروين، هشم الطرف المثقل من السلسلة فكّ دورن السفلي. بل أزاله كلياً. لقد اختفى تماماً. ربما هُرس جزء منه وحشر في حلقة، وتناثرت قطعٌ أخرى في كل مكان.

خاطب الرجل الضخم ستيف: «ولد ديدّ. تعال».

من نظرة عينيه، أدرك دورن أن شيئاً قد حدث لكنه لا يدري كنهه. رفع يده وتحسس نصف وجهه الأسفل برفق. وريثما أدرك أن شيئاً مفقود من ذلك المكان، راحت القطرات الأولى من الدماء تتساقط على قميصه. جحظت عيناه وراح يصرخ: «آآآآ! آآآآآآآآ!».

وبدأ يقفز على المقعد مثل طفل صغير يحتاج إلى دورة المياه. ويصرخ: «آآآ! آآآآآآآآ!».

حدّق ستيف والرجل الضخم إلى دورن؛ ستيف بنظرةٍ ملأها الرعب، والرجل الضخم بابتسامة مستمتعة صغيرة أبرزت غمّازتيه. وبعد هنيهة، بدأ الرجل الضخم يُقلّد قفزات دورن. وحدّج ستيف وإروين بنظرات لا تأتي إلا من رجلٍ يضحك بين أصدقائه. وأشار إلى دورن: «آآآ! آآآ!».

بدا أن ستيف لم يلاحظ، لأن عينيه كانتا مثبتتين على الحطام المتبقي من وجه دورن. راحت ابتسامة الرجل الضخم تتلاشى شيئاً فشيئاً، وهو يلتفت نحو إروين. لم يعجبه ما رأى على وجه الأخير كذلك، واختفت ابتسامته تماماً. رفع الرجل الضخم كتفيه لا مبالياً، وبعد جزء من الثانية، انطلقت الحربة على الطرف الآخر من السلسلة بسرعة بارقة ودفنت نفسها حتى يدها في محجر عين دورن. برز الطرف المدبب من النصل من مؤخرة جمجمة دورن، أصفر مغطى بالدماء. وبعد برهة، طالت بما يكفي ليستوعب إروين حركة السلسلة الفضية الرفيعة الممتدة من يدها إلى يد الرجل الضخم، انطلقت الحربة مجدداً بسرعة بارقة. هوى دورن على وجهه، وارتطم رأسه بالمقعد الخرساني بطقطقة مكتومة. وراحت الدماء والزلال يتسربان من عينه ويتجمعان في بركة صغيرة بجانبه.

بدا الصمتُ المخيمُ عليهم صاحباً.

تلذذ الرجل الضخم بالنظرة على وجهيهما لبرهة. حياً إروين بغمزة من عينه، ثم بدأ الطرف المثقل من السلسلة يدور ثانيةً.

أدرك إروين أنه موشك على الموت. لكن عقله النبيه الذي أسدى إليه الخدمات على مدار السنين، لم يخنه هذه المرة. ألقى نظرة فاحصة على ملابس الرجل الضخم السخيفة. حذاؤه البني الخفيف وأصابعه البارزة منه، وتنورة الباليه البنفسجية - «تنورة باليه؟ ما هذا بحق الجحيم؟» - وسترته الواقية، ربما إسرائيلية الصنع، وربطة عنقه الحمراء. واستحضر مظهر المرأة التي سطت على البنك في روب حمام وقبعة راعي بقر. ثم قال: «انتظر. ألا تعرف امرأة تُدعى كارولين على أي حال؟».

رفع الرجل الضخم حاجبه مشدوهاً: «كارولين؟». ودوران سلسلته يتباطأ، قليلاً فحسب.

أدرك إروين الذي سُحِذت سليقته بالتعامل مع القتلة طيلة عشر سنوات، أن الحيلة تكمن في عدم إظهاره الذعر. لو رأى الرجل الضخم الخوف في عينيه، فسينقض عليه من فوره.

أضاف إروين بنبرة لا مبالية: «أجل، كارولين. وليزا أيضاً».

- أنتقلت كارولين؟

وضع إروين يده على أذنه وقال: «ماذا؟ أعد ما قلته ثانيةً يا صاحبي؟».

- نت... قلت... كارولين.

وراح يحرك سكينه بين يديه مؤكّداً على كلامه.

شعر إروين بغصة في معدته ذكّرت به تلك المرة الوحيدة التي خرج فيها إلى عرض البحر للصيد واصطاد سمكةً ضخمة، لكنه تمالك نفسه وأجاب: «آه، نعم، أنا وكارولين أصدقاء منذ زمن. أخبرتني مراراً: «يا إروين لو احتجت إلى أي شيء، أي شيء على الإطلاق، فكل ما عليك أن تفعله هو أن تنطق باسمي -كارولين- وسأتيك مسرعة. إننا أصدقاء حقيقيون، أنا وكارولين».

تغضّن وجه الرجل الضخم في حيرة، وهو يسأل: «كارولين؟».

أوماً إروين بإيجاب: «آه، نعم. كارولين».

ضيّق الرجل الضخم عينيه في تشكك وسأل: «نوبونونجا؟».

- نعم. نوبوناجا. هو أيضاً، نعم.

لكن إروين أدرك من فوره أنه نطق بالكلمات الخطأ. «ليس نوبو-نا-جا، بل نوبو-نون-جا. آه، اللعنة!». ضاقت عينا الرجل الضخم، واستأنف دوران كتلته الهرمية. في تلك اللحظة راح إروين يفكر: «لو ألقى بها، فسأنحرف يميناً، سأنحرف يميناً وسأمسك بالسلسلة إذا استطعت، لكنه سريع جداً...».

طرفت عينا الرجل الضخم. ومال إلى الأمام مقطّباً حاجبيه. ثم اتسعت عيناه، مذكّرة إروين بعين شقيق روجرز حين تعرّف على اسم إروين من الاستمارة. ثم أشار متسائلاً: «أنت... إروين؟».

- مم ...

- نطنز؟

وضع الرجل الضخم يده على كتفه كأنما بها جرح، واتخذ وضعية تمثيلية لإطلاق نارٍ من سلاح آلي، وهو يؤرجحه للأمام والخلف، وكأنما يصد بمفرده هجوماً لقوة عظيمة أكبر منه.

تأمل إروين إجابته في ضوء السترة الواقية، وجنون الرجل الواضح، وفكّر: «آه، اللعنة!». ثم أجابه: «نعم. نطنز».

أخذ الرجل الضخم نفساً عميقاً. أوقف سنجته الهرمية عن الدوران، ثم انتفض فجأة إلى وضعية تشبه إلى حد كبير التحية العسكرية الأمريكية،

بقدمين متباعدتين أكثر من اللازم، وصدرٍ بارزٍ بانتفاخٍ لا يتناسب مع المظهر العسكري. ثم أمسك الحربة بيده اليسرى في وضعٍ رأسي -أيؤدي تحية انتباه، راحة؟- ورفع يده اليمنى وضرب بها على صدره. ثم قال شيئاً بلغة لم يسمعها إروين من قبل.

لم يكن إروين ليبادلته التحية -ليس هذا الرجل- لكنه أوماً مجدداً. وردد في نفسه: «إنه واحدٌ من تلك الأيام التي يعرفني فيها الجميع».

ترددت في أنحاء الرواق قرقعة رصاصات تتساقط على بلاط الأرضية، تلاها سباب مكتوم، ثم الصوت المميز لبندقية في وضع الاستعداد. ففكر إروين: «ربما، بندقيةً أيه أر 15-». ما زال رجال الشرطة يقاومون بشراسة». ألقى كلٌّ من إروين والرجل الضخم نظرة خاطفة على الباب؛ عبس الرجل الضخم ممتعضاً مما رآه هناك. ودون سابق إنذار، سدد لكمة إلى فك ستيف أطاحت به أرضاً. أُصيب على إثرها بالدوار، لكنه لم يفقد الوعي. ثم رفعه الرجل الضخم على كتفه، واختفى الاثنان في الرواق.

سمع إروين صوت طلقاتٍ نارية، ثم صرخات مدوية، ثم ضحكة مجلجلة. شعر بحيوية لم يشعر بها منذ أن كان في أفغانستان، وعروقه تنبض بالطاقة. نهض من مكانه وخرج يبحث عن سلاح.

رأى البندقية التي سمعها في الرواق -وكانت بالفعل بندقيةً أيه أر 15- - محطمة تماماً. ثم وجد مسدساً في غرفة تبديل الملابس، لكن الرجل الضخم قد اختفى. واختفى ستيف معه. تتبع إروين أثراً من آثار أقدام حافية مخضبة بالدماء على طول الرواق. ووجد الباب الأمني مفتوحاً على مصراعيه ومسدوداً بجثة السيدة البدينة ذات القدمين المتسختين. أحدثت في صدرها فجوة بحجم يده، كشفت عن وعاءٍ دموي رئيسي، ربما الشريان الأورطي، وقد تمزّق إرباً. والفتاة النحيفة ذات وشم سكاينيرد تجثو إلى جانبها في حالة جيدة وتحقق إليها بوجه جامد، وتقول: «بيف؟ بيفرلي؟».

فكر إروين في إخبار الفتاة النحيفة أن بيفرلي قد لحقت بروني فان زانت وإلفيس، لكنه ليس واثقاً من ردة فعلها. واهتدى به تفكيره إلى التبريت على كتفها في مواساة صامتة.

كان الفناء مخضباً بالدماء. أمعاءٌ تتدلى من الكراسي المعدنية، والمصابيح، والمنضدة. وجذاذات سميكة من زجاج مضاد للرصاص متناثرة في أنحاء الأرضية. كان قد رأى هذا الزجاج يتحطم من قبل، مرة واحدة

فحسب، حين أصيبت سيارة ليموزين عراقية بقذيفة يورانيوم مستنفذ من طائرة أيه 10- ثاندربولت. شقَّ إروين طريقه عبر الرواق، يتحسس النبض في الأجساد الملقاة، دون أن يجد فيها رمقاً من حياة. وجد الضابط الأكبر سنًا الذي رآه يُدخن في الخارج مقطوع الرأس. ولم يرَ إروين رأسه، لو أنها ما تزال موجودة.

وقف أمام الضابط الميت لدقيقة كاملة، مزموماً الشفتين مستغرقاً في تفكيره. وفي اتجاه الغرب رأى ومضات البرق تشق السماء. وأحدهم يصرخ في الفناء. انحنى وراح يفتش الجيب الأمامي لزي الضابط الميت واستخرج علبة سجائر مارلبورو لايت وقداحة بيك، ثم عاد أدراجه إلى الكنيسة.

ما إن دخلها حتى أغلق الباب. وتحرك إلى بقعة يستطيع منها أن ينظر إلى اللوحة، وراح ينزلق على الحائط حتى ارتطمت مؤخرته بالأرض. ذكَّره أزيز مصابيح الفلورسنت البيضاء بسرٍ من الذباب حول جثة متعفنة. في خلال دقائق ستعلو صافرات الإنذار، وستأتي سيارات الإسعاف، وفرق التدخل السريع والصحف الإخبارية. أخرج سيجارة من العلبة. أشعلها. واستل نفساً عميقاً، مستمتعاً بدوار الرأس الخفيف الذي يسببه النيكوتين.

على المقعد أمامه تستقر صورة كارولين على الزلاجة المائية في الصحيفة. وفي خلفية الصورة التي يبلغ عمرها خمسة وعشرين عاماً يقف طفلٌ يجمعه بستيف هودجسون شبه كبير، طفلٌ في العاشرة تقريباً ينتظر دوره هو الآخر. فكَّر إروين: «اللعة! كم أردتُ حقاً سؤاله عن ذلك الأمر». وعلى الحائط يقف يسوع -أو أيّاً من يكن- باسطاً ذراعيه، يمنع اقتراب قوى الظلام. سمع الهزيم مجدداً، آتياً من الشرق، وقد صار أقرب الآن.

إنه الرعد.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل الخامس

الدجاجة الأوفر حظًا في العالم

1

«رائع! لم تكن تمزح. أنت بالفعل تملك أسودًا في فنائك الخلفي».

جاءت هذه الكلمات على لسان أليان. فأجابها ماركوس: «نعم. كما في فيلم الوجه ذو الندبة تمامًا!». وابتسم كاشفًا عن قشرة ذهبية تغطي أسنانه قدّرت أليان قيمتها بعشرين ألف ريال برازيلي.

وفكرت: «كم تساوي هذه بالدولار؟». كان هذا أكثر مما تجنيه والدة أليان في عامٍ كاملٍ من تنظيف الأرضيات على أي حال. كانت معرفة أليان بفيلم الوجه ذو الندبة سطحيةً جدًّا، لكنها استشفت من نبرته أنه يتوقع منها الانبهار بهذا الشبه. فقالت مبتسمة وهي تمرر إصبعها على عضده: «أوووه، حبيبي!».

لا يزال صدى الحفل يطرق مسامعها رغم ابتعادهما مئات الأمتار؛ إيقاعٌ موسيقي قوي، ضحكات مكتومة، وأناس يقفزون إلى المسبح. لكنهما ابتعدا بما يكفي حتى احتجب قصر ماركوس خلف الأشجار وما عادت أليان تراه. وقفا على ممشي خرسانيٍّ بين حفرتين عميقتين مضاءتين ومملوءتين

بصخور مزيفة وقليل من الشجيرات. وقف ماركوس قبالتها، وقد تخطى قليلاً الخطَّ الوهمي بينهما القائل: «نحن أصدقاء فحسب».

قال ماركوس: «الأسد الكبير اسمه درسدن. وتلك (مشيراً إلى الآخر عن شمالها) اسمها ناجاساكي. ونناديها ناجا».

- ألا يفترض بالأسود أن يكون لها لبدة؟

هزَّ ماركوس رأسه نفياً: «الذكور منها فقط. ألا تشاهدين قناة ديسكفري؟».

ارتسمت ابتسامة مصطنعة على شفثيها. لقد نشأت في أسرة فقيرة لم تسمح ظروفها باقتناء تلفاز أصلاً.

- إنها صغيرة أيضاً.

- لم تبلغ نصف حجمها الكامل بعد. نظن أنها ابنته.

استدارت ونظرت إلى داخل الحفرة الأخرى، تلك التي يقبع بها الذكر. كانت أصواتهما قد أزعجته في نومه. وها هو مستيقظ الآن، يتفحَّصها بعينين صفراوين لا تطرفان. أصابتها رجفة أجبرتها على الاقتراب قليلاً من ماركوس، وهي تقول: «إنه كبير جداً».

- أنا أعيش حياة الترف.

نفث ماركوس دخان سيجارته وبسط ذراعيه على اتساعهما، إيماءة تضم بين طياتها حظيرة الأسود، والحدائق الشاسعة على مساحة أربعين فداناً، والجدار الخرساني الشاهق الذي يحيط بأراضيه. يعيش ماركوس، أو «زي الشاب» كما يطلق عليه خبراء الهيب هوب، في قصر فخم في كونيكتيكت كان ملاذاً أسبوعياً لمدير صندوق تحوُّط ذات يوم. أحاط كتفي أليان بذراعه، ودفعها إلى الأمام لتتأمل الأسد.

- أتريدني مني أن أوقظها هي الأخرى؟

صاحت أليان: «لا! لا... أعني، لا بأس. دعها تنام». أرخى الأسد الضخم رأسه إلى الأرض وأغلق عينيه. فتقوقعت أليان في أحضان ماركوس، وهي تكتم عطسة سببها دخان سيجارته.

- ما الأمر؟

- لا شيء.

لكنها حين نظرت إلى الأسد النائم، هاج شيءٌ بداخلها. قبل أن تصبح عارضة أزياء، كانت تعيش في قرية صغيرة في البرازيل، قرب منطقة بانتانال الطبيعية. لم تكن هجمات الفهود أمرًا مستبعدًا، فقد قُتل على إثرها صبيٌّ كان زميلًا لها في الصف الرابع. وذات مرة رأت مزارعًا وفروة رأسه منفصلة عن رأسه، ووجهه مخضَّبًا بالدماء.

سألت: «هل يمكن لها، أعني الأسود، أن تخرج من الحفرة؟».

هزَّ ماركوس رأسه نفياً: «مستحيل. عمق هذه الحفرة خمسة أمتار تقريباً. وجدرانها تميل إلى الأسفل، رغم أنك لا تستطيعين معرفة ذلك من هنا بالأعلى. لذلك مستحيل أن تتمكن من إحكام قبضتها في الحائط أو الإمساك بأي شيء. لا سبيل أمامها مطلقاً للخروج من هناك».

أجابت أليان: «آه. حسناً... هذا جيد». حاولت أن تُبدي اقتناعها بحديثه، فأضافت: «يا إلهي! هذا رائع جداً يا حبيبي. هل يمكننا العودة إلى الحفل الآن؟».

أجابها بابتسامة عريضة: «انتظري. عليّ إطعامها أولاً. أتريدين الذهاب معي إلى الصيد؟».

- الصيد؟

- تعالني معي.

ودار حول الحفرة حتى وصل إلى جادة تؤدي إلى أعماق الدغل.

قالت أليان: «لست متأكدة يا ماركوس... المكان مظلم جداً». واختلست نظرة إلى المنزل. كان الحفل في أوجّه. وأغنية ماركوس الأخيرة «البطش» تصدع عبر مكبرات الصوت. ثم أضافت: «نفد نبيذي».

- سأتيك بالبعض في غضون دقائق. تعالني، ستعجبين بما سترينه الآن. هذا أطرف شيء على الإطلاق.

كانت الغابة من ورائه موغلة في الظلمة. لكن ساعة يده من ماركة باتيك فيليب، مما جعل أليان تفكر في قرارة نفسها: «سيجعلني أمثل في مقطع فيديو. ربما يفعل».

حينها قالت أليان: «حسناً. لا بأس».

يراود الأسد الضخم الحلم نفسه كل ليلة. تداعب الحشائش الذهبية شعرات لبدته، ويحمل النسيم إليه رائحة النُو⁽¹⁾ والحمار الوحشي. والشمس منخفضة في الأفق، وظلال أشجار البوابات تمتد لمسافات طويلة.

إنها رائحة الديار.

في حلم درسدن كانت ابنته ما تزال صغيرة جدًا. تتبع إيقاعه وهو يمشي، تتحرك في حدود ظله، تمامًا كما اعتاد درسدن أن يفعل مع والده. كان يعلمها أصول صنعتهم: مواقع موارد المياه، الطريقة الصحيحة للانقضاض على الفريسة من اتجاه معاكس لاتجاه الريح، والكلمات التي تُبدي بها احترامها لإله الغابة بعد كل صيد. كانت ذكرى جميلة، وصارت حلمًا جميلًا.

ثم انقلب حال كل شيء.

تجمد درسدن في مكانه، وواحدٌ من مخالفه الأمامية يرتفع قليلًا عن الأرض. طأطأ أذنيه منتبهًا ومال إلى الأمام منصتًا، يصغي لالتقاط أي صوت يحمله إليه النسيم. سمعت ناجا الصوت أيضًا، عميقًا طنانًا، يشبه الزئير ويشبه صوت أزيز ذباب غاضب، عدا أنه لا يشبه أيهما في شيء. بدا أشبه بصوت المعادن.

بدا أشبه بصوت البشر.

قال لابنته ناجا: «انتظري. وراقبي».

حرّكت ذيلها إيماءً بالفهم. لكن درسدن كان أكبر سنًا مما يشيع عن الآباء الجدد، وبالكاد يتذكر ما يعنيه أن تكون شبلاً صغيرًا ومرحًا. لم يرَ الشيطنة في عينيها. فتركها في مكانها، وتحرك بين الحشائش، متواريًا متباطئًا في صمت. في الحلم، لم يكن خائفًا، ليس بعد. لكن خلايا وعيه التي لا ترى الحلم تتوق لفعل شيء آخر، أي شيء آخر، أن يمسك بشبله ويهرب بها، أن يمزّق إربًا تلك الأشياء التي عكّرت صفو عالمه بأصوات البشر. لكنه لا يستطيع فعل أي شيء بالطبع. هكذا تسير الأحداث في كابوسه.

(1) النُو: حيوان أفريقي من فصيلة البقريات، ينتمي إلى عائلة البقر الوحشي الرعي، ويجمع بين رأس وقرني الثور، ووجه البقرة، وذيل وشعر الحصان، كما يصدر صوت يشبه صوت ضفدع ضخم. (الترجمة)

نهض درسدن من مخبئه بين الحشائش ليقف بطول قامته. ومضت عيناه في ضوء الغسق، نقطتان متلائتان تُحيطهما الظلال الحالكة للبدته. لمح الغزال الذي كانوا يترصدونه فهرب. لكنه لم يهتم. انصبَّ جُل انتباهه على الطنين، وبعد لحظة، انتقل انتباهه إلى سحابة الغبار البنية التي صحبت ذلك الصوت.

راقبهم درسدن في غير ارتياح. لطالما عرف طباع البشر، وفهم أسلحتهم فهمًا جيدًا.

ثم تحوّل قلقه إلى فزع. لم تنتظره ناجا. لم تراقب ما يحدث. بل اقتربت من الرجال بكل ما تحمله من طيش الشباب. كان يراقب المشهد حين رفع رجلًا ببندقيته على كتفه، ثم تردد دوي وطقة قبل أن تسقط ناجا أرضًا. درسدن يزأر ينطلق عبر البراري للمرة الأخيرة، لا يأبه بالخطر، يريد كل ما يريد هو افتراس الطريدة التي تجرأت على إيذاء ابنته، أن يمزّعها ويمزّقها، أن ينتزع منها روحها وحياتها.

لكن في أثناء عدوه، رأى الرجال يرفعون العصي إلى أكتافهم، ثم شعر بوخزة الإبر في ظهره ورقبته. وفجأة لم يعد قادرًا على الوقوف.

أدرك درسدن في حلمه أنه سيستيقظ في أرض بعيدة، في شَرَك عالي الجدران، أملس لا يمكن تسلقه، مرتفع لا يمكن القفز من فوقه. لن يكون أمامه مهرب. مرّت بقية حياته أمام عينيه، أشدُّ قتامة من أي كابوس. والأسوأ أنهم سيأخذون ناجا أيضًا. لقد خذل شبّله. ووطئت هذه المعرفة كالحجر على قلبه.

سيستيقظ وشبّله تحت نجومٍ غريبة، وستتسمّ كل أيامها ولياليها بأصوات البشر وروائحهم.

الآن بعد مواسم كثيرة وعلى بعد أميال ومحيطات، انتفض من نومه مفزوعًا. رأى بشرًا معه في الحفرة، ثلاثة منهم، شديدي القرب منه.

تساءل درسدن إن كان ما زال يحلم. رفع رأسه واستنشق هواء الليل. فاح برائحة دخان كريهة، وتلألأ الأفق بضوء غير طبيعي. من مكان غير بعيد، تناهى إلى سمعه هدير آلات. «هذا حقيقي إذن». لملم أقدامه الأربع ونهض، يشعر بدمدمة في أعماق صدره، أيقظت فيه غريزته لأول مرة منذ وقتٍ طويل.

لو اقتربوا منه قيد أنملة، فسينقض عليهم. وإذا لم يقتربوا، فسينسل خفية من ورائهم، متظاهراً ...

قال أحد الثلاثة: «مساء الخير. أرجو أن تعذر تطفلنا. إننا لا نقصد أي إساءة لشخصك».

كان يتحدث بلغة الصيد، وينطق لسانها بطلاقة، لولا مسحة من لكمة النمر تشوبها. ثم تابع: «هل أنت من يطلقون عليه «سهم الفجر»؟».

طرفت عينا درسدن. كان سهم الفجر هو الاسم الذي أطلقه عليه والده. وظن أنه لن يسمعه مرة أخرى في حياته. لكن لدهشته، حرّك ذيله فأحدث حفيفاً أن «نعم، هذا أنا».

استأنف مايكل: «جيد. خمنت ذلك أيضاً. أنا أدعى مايكل. اصطدتُ لبعض الوقت مع فرقة الريح الحمراء». اختلس نظرة سريعة في أرجاء الحفرة، وتابع: «وهناك سمعتُ بما حدث معك».

انعقد لسان درسدن لبرهة. لقد عاشت فرقة الريح الحمراء على مسافة ليست قريبة إلى الغرب من دياره. كانت فرقة قوية تحظى باحترام جليل. «اصطاد معهم؟ بشري يصطاد معهم؟». بعد هنيهة من التفكير، أصدر الصوت الذي ربما يصدره حين يرى أسداً آخر على مسافة منه: «مَنْ أنت؟ وماذا تريد؟».

- هذا أمرٌ يطول شرحه. لكن اسمح لي أن أخبرك بأني الابن المتبنى لأبلاخا، وتعلمتُ على يد النمر نوبونونجا. إنني أحمل رائحة نوبونونجا وأصطاد إلى جانبه. هذا هو أخي ديفيد، وحش القتل، وهذه أختي كارولين، أيضاً من عائلة أبلاخا. لقد أتينا بأخبارٍ عن نوبونونجا. هل يمكننا الاقتراب؟

«أبلاخا؟». عرف درسدن صاحب الاسم. كان مارقاً، وعدواً لإله الغابة. لكن نوبونونجا أمرٌ مختلف كلياً. إنه نمرٌ قديم، يُقال بأنه حاكم جميع الغابات في العالم. سار درسدن نحو الرجل بخطى وثيدة وتشمم ريحه، كما كان ليفعل عند استقبال أسد صديق. ويا للعجب، فاحت من الرجل رائحة نمر بالفعل. «مم».

قرر درسدن أن يتحلى بالدماثة، فلو صحَّ نصف ما سمعه عن نوبونونجا، فإن هذا هو أحكم السبل. تجمد في موضعه وسمح للرجل أن يشمه بدوره.

شمَّ الرجل لبدته وسرعان ما تراجع إلى الخلف، وهو التصرف ألائق من صيَّاد حديث العهد في هذه الظروف.

رفع درسدن حاجبه عابسًا، فلم يضر أي مودة للبشر في العموم، علاوةً على أن أبلًاخا كان عدوًّا للإله. لكن في كل ليلةٍ قضاهما تحت تلك النجوم الغريبة، يستغرق درسدن في الدعاء حتى ينام. هو ليس مفجوعًا على المصير الذي آل إليه، لم يعترض أن جاء جزاء ورعه وتقواه طيلة حياته بهذه الطريقة. لم يطلب شيئًا لنفسه. بل يدعو بأن تُمنح شبلة فرصة الحياة خارج أسوار هذا القفص. في كل ليلة يتضرع درسدن إلى الإله ليُجيب له هذه الدعوة الواحدة، ليستقبل حتفه بصدورٍ رحب. حار عقله في تفسير العلاقة بين هذا وذلك... لكن ليس بجديد على الإله أن يفاجئه.

افترش درسدن إليتيه ورفع مخلبه الأمامي ولعقه بسرعة. تلك بادرة احترام، حتى لو لم تكن ترحيبًا حارًّا. ورغمًا عنه، قتله الفضول لسماع ما سيقوله البشري.

3

«... وذلك الأسد اللعين سقط على مسافة لا تزيد على خمسة أقدام مني، لا أمزح معك». تابع ماركوس كلامه: «كان غاضبًا جدًّا. لو أن طلقتي الثالثة لم تُصبه في مقتل...». سألت أليان: «حقًّا؟». - حقًّا.

يفترض بتلك الرقعة الصغيرة من الغابة التي يتجولان بها أن تبدو مثل البراري. وقد بدت كذلك من مسافة بعيدة. لكن كلما اقتربا، تبدَّل المشهد. حتى لو تجاهلت مصابيح شجرة عيد الميلاد الصغيرة التي تنير الطريق، ظل شيء بها يقول «هذه لمسة البستاني». ربما هي المسافة المتساوية بين أشجار النخيل المتراسة، أو شيء من هذا القبيل. لكن سواء هي براري أم لا، كانت غابة ماركوس المسوَّرة شاسعة حقًّا. وبالكاد تمكنت أليان من تمييز أصوات الحفل.

- على أي حال، ما إن نام الأسد الضخم، مشيتُ نحو الشبل وحملتُها. كانت صغيرة جدًا آنذاك. وما إن حملتها حتى سمعتُ ذلك الزئير وها هي الماما تركض خلفي الآن.

- وماذا فعلت؟

- مم، وضعت الشبل على الأرض. لكن فات الأوان. كانت الأم لبؤة واسعة الحيلة، وتسَلَّتْ مقتربةً منَّا أكثر مما فعل الأب، ونفدت كل موادنا المخدرة. لذلك أخرج أحد السكان الأصليين الذين معنا بندقية وأطلق النار عليها.

- يا إلهي! أطلقتم النار عليها؟ كانت تحاول حماية طفلتها فحسب.

- نعم، أطلقنا النار عليها! كانت مصممة على التهام إيتي. ومن حسن حظنا أننا فعلنا ذلك أيضًا. فقد هوت على أحد الرجال الذين ينقلون خيامنا ومزقت ذراعه إربًا قبل أن تموت. سمعت بعد ذلك أن ذراعه بُترت.

لا بد أن جزءًا ممَّا شعرت به أليان في تلك اللحظة قد تُرجم على وجهها.

أجاب: «لا بأس. لقد أعطيته مألًا». نظر إليها وتساءل: «ماذا بك؟».

أجابت: «لا شيء». ثم أضافت، أملًا في تغيير دفة الحديث: «كم مضى من الوقت على ذلك؟».

- مم... كان هذا بعد شهرٍ تقريبًا من انتهاء جولتي، لذلك أظن أننا نقارب العام الآن. كبرت الشبل ناجا كثيرًا منذ ذلك الحين. لديَّ صورة في المنزل أقف واضعًا قدمي على ظهر أبيها وأنا أحملها. الآن تقارب مائتي رطل، وهي لم تبلغ نصف حجمها الكامل بعد.

- كبيرة جدًا. وماذا كان وزن أبيها؟

- ربما أربعمئة رطل؟ لزمنا أربعة رجال لحمله. وبعد اثنتي عشرة ساعة كنَّا جميعًا على متن طائرة عائدة بنا إلى كونيكتيكت.

- هل سمحوا لك بإحضار الأسود؟

- حصلتُ على تصريح. وأنشأتُ حديقة حيوان هنا.

نظرت أليان من حولها، فاقشعرَّ جسدها. فتح الحشيش أمام عقلها عوالم سحرية، لكنها مخيفة ومشوهة. بدت الغابة المحسَّنة موغلة في الظلمة،

موغلة في العمق. وما عادت أصوات الحفل تتناهى إلى مسامعها. لسبب أو لآخر، تذكرت أمها، وراحت تفكر في شجارهما الأخير. عادت أليان من المدينة إلى الديار للزيارة، لكنها لم تجلب ما يكفي من المخدرات. وبعد يومين، اشتد عليها المرض. أصابها إسهال شديد، وأنهكت قواها. تكوّمت على السجادة حيث كانت تنام وهي صغيرة، غارقة في عرقها ترتجف من رأسها إلى قدميها. جلبت لها أمها طبقاً من فيجوادا، وكوباً من الماء، وخرقة قماش باردة. بدا وجهها حنوناً ورقيقاً تحت ضوء الشمع. تذكرت نظرة الألم على وجه أمها حين أطاحت بالطبق من يدها. لم تُرد طعاماً. ليس الطعام هو ما تحتاجه. رحلت في الصباح التالي دون توديعها، هربت إلى ساو باولو، إلى أضواء المدينة وملاهيها الليلية، والرجال الذين سيعطونها ما تريد لو قدمت لهم ما يريدون. لم تمنع هذه الحياة. أي شيء كان أفضل من العيش طوال حياتها في كوخ بسيط على أطراف بانتانال، تهدر حياتها كما فعلت أمها من قبل. لكن هنا في الأحراش، عاد إليها وجه أمها مجدداً.

قالت أليان: «ها نعود. أشعر.. مم.. بالبرد».

- أمهليني دقيقة واحدة. كدنا نصل.

بعد بضع خطوات انتهى الممر الطويل إلى ساحة صغيرة مكشوفة. فتح ماركوس لوحةً إلكترونية في شيء يشبه شجرة. وفجأة غمرت المصابيح أرجاء الساحة المكشوفة.

طرفت عينيها: «يا إلهي! ما هذا المبنى؟».

شبه المبنى كوخ حديقة مثبتاً على دعائم خشبية.

أجاب: «خُم الدجاج. قال المسؤول عن حديقة الحيوان إنه من الأفضل إبقاء الدجاج بعيداً، فلا يمكنها أن تستشعر وجود الأسود. لأن رائحة الأسود تصيبها بالهلع».

مثل المناشف والفناء الرخامي، كان الباب المؤدي إلى خُم الدجاج مختوماً بالحروف الأولى من اسم ماركوس، مكتوبة بخط إنجليزي قديم ومزخرف. كل هذا جعل أليان تفكر: «حتى على خُم الدجاج؟». وقالت بالبرتغالية بصوت أعلى مما تقصد: «مهرج!».

- ماذا؟

- لا شيء.

ومنحته أفضل ابتسامة تمويه يمكن لفتاة أن تأتي بها.

ابتسم لها ماركوس، وقال: «خذي هذا». وناولها عصا طويلة من الخيزران وحبلًا رفيعًا طويلًا مربوطًا إلى أحد طرفيها.

- فيمَ يستخدم هذا؟

أجاب: «أخبرتكَ. سنذهب للصيد». وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة قبل أن يقول: «من الأفضل أن تنتظري هنا في الخارج. قد يفوح المكان في الداخل برائحة كريهة».

وبعد برهة سمعت جلبة صاخبة تأتي من الداخل، خمسة أجزاء منها هي صياح دجاج غاضب، وجزءٌ هو نجمُ رابِ مستاء.

- تعالي هنا أيتها الدجاجات القذرة!

صياح غاضب، ورفرفة أجنحة مذعورة، وقوقأة دجاج.

- اللعنة!

بعد بضع دقائق من ذلك الصياح، انفتح الباب وخرج ماركوس يحمل قفصًا مخرمًا من المعدن يحوي دجاجتين. رفرفت أجنحة الدجاجتين قليلًا، لكنها هادئة نوعًا ما، رغم ما حدث بالداخل.

- أعطني تلك العصا.

ناولته عصا الخيزران، فوضعها ماركوس على كتفه مثل صنارة صيد. والقفص في يده الأخرى ذكَّرها بصندوق الطَّعم. صنع حبلًا متينًا من الخيط في طرف العصا، ولفه ببراعة حول قدم الدجاجة. وفجأة تبادر إلى ذهنها ما هو مقبلٌ على فعله.

- يا إلهي! ماركوس، لا ...

أطلق ابتسامته العريضة الواثقة التي تغطي أغلفة ألبومه، وبريق أسنانه الذهبية على بشرته البيضاء. «خطر يا حبيبتي. هيا تعالي». وعادا أدراجهما من حيث أتيا. تبعته قليلًا، ثم توقفت: «ماركوس؟».

- ماذا؟

- أظنُّ أنني رأيتُ شيئًا يتحرك هناك.

حدَّق إلى ظلمة الليل، وقال: «ربما قرد. لدينا هنا بعض القروء على الأشجار. لن يزعجوك. هيا تعالي».

سارت أليان وراءه وشعورٌ بالغثيان يأكل أحشاءها. بدا لها أن الدجاجات تزداد اضطرابًا كلما اقتربوا من عرين الأسد. لكنه اضطرابٌ بسيط. وفكّرت: «لو كنتُ أنا مَنْ سيطعمونني إلى تلك القطة، لملأتُ الدنيا صراخًا. تلك الدجاجات محظوظة لأن عقلها بحجم حبة البازلاء».

بعد دقيقة أو أكثر خرجوا من الغابة إلى الساحة الصغيرة المكشوفة. سار ماركوس على الجسر بين عريني الأسدين، ودلّى الدجاجة عن الحافة. رَحَى الحبل قليلًا، فرفرفت الدجاجة بجناحيها في يأس، وزقّت في رعب.

- آه يا ماركوس، لا تفعل ذلك ...

أطلق ضحكة شبه مكتومة وهو يقول: «شاهدي فحسب! إنه ممتع». وراح يحرك الدجاجة مثل بندول في طرف الخيط.

صاح ماركوس: «تعال إلى هنا يا درسدن. تعال إلى هنا أيها الضخم! حان وقت العشاء».

توسّلت إليه أليان: «حبيبي أرجوك، لِمَ لا نعود إلى ...». قطعت حديثها فجأة. وتوقف ماركوس عن الضحك هو الآخر، فسألت: «حبيبي، ما المشكلة؟».

- درسدن؟ تعال هنا أيها الضخم.

جال بنظره في أنحاء العرين، وأليان تتبّع نظراته. صُمّمت الحفرة التي تحوي العرين على شكلٍ بيضاوي، عميقة لكنها ليست شاسعة جدًّا. يبلغ قطرها عند أعرض نقطة فيها نحو أربعين قدم. وأرضيتها مبطّنة بالعشب، وبعض الجلاميد الخرسانية، وجذوع أشجار مقطوعة بطريقة من المفترض أن تجعلها طبيعية، لكنها فشلت في ذلك. الخلاصة أنه يمكنك رؤية كل إنش من الحفرة من حيث تقف.

- أين الأسد؟

اكتفى ماركوس بالنظر إليها، وعيناه جاحظتان على اتساعهما. زَقَّت الدجاجة المتدلية من طرف الخيط مجددًا في غضب. فأسقط ماركوس العصا. هوت الدجاجة لخمسة أقدام تقريبًا. وتراخى الخيط عن قدميها. فرفرت جناحيها قليلًا، فحررت نفسها، ثم راحت تُدبب في الأرض وتصدر نقيقًا غاضبًا.

لكن لم يخرج من الظلمة شيء يتحرّى تلك الجلبة.

- ماركوس، أين الأسد؟

- ششش.

رفع إصبعًا مصبوغًا بالطلاء على شفتيه، وانعقد حاجبه. ثم رفع قميصه عن ظهره وأخرج مسدسًا آليًا عيار 9 مم بمقبض من اللؤلؤ.

همست: «أقول إنه خرج؟ كيف له أن يخرج؟ أنت قلت إنه يستحيل....».

- اصمتي!

تشنَّجت عضلات وجهه من القلق والتركيز. كانت الظلمة حالكة فلا ترى فيها الكثير، لكن ما زال بإمكانك الإنصات. وبعد هنيهة، أنصتت أليان معه.

صرير صراصير الليل. هدير سيارات خافت على الطريق الحُر. ومن ناحية المنزل، تناهى إليهما ترشاش ماء عند سقوط أحدهم في المسبح. ضحكات.

ثم... من مكانٍ ليس ببعيدٍ جدًا... صوتُ تكسُّر غصن شجرة.

نادت بصوتٍ خافت: «ماركوس؟».

استدار ونظر إليها. لم يكن هناك حاجة للكلام؛ قالت النظرة على وجهه كل شيء.

الحفرة خاوية.

الحفرة خاوية وشيءٌ يتحرك في الظلام.

4

سألت أليان بالبرتغالية: «ماركوس! ما هذا الصوت؟».

- لا أدري.

لا يفهم ماركوس البرتغالية، لكن في مثل هذا الموقف لن يخرج من بين شفتيها إلا عبارة واحدة. ناهيك بأنه يعرف حقًا ذلك الصوت. هذا صوت تكسُّر غصن، غصنٍ كبير، على مقربة شديدة منهما. جذب زناد مسدسه إلى الخلف لتحميل رصاصة. ومن مسافة بعيدة من ناحية المنزل، راحت حفنة من الأوغاد المستغلين يتصايحون ضحكًا. كانت موسيقى الأغنية الثالثة من ألبومه تتردد في الأرجاء، أغنية بعنوان «لحظة حاسمة» حازت إعجاب مدير

اكتشاف المواهب في الشركة المنتجة له، و... آه، هناك شيء يتحرك في الظلام.

- ماذا نفعل؟

هزَّ ماركوس رأسه عدة مرات مع إيقاع أغنية «لحظة حاسمة» وهو مستغرق في التفكير. ثم خطرت له فكرة «غرفة العرض». أراه إياها الرجل المعني بحديقة الحيوان من قبل. كانت غرفة تحت الأرض بين عريني الأسدين، حصينة جدًّا، لها جدران من الخرسانة المصبوبة وأبواب معدنية. أحدث شق في الجدار له غطاء معدني متحرك، مثل تلك الفتحة في باب زنزانة السجن، يتيح مشاهدة الأسود.

قال: «غرفة العرض. يمكننا الدخول إليها، ثم...». ثم ماذا؟ اتخذ قرارًا؟ ثم تختبئ؟ لا يهم. أقله ستكون في أمان. «هيا تعالي».

اعترضت أليان من خلفه: «اللعة عليك! سأعود إلى...». توقفت عن الحديث وشهقت. «ماركوس؟».

ثمة شيء في نبرتها أجبره على الالتفات. وأمامها مباشرة، على مسافة أقل من متر ونصف، يقف الأسد الذي جاءت لرؤيته. يكشّر عن أنياب صفراء جعلت خطمه يتجعد.

التفتت أليان نحو ماركوس، وعلى وجهها نظرة شاردة تائهة. وقالت: «أخبر أُمِّي أنني...».

وثب درسدن. فطرح كلاهما أرضًا معًا، مغلفين بسحابة من الغبار والحصى. ارتطم رأس أليان بالأرض، فتلوّت من الألم قليلًا. لكن الأسد أمسك بها بمخيلين أماميين في حجم شفرات جرّافة. ثم أحكم فكّيه حول رقبتها. كانت الزاوية التي يحملها بها تسمح لها بالنظر مباشرة إلى عيني ماركوس. بدت مستسلمة تمامًا، بل وهادئة أيضًا.

بعد بضع لحظات، صار ماركوس عضوًا في نادي نخبوي. ليس لديه أدنى فكرة عن عدد الناس الذي شهدوا بأعينهم هجمة أسد، لا ليست هجمة أسد واحدة، بل هجمتي أسدين، لكنه على يقين أن العدد قليل جدًّا. حدّث نفسه: «خطر يا حبيبي». وتبول على نفسه.

على بعد مائتي ياردة تقريبًا تنأى إلى سمعه أصوات الحفل. وفتاة لها لكمة برونكس تصيح: «يا إلهي!» وتردها. كانت نبرة صوتها مثل معول تلج

ينغرز في أذنه. وفكّر: «كم أكره أصدقائي. أكرههم. اللعنة. انتهى الأمر. لا مزيد من هراء نجم الراب هذا. من الغد سألتحق بكلية الطيران». لم يكن غناء الراب شغفه الحقيقي قط. بل وقع في حبه بعد عرض مواهب في المدرسة الثانوية. وفكّر ثانية: «ما دام استطاع ديفيد لي روث أن يصبح إسعافياً، فبإمكانني أن أصبح طياراً».

صرخ ماركوس. وشعر بثقلٍ مفاجئ في سرواله الداخلي. أطلق ثلاث رصاصات سريعة من مسدسه عيار 9 مم، وأخذ يركل الغبار في كل اتجاه كأنما يحجب نفسه عن ناظري الأسد. ورائحة البراز في سرواله عالقة في هواء الليل الدافئ.

تأوه ماركوس وهو يفكر في غرفة العرض. يقع المدخل إليها على الطرف البعيد من عرين الأسد. مبنى من الطوب الخرساني المجوّف بحجم خزانة صغيرة، بُني لحجز مياه الأمطار بعيداً عن السلاّم، والباب المؤدي إلى بيت الدرج هذا مصنوعٌ من معدن سميك. ما من أسدٍ يستطيع اختراقه. «سأكون في أمانٍ هناك».

أولى ماركوس ظهره لأليان دون تفكير. قطع الممر قفزاً واختفى في الظلمة. ثم انطفأت المصابيح الصغيرة التي تراصت على طول الممر واختفت معها إنارتها الباعثة على الدفء. كان المدخل إلى بيت الدرج بعيداً عن الممر، مختبئاً خلف سياج نباتي طويل، ومحاطاً بالحشائش. لم يلحظ ماركوس كل هذا في هذه المرة، بل اصطدم بالباب المعدني بقوةٍ مزّقت شفتيه. وهو ما لم يلاحظه أيضاً. إذ إن الألم في شفتيه قد احتجب وراء رؤيا مريعة ذكّرت أنه سلسلة مفاتيحه معلّقة على وتدٍ في المطبخ.

قال فزعاً: «لا. لا. لا. لا. لا».

راح يعبث في مقبض الباب لعلّه يفتح، رغم يقينه بأن الباب مغلق. لكن المقبض دار في يده بسهولة جعلته يهمس: «الشكر لك يا يسوع». وهو يدفع الباب: «الشكر لك، الشكر لـ...».

ثم أطلق صرخة، تحمل في قسماتها الدهشة والرعب على حدّ سواء. رأى رجلاً وراء الباب، يقف على درجة السلم العلوية. فجال بخاطر ماركوس: «إنه يسد عليّ الطريق».

الوقت بطيئاً جداً. كان الرجل ضخماً، طويل القامة مفتول العضلات، ولكن -«ما هذا بحق الجحيم؟»- يرتدي تنورة باليه بلون الخزامى.

تساءل ماركوس في نفسه: «كيف دخل إلى هنا؟». وفوق كل هذا يرتدي تنورة باليه؟ راوده شعورٌ عابر بالبهجة لفكرة أنه يحلم. «لا يهم». ما يهمه حقاً هو أن الرجل يقطع عليه طريقه. رفع ماركوس يده اليسرى ليدفع الرجل جانباً، وفي الوقت نفسه يرفع يده اليمنى ليهدد الرجل بالمسدس. وفكّر: «يهددني.. سأطلق النار عليه لو ...».

فجأة أحس بطاقة حركية هائلة من حوله. وشعر بنوع من الضغط على أصابع اليد التي يحمل بها المسدس، ثم انتبه لنفسه جالساً على مقعده في التراب. أشرق ناظرًا إلى يديه ورأى إصبعيه الصغريين تتدليان من يده بزاوية غريبة. ونتوءٌ من العظام يبرز من خنصره. وعند رؤيته لهذا المشهد، هاجمته وخزة الألم الأولى.

رفع ماركوس بصره، فرأى الرجل ذا التنورة يتفحص مسدسه. أخرج مستودع الرصاصات ببراعة وقلّبها بين أصابعه بخفة تشبه خاتمة ساحر لخدعته السحرية.

أشرق وجه الرجل بابتسامة خاطفة إلى ماركوس. كانت أسنانه داكنة جداً، سوداء تقريباً. هبط عن بيت الدرج ودار حول ماركوس مسقطاً المسدس الفارغ وهو يمر به.

ثم رجل آخر، هذه المرة عارٍ تماماً، ينبثق من الدرج المظلم. حينها سأل ماركوس: «هل جميعكم من رؤاد الحفل؟».

خطر لماركوس أن أحدهم قد دسّ له شيئاً في مشروب النبيذ بالفاكهة. وفكّر: «هذا مؤكد! أراهن أن ويلسون قد وضع بعضاً من الفينيسايكليدين في كأس التوت البري الفوار الذي شربته». هذا هو ويلسون الذي أعرفه. لا شك أنهما سيضحكان على كل هذا فيما بعد.

- من الأفضل ألا تتناكحا هنا! لا أريد أفعال شوانٍ هنا في بيتي ...

خرج صوتٌ أنثوي من أدغال الظلمة: «ششش. هناك في الخارج. توجد أسود».

فتح ماركوس فمه ليتكلم، ثم أحجم عن ذلك. كلامها منطقي. حين حاول التحدث ثانية، خرجت نبرة صوته ألطف: «مَن أنتِ؟».

تقدمت المرأة إلى الأمام كأنما تنبثق من الظلمة: «أنا كارولين. وهذا مايكل. وذاك أخي ديفيد».

- نعم، مرحبًا، سعدتُ بلقائكم، والآن ساعدوني حتى نستطيع كلنا أن نهبط إلى ...

هزّت رأسها نفياً: «لا».

تساءل ماركوس: «ماذا تعنين بـ «لا»؟». ثم خطر له خاطر: «مهلاً... أنتم من أطلق سراح أسودي؟».

- نعم، صحيح.

- ولماذا تفعلون... هل أنتم مجانيين؟ هل أنتم من منظمة بيتا⁽¹⁾؟

هزّت كارولين رأسها: «لا أعرف عما تتحدث. لكن لا».

- لا يهم. ابتعدوا عن طريقي فحسب.

- لا.

- أنتِ وشأنك.

ووضع يده اليسرى على الأرض، استعدادًا للنهوض، وهو يفكر: «لو وقفت تلك الفاجرة في طريقي، فسأطرحها أرضاً...».

سقط ظلٌ طويل فوقه، فرفع ماركوس رأسه يتبين الأمر.

قالت المرأة: «إذا حاولت هبوط السلم، سيضربك ديفيد. ربما قليلاً، ربما ضرباً مبرحاً. لا أنصحك بالتجربة».

أمعن ماركوس النظر إلى الرجل الضخم من رأسه حتى قدميه، وهو يقيم فرص نجاته. ثم تراخت كتفاه. وبصوتٍ خلا من كل ألوان المقاومة سألهم: «ماذا تريدون؟».

ابتسم ديفيد.

قالت المرأة: «أنا هنا لأوصل لك رسالة».

- ممّن؟

- الرسالة من درسدن.

(1) PETA: مؤسسة أمريكية معنية بالمطالبة بحقوق الحيوان. (المترجمة)

لوهلة ظنَّ أنها تقصد المدينة، ثم سأل: «أنتِ تتحدثين عن الأسد؟ درسدن ذلك؟».

- نعم. لماذا تطلق عليهما تلك الأسماء؟

- درسدن وناجاساكي؟ أسماء استوحيتها من، مثلاً، الحرب

على جانبه سمع ضحكةً مدوية. ولمَّا التفت، رأى الرجل الضخم، ديفيد، يصدر صوت فرقة مفاجئة. رفع يديه في الهواء وسحبهما كأن هناك قذيفة بينهما.

قال ماركوس: «نعم، فرقة».

ربَّت الرجل الضخم على كتف ماركوس وهو لا يزال يقهقه. فأجابه ماركوس بابتسامةٍ مقتضبة لكنها صادقة. وفكَّر: «أخيراً، أحدهم يفهمني». آل المطاف بهذه اللحظة أن كانت اللحظة المميزة في يومه.

قرفصت المرأة على الأرض لتصير على مستوى نظره، وسألت: «هل تشاهد التلفاز؟».

استغرق ماركوس وقتاً ليفهم الغرض من السؤال: «ولماذا تهتمين؟».

كررت سؤالها في صبرٍ وهدوء: «هل تشاهد التلفاز؟».

«أنا...». دارت عينا ماركوس في الأرجاء بحثاً عن الأمان. لكن لم يرَ إلا الأحرار تحيط به من كل جانب. حدَّث نفسه: «لا تعارض المجانين». ثم أجاب: «نعم يا رجل أشاهد التلفاز».

- هل شاهدت برامج الصيد التي يعرضها التلفاز؟ في إفريقيا؟ حين يتمكن أسدٌ من صيد حمار وحشي، أو نو؟

لم يرتح ماركوس للاتجاه الذي يأخذه الحديث: «أنا... نعم... أظن ذلك». لم يكن ما رآه حمارًا وحشيًا، بل غزالًا. «متشابهان».

استطردت كارولين: «جيد. ما رأيته يسمى ...». ثرثرت بشيء إلى الرجل العاري، فأصدر دمدمة كأنها تخرج من صدره. بدا شبيهًا بالأسد تمامًا، وهو ما جعل الشعر في مؤخرة عنق ماركوس ينتصب.

استأنفت المرأة كلامها: «في لغة الصيد، تلك الكلمة تصف طريقة خاصة في القتل. إنها رمز الاحترام. في معظم الأحيان، لا يقصد الصياد ضررًا

بفريسته. هو جائع فحسب، وهكذا تسير الأمور في الحياة. حين تشاهد التلفاز، هل تلاحظ أن هناك لحظة فارقة لا يقاوم بعدها الحمار الوحشي؟».

لم يرَ ماركوس ذلك المشهد، لم يره تحديدًا، لكنه يذكر رؤية ثلاثة أسود ينبشون في أحشاء الغزالة. ظنَّ آنذاك أن الغزالة ميتة. ثم رفعت رأسها، وألقت نظرةً على ما يحدث لها، ثم أشاحت ببصرها بعيدًا. كان منتشيًا حين رأى ذلك المشهد، وأزعجه ما رآه لدرجة أنه اضطر إلى تغيير القناة.

- ممتاز. أنت تعرف بالفعل. الفريسة لا تتحرك لأنها لا تشعر بأي ألم. يلمسها الأسد بطريقة معينة، ويحررها من براثن المعاناة. هذا جزءٌ من فن الصيد. حين يكون القتل بهذه الطريقة، يقول الأسود ...

قطعت حديثها وأومات إلى الرجل العاري. فدمدم مجددًا، بنبرة أسدية مخيفة.

- امرأتك ماتت بهذه الطريقة، لو كان موتها مهمًا لك. لم تعانِ قط. فكَرَّ ماركوس في الغزالة، وهي تحدِّق إلى الكاميرا، وفكَّر في الضوء الذي ينطفئ في عيني أليان الخضراوين.

تابعت كارولين: «لكن هناك طريقة أخرى للقتل. ينفذها الأسد حين يصطاد بدافع الكراهية، لا الجوع. لأجل تلك الأوقات تتمتع فصائل السنوريات بلمسة خاصة تعزز المعاناة، بدلاً من تخفيفها. وتحت تأثير تلك اللمسة، تعلق روح الفريسة في براثن المعاناة. الألم يشبه الغرق. أحيانًا تلحق بروحها أضرار أفدح من أن يتبقى منها شيء للعودة إلى الأراضي المنسية. تفنى أرواح هؤلاء الذين يُقتلون بهذه الطريقة إلى الأبد. كأنما لم يُولدوا من الأصل». تغصَّنت عيناها، وأكملت: «رأيتُ هذا بنفسِي ذات مرة. كان مشهدًا مريعًا. ربَّبت على ذراعه في تعاطف حقيقي. «يريد الأسد مني أن أخبرك بأن هذه هي الطريقة التي ستموت بها».

ترددت عيناها ذهابًا وإيابًا بين ثلاثتهم، ينتظر إيماءة تخبره أن هذه مجرد مزحة. كان وجه المرأة مسودًا كاللحد. والرجل ذو التنورة يراقبه في توق، بعينين وحشيتين متقدتين. ولم يدِر ماركوس أيهما أسوأ.

- إذن... أنتم ستطعمونني إلى ذلك الشيء؟

- نعم، هذا صحيح.

همس ماركوس: «لماذا؟ لماذا تفعلون شيئًا كهذا؟».

أجابت المرأة: «لأن هذا ما يريده الصياد. اسمع، لقد توصلنا معه إلى اتفاق. وهذا هو المقابل».

ابتسم له الرجل الضخم ذو التنورة، وأومض ضوء القمر المتلألئ على نصل رمحه.

- لو حررنا ابنته ومنحناه الوقت ليقتل بالطريقة التي يرغب بها، فسيساعدنا. سيحامي رجلنا كأنما يحمي شبله بالضبط. (هزّت كتفها ونهضت). ما يطلبه ليس بالكثير، بل هو العدل.

- العدل؟... أنا ...

أطرقت المرأة بوجهٍ يختبئ معظمه في الظلال، والتعاطف الذي رآه في عينيها من قبل قد اختفى: «أنت ماذا؟ أنت غزوت عرين الأسد. قتلت زوجته، أم شبله. اختطفته وابنته إلى هنا وحبستهما في حفرة. أليس هذا ما حدث؟».

- بلى، ولكن... أعني ...

- ولماذا فعلت ذلك؟ أي غرض تسعى لتحقيقه؟ أكنّت تسرق حياتهما وتستحوذ عليها لكي يمزجرا ويزأرا من أجل متعة عاهراتك؟

- نوعًا ما... على ما أظن. لكن أقصد، أنتِ شاهدتِ الوجه ذا الندبة، أليس كذلك؟ كان ...

- اصمت.

تحدثت المرأة إلى الرجل العاري بلغة لم يفهمها ماركوس. فأجابها بشيء لم يفهمه، ثم أصدر صوتًا أشبه بزئير الأسد تشابهًا يثير الدهشة. ثم وجهت له المرأة حديثها: «أرجو أن تعذرني، لا أفضل المشاهدة».

صرخ ماركوس: «انتظري! لدي الكثير من المال! يمكنني ...».

تلاشت هيئة المرأة والرجل العاري في ظلمة الدرج وشرعا يهبطان السلم إلى غرفة العرض. ثم أغلقا الباب من ورائهما. ابتسم له الرجل الضخم ذو التنورة. فقال ماركوس: «يا رجل، ساعدني على الخروج من هنا. أتريد دخول عالم صناعة الترفيه؟ يمكنني أن ...».

اتسعت ابتسامة الرجل الضخم، وأشار إلى شيء وراء كتف ماركوس، داخل الغابة.

استدار ماركوس رَغْمًا عنه ليلقي نظرة. كان درسدن وابنته يقفان خلفه مباشرةً، أقرب مما يتصور. ومن بعيد في غياهب ليلٍ لا تُدرك، سمع الفتاة ذات اللكنة المميزة تقول: «يا إلهي!».

وفي داخل الحفرة، آمنة مطمئنة، يتعالى زقاء الدجاجة.

الفصل السادس

أطنان فوق أطنان من أكاذيب فاضحة

1

استيقظ ستيف في العام 1987.. تقريبًا.

وجد نفسه في غرفة فتى مراهق. وكان على يقين من هذه النقطة. هذا لأن جدرانها مغطاة بملصقات مغنيين أمثال وهام! وفرقة بي 52 إس، وبوي جورج وآخرين، ممن بالكاد تستحضرهم ذاكرته من عهد دراسته الثانوية. وعلى الجدار المقابل للسريـر رأى رفًا معلقًا يضم أشرطة كاسيت، وإلى جانبه صور مجمعة من فيلم بولارويد. فتیانُ في عمر المراهقة يرتدون بناطيل جينز ملوثة بالحمض وآخرون يرتدون سراويل فضفاضة مثل المظلات، يتصنعون الحركات أمام الكاميرا، يتظاهرون بالغناء، أو استعراض العضلات، أو شيء من هذا القبيل. وفي إحدى الصور رأى صبيين يتعانقان.

طرفت عينا ستيف. وتساءل في نفسه فزعًا: «أين أنا بحق الجحيم؟». آخر ما يذكر أنه كان في كنيسة السجن، والفتى نتن الرائحة ذو التنورة القصيرة يقتل دورن والحارس. عندما فكر في تنورة الباليه والصبيين اللذين يتبادلان القبل في الصورة، طفت على خاطره فكرة مريعة: «ربما اختطفني الرجل ذو التنورة لأغراض جنسية؟ مثل ذلك الرجل في فيلم الخيال الرخيص؟».

كانت فكرةً أسوأ من أن يتحمل التفكير فيها. «فكر، فكر». تذكر تلقية للكلمة في الكنيسة، وبعد بضع ثوانٍ كان يتحرك على الممر المُبلط محمولاً على كتف الرجل، ويشاهد أحشَاءً وأطرافاً مقطوعة ملقاة على الأرض كأنه على متن قطار في رحلة الجحيم في مدينة ملاهٍ فاخرة.

كانت ذراع أحدهم ملقاة على الأرض، الذراع فحسب، لا شيء آخر. مما أثار دهشته أن المشهد لم يكن مقززاً، لا دماء كثيرة، والعضلات تشبه ما يظهر في الرسوم التشريحية. بضع خطواتٍ أخرى كشفت عن بقايا حارس آخر. كان كهلاً، في الخمسين من عمره، بجسدٍ مشقوقٍ إلى نصفين تقريباً أعلى سُرّة البطن. تذكر ستيف أنه تساءل في نفسه آنذاك: «أي أداة تفعل ذلك؟ أهو مقصٌ عملاق؟». كان نصف وجهه الذي استطاع ستيف رؤيته شاحباً بلا تعابير مميزة، وعيناه مفتوحتان. تذكر ستيف أنه تعرّف على الوجه، وتذكر محاولة تخليص نفسه من قبضة الرجل الضخم، ثم ...

«ثم استيقظتُ هنا».

لا شك أن ساعة المنبه على النضد إلى جانب السرير قد جاءت من العام 1987 أيضاً. «ما عاد الخشب البلاستيكي الحُببي يستخدم في تصنيع الأشياء الآن، صحيح؟». مع ذلك، ساعة المنبه لا تعمل. كان أحدهم قد داس عليها فأحدث بها تجويفاً، ثم رسم دائرة حولها بمادة تشبه دقيق الذرة.

طرفت عينا ستيف مشدوهاً لبضع ثوانٍ، وحاول أن يتصور سبباً معقولاً، ولو حتى غير مألوف، يدفع أحدهم لفعل ذلك.

جلس على السرير وألقى نظرة سريعة عبر الستائر الفينيسية عند قدمي السرير، فأجفل لصيرير المعدن من تحته، كما أن رأسه يؤلمه. بدت الشمس وكأنها إما على وشك الشروق، وإما على وشك الغروب. في بادئ الأمر، لم يكن واثقاً في أي طورٍ كانت، ثم رأى رجلاً في أحد المنازل المجاورة عائداً من عمله وأخرج بريده من الصندوق. وأطفالاً يلعبون بالكرة في الفناء الخلفي لمنزل الرجل. «ليس الشروق إذن، لقد نمتُ طوال اليوم».

لَمَّا أُجيب عن أسئلته، ترك الستائر تنسدل. لو كان ستيف يعرف أن هذا آخر غروبٍ سيشهده في حياته، لربما اقتنص بضع لحظاتٍ أخرى للاستمتاع به.

كان ما يزال مرتدياً بدلة السجن. أمدته رؤيتها بشيء من الطمأنينة في ضوء خوفه الشديد من أن يصير أداة جنسية، لكن مظهرها أيضاً ليس مثاليًا. ولمّا فتح الخزانة، تبين أنها مملوءة بملابس مثل السراويل الفضفاضة وبناطيل الجينز الملونة بالحمض. وبعد تنقيب سريع، ارتدى بنطالاً رياضياً أسود، ضيقاً بعض الشيء لكنه يفي بالغرض، وقميص حفلاتٍ رمادياً. طُبع شعار الفرقة الموسيقية هارت على صدر القميص بحروف برتقالية متوهجة مثل فحمة مشتعلة.

تتبع الأصوات المختلفة القادمة من الصالة. وشعر بالهواء في الخارج أدفاً منه في غرفة النوم. ثم تحسس أنفه رائحة ذكية، رائحة مخبوزات طازجة أو خبز، أو ربما لفائف حلوة؟ وعلى إثرها قرقرت معدته.

لكن في طيات الرائحة الزكية أخرى عفنة، رائحة شيء لم يتبينه. ثم ذلك الصوت المعدني أيضاً. صليل.. خدش.. نقر. بدا الصوت مألوفاً ومبهماً في الآن نفسه. صليل.. خدش.. نقر.

اختلس ستيف النظر من زاوية غرفة المعيشة. فرأى الرجل الضخم ذا التنورة نائماً على الأرض أمام التلفاز. كان الصوت مكتوماً، وعلى الشاشة مدفعية نازية تقصف شمال إفريقيا على قناة التاريخ. وهو ما تساءل عنه ستيف في قرارة نفسه: «تلفاز؟ إنه لا يتكلم الإنجليزية، أليس كذلك؟». ثم ظهر روميل على الشاشة يمسك بمنظار ثنائي أمام عينيه. «أراهن أنه يحب الدبابات حقاً». إلى جانب الرجل ذي التنورة تستقر كومة على وشك الانهيار من البراونيز على طبق أبيض. وفتات بني عالقٌ بالدماء المتخثرة على شاربهِ وصدره. وسلاحه ذو السلسلة الذي يشبه السيف في متناول يده.

ثم رأى نصف دزينة من أناس آخرين، يشبهون الرجل الضخم في غرابته، يجلسون متناثرين هنا وهناك في غرفة المعيشة أيضاً. ولمّا خطا إلى الداخل رمقوه بنظرةٍ لا تحمل إلا قدرًا ضئيلاً من الاهتمام.

وإلى جانب الأريكة وقف رجل يرتدي سروالاً بنياً أنيقاً، ممزقاً عند الركبتين، وإحدى ساقي السروال أقصر من الأخرى ببضعة سنتيمترات. وُشم صدره بدزينة من الأشكال المثلثية، ورُسمت المثلثات الصغيرة داخل الكبيرة منها، كل هذا أسفل نقطة سوداء عند منتصف عظمة صدره.

عند رؤية ستيف، وضع الرجل يده على كتف امرأةٍ كانت تجلس على الأريكة. لها شعرٌ أشقر نحاسي، قصّته قصيراً وبمنتهى العشوائية. ارتدت

شيئاً يشبه النصف العلوي لبدلة سباحة سوداء من قطعة واحدة، ومقصوفة لتشبه حمالة صدر رياضية. وضعت يدها على يد الرجل، وشبكت أصابعها بأصابعه.

صليل.. خدش.. نقر. في الركن المظلم من الغرفة جلست امرأة أخرى على الأرض متكورة على نفسها بركبتين مضمومتين إلى ذقنها. برزت ذراعان هيكليتان من بقايا فستان رمادي قاتم مشبّع بالقذارة. وراحت عشرات من الذباب تطن حول رأسها. وفي خضم مراقبة ستيف لها، فتحت قذاحة زيبو. **صليل.** ثم أشعلتها. **خدش.** ثم أغلقها مجدداً. **نقر.**

لم تتزعزع نظرتها عن موضع اللهب قط. شعر باضطراب أحشائه عند رؤية كل هذا المشهد، لذلك انتفض جسده حين دخل الغرفة شخصٌ جديد. **ميزّ ستيف سترة الكريسماس وسروال الدراجة القصير على الفور.**
- أنت!

قرقعت براحمه بصوتٍ خافت عندما ضم يديه في قبضتين مشدودتين. رفعت كارولين إصبعاً إلى شفيتها تُخرسه. وأومأت نحو الرجل الدموي ذي التنورة القصيرة نائماً على الأرض بين السكين وكعك البراونيز. ثم أشارت بإبهامها من وراء كتفها نحو المطبخ.

فتح فمه ليصيح بها، عدل عن الفكرة وأوماً بإيجاب، بعدما ألقى نظرة خاطفة على القاتل الغافي. دار حول الأريكة على أطراف أصابعه في هدوء قدر المستطاع. وفي أعقاب نهض الزوجان وتبعاه إلى المطبخ. والمرأة ذات القذاحة ما زالت مستمرة في **الصليل.. الخدش.. النقر.**

تفاجأ بشخصٍ آخر في المطبخ؛ امرأة عجوز تخلط عجيناً. لكن ما أثار استغراب ستيف هو ملابسها العادية؛ ثوبٌ منزلي من الصوف يصل طوله إلى الأرض، لونه باهت قليلاً لكنه نظيف، وفي قدميها نعال مريح.

قالت المرأة بنبرة قريبة من الهمس: «مرحباً بك! أنا أونيس ماجيلكاتي. هل ترغب في لفيفة سينابون؟ أخرجتها من الفرن للتو».

- ستيف هودجسون. مم، سررت بلقائك.

ما أثار استغرابه أيضاً هو إدراكه بأن ما قاله صحيح. على عكس البقية، لم تبدُ مثل هؤلاء الأشخاص الذين قد يقيدون أحدهم بسلاسل في قبو منزل.

فكّر قليلاً في الإعراب لها عن شكره، لكنه تخلى عن الأمر حين لم يجد طريقة مناسبة لصياغة الأمر. واكتفى بأن قال: «بالتأكيد. أشتهي واحدة».

ابتسمت المرأة العجوز في رضا. وأشارت إلى طبق العجين وهي ترشده: «القهوة هناك». تناول ستيف كوباً معلقاً على وتدٍ خشبي وسكب لنفسه بعض القهوة.

استهلت كارولين بنبرة لا تشبه الهمس: «مرحباً ستيف».

أجابها بنبرة مشرقة بعض الشيء: «مرحباً!».

- هذه السيدة ماجيلكاتي. وهي تتحدث الإنجليزية.

- أجل. أجل عرفتُ ذلك.

أشارت كارولين بإبهامها من وراء كتفها إلى الزوجين خلفها: «وهذان بيتر وأليشيا. وهما لا يتحدثان الإنجليزية. ليس كثيرًا على أي حال».

- وماذا عن الرجل الضخم في غرفة المعيشة؟

- هذا ديفيد. وإنجليزيتَه في غاية السوء كذلك.

- وماذا عن الأخرى؟ تلك التي تواصل اللعب بالقَدّاحة؟

- إنها مارجريت.

- لا تتحدث الإنجليزية؟

- لا شيء تقريبًا. نادرًا ما تتحدث.

- هل لي أن أسألكِ عن شيء؟

- بالتأكيد.

- هل يمكنكِ التفكير في أي سبب يمنعني عن تناول واحدة من سكاكين المطبخ تلك وطعن رقبتكِ اللعينة بها؟

زمت كارولين شفيتها مفكّرة، ثم أجابت: «قد تتناثر الدماء على لفيفة السينابون».

- في كلامي بعض الجدّة.

- حسنًا. لا بأس. منطقي أن تشعر ببعض الانزعاج.

تأجج الغضب بداخله. حدّج السكاكين بطرفه في جدية ونفاد صبر. ثم قال بنبرة تشبه الفحيح: «بعض الانزعاج؟ أنتِ ورطتيني في جريمة قتل! قتل

ضابط لعين! نحن نتحدث عن عقوبة الإعدام يا كارولين! حقنة. لعينة. مميتة. أو سجنٌ مؤبد! لو كنتُ محظوظًا!..

- حاول أن تخفض صوتك، لن يعجبك الحال إذا استيقظ ديفيد.

أجاب في نفسه: «لا». وراح يفكر في الأحشاء التي تدلّت متأرجحة من السقف خارج كنيسة السجن، «لا، لن يعجبني هذا». ثم قال بهمسٍ غليظ: «حسنًا. معكِ حق. إذن لِمَ لا تشرحين لي في هدوء سبب إيقاعك بي في شيء كهذا؟ ما الذي فعلته لكِ لأغضبكِ إلى هذا الحد؟».

أجفلت كارولين قليلًا، وأجابت: «لا شيء. أنا لستُ غاضبة منك. هذا آخر شيء أشعر به مطلقًا». قطعت كلامها، وبعد هنيهة تابعت مترددة: «بصراحة، هناك أسبابٌ وجيهة لكل شيء يحدث. لا أستطيع الخوض في التفاصيل، لكنني آسفة صدقًا. أتفهم تمامًا أن الأمر لا يخلو من بعض... الإزعاج».

استطرد ستيف متعجبًا: «إزعاج! (يكاد لا يصدق أذنيه) حسنًا، هذه طريقة واحدة لصياغة الأمر. لكن هناك طريقة أخرى لصياغته أيضًا وهي أنك دمّرت حياتي كلها للأبد. وهذه هي النسخة التي أفضل الحديث عنها».

قلّبت كارولين عينيها في محجريهما: «لا تكن مثيّرًا للشفقة. أنتَ لم تعد في السجن، أليس كذلك؟». وأشارت إلى الصينية: «تناول لفيفة سينابون أخرى. إنها لذيدة».

نظرت السيدة ماجيلكاتي من وراء كتفها: «تناول ما تشاء يا عزيزي». شعر ستيف بقلبه يغلي. «مثيّرًا للشفقة؟». تحرّكت يده، كأنها خارجة عن إرادته، نحو سكاكين المطبخ. وحدث نفسه: «تقول مثيّرًا للشفقة؟».

أجابت كارولين: «اهدأ. الأمور ليست بالسوء الذي تتخيله».

- ماذا تعنين بأن ...

- اهدأ يا ستيف. اصمت قليلًا وسأشرح لك. لديّ خطة. وإذا وافقت على إسداء خدمة بسيطة لي، سأحل كل مشكلة من مشكلاتك التي تحدثت عنها كأنها لم تحدث.

- حقًا؟

- أجل.

راحت كارولين تنقب في أنحاء الثلجة وأخرجت زجاجة بلاستيكية من
عصير البرتقال. أدارت الغطاء ورفعت الزجاجة إلى فمها.
قالت السيدة ماجيلكاتي موضحة: «الأكواب هناك يا عزيزتي».
- آسفة.

تناولت كارولين كوبًا.

قال ستيف مفكرًا: «يمكنك إسقاط تهمة قتل؟ قضية عقوبتها حكم
إعدام؟».

سكبت كارولين بعض عصير البرتقال وأخذت رشفة: «أجل».

- أخبريني بربك كيف تخططين لفعل ذلك؟

- ناولني واحدة من لفائف السينابون هذه واجذب كرسيك. سأريك كل
شيء.

2

نهضت كارولين وتوغلت في دهاليز المنزل الخفية. وريثما تعود، نهض
ستيف إلى الثلجة يبحث عن مشروب كوكاكولا. كان كل ما وجده هو مشروب
غازي للحمية الغذائية، لكنه لمح شيئًا بحُمْرة الكوكاكولا نفسها في درج
الخضراوات.

بعد لحظة تسللت كارولين خلفه في هدوء: «ستيف، هذا...».

قال محدقًا إلى درج الخضراوات: «انتظري لحظة... أهذا قلب؟».

وحدث نفسه: «هذا بالتأكيد ليس علبة كوكاكولا».

لم تجب كارولين على الفور، لكنها ماطلت قائلة: «معذرة؟».

- في هذا الكيس هنا. في الثلجة. هل هذا قلب؟ أعني، قلب إنسان؟ يبدو
أن هناك قلب إنسان في ثلاجتك يا كارولين.

- مم... لا. أعني، نعم هذا قلب. لكنه ليس قلب إنسان. أخذناه من بقرة،
أعني ثورًا. اعتزم ديفيد على إعداد المقبلات لأحد الضيوف، لكنه اضطر
إلى إلغاء الزيارة.

التفت إليها ستيف: «مم، لا. هذا لا يقارب حتى حجم قلب الثور الكبير...
يا إلهي!».

إلى جانب كارولين وقفت امرأة شقراء لم يرها ستيف من قبل. وثلاثة
أطفال شاحبين صامتين يتشبثون بخصر المرأة. كان لأحد الأطفال، وهو
صبي صغير، كدمات أرجوانية كبيرة حول رقبته. والفتاة إلى جانبه لديها
جرح غائر في جبهتها.

ركع ستيف أمام الأطفال: «هل أنتم بخير يا رفاق؟ هل... تتأذون؟». ومدَّ
يده لكي يلمس الجرح في جمجمة الفتاة. فانكمشت بعيداً عنه.

قالت كارولين: «لا يتكلمون إلا مع أهمهم. ستيف، هذه رايتشل».

- حسناً، هذا غريب حقاً. ماذا حدث لرأس الفتاة بحق الجحيم؟

أجابت: «كانت.. مم.. حادثة. سقطت. عن دراجتها». ثم قالت بنبرة خافتة:
«لا تقل شيئاً يا ستيف. ستخرجها».

- والصبي؟

أجابت كارولين بنبرة جامدة: «كرة قدم».

استرق الصبي النظر من وراء خصر أمه وهزَّ رأسه بإيماءة مقتضبة.

- مم. (ثم أشار نحو رايتشل) وماذا عنها؟ لا تتحدث الإنجليزية؟

أكدت كارولين: «لا تتحدث الإنجليزية». ثم تبادلتا، كارولين ورايتشل،
الحديث بلغة رتيبة مبهمة بدت كأنها ابنٌ غير شرعي لاجتماع اللغة الفيتنامية
وعراك القطط.

- ماذا تفعل هنا إذن؟

أجابت كارولين: «رايتشل أمينة على الأسرار». ورفعت هاتف السيدة
ماجيلكاتي ووضعتة على طاولة المطبخ. ثم سألت: «ما زلت تريد إصلاح
مشكلاتك القانونية، أليس كذلك؟».

نظر ستيف إلى القلب في درج الخضراوات. فتح فمه ليقول شيئاً، لكن
سرعان ما أغلقه وهو يُصرُّ على أسنانه. أقفل باب الثلاجة ثم أجاب: «نعم،
أرجوك».

أشارت كارولين إلى الهاتف: «إذن، اجعل صوته عالياً».

- ماذا؟

- حتى يمكن للجميع سماع ما يقال.

دقق ستيف النظر في المستقبلِ لدقيقة، ثم كبس زر مكبر الصوت.

- والآن اجعله على وضع التوجيه.

- ما هذا؟

- حين تخبرهم بالاسم، ويعطونك رقم هاتفه.

ضغط ستيف ثلاثة أرقام.

جاء صوتُ آلي مسجَّل من الهاتف: «أي مدينة؟».

أجابت كارولين: «واشنطن العاصمة».

- أي قائمة؟

- مركز الاتصال في البيت الأبيض.

رفع ستيف حاجبه مشدوِّهاً.

رددت الآلة الأرقام تلقائياً. ولما سألت الآلة إن كنَّا نود الاتصال بالبيت

الأبيض مقابل رسوم إضافية بقيمة خمسين سنتاً، أجابت كارولين بالموافقة.

ثم التقط مشغل مركز الاتصال السماعة عند الرنين الثالث.

قالت: «اسمي كارولين. أود الاتصال بالرئيس».

حدَّق إليها ستيف فاغراً فاه.

- الاسم الأخير من فضلك؟

قطَّبت كارولين حاجبيها: «لستُ متأكدة. هل يهم؟».

بدا المشغِّل ملولاً، فقال: «أعتذر لكِ سيدتي. الرئيس غير متاح في هذه

اللحظة. إذا رغبتِ في ترك رسالة، فسأرى...».

قالت كارولين: «سيتحدث إليَّ. استعد لتأكيد الهوية. كلمة السر اليوم هي

«bolt».

أجاب المشغِّل: «أوه! انتظري. سأحوِّل الاتصال».

قاطعها ستيف، متذكراً ما أخبره به إروين: «هل هو سوباسكي؟».

- ماذا؟

- اسمكِ الأخير. هل هو سوباسكي؟

فكَّرت كارولين في الأمر لوهلة: «في الحقيقة، نعم. هذا يبدو...».

انفجر صوت رجلٍ من السماعة: «معكِ الرقيب ديفيس. أكدي الهوية من فضلك».

أشارت كارولين إلى رايتشل ورفعت حاجبها متسائلة. فأومأت رايتشل بدورها إلى فتاةٍ صغيرة ترتدي فستاناً صيفياً متسخاً بلونٍ رمادي. همست الطفلة بشيء في أذنها، فنقلته رايتشل إلى كارولين بتلك اللغة الرتيبة.

قالت كارولين مترجمةً ما سمعته إلى الإنجليزية: «الرمز هو «bear 723 walking 33744 dawn»».

- انتظري من فضلك.

تردد صوتُ نقراتٍ على لوحة مفاتيح. وبعد هنيهة قال الرجل: «سأوصلكِ بمكتب مستر هامان».

فكَّر ستيف في الأمر لبعض الوقت، ثم اتسعت عيناه دهشة: «كبير موظفي البيت الأبيض؟».

أخبرته كارولين بنبرة حادة. ولمدة دقيقة تقريباً، ظلَّت المكالمة في وضعٍ معلق، لا موسيقى انتظار، ولا رسائل مسجلة، الصمتُ المطبق فحسب. ثم جاء صوت: «معكِ براين هامان».

حدَّث ستيف نفسه: «هل تمزحين معي؟». ثم أخذ نفساً عميقاً مركزاً على محاولة الظهور بملامح هادئة. شعر بعدم الارتياح، وظنَّ أن مساعيهما ستفشل فشلاً ذريعاً.

قالت كارولين: «مستر هامان، أحتاج منك أن توصلني إلى الرئيس. شكرًا جزيلاً لك».

أجاب الرجل: «أخشى أن هذا ليس ممكناً يا آنسة... (ثم تردد صوتُ نقرٍ على جهاز حاسوب)... كارولين. السيد الرئيس في اجتماعٍ الآن. هل من شيء يمكنني...».

- أخرجه من الاجتماع.

لوهلةٍ أطبق الصمت على الجانب الآخر من الخط. وارتاب ستيف في أن الرجل يواجه صعوبةً في تصديق ما سمعته أذناه، فتعاطف معه. ومنحته كارولين فسحة من الوقت.

- سيدتي، هناك ثلاثة أشخاص بالضبط على هذا الكوكب مسموح لهم باستخدام هذا الرمز الذي أبلغتني به للتو، وأنا على يقين بأنك لست واحدة منهم. والآن، ما لم تخبريني بالضبط من أنت وكيف حصلت على تلك الرموز، ستقعين في مشكلات خطيرة للغاية. على أي حال، لقد وصلت إلى عنق المشكلات بما تفعلينه الآن.

ثم سمعا نقرأ طفيفاً على الخط.

أوضح ستيف: «أظن أنهم يتتبعون المكالمات». وشعر بأن إضافته كانت مشاركة قيّمة.

عاجلته كارولين: «صمتاً!». ثم التفتت إلى رايتشل، وتبادلا الحديث لبضع ثوانٍ بتلك اللغة الرتيبة، فبدا الصوت في نظر ستيف أشبه بصخب طيور استوائية تتصارع. وبعدها وجّهت كارولين حديثها إلى الهاتف: «مستر هامان، أرجو أن تعذر فظاظتي. تبدو لي رجلاً وقوراً، لكن وقتي ضيق. أعرف أين كان الرئيس ليلة 28 مارس 1993. وأعرف السبب وراء صمت أليسون ميجورز هذه الأيام. وتحت يدي صورٌ أيضاً. إذا لم أتحدث إلى الرجل نفسه خلال دقيقة واحدة فسأنهي المكالمات. وستكون مكالمتي التالية إلى واشنطن بوست».

خيم صمتٌ قصير، ربما لثانيتين فحسب. لم يكلف هامان نفسه عناء تعليق المكالمات، بل أسقط السماعه وحسب. سمع ستيف صوت بابٍ يُصَفَع. وبعد بضع ثوانٍ من الصمت، تناهت إليه جلبة بعيدة. ثم سمع بعدها هامان يقول: «أخرجوا. الآن. نحتاج الغرفة في الحال». تبع ذلك صوتُ بابٍ يُغْلَق، ثم: «معكِ الرئيس».

فكّر ستيف: «ماذا! هذا شيء لا تسمعه كل يوم». أخذ قسمة من لفيفة السينابون أمامه، وهو يقول في نفسه: «إنها لذيذة حقاً».

ابتسمت كارولين: «كيف حالك يا سيادة الرئيس؟ أعذر لك عن إلحاحي، لكن أخشى أن هذه ظروف استثنائية. اسمي هو كارولين سوباسكي».

أطبق صمتٌ طويل، ثم قال الرجل: «أخشى أنني لا».

- أبي يدعى آدم بلاك.

تلاه صمتٌ آخر أطول، قبل أن يسأل: «أيمكنك تكرار ما قلته من فضلك؟».

فكررت كارولين الحديث على مسامحه.

ثم صمتُ آخر، أقصر هذه المرة: «هناك الكثير من الرجال يحملون اسم...».

- صحيح، ولكن أبي هو آدم بلاك الذي أتى ذكره في الملف الذي كان على مكتبك في اليوم الأول لتوليك المنصب. ملف بأوراقٍ صفراءٍ تقريبًا، مكتوبة بخط مستر كارتر على ما أعتقد. هل تذكره؟

أجاب الرئيس بنبرة مترددة: «نعم أذكره».

- ممتاز. ظننتُ ذلك. والآن هل تود أن تعرف مصير تلك القطعة من المعدات الجوية التي تحمل الرقم 11807-A1 منقوشًا على جانبها؟ يمكنني أن أخبرك كل شيء بالضبط. لقد كنتُ هناك.

أطلق الرجل زفيرًا قويًا، ثم قال بصوتٍ ضعيف: «أفهمك. أنا -حسب فهمي- كان هناك شرط لتلك المعاهدة وهو ألا يحدث أي اتصال بين ...».

ضحكت كارولين: «أهذا ما تسمون به ما حدث؟ معاهدة؟ هذه مبالغة عظيمة منك، أليس كذلك؟ حسب ما أتذكر، طلب أبي من مستر كارتر أن يهتم بالأمر فلا يتعرّض له أحدٌ بالإزعاج. وأجاب مستر كارتر بأنه سيسعد بتولي مسؤولية الأمر، ودعاه إلى الاتصال به ثانيةً إذا جدَّ جديدٌ يحتاج إليه أبي. ووعده أبي بذلك. والآن ها أنا أتصل. سيشعر آدم بلاك بمزيد من الامتنان إذا أسديتَ له خدمة بسيطة».

- خدمة؟

- نعم. حسب ما أعتقد، أنتَ تمتلك السلطة لإصدار قرارات العفو عن المجرمين. هل هذا صحيح؟

- نعم ...

- ممتاز. سأرسل إليك التفاصيل. شكرًا لك يا سيادة الرئيس...

- مهلاً يا سيدتي، إذا سمحتَ لي، هل يمكنني السؤال عن طبيعة الجناية؟ ضيقت كارولين عينيها، ولم تُجب من فورها. ولمَّا أجابت بدت نبرتها باردة على نحو ملحوظ: «وماذا يُهم في طبيعتها؟».

- قد... مم.. يكون لذلك تأثير على ...

زفرت كارولين تنهيدة: «الرجل المقصود، لم تُوجه له التهم بعد، لكن كما قلت لك هي مسألة وقت فحسب. الحادثة تدور حول مقتل ضابط شرطة. ربما

توجه له بعض التهم العرضية، مثل الاقتحام والسرقة وأشياء من هذا القبيل. آه والهروب أيضًا. لقد غادر السجن بالأمس دون تصريح. ومات البعض في أثناء ذلك. أعتقد أن هذه جريمة أيضًا؟».

اتفق الرئيس معها، وهو من كان محررًا سابقًا في دورية Harvard Law Review على أن الهروب جريمة كذلك.

- لكن حكم الإعدام هو موضع اهتمامنا الرئيسي.

سأل الرئيس مستنكرًا: «حكم الإعدام!».

أجابت كارولين: «نعم». وصمتت لبرهة، ثم استأنفت: «لكن لو كان يخفف من وطأة الأمر، فلدي علم بأن الرجل الذي ستوجه له الاتهامات بريء تمامًا. أعلم ذلك علم اليقين».

- هل لي أن أسأل كيف عرفتِ؟

- لأن من قتل المحقق ماينر هو أنا. كان السيد هودجسون حاضراً، لكن... لا يدري بوقوع أي شيء من هذا القبيل. بعيداً عن التفاصيل القانونية، الرجل بريء تمامًا.

استطرد الرئيس في نهاية المطاف: «أفهمك. مع ذلك يا آنسة سوباسكي، من الناحية السياسية قد يكون الأمر...».

- حسب علمي أنك حين توليت المنصب، أُطِّلعت، من بين جملة أشياء أخرى، على ملف يحمل الاسم الرمزي «وثائق سرية». كان الملف أزرق بأشرطة حمراء بمحاذاة حافته، وسمكه نحو إنش. ومكتظاً بأسئلة لا جواب لها. هل هذا صحيح؟

ظل الرئيس صامتاً لهنيهة، ثم قال بصوتٍ يشبه الفحيح: «كيف لك أن تعرفي بهذا الأمر؟».

ضحكت كارولين: «أخشى أن هذا سؤال آخر لا جواب له». غمرت إلى رايتشل، ثم تابعت: «أضف ذلك إلى الملف، لم لا؟ لكن الحقيقة هي أنني بالفعل أعرف يا سيادة الرئيس. ولو أنك قرأت ملف «وثائق سرية» فهذا يعني أن لديك بعض الفكرة عما هو قادر على فعله. أؤكد لك من واقع تجربتي الشخصية أنه رجلٌ لن ترغب في معاداته أبداً. كل ما أطلبه منك هو توقيع ورقة. وفي رأيي من المستبعد أن يُكشف عن هذا العفو علانية».

بعد برهة أجاب الرئيس، وهو رجلٌ حكيم: «حسنًا».

- شكرًا لك! تأكد أنني سأبلغ والدي بما قدمته لنا من معاونة.
- هذا لطفٌ منك. آنسة سوباسكي، سيسعد هذه الحكومة أن تبدأ حوارًا مع والدك. يمكننا أن ...
- أعتذر منك يا سيادة الرئيس. أخشى أن هذا ليس ممكنًا.
- قال الرئيس: «لكن ...».
- في الحقيقة هناك شيء أخير يمكنك أن تفعله من أجلي. متى سينعقد مؤتمر الصحفي القادم؟
- لحظة من الصمت، ثم قال أحدهم في الخلفية: «غداً صباحاً». فقال الرئيس: «غداً صباحاً على ما أعتقد».
- فكرت كارولين في الأمر لبرهة، ثم قالت: «آسفة. هذا ليس سريعاً. رتب لمؤتمر صحفي الليلة».
- أخشى أن هذا لن ...
- قاطعته كارولين بنبرة جامدة: «هذا ليس طلباً».
- خيم صمتٌ طويل على الجانب الآخر من الخط. وحدث إليها ستيف فاغراً فاه.
- ثم أجاب الرئيس بنبرة لطيفة: «حسنًا».
- جيد. وأنت تقرأ خطابك، أريد منك أن تقول شيئاً. قل، ممم، آه، لا أدري.
- قل باسكتلندية الأراضي المنخفضة «من أجل الأيام الخوالي». هل تعتقد أن بإمكانك إدراج تلك العبارة في خطابك دون إثارة ريبة الكثيرين؟
- أجاب الرئيس في تودة: «أظن أن بإمكانني ذلك. هل لي عن أسأل عن السبب؟».
- لأنه في أي لحظة خلال الدقائق القليلة القادمة سيحدث أن الشخص الذي توشك على إصدار العفو عنه سيقول بأني أتحدث إلى رجلٍ يشبهك فحسب. وحين يرى أنك قلتَ «من أجل الأيام الخوالي» على الهواء، سيسهم ذلك في التخفيف من تلك الشكوك التي تراوده.
- أفهمك. حسنًا أظن أن بإمكانني ترتيب الأمر.
- أجابت كارولين: «ممتاز! شكرًا لك يا سيادة الرئيس. هذا كل شيء».
- وأغلقت الهاتف.

بعد ساعة أو يزيد، كان ستيف وكارولين بمفردهما في غرفة المعيشة. بُعيد إنهاء كارولين مكالمتها مع الرئيس، استيقظ الرجل الضخم وتناول بعضًا من لفائف السينابون. ثم اتجه نحو المرأة ذات الرائحة العفنة في الزاوية وأخذ منها القَدَّاحة. عندئذٍ بدت أنها عادت من شرودها. ابتسمت له. ثم انتقل الاثنان إلى غرفة النوم الخلفية في الوقت نفسه الذي ظهر فيه الرئيس على الشاشة.

أراد ستيف أن يركز على المؤتمر الصحفي، لكنه واجه بعض المشكلات. كان الرجل الضخم والمرأة ذات الرائحة الكريهة يصدران أصواتًا ملحمة في الغرفة الخلفية. بدأ الأمر بصريّر أعمدة السرير، لكن سرعان ما طغى عليها صراخ دببة وشيء قريب الشبه باليودلية. هبَّت رائحة لحم عفن في أرجاء المنزل. بدا أن سرير السيدة ماجيلكاتي لم يكن مصممًا لذلك، فانهار بصوت تفسُّخ مؤلم للأذان. ولاحظ ستيف مدهوشًا أن الزوجين السعيدين لم يتوقفا للحظة.

جال ستيف بنظره ليرى إن كانت كارولين أو أي من الآخرين مشدوها مما يحدث كما هو حاله، لكن بدا أن الوحيد الذي يعي بأي شيء يحدث هو «بانكن تينكلتوز» قِطُّ السيدة العجوز. كان نائمًا إلى جوار الحائط المقابل لغرفة النوم. ولمَّا اصطدموا بالحائط بقوة تكفي لإسقاط صور العائلة، نهض القط من نومته ومشى متسكعًا لينضم إلى ستيف على الأريكة.

لوَّحت كارولين بيدها أمام عيني ستيف وأومأت بعينيها إلى التلفاز: «انتبه، اتفقنا؟ لا أحب أن أضطر إلى الاتصال به ثانيةً».

- آسف.

طيلة الدقائق العشرين الأخيرة أو ما قارب ذلك، ظلَّ الرئيس يثرثر عن مشروع قانون ما من المفترض له أن يعزز الاقتصاد. أراد أن يرفع الضرائب، أو ربما يُخفِّضها. والآن هو يتلقى الأسئلة.

واصل ستيف المشاهدة باهتمام لبضع دقائق. ثم خرج الرجل الضخم، ملفوفًا بملاءة من غرفة النوم مارًّا بغرفة المعيشة ومنها إلى المطبخ. جلب قطعتي براونيز، وزجاجة من زيت ويزون، وملقط طعام «يا إلهي!».

وبضحكة تشبه ضحكة شيطان، عاد يغرق في غرفة النوم. تتبّع القط ذلك المشهد. وفكّر ستيف أنه ربما يتساءل عن ملقط الطعام أيضًا. ولمّا اختفى الرجل الضخم خلف الزاوية، التفت القط إلى ستيف وعيناه تطرفان في تساؤل.

رفع ستيف كتفه في حيرة، وهمس: «أنت تفهمني يا رجل. صدقًا لست واثقًا إذا كنتُ أريد...».

لكزته كارولين ثانية، فأخرس لسانه. وعلى التلفاز، سأل أحد المراسلين عن قمة الأسلحة القادمة التي ستعقد مع الروس. أجاب الرئيس أن موقع انعقاد القمة لم يتحدد بعد، وأنه ونظيره الروسي يحبان فكرة انعقادها في ريكيافيك: «على الأقل، من أجل الأيام الخوالي». فضحك جميع المراسلين.

لم يفهم ستيف المزحة. وفكّر: «هذا هو الرئيس، حقًا وحقيقة». شعر بالدوار يتملك من رأسه. السيدة ماجيلكاتي لديها باقة القنوات الكاملة، والمؤتمر الصحفي يُبثُّ على قناتين منها. لمّا بدأ المؤتمر، راح ستيف يُقلِّب بين قناة سي-سبان وقناة فوكس نيوز، ظنًّا منه أن ما يحدث معه هو حيلة محكمة، وأنهم قد استأجروا ممثلًا يؤدي...

كانت كارولين تُحدِّق إليه.

علّق ستيف: «حسنًا. لنقل إنني أصدق مدى قدرتك على جعل الرئيس يوقّع عفواً عني. (ما أثار دهشته حقًا هو إدراكه أنه يصدّق ذلك) ما تزال أمانًا مشكلة».

- ما هي؟

- ما من سبب يقنعني أنك ستفعلين ذلك حقًا. أنتِ تتذكرين آخر مرة وافقتُ على أداء مهمة من أجلك. انتهى بي الحال في السجن. أول البارحة قال محاميّ الأحمق إنني، وأنا أقتبس كلماته: «على متن قطار سريع إلى حبل المشنقة».

قطّبت كارولين حاجبيها، ومَشَّطت شعرها بأصابعها إلى الخلف: «أعذر لك عما حدث. حقًا أسفة. كان أمرًا لا مفر منه. لو أسديت لي هذه الخدمة، بمقدوري تحسين وضعك وسأفعل». مدّت ذراعها وراء الأريكة وقذفت إليه الحقيبة القماشية المملوءة بالمال، تلك التي جاءت بها إلى الحانة من قبل: «بالمناسبة، هذه أموالك».

ألقى ستيف نظرة إلى الحقيبة، ثم رفع عينيه إليها. تلك الطريقة التي قذفت بها الحقيبة تبرهن على عدة احتمالات. أولها هو أنها لا تهتم بأمر 327 ألف دولار. وثانيها هو يقينها بأن ستيف لن يعيش طويلاً لينفق هذا المال. وحدّث نفسه: «مع ذلك، ليس أمامك إلا أن تفعل ما تطلبه منك».

ظلاً يشاهدان نشرة الأخبار طيلة ساعة أو يزيد. وقبل المؤتمر الصحفي المفاجئ، تصدرت عناوين الأخبار قصة «هروبه» من السجن، مما جعل ستيف يفكر في قرارة نفسه أن عبارة «اختطافه من السجن» أكثر دقة، لكن لم يسأله أحد عن رأيه. بدا أن تعداد القتلى وصل إلى الثلاثينات. تبنت السي إن إن فرضية أن ستيف على رأس عصابة مخدرات غير معروفة إلى الآن. وفضّلت قناة فوكس فرضية أنه جزء من منظمة إرهابية. وبدا أن الجميع يتفقون على أنه رجلٌ خطير للغاية. وظلوا يعرضون صورته الجنائية كل عشر دقائق تقريباً.

خرج الرجل الضخم من الغرفة مجدداً. لم يعد وجهه يشرق بابتسامته العريضة. ولماً مرَّ بهما، حدّق إليهما بطريقة أشعرت ستيف بارتباك واضح. أخذ بعض الشموع عن طاولة الأكل واختفى مجدداً وهو يُتمتم بصوتٍ منخفض.

لماً رحل، التفت ستيف إلى كارولين وسألها: «ماذا قال؟».

- مم؟ من؟

- الرجل ذو التنورة. يواصل أخذ أشياء إلى الغرفة. أشعر بالفضول، ماذا قال؟

أجابت شاردة: «آه». وراحت تبحث في ذاكرتها لبرهة: «قال: «لا أستطيع الوصول إليها. لم أعد أستطيع. لا أستطيع»».

- آه. (بدا ستيف متحيراً واستغرق في تأمل ما سمعه لبرهة) هل لديك أي فكرة عما يعنيه بـ ...

قاطعته السيدة ماجيلكاتي متسائلة: «هل تود قطعة براوني؟».

فتح ستيف فمه ليرفض عرضها، لكن ما نطق به لسانه هو: «بكل سرور!». إن ثلاثة أسابيع من طعام السجن الباهت قد فتحت شهيته عن آخرها. علاوة على أن البروانيز التي تخبزها السيدة لذيذة وشهية. وإلى جانب الكعك،

جلبت له السيدة ماجيلكاتي بعض الحليب أيضًا. ولمّا أنهى طعامه، التفت إلى كارولين: «هل لديك سيجارة؟».

- أكيد.

راحت تفتش في جيوب سترتها، ثم أخرجت علبة مارلبورو وبعض أعواد الثقاب المغلفة بالسلفان. وقالت: «هل يمكنك أن تنتبه إليّ الآن؟ من فضلك؟».

أجاب ستيف: «نعم، لا بأس». حدّقًا إلى بعضهما وهما يُشعلان سيجارتيهما، ثم سألهما: «إذن، ماذا تريدان مني بالضبط؟».

- لطفٌ منك أن تسأل. أخيرًا. اسمع، السبب الذي أخرجناك من السجن لأجله هو أننا نريد منك أن تخرج للركض.

طرفت عينا ستيف، وسحق سيجارته: «أعيدي ما قلّته».

سألت كارولين: «أنت عدّاء، صحيح؟». مرّت ذكرى ضبابية في ذهنه بأنه قد ذكر شيئًا كهذا حين كانا يتحدثان في الحانة. «نريد منك الخروج للركض».

- أهذا كل ما في الأمر؟

- وتجلب لنا شيئًا.

فكّر في نفسه: «ها قد وصلنا إلى لب الموضوع». ثم أجابها: «ما هذا الشيء؟».

- لا نعرف طبيعته تمامًا. لكننا نعرف موقعه بدرجة عالية من الدقة، لكنه قد يبدو بأي شكل.

عاد ستيف يتساءل: «حسنًا... ولكن هذا الشيء في حقيقته هو... ماذا؟ مخدرات؟ متفجرات شديدة الانفجار؟». ثم عبر بخاطره هاجس: «سلاح نووي لعين؟».

قلّبت كارولين عينيها في محجريهما، واعتلت وجهها نظرة تقول «لا تكن أحمق»، ولوّحت بيدها كأنها تطرد الغبار: «لا، لا. بالطبع لا. لا شيء من هذا كله. إنه... كيف أصيغ لك هذا؟ فكّر في هذا الشيء على أنه نظام دفاع محيطي متقدم جدًّا».

- أتريدان مني أن أجلب لك لغماً أرضياً؟ لا. في الحقيقة، لا وألف لا. سأجرب حظي في السجن.

أوضحت كارولين: «ليس «لغماً أرضياً». قطعاً ليس لغماً أرضياً ولا أياً من هذا القبيل. ماهية هذا الشيء هي نوعٌ من... مم... هل تعرف ما هي بئر الجاذبية؟ شيءٌ يشبه ذلك، عدا أنه معكوس، ولا يؤثر إلا في أناسٍ معينين».

- ليس لدي فكرة عن أي شيء تقولينه.

- مم. حسناً، فكر في الأمر بهذه الطريقة. هل تعرف كيفية عمل الموجات متناهية القصر؟

- لا.

- طريقة عمل هذا الشيء تعتمد على موجات متناهية القصر، تشبه تلك التي في الميكروويف.

- آه، مهلاً. تذكرتُ للتو. أعرف بالفعل كيف يعمل الميكروويف، كما أن ما تقولينه هراء لا معنى له.

- حسناً. هذا الشيء ليس ميكروويف. وكيفية عمله لا تهم حقاً.

- وما دامت لا تهم، لماذا لا تُخبريني؟

- لأنه متقدم جداً. وأنتَ ليس لديك أي خلفية علمية عنه. ثق بي من فضلك، اتفقنا؟

استطرد ستيف: «تَبّاً، لا. إذن أنتِ... ماذا؟ باحثة في الأسلحة مثلاً؟». هذا احتمالٌ يسعه تصديقه، إذن وصف «بروفيسور غريب الأطوار» ينطوي على أفعال وصفات كثيرة. «اسمعي، لن أفكر حتى في الأمر حتى تُخبريني ما الذي سأجلبه».

- لن تقدر...

- جربي حظك.

زفرت كارولين تنهيدة مثقلة: «هذا الشيء يسمى ريساك أيريال. يعتمد في جوهره على بنية رياضية، نمطٌ مكرّر ذو مرجعية ذاتية، وموقوفٌ على مستوى الندم. نمطه كالتالي: يعمل الريساك لأن الهدف لديه المحفّز، وهذا بسبب عمل الريساك نفسه. نمط يتكرر على نفسه. أما الرمز المادي الذي ستجلبه لنا فهو إسقاط الريساك في الفضاء العادي. هل فهمت؟».

حدّق إليها ستيف: «هل أنتِ من اخترع هذا الشيء؟».

- لا، ليس أنا. أنا شيءٌ شبيه بدارس لغويات. هل نعود إلى الموضوع المهم الآن؟

عبس وجه ستيف: «بالتأكيد». وهو غارقٌ في بحر المصطلحات.

تابعت كارولين: «الرمز، وهو ببساطة رابطة الـ **ريساك**، موجود في مكان ما، ربما في الهواء الطلق. قد يكون علبة كوكاكولا، كيس ماكدونالدز ورقياً، صندوق بريد، أي شيء. في نظر معظم الناس، ولا شك أنك من بينهم يا ستيف، هذه هي ماهية الشيء وطبيعته».

- ولكن؟

- لكن ليس في نظر الجميع. في نظر البعض، هذا الشيء مثل السم. كلما اقتربوا منه، اشتد ألمهم وازداد الضرر الذي يلحقه بهم. وكلما اقتربت من الخطر، سيودي بحياتك.

- إذن هذا الشيء مشعٌ؟ لن أحمل أي خراء مشعٌ.

- لا. ليس مشعاً.

- ماذا سيحدث لو أنني لا أصدقك؟

أجابت كارولين مبتهجة: «حسناً، أظن أنك ستعود إلى السجن، أليس كذلك؟».

صرَّ ستيف على أسنانه غيظاً.

تنشقت كارولين شاعرةً بشيء من الاستياء: «هذا الشيء ليس مشعاً. أقسم لك. لا شيء أبسط من ذلك».

- كيف لك أن تعرفي أن هذا الشيء، مهما كانت طبيعته، لن يؤثر في؟

- حسناً... لا نعرف. لسنا متأكدين. ولكن الوحيدين الذين بدا أن هذا الشيء يؤثر فيهم هم من لهم علاقة بالأب. أما الأناس العاديون، أمثالك وأمثال سائقي فيديكس وموظفي توصيل البيتزا، والأمريكيين العاديين يدخلون ويخرجون طيلة الوقت. وبدا أن هذا الشيء ليس له تأثير عليهم.

سأل ستيف: «لهذا السبب فعلت كل هذا بي؟ وقع اختيارك عليّ عشوائياً؟ لأنني شابٌ عادي؟».

أومات كارولين بإيجاب: «نعم، هذا كل ما في الأمر».

- خراء.

رفعت كارولين حاجبها مستفهمة: «لست واثقة أنني أفهم...».

أوضح ستيف مبتسمًا: «أعني أنك تكذبين عليّ، أنتِ مخادعة خسيصة».

- ستيف، أوكد لك ...

- وفري كلامك.

- معذرة؟

- لا داعي لمزيد من الكلام. أنا واثق أنها أكاذيب لطيفة جدًّا، لكن صدقًا

لا داعي لها. سأفعل ما تطلبين.

رفعت كارولين حاجبها استغرابًا مرة أخرى.

أوضح ستيف: «باستثناء تلك الحقيبة القماشية المملوءة بالنقود، التي أشك حقًّا أنك ستتركينني أخرج بها من هنا، ليس لدي أي نقود ولا سيارة ولا بطاقة هوية، وليس لدي أي شخص مقرب أستطيع اللجوء إليه للمساعدة. أظن أنني إن بقيت بمفردي لن أصمد أكثر من أربع وعشرين ساعة على أقصى تقدير. وبعدها إما أن أعود إلى السجن وإما أن أقتل في أثناء مقاومة القبض عليّ، وهو الأرجح».

ثم حدّث نفسه: «ولو رفضت عرضك، فربما تطلبين من الرجل الضخم حزّ عنقي أو قتلي بأي طريقة. ولا أظن أنه سيمانع على الإطلاق».

قالت كارولين: «حسنًا. أظن أن هذه أخبار جيدة».

- أنا واثق أنك تلاحظين البهجة في عيني. مع ذلك لدي بعض الأسئلة.

- هات ما عندك.

- ما موضوع الركض هذا؟ لماذا لا يمكنني الدخول إلى المكان بالسيارة؟

سيكون هذا أسرع، ولو اتضح أن هذا الشيء، مهما كانت طبيعته، ثقيل

جدًّا ويصعب حمله، عندئذٍ يمكنني ...

- الأمر هو... يمكنك القول إنه من احتياطات السلامة.

مال ستيف إلى الأمام وسألها بابتسامة شرسة: «حقًّا؟ أخبريني».

أجابت: «لو (ورفعت إصبعًا) فقط لو اتضح أنك عرضة لتأثير هذا النظام الدفاعي المحيطي، عندئذٍ لن تود أن تكون في سيارة. فوفقًا للسرعة التي تتحرك بها السيارات، يمكنك أن تصل إلى مسافة بعيدة قبل أن تُدرك حقًا ما يحدث لك. أما إن ذهبت ركضًا على قدميك، يمكنك أن تعود أدراجك إذا بدأت تشعر بأي ألم».

- كيف؟

- الأمر يختلف من شخصٍ لآخر. عانى ديفيد صداغًا مميّتا. أما وجهي فبدأ ينزف. واشتعلت النيران في جسد بيتري. ببساطة، إذا تحرّكت وشعرت أنك بخير، ثم فجأةً بدأت تشعر بألم، عد أدراجك فورًا قبل أن يسوء الألم.

سألها: «ماذا لو اتضح أنني بالفعل خاضع لهذه التأثيرات، هل سأحصل على العفو والنقود؟». قرر أنه لن يُصدّق جوابها، لكن الفضول انتابه حيال سماع ما ستقوله.

- فيما يتعلق بالعفو، فهذا مؤكد. كل ما نطلبه منك هو المحاولة. وكما قلت لك من قبل المال مالك.

- هذا مُقنع جدًا.

فركت كارولين جبهتها: «ستيف، لا أعرف ماذا أقول لـ...».

- وفري كلامك. قلتِ إنكم تعرفون مكان هذا الشيء، لكنكم لا تعرفون ماهيته. هلّا شرحتِ لي هذا الأمر.

- أكيد. بسبب تلك الآلية التي يعمل بها نظام الدفاع المحيطي، تتخذ المنطقة الواقعة تحت التأثير شكلًا كرويًا. أول شيء فعلناه هو أننا أتينا بخريطة وحددنا محيط الدائرة. لا بد أن هذا الشيء في مركز تلك الدائرة.

فكّر ستيف في الأمر مليًا: «ماذا لو كان داخل شجرة أو مدفونًا أو شيئًا كهذا؟ ليس بالضرورة أن يكون على مستوى الأرض».

- رأي وجيه، لكننا اختبرنا ذلك الأمر أيضًا.

- كيف؟

- بحرص شديد جدًا. اسمع، يمكننا الخوض في الطرق والتفاصيل إذا أردت، ولكن أعدك أن الشيء المطلوب يقع في 222 جاريسن درايف، على بعد سبعة عشر مترًا تقريبًا من حافة رصيف الشارع، ويرتفع عن الأرض بمقدار نصف متر تقريبًا.
- يرتفع بمقدار نصف متر عن الأرض؟ هل يطفو؟
- إنه في الشرفة.
- سأل ستيف: «وأنتم ليس لديكم أي فكرة عن ماهية هذا الشيء؟».
- هزّت كارولين رأسها نفياً: «قد يكون أي شيء. لكنه على الأرجح شيء صغير تافه. تلك الشرفة عادةً شاغرة».
- وكيف عرفتِ؟
- قطّبت وجهها، وراحت تفكر في الجواب المناسب: «لأن هذا منزلي».
- منزلك؟
- لماذا اندهشت إلى ذلك الحد؟
- من مظهركِ افترضتُ أنكِ مُشرّدة.
- تجهّم وجهها: «لا، لستُ مشرّدة. هذا المنزل ينتمي إلى أبينا، لكننا جميعًا نعيش هناك».
- جميعكم من؟
- أشارت إلى الغرفة من ورائها: «عائلتي».
- نعم... أنتِ تواصلين تسمية هؤلاء الناس عائلتكِ. أنتم لا تشبهون بعضكم في أي شيء.
- نعم، نحن عائلة بالتبني.
- جميعكم؟
- أجابت كارولين: «نعم. احتضننا الأب حين مات أهلونا».
- هذه صفات الأمراء الحقيقيين.
- استطردت بنبرة جافة: «لهذا السبب نحن متلهفون للاطمئنان على سلامته».

- إذن... ما هو ظنكم؟ أتتصورون أن أحدهم يحاول إبعادكم عن منزلكم؟

- نعم، يبدو أن الأمر كذلك.

- وهل لديك فكرة عن السبب؟

أوضحت كارولين: «أبونا شخصية أكثر أهمية مما يُظهر. إنه... بمنزلة صانع الملوك. ولديه أصدقاء ذوو نفوذ قوية».

اهتدى تفكير ستيف أن ما قالته صحيحٌ على الأرجح. لا شك أن الرئيس انتفض من مكانه حين قالت ابنة الرجل: «ضفدع».

تساءل ستيف: «وأعداء ذوو نفوذ أيضًا؟».

أومأت كارولين بإيجاب: «نعم. بعضهم قد يود التفتيش في الأشياء التي يحتفظ بها أبونا في البيت. أعني كتبًا».

حدّث ستيف نفسه: «إذن... ماذا يعمل؟ مستشار مالي لدى عصابة إجرامية؟ شبيه لماير لانسكي؟». ثم سألهما: «عن أي صنفٍ من الأعداء نتحدث؟ لو تقصدين عصابة لتهريب المخدرات، فأظن أنني سأغادر سريعًا...».

أفلتت كارولين ضحكة متقطعة. فسأل متعجبًا: «ما المضحك؟».

- أحاول أن أتصور الأب متورطاً في تجارة المخدرات. لا. هذا ليس ما في الأمر.

- إذن، عمّن نتحدث؟

رسمت على وجهها ابتسامة مصطنعة: «لستُ مخوّلة بالإفصاح عن الأمر». زفر ستيف تنهيدة: «حسنًا. إذن أنتم تظنون أن أحد أعداء والدك هؤلاء تسلل إلى داخل المنزل، وفعلَ نظام الدفاع المحيطي ذاك؟».

- ربما. يتحتم على أحدهم أن يضعه هناك. كانت الشرفة فارغة حين غادرتُ ذلك الصباح. أنا واثقةٌ من ذلك. كل ما نعرفه حقًا هو أن أبانا قد اختفى منذ تفعيل نظام الدفاع المحيطي.

أخرجت سيجارة مارلبورو مُعَوَّجَةً، ثم أشعلت عود ثقاب خشبياً إذ حَكَّته بظفر إبهامها المصبوغ بالطلاء. اتَّقَدَ اللهب قليلاً وهي تمسك بعود الثقاب تحت طرف سيجارتها، فزاد من وضوح رعشة في أصابعها تكاد لا تُلاحظ. استطرد ستيف: «ربما هو مَنْ وضع هذا الشيء. هل فكرتم في ذلك من قبل؟».

قَطَّبَتْ وجهها: «هذا محتمل. لكني لا أتصور أبداً أن هناك سبباً يدفعه لفعل شيء كهذا، على أي حال... هذا جائز. وإذا كان هذا صحيحاً، فإننا نود الذهاب إليه وبمنتهى الأدب نسأله عن السبب. لهذا نحن بحاجة إلى الدخول إلى المكتبة والبحث في أبحاثها. وهناك أيضاً مصادر مرجعية قد تكون ذات نفع. إذا استطعت مساعدتنا في ذلك، أضمن لك ضماناً مطلقاً أنك ستخرج من هنا ثرياً دون أن يمَسَّك أي أذى، وبسجل جنائي نظيف».

- سأتظاهر لبرهة أنني أصدِّقك. هل تودين إضافة أي شيء آخر؟
انحنت كارولين وفتحت سَحَابَ الحقيبة القماشية. كان بداخلها مسدس محفوظ في حافظته. ثم قالت: «قد تحتاج إلى هذا».

- يا إلهي!

سألت: «هل من مشكلة؟».

- لا. في الحقيقة الأمر مطمئن على نحو يثير الريبة. حتى الآن يبدو كل شيء جيداً لدرجة لا تُصدِّق. أخبريني في رأيك، على مَنْ تعتقدين أنني سأطلق النار؟

- حسناً... أؤكد لك ثانية، على الأرجح لن تطلق النار على أحد. ولكن كما أخبرتك، أبونا رجلٌ ذو نفوذ. ولديه... حُرَّاس. هناك احتمال - ليس وارداً، لكنه احتمال - أنهم يرونك تركض ويعتبرون هذا تهديداً. وفي تلك الحالة، (رفعت كتفها في تشكك) من الأفضل أن يكون بحوزتك ولا تحتاج إليه، عن أن تحتاج إليه ولا يكون بحوزتك.

رمق ستيف الحقيبة. كان مسدس إتش كيه 9 ملم شبه آلي. ثم سأل: «ثلاثة مخازن؟ هذا عددٌ كبير من الطلقات».

- هناك احتمالٌ أنك لا تجيد التصويب.

- حقيقةً أنا كذلك. مما يعني أنني لست متحمسًا على الإطلاق للدخول في تبادل إطلاق نار مع حراس مُدربين.

انفجرت شفتاها في تردد، ثم أغلقتهما. فسألها: «ماذا هنالك؟». هزّت رأسها أن لا شيء.

- ماذا هنالك يا كارولين؟

- لو اضطررتَ إلى... اشتباك علني مع الحراس... لن تكون بمفردك.

- حقًا؟ أخبريني بربك مَنْ سيساعدني؟

أجابت كارولين: «أصدقاء أخي. إنهم مَهرةٌ جدًّا، أعدك بذلك. ولو لزم الأمر يمكنهم حمايتك، وسيحمونك بلا أدنى شك. ستكون في أمان».

استطرد ستيف: «أنا لا أشك في مهاراتهم». وحَدَّث نفسه: «ولا أشك في غرابتهم أيضًا». ثم أضاف: «هل تمانعين إذا أُلقيتُ نظرة على المسدس؟».

مررت الحقيبة القماشية إليه عبر الطاولة. أخرج ستيف المسدس من حافظته وفحصه. أدخل مخزن الذخيرة في موضعه وضبطه على آلية الإطلاق، ثم صوبه نحوها: «ماذا لو أطلقتُ عليك الرصاص وأخذتُ المال وهربت؟».

أضاء وجهها بابتسامة مشرقة، وقالت: «عندئذٍ سأخرج من هذا الكابوس. وسيقتلك أخي ديفيد كذلك. ربما سيستغرق وقته في قتلِكَ. وسنجد شخصًا آخر ليؤدي المهمة بدلًا عنك».

لم يرف لها جفن حتى. توقفت أصوات الجماع الآتية من الغرفة الخلفية، وبعد برهة تسلل ديفيد، الرجل الضخم، من وراء الركن. ابتسم إلى ستيف، ثم حدَّث كارولين بلغتهم التي تشبه غناء الطيور. فأجابته بالمثل.

أجابه ستيف بابتسامة عريضة ومطمئنة. ثم أخفض المسدس. راقبه ديفيد لبرهة، ثم التقط قطعة براوني أخرى وعاد إلى الغرفة مجددًا.

- مجرد سؤال. هل هناك شيء آخر؟

- لا... لا.

- ماذا؟

- أنا... أتمنى لو أن هناك طريقة للبقاء على تواصل معك وأنتَ هناك. وأنتَ تركض. لا أستطيع التفكير في أي شيء يمكننا... (قطعت حديثها) ماذا؟

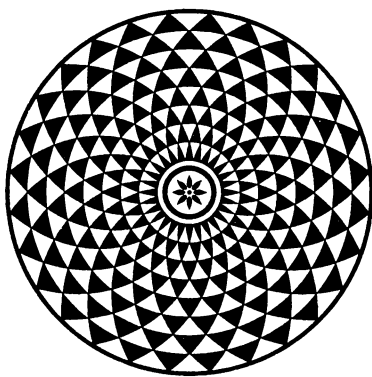
كان ستيف يُحدِّق إليها، وعقله يفكّر: «هذه المرأة... ليست معتوهة، بل... هي شيء آخر؟».

لكن ما نطق به كان: «هل سمعتِ عن الهواتف الخلوية؟».

أجابت: «آه».

أومأت بعينين متسعيتين. وحسب دقة عين ستيف الخبيرة، كانتا تكذبان تماماً وهي تُضيف: «نعم. بلا شك. مرّات كثيرة».

الجزء الثاني



تشریح الأسود

الفصل السابع

جاريسن أوكس

1

في الساعة العاشرة تقريباً من الصباح التالي، ركض ستيف متوغلاً في الحشائش البرية على جانب الطريق السريع 78 ثم خفف من عدوه حتى توقف. كان مدركاً لانتشار صورته على قناة سي إن إن، فأظهر اهتماماً زائفاً بشيء في الغابة حتى مرّت السيارة التي اقتربت من خلفه. كان صباحاً خريفيّاً منعشاً، وهو ما جعله مناسباً جداً للركض.

دخلت جاريسن أوكس حيز رؤيته أخيراً، وهو يقطع ذلك الانعطاف الأخير. تقع على بعد نصف ميل تقريباً، وتنحدر قليلاً نحو سفح التلة. بدا المكان عادياً جداً، حيث اصطفت عشرات المنازل المتجاورة على جانبي الطريق الرئيسي في صفوفٍ منتظمة. ثم تفرّعت منه ثلاث حاراتٍ فرعية، تنتهي جميعها بأزقة مغلقة. وكان أحدهم يجزّ العشب في حديقته. يا له من عملٍ ممل!

انتفضت غرائز ستيف الإجرامية في الحال. بدت المنازل في حالة جيدة، وإن كانت متواضعة قليلاً، لكن معظم السيارات المصطفة أمامها مثل قطع أثرية قد عفا عليها الزمن؛ سيارة من طراز كاديلاك سوبريم 1977، وأخرى داتسون زرقاء، وحتى سيارة أسفار ستیشن فاجن. تساءل ستيف في قرارة

نفسه: «هل ما زالوا يُصنِّعون تلك السيارات حتى؟». ثمة قاعدة مفيدة متعارف عليها اكتشفها ستيف من قبل مفادها أن الرجل إذا امتلك المال الكافي لشراء سيارة جديدة، فإنه يملك المال الكافي لشراء أجهزة كهربائية، وجواهر لزوجته، وأغراض أخرى قابلة للرهن. واكتشف أن عكس هذه النظرية صحيح أيضًا. ومن هذا المنطلق رَوّض نفسه قائلاً: «لا، هذا المكان لا يستأهل السرقة».

لا شك أن السرقة التي هو موشك عليها ليست عادية. فمن بين جملة الأشياء، لم يحمل سلاحًا من قبل. لم تفكر كارولين في توفير حزام للمسدس، لكن عشرين دقيقة تقريبًا في مرأب السيدة ماجيلكاتي عالجت الأمر. وتساءل في نفسه: «كيف كانت البشرية لتنجو دون الشريط اللاصق متعدد الاستخدامات؟». كان حزام المسدس البديل مريحًا بما يكفي، لكن صورة المسدس تطارد أفكاره. تدور أوراق الأشجار الجافة حول قدميه مع كل خطوة، وتتطاير قادمةً من الجرف الذي يمتد عن يساره ويتاخم مساره.

ولمّا صار على بعد مئة ياردة تقريبًا من لافتة الضاحية، خَفَّفَ سرعته من الركض إلى المشي، ثم انتزع هاتف السيدة ماجيلكاتي الخلوي من حزام سرواله وضغط رقم 1 على قائمة الاتصال السريع، فعرض: «المنزل». أما الرقم 2 فهو لامرأة تُدعى كاثي. والخانة الثالثة لمكتب دفن الموتى. أما الخانتين الأخريين فكانتا فارغتين. وانتاب ستيف لحظتها شعورٌ بالحزن نحو السيدة ماجيلكاتي.

أجابت كارولين بعد الرنين الأول مباشرةً: «ستيف؟».

- نعم.

- أين أنت؟

- على بعد خمسين ياردة.

أعاد تثبيت الهاتف في حزام سرواله. كان لدى السيدة ماجيلكاتي أيضًا سماعة أذن تعمل بالبلوتوث، وحين وجدها كانت ما تزال مغلفةً في علبتها. أما الآن فهي تستقر في أذنه. وما بين تلك السماعة والمسدس في جيبه، شعر ستيف بأنه كمّن يظن أن العضلات تصنع بطلاً، ويتظاهر بأنه عميل سري في الخدمة السرية.

استطردت كارولين عبر الهاتف: «حسنًا. تذكر، عندما تقترب من البوابة، حاول الدخول تدريجيًا. وإذا شعرت بأي شيء خارج عن المألوف، استدر وعُد من حيث أتيت».

أجاب ستيف: «فهمت». لامس اللافتة المكتوب عليها «جاريسن أوكس» بأطراف أنامله وهو يمرُّ بها، ثم أضاف: «دخلت».

- هل تشعر بأي شيء؟

«صلصلة».

- لا. لا شيء.

خطوتان.. ثلاث خطوات.

فكّر ستيف أن يسألها إن كانت واثقة بأن هذا الأمر برمته ليس أوهامًا في رأسها. ثم نظر إلى الأسفل. كان الأسفلت تحت قدميه داكنًا كأنما هو مغسول بدماءٍ متخثرة. ولمّا تراءى لعينيه الكثير منها، ابتلع السؤال مع ريقه.

- أين وصلت؟

«صلصلة».

- عشرون قدمًا تقريبًا.

أجابت بنبرة هادئة: «حسنًا. هذا يعني أنك لا تحمل المحفّز بداخلك. لو كان بداخلك لشعرت به الآن». «صلصلة».

- أنت أدري مني بهذا. مهلاً، ما صوت الصلصلة هذا الذي أسمعُه؟

أجابت كارولين: «مارجريت تعبت بالقذّاحة». ثم قالت شيئًا بنبرة غاضبة، حينها توقف صوت الصلصلة. ثم جاء صوتها متوترًا وهي تسأل: «هل ترى أي شيء غير طبيعي؟».

أجاب ستيف: «ذلك الرجل الذي يقيم منزله عند المنعطف لديه هندباء كثيرة في حديقته. كأنه اجتياحٌ حقيقي».

- أعني هل هناك أحدٌ يراقبك؟ أي شيء من هذا القبيل؟

كانت نبرتها عذبة، لكن بدت كأنها تصرُّ على أسنانها غيظًا. فابتسم ستيف مستمتعًا بإغاظتها وهو ما لن يرضيه بوزا. ثم أجابها: «لا. هناك رجلٌ يجزّ عشب حديقته. هذا هو الوحيد الذي رأيته».

- وماذا عن الكلاب؟

- لا. آه، انتظري... هناك واحد.

في أعماق الظلال التي تلقيها الأشجار على الشرفة الأمامية لمنزل أحدهم رأى خيال ظل.. ثم عينين.. تراقبانه.
- ما شكله؟

أجاب ستيف: «حجمه كبير، ربما ثمانون أو تسعون رطلاً؟ لونه أبيض في أسود وله فراء بني باهت. ماذا تسمون تلك الفصيلة؟ كلب جبل البرنيز على ما أظن».

- هل لديه عينٌ زرقاء وعينٌ بنية؟

استطرد ستيف: «لا أستطيع تمييز عينيه... انتظري. (نهض الكلب وتحرك إلى ضوء الشمس) نعم. كيف عرفتِ؟».

أجابت كارولين بصوتٍ خافت: «ثاين».

- ماذا؟

- اسم الكلب هو ثاين. إنه القائد.

- الـ ماذا؟

- قائد القطيع. هذا ما يطلقونه على... لا تهتم. إنه الكلب الزعيم. ماذا يفعل؟

أوضح ستيف: «يتمشَّى في الفناء». وما لبث أن فكَّر ستيف في كلبه بيتي، فلوَّح إلى الكلب أمامه وصاح: «مرحباً يا صديقي!».

زعقت كارولين: «أأنت مجنون؟ لا تتعامل معه يا ستيف!».

- ماذا؟ لِمَ لا؟

تنهَّدت كارولين: «ثق بي من فضلك، اتفقنا؟ تجاهل الكلب. تجاهل أي كلب تراه». وكانت في تلك اللحظة تصرُّ على أسنانها.

أجاب ستيف بنبرة ودودة: «اتفقنا».

واصل السير، وبعد بضع خطواتٍ صار أمام فناء منزل شخصٍ آخر. كان منزلاً بواجهةٍ من الطوب الأحمر، ذا تصميم غريب، وأبواب مزدوجة محفورة في مقدمة المنزل، ونوافذ مظلمة. بدا المنزل مألوفاً للغاية، رغم أنه لا ذكرى لديه عن مجيئه إلى ذلك المكان من قبل.

تبعه كلب الجبل. أصدر نباحه لمرة واحدة. واستجابةً لنباحه، جاء كلبٌ آخر، وهو كلب بيجل سمين، يهرول من خلف ذلك المنزل. ركض الكلب نحو ستيف على سيقانه القصيرة المضحكة وراح ينبح في تحذيرٍ شديد. فعَلَّق ستيف في قرارة نفسه: «هذه أحوالٌ صوتيةٌ جمهوريةٌ مقارنةً بحجمه الصغير».

سمعت كارولين النباح فسألت: «أهذا كلب بيجل؟».

- نعم.

أسرع ستيف الخطى قليلاً، آملاً أن تتركه الكلاب وشأنه ما إن يخرج من فناء كلب البيجل. لكنهما تبعاه؛ كلب البيجل ينبح نباحه الجهوري المثير للدهشة، وثاين يراقبه بعينه ذات اللون الأزرق الثلجي.

- هل ترى أي كلاب أخرى؟

لم يرغب ستيف حقاً أن يبعد عينيه عن المشكلتين وراءه الآن، لكنه أحسّ بالإلحاح في صوتها. ولَمَّا ألقى نظرةً خاطفةً على الجانب الآخر من الشارع، رأى على بعد خطواتٍ قليلةً أمامه زوجين من كلاب لابرادور ريتريفر، أحدهما أسود والآخر أصفر، يهرولان جنباً إلى جنب. صراح ستيف نفسه: «إنهما يتبعانني». انتصب الشعر في مؤخرة عنقه. ثم لمح بطرف عينه شيئاً يتحرّك. وما إن دقق النظر حتى رأى كلب رعي ألمانيّاً صغير الحجم قليلاً يعتلي قمة التلة أمامه. ولَمَّا رآه الكلب، نبح لمرة واحدة.

أجاب ستيف: «نعم. ثلاثة كلاب أخرى. هناك الكثير من الكلاب في هذه الضاحية».

- ثلاثة فقط؟

- نعم. حسناً، إجمالهم خمسة.

- كم قطعت من الطريق؟

أجاب ستيف: «نحو قطعة سكنية. في طريقي إلى التقاطع الأول». صمت لهنيهة ثم سأل: «هل يُعرف عن هذه الكلاب أنها... تعض؟».

- نادراً جداً.

- نادراً؟

- أخبرني حين تصل إلى التقاطع الأول. وسنرى كيف سيتصرفون عندئذٍ.

واصل ستيف السير، وثاين وكلب البيجل يتبعان خطاه جنبًا إلى جنب، ولحسن الحظ صمت كلب البيجل عن النباح حين خرجوا من منطقته. وكلبا لابرادور يسايران خطاه على الجانب الآخر من الشارع.

وصل الآن إلى العجوز الذي يجزُّ عشب فنائه. كان رجلًا في الستين من عمره، متقاعدًا على الأرجح، يعتمر قبعة بيسبول وينتعل حذاء عمل ذا رقبة. صاح ستيف: «هل هذه كلابك؟».

متناسيًا للحظة أنه مجرمٌ هارب لا يرغب في جذب الانتباه إلى نفسه. أجابه العجوز بتلويحٍ من يده. فسأل ستيف مجددًا: «اسمع يا رجل، هلاً أبعدت كلابك عني؟».

تغضَّن وجه العجوز في حيرة، واحتضن أذنه بيده صائحًا: «لا أستطيع سماعك!». ولم يوقف جزاة العشب.

صاح ستيف بصوتٍ أعلى: «هلاً. أبعدت. كلابك. عني؟». هزَّ العجوز رأسه ثانيةً، وابتسم مشيرًا إلى ضوضاء المحرِّك. تمت ستيف: «غبي». صار مشيه أبطأ كثيرًا الآن. وتراجعت ضوضاء جزاة العشب حين انتقل العجوز إلى الطرف القصي من حديقته. أما الكلاب، فراحت تساير مشيه، خطوةً بخطوة. سألت كارولين: «ماذا قلت؟».

- لا شيء، لا تهتمي. كدتُ أصل. حسنًا، أنا عند التقاطع الأول.
- قفِ عندك للحظة، وأخبرني ماذا تفعل الكلاب؟
- مم... أسرع كلبا اللابرادو نحو كلب الرعي الألماني. وهناك كلبٌ آخر جديد، سلالة باللونين الأبيض والأسود، ربما اسبانييل إنجليزي متوسط الحجم. هل هذه كلاب حراسة مثلًا؟

أجابت كارولين: «ليست كلاب حراسة بالمعنى الذي تقصده أنت. حاول أن تتقدم بضع خطوات».

فعل ستيف كما طلبت منه. فكان رد الفعل الذي أتت به الكلاب فوراً وغاضباً. الكلاب الأربعة التي كانت تراقبه في هدوء تحوَّلت إلى وحوشٍ كاسرة واندفعت في هجومٍ مباشر، يتعالى نباحها وهي تركض نحوه. وفي الوقت

نفسه قفز كلب الجبل الضخم وأطبق فكيه وأنيابه على ذراع ستيف. وانقضَّ كلب البيجل على حذاء ابن السيدة ماجيلكاتي الذي ارتداه ستيف.

- أآآآه!

كان صراخ ستيف نابعاً من المفاجأة في المقام الأول بقدر ما هو من الألم الحقيقي. ومع ذلك، وخزه الألم في عضون ثانية. كان كلب الجبل ثاين قد غرز أنيابه في الجزء العلوي من ذراع ستيف اليمنى. والآن تتدلى من هناك، كتلة بتسعين رطلاً تشدُّ عضلاته العلوية. لكزه ستيف بمرفقه في غضبٍ شديد، ثم مدَّ يده اليسرى من الخلف ليحلَّ فكي الكلب عن ذراعه. دارت عين ثاين البنية نحوه في غضبٍ عارم، ولطخت دماء ستيف الفراء الأبيض لخطمه.

سألت كارولين: «ماذا يحدث؟ ستيف؟».

كان ستيف يحقق بعض التقدم في إبعاد كلب الجبل عنه حين انقضَّ عليه الأربعة الآخرون. أطبق اللابرادور الأصفر فكه على عضده الأيسر. وتشبث اللابرادور الأسود بكاحله الأيسر. واستهدف كلب الرعي ردفه الأيسر، لكنه لم يُصب إلا قماش سرواله الرياضي. هزَّ الكلب رأسه يمنة ويسرة، فسمع ستيف صوت قماش يتمزق، ثم شعر بهواء الخريف البارد يلامس مؤخرته.

- ستيف؟ ستيف، أجبني! ماذا يحدث؟ هل تهاجمك الكلاب يا ستيف؟

جال بخاطره: «هذه الكلاب تنوي قتلي». فأحس بدفعة من الأدرينالين. وراح يتلوى ويدور حول نفسه، محاولاً التخلص منها، لكنها تشبَّثت به مثل زينة عيد الميلاد تشبث بشجرتها. تراجع خطوةً إلى الوراء في الاتجاه الذي جاء منه، ظناً منه أن الحيلة قد تنفع، وتقعن الكلاب بأن تتركه وشأنه. حصل كل ذلك في صمت. لم تعد الكلاب تنبح، لأن أفواهها مملوءة. لم يكن الألم سيئاً لدرجة تجعله يصرخ مجدداً. والصوت الوحيد الذي يصدح في الأرجاء هو صوت جزاة العشب. أخذ ستيف خطوةً أخرى. أطلق كلب البيجل سراح حذائه، وتشبَّث بعرقوبه. دفعه الألم إلى الركوع على ركبتيه، أو ربما تعثَّر. ثم أطلق كلب الجبل ذراعه اليمنى، وعضَّ أذنه، وفروة رأسه، ووجهه.

استشاط ستيف غضباً وبحركاتٍ عشوائيةٍ راح يضرب بيده اليمنى. والآن صار يصرخ.

قالت كارولين: «هذا يكفي. سأبعث إليك بالدعم».

ملقى على الأسفلت، بوجه مدفون تحت الكلاب الهائجة، شعر ستيف بهدوء يثير الدهشة. سمع الدماء تتدفق في أذنيه، لكنه لم يشعر بأي ألم فيهما. حينها حدث نفسه: «ربما أنا أحتضر». لاحظ قطعة من الجص قد التصقت بأسفلت الطريق، لا تبعد عن عينيه إلا ببضعة إنشات. يا له من اكتشاف مثير! ثم سمع صوتاً، كأنما هو آت من مسافة بعيدة، لا هو بنباح كلب ولا هو بطنين جزاة عشب. بل هو هديرٌ جهوري.. زئير. وشعر به يتردد عميقاً بين جنبات صدره.

بعد لحظة ابتعد ظل كلب الجبل -ثاين، اسمه ثاين كما ظن ستيف- عن وجهه. وفجأة عاد ضوء النهار يغمره ثانيةً. ابتعد الكلب الذي تشبث بذراعه اليمنى هو الآخر. ثم تحررت ساقه اليسرى.

«... تسمعني، ستيف؟ أجبني! هل أنتَ ...»

كان هذا صوت كارولين على الهاتف. أما ستيف، شاعرًا بدوار رأس، فقد وضع يده اليمنى على الأسفلت ليفحصها. كان هناك قطع كبير وعميق في ذراعه. وحين حرّك أصابعه أمكنه رؤية عضلاته تتحرك من أسفل جلده. ومع ذلك لم يفقد الكثير من دمائه. بدت العضلات في عضده تشبه لحم دجاج نيء. وارتأى له أن هذا المشهد ممتع جداً، فقبض يده عدة مرّات ليرى عضلاته تتحرك.

«المسدس يا ستيف! استخدم المسدس!».

فكر ستيف: «مهلاً... هذه فكرة جيدة حقاً». واستند بيده على الأسفلت لينهض. كان العجوز الذي يجزّ عشب حديقته يتحرك في اتجاهه. فلوح له ستيف طلباً للمساعدة بيده الممزّقة الغارقة في الدماء. ابتسم العجوز ولوح له بدوره، ثم وضع يده على أذنه وهزّ رأسه، مشيراً إلى جزاة العشب.

حدث ستيف نفسه: «ما.. هذا.. الهراء؟». أعادته غرابة الموقف إلى وعيه، قليلاً على الأقل. ركع على ركبة واحدة وألقى نظرة سريعة على ما حدث له. كانت ساقه اليمنى سليمة، إذ لم يحدث كلب البيجل ضرراً كبيراً لكاحله. «رغم أنه ما قصر في المحاولة». أما ساقه اليسرى فقد تأذت كثيراً. كان

قد تعرّض للعض في ربله ساقه، وآلمته كثيرًا حين حاول تحميل وزنه عليها. «أتساءل ماذا حدث؟».

«المسدس يا ستيف! المسدس! أطلق الرصاص على الكلاب!».

هذا ما أعاده كليًا إلى رشده. تذكّر ستيف مَنْ -أو بالأحرى ما- فعل به هذا. وصار فجأة على دراية شديدة بالكلاب المسعورة من خلفه. تفجّرت في قلبه رغبة القتل السوداء، وتناسى مؤقتًا رسالة بوذا التي تنادي بالرحمة بكل الكائنات الحية.

نادى ستيف وهو يسحب مسدسه: «تعال يا ثاين! لدي مكافأة لك يا صديقي».

وما لبث أن جال بخاطره: «يا إلهي! هذا كلبٌ كبير حقًا. ربما يزن - ماذا؟- أربعمئة رطل أو يزيد. وربما خمسمئة».

لكنه لم يكن كلبًا بالطبع. كان أسدًا. في الواقع، أسدين، أحدهما ذكرٌ بالغ له لبدة بنية غزيرة، والآخر أنثى أصغر حجمًا تقف خلفه وخلف الكلاب. تعجّب ستيف محدثًا نفسه: «أسود، ها؟ هذا ليس معتادًا هنا».

سحب ستيف الزناد في المسدس بحوزته، وأعدّه لإطلاق النار. رفعه إلى وجهه وصوّبه إلى منتصف لبدة الأسد الكبير، وبحرصٍ شديد أطلق رصاصة. لا شك أنه أخطأ الهدف تمامًا. اخترقت الرصاصة المسافة بين الأسدين، وارتدت عن الأسفلت، محدثةً شرارة احتكاك بسيطة.

استدار الأسد الكبير وزأر في وجهه.

جاء صوت كارولين في أذنه صائحًا: «ستيف، ماذا تفعل؟ لا تكن أحمق! لقد جاؤوا لحمايتك! هؤلاء هم الدعم!».

- عيدي ما قلته مجددًا من فضلك.

- الأسد أنقذ حياتك. هؤلاء هم الدعم. لا تصوب عليهما.

- وكيف عرفت أنني حاولت ...

زأر الأسد الكبير مجددًا.

- يقول إن هناك كلابًا أخرى قادمة. هل يمكنك التصوير عليها؟ استخدم المسدس. لكن كن حريصًا. كم عدد الكلاب عندك؟

أجرى ستيف تقييماً شاملاً للموقف. كان كلب البيجل يرقد ميتاً على الطريق وظهره مكسور. وثاين ينزف من جرح في مؤخرته والفراء الذي يغطي مؤخرة عنقه مشدود، ويذرع المكان ذهاباً وإياباً أمام الأسدين، ويفحصهما بعينه المخيفتين غير المتطابقتين. ومن خلفه تقف أربعة كلاب أخرى تنبح وتزمر، مصابة بجروح طفيفة ولا تدري ماذا تفعل. أما الثلاثة الجدد، فاثنان منهما من فصيلة روتوايلر والأخير كلب بطباط. وقد وصلت هذه الكلاب إلى المشهد بينما كان ستيف غائباً عن وعيه. وبينما كان يقيم الموقف، رأى كلب ريتريفر ذهبياً يعتلي قمة التلة.

- تسعة كلاب.

صاحت كارولين: «أطلق النار! لا مفر من مواجهتها لتقطع الشارع». أطلق ستيف رصاصة على كلب الاسبانييل الإنجليزي. أخطأ الهدف ثانية، لكن مجهوده جديرٌ بالاحترام هذه المرة. ألقي الأسد الكبير نظرةً من وراء كتفه وتحرك بعيداً عن مرمى طلقات ستيف.

راح كلب الاسبانييل يزمر ويذمر، وتغضن خطمه الملطخ بحُمرة دماء ستيف. نبج الكلب وأخذ نصف خطوة إلى الأمام... فأصابه ستيف بين عينيه مباشرة.

زأر الأسدان في استحسان. اختلس ستيف نظرةً عن يمينه. فرأى العجوز ذا جازاة العشب قد أنهى صفّاً آخر واستدار. هذه المرة لَوَّح العجوز مرتين وهو يمرُّ بالمشهد، مرةً لستيف والأخرى للأسدين.

أصاب ستيف كلب اللابرادور الأصفر في جانبه. أخذ الكلب بضع خطوات إلى الأمام قبل أن يسقط على جانبه، وصدره يرتفع وينخفض في صعوبة. قال ستيف في قرارته: «بدأتُ أتقن هذا الشيء» وهو يطلق النار على الكلب الأسود، ويخطئ الهدف تماماً، ثم أصابه في ردفه. تعالى صراخ الكلب، وبدأ يجرجر ساقه متقدماً نحوه. أصابه ستيف برصاصةٍ أخرى في عظام صدره فسقط الكلب ميتاً.

انفعلت الكلاب الستة المتبقية. وانقض ثلاثة منها على اللبؤة مشتبكين معها. زأرت في ألم، لكن ستيف لم يهتم لأن الكلاب الثلاثة الأخرى قد انقضت عليه، متجنبين ذكر الأسد. لم يلق ستيف باللوم على هذه الكلاب، فقد صار واضحاً أنه ليس ماهراً في التصوير.

أصاب ستيف كلب البطباط في صدره. «ليس سيئاً...». ثم صوّب نحو ثانين، لكنه أخطأ الهدف كلياً. زمجرت كلبة الرعي وحدّقت إلى ستيف بعينيها الصفراوين، ثم ألقت بنفسها عليه. رفع ذراعه المصابة لتفاديها، لكنها تشبّثت به، وانغرزت أنيابها البيضاء في عضلات ذراعه المكشوفة. صرخ ستيف متألماً. ثم دفع المسدس في بطنها وجذب الزناد. تناثرت أحشاء على الجانب الآخر، لكن كلبة الرعي لم تطلق سراحه. والآن راح كلب بيتبول ينهش كاحله الذي كان كلب البيجل ينهش فيه من قبل.

أطلق الرصاص مجدداً، هذه المرة أعلى جسم كلبة الرعي. اصطكّت مطرقة المسدس بخزنة فارغة. لا بد أن كلبة الرعي كانت في سكرات الموت، لكنها لم تُحرر ذراعه. شعر بموضع عضتها يشتعل ألماً. صرخ ستيف مجدداً، وهو يهوي على رأسها بمقبض المسدس.

صرخ ستيف: «آآآه! ابتعدي عني أيتها الحمقاء اللعينة».

رمقته كلبة الرعي بنظرةٍ مشدّودة للحظة، ثم سقطت أرضاً. انهار ستيف على مؤخرته وبدأ يركل كلب البيتبول بقدمه الحرة. زمجر الكلب وغرز أنيابه أعمق في كاحله، فامتلاً الهواء بصراخ ستيف.

ثم انقضّ الأسدان على كلب البيتبول بفارق ثانية واحدة. صرخ ستيف مجدداً -هجمات الأسود قد تفعل هذا بالإنسان- عدا أنهما لم يمّساه على الإطلاق. بل انقضا بفكيهما على العمود الفقري للكلب، أحدهما قرب الرقبة والآخر قرب الذيل، وجرشا عظامه بوحشية. والآن حان دور الكلب ليصرخ.

- نعو، أيها اللعين!

لماً أسقط الأسدان الكلب، لم يُحرّك ساكناً.

التفت الأسدان ووقفاً ينظران إليه بقامتتهما تعلو قامته وهو جالس، لا يبعده عنهما سوى بضعة إنشات. اخترقته أعينهما الصفراء. كانا يلهثان، وشعر ستيف بأنفاسهما تتردد على جروحه والعرق اللزج الذي نرّ على جبينه. فاحت أنفاسهما برائحة الدماء واللحم المتعفن. رفع ستيف مسدسه الفارغ، ثم خفضه مجدداً. هدر الأسد الكبير قليلاً وهو يهزّ ذيله. تراجع الأسد خطوة إلى الوراء، ثم رفع رأسه ونظر إلى الشارع، فتقطّب حاجباه.

وعلى مضض استدار ستيف ليحاكي مسار عينيه.

من خلفه رأى دزينة أخرى من الكلاب، عشرةً على الأقل. ومن خلف تلك الدزينة، عشرات، بل حتى مئاتٍ أخرى في الطريق إليهم. تدفقوا من الغابة على بعد كيلومتر تقريباً كسيل العرم يُغرق حقلاً من القش، متجهين إلى الطريق الرئيسي. وترددت نقرات أظفارهم على الأسفلت فأشبهت جلبة فرارٍ جماعي.

همس ستيف: «تَبًّا».

وزأر الأسد.

نهض ستيف، وتحسس ظهره مرتبِّكاً. كانت كارولين قد ثَبَّتَت الخزنتين الإضافيتين بشريطٍ لاصقٍ على ظهره، على غرار ما فعله بروس ويليس في النسخة الأصلية من فيلم «موت قاسٍ». بدت فكرة ذكية آنذاك، لكن عندما حاول ستيف انتزاع إحدى الخزنتين، عِلقت في مكانها. شدّها مجدداً، بقوة أكبر هذه المرة. فتحررت من الشريط اللاصق، لكن الخزنتين اللتين أعطتهما إياه كانتا مغطاتين بطبقة زلقة من زيت البنادق. انزلقت الخزنة من قبضته وترددت على أسفلت الطريق حتى استقرت في مكانٍ ليس ببعيدٍ عن مصباح إنارة الشارع.

صاح ستيف مجدداً: «تَبًّا!!!!!!».

- ماذا حدث؟ ماذا يجري؟

- إنها قادمة! هناك المئات منها! و... وأسقطتُ الخزنة اللعينة.

بينما يتحدث مدّ يده إلى ظهره، بحرصٍ شديد هذه المرة، ووضع يده على الخزنة الأخيرة المثبَّتة بالشريط اللاصق إلى ظهره. أحاطها بأصابعه، وبقبضةٍ قوية متأنية، جذبها محرراً إياها.

زفرت كارولين في هدوء، وقالت: «عليك أن تختبئ. اختبئ يا ستيف! اختبئ!».

- أين؟

- أي مكان! أي مكان قريب! الأبواب ليست مقفلة! اذهب!

انطلق ستيف ركضاً على ساقه العرجاء بأفضل ما يستطيع عبر الفناء نصف المشدَّب. وبينما يتحرك، أمسك الشريط اللاصق الذي ما يزال عالقاً بخزنة الرصاص بأسنانه ومزَّقه، فانفكَّ الشريط.

من خلفه تناهى إليه هدير الكلاب الراكضة، مئةً أخرى من الإمدادات تأتي لتتنضم إلى العشرات التي تقف جنبًا إلى جنبٍ على بعد عشرين مترًا منه. وحدهما الأسدان يقفان بينهم وبينه. والعجوز الذي يجزُّ العشب في فئائه يلوح له مجددًا.

صرخ ستيف: «يا وغدا!».

وضع العجوز يده على أذنه، ثم أشار إلى جازاة العشب وهزَّ رأسه. جاءه صوتُ كارولين مغمورًا بالقلق: «ستيف! ادخل! عليك أن تدخل إلى أي بيت الآن!».

مواصلًا ركضه، أخرج الخزانة الفارغة من المسدس، وتركها تسقط على العشب. «أملُ أن تفسد نصل جازاة العشب». دفع بالخزانة إلى مكانها في المسدس، وجذب الزناد، مجهزًا إياه للإطلاق. صار الآن في شرفة أحد المنازل. وضع يده على مقبض الباب، على أتم الاستعداد ليطلق الرصاص عليه إذا كان مغلقًا. «ستنفع هذه الحركة، أليس كذلك؟ إنها تنفع دومًا في الأفلام». لكن الباب انفتح بسهولة على ردةٍ عادية، مغطاة بأرضية من المشمع، وورق حائط منقوش بالورود، وحافطة مظلات مغطاة بالغبار.

- ماذا عن الأسدين؟

- اتركهما. يمكن الاستغناء عنهما. توارى بالداخل فحسب.

انزلق ستيف إلى داخل المنزل، مغلقًا الباب من خلفه: «أنا بالداخل».

- حسنًا. أنت في أمان. في أي منزل أنت؟

- مم... منزل واجهته من الطوب الأبيض؟

أوضحت كارولين: «ممتاز. ستجد طعامًا، وماءً، ومستلزمات طبية في غرفة المعيشة. ابقَ عندك، ستكون في أمان بالداخل. وسأخرجك من هناك بأسرع ما يمكنني، لكن الأمر قد يستغرق يومًا أو اثنين».

وأغلقت السماعة.

«تَبًّا».

قالت كارولين باللغة البيلابية وهي تُغلق السماعه. كان جمعٌ من كارولين وجينيفر وديفيد ومارجريت ورايتشل وبيتر يجلسون حول طاولة في مطبخ السيدة ماجيلكاتي.

أمكن البقية أن يستشفوا من نبرة صوتها أن الأمور لم تسر كما هو مخطط لها، رغم أن لا أحد منهم يفهم من الإنجليزية ما يزيد على لغو تافه. زمجر ديفيد متسائلًا: «ماذا حدث؟».

- توارى في أحد المنازل.

نهضت كارولين ومشت إلى الحائط حيث تُعلّق قاعدة الهاتف. ولمّا حطّت السماعه في موضعها، نزعت القابس. لم يلحظ أحدٌ ما فعلت؛ لم يكن أيٌّ من المكتبيين ماهرًا في التعامل مع التكنولوجيا، ولا السيدة ماجيلكاتي كذلك. ولا هي تجيد التعامل مع الهواتف، لكنها استغرقت وقتها في المطالعة عنها. وهكذا كانت جميع مقابس الهاتف في المنزل منزوعة هي الأخرى.

علّق ديفيد مفكرًا: «حسنًا. أظن أن النتيجة ما كانت لتخرج عن احتمالين. مارجريت أخبريني أيهما أسوأ؟ أن تمرّقه الكلاب إربًا، أم يلقي حتفه مختنقًا بأيدي الموتى؟».

دغدغها ديفيد، فضحكت وتلوّث على نفسها، مما أقلق استقرار سحابة صغيرة من الذباب. ثم أضاف: «أنتِ تعرفين، أليس كذلك؟». فضحكت مجددًا. صفعَت جينيفر جبتهتا بكف يدها: «آه، لا! ألم تُحذّريه؟ هل تنوين إعادته يا كارولين؟ لأن هذا سيخلق فوضى عارمة».

ثمة حقيقة مفادها أن الموتى ودودون مع الغرباء الذين يتعاملون معهم خارج منازلهم، وإن كانت تصرفاتهم غريبة الأطوار نوعًا ما. لكنها حالات نادرة تلك التي تطئ فيها أقدام أحدٍ من العالم الخارجي إلى داخل منازلهم، حينها ينقضون عليه بالأسنان والأيدي والهرافات وأدوات المطبخ وأي شيء تصل إليه أيديهم. وإذا لم يتدخل أحدٌ بسرعة، فعادةً لا يبقى من هذا الشخص الكثير.

هزّت كارولين كتفيها في غير اهتمام: «يمكن الاستغناء عنه. لو استطعنا الدخول إلى المكتبة قريباً، ربما ننقذه. فيما عدا ذلك، فليظل ميتاً أفضل له».

- إذن... خطة جديدة؟

- آه، لا أدري. أظن أن الخطة الأساسية تظل ثابتة. المشكلة هي أنه لم يتجاهل الحراس.

- ماذا فعل.

- أول شيء فعله هو أن تحدّث إلى ثاين.

أجفلت جينيفر إثر ما سمعته.

شعرت كارولين بسبّابتها توشك أن ترتعش وهي تقول: «لم يخطر لي قط أن أحذره منها». كان خوفهم منطقياً، فمعظم المكتبيين يحملون في قلوبهم رعباً شديداً من كلاب الضاحية منذ طفولتهم. حتى مايكل يميل إلى الابتعاد عنها. لكن الأمريكيين، لأسباب لا نعلمها، يميلون إلى عشق تلك المخلوقات اللعينة المغطاة بالفراء، وهذا واحدٌ من غرائبهم التي يصعب تفسيرها.

- ماذا إذن؟

أجابت كاذبة: «إذا لم يكن لدى أحدكم فكرة أفضل، فأظن أنني سأخرج وأرى إن أمكنني تجنيد أمريكي آخر. ديفيد؟ هل هذا يناسبك؟».

ربما كان ديفيد مستغرقاً في التفكير في بحر الدماء الذي أراقه في السجن، وإثر سماعه لهذا الاقتراح باركه بإيماءة مقتضبة من رأسه.

سألت جينيفر: «متى ستخرجين؟».

فكّرت كارولين قليلاً في الأمر: «الآن على ما أظن».

- ألا تريدين الانتظار قليلاً؟ سيجوز الطعام قريباً.

كانت السيدة ماجيلكاتي تتحرّك في المطبخ بنشاطٍ دؤوب.

تذمّرت كارولين: «لا! لقد أكلتُ مرتين اليوم. وربما أضطر إلى تناول وجبة خفيفة في الحانة. هل رأى أحدكم ذلك الحذاء الطويل الذي أنتعله؟ والحقيبة القماشية الزرقاء المملوءة بالأوراق الخضراء؟ سأحتاج إليها لإغراء الشخص التالي».

لملمت كارولين حاجياتها، وخرجت من المنزل إلى أشعة شمس ما بعد الظهيرة. فكّرت في قرارة نفسها: «سار الأمر على أفضل ما يرام. تمت

المهمة، وستيف الآن في مكان آمن». صحيح أن الموتى مدافعون أشداء عن أحيائهم. لا بد للحال أن يكون كذلك، إذ إن حيواتهم الخاصة لا تحتل الكثير من التدقيق. لكن هناك استثناءات، فالمكتبيون بإمكانهم الدخول والخروج كيفما يعجبهم، وكذلك الآخرون الذين بُعثوا إلى الحياة مرة أخرى. ستيف في أمان.

لكن المكتبيين الآخرين لا يعرفون هذه الحقيقة بالطبع.

4

ألقي ستيف نظرة خاطفة على دواخل المنزل، وهو ما كان خاويًا على غير المعتاد، ثم استدار إلى الباب. كانت له عينٌ سحرية تمنح رؤية بانورامية لما هو بالخارج. ورأى الأسدين على بعد خمسة أمتار من الشرفة، يتراجعان إلى الوراء في تؤدة.

لم يصعب عليه رؤية السبب. صار الشارع مكتظًا بمئة كلبٍ على الأقل من كل الأحجام والأوصاف، كلاب دوبرمان، وجاك راسل، وكلاب بطباط كبيرة وصغيرة، وكلاب رعي ألمانية، وكلاب لابرادور بألوان الشوكولاتة والأصفر والأسود، وعشرات من سلالات أخرى. تتقدم جميعها نحو الأسدين.

جال ذكر الأسد الضخم بعينه بين جمع الكلاب، وزأر بملء رئتيه. تردد الزئير في أنحاء الشارع، يهز أركان البيوت في جاريسن أوكس. نظرت اللبؤة من وراء كتفها إلى الباب، وبدت نظرتها كأنها تخترق ستيف.

ذكَرته النظرة في عينيها بشيء، لكنه عجز عن التفكير في كنهه.

راح يحدث نفسه: «تَبًّا، تَبًّا، تَبًّا! ماذا أفعل هنا؟». لقد أنقذه الأسدان. «لكن، هذه أسود لعينة تستطيع حماية نفسها». مع ذلك، فاقته الكلاب قوةً وعددًا؛ وكاد لا يعي بما يحدث والكلاب تمرّقه إربًا.

«هذا يذكرني بـ...» أطرق برأسه إلى الأرض. وجد الدماء تتقاطر منه، لكنها لا تتدفق بغزارة حسب علمه. ربما هذا فالٌ جيد. وكارولين قد أخبرته بوجود مستلزمات طبية. «مستلزمات طبية؟ هذا أمرٌ جيد لدرجة تثير الريبة. يا إلهي، كم أكرهها! أكرهها بشدة».

خلف الباب، بدأت زمجرة خافتة تتصاعد، نباح مئة من الكلاب في آن واحد. وفوق كل هذا، طنين جازاة العشب. وقفت اللبوة في طريق العجوز، مكشّرة عن أنيابها منتفشة الفراء. مرّ العجوز من جانبها، وبدأ أنه لم يلحظ أي كلاب على الإطلاق.

تراجع ذكر الأسد نصف خطوة أخرى إلى الوراء. فتقدّم ثاين خطوتين، وبقية الكلاب من خلفه مباشرة. نبح أحد كلاب الروتوايلر بصورة آلية، مرارًا وتكرارًا، وفمه يزد برغوة بيضاء. بدا الفناء أشبه ببحرٍ من الخطوم المتغضنة والأنياب المكشّرة والأعين الضارية.

«نعم، انتهى أمر الأسدين». حتى لو كان للأسدين مكان يعدوان إليه، وهو ما ليس متاحًا، فقد حاصرا نفسيهما وهما يغطيان انسحاب ستيف، لم يُخالجه شكٌ بأن بعض هذه الكلاب على الأقل تفوقهما سرعة. «وهناك الكثير من هذه الكلاب». ضرب ستيف الحائط: «تبًا، تبًا، تبًا!».

فكّر في معاودة الاتصال بكارولين، لكن لا وقت أمامه. تراجع الأسد الضخم خطوةً إلى الوراء، وزأر مجددًا. انقضّ عليه كلب الروتوايلر، فصدّه الأسد، وأطاح به بعيدًا ليسقط بين الجمع. نظرت اللبوة من وراء كتفها مرة أخرى، وسيُقسم ستيف يومًا أنه رأى في تلك العينين نظرة تأنيب. فكّر ستيف في جنون: «ألم يشاهد مقطعًا على يوتيوب منذ عامين عن أسود وبعض الرجال الإنجليز قد صاروا أصدقاء؟ آه، اللعنة على كل هذا».

فتح ستيف الباب.

نظرت إليه اللبوة. هناك شكٌ أن عقله يتلاعب به، لكنه ظنّ أن عينيها نطقتا بالامتنان. «ادخلي إلى هنا! ماذا تنتظرين؟».

حاولت أن تقفز، لكن إحدى قوائمها الخلفية لم تطاوعها. هوت ببطئها على درجات الشرفة المصنوعة من الطوب، ثم نهضت متعثرة. لم يكن ذكر الأسد مجروحًا، فانتظر ابنته حتى تدخل إلى المنزل. صارت بعض الكلاب على بعد إنشات منه، وهو يصدهم بضرباتٍ قوية من مخالبه، وقوة شخصيته، كما جال بخاطر ستيف.

- تعال!

دار الأسد وبقفتين سريعتين عبر الباب. حاول ستيف الذي كان واقفًا وراء الباب أن يصفعه بسرعة، لكن الكلاب أفضلت خطته. اثنان منهما، وكانا

من فصيلة الكلاب السلوقية، قد حشرا رأسيهما حتى الرقبة بين الباب والإطار. زمجر الكلبان وكشرا عن أنيابهما. رفس ستيف رأسيهما بساقه السليمة، وهو يتكئ بجسده على الباب. وظلَّ يرفسهما حتى غاب أحدهما عن الوعي، أو ربما لقي حتفه. ولما خفَّ ستيف الضغط عن الباب، تراجع الكلب الآخر، واستطاع حينئذ أن يغلق الباب. كان هناك الكثير من الكلاب بالخارج، لكن لأسباب لا يعرفها لم يجرؤ إلا اثنان منها على الصعود إلى الشرفة. وأخذا يُخربشان الباب بأظفار مخالبيهما دون جدوى.

تأكد بحرص شديد أن قفل الباب قد استقر في موضعه، ثم أرخى يده عن المقبض. أحكم إغلاقه، ثم أدار مزلاج الحماية على سبيل الاحتياط. والكلاب بالخارج يتعالى نباحها وتخربش الباب. استند ستيف إلى الحائط واستدار ليرى إن كان الأسدان سيأكلانه الآن.

لم يأكله. في حقيقة الأمر، تجاهلاه تمامًا. كانت اللبؤة قد انهارت على أرضية غرفة المعيشة، كتلة عضلية كبيرة متأكلة من ساقها اليسرى الخلفية. لم تنفجر الدماء من الجرح، بل راحت تنزُّ منه في تدفق مستمر. وخيطُ أحمر يمتد من الردهة إلى حيث ترقد.

فكَّر ستيف: «صحيح، المستلزمات الطبية». أبقى عيناً يقظة على الأسدين، وبحرص شديد راح يعرج إلى داخل غرفة المعيشة. في الخارج كانت الشمس ما تزال مشرقة، وفي الداخل بدا أن المنزل غارق في الحُمرة المغربية. الستائر منسدلة على كل النوافذ، والأضواء جميعها مغلقة. راح يتلمَّس طريقه عبر الحائط حتى عثر على صفٍّ من المفاتيح ونقرها جميعاً في عشوائية حتى استجاب أحدها.

أضاء مصباحٌ وحيد شاحب فوق رأسه، وإضاءته الصفراء الباهتة تزداد خفوتاً بفعل بقايا الحشرات النافقة على زجاجه.

علَّق ستيف: «ما هذا!».

كانت غرفة المعيشة مساحةً مسطحة خاوية على عروشها بحجم مرأب يتسع لسيارتين. والأثاث كله مكوم في أحد الأركان؛ تقف الأريكة منتصبه على أحد طرفيها، وظل مصباحٍ محطَّم يبرز من خزانة كتب مشققة، وأرجلُ نُضد جانبي ناتئة مثل أصابعٍ متصلة بهيكل عظمي. وظلُّ شبح الأريكة مثل بقعة نظيفة على سجادة قدرة.

شكَّلت الصور الفوتوغرافية المؤطرة واللوحات الفنية جزءًا من الكومة أيضًا، لكن جدران الغرفة ليست عارية. تناثر على معظمها لوحات بسيطة أشبهت عملًا فنيًا لطفل موهوب في الروضة. وجال بخاطر ستيف لما رآها: «لا يا ستيف. هذا ليس صحيحًا. بل تشبه نقوش الكهوف».

تشابهت اللوحات في الأسلوب الأولي الذي رُسمت به، لكنها ليست رسومًا لحيوانات. «أعني، في معظمها». رأى ستيف وحوشًا رباعية الأرجل متناثرة هنا وهناك، هي كلابٌ على الأرجح. لكن معظم نقوش الكهوف هذه كانت لأشياء حديثة، ميَّز الصندوق البني المربع لشاحنة يو بي إس، وسيارة صغيرة تحمل لافتة فوق سقفها، ورسمًا بسيطًا لرجلٍ يحمل علبة بيتزا واقف إلى جانبها. ثم شاحنة توصيل البريد. وحلقة كرة سلة. ودراجة. لكن من بين جملة الأشياء المألوفة والمتعارف عليها في الحياة الأمريكية، كان هناك أشياء أخرى لا يمكن تفسيرها؛ مثل هرم أسود، وثور أصفر ينتصب مشتعلًا بالنيران، وحبَّار غاضب يعلو ويهبط وسط أمواج خضراء.

وجد ستيف المؤونة التي ذكرتها كارولين مرتبة بعناية في الركن المقابل للأثاث: صندوقان من مياه داساني، وعلبة من شاش جونسون & جونسون المعقم، وصندوقان كبيران من اللاصقات الطبية، وكيس بلاستيكي مملوء باللحم البقري المقدد، وشيءٌ أشبه بصندوق أدوات مطبوع عليه صليب أحمر. وصندوق أبيض عادي يضم مجموعة من أشياء غير مألوفة، ملفوفة بعناية في فستان زفافٍ قديم: ثلاثة أوانٍ فخارية، وطبق كبير من الفوم المقوى به أمبولات زجاجية، وأوان صغيرة بها مسحوق. «هذه الأشياء جديدة. تبدو كأنها هنا منذ يوم أو يومين على الأكثر». توجه ستيف نحو صندوق المياه، وأزال الغطاء عن إحدى زجاجات ماء داساني، وتجرعها كلها دفعةً واحدة. ثم فتح صندوق لاصقاتٍ طبية، وأخرج واحدة ثم ألصقها على أثر عضه صغيرة في إصبعه. ثم وجد صندوقًا آخر مكتوب عليه أموكسيسيلين. فتحه، ووجد فيه دزينة من المحاقن.

- مرحبًا!

انتفض ستيف مستديرًا على عقبيه. فوجد امرأةً عجوزًا في منتصف الستينات، ترتدي تنورة وبنطالًا مطبوعين بالورود بالطبعة نفسها، يغلب عليهما اللون الأرجواني. هي نفسها كانت مוגلةً في الشحوب، وشفاتها زرقاوان بلون غربة الدم.

تابعت العجوز: «كم تسعدني رؤيتك! ألن تدخل؟ هل أخلع عنك معطفك؟».

- أوه... مرحبًا. لم أدرك أن أحدًا يسكن هنا. أنا آسف على اقتحام المنزل دون استئذان. حقًا آسف. هذه الكلاب ...

- ألن تدخل؟

- أنا لا ...

قطع ستيف حديثه، وحشَف عينيه يتأملها. تذكر تظاهر العجوز بالصمم، مشيرًا إلى جازاة العشب مرارًا وتكرارًا كأنها أول مرة. «ربما هذه زوجته؟ إنهما مناسبان لبعض تمامًا».

كررت العجوز: «ألن تدخل؟ كم تسعدني رؤيتك».

تمشَّى الأسد نحوها، وتشمَّم ريحها. نظرت العجوز إلى القط الذي يزن قرابة أربعمئة رطل وينزُّ الدم منه على أرضية ردهتها، ثم ربَّت على لبذته السميكة المغبرة، وقالت: «هل أخلع عنك معطفك؟».

نظر الأسد من وراء كتفه إلى ستيف، وأطلق زمجرة متشككة. هزَّ ستيف رأسه وقال: «إنها ترعبني يا رجل».

هزَّ القط الكبير ذيله موافقًا على كلمات ستيف، كأنما يفهمه.. ربما ليس الكلمات، لكن جوهر أفكاره ومشاعره. ولسبب أو لآخر بدا الموقف مضحكًا في نظر ستيف. ولمَّا تردد صوت ضحكته دفع المرأة لتسأل مجددًا إن كان بإمكانها أن تخلع عنه معطفه، فظلَّت قهقهته تتعالى وانهار طويلاً من فرط الضحك.

ربما بدأ يتأقلم على سريالية هذا اليوم.

الفصل الثامن

وثائق سرية

1

كانت السكرتيرة امرأةً سمراء البشرة في منتصف العمر، لها وجه بشوش وعينان جامدتان. راحت تتتبع اقتراب إروين كما يتتبع الفهد عنزة تقترب من حوض ماء. ومن خلفها، نافذة طويلة تطل على حديقة مُقلّمة. استرق إروين النظرات إلى خارج النافذة وفي عينية شجنٌ حقيقي. كان الجو صحواً مشمساً، والهواء منعشاً ليس بارداً، ربما هذا أفضل يوم مرّ عليه في فصل الخريف. وتمنى إروين وقتذاك لو خرج للتنزه في الغابة، شاقاً طريقه بين أوراق الأشجار اليابسة.

بدلاً من ذلك، صعد إلى مكتب السكرتيرة وأظهر شارة الزائر على مكتبها: «أنا إروين». أشار بإبهامه إلى الباب الناتئ من الجدار عن يمينه، وهو يقول: «جاءني اتصالٌ أنه يرغب في رؤيتي».

سألت السكرتيرة وهي تمرر إصبعها على قائمة الأسماء المطبوعة: «إروين ماذا؟».

لم ينبس إروين ببنت شفة؛ كان اسمه مكتوباً على الشارة، وهي تتصرف باستقزازٍ فحسب.

جاء صوتٌ من خلفه: «سيدتي، هذا إروين ليفنجتون. إروين ليفنجتون المعروف».

استدار إروين، فرأى رجلاً رياضيَّ المظهر في منتصف العمر مرتدياً زيَّ لواء في الجيش يجلس على الأريكة خلفه. وفي حافظة أوراق، لمح إروين عددًا من المجلدات ذات الحواف السوداء. «هم. غريب». أدرك إروين وجود مثل هذا التصنيف، لكنه لم يجتمع في غرفة واحدة من قبل مع أي من هذه الملفات.

علَّقت السكرتيرة في إحباط: «آه. فهمت. ألكَ علاقة بـ... الحالة الطارئة؟». - أظن ذلك.

زَمَّت السكرتيرة شفتيها، وراحت تراجع قائمة مختلفة أقصر من سابقتها، ثم هزَّت رأسها بإيماءة مقتضبة، وأقرَّت: «إنه بانتظارك. استرح من فضلك». أوماً إروين بدوره.

من خلفه، لملم اللواء الأوراق التي كان يطالعها ودسَّها في حافظة أوراق تتدلى من رسغه. ثم نهض وعلى وجهه ابتسامة عريضة، وسار نحو إروين لتحيته: «أنا دان ثورب». مدَّ يده لمصافحته: «إن لقاءك شرف كبير لي يا سيادة الرقيب الأول».

راح إروين، بحُكم العادة، يلقي نظرةً خاطفة على أوسمة ثورب: وسام المظلات، والسهام المتقاطعة للعمليات الخاصة، ومجموعة كاملة من شرائط الحملات. عرف إروين قائد العمليات الخاصة المشتركة الواقف أمامه مما سمعه عنه رغم أنهما لم يلتقيا قط. وبدا أنه رجلٌ نبيل مما يُقال عنه. صافحه إروين: «سعيدٌ بلقاءك يا سيدي».

استطرد ثورب: «أوصاني القائد تاناكا أن أوصل لك سلامه. أراد أن يأتي بنفسه لكنه... مشغولٌ بأمرٍ آخر. تخطيطٌ لمهمة جديدة. وأصرَّ أن أدعوك لتناول كوبٍ من الجعة حينما ينتهي كل هذا».

شعر إروين بقليلٍ من الألفة: «حقًا؟ أتعرف يو؟». كان إروين ويوشيتاكا قد أديا خدمتهما العسكرية معًا في العراق. «لم أعرف أنه يعمل معكم».

- منذ عامٍ تقريبًا. لا أدري لماذا لم تشارك في عملية الاختيار؟ أعرف أن كلينت قد دعا

قاطعته السكرتيرة: «الرئيس سيستقبلكما الآن». نهضت، وسارت نحو الباب غريب الشكل، ثم فتحته لأجلهما.

لم يكن مدخل الباب عريضاً. وإروين الذي تقاعد برتبة رئيس رقباء سرية، احترم رتبة اللواء ثورب، وسمح له بالدخول أولاً، ثم تبعه إلى داخل المكتب البيضاوي⁽¹⁾.

2

هذه هي المرة الأولى لإروين داخل الغرفة السرية. وطئت قدماه البيت الأبيض من قبل، ذات مرة حين كان جزءاً من رحلة جماعية، ومرة أخرى حين جاء بصحبة رجلين آخرين لتلقي أوسمة الخدمة المتميزة. وكاد إروين، بطبيعته التي لا تأبه بأي أوسمة، أن يفوّت على نفسه تلك الزيارة الأخيرة. في ذلك الوقت انهمك في تجديد منزله، وانتابه الفضول حول تعامل النجارين مع ألواح الأرضية وزخرفة السقف المثبتة على الجدران المنحنية للمكتب البيضاوي. لكن الزيارة كانت مخيبة للآمال، إذ انعقد الاحتفال في حديقة الزهور، وليس في المكتب البيضاوي، واتضح أن الرئيس -ليس الرئيس الحالي، بل السابق- رجلٌ أحمق. جاء إلى الاحتفال ثملاً، وقضى معظم وقته في مغازلة ابنة أخ مرشدٍ بحري. وما إن أوضحت أنها لا تحب بلادها الحب المقصود، اختفى السياسي المحنك في أمور الخمر، ناهيك بأنه أخطأ النطق باسم المرشد البحري في أثناء الاحتفال.

على أي حال، ها هو في المكتب البيضاوي نفسه الآن، بعد مرور تسعة أعوام وتوالي رئيسين. لم تكن غرفة صغيرة، لكنها ليست شاسعة جداً كما توقع. جال بخاطره حينها: «لكن... أداء النجارين في الألواح الأرضية ممتاز حقاً». قوالب القواعد الحجرية مصبوبة بدقة، وحلية الزوايا الخشبية متقنة بلا نتوءات، وموصلات شبه مخفية في التقوُّسات المزخرفة بالأعلى. جال بعينه في أنحاء الغرفة، فوجد أثاثها فاخراً كذلك. تزيّنت الأرضية

(1) المكتب البيضاوي: هو مكتب العمل الرسمي لرئيس الولايات المتحدة، وهو جزء من المكتب التنفيذي للرئيس. (المترجمة)

بسجّاد أزرق ملكي، وتبادلت على جدران الغرفة أنماطٌ خطية باللونين الذهبي والكريمي. لفت انتباهه مكتب الرئيس؛ تحفة فنية منحوتة من خشب الساج، تصوّر معركة بحرية ملحمة. فكّر إروين: «اهتمام ميمون بالتفاصيل الدقيقة. والأهم هل ما زالوا ينتجون أخشاب الساج هذه الأيام؟ ربما كان المكتب قطعة عتيقة أو تحفة فنية».

كان ثورب مستغرقاً في الحديث: «... وهذا إروين ليفنجتون. عمِل سابقاً مع الفرقة 82 مشاة، والآن هو محقق خاص لدى الأمن الداخلي».

انتبه إروين للحديث، وأمام المكتب رأى أريكتين ذهبيتين متقابلتين، وطاولة قهوة بينهما. افترش الأريكتين الرئيس وشخصيات أخرى ميّز إروين وجوهم من نشرات الأخبار. بدت وجوهم متجهّمة جعلت إروين مستاءً ليقول في قرارة نفسه: «ها قد بدأنا».

سألت امرأة تكبره سنّاً: «لماذا هو هنا؟». ورمقته بنظرة تقييمية من فوق نظارتها.

استقر مجلّد من ملفات خاصة مفتوحاً في حجرها. فعلق إروين في نفسه: «ملف آخر بحواف سوداء... يا لغيرستها». ثم قرأ المكتوب على ملصق الغلاف الخارجي «وثائق سرية».

أجاب ثورب: «لعدة أسباب يا معالي الوزيرة. أولها أن الرقيب، معذرةً، أعنى العميل الخاص ليفنجتون قد حقق تقدماً ملحوظاً وجديرًا بالثناء في هذه القضية. قبل أحداث الأمس، كان يجري تحقيقاً في قضية أخرى ذات صلة، وهي سطوً على بنك. كما أن ليفنجتون كان يستجوب الهارب في وقت هروبه من السجن. إنه الشخص الوحيد الذي رأى القائمين بتلك العملية وظلّ على قيد الحياة».

- كان رجلاً واحداً فحسب.

سألت السيدة ذات النظارات: «عفوًا؟».

أشار إروين بإبهامه نحو ثورب: «قال «القائمين على العملية». لكنه شخصٌ واحد فحسب. هذا ما رأيته على أي حال».

تساءل ثورب: «واحد فقط؟ ماذا عن الآخر الذي هرب من السجن؟». قلب سريعا الأوراق في مجلّده أسود الحواف. «ستيف... مم، هودجسون؟ الشخص الذي كنت تستجوبه؟».

أجاب إروين: «ما كنتُ لأُصرَّ على قول «هرب من السجن» بل بدا الأمر في نظري أشبه بـ «اختطف من السجن»».

- وكيف ذلك؟

هزَّ إروين كتفيه: «كان الفتى متفاجئًا تمامًا حين ظهر الرجل الذي يرتدي تنورة البالية. تفاجأنا جميعًا، وفغرت أفواهنا كأُننا بلداء». لطالما استمتع إروين بتلك العبارة الأخيرة: «كأننا بلداء» وما كان يستخدمها إلا في المناسبات الخاصة. «كما أن الرجل ذا التنورة اضطر إلى لكم هودجسون حتى يفقد الوعي ويتوقف عن التلوي في قبضته».

تدخل رجلٌ طويل القامة بشعرٍ أصهب نحاسي: «معدرة، أقلت تنورة باليه؟».

اجترَّ إروين من أعماق ذاكرته حتى وصل إلى اسمه، وردد في نفسه: «براین هامان. كبير موظفي البيت الأبيض». ثم أجاب أخيرًا: «نعم. تنورة باليه أرجوانية، وسترة واقية. على ما أظن. هذا بالإضافة إلى سكين. كما أنه كان حافي القدمين». هزَّ إروين رأسه قليلًا، وعلق: «غريب جدًا».

تساءل ثورب بنبرةٍ وثيدة: «إذن... لم يكن مسلحًا؟».

- كان سكينه كبيرًا جدًا. لكنه لم يستخدم أي مسدسات، إن كان هذا ما تقصده.

راح الرئيس يقلِّب في أوراقٍ أمامه مستفسرًا: «وكم عدد القتلى؟».

أجاب إروين، دون النظر في أي مفكرة: «سبعة وثلاثين».

- هل كانوا مسلحين؟

- نعم، الكثير منهم كان مسلحًا. لكنه لم يجدِ نفعًا. رأيتُ أحد الرجال القتلى في الفناء وقد حُشر مسدس كاليبار جلوك 40 في مؤخرته، محشورًا حتى واقية الزناد. والشيء الوحيد البارز منه هو مؤخرة خزانة الرصاص.

بُهِتت وزيرة الخارجية لدرجة أن توقفت يدها حاملةً فنجانًا خزفيًا قبل أن تصل إلى فمها، ثم أعادته إلى موضعه على الطاولة، دون أن تمسَّ القهوة، وسألت: «لكنه تركك أنت على قيد الحياة. برأيك لماذا؟».

هزَّ إروين كتفيه في غير اكتراث: «مُعجب».

- عفواً؟

- إنها قصة طويلة بعض الشيء.

لطالما حمل إروين في قلبه شيئاً من الكراهية نحو أولئك الذين يستطردون في سرد القصص الطويلة دون دعوةٍ من المستمعين. جال بناظره في أنحاء الغرفة مراقباً رؤاها، فأبدى الرئيس إيماءةً تشجيعية. ومن هنا استطرد: «حسنٌ، ركل الرجل ذو التنورة الباب واقتحم الكنيسة، وقتل الضابط الذي قاده إليها من فوره». أخرج إروين من جيب قميصه علبة نشوق كوبنهاجن، وضربها عدة مراتٍ بأصابعه لينتظم التبغ، ثم دس بعض النشوق بين شفثيه، وتابع: «ثم سأل، أينما هو ستيف». وراح إروين يُقلد صوت الرجل الضخم: «شتيبييف؟». هكذا بالضبط. ثرثر محامي هودجسون ووشي به؛ كان جباناً، فقتله الرجل الضخم بشيء يشبه كتلةً متدلية من طرف سلسلة».

أعاد إروين علبة كوبنهاجن إلى جيبه، وأضاف وهو ينظر إلى ثورب بنظرة ذات مغزى: «كان الرجل سريعاً جداً يا صديقي. لم أرَ في حياتي أحداً بهذه السرعة قط».

أوماً ثورب متفهماً. «وصلت الرسالة». وعاد إروين يستكمل سرده: «على أي حال، تنبأت أنني القادم. لذلك فكرتُ بسرعة. وسألته إن كان يعرف امرأة تُدعى كارولين. ميّز الاسم. وبهذا كدتُ أفلت من المأزق».

سألت وزيرة الخارجية: «وما الذي جعلك تفكر في فعل ذلك؟».

هزَّ إروين كتفيه: «كان كلاهما يرتدي ملابس غريبة».

سأل هامان: «ماذا تقصد بغريبة؟».

أجاب إروين: «حسنًا، الرجل يرتدي تنورة باليه». أمعن النظر في وجوههم. «وهودجسون قال إن تلك المرأة كارولين كانت ترتدي سترة صوفية وسروالاً رياضياً ضيقاً من سباندكس، في تلك الليلة التي التقاها فيها. ودفاعات للساقين أيضاً. هذا غريبٌ حقاً. لأنها ذكّرني بأن إحدى السيدتين اللتين سطتا على البنك كانت تلبس رداء حمام وقبعة راعي بقر. لم يكن بينهما رابط واضح بقدر ما ذكّرني أحدهما بالآخر. كان تشابهاً ضعيفاً، لكني تيقنتُ أنه يستعد لقتلي على أي حال ولن يضر لو حاولت إنقاذ الوضع. لذلك سألتُه إن كان يعرفها».

- وهل نجح الأمر؟

هزَّ إروين كتفه: «كاد ينجح. لكن على الأقل أبطأه لبرهة. لم يتحدث الرجل الإنجليزية، لكنني فهمتُ أنه يعرف الاسم».

- أي لغة تحدّث؟

- لا أعرف. لهجة مثيرة للضحك. لم أستطع تبينها. لكن حين قلتُ «كارولين» انتبه وأصغى إلي. ثم قال «نوبونوجا» أو شيئاً من هذا القبيل. فتظاهرتُ أنني أعرفه أيضاً.

استفسر الرئيس: «نوبوناجا؟ من أين أعرف ذلك الاسم؟».

بدا إروين مشدوهاً، ثم تدارك مفكراً: «آه، صحيح. كان متخصصاً في التاريخ». وبعدها أجاب: «أودا نوبوناجا. نعم، كان هذا تخميني الأول أيضاً». فرقع الرئيس أصابعه: «صحيح. هذا هو».

علّقت وزيرة الخارجية: «معذرةً، ولكن عمن نتحدث؟».

أوضح إروين: «أودا نوبوناجا. في القرن السادس عشر، وحّد طبقات الشوغونات في اليابان. أو بالأحرى كاد يفعل».

حدّثوا إليه جميعاً في تلك اللحظة، بالنظرة نفسها التي يرمق بها الأغبياء أحياناً حين تدهشهم. كلهم عدا الرئيس نفسه الذي ارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة. وشجّع إروين: «أكمل».

- حسناً. اكتشفتُ أنني أخطأت التخمين. لم يكن ما قاله نو-بو-نا-جا. بل قال نو-بو-نون-جا.

سأل هامان: «من هذا بحق الجحيم؟».

رفع إروين كتفيه إيضاحاً لقلة معرفته: «ليس لدي أدنى فكرة. ربما كان كلمة رمزية، أو شيئاً من هذا الخلف». وأوماً نحو مدير الاستخبارات المركزية، مضيفاً: «لا أقصد الإساءة».

هزَّ مدير الاستخبارات المركزية رأسه أن لا بأس.

- على أي حال، أفسدت الأمر. لمّا نطقت بالاسم الخطأ، اكتشف الرجل ذو التنورة أنني أحاول التلاعب به. وكان مصممًا على قتلي بذلك الرمح الذي يملكه... أو حاول، على أي حال. ثم اتضح أنه مُعجب. لا أدري أينما كان أكثر دهشة، هو أم أنا.

سألت وزيرة الخارجية: «مُعجب»؟ إذن... أنتما الاثنان تعرفان بعضكما؟
لا أفهم ما يحدث».

- لا. كل ما في الأمر أنه أحياناً ...

قاطعته ثورب بنبرة باردة: «معالي الوزيرة، الرقيب الأول ليفنجتون شخصية مشهورة داخل الأوساط العسكرية. ربما كان الوصف الأليق بمكانته هو «أسطورة حيّة». في نطنز، وجسده ينزُّ بالجروح، قام بمفرده بـ...».

قاطعته إروين: «صحيح. على أي حال، سمع الرجل بي. ووصل إلى مرحلة أن تعرّف على وجهي».

- فهمت. وأنتَ تظن أنه لهذا السبب أبقى على حياتك؟

- حسناً، ما كنتُ لأجلس في مكاني وأتركه يقتلني. لكن ما قلته صحيح. بعدما تعرّف على وجهي، كل ما فعله هو أن أمسك بالفتى هودجسون وانصرف.

- هل تبتعته؟

هزَّ إروين رأسه أسفاً: «حاولتُ ذلك. لكن هذا الرجل سريعٌ جداً». ثم وجّه نظراته إلى الرئيس وسأل: «يا رجل، أليدك سلة مهملات؟ أريد أن أبصق». وأشار إلى كرة التبغ في شفتيه.

نظر إليه ثورب بعينين متسعيتين من الدهشة، ثم كبت ابتسامته.

أجاب الرئيس: «تحت المكتب».

- شكراً لك.

دار إروين حول مكتب الرئيس، وأخرج سلة المهملات، ثم بصق سيلاً بني اللون. وضع السلة فوق المكتب، محدثاً نفسه أن ربما يحتاجها مرة أخرى بعد دقيقة. ثم قال: «هل لي أن أطرح عليك سؤالاً؟».

أدار الرئيس أصابعه في إيماة تشجيعية.

- ماذا يهمك في هذا الخراء؟

أسرع هامان معلّقاً: «حسناً، هذا يكفي من...».

رفع الرئيس يده موقفاً إياه، وأجاب: «ماذا تقصد أيها العميل ليفنجتون؟». غرق وجه هامان الآن في حُمرة قانية. وفكّر إروين: «نعم، أيها الأحمق، هذا ما تستحقه». ثم وجّه حديثه إلى الرئيس: «نادني إروين. وما أقصده

بسؤاله هو لماذا تهتم بهذا الخراء؟ أعني أن ما حدث كان مريعاً وما إلى ذلك، لكن أليست هذه المشكلات دون مستوى المسؤوليات التي تتقاضى عليها راتبك؟».

قصد إروين كل كلمة قالها بجدية. «إن مذبحةً من ثلاثين قتيلاً ليست بالأمر الجلل، كما يقول الرؤساء».

تبادل الرئيس وهامان نظرة ذات مغزى، ثم هزَّ الرئيس رأسه بإيماءة مقتضبة. حينها بدأ هامان حديثه: «سيد ليفنجتون ...».

- نادني إروين.

ازدادت الحُمرَة في وجه هامان، لكن إروين لم يأبه به.

تابع هامان مبتسماً وهو يصرُّ على أسنانه: «إروين إذن. هل لديك تصريح أمني؟».

- بالتأكيد.

كان قد حصل على تصريحٍ أمني من عمله في الأمن الداخلي. أخبرهم بالمستوى الذي حصل عليه، ولم يكن مستواه عالياً على نحو مميز.

قال الرئيس: «لا يهم، أخبره».

- سيدي، لا أظن ...

رمقه الرئيس بنظرة ذات مغزى. ثم راح هامان يوضح الأمر: «حسنًا. بالأمس، تلقى هذا المكتب مكالمة من عضوٍ في المنظمة الإرهابية. كان المتحدث امرأة».

- كارولين؟ اتصلت هنا؟

حدَّقوا جميعاً إلى إروين مرة أخرى. ثم أجاب هامان: «هذا صحيح».

قال إروين بنبرة رقيقة: «لاا، تَبَّأ. ههه. عن أي شيء أرادت أن تتكلم؟».

أوضح الرئيس: «ستيف هودجسون هو سبب اتصالها».

- لا أفهم.

أجاب الرئيس: «أرادت أن أُصدر عفواً عنه».

بدا إروين شديد الاهتمام بما يحدث الآن: «حقاً؟ أنتَ تحدثت إليها؟ بنفسك؟ أعني شخصياً؟».

ردَّ هامان: «كان لديها رموز الوصول». ثم تبادل والرئيس نظرةً أخرى ذات مغزى.

انتظر إروين، لكن لم ينطق أي منهما بالمزيد. شرد إروين مفكرًا: «إنه يخفي شيئًا. لن توصلك رموز الوصول إلا إلى حدٍّ معين. ماذا قالت هي؟ بماذا أخبرته حتى تجبر الأحمق هذا على تحويل المكالمة إلى الرئيس؟». ثم تذكر فجأة الشهود في سرقة البنك، وفكّر في أمرينا كريشنامورتى، تلك الموظفة التي لم تُخطئ خطأً واحدًا طيلة اثني عشر عامًا، وهي تلقي بالعبوات الصبغية، وأجهزة الإرسال اللاسلكية، وتنهي مسارها المهني. لكن أحدهم كان يوجّه إليه حديثًا. ورغم أن السؤال الذي طرحه على نفسه في شروده كان ذا أهمية، قرر أن يُبقيه جانبًا ليفكر فيه لاحقًا.

قال إروين: «آسف. أعد ما قلته».

لم يبدُ الرئيس منزعجًا من استغراق إروين في أفكاره. واستقر إروين على أنه يميل إلى الإعجاب بالرجل للوقت الراهن.

كرر الرئيس كلامه: «قلتُ: ما الذي جعلك تهتم بهذه المرأة في المقام الأول؟».

- نفذت عملية السطو على البنك قبل ثلاثة أو أربعة أسابيع، برفقة امرأة أخرى. وتركت بصمات أصابع وآثار أقدام في كل أنحاء المكان حيث كانت في البنك. في كل مكان حرفيًا. ثم تركت بصمة إصبع واحدة فحسب حيث وجدنا ذلك الفتى هودجسون.

سأل الرئيس: «بصمة واحدة فحسب؟».

بدا الرجل كأنه يفهم سبب غرابة الأمر، وهو ما أثار دهشة إروين مجددًا.

ثم تذكّر: «آه. صحيح. كان الرجل مدعيًا عامًّا من قبل».

أجاب إروين: «نعم. واحدة فحسب. غريب، صحيح؟ عادةً إما أن تترك الكثير من البصمات في كل مكان، وإما لا تترك أي بصمة، إن كنت تتردي قفازًا. لكن هذه المرة، لم تترك إلا بصمة واحدة. هذا أمرٌ رائع أيضًا. لقد وجدوا تلك البصمة على اللوحة فوق مفتاح الإنارة في غرفة الطعام، كأنما لفتَ إصبعها بضمادة».

علّق الرئيس: «هذا يعني أنها أرادت منّا أن نعثر على البصمة، لماذا؟».

- لا أعرف. هذا سؤال جيد بالمناسبة. هل أرادت منّا أن نربطها بهذا الفتى هودجسون؟ ربما.

- نظل نعود إلى الشخص نفسه مجددًا. من هذا؟

- ليس شخصًا ذا أهمية، حسب معلوماتي. إنه سبّاك.

راحت وزيرة الخارجية ترمقه بنظرةٍ فاحصة مهيبة تليق بملكة من فوق نظارتها: «سبّاك؟».

أجاب إروين: «نعم. (بصق في سلة مهملات الرئيس) أتعرفينهم، هؤلاء الذين يصلحون المراحيز؟ مع ذلك، بدا شخصًا عاديًا جدًّا. (ثم أضاف متفكرًا) ليس مثل هؤلاء: السيدتان اللتان سرقتا البنك أو الرجل ذو التنورة». سأل الرئيس: «هل لفت انتباهك أي شيء حيال هذا الفتى؟».

استغرق إروين في التفكير: «لم أمضِ معه وقتًا طويلًا. لكنني لا أظن أن لديه أي علم بما يحدث أكثر مما لدي. مع ذلك، بدا عليه شعور بالذنب الشديد تجاه شيء ما، لكنني لم أكتشف ما هو. أعرف أنه احتُجَز لبيع كمية صغيرة من الحشيش حين كان صبيًّا، وقضى عامين في السجن لأنه لم ينقلب على مورّده. ولم يُقبض عليه بعد ذلك، لكن أتى ذكره في الكثير من ملفات أشخاص آخرين».

- والآن؟

- سجّله نظيف هذه الأيام، هذا بقدر ما توصلت إليه. أعني فيما عدا جريمة مقتل الضابط، وهو ينكر ارتكابها.

سأل الرئيس: «هل تصدّقه؟».

أجاب إروين: «نعم. أصدّقه. أظن أنها أوقعت به».

- لماذا؟

- أظن أنها السطوة. بماذا أجبتها حين طلبت منك هذا العفو؟

لم يحر الرئيس جوابًا، وبدت عيناه كأنهما باردتان كالثلج. «أجاب مطلبها إذن». حينها أضاف إروين: «لا تهتم. هذا ليس من شأني في أي شيء. آسف».

قال الرئيس: «ربما أنتَ محق. إنها السطوة. مم. ماذا ستريد منه في المقابل؟».

- لا أعرف. لا أظن أنها تكبدت كل هذا العناء والمشكلات ليُصلح لها صنبورًا. هل يُهم؟

- ماذا تقصد؟

- أعني أنك أحضرت ثورب إلى هنا، وهو ليس محبًا للتفاوض. هل تعتزم قتلهم؟

خيّم على الجميع صمتٌ مطبق. وبعد برهة، تكلم هامان: «شكرًا جزيلاً لك إروين. هذا كل شيء».

انتظر إروين لبرهة، لكن الرئيس لم يتجاوزه هذه المرة. فقال وهو يبصق مجدداً: «نعم، بلا شك. لكنني لن أقتلهم».

والآن يُحدّق إليه هامان ووزيرة الخارجية بنظراتٍ ثاقبة. سأل الرئيس: «لِمَ لا؟».

أجاب إروين: «لأن هذا ما يريدونه تحديداً. بل هذا ما تريده هي. أيّا كانت طبيعة هذه المرأة، فهي ليست غبية. لا شك أنها عرفت أنك تتبع المكالمة، صحيح؟ ولا شك أنها أدركت أن هذا سيغضبك كثيراً، أن يتعرّض حصنك لمثل هذه الرجة».

أسرع هامان مجيباً: «هي لم تؤثر...».

- مفهوم، مفهوم. على أي حال. من وجهة نظري، أمامك خياران اثنان: إما أن تتبع الطريق الوردي الذي رسمته لك تلك المرأة كالخراف، وإما أن تتوقف لتتأمل الموقف الراهن وتفكر بعمق وتحاول أن تكتشف ما يحدث بالضبط.

جحظت عينا الرئيس لوقتٍ طويل، ثم قال: «عُلم. سأفكر في الأمر».

- جيد. هل تريد مني شيئاً آخر؟

- لا.

بدا على وجوه الجميع شعورٌ بالارتياح.

نادى ثورب: «إروين، أيمكنك انتظاري في الردهة؟ أود أن أطلعك على بعض التفاصيل الأخرى».

- نعم. بالتأكيد.

تنهَّد إروين في صمت، مفكرًا في أوراق الخريف. ثم خرج من الباب المقوَّس الغريب، مستغرقًا هنيهة لكي يمرر أصابعه على التطعيم الخشبي المتقن.

3

استمر اجتماع التآمر لساعة أخرى أو أكثر. ولغضبه الشديد راح إروين يُمتّع نفسه بمضايقة السكرتيرة. ثم انفتح الباب، وانساب من بين مصراعيه قطيع الحمقى، ومعظمهم يُحدّقون إليه.

كان ثورب آخر مَنْ غادروا المكتب. ثم سار نحو إروين بعينه متسعيتين: «أتعرف، إنهم يتحدثون عنك، أعني في الوحدة. يوشيتاكا والآخرين. سمعتُ بعض الحكايات عنك. لكن قبل اليوم، لم أصدّق حقًا...».

نادى الرئيس عبر الباب المفتوح: «إروين؟ هل لي بدقيقة من وقتك؟».

تبادل إروين وثورب نظرة. ثم علّق إروين وهو يهز كتفيه في تشكك: «لا يمكنه الأمر بقتلي. لقد حصلتُ على وسام الخدمة المتميزة».

- بل وسامان. وميدالية الشرف أيضًا.

أجاب إروين: «نعم، لكن هذه مبالغٌ فيها جدًّا». وعاد إلى المكتب البيضاوي: «نعم يا سيدي».

قال الرئيس: «أردت أن أشكرك على مساعدتك اليوم، وعلى خدمتك التي تقدمها للبلاد بالطبع». صمت قليلًا عن الكلام، ثم أردف: «لقاؤك تجربة لا تُنسى».

أجاب إروين: «نعم، وأنا أيضًا أسعدني لقاؤك». ثم لوّح بيده بلا مبالاة: «تسعدني المساعدة وما إلى ذلك». صمت إروين قليلًا، ثم أضاف: «هل تمنع إن طرحت عليك سؤالًا؟».

أولى الرئيس السؤال تفكيرًا عميقًا قبل أن يجيب: «هات ما عندك. لكن ربما ألجأ لحق الصمت المكفول بالتعديل الخامس».

لم يبتسم إروين: «أنا لم أصوِّت لك».

انتظر ردة فعل، لكنه لم يتلقَ شيئًا، فتابع: «والسبب هو أنك طيلة الوقت وأنت تتحدث على التلفاز، تبدو أحمق. وهذا أداءٌ مقنع جدًّا».

صاح ثورب من الردهة: «إروين، ربما يجدر بنا ...».

أجاب الرئيس: «هذا نتاج سنوات من الممارسة. ما هو سؤالك؟».

- أتساءل لماذا تفعل ذلك. أعني لماذا تتظاهر بأنك شخص حقير.

ارتسمت على وجه الرئيس ابتسامة عريضة: «ربما للسبب اللعين نفسه الذي تتظاهر لأجله أنت أيضاً».

تبادلا النظرات لبرهة، ثم انفجرا معاً في الضحك.. ضحك صاحب عميق.

قال إروين: «نعم. حسناً. حظاً سعيداً في نوفمبر!».

ضحكا مجدداً. ثم عاد إروين إلى ردهة السكرتيرة الحمقاء.

صاح الرئيس مجدداً: «مهلاً! إروين؟».

استدار مجيباً: «نعم؟».

- إننا نلعب الورق، يوم الثلاثاء كل أسبوعين. حين تأتي إلى المدينة، أود منك أن تنضم إلينا.

فكر إروين ملياً: «لا، لا أظن أنك تود ذلك. لأنني سأهزمك هزيمة ساحقة».

أجاب الرئيس مبتسماً: «يمكنني طباعة المزيد من المال».

- مم. نعم. ملاحظة جيدة. حسناً، سأنضم إليكم. في أي وقت؟

- عادةً نلتقي في السادسة تقريباً.

- حسناً، أراك لاحقاً.

نادى الرئيس: «فيليس؟». رفعت سكرتيرة الرئيس نظرها عن المكتب،

فتابع: «أضيفي إروين إلى قائمة يوم الثلاثاء. وإذا كنت مشغولاً، اطلبي من هارولد أن يصحبه إلى المقر».

حدّجت السكرتيرة إروين بغضب، ثم خطّت ملاحظة على مفكرة قانونية،

وهي تجيب الرئيس: «عُلم يا سيدي».

كان ثورب ينظر إلى إروين بنظرة إعجاب. وإروين يجيب: «أتطلع إلى

لقائنا يا سيدي».

وقد كان يتطلع إلى اللقاء بالفعل.

قصة جانبية ثالثة



باك

كان ستيف في الثانية عشرة من عمره تقريباً حين فقد والديه. وإلى الآن ما زال يذكر حياته مع والديه البيولوجيين جيداً. لكن حادث السيارة الذي أودى بحياتيهما، وأدخله في غيبوبة قد اختفى تماماً من ذاكرته، فقد نسي كل ما حدث بعد تناول الفطور الذي تألف من رقائق الذرة قبل ثلاثة أيام من الحادث. قيل له إن هذا وضع شائع مع حالات إصابات الدماغ الخطيرة. يذكر ستيف أنه استفاق في غرفة مستشفى ليلاً، وبمفرده. إلا أن عمته ماري جاءت بعد ساعة أو نحو ذلك، تذرف الدموع وتحترضه. كان والداه قد توفيا، وغرق ستيف نفسه في غيبوبة.

أصيب بارتجاج دماغي شديد، مما أدى إلى تورم في الدماغ، ومن ثم دخوله في غيبوبة. وإن كان هناك ضرر دائم، فلم يتمكن أحد من اكتشافه، فبخلاف نومته الطويلة التي دامت لأكثر من ستة أسابيع، وإصابته ببعض الحروق الطفيفة، لم يكن مصاباً بشيء، وكان ذلك أمراً مذهلاً نظراً إلى خطورة الحادث. بعد مرور سنوات طويلة، وخلال سنته الأخيرة في المدرسة الثانوية، عثر ستيف في الجريدة على صورة لحطام السيارة. كان هناك شاحنة كبيرة مسرعة تجاوزت إشارة التوقف على طريق جانبي، مما أدى إلى اصطدامها بالمقدمة الأمامية للسيارة الكاديلاك الخاصة بأمه، ودهست

الجزء الأمامي تمامًا. دُهِس والداه نتيجة لذلك، ودفع بستيف إلى حياة جديدة، تختلف تمامًا عن تلك التي اعتادها.

بعد إقامة إضافية في المستشفى استغرقت أسبوعين واستهلكت بوليصة تأمين حياة والده، أخذته عمته ماري إلى مقطورة السكن. ظلّ ستيف محببًا يتعثر في حزنه مع كل ذكرى: «أسناني غير نظيفة، يجب أن أفرشها كما تقول أمي، أنا جائع، هل سيطلب والدي بيتزا؟». كان الفقد ينخر في أعماقه مثل ألم الأسنان.

لم تدع العمة ماري حزنه يفسد خططها، ففي الليلة التي أحضرت فيها ستيف إلى المنزل، خرجت إلى حانة على جانب الطريق تسمى ليز ستاك وشربت حد الثمالة. وفي قرابة الساعة الثانية صباحًا، عادت إلى المنزل مع شخص يدعى كليم. كان ستيف الذي فرغ لتوه من البكاء يراقب القمر من خلال النافذة وهو يستمع إلى ماري وكليم يمارسان الحب على الجانب الآخر من الجدار البلاستيكي الرقيق.

وفي اليوم التالي، أوصل كليم ستيف إلى منزله القديم بشاحنة ماري العتيقة من ماركة دودج. كانوا مفلسين، فعلى ما يبدو أن والد ستيف، الذي كان يعمل في العقارات، قد ارتكب بعض الأخطاء. لكن سمح لهم أحد الأوصياء بدخول المنزل. استطاع ستيف الإبقاء على حاسوبه «كومودور 64» وملابسه، وصندوق مليء بالقصص المصورة. كان لديه ألعاب أخرى، لكن كان عليه أن يختار بعضًا منها لأن المساحة في منزل ماري محدودة. أراد الإبقاء على التلفاز، لكن كليم استحوذ عليه لنفسه. ثم طردهم الوصي قبل بدء المزاد.

وكما هو متوقع، أصبح ستيف صبيًا ساخطًا طيلة الوقت. كما أن عودته إلى مدرسته القديمة صارت مستحيلة، فخسر أصدقاءه الذين كان يعرفهم منذ الطفولة كما خسر والديه. كان ستيف في طور النمو، لكن الملابس تدرجت في قائمة تسوق ماري بعد الفودكا والسجائر. لاحظت معلمة الإنجليزية الطيبة ملابسه القصيرة، فصحبته إلى جمعية الخلاص، واشترت له ملابس تناسب مقاسه من أموالها الخاصة. كم كره ستيف ذلك الموقف، وبخاصة حين اكتشف الأطفال الآخرون ما حدث.

دارت بعض النكات حول ذلك الموقف لكنها لم تدم. وتحديدًا بعدما كاد ستيف أن يغرق تلميذًا في الصف الثامن بملابس أنيقة ولسان سليط في مرحاض غير نظيف. فُصل من المدرسة لمدة أسبوعين. وأراد والدا الطفل،

الذان كانا غاضبين ويصرخان، أن يسلمنا ستيف للشرطة. ثم لم يقل أحد شيئاً عن ملابسه بعد ذلك. ليس في وجهه على الأقل.

شرع في سرقة المتاجر بعد ذلك بفترة وجيزة؛ سرق الكتب، وأشرطة الكاسيت، والحلوى، وأي شيء تقع عليه يده، لكنه لم يرتكب أول عملية سطو له إلا بعد عام تقريباً من وفاة والديه. وفي عامه الأول في المدرسة الثانوية، ليلة الجمعة التي ستقام فيها مباراة كرة القدم لفريق المدرسة، انتعل ستيف حذاءه من جمعية الخلاص وركض عبر الغابات الخلفية إلى حي فاخر يبعد ثمانية أميال. في تلك الليلة، كان هناك وهجٌ خافت قادم من الشرق، بالقرب من الحي الذي عاش فيه عندما كان صغيراً.

عشوائياً اختار بيتاً مظلماً. خرج من الغابة، ثم قفز من فوق السور المحيط بحمام السباحة. حمل معه مطرقة ومفك براغ، لكنه لم يحتج إلى أيٍّ منهما. كان الباب الخلفي مفتوحاً. وحين خطا ستيف عتبة الباب، سقطت آخر أوراق حياته القديمة وهُجرت. تجول في أنحاء المنزل الفارغ بنشوة همجية كغزاة شعب الهون⁽¹⁾. كان قد أحضر معه كيس وسادة سوداء ليحمل فيه الغنائم. وراح يرفرف بين يديه وهو يتحرك، كأنما هو علمٌ لمملكته الجديدة.

راح ستيف، بطبيعته الطفولية آنذاك، يسرق كل ما انجذبت إليه عيناه. علبة من ميلي واي، وبعض ألعاب الأتاري، وأشرطة كاسيت. ثم صادف في غرفة النوم الرئيسية الشيء الذي غير مسار حياته إلى الأبد؛ صندوق مجوهرات من الخشب المطلي. تذكر ستيف كيف شهق عندما فتحه، حيث تلاً ما بداخله ككنز تنين: سلسلة من الفضة، وقرطان من الألماس، وخواتم من الذهب. ارتجفت يداه وهو يسرق تلك الأشياء، كما لو كان كاهناً مبتدئاً يصب الكأس في أول قداس له.

لاحقاً، وهو جالس وحده في غرفته في المقطورة، بسط ستيف الغنائم أمامه على سريره المتهالك وانتحب، مبتسماً وسط الدموع. وفي تلك اللحظة، لم يفتقد والديه قط.

(1) شعب الهون: مجموعة من البدو في آسيا الوسطى، اشتهروا في القرنين الرابع والخامس الميلاديين. عُرفوا بقدراتهم العسكرية العالية، وغاراتهم العنيفة على الإمبراطورية الرومانية وأوروبا الشرقية. بقيادة زعيمهم الشهير أتिला، أصبح الهون قوة مرعبة أثارت الفوضى والدمار في المناطق التي غزوها. (المترجمة)

بعد بضعة أشهر، أصبح خبيرًا بسبب دزينة من عمليات السطو، ولم يعد فقيرًا معدمًا. وبضربة حظ، وجد مكانًا لبيع المسروقات. لوي الصامت، فتى بدين ومصاب بالسكري، يستقر في أقصى زاوية مظلمة من متجر رهان في وسط المدينة، وجهه مضاء من الأسفل بشاشات التلفاز الدائرية. كان لوي يدخل سيجارًا رديئًا، واختبأ متجره خلف غمامة دائمة من الدخان. اعتاد العديد من أصحاب متاجر الرهان أن يمارسوا عملهم بصورة قانونية، أو أغلبهم على الأقل. ولوي ليس واحدًا منهم. لم تجمع لوي وستيف أي صداقة قط، لكنهما يفهمان بعضهما.

لم تذهب كل مسروقات ستيف إلى لوي، فأحيانًا كان يحتفظ ببعض الأشياء التي تروقه. لم يكن تصرفًا ذكيًا من جانبه، لكنه لم يتسبب في أي مشكلات. ومن بين تلك الأشياء التي احتفظ بها سترة جلدية مبطنة وثقيلة، وسميكة جدًا، كما أنها فاحت برائحة التبغ. فاحتفظ بها ستيف لنفسه.

بعد أسبوع، التقى جاك. كان ستيف يتبول في حمام الأولاد في المدرسة، متأخرًا عن المعتاد في ذلك الصباح. ووجد فتى آخر قد تسلل لتدخين سيجارة. جمعت ستيف وجاك معرفة بسيطة من صف اللياقة البدنية، لكن جاك كان طالبًا في السنة الثانية وغنيًا. كادت الفجوة بينهما أن تكون مثل الأخدود الكبير... عدا أن جاك، الفتى الأنيق وريث اثنين من المورمون⁽¹⁾ المتدينين، تمتع بجانب وحشي هو الآخر.

قال جاك، بصوت يعلو صوت البول المتدفق على البورسيلين: «سترة جميلة».

لم يلتفت له ستيف: «شكرًا لك».

- هل لي أن أسألك من أين حصلت عليها؟ إذا لم تمنع أسئلتني.

هزّ ستيف رأسه وأغلق سحاب سرواله، ثم أجاب: «من المتجر».

- حقًا؟ أي متجر؟

- نسيته.

(1) المورمون هم أعضاء في كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة، وهي حركة دينية تأسست في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر على يد جوزيف سميث. يشددون على أهمية الأسرة، ويؤمنون بالوحي المستمر، ويعتمدون على قيادة مركزية. (المترجمة)

شعر ستيف بدقات قلبه في حلقه وصدغيه.

- هل هو متجر «منزل عائلة ماورلي» يا ترى؟ لأنني أعرف شخصاً في كينيدي لدى والده سترة مشابهة تماماً. بالبقة نفسها على الكوع وكل تلك التفاصيل. وقبل أسبوعين سطا أحدهم على منزله وأخذ السترة.

التفت ستيف إلى جاك، ونظر إليه. ثم تلاشت ابتسامة جاك وهو يهدئ من روعه: «اهدأ يا رجل. لن أقول شيئاً. وذلك الفتى أحرق على أي حال».

- شكراً.

- اسمع، لمَ لا نلتقي بعد المدرسة؟ يمكننا الذهاب إلى المركز التجاري أو شيء من هذا القبيل. وربما ستخبرني بكل شيء عن كيفية حصولك على تلك السترة. وربما ندخل سيجارة.

ارتسمت على وجه ستيف ابتسامة حذرة: «حقاً؟».

- حقاً.

وكما تبين فيما بعد أنهما لم يدخلا سيجارة واحدة فحسب، بل سيجارتي حشيش وهما في طريقهما إلى المركز التجاري، ثم تجولا في المتاجر وهما في حالة انتشاء كأنهما ملكان. لم يعودا إلى المنزل هذه المرة وصندوق سيارة جاك مملوء بالغنائم، لكنهما فعلا ذلك في اليوم التالي، وفي كثير من الأيام اللاحقة.

كان جاك شاباً ساخراً سهل المعشر. نبع انحلاله من أسباب تختلف كلياً عن ستيف. وفهم ستيف، الذي كان بطبيعته انطوائياً، منذ فترة طويلة الأسس التي تقوم عليها شخصيته. لكنه لم يفهم جاك مطلقاً. كان والدا جاك من المتدينين الملتزمين بتعاليم الكنيسة. بدت العائلة سعيدة في الظاهر، لكن ستيف استطاع رؤيتهم من كثب. وكان شقيق جاك من نوعية الشباب الذين يشاركون في مجموعات شباب الكنيسة.

ثم مرّت أوقات ظهرت فيها قسوة جاك ومزاجه المتقلب، إذ ينفجر غضبه في أوقات غير متوقعة. رآه ستيف ذات مرة يضرب رجلاً خلف سينما لمجرد أنه أسقط الفشار، لم يسقطه على جاك نفسه، أو حتى على أحدهم، بل أسقطه على الأرض فحسب. تشاجر هو وستيف أكثر من مرة، شجاراً أسفر عن كدمات سوداء حول العين وأنوف تنزف. عادةً كان جاك هو من يبدأ

الشجار، ثم يأتي دومًا إلى منزل ستيف خجلًا، ويعتذر. لدرجة أن ستيف أصبح يجهّز سيجارة الحشيش في انتظار وصوله، ويتجاهل الاعتذار الفعلي. في غضون ستة أشهر أو نحوه، تبنته عائلة جاك جزئيًا. صار يقضي ثلاث ليالٍ كل أسبوعٍ في منزلهم، نائمًا على الأرض في غرفة جاك أو في غرفة النوم في آخر الرواق. لم يعلّق والدا جاك على مبيته، لكن ستيف شعر بأنهما يعرفان وضعه، وربما يشفقان عليه. في بادئ الأمر، لشدّ ما كره ستيف شعور الشفقة عليه، لكن مارتن وسيليا كانا لطيفين على الطراز القديم فلم يقوَ على كرههما. لقد اشترا له هدايا في عيد ميلاده، بحق الجحيم!

بحلول ذلك الوقت، كان ستيف قد قام بعشرات السرقات، وهو عدد كافٍ لتصل إلى الصحف. وقد رافقه جاك في سبع منها. وخلال عمليتي السرقة الأخيرتين، اعتقد ستيف أن سيليا ومارتن قد بدأ يشتبهان في حدوث أمرٍ ما، لكنهما لم يحققا في الأمر بجدية. وظنّ ستيف أنهما يخشيان ما قد يكتشفانه. ربما كان الشبان أكثر حكمة مما توقعنا. ففي آخر سرقة لهما، اقترح جاك أن يستخدما بنزينًا من المرأب لحرق المكان عن بكرة أبيه.

- يجب أن نحرق المكان يا رجل! لنغطي آثارنا!

رفض ستيف، وهو قائد عمليات السرقة كما جرى الاتفاق، هذا الاقتراح. وفي تلك الليلة نام في مقطورة ماري لأول مرة منذ عدة أيام. ظلّ مستيقظًا في ضوء القمر حتى بزوغ الفجر تقريبًا، يتقلب في السرير، ويتساءل عما إذا كان صديقه مجنونًا. بعد أسبوعين، تبرز جاك على سرير سيدة عجوز، ومسح مؤخرته بصورة زفافها القديمة المصفرة.

استثمر جاك بعض الأرباح من الرهونات في عمل جانبي، فكان يشتري كميات صغيرة من الماريجوانا من رجلٍ يعرفه ستيف، ويخلطها مع الزعتر، ثم يبيعها لطلاب الثانوية الآخرين. كان مصدرًا ثابتًا للدخل وإن لم يكن كافيًا. ثم قبضت الشرطة على إحدى زبائنهم، وهي طالبة في السنة الأولى من الثانوية، ومعها كيس صغير في حقيبتها. انهارت الفتاة باكية، واعترفت على الفور بمصدر المخدرات. داهمت الشرطة منزل جاك وفتشت غرفته. ثم خرج جاك معهم، وهو مكبل بالأصفاد.

سرعان ما تمت تسوية المشكلة، التي لم تكن معضلة كبيرة: بدايةً بحكمة الأحداث، ثم مسح الحادثة من السجل الجنائي، وما إلى ذلك. لكن من وجهة نظر عائلة جاك، بدا الأمر وكأنه حرب نهاية العالم.

وبطبيعة الحال، أَلقت سيليا ومارتن اللوم على ستيف. حين يفكر ستيف في الأمر الآن، يخلص إلى احتمالية وجود مبرر لذلك. لكن حينها بدا الأمر ظلمًا كبيرًا في حقه. منعنا جاك من مقابلة ستيف، ثم منعنا ستيف من دخول المنزل، ونُفي مجددًا إلى مقطورة ماري.

لا شك أنهما استمرا في الخروج معًا، ولكنهما أصبحا يتوخيان الحذر الآن. لم يعد بإمكانهما الذهاب إلى المركز التجاري، على الأقل ليس في سيارة جاك. ثم بدأ ستيف يفكر في طريقة لاقتناء سيارة خاصة، وراح يستعرض الإعلانات المبوبة ممسكًا بقلم في يده. لكن المبالغ المطلوبة مجحفة للغاية، لذلك ربما يستطيع إيجاد طريقة لسرقة سيارة. لم تكن سرقة السيارات تخصصه، لكنه أصبح ماهرًا في فتح الأقفال. كما أن تسجيل السيارة سيكون مسألة أخرى. السيارة الجيدة ستكلفه نحو 2000 دولار، أي خمسة أضعاف المبلغ الذي كان بحوزته. ذهب ستيف إلى لوي الصامت، وتحدثا بشأن التكاليف. ثم أتى لوي على ذكر الصيدليات.

بعد شهر، تسلق هو وجاك إلى سطح صيدلية مستقلة، وبحوزته منشار دائري برأس ماسي، يستخدم عادة لقطع الخرسانة. باع لهما لوي الصامت المنشار بسعر جيد، ووعد بشرائه منهم حين تنقضي حاجتهم. كان صوته صاخبًا، لكنه أنجز المهمة جيدًا. ثلاث ضربات سريعة أحدثت مثلثًا أسود في السقف. وإذا أدت تلك الضربات إلى إطلاق الإنذار، فما من إشارة على ذلك.

ربط ستيف مواضع الارتكاز في حبل قوي من النايلون بطول ثمانين قدمًا. ثم تسلقا بين الرفوف واحدًا تلو الآخر، صامتين كالأشباح. في أثناء سرقة المنازل، عادةً ما يشعل ستيف الأضواء، لأن المصابيح اليدوية المشتعلة داخل المنزل المظلمة تُحدث ظلالًا تبدو غريبة في نظر الجيران، لكن هنا في الصيدلية لم يكن لديه ذلك الخيار. لم يتيقن ستيف مما حدث فعلاً، لكنه اعتقد أن مصابيحهم اليدوية هي التي كشفت أمرهما. ربما رآها أحد الجيران؟ أو إحدى السيارات المارة؟ لا أحد يعلم.

كان تصميم المكان غير مألوف لهما، لذلك استغرقا وقتًا للعثور على الزجاجات التي كان لوي مهتمًا بها. تفرقا، وراحا يفتشان الأرفف على

التوازي. اضطرب قلب ستيف بين ضلوعه بينما كان جاك يصفر. وشيئاً فشيئاً، ثمار بحثهما قد أتت أَكُلُّها. وعثرا على زجاجات فالسيوم⁽¹⁾، وزاناكس⁽²⁾، وفيكودين⁽³⁾، وسلفات المورفين⁽⁴⁾، وأدوية السعال، وعلامات تجارية معروفة وأدوية مكافئة لها. الكثير من الجرعات، والكثير من الزجاجات. كان ستيف ما زال يستخدم كيس الوسادة السوداء، وسرعان ما امتلأ.

بعد نحو خمس عشرة دقيقة، قرر ستيف أنهما قد حصلا على ما يكفي. قد يكون لوي بخيلاً، لكنه لم يحاول خداعهما قط. سيبلغ نصيب ستيف من الغنيمة ما يزيد على ألفي دولار. وهكذا يمكنه شراء السيارة. لم يخبر جاك بذلك، فلهذا السر مغزى بعينه في قرارة نفسه. إذ مع وجود سيارة خاصة به، لن يظل معتمداً على جاك في التنقل. وهكذا يمكنهما أن يفترقا، كلٌّ في طريقه.

صعد ستيف إلى السطح أولاً، وتسلق الحبل معتمداً على كتفيه. أما جاك، الذي ظلَّ في الأسفل متخفياً بالظلمة، فقد ربط كيس الوسادة الأسود في نهاية الحبل. ثم سحب ستيف الغنائم إلى الأعلى.

انهمك ستيف في فك كيس الوسادة من الحبل حين رأى أضواء زرقاء تومض من بعيد، دون أن يصحبها صوتُ صافرات. وطوال دقيقة كاملة، ظلَّ يأمل أن يكون وجودها مجرد صدفة، لكن حين ازداد قرب الأضواء، تيقن في قرارة نفسه أن الأمر ليس صدفة.

فأبلغ جاك بصوتٍ هامس: «إنها الشرطة».

(1) Valium (Diazepam): يُستخدم لعلاج القلق، اضطرابات الهلع، والاختلاجات ويعمل على تهدئة الجهاز العصبي المركزي.

(2) Xanax (Alprazolam): يُستخدم لعلاج القلق واضطرابات الهلع ويؤثر على الناقلات العصبية في الدماغ للحد من القلق.

(3) Vicodin (Hydrocodone/Acetaminophen): يُستخدم لتخفيف الألم المتوسط إلى الشديد ويحتوي على مادة الأفيونيات (Hydrocodone) التي تخفف الألم وتسبب الشعور بالراحة.

(4) Morphine Sulfate: يُستخدم لعلاج الألم الشديد ويعتبر أحد أقوى الأدوية المسكنة للألم.

لا تصرف كل هذه الأدوية إلا تحت إشراف طبي دقيق نظراً لخطر الإدمان والآثار الجانبية المحتملة. (المترجمة)

- ماذا؟ كم يبعدون عنا؟

- ليس كثيرًا، أسرع.

- اللعنة!

مرّت دقيقة كاملة، وباك ما زال عالقًا في منتصف الحبل. فحثّه ستيف على الإسراع: «يا رجل، إنهم على بعد قطعتين سكينيتين».

نظر إليه باك، كان وجهه شاحبًا تحت ضوء القمر. بدا مستسلمًا، لكنه ليس قلقًا. حينها شعر ستيف بخوفٍ يكفي لكليهما معًا.

باك: «اذهب أنت. سألحق بك».

- حقًا؟

- حقًا.

فكر ستيف في الأمر لهنيهة، ثم رحل تاركًا الحقيبة على السطح. في السنوات اللاحقة، سيستلقي ستيف مستيقظًا في الظلام، ويتساءل عن السبب وراء ما فعله. هل تعمّد ترك الحقيبة بحوزة باك، وهو ما فعله فعلًا هه، أم حدث الأمر سهوًا؟ على أي حال، لن يتذكر أبدًا ما فكر فيه آنذاك.

كانت الأضواء الزرقاء تقترب منه، وقد صارت قريبة جدًا لدرجة أنه لم يعد أمامه سوى الهرب. تسلق جانب السطح، وتدلّى بساقيه، ثم سقط، وراح يركض متجاوزًا مصرف الأمطار الذي تسلقه مع باك. اندفع مختبئًا في الظلال خلف المركز التجاري، قبل ثانية وجزء من الثانية من دخول سيارات الشرطة إلى موقف السيارات. اختبأ خلف صندوق القمامة ريثما تنهي السيارة الأولى استكشافها للمكان. أمكن ستيف سماع الجهاز اللاسلكي عبر نافذة سيارة الشرطة المفتوحة، حين انبعثت منه تلك العبارة: «ألقي القبض على المشتبه به». فاستدار الشرطي بالسيارة، وعاد إلى الصيدلية.

هذه المرة، لم يُعرض باك على محكمة الأحداث، ورُفض طلب الإفراج المشروط قبل المحاكمة. لقد فات الأوان، ووجهت إلى باك جريمة السرقة بوصفه بالغًا. كان بإمكان باك تخفيف عقوبته لو أبلغ عن ستيف، لكنه لم يبلغ عنه. وكُلّ مارتن وسيلينا محاميًا ماهرًا للدفاع عنه، واستطاع تخفيف العقوبة إلى ثلاث سنوات، على أن يُفرج عنه بعد ثمانية عشر شهرًا لحسن السير والسلوك. لم تكن تلك بالمدة الطويلة كما هو معتاد مع مثل هذه القضايا، لكن منذ الزيارة الأولى، عرف ستيف أن الأمور لا تسير بخير. كان

السجن متوسط الحراسة، وباك فتي يافع، وسيم وأبيض البشرة. أوضح لوي الصامت أن باك سيكون الحلوى التي سيتذوقها كل من في السجن، وأوضح ما يعنيه بكلامه. وبعد ثلاثة أيام فقط، راح باك يرمقه بعينين مسكونتين بالخوف.

استطاع الصومود ثلاثة أشهر فحسب، ثم شقق نفسه بملابسه الداخلية. لم يذهب ستيف إلى الجنازة، لكنه حضر مراسم الدفن. وراح يراقب المشهد عن بعد مئة ياردة، مختبئاً خلف شجرة. لكن سيليا رآته. وبعدما دفنت ابنها الأكبر، توجهت نحو ستيف بعينين تلمعان كأنهما عينا صقر على وشك الانقضاض على فأر حقل. لم تنبس ببنت شفة. تلك المرأة التي أهدته في عيد ميلاده الخامس عشر هديته الأولى والوحيدة، لطمته على خده بقوة، ثم على خده الآخر، وفي النهاية أعلنت حكمها عليه.

- أنت... أنت... أنت أيها... الوغد الصغير.

كانت تبكي. لكن ستيف لم يحاول إيقافها، ولم يحاول التفوه بأي شيء. وهل هناك ما يقال!

مرّت الأيام والأسابيع والفصول، ووجد نفسه يكرر ذلك الصمت الطاغي رغماً عنه. ومع مرور الوقت، أيقن أن هذا الصمت تحديداً هو كل ما يمكنه النطق به الآن. كان يردد أنغام الصمت على مسامعه في الزنازين والشقق القذرة، ويتلوها كأنها ترنيمة، لتتمزّق روحه إلى أشلاء على أعتاب ألحان الصمت القاسية وقصيدته المريرة. تردد صدى الصمت في الممرات القذرة، ولحظات حياته الضائعة، تردد في الأجوبة التي ينطق بها، وتردد في كلمات كل الأغنيات.

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

الفصل التاسع

عظمة لا يمكن كسرها

1

بعد ساعةٍ أو أكثر من احتماء ستيف والأسدين في الغرفة رفقة رسومات الكهوف، رنَّ هاتف السيدة ماجيلكاتي الخلوي. كان ستيف جالسًا إلى جانب اللبوة يفحص ضماداتها. نهض متأوِّهاً، وراح يعرج قاطعًا الغرفة، ثم أجاب في الرنين الخامس. «مرحبًا؟».

- مرحبًا ستيف. أنا كارولين.

- هذه أنتِ بالتأكيد.

أخذ يفتش في المؤنة عن قطعة لحم بقري مقدد أخرى. أعدَّ اللحم منزليًا، وكان شهياً جداً. «مَن غيرك قد يتصل؟».

لاحظ ستيف أن لسانه ثقيل يدغم الكلام، ففكر: «ربما هذا بسبب المسكنات. أو ربما فقدان الكثير من الدماء».

- كيف حالك؟

أجابها بنبرة صارمة مقصودة: «آه، أنا بأفضل حال. الفضل لكِ طبعًا. وجدتُ الضمادات وكل الأشياء الأخرى. ساعدتني كثيرًا. وأظن أن النزيف قد توقف».

- حسنًا، هذا جيد.
- نعم. نعم، هذا جيد طبعًا. ومناسبٌ بشكل يدعو للشك.
- خيّم صمتٌ طويل على الجانب الآخر.
- ثم أردفت كارولين مغيرة دفة الحديث: «هناك إناء فخاري صغير به مادة فلّينية. هل رأيته؟».
- في الواقع، رأيته. ذاك الذي إلى جانب المحاقن؟ تساءلتُ عما بداخله.
- هذا هو. أعطتني إياه أختي. ما بداخله سيساعدك على تعويض الدم المفقود. (صمتت قليلًا). إذا، مم... إذا واجهتك هذه المشكلة.
- أجاب ستيف: «في الواقع، نعم. أظن أن هذا هو الحال. كيف خَمَنْتِ ذلك؟ أشعر بالدوار، ولا أظن أن السبب هو مسكنات الألم. إذن، ماذا... هل أمضغ الكريات الصغيرة في الإناء، أم...؟».
- مم... لا.
- ماذا إذن؟
- عليك، مم، إنها... هذه تحميلة شرجية.
- فهمت. إذن عليّ أن أحشرها في مؤخرتي، صحيح؟
- نعم.
- ممتع.
- ما هو الممتع؟
- هدر صوت ستيف خلال السماع: «إنني أفكر في فعل الشيء نفسه بك، أن أذيقك التجربة نفسها أيتها العاهرة المجنونة!». ومدَّ إصبعه ليضغط زر الإغلاق، لكن تبادر إلى ذهنه شيء، فقال: «سؤال سريع قبل أن أغلق المكالمة في وجهك». انتظر لوقتٍ طويل، ثم سأل: «أما زلتِ هنا؟».
- نعم.
- هل هذا الدواء فعّال مع الأسود؟
- أسود.
- نعم. الأسود. الدعم الذي أرسلته. شكرًا لك على إرسالهما بالمناسبة. إنهما رائعان. لقد وصلا في الوقت المناسب تمامًا. لكن اللبؤة مصابةٌ

جدًا، وفقدت الكثير من الدماء. وضعتُ لها بعضًا من الضمادات الضاغطة تلك، لكنها ما زالت تنزف.

- أليسا ميتين؟

أجاب ستيف، مفتخرًا بنفسه للمرة الأولى في حياته منذ زمنٍ بعيد: «لا. لقد سمحتُ لهما بالدخول».

- لكن... لقد أخبرتك ...

- نعم. ذكرتُ أنه «يمكن الاستغناء عنهما». أنا واثقٌ أن هذه كلمتك. لكن بعدما رأيتهما ينقذان حياتي، لم أشعر أن تركهما في الخارج ليلقيا حتفهما هي الـ «داو».

- الـ ماذا؟

- الـ «داو». إنها كلمة صينية. أعني أن تركهما في الخارج ليس هو الخيار الصائب.

- آه. فهمت. نطقتك ...

- ماذا؟

- لا تهتم. وردًا على سؤالك: نعم، هذا الدواء فعَّالٌ مع الأسود أيضًا.

غرق ستيف في صمتٍ طويل. فسألت كارولين: «أما زلتَ معي؟»

- ماذا؟ نعم. آسف. أحاول أن أتصور نفسي وأنا أحشر شيئًا في مؤخرة أسد. لا أظن أنني قادرٌ على ذلك بعد.

- آه. حسنًا... الأمر يعود إليك. كما أخبرتك، لقد أديا مهمتهما وفي هذه النقطة يمكن الاستغناء عنهما. لكنهما لن يؤذياك. لقد قطعنا وعدًا.

- فهمت. قطعنا وعدًا، صحيح؟ قطعنا وعدًا لك؟

أجابت كارولين: «ليس لي. بل لأخي».

- الرجل الضخم المخيف؟

- لا. أخي الآخر. مايكل. لقد تحدَّث إلى الأسدين، وطلب منهما أن يعتنيا بك.

- تحدث إلى الأسدين، ها؟

- نعم. أجرينا اتفاقًا. وقطعنا وعدًا أن يحمياك كما لو كنتَ شبلهما.

- ربما يتوددان إليكما بالكلام فحسب.

أجابت كارولين بجديّة: «لا. ربما يعيش درسدن منفياً عن بلاده، لكنه ما يزال ملكًا. وفي لغته، كلمة «وعد» لها المعنى نفسه الذي تحمله مقولة «عظمة لا يمكن كسرها». أقول لك إنه سيلتزم بكلمته».

فكّر ستيف مليًا. ولمّا أجابها، اختفت السخرية من نبرة صوته: «كما تشائين. يبدو أنّ هذه سماتهم. وصدقًا، اكتشفتُ بنفسني أنهما لن يؤذياني». صمت عن الكلام قليلًا، ثم تابع: «يحتاج الأمر إلى بعض الوقت لأفهمه وأعتاده. حين استيقظتُ من النوم هذا الصباح، كنتُ أعتقد أن الأسود مخيفة».

ربّت ستيف على لبدة درسدن، وعرض عليه بقية قطعة اللحم البقري المقدد.

تشمّم الأسد قطعة اللحم، ثم التقطها من بين يدي ستيف بحرص شديد، كاشفًا عن أنياب أسماك حجمًا من إبهام ستيف.

ثم استطرد: «مع ذلك يبدو أن لهذين الاثنين طبيعة جيدة. لقد وجهنا اليوم ضربةً قوية في وجه التحامل». ثم خطرت له خاطرة: «أخبريني، هل تعرفين اسم الأنثى؟».

لم تُجب كارولين في بادئ الأمر. ثم سمع زمجرة عميقة بدت تمامًا مثل زئير أسد. أبعد ستيف الهاتف عن رأسه، رافعًا حاجبيه في دهشة. ورفع ذكر الأسد رأسه استجابةً للصوت، وبدا مهتمًا بما يسمع. فسأل ستيف: «هل تصحبين أسدًا آخر؟».

- لا. هذا صوتي أنا. وهذا اسمها.

أجاب ستيف: «حقًا!». صمت ستيف قليلًا، ثم أضاف: «لا أظن أن باستطاعتي ترديده بنطق سليم».

- ربما لا. وإذا تحدثنا من الناحية النظرية، ولا أنا أيضًا أستطيع ذلك.

- ماذا تقصدين بـ «من الناحية النظرية»؟ أنا ...

- لا تهتم. الأمر يحتاج إلى ممارسة مستمرة. والخضوع لجراحة بسيطة. لكي تستطيع حقًا النطق به نطقًا سليمًا. لكن... يمكنك أن تتأديها ناجاساكي. أو ناجا اختصارًا. هذا ما كان يناديهما به الرجل الذي اختطفهما. ومع أنهما لا يحبان هذين الاسمين، سيميزانهما. وسيفهمان من تقصد بحديثك.

- درسدن وناجاساكي، ها؟ لطيف. هل هما متزوجان، أو ماذا تسمى تلك العلاقة بينهما؟
- لا. ناجا هي شبله.
- حجمها كبيرٌ جدًّا على أن تُسمى شبلًا.
- حسنًا، ابنته. لكنها ستزداد حجمًا. لن تبلغ الحجم الكامل للأنثى البالغة إلا بعد بضع سنوات.
- إذا استطاعت الصمود طويلًا.
- ماذا تقصد؟
- كما قلتُ لك، فقدت الكثير من الدماء. ولا أستطيع الذهاب إلى أي مكان بسبب الكلاب. هناك بضع مئاتٍ منها في الخارج على الأقل. كيف تخططين لإخراجي من هنا؟
- سنخرج سيرًا على الأقدام. لكن هذا لن يحدث قبل الغد، على أقل تقدير. أردف ستيف: «إنها -أعني ناجا- لن تصمد طويلًا. وماذا تقصدين بكلامك اللعين «سنخرج سيرًا»؟ ظننتُ أنك لا تستطيعين...».
- سنتحدث في الأمر حين أصل إليك. ربما يمكنني ...
- ألا تستطيعين تعديل جدولكِ أو فعل أي شيء؟ هذه اللبؤة... ما أقصده هو أنها أنقذت حياتي.
- لوهلةٍ استحضر ذهنه وجه جاك عبر الفتحة في سقف الصيدلية، محصورًا في ظلمةٍ لن يغادرها أبدًا. وهو يصيح به: «اذهب! سألحق بك».
- أنا آسفة يا ستيف. لا أستطيع. لكن اللبؤة ليست ذات أهمية.
- أجاب ستيف: «نعم، ربما ليست ذات أهمية في نظركِ أنتِ». أقفل المكالمة في وجهها، وصاح: «تَبًّا لك».
- عاودت كارولين الاتصال، ثم كررت الاتصال مجددًا. وفي المرة الثالثة أغلق ستيف الهاتف.

لمَّا أقفل المكالمة، كانت اللبؤة -فكَّر ستيف: «ناجا، اسمها هو ناجا»- ما تزال متشبَّهة بوعيتها، لكنها بالكاد تدرك ما حولها. ورغم الجهود الجهدية من جانبه، والصبر الجدير بالإعجاب من جانبها، ظَلَّت الدماء تنساب من أسفل الضمادة. الأهم من ذلك هو أنَّ حالتها بدأت تسوء أكثر فأكثر. وبدأ جليًّا أن وضع الضمادات الضاغطة يؤلمها، لكنها لم تعامله بخشونة، ولا حتى زمجرت في وجهه.

تذكَّر ستيف ما قالته كارولين، وفكَّر: «تحدَّثوا مع الأسود، صحيح؟». كاد يُصدِّق ما أخبرته به. ليس تمامًا، لكنه كاد يفعل.

ربما هناك موضعٌ في قلبه يُصدِّق الأمر حقًّا، لأنه حين رفع اللحم السميك لخطم ناجا لكي يفحص استجابة شعيراتها الدموية، لم يكن خائفًا على الإطلاق. ستيف ليس طبيبًا بيطريًّا، لكنه رافق الكثير من الكلاب على مدار السنين، بما فيها كلبٌ دهسته سيارة. عرف آنذاك الطريقة الوحيدة لفحص معدل فقدان الدم في الحيوانات، وهي أن تضغط بإبهامك على لثتها، وتراقب مدى سرعة عودة اللون الأحمر. لو عاد اللون سريعًا، فهذه علامة جيدة. أما إذا استغرق وقتًا، كما رأى على لثة كلبته أنجي حين دهستها السيارة، فلن يبقى أمام هذا الحيوان إلا القليل.

ظنَّ ستيف أن ناجا لم تصل إلى المرحلة التي وصلت إليها أنجي، ليس بعد، لكنها تسقط في الهاوية نفسها بسرعة.

لذلك، ومن باب التجربة، التقط واحدة من التحويلات الشرجية من الإناء الفخاري الصغير الذي تركته كارولين من أجله، وأخذها إلى دورة المياه. هناك انحنى إلى الأمام، واستخدم إصبعًا مرتعشة ليحشرها في مؤخرته. ولمَّا أدار الصنبور ليغسل يديه بعد ذلك، لم يجد ماءً. فاستعمل بضع زجاجات من ماء داساني، وراح يُرغِي قطعة صابون عاجية جافة وقديمة تجمَّع عليها الغبار في طبقٍ على طرف الحوض. وريثما أزال رائحة العفن من سبَّابته، شعر بأنه أفضل. في الحقيقة، أفضل بكثير جدًّا. حتى الثقل في لسانه وصوته قد اختفى. لكنه عطشٌ جدًّا. فتجرَّع زجاجتين أخريين من الماء ونصف زجاجة ثالثة قبل أن يتلاشى شعوره بالظمأ.

زفر تنهيدة مثقلة، ثم أزال السدادة عن الإناء الفخاري الصغير والتقط
تحميلة شرجية أخرى. وقال هامساً: «تعالى يا قطتي الصغيرة».
نظر إليه درسدن متشككاً.

تعجّل ستيف: «آسف أيها الرجل الضخم. مزحة سيئة». مشى بساقه
العرجاء قاطعاً الغرفة إلى ناجا الراقدة في بركة واسعة من دمائها. لم يرغب
في الجلوس على الدماء وتلطّيح سرواله بها، لكن إصابة كاحله وربلته لن
تمكّنه من الجلوس على ركبتيه منكفئاً. ناجا نفسها غابت عن الوعي، وشعر
ستيف بعيني الأب تحدجان فيه، صفراوين غريبتين تحت الضوء الضعيف
للمصباح المتدلي من السقف.

لماً صار مستعداً، انحنى منكفئاً إلى خصره ورفع ذيلها كاشفاً عن فتحة
شرحها. لم تُبدِ ناجا أية استجابة في بادئ الأمر، لكن ما إن وضع ستيف الكرة
البيضاء الصغيرة على اللحم المتغضن ودفعها إلى داخل فتحة الشرج، حتى
ارتعشت في نومها. تقطّب حاجبا درسدن، وأخذ خطوةً إلى الأمام، مكشراً عن
أنياه في وجه ستيف.

نهض ستيف بسرعة، ورفع راحتيه مستسلماً إلى درسدن، وهو يقول:
«أعطيتها الدواء. آسف». ثم تراجع خطوةً إلى الوراء. أما درسدن، وقد صار
مطمئناً، لم يتبعه. أردف ستيف: «سأرى إن أمكنني العثور على إناء. فإذا
نجح هذا الدواء، هناك احتمالٌ أن تستيقظ عطشى جداً».

وجد المرأة العجوز في المطبخ. أما زوجها، وقد أنهى جَزَّ العشب، يتمشّى
مع بضعة كلاب في الشرفة. بدا العجوز تائهاً، يتخبّط هنا وهناك بين الكلاب
مثل لعبة الكرة والدبابيس، ويهزُّ مقبض الباب المقفول بين فينة وأخرى.
وفي الداخل، تقف زوجته أمام حوض المطبخ تفرك أطباقاً قديمة مغبرة بلا
ماء بإسفنجة جافة متعفنة.

- مم... معذرة؟

- العشاء ليس جاهزاً بعد يا عزيزي. لمَ لا تجلس وتشاهد مباراة كرة
قدم؟

- هل لديك إناء يمكنني استخدامه. إناء كبير؟ ربما إناء خلط؟

طرفت عينيها: «لماذا... نعم. نعم، لديّ». بدت متفاجئة بقدر ما كان
ستيف، ثم أشارت إلى خزانة تحت الموقد: «هناك».

- شكرًا لك.

فتح ستيف باب الخزانة، وفتّش في أرجائها. كانت هناك كومة من الأواني من السيراميك، والستانلس ستيل، والبلاستيك، تردد صخب احتكاكها وهو يسحب إناء كبير الحجم من الكومة.

كررت المرأة: «العشاء ليس جاهزًا بعد يا عزيزي».

- سأذهب لمشاهدة المباراة.

ابتسمت المرأة وأومات. وعاد ستيف يعرج إلى غرفة المعيشة. ما أثار دهشته هو أنه وجد ناجا واقفة. راح يراقبها وهي تخطو خطوة واحدة. تطوّحت قليلاً لكنها لم تسقط. تحرّك درسدن إلى قائمتيها الخلفيتين وتشمّم مؤخرتها بنظرة متشككة تعلو وجهه.

سأل ستيف: «أتشعرين بتحسن؟». وأحس بطمأنينة حقيقية في صوته.

«رائع!».

ربما أحس الأسدان بالطمأنينة في صوته أيضًا. لأنهما أخذًا يؤرجحان ذيليهما في تناغم طريفٍ عن غير قصد. اتجه ستيف نحو كومة المؤن، وأفرغ نصف دزينة من زجاجات الماء في الإناء. فانتفخ منخارا ناجا ما إن رآته يفعل ذلك، وتقدّمت خطوة أخرى. لكن هذه المرة حين فقدت توازنها خذلتها قوائمها وسقطت.

قال ستيف: «لا تحاولي بذل مجهود كبير. سأجلب الماء لك». ووضع الإناء أمامها. قفزت ناجا نحوه في ظمأ حتى تجرّعت ما يزيد على نصفه، ثم استلقت على جانبها.

في ترددٍ لامس ستيف خطمها. لكنها انتفضت مبتعدة، مما جعله يسحب يده إلى الوراء. «يمكنك أن تسمي ما حدث مبالغة في ردة الفعل، لكن لو أن هناك وقتًا مناسبًا للوثب السريع، فهو عندما تحاول العبث في فم أسد». ثم مالت ناجا إلى الأمام ولعقت براجمه. راقب درسدن المشهد وذيله يتأرجح في رضا.

تساءل ستيف: «هل تمانعين لو...؟». وعلى سبيل التجربة لامس خطمها مجددًا في تردد. ولمّا لم تجفل مبتعدة، رفع شفتها وضغط بإبهامه على لثتها خلف القاطع الأيسر مباشرة. كرّر الاختبار مرتين، مقارنًا إياه بالاختبار نفسه الذي أجراه على ظفّره. وقدّر أنها تتحسن، لكنها لم تُشَفَ تمامًا.

دار حولها قاصداً قائمتيها الخلفيتين، وعاین الضمادة الضاغطة على فخذها. كانت الضمادة منتفخة وتقطر دمًا، مشبعة به. فكّر في تغييرها، ثم استقر على وضع ضمادة ثالثة، آخر ضمادة لديه، فوق الضمادتين الأوليين. وراح يضغط بيده على الضمادات، أملًا أن يساعد الضغط المباشر على حبس الدماء. بدا هذا أشبه بفعلٍ يأتون به في المسلسلات التلفزيونية الطبية.

3

بعد ساعة كان ما يزال ضاغطًا على الضمادة. تحسّن وضع نزيف ناجا، لكنه لم يتوقف كليًا. ولم يبقَ إلا تحميلية شرجية واحدة في الإناء الفخاري الصغير. راح يفكر ويفكر متى يستخدمها. الآن؟ أم في اللحظة الأخيرة؟ ليس لديه فكرة عن كيفية عملها، لذلك لم يستطع حتى التخمين. هل تشبه ألعاب الفيديو إذ لو تناولت جرعة الحياة مبكرًا فستفقد بعض المنافع؟ أم تشبه شحذ سكين، إذ من الأفضل أن تبذل بعض الجهد لشحذ الحافة في كل مرة تستخدمها، بدلًا من الانتظار حتى يبرد النصل قبل أن تخرج حجر الشحذ؟ لم يعرف.

لكن ما يعرفه حقًا هو أنه إذا لم يتمكن من إيقاف النزيف، فلن تصمد ناجا حتى عودة كارولين. وهمس ستيف: «لن ترغب في تفويت المشهد. من المؤكد أنه سيكون غريبًا».

وبينما ينتظر توقف النزيف، شرد عقله إلى ذكرى جاك ثانية، جاك الذي كان طيبًا معه، وهو الشرير الذي جنى عليه. راح ينظر إلى ساق ناجا المصابة، ثم خطر له أن هناك طريقة جديدة للتعبير عن الصمت الذي أثقل قلبه لوقتٍ طويل. لامس ستيف رقبة ناجا برفق، فرفعت رأسها قليلًا، ونظرت إليه.

- سأخرجك من هنا.

علقت كلماته في الصمت المغبرّ لغرفة المعيشة. والتفت درسدن مستجيبًا للصوت، بعينين ذهبيتين جادتين فوق خطمه الملطخ بالدماء. ترددت كلمات كارولين في رأسه: «ما يزال ملكًا. وفي لغته، كلمة «وعد» لها المعنى نفسه الذي تحمله مقولة «عظمة لا يمكن كسرها»». التقت عينا الأسد

عينَيّ ستيف، فقال الأخير: «نعم. سأخرجها من هنا، حتى لو كلفني ذلك حياتي».

نهض ستيف وسار إلى المطبخ. لم تعد المرأة تغسل الصحون، بل كانت واقفة أمام الحائط، تفرك الوسخ والطلاء في خطوطٍ تشكّل صورة كلب كما يتخيله إنسان الكهف. قالت: «العشاء ليس جاهزاً بعد يا عزيزي».

أجاب ستيف: «لا بأس. أحتاج إلى استعارة سيارتك». نظر حوله، على أمل أن يرى حقيبتها أو ربما وعاءً للمقتنيات الصغيرة. ثم وقعت عيناه على مشجب تتدلى منه مفاتيح احتياطية. كان لأحدها عروة جلدية تحمل شعار فورد. «وجدت المفاتيح».

لم يلقِ بالاً للبيت حين كان بالخارج، لكن ذاكرته تستحضر صورة ضبابية للمرأب على الطرف البعيد من المنزل. هناك ممرٌ يفضي إلى ذلك الاتجاه، لكنه مظلم. ثم وجد مفتاح إنارة وقلبه، فلم يغمر العتمة أي ضوء. ولذلك راح يقطع الممر غارقاً في الظلمة، مستشعراً الطريق أمامه بأصابعه.

اتضح أن أول غرفة صادفها هي غرفة نوم قد تحوّلت إلى ستوديو للرسم. أحدهم -ربما المرأة؟- قد شغلها من قبل لرسم لوحات الطبيعة الصامتة بالألوان الزيتية، كالزهور والفاكهة وخليطٌ عشوائي من المجوهرات التنكرية. بدت معظم اللوحات جيدة جداً. وهو ما جعل ستيف يسترجع خربشات الروضة المتراسة على حائط غرفة المعيشة. وشعر برعشة في أوصاله حين أغلق الباب من خلفه.

أفضى به الباب التالي إلى المرأب، وسيارة الفورد واقفة في مكانها، لكن على أربعة إطاراتٍ مسطحة تماماً. كان الغبار الذي تجمّع على غطاء المحرك كثيفاً لدرجة أنه وجد صعوبةً في معرفة لون السيارة الحقيقي. جرب ستيف المفاتيح على أي حال، وكما هو متوقع لم يصدر عن السيارة أي صوت.
- تبّاً!

ضرب ستيف على عجلة القيادة. «ماذا الآن؟». أغلق باب المرأب وعاد أدراجه إلى الإضاءة البسيطة في غرفة المعيشة. وجد درسدن واقفاً أمام ناجا، وبركة الدماء من حولها تتسع. وأنفاسها تتلاحق. أسرع ملتقياً التحميلة الشرجية الأخيرة من الإناء الفخاري الصغير فأحدثت خشخشة، وحشرها

في مؤخرتها إلى جانب التحميلة الأخرى. مسح إصبعه في السجادة وغسلها بنصف زجاجة من الماء، ثم تجرّع بقيتها.

عاد يعرج إلى الردهة المظلمة الخالية من النوافذ. ثم تنهأ إلى سمعه صوت محرّك من الخارج. «كارولين؟». انزوى إلى المطبخ ونظر من النافذة فوق الحوض. ليست كارولين، بل واحدة من سيارات الجيب الصغيرة بيضاء اللون، تلك التي تستخدمها خدمة البريد. كانت على بعد منزلين منه، والعجوز صاحب جازاة العشب لا أثر له في الأنحاء.

استلقت عشرات لا تُحصى من الكلاب في الفناء وقریباً من الشارع. وراحوا يراقبون الشاحنة تقترب. حينها تساءل ستيف عما سيفعلونه بها. ولمّا صار رجل البريد على بعد منزل واحد. وضع البريد في صندوقه، لكنه لم يواصل سيره في الاتجاه نفسه، بل ظلّ في مكانه، والمحرك يهدر. «لقد رأى الكلاب». بعد برهة، رفع رجل البريد زجاج سيارته، وتوغل إلى ممر السيارة المجاور، ثم خرج منه قاصداً الاتجاه المعاكس. وقاد السيارة خارجاً من الشارع.

- تَبّاً!

لم يخطر لستيف وجه المساعدة الممكنة التي قد يقدمها له رجل البريد، لكنه كره أن يراه يرحل.

راقبت الكلاب سيارة الجيب ترحل دون أن تتبعها. وبعدها انعطف إلى الطريق الرئيسي، بدا أنها فقدت الاهتمام بالسيارة. كما أنها بدلاً من الجلوس على العشب والتحديق إلى المنزل، بدأ بعضها يفعل ما تفعله الكلاب: التزاح فيما بينهم، أو رسم بعضهم بالعض أو أياً كان ما يفعلونه، أو حُكُّ فرائها طرداً للبراغيث. وفي خلال الدقائق الخمس عشرة التالية، ابتعد أكثر من نصفها. «هذا تقدم ملحوظ».

لكن، ليس جميعها. ثاين وبضع عشرات آخر أبقوا عيناً يقظة على الفناء. وبينما يراقبها ستيف، هرول كلبٌ ضخم -ربما روتويلر- إلى الشرفة وافترش الأرض. «اللعنة!». قصد ستيف الباب الأمامي ونظر عبر العين السحرية. في تلك الأثناء، بدأ ألم كاحله يزداد. ففكّر: «حسناً، أظن أن بإمكانك دوماً الاتصال بـ 911. ربما سيأتون ويخرجونك من هنا».

قرقع أصابعه، وأسرع يعيد تشغيل هاتف السيدة ماجيلكاتي. ولمّا حصل على إشارة جيدة، اتصل بـ 411. سأله صوتُ آلي: «أي مدينة؟». فأجاب ستيف، حريصًا على أن ينطقها بوضوح.

- أي قائمة؟

- أي خدمة سيارات أجرة.

ومن خلفه، تناهت إليه من الشرفة زمجرةٌ خشنة وخافتة. فتحرك ستيف بعيدًا عن الباب.

ردد الصوت الآلي رقم هاتف من تسعة أعداد، ثم سأل ستيف إن كان يود الاتصال بالخدمة مقابل خمسين سنتًا إضافية. فأجاب ستيف أن نعم.

رنَّ الهاتف لمرة.. مرتين.. ثلاث مرات. فكَّر ستيف: «هيا، هيا». أربع مرات.. خمس مرات. أوشك على إنهاء المكالمة ومحاولة الاتصال بخدمة مختلفة حين أجاب أحدهم المكالمة.

قال الرجل: «يوكاتان لسيارات الأجرة». تكلم الرجل بلكنة هندية، خشنة وموسيقية. ثم أضاف بلغة إسبانية: «سأتحدث باللغة الإسبانية».

سأل ستيف: «ماذا عن الإنجليزية؟».

- بالطبع.

بدا الرجل متأثرًا لأن ستيف طرح هكذا سؤال.

- رائع! أحتاج إلى سيارة أجرة. سيارة كبيرة. هل لديكم حافلة صغيرة، أو شيء كهذا؟

- لدينا اثنان، لكن هناك سائقة واحدة متوفرة في الوقت الحالي. وهي على وشك الخروج في مهمة. هل يمكنك الانتظار لساعة؟

من خلفه راح كلب الروتوايلر ينبج ويخربش الباب. ودماء ناجا تجمعت في بركة تحت قدميه.

قال ستيف، وهو يجتهد ل يبدو طبيعيًا: «أخشى أن هذا غير مناسب. اسمع، سأدفع لك ما يستحق تعبك. ما رأيك في مئة دولار؟ لن نذهب بعيدًا». ليس لديه أي أموال، لكنه يملك مسدسًا. وسيعتذر له لاحقًا. «ستأخر عن مهمتك التالية بضع دقائق فحسب، هذا كل ما في الأمر».

- آسف يا سيدي، لكنني لا أستطيع ...

- أنا في عجلة من أمري. أنا والأطفال سنلتقي أصهاري. وسيارتي لا تعمل. ستقع لي الكثير من المشكلات إذا تأخرت. اسمع، سأدفع لك خمسمئة دولار.

تساءل الرجل في ريبة: «خمسمئة دولار؟ آه، الآن فهمت. في قرיתי نسمي هؤلاء الناس أمثالك «رعاة أكوام الخراء» وهؤلاء عادةً ما يتعرضون للضرب بالعصا. مع السـ...».

قاطعته ستيف: «لا، انتظر! خمسمئة دولار، نقدًا! صدقني. وعدٌ مقدس. كما أنه مهما كانت تكاليف التوصيل، فلن تستغرق التوصيلة خمس دقائق حتى. أقسم لك».

فكّر الرجل في الأمر مليًا: «معقول. ما العنوان من فضلك؟». كان سؤالًا صعبًا. وراح ستيف يفكّر مسعورًا. تلمّس طريقه بساقه العرجاء إلى نافذة المطبخ، وأطل منها قاصدًا صندوق البريد. ثم قال: «211 جاريسن درايف. في ضاحية جاريسن أوكس. هل تعرفها؟». أجاب الرجل بصوتٍ بدا بعيدًا: «جاريسن أوكس...».

قاطعته ستيف: «نعم. ضاحية صغيرة نوعًا، على جانب الطريق السريع 78. هل تعرفه؟».

تردد الرجل: «آه، صحيح. حقيقةً لا أظن أنني ذهبتُ إلى تلك المنطقة من قبل».

- لا أستغرب ذلك.

على الجانب الآخر من الباب، أطلق الكلب نباحًا خشنًا لكنه خافت، وانضم إليه كلب آخر، ثم كلب ثالث. وسرعان ما راحت الكلاب جميعها تنبح. سأل سائق سيارة الأجرة: «ما تلك الضوضاء؟».

- لا تقلق، هذا كلبتي.

- يبدو أنه كلبٌ ضخم جدًا.

أردف ستيف: «نعم. هو كلبٌ كبير فعلاً. لكنه يعاني قلق الانفصال. ويكره أن أتركه بمفرده».

- لا يمكنك أن تحضر هذا الكلب إلى سيارتي، فهمت؟

- لا تقلق.

- حسنًا. مقابل خمسمئة دولار، سأتي بنفسي. وسأصل إليك في غضون عشر دقائق.

استطرد ستيف: «اسمع، هناك شيء آخر. صديقي، مم، سيأتي معي. وهو يعاني رهاب الخلاء...».

- ماذا؟ هل هو مريض؟ لا أريد رجلًا مريضًا في سيارتي يا سيدي.

- لا، لا. ليس مريضًا. رهاب الخلاء يعني أنه لا يحب الوجود في الخارج. حين تصل إلى هنا، اقترب بالسيارة بقدر ما تستطيع، وافتح الباب، وأطلق النفير. هل يمكنك فعل ذلك؟

خيّم صمتٌ طويل على الجانب الآخر، ثم قال الرجل: «لا أظن أنني مرتاحٌ لذلك يا سيدي».

اعتصر ستيف عينيه، وقطّب حاجبيه: «ما الذي لا ترتاح إليه؟ خمسمئة دولار تعتبر بقشيشًا جيدًا». وأجبر نفسه على التوقف عن الكلام، قابضًا على الهاتف ببراجم بيضاء.

فكّر الموزع حيال الأمر مليًا: «سأكون عندك في غضون عشر دقائق. واحرص على جلب المال معك».

- إنه منزل بواجهةٍ من الطوب الأبيض.

- أنا واثقٌ أنه منزل جميلٌ جدًا، لكن احرص على جلب المال معك.

وصلت سيارة الأجرة بعد إحدى عشرة دقيقة، حافلة صغيرة بيضاء تحمل صورة لهرم مايا في تشيتشن إيتزا على الجانب. أطلق السائق بوق السيارة، مع أنه لم يتوقف عند الباب الأمامي. فكّر ستيف: «بالطبع لم يفعل ما أخبرته به، وإلا كان الأمر سهلًا». راحت الكلاب التي تفترش الفناء تراقب كل هذا، لكنها لم تنبح، ولم تزمجر حتى.

أخذ ستيف يائسًا يفتش عن فكرة تنقذ الوضع. حتى مع وجود ستة كلاب فقط في الحديقة، ستبدو الأمتار التسعة أو أكثر التي سيقطعها كأنها ألف ميل. ما كان سيحاول الركض لو كان قادرًا فعلاً على الركض. فالركض بساق عرجاء، حاملاً أسدًا وزنه أربعمئة رطل، كل هذا يعني أن فرصته معدومة.

أطلق سائق الأجرة البوق مجددًا. فاقترب درسدن من الباب الأمامي، وتشمّم الرائحة، وزمجر. ثم نظر إلى ستيف.

- أنا أفكر، اللعنة!

مرّت ثوان، وراح يطل بعينه من نافذة المطبخ. «ربما يمكننا الخروج من المرأب. هناك مفتاح كهربائي للباب، و...».

طرق سائق الأجرة على الباب. فنظر ستيف ودرسدن إلى بعضهما. وابتسم ستيف ابتسامة عريضة: «قادم!».

- سيدي، هل يمكنك أن تسرع؟ أحتاج إلى العودة إلى مكثبي في أسرع وقت.

مشى ستيف بساقه العرجاء إلى الباب الأمامي، ونظر عبر العين السحرية. كان كلب الروتوايلر هو الوحيد في الشرفة. أما ثاين والكلاب الخمسة الأخرى فكانت واقفة في الحديقة، تراقب في حذر تحت شمس الخريف المشرقة وسمائ الزرقاء. أخرج ستيف المسدس من حافظته، ووضع يده على مقبض الباب، وبدأ العد في ذهنه. «ثلاثة.. اثنان...».

وقف وراء الباب ملطخاً بالدماء مربطاً بالضمادات. فتح الباب على مهل بيده اليمنى، وأطلق الرصاص على كلب الروتوايلر. انفجر رأس الكلب في بحر من الدماء وصياح كالرعد. ثم شدّ ستيف سائق الأجرة من قميصه. «ادخل!».

وفي الحديقة، راح ثاين ينبح في غضب.

رفع سائق الأجرة يديه بالفطرة وجثم على ركبتيه في استسلام. «لا تطلق النار!». حاول أن يتراجع إلى الخلف. فمال ستيف إلى الوراء بكل قوته، وشدّ كليهما إلى داخل الردهة. انهار كاحله وسقط على ظهره. وكاد سائق الأجرة يسقط معه، لولا أنه استعاد توازنه.

كانت الكلاب تحرس الباب. وعين ثاين الزرقاء بلون الثلج تخترقه. ولما لامست قدماه الرصيف، قفز ثاين و...

ركل ستيف الباب ليغلقه بقدمه السليمة، بأقصى ما يستطيع. فصُفِع الباب بقوة. وبعد جزء من الثانية سمعوا صوت ارتطام لحم حين اصطدم ثاين بالباب.

ظلّ ستيف راقداً على ظهره، ودار على أرضية المشمع ليتعامل مع السائق: «لا تتحرك!».

لكن الرجل لم يتحرك من الأصل. ودرسدن بوزنه المقارب لخمسمئة رطل واقفاً على بعد إنشات منه. كان سائق السيارة رجلاً هندياً قصير القامة ضئيل

البنية، وبشرته بلون الكراميل. جحظت عيناه في رعب. وحامت يداه بالقرب من وجهه في إيماءة استسلام، أو ربما دفاع عن النفس. وجسده يرتجف. حاول ستيف أن يستحضر نبرة صوت مطمئنة: «لا تقلق. هو لا يعرض». نظر سائق الأجرة إلى ستيف مستغرباً: «هذا أسد».

- نعم. نعم، هذا أسد.

- وأنتَ لديك مسدس.

- هذا صحيح أيضاً.

تكلم سائق الأجرة كأنما يحدث طفلاً أبله: «حسنًا، لماذا إذن لا تقتل الأسد؟».

ضحك ستيف: «هل تمزح؟ درسدن صديقي المخلص». ثم تبادر إلى ذهنه منصة يوتيوب والأسد كريستيان. فسأل: «ألا تشاهد مقاطع فيديو على الإنترنت؟».

- ماذا؟

- لا تهتم. أحتاج إلى مفاتيحك.

- ماذا؟

- المفاتيح. مفاتيح سيارتك. أعطها لي.

لوّح ستيف بالمسدس، فتجمّد وجه الرجل وسأل: «ماذا عن الدولارات الخمسمئة حقي؟».

أجاب ستيف: «آه، اتضح أنني كنت أكذب عليك. آسف. (فكّر ستيف ملياً) اسمع، أنا حقاً آسف. (وأشار بالمسدس نحو ناجا) إذا لم أخرجها من هنا بسرعة، فسوف... لا تهتم. هذه قصة طويلة. لكن من المفترض أن هناك حقبة رياضية مليئة بالنقود بانتظاري في مكان آخر. ما رأيك في أن أرسل إليك المال بالبريد؟ سأرفع لك السعر إلى ألف دولار».

- أظن أنك تكذب ثانيةً.

- لا، بل سأدفع لك. بأسرع ما يمكنني، أعدك بذلك. (وسيدفع له فعلاً) لكن الآن، سأحتاج إلى مفاتيح سيارتك. آسف حقاً.

- ألن تطلق النار عليّ؟

- قطعاً لا.

نظر السائق إلى درسدن بنظرة خاطفة: «ماذا عنه؟».

- سيأتي معي. كلاهما سيأتيان معي.

- آه. إذن، على أي حال ...

فتش سائق الأجرة في جيبه بحثاً عن المفاتيح ثم ناولها إلى ستيف، فرنت المفاتيح في يد ستيف مثل أجراس السماء.

- شكراً لك يا رجل. أنا آسف حقاً عن كل ما حدث. (ثم خطر له خاطر)
ألديك هاتف محمول؟

لم يُرد للرجل أن يتصل بالشرطة.

كان المفتاح قديم الطراز، مجرد مفتاح معدني بلا أزرار إغلاق أو فتح: «هل السيارة مقفلة؟».

- لا.

وجه ستيف المسدس في وجه الرجل: «من الأفضل لك ألا تكذب علي».

- ولماذا أقفلها؟ كنتُ أقصد الباب الأمامي فقط.

- آه، حسناً. (اعتصر ستيف عينيه، وفكر لبرهة) حسناً، هناك حمامٌ وراء ذلك الركن هناك. ادخل وأغلق الباب عليك. (رأى ستيف ركبتي الرجل ترتعشان حقيقةً) اسمع يا رجل... ليكن في علمك أنني آسف حقاً بشأن كل هذا. أنا في موقف صعب، و ...

- نعم، أنا واثقٌ من ذلك. من فضلك كُل خراء.

تراجع الرجل إلى الخلف خطوة واحدة حذرة. فزمجر درسدن محدراً.

عاجله ستيف: «لا، لا بأس أيها الضخم». نظر الأسد إليه حائراً. فوضع ستيف ذراعه حول كتفي الرجل الضئيل، وعانقه في عناقٍ رجالي سريع. «لا بأس. إنه صديق، أترى؟». ثم حدث سائق الأجرة: «اذهب. انصرف».

ابتعد سائق الأجرة خطوة واحدة حذرة، ثم أخرى، وعيناه لا تفارقان درسدن. ولما صار على مقربة من دورة المياه، قفز إلى الداخل وصفع الباب من خلفه. ثم سمع ستيف صوت انغلاق القفل.

كانت ناجا ما تزال واعية، عدا أنها بدت غير قادرة على الوقوف. فحص ستيف استجابة شعيراتها الدموية مرة أخرى، فكانت لا بأس بها. لكن حالتها تتدهور. استوثق من خزانة المسدس، فوجد ثمانين طلقات بالإضافة إلى واحدة

أخرى في الحجيرة. وهناك سبعة كلاب هي الباقية. عاد إلى غرفة المعيشة وجلس على الأرض إلى جانب ناجا. انسَلَّت يده من أسفلها، مختبرًا وزنها. كانت ثقيلة جدًّا؛ منّتي رطل أو أكثر، لكن ستيف ظنَّ أن بإمكانه حملها. وجَّه حديثه إلى درسدن: «حسنًا، هل أنت جاهز؟».

نظر إليه درسدن متشكِّكًا، فهزَّ ستيف المفاتيح، بالطريقة نفسها التي اتبعها مع كلبه بيتي حين كان يأخذه في نزهة بالسيارة. لوهلة اضطرب قلبه، وتساءل إن كان سيرى كلبه ثانيةً.

نظر درسدن إلى المفاتيح، والحيرة ما تزال على وجهه.

أعاد ستيف المسدس إلى حافظته. والتفت لينظر إلى عيني درسدن. ثم أخذ يلبدة الأسد الضخم في قبضته اليمنى، وربَّت على جانب ناجا بيده اليسرى: «أنا. سوف. أخرجها. هي. (وهنا ربَّت على ناجا مجددًا) من. هنا». وأشار إلى الباب الأمامي.

انبسط حاجبا درسدن، وأطلق زئيره لبرهة، فأفزع ستيف فزعًا شديدًا. ثم تمطَّى ولحق خدَّ ستيف.

فكَّر ستيف: «هذا جيد جدًّا». كان قد ثبَّت ذراعيه أسفل ناجا، فبدت حائرة وهي في حالة بين اليقظة والإغماء. حينها تمنَّى ستيف في نفسه: «آمل ألا تنسى أننا أصدقاء». ثم رفعها. تلوّت قليلًا، ثم صارت شبه واقفة وهي ترفع قائمتيها الأماميتين عن أرضية غرفة المعيشة. انحنى ستيف أسفل منها، رافعًا إياها في الوقت نفسه، وتمكَّن من حملها على كتفه اليسرى في وضعية قرفصاء كسولة على غرار طريقة رجال الإطفاء. فكَّر في نفسه: «حمْل الوزن على ساقيك، لا على ظهرك». وانفجر في ضحك هستيري. اجتهد في رفع ثقلها، مستغلًّا كل قوة لدى ساقيه، السليمة والمصابة. كان الألم مبرحًا.. قاتلًا. انبثق أمام عينيه وجه كارولين، وفكَّر: «آآه، أكره تلك الساقطة!». كانت دفعة الأدرينالين التي تفجَّرت من شعور الكراهية كفيلة برفع الأسد.

ما إن وقف على قدميه، صار حملها أسهل. أخذ خطوةً متمهِّلة. واستطاع المحافظة على توازنه، لكن بصعوبة بالغة. ثم أخذ خطوة ثانية، أقصر من سابقتها حتى كاد يقفز بساقه السليمة جازًّا ساقه المصابة وراءه. كانت طريقة المشي هذه أفضل، حتى لو لم تكن أنيقة. أما ناجا المتدلية على ظهره، فأصدرت زمجرة أسود منزعجة. فأمرها ستيف أن تخرس.

شقَّ طريقه إلى الباب بخطواتٍ صغيرة، ودرسدن يتأخمه، بعينين مثبَّتتين على الباب وعلى ما يقبع وراءه. فكَّر ستيف: «نعم، إنه يعرف. هو يفهم ما سنفعله».

كان ستيف ما يزال رازحًا تحت وطأة ثقلها، وهو يستدير وينظر من خلال العين السحرية. انتقص عدد الكلاب إلى ستة في الحديقة، من بينها ثاين. فحدّث نفسه: «مع ذلك، ستة كلاب عدد كبير. هذا الموقف سيكون سيئًا جدًّا». ثم نظر إلى درسدن، وقال: «أأنت مستعد؟».

هزَّ الأسد الضخم ذيله، ولم ينظر إلى ستيف. بدا وجهه أشبه بشيء منقوش على حجر. وازن ستيف جسم ناجا على كتفه بيده اليسرى، وهو يُخرج المسدس من حافظته ويمسكه بين أسنانه. ترسَّب على لسانه مذاق زيت البنادق، مذاق معدني وغريب. وضع يده على مقبض الباب، واعتصر عينيه، ثم فتحهما. زفر شخيرًا وهو يقول: «حان وقت العرض» دافعًا الباب بقوة.

نهض ثاين أولًا وراح ينبح. فأخذ ستيف مسدسه من فمه، وصوّبه بحرص شديد عليه، ثم أصابه مباشرةً بين عينه الزرقاء وعينه البنية.

اندفع درسدن مزمجراً. وما إن رآه أحد الكلاب حتى استدار وركض في الاتجاه الآخر. راح ستيف يقطع الشرفة بساقه العرجاء بينما يندفع درسدن إلى كلب دوبرمان ضخم وينقض عليه. بعد ثانية واحدة سمع ستيف صراخ الكلب. فهاجمت الكلاب الثلاثة الأخرى بهيئاتها الضخمة الأسد درسدن حيثما وجدت مكانًا في جسده، فأصابت كتفه وساقه الأمامية وظهره.

تمسَّك ستيف بالدرايزين المعدني وراح يعرج هابطًا درجة السلم الأولى، ثم الثانية. والآن صار على الرصيف. وعلى كتفه ناجا مضطربة. فأخذ يهددها: «على مهلك يا فتاة». وبنظرة واحدة قدَّر أن سيارة الأجرة على بعد ثلاثين قدمًا تقريبًا.

بعدما قُتل كلب الدوبرمان، وجَّه درسدن انتباهه للكلب الذي يعض ساقه الأمامية اليمنى، كلبُ رعي ألماني ضخم. رفع مخبله، كاشفًا خصر الكلبة وحاول عضّها. أخطأ في المرة الأولى، لكن في الثانية أطبق فكَّيه على الساق الخلفية للكلبة. وسمع ستيف صوت عظام تتكسَّر، وصراخ كلبة الرعي يتردد في الأنحاء.

فكّر ستيف: «مات ثلاثة! إننا ننجح!». تقدّم ببطء شديد عبر الممشى الأمامي الممهّد، متجاوزًا شجيرة ورد واحدة، ثم الثانية. وصار على بعد عشرين قدمًا من سيارة الأجرة.

كان درسدن يواجه صعوبةً في الوصول إلى الكلب الذي تعلّق بظهره. وفكّر ستيف في إطلاق النار عليه، ثم عدل عن فكرته، لأنه استنّادًا إلى سجله في التصويب، هناك احتمال أن يصيب الأسد كما يصيب الكلب. بعد برهة أعاد درسدن تحديد هدفه. مال على جانبه الأيمن وعصّ الكلب من قائمته الخلفيتين. ترك الكلب ظهر درسدن وتراجع. ولمّا رأى الكلبُ ستيف، أطلق نباحه «التنبيه».

تردد صدى نباحه - هو هو هو هو هو هو هو هو - في أرجاء الشارع. وبعد ثانية واحدة سمع ستيف مخالب تقرقع على الأسفلت. ظهرت مجموعة أولى، ثم ثانية، ثم نفير جماعي. «آه، تبًا». كان ستيف في تلك اللحظة على بعد خمسة عشر قدمًا تقريبًا من سيارة الأجرة.

انقضّ درسدن على الكلب الذي أطلق التنبيه. كان ستيف قد تجاوزهما الآن، لذا لم يستطع رؤية ما يحدث، لكن بعد خطوتين أخريين قطعهما سمع صراخًا آخر. كان زئير درسدن ينساب عبر شيءٍ مبلّل. بقيت عشرة أقدام.

خاطر ستيف باختطاف نظرةٍ من وراء كتفه. كان هناك كلبٌ ما يزال فوق درسدن، يتدلى من ظهره... لكن من خلفه، أعلى التلة، هناك عشرات - بل مئات - أخرى منها تجري وتجري لتأخذ مكان ذاك الكلب الوحيد. تساءل ستيف في غضب: «من أين يأتي كل هؤلاء؟». كان هناك الكثير منها، وحتى درسدن ما كان ليصمد أمام حشدٍ كهذا.

- هيا أيها الضخم! حان وقت الخروج من هنا!

لم يبقَ بينه وبين السيارة الأخرى إلا مسافة قدمين. ولحسن حظه وروعة قدره كان باب السيارة مفتوحًا. وبعدما فتحه ستيف، التفت إلى الورا.

اكتفى درسدن بالنظر إليه، محاطًا بجثث الكلاب. والكلب الأخير، كلب دوبرمان، معلّق من لبدته، يخرّبش ويزمجر. كل هذا والأسد لم يحرك ساكنًا.

صرخ ستيف مجددًا: «هياااا!». أخذ خطوةً أخرى، فاصطدم بسيارة الأجرة حتى كاد يفقد توازنه. كانت عضلاته ترتعش تحت وطأة ناجا وهو يزيح باب الحافلة الصغيرة إلى الخلف.

- هياااا!

نظر ستيف من وراء كتفه ليرى ما الذي يعطّل الأسد: «ماذا تفعل بحق الجحيم؟ هيا تعالال!».

نفض درسدن عن لبدته كلب الدوبرمان. وراح يراقب ستيف بنظرة انتصار وهو يضع ابنته في المقعد الخلفي، الذي أصدر أزيزًا من هبوط تنجيد الفينيل، وظلّ يراقبه وهو يزيح باب السيارة مغلقًا إياه. «هي في أمان الآن». التقت عينا درسدن الصفراوان عيني ستيف. درسدن، ذاك الملك حتى في شيخوخته، هزّ ذيله. لمرة واحدة. ثم استدار، عن قصدٍ منه، ليوافه الكلاب القادمة. برزت كل عضلة في جسمه كأنما صُقلت بالحديد والنار. وزأر من أعماقه كأنه الرعد في كبد السماء. تردد زئيره في أرجاء الشارع، فاخترق منازل الضاحية الراقية وأسيجتها المرتبة بعناية كأن قوة مفجّر ديناميتي قد أصابتها. اندفعت الكلاب نحوه كأمواج مدّ لا قرار له ولا يعترضه شيء. وبدوره انقضّ الأسد عليها.

تجمّد ستيف في مكانه لوهلة، مستشعرًا مدى ضآلته، غير قادرٍ على أن يشيح بعينه عن القوى المدمّرة أمامه. تبادرت كلمات كارولين إلى ذهنه: «سيحميك كما لو كنتَ شبله». تصادم درسدن بموجة الكلاب، كأنها قذيفة مدفعية من الفراء والدم. فكّر ستيف: «إنه يماطلها. يؤخرها من أجل ناجا... ومن أجلي». ثم متقمصًا نبرة سيليا: «لا تضيع الفرصة أيها الأحمق».

هزّ ستيف رأسه، مجبرًا نفسه على النظر بعيدًا. ثم فتح الباب واتخذ مقعده وراء عجلة القيادة.

تتكاثر الكلاب على درسدن الآن. هجم عليه واحد، ثم ثلاثة، ثم دزينة، ثم دزینتان، ومئة أخرى في الطريق إليه. شكّلوا معًا جدارًا حيًّا من العضلات والفراء. فكّر ستيف حينها: «لن تستطيع السيارة التوغل في هذا الجيش. حتى دبابة لن تستطيع التوغل وسط كل هذا». ثم صفع باب السيارة. بات درسدن الآن مدفونًا تحت هذا الجيش، محجوبًا تحت بحرٍ متلاطم من

الفراء والأسنان.. كلاب لابرادور وبطباط ودوبرمان وروتوايلر.. سوداء وصفراء وبنية. شاهد سائق الأجرة بوجهٍ شاحب كل هذا من نافذة دورة المياه. أنزل ستيف زجاج نافذة السيارة مسعوراً، ثم جذب الزناد ولملم شتات نفسه. حدد هدفه بحرص، ثم أطلق النار. سقط كلب واحد يتعالى صياحه، لكن سرعان ما أخذ مكانه ثلاثة آخرون. أطلق الرصاص مرة أخرى، أطلق الرصاص حتى نقر دبوس الأمان على حجارة فارغة. تعالى صراخه: «تبّاً! تبّاً! تبّاً! تبّاً! تبّاً! تبّاً!».

انتبه كلبٌ أو كلبان لهذا الصراخ. ونبح كلب لابرادور بني، ثم ركض إلى الحافلة الصغيرة. رفع ستيف زجاج النافذة، لكن سرعته لم تكن كافية. وتعلّق الكلب بالنافذة بمخالبه البنية ذات الفراء، وهو ينبح ويطبق بأسنانه على الزجاج، وقائمتاه الخلفيتان تخربشان الباب. لم يفصل حافة الزجاج عن إفريز الباب إلا ثلاثة إنشات تقريبًا، وهي مساحة لا تكفي كي يصل الكلب إلى ستيف، لكن وزن الكلب كان ثقيلًا لدرجة عجز معها عن رفع الزجاج. وجه ستيف إصبعه الوسطى في وجه الكلب، ثم أولج مفتاح التشغيل في موضعه. اشتغل محرّك سيارة الأجرة على الفور. عاد ستيف بالسيارة إلى الورااء خارجًا من الممر، والكلب البني ما يزال متدليًا من النافذة، يغلق عليه مجال رؤيته. استند ستيف بظهره إلى المقعد ليتحقق مما إذا وقعت معجزة وخرج درسدن من تحت كومة الكلاب.

لكنه لم يخرج.

اتجه ستيف بسيارة الأجرة إلى المخرج وكبس على دواسة البنزين. بعد بضع ثوانٍ أصرَّ إطارات السيارة عندما توقف فجأة عند البوابة، وتصادم من احتكاكها دخان. أشعل مصابيح السيارة، واستدار يمينًا إلى الطريق السريع 78، وكبس دواسة البنزين مجددًا.

وراحت لافته جاريسن أو كس تتضاءل مع سيره في مرآة الرؤية الخلفية.

كان اسم سائق الأجرة هو هارشن باتل. بعد ساعتين من اختبائه وراء ستارة الحمام في حوض استحمام أخضر مغطى بالتراب، تناهى إلى مسامعه صوت امرأة.

- ستيف؟

صاح باتل: «خذي حذرك! أظن أنهم مجانيين!».

احتضن يده اليسرى، مربوطة بلقمة من ورق مرحاض غارق في الدماء وما تبقى من قميصه.

جاءت نبذة المرأة متشككة الآن وهي تسأل: «ستيف؟».

- لا أعرف من ذاك الذي تتحدثين عنه. لكن لو أنكِ تبحثين عن الأحق الكاذب صاحب الأسدين، فقد رحل.

بدت المرأة غير مصدقة: «رحل؟».

- نعم. منذ ساعتين.

- كيف.

- سرق سيارتي للأجرة.

تشدقت المرأة: «إنه بارع في استغلال الموارد. أعترف بذلك».

قال هارشن: «عليك أن تتوخي الحذر. هناك اثنان آخران، رجل عجوز وامرأة. جاءت المرأة إليّ وقالت: «العشاء جاهز!» ثم بدأ... بدأ... يعضّانني». سمع هارشن بواذر صراخ في صوته لكن سرعان ما أحجمه. «لقد أكلنا إصبعي الخنصر. وجزءاً من إبهامي. ربما ما يزالان في الخارج. عليك...».

قالت المرأة: «لا بأس». وراحت تهزّ مقبض الباب. «هل يمكنك فتح هذا من فضلك؟».

فكّر هارشن في الأمر لبضع ثوانٍ، ثم مدّ يداً مرتعشة وفتح الباب.

كانت المرأة الواقفة في الممر ضئيلة الهيئة، ذات شعرٍ مجعدٍ وقدمين حافيتين. حملت على كتفها حقيبة رياضية زرقاء. نظرت إلى هارشن بنظرة فاحصة من أعلاه إلى أسفله، وهي تتحقق من الجروح في كتفه، ورقبته،

ومنفرج ساقيه. لاحظ أن عينيها البنيتين داكنتان قاسيتان، من الصعب مواجهتهما.

- ستعيش.

- هل تعتقدين ذلك؟

- نعم. أنت محظوظ. لا يتسنى لكثير من الناس دخول هذه الضاحية للزيارة.

أوما هارشن تعساً: «أصدقك. أتساءل... هل يمكنني المغادرة الآن؟».

فكرت كارولين في الأمر: «بالتأكيد». ثم هزّت كتفها: «سأمشي معك إلى الخارج. ما اسمك؟».

أخبرها باسمه، ثم خرجا إلى نور النهار معاً.

- سعيدة بلقائك. أنا كارولين.

- هل... هل تعيشين هنا؟

أجابت كارولين: «ليس في هذا المنزل». وأشارت بإبهامها إلى الشارع. «منزلي على بعد قطعتين سكنيتين من هنا».

نظر إليها الرجل مرتعباً: «آه!».

- اهدأ. لن أؤذيك. لقد ساعدت ستيف. (هزّت رأسها مبتسمة) إنه بارعٌ حقاً في التملّص من هذه البيتونشا، ألا تتفق معي؟

- ماذا؟

- آسفة. هذه الكلمة ليست إنجليزية. تبدأ اللغات كلها في الاختلاط في ذهني بعد فترة. المهم، أنا قلتُ «بيتونشا» وتعني «الفخاخ الصغيرة».

- آه.

بعدها سارا معاً في صمتٍ مسافة قطعاً فيها قطعة سكنية أو أكثر.

ثم استأنفت كارولين الحديث: «مع ذلك... أنت ساعدت ستيف. وينبغي لي أن أؤد لك المعروف». فكرت قليلاً. «هل لديك عائلة؟ أتعيش في المدينة؟».

- زوجتي. إسبرينزا. وصبيان. لكن لا، نحن نعيش خارج...

لوّحت بيدها مقاطعةً إياه: «أنا لا أهتم بهذا كله. حينما نصل إلى نهاية الشارع، سأرحل. وحين يحدث ذلك، احمل عائلتك في سيارتك و...».

- لا أستطيع.
- ماذا تقصد؟
- لا أستطيع حمل عائلتي في سيارتي. لقد سرقها. ولا أعرف أين هي.
- مَنْ سرقها؟ ستيف؟
- هل هو الرجل صاحب الأسد؟
- نعم.
- نعم. هو. هو ابن العاهرة الذي سرق سيارتي.
- آه. مم.
- فكّرت كارولين في الأمر ملياً، ثم ناولته الحقيبة الرياضية الزرقاء: «خذ هذه. اشترِ سيارة أخرى».
- فتح الرجل سَحَاب الحقيبة، ونظر بداخلها. «نقود».
- يا إلهي!
- صحيح. أنفق هذه الأموال بسرعة. لن يكون لها قيمة في غضون أسبوع أو اثنين. لقد خرج باري أوشيا من مخبئه. وما إن يبدأ في خططه، فسينتشر نوعٌ من.. مم.. الطاعون.
- ماذا؟ أي طاعون؟ وَمَنْ هو ...
- لا يهم. احمل زوجتك وطفليك في سيارتك. اشترِ طعاماً وماءً وأسلحة. وربما مولدًا كهربائيًا. اذهب إلى المدينة.. إلى مكانٍ به أضواء كثيرة، وإمداد جيد للطاقة. ابقَ داخل منزلك، في الطابق الأخير من بناية سكنية مرتفعة إن أمكنك هذا. ابقَ بعيدًا عن النوافذ. وإذا رأيتَ أناسًا ذوي لواصم، ابقَ بعيدًا عنهم. لا تدعهم يلمسونك.
- فغر هارشن فاه. إنها تتكلم عن أوهام وجنون، لكن صوتها هادئٌ ومتيقن. نكّره تعبير وجهها بلوحةٍ لطالما أخافته في طفولته؛ كالي المدمّرة، تبتسم بينما تموت المخلوقات الصغيرة.
- ختمت كارولين كلامها: «أوشك الظلام على الحلول، كما ترى».

الفصل العاشر

أسورات⁽¹⁾

1

بعد قرابة ثلاثة كيلومترات غربًا، تفرّع الطريق السريع 78 إلى طريق من أربع حارات يتجه إلى المدينة، التي اتضح أنها لا تزيد على بضعة مراكز تجارية تفصل بين ستيف والمزيد من الطرق المهجورة. تشير اللافتة أن حد السرعة 40 ميلًا. اختلس ستيف نظرةً إلى عداد السيارة فوجد أنه يسير على سرعة 80، وسيارة الأجرة العتيقة تهتز مثل الفرش الهزاز في نزل رخيص. توقف عند أول إشارة حمراء، ولم يكن توقفه سلسًا بالمرة.

حدّث نفسه: «هناك دماءٌ على الزجاج الأمامي. كيف وصل إلى هناك؟». رشّ سائل المسّاحات عليه، عسى أن يزيل بعضًا من دماء الكلب. لكنه زاد الطين بلة، وانتشرت بقعة الدماء أكثر. فشعر بالدوار.

(1) أسورات: هم طبقة من الكائنات تظهر في الديانات الهندية المختلفة. وقد وصفتهم الهندوسية بأنهم زُمُرٌ تبحث عن السلطة والقوة، وتربطهم صلة تضاد بالديفات (الأرباب). وعادة ما يُوصفون بالشرّيين، ولكنهم ليسوا دائمًا بهذه الصفة، إذ إنّ أصل الكلمة هو «المخلوق القوي». ولا ينفك الصراع والتضاد بينهم وبين الديفات قائمًا، إذ قد تفوق قوتهم قوة الآلهة أحيانًا. على أنهم، من جهة أخرى، قد يعملون مع الآلهة من أجل هدف مُشترك. (المترجمة).

في المقعد الخلفي، رفعت ناجا رأسها ونظرت حولها بعينين تطرفان.
سألها: «أتشعرين بتحسُّن؟». ظنَّ أن التحميلة الثانية ربما تأتي بمفعولها.
«لا تحاولي التحرُّك. لقد خرجنا. لا مزيد من الكلاب!..»
نفضت ناجا ذيلها قليلاً، ثم التفتَّ حول نفسها لتصل إلى قائمتيها
الخلفيتين وتشمَّمت الضمادات.

تنفَّس ستيف الصعداء: «حسنًا، نعم. هكذا».

حدَّث نفسه: «إلى أين تظن نفسك مصطحبًا أسدًا مجروحًا؟ حديقة
الحيوان؟».

تباطأت سيارة تويوتا سوداء لتقف إلى جانبه. ألقى ستيف نظرةً خاطفة
عليها، ووجد نفسه وجهًا لوجه مع قلابات الوحل. كان ارتفاعها عاليًا جدًّا
لدرجة أنك قد تحتاج إلى سلم لركوبها والترجُّل منها. تساءل ستيف في نفسه:
«هل يطلقون عليها اسم الشاحنة المتوحشة؟ وما هو الخط الفاصل؟
إلى أي حجم يجب أن تصل الشاحنة لتُسمى شاحنة متوحشة؟ وهل
ترتفع بمقدار عدد قليلٍ من الإنشات عن مبنى مصنع، أم يجب أن
تكون الإطارات...».

دوى بوق الشاحنة. فنظر ستيف لأعلى. وعلى ارتفاع متر تقريبًا، أشار
شابٌّ يجلس في مقعد الراكب لكي ينزل ستيف زجاج نافذته. ففعل ستيف
ما طُلب منه: «نعم؟».

كان الراكب فتى، في الثامنة عشرة أو العشرين من عمره. يعتمر قبعة
بيسبول مقلوبة.

- يا رجل. هناك، مم، نصف كلب عالق في المصد الخلفي.
- حقًّا؟

- نعم. هل دهسته؟ أعني متعمدًا؟

أجاب ستيف: «لا. بوذا يعلمنا أن نحترم كل الحيوانات». وبصوتٍ خافت
أضاف: «مع ذلك أظن أنني أطلقت الرصاص على بعضها».

- هناك دماءٌ تغطي باب سيارتك اللعين يا رجل.

أجاب ستيف: «لا. بل مصارعة كلاب». ثم تبادر شيءٌ إلى ذهنه: «اسمع،
هل يوجد عيادة طبيب بيطري بالقرب من هنا؟».

نظر الفتى إلى ستيف كما لو كان مجنوناً.

- يا رجل، ما من طبيب سيساعد ذلك الكلب. إنه مقطّع إلى نصفين يا!

- ليس لأجله. بل لأجلها.

- ماذا؟

أشار ستيف بإبهامه إلى المقعد الخلفي. فمال الفتى إلى خارج نافذته مختلساً النظر إلى الأسفل: «رباه!». ثم موجّهاً كلامه إلى السائق: «... يا فرانك، هذا الرجل لديه أسدٌ لعين في سيارته!».

مال السائق إلى الأمام: «ماذا تقووول؟ ارجع بظهرك إلى الوراء، لا أستطيع...».

حدّث ستيف نفسه: «ربما عليك أن تبذل جهداً أكبر للحفاظ على هويتك مخفية أيها الهارب».

استأنف السائق كلامه مذهولاً: «يا إلهي! أنا أعرفك! أنت ذلك الرجل الذي ظهر في نشرة أخبار فوكس!».

- لا! لستُ أنا! لكني أسمع هذا التعليق كثيراً! ههههه!

«هذه الإشارة اللعينة تستغرق وقتاً طويلاً». فكّر ستيف في تجاوزها، أملاً في التخلص من هذين الفتيين في الشاحنة. «لا. فكرة سيئة». وفي المقابل، رفع زجاج نافذته، وهو ما ساعده فعلاً لأنها كانت ملطخة بزبد الكلب، وضمّ جفنيه ناظراً من بين هدبها وتظاهر بأنه منشغلٌ بلافتة مركز التسوق على بعد ربع ميل مترٍ. وجد لافتات بي-لو، وول مارت، ومطعمٌ يسمى مسيو تاكو - «ما هذا القرف؟». ثم مستشفى بلاك باث البيطرية.

فكّر ستيف في الأمر. وقدّر احتمال أن يتصل الشابان في الشاحنة بالشرطة هو 50/50. هو بحاجة إلى الخروج من الطريق، بأسرع ما يمكن. «على الجانب الآخر، هناك ناجا». كانت تقضم ضماداتها المخبّضة بالدماء حتى صارت تتساقط منها. أتت التحميلة الشرجية بثمارها، لكن مفعولها لن يدوم.

تغيّرت الإشارة إلى اللون الأخضر.

قال ستيف: «تبّاً. البوزي الحقيقي لن يكون جباناً، لا أخلاقياً ولا فكرياً». انتظر حتى ابتعد الفتان في الشاحنة، ثم انطلق من خلفهما. وبعدما عبر

نصف قطعة سكنية استدار يسارًا إلى داخل المركز التجاري بقيادة سيئة جدًا. كانت سيارة الأجرة حافلةً صغيرة من طراز كرايسلر فويجر، رباعية الأسطوانات. بدت قوة محرّكها أقل كثيرًا من شاحنة السباكة التي يمتلكها. ثم أخطأ في تقدير المسافة بينه وبين سيارة بي إم دبليو قادمة، مما أجبر السيارة على التوقف فجأةً بصرير مزعج. تبادل ستيف وسائقه السيارة تحيَّات بإصبعي الوسطى. ورفعت ناجا رأسها مجددًا ثم زارت. أفزع زئيرها لدرجة أنه قفز فوق الرصيف، واصطدم بسيّاح نباتي، وكاد يصطدم بجانب شاحنة مملوءة بالمزارعين تخرج من ممر طلبات السيارة في ماكدونالدز.

- آآآخ!

زارت ناجا مجددًا.

- اصمتي! أنا أقود!

في مرآة الرؤية الخلفية، رمقته ناجا بنظرة مؤنّبة. فأبطأ ستيف من سرعة سيره وقطع ما تبقى من ساحة الانتظار بحذر شديد، ينظر يمينًا ويسارًا إلى التقاطعات حتى توقف أخيرًا أمام مستشفى بيطرية. قرأ لافتة أمام المبنى تقول «احصل على علاج البراغيث لقطتك!».

قال ستيف لناجا: «انتظري هنا. سأعود على الفور».

ثم حشر المسدس في حزام سرواله من الخلف، وأخفاه بقميص الحفلات الذي يرتديه. استدار حول السيارة، فرأى أن هناك بالفعل نصف كلب عالقا في أنبوب العادم. كان كل شيء غارقًا في الدماء لدرجة يصعب معها التأكد، لكنه على الأرجح كلب اللابرادور البني الذي تشبّث بناذته. «ربما حُشر تحت علبة العادم بشكلٍ أو بآخر!». وتذكر بصعوبة الحواجز على الطريق عندما خرج من جاريسن أوكس.

فكّر ستيف أن الطبيب البيطري قد لا يستسيغ المشهد، فقضى ثانية واحدة محاولاً إخفاء الجثة قليلًا، لكن الجثة مقرزة للغاية وعالقة بشدة. ولمّا ارتفعت المرارة في حلقه، استسلم ومسح يده في ظهر سرواله، وسار بساقه العرجاء إلى المكتب.

كانت غرفة الانتظار ذات أرضية مُبلّطة، تفوح برائحة تشبه طعام القطط. جلس رجلٌ ذو مظهرٍ أنيق ورابطة عنق يمسك بـكلب يوركشاير من لجامٍ

قصير. وفي قبالة جلست امرأة في منتصف العمر بهيئة الهيبيز وعلى حرجها قفص قطة.

مال ستيف إلى مكتب الاستقبال بيدين جافتين من الدماء المتخثرة، وقال لاهتاً: «أحتاج إلى رؤية أحد الأطباء. الأمر عاجل».

تعالیٰ نباح کلب یورکشائر الصغیر بھیئتہ النظیفہ، ناحیتہ.

أجابت موظفة الاستقبال وهي ترمقه بحذر: «عليك أن تملأ هذه الاستمارة. وأخشى أن هذين الاثنين قد سبقاك إلى هنا. هل حجزت موعدًا؟».

ضحك ستيف، ليس بهستيرية هذه المرة: «إنها حالة طارئة. هل لديك نقالة؟ نقالة كسرة؟».

- حالة طارئة؟

أجاب ستيف: «آه، نعم». وهزَّ رأسه لأعلى ولأسفل: «حادثة كبيرة».

قالت المرأة صاحبة القطة: «لا بأس. لستُ مستعجلة». أما الرجل صاحب كلب اليوركي فرمقها بنظرة حادة.

استطردت موظفة الاستقبال وهي تلتقط سماعة الهاتف: «امنحني ثانية. مرحبًا، جير؟ لدينا شابٌ هنا معه حالة طارئة. هل يمكنك إحضار ألي ونقّالة؟ شكرًا».

قال ستيف بإخلاص: «لا. بل شكرًا لك أنتِ، حقًا». وكاد يضيف: «وأنا آسفٌ حقًا». ثم عدل عن الفكرة رغم أنه آسفٌ بحق. وفكر أن بقية اليوم ستكون سيئةً على جميع من في الغرفة.

بعد لحظةٍ جاءت امرأتان شابتان تهرولان في زيَّهما الأخضر. وإحداهما تحمل نقالة كبيرة.

- أين هو؟ إنه كلبك، صحيح؟

- مم... إنها فى السيارة. من هذا الطريق.

تبعته المرأتان إلى الخارج. وفي ساحة انتظار السيارات، رأى الفتيتين في الشاحنة السوداء العالية قد استدارا وعادا إليه. أوقفا الشاحنة في ساحة الانتظار أمام وول مارت، وراحا يراقبان، وهدير شاحنتهما المتوحشة خافت لكنه ما زال مسموعًا. فزمر ستييف.

سألت الفنية البيطرية الأطول قامة: «ما المشكلة؟».

أجاب ستيف: «لا شيء. قدمي تؤلمني». وكانت قدمه تؤلمه حقًا. «إنها هنا». فتح الباب الجرار للحافلة الصغيرة، وتراجع خلف المرأتين. رفعت ناجا رأسها، مترنحة لكنها بدت مهتمة بما يحدث.

تفاجأت المرأة الأقصر قامة: «يا للهول!».

- هل هذا أسد؟

- هههه. نسمع هذا التعليق كثيرًا. في الحقيقة هي كلب لابرادودل. خلقنا لها شعرها فقط فأصبحت شبه الأسد. أمرٌ مضحك، صحيح؟

أمعنت المرأتان النظر في ناجا، وستيف حابس أنفاسه. قالت الفنية طويلة القامة وهي تشير إلى زميلتها الأقصر قامة: «إننا طلاب في الكلية البيطرية. أنت تفهم ذلك، صحيح؟».

أومأت أقصرهما: «نعم. ما تقوله هراء». واستدارت كلتاهما لتنظر إليه.

«ماذا تظننا، أيها الأحم... أوه!».

في تلك الأثناء رفع ستيف مسدسه الفارغ، لا يصوبه على أحدٍ بعينه: «إليكما ما سنفعله. ستحملان النقالة. وسأخرجها أنا من السيارة. لن تؤذي أحدًا. ولا أنا. لقد فقدت الكثير من الدماء. سنأخذها إلى الطبيب في الداخل، ثم يمكننا الذهاب بعد ذلك».

استوعبت الفنيّتان كلامه.

تابع ستيف: «أنا أعني ما قلته. سيكون كل شيء على ما يرام. لا أحتاج إلا بعض المساعدة، هذا كل شيء. هل ستساعدانني؟ من فضلكما؟».

«هيا.. هيا...».

فكّرت المرأتان في الأمر مليًا.

ثم اندفعت أقصرهما: «مستحيل». ونظرت إلى شريكها التماسًا للتأكيد.

كانت أطولهما تمعن النظر في ناجا: «هل قدت السيارة إلى هنا وأسدٌ يجلس في مقعدك الخلفي؟».

- نعم. صحيح تمامًا.

- كيف تعرف أنها لن تؤذي؟

- أعرف ذلك دون سبب. اسمعنا، إنها في حالة سيئة. وأكره أن أفعل بكما هذا، لكن ...

كانت أطولهما تمنع النظر فيه هو الآن، فحبس ستيف أنفاسه.
بعد برهة قالت: «ما رأيك لو حملنا الأسد وأنت أمسكت برأسه.. برأسها؟»
أجاب ستيف: «رائع! سأدخل إلى السيارة الآن».
أجابت أقصرهما بنبرة مبالغة في الإخلاص: «حسنًا يا سيد».

- حاولا الهرب وسأطلق النار على رضفتيكما. (وراح يؤرجح المسدس الفارغ) إنني أعني ما أقوله. أنا قنّاص ماهر. وحصلت على الميدالية الفضية في أولمبياد 92. إصابتي لن تقتلكما، لكنها ستؤلمكما ما تبقى من حياتكما.

رغم إحباطها الشديد رسمت أقصرهما على شفتيها ابتسامة مصطنعة:
«ما كنت لأفعل هذا». **مُحْكَبَتِي يَا سَمِينَح**
صعد ستيف إلى السيارة: «سأبعد المسدس الآن». وخبّاه بعيدًا. «اسمعا، لن ترياه مجددًا ما لم تحاولا الهرب».
قالت أطولهما: «ممتاز».

- حسنًا، جهّزا النقالة.
نظرت الفئيتان إلى الأسد، ثم إلى بعضهما. ثم قالت أطولهما: «حسنًا. نعم». فحصدت بعينيها ستيف: «أمسكت برأسها، صحيح؟».
- أمسكت برأسها.

أومأت إلى الفئية الأخرى. ومعًا رفعوا النقالة إلى وضع أفقي.
ابتسم إليهما ستيف: «شكرًا لكما. شكرًا لكما حقًا». ودار حولهما إلى داخل السيارة: «ناجا. فتاتي الكبيرة. كدنا نصل يا حلوتي». وربّت على فرائها متفاخرًا بنفسه وهو يفحص ضماداتها.

راقبت الفئيتان المشهد بعينين متسعيتين.
- يا رجل، لا أظن أنك ...
- اصمتي!

وبأقصى قدرٍ من اللطف انزلقت ذراعه أسفل ناجا. هدرت ناجا قليلًا لكنها لم تقاوم. رفعها عن المقعد بقوة. كانت ثقيلة جدًّا. لكن ما تمكن من فعله ليس حملًا بقدر ما هو سقوطٌ منسَّق على أرضية السيارة وسقوطٌ منسَّق

مثله على النقالة. «لا بد أني فقدت كل قواي العقلية حين قررت إخراجها من المنزل».

ما إن صارت على النقالة، رفعت ناجا رأسها وأمعنت النظر في الفنيتين. طرفتا أعينهما وهما تنظران إليها، مبتسمتين غارقتين في رعبٍ ظاهر. قالت أطولهما: «أمسك برأسها». تحدّثت بنبرة لطيفة مبالغة فيها: «مم، حسنًا؟».

قال ستيف: «تراجعا إلى الخلف قليلاً. لا أستطيع...».

فتراجعت المرأتان بعيدًا عن سيارة الأجرة مسافة قدم تقريبًا. قفز إلى خارج السيارة، يعضُّ على أسنانه متأوِّهاً من ألم مفاجئ أصاب كاحله المتضرر. ثم انزلقت إحدى ذراعيه تحت رأس ناجا المرفوع ووضع يده الأخرى على خدّها، وهو يربّت على خطمها. «هناك احتمال ألا أستطيع الإمساك بها لو أنها قررت فعل شيء تريد فعله، لكن ربما يمنحهما هذا ثانيةً للفرار». قطعوا ساحة الانتظار معًا بمشية متهادية وواصلوا سيرهم إلى غرفة الانتظار.

صاحت أطولهما: «نحتاج إلى غرفة... حالاً».

شهقت موظفة الاستقبال، وهي تنتفض عن كرسيها، وتسقط قلمها. «غرفة، ها... غرفة اثنان».

علّقت المرأة بهيئة الهيبيز صاحبة القطة بنبرة تواصلية: «يا رجل، هذا أسد».

تجاهلها ستيف. أما الرجل ذو رابطة العنق فنهض واندفع خارجًا من الباب الأمامي. وبعد برهةٍ تبعه كلبه اليوركي.

«ماذا يحد...». جاء صوتٌ أنثوي من مؤخرة المكتب. «أوه! يا إلهي!».

- هل أنتِ الطبيبة؟

فغرت فاهًا، ثم أغلقته ثانيةً.

لم يلمها ستيف على ذهولها: «لا بأس. ناجا لن تؤذي أحدًا».

فكّرت فيما قاله ملياً: «نعم، حسنًا. أنا الطبيبة أولساس. هل هي... ما خطبها؟».

أجاب ستيف: «كلاب. تشاجرنا مع بعض الكلاب. ومزّقوا ساقها بشدة. أظن أنهم أصابوا شرياناً. تلّقت، مم، نقل دم مرتين، لكنني لم أستطع إيقاف النزيف».

- هل هي مقيدة؟

- لا. لكنها لن تؤذيك.

- لا تستطيع أن تعرف ذلك. وأنا لن أفعل أي شيء حتى يُقيد هذا الحيوان.

- حسناً. لا بأس. هاتِ ما عندكِ. سأقيدها به.

كان يفكر في كمّامة لخطمها، أو ربما بعض الشرائط والأحبال.

قالت الفنية قصيرة القامة: «معه مسدس».

علّقت المرأة صاحبة القطة: «سأرحل الآن».

عاجلها ستيف: «آسف. لا أستطيع أن أدعكِ تفعلين ذلك. ومعني مسدس فعلاً. لكنني لستُ هنا لأؤذي أحداً، أقسم لكم، أنا أحتاج إلى المساعدة فحسب». في مخيلته رأى جاك محاصراً في الظلمة إلى الأبد. وأحس بخده ملسوفاً من صفة سيليا. ونظر إلى الطبيبة متوسلاً.

زمت الطبيبة أولسّاس شفيتها مفكرة في الأمر، ثم قالت أخيراً: «حسناً. على شرطين. أولهما أن تدع جميع مَنْ هنا يرحل. ثانيهما، أنتَ مَنْ سيحقق الأسد الجريح بالمحقق».

شعر ستيف بامتنان عميق لدرجة أعجزته عن النطق. لم يقل شيئاً. أوماً فحسب. أتت الطبيبة بإشارة أن ارحلوا. أسرعّت المرأة صاحبة القطة إلى الخارج. وبعد برهة تبعتهّا موظفة الاستقبال. التفتت الطبيبة إلى الفئيتين: «وأنتما أيضاً يا فتيات».

قالت أطولهما: «سأبقى».

- جيري، لست مضطرة ...

- سأبقى. ما كنتُ لأفوت حدثاً كهذا مهما كلف الأمر.

نظر الجميع إلى الفنية الأخرى، فقالت: «استمتعوا يا رفاق».

أخذ ستيف مكانه عند طرف النقالة، فاندفعت إلى الخارج.

ركزت الطبيبة انتباهها على مريضتها: «حسناً. دعونا ندخلها إلى غرفة اثنان. هي ليست كاملة النضج. هل لديك فكرة عن عمرها؟».

هزَّ ستيف رأسه نفياً.

- وزنها؟

- لقد حملتها، وهذا أقصى ما استطعتُ فعله. ربما مثناً رطل؟

- في رأيي إنها تجاوزت مئتين وخمسين بقليل. (صمتت قليلاً) أنتَ رفعتها؟ وحدك؟

قال ستيف: «هي ساعدتني قليلاً». كان ما يزال ممسكاً بالنقالة، فمال بكتفه محاكياً طريقة حملها: «طريقة حمل رجال الإطفاء».

- حسناً — — — — —. إذن... ماذا تعمل؟ أأنتَ مدرب، أم (هزَّت رأسها كأنها تنفض عنها الأفكار) لا تهتم. لاحقاً.

في داخل حجرة الكشف، وضعوا النقالة على الطاولة. وبدأت الطبيبة تصدر أوامرها: «جيري، أسرعي إلى الصيدلية، وانظري لديهم الجرعة المناسبة لأسدٍ يبلغ مئتين وخمسين رطلاً».

- كيتامين وزيلازين؟

تغضَّن وجه الطبيبة: «إلا إذا كان لديك فكرة أفضل. إنها الأسد الأول لي».

- هذا ما استخدمناه الصيف الماضي. سأتولى الأمر.

- سنحتاج أيضاً إلى أنبوب رغامي. أكبر أنبوبٍ لديك.

تدلت المخالب الخلفية لساقى ناجا من طرف الطاولة. رفعت رأسها وجالت بنظرها في الغرفة، ثم زمجرت. فارتدت الطبيبة إلى الوراء قليلاً.

راح ستيف يربُّت على عنق ناجا: «لا بأس. لا داعي للخوف».

عادت الفنية، جيري، بعد بضع دقائق تحمل محقناً كبيراً، وحقيبة مملوءة بالأنابيب البلاستيكية. وناولتها إلى الطبيبة.

تحققت الطبيبة أولسأس من العقاقير: «أهذا كل شيء؟».

- نعاني نقصاً بسيطاً في الكيتامين.

رفعت الطبيبة حاجبها.

- نقص بسيط فقط.

أجابت الطبيبة: «حسناً. هذا سيفي بالغرض». نظرت إلى الأسد، وعبس وجهها، ثم ناولت ستيف المحقن وهي تسأل: «هل حقنت أحداً من قبل؟».

- لا .

- الأمر بسيطٌ جدًّا. هذا المحقن يدخل في العضلة. أُوخزه بسرعة، ثم احقنه ببطء شديد. انظر إذا استطعت العثور على مكانٍ مناسب في القائم الخلفي، بعيدًا عن موضع الألم.

ناولت ستيف المحقن، ثم تراجعت إلى الخلف قرب الباب. ونادت: «جيري... قفي ورائي».

نظر ستيف إلى القائمتين الخلفيتين لناجا، وعثر على عضلة قوية مناسبة. وراح يمثل للطبيبة كيفية وخزها: «هكذا؟».

أومأت الطبيبة بإيجاب. وتطوعت جيري قائلة من الردهة: «إنها تشبه وخز برتقالة بالسكين».

زفر ستيف نفسًا عميقًا، ورَكَّز: «حسنًا. ها نحن أولاء». ووخز ناجا في ردفها. رفعت اللبؤة رأسها وكشَّرت عن أنيابها. ثم تعالَى زئيرها.

قفز ستيف إلى الخلف. وإبرة المحقن تتدلى من ردف ناجا. رفع ستيف إصبعه كأنما يؤدب طفلًا عنيدًا: «قطة سيئة! أحسني التصرف!».

هدأت زمجرتها رويدًا رويدًا، فأخذ ستيف خطوةً إلى الأمام، ثم تبعها بأخرى: «سيشعرك هذا بالتحسُّن». ووضع يده على المحقن.

اختلجت ناجا للمستته. وبصرخة مدوية جعلت أمعاء ستيف تُسهل ما بداخلها، ضربت صدره بمخالبها الأمامي الأيمن. وانغرزت أظفارها عميقًا فكونت أخاديد في لحمه. قفز ستيف إلى الوراء وهو يصيح. ووثبت ناجا من الطاولة وهوت بمخالبها على كتفيه، وأسنانها تنغرز في ذراعه اليسرى. وفي تلك الأثناء تعالَى صراخ أحدهم في الردهة.

وفي حالة غريبة من عدم الشعور بالخوف رفع ستيف يديه إلى صدره وراح يدفع ناجا عن صدره بأقصى قوته، وهي تأخذ بين مخالبها جزءًا لا بأس به من جلد ظهره وكتفه. حتى ارتدت إلى الحائط.

وبدافع غريزي لم يفهمه، صفع ستيف اللبؤة على وجهها. لم تغرز أسنانها به أو تضربه بمخالبها، وربما أصابها ذهولٌ رهيب أعجزها عن الإتيان بأي رد فعل، لكنها هدرت ثانية. فهدر ستيف هو الآخر.

- واصلِي ما تفعلينه! أتريدِين أن تموتي؟ أنتِ ما زلتِ تنزيفين أيتها الحمقاء! اغرزي أسنانك بي كما تشائين ويمكنك أن تتابعي النزيف

في ساحة الانتظار! ونرى إذا كان سيجرؤ أحدٌ على حمل وزنك اللعين
إلى حديقة الحيوان. واصلي ما تفعلينه، أفهمت!
تساقطت قطراتٌ من دمائه على الأرض واختلطت بدمائها. وظلاً يحدّقان
إلى بعضهما، وهو يصيح: «استمري!».

بعد حينٍ، انزوت ناجا إلى الجدار. وبعد ثانيةٍ أو اثنتين، توقفت عن
زمرتها.

قال ستيف: «نعم. هذا ما ظننته». والتقط المحقن عن الأرض.
من خلفه جاء صوت الطبيبة البيطرية: «لا أظن أنه يجدر بك ...».

- نعم، نعم، نعم.

سار ستيف إلى حيث تنزوي ناجا، فكشّرت عن أنيابها مجدداً. أسنانٌ
بيضاء طويلة ولثة وردية صحية. ففكّر: «أظن أن مفعول التحميلة قد أتى
ثمّاره الآن». تجاهل زمرتها، وشدّ ردفها الأيمن غير المصاب بعيداً عن
الحائط، ثم وخز الإبرة به. تعالى زئيرها مجدداً؛ صوتٌ جهوري عميق قرّعت
على إثره النوافذ.

- اخرسي. كفي. عن. الصراخ!
قالت الطبيبة أولسّاس: «ببطء».

كان صوتها مكتوماً. ولما اختلس ستيف نظرةً إلى الورا. لاحظ أن الباب
موارب. وهي تتلصص إلى الداخل، لا يظهر منها إلا مقدمة رأسها.
دفع مكبس المحقن ببطء، حاقناً إياها بمليمتِرٍ واحد في كل مرة. وفي
غضون ثوانٍ قليلة فرغ المحقن. سحب ستيف الإبرة وألقاها جانباً.
نظرت إليه ناجا حائرة.

فقال ستيف متهمكماً: «ها، أتشعرين بتحسُّن الآن؟».

نظرت إليه ناجا لهنيهة، ثم هوت. وبعد برهةٍ أرقدت رأسها على الأرض.
هوى ستيف هو الآخر، مستنداً بظهره إلى الحائط. شعر بعظام كتفه مبللة.
نهض واقفاً مرة أخرى، والتفت لينظر إلى ما وراءه. فرأى حيثما كان يسند
بظهره بقعةً كبيرة من الدماء على الحائط. التفت إلى الطبيبة البيطرية: «هل
لديكم ضمادة يا رفاق؟».

- جيري، أحضري لي بعض الشاش وبعض اللاصقات.

استلقت ناجا على الأرض، في حالة بين الإغماء واليقظة.

قال ستيف: «أظن أن بإمكانك البدء الآن».

- ليس بعد. امنحها عشر دقائق.

- آه. حسنًا. هل أنزف؟

وسار إليها وعرض عليها ظهره.

فحصت الطيبة ظهره، وقالت: «الجرح ليس بسيطًا. لكنني أظن أنه سطحي. وربما يترك بعض الندوب. ستحتاج إلى غرز خياطة».

- هذا ليس مشكلة. أتصور أن أحدهم سيأتي قريبًا ليلقي القبض عليّ.

- لا أشك في ذلك. ما فعلته هو أغبى شيء رأيته في حياتي. (توقفت عن الكلام قليلًا) لا أقصد أنه تصرف غير شجاع، لكنه تصرف غبي جدًا جدًا. هل هذا الأسد لك؟

أجاب ستيف: «ليس تمامًا. نوعًا ما. لقد التقينا منذ بضع ساعات فحسب». رفعت الطيبة حاجبيها استغرابًا.

هزّ ستيف كتفيه مهمومًا: «كانت الساعات القليلة الماضية مملوءة بالتوتر». نظرت الطيبة البيطرية إلى ناجا: «إنها تنزف بشدة. على الأرجح لم تكن لتصمد أطول من ذلك».

نظر ستيف إليها متسائلًا. فأجابت الطيبة: «رأيت حالات أسوأ من ذلك. وهذه الضمادة ستحبس الدماء حتى يأتي المخدر بمفعوله. أنا واثقة أن بإمكانني خياطة جرحها في الوقت المناسب. (نظرت إلى ستيف في هدوء وثبات) إذا كنت تحاول إنقاذ حياتها، فإنك نجحت في ذلك على الأرجح». دور ستيف الفكرة هذه في رأسه وفكر فيها مليًا. ثم ابتسم: «حقًا؟».

- حقًا. رغم أن ما فعلته كانت تصرفًا غبيًا بصدق.

تنهد ستيف، متمنيًا لو كان لديه سيجارة ينفث دخانها في تلك اللحظة: «يعلما بوزا احترام الحيوانات كلها».

- آه. (فكرت الطيبة في الأمر) هل أنت بوزي؟

- لا. أنا أحمق. لكنني أواصل المحاولة.

بعد عشر دقائق، أُعيدت ناجا إلى الطاولة. وضعوا النقالة على الأرض، ثم دفعها ستيف بقوةٍ عليها وهي ما تزال بين الإغماء واليقظة. وما إن نقلها إلى النقالة، حتى أخرجت ناجا لسانها ولعقت الدماء على ظهر يده.

قال ستيف وهو يمسّد خدها: «لا بأس. الأمر ليس خطيرًا».

لمّا أغلقت ناجا عينيها، راح ستيف وجيري والطبيبة أولساس يرفعونها إلى طاولة الفحص. وبينما ينتظرون أن يأتي التخدير بمفعوله كليًا، استعار ستيف بعض الضمادات وبدأ يُضمد نفسه.

وفي منتصف مهمة كانت تبوء بالفشل الذريع، قالت الطبيبة أولساس: «صوّب هذا المسدس إليّ».

- عفوّاً؟

- صوّب هذا المسدس إليّ.

- مم... حسنًا.

سحب ستيف المسدس من حزام خصره وصوّبه في اتجاهها بشكل عام. قالت الطبيبة أولساس: «ما الذي تريد قوله؟ إذا لم أضمد جرحك، ستطلق النار عليّ؟ حسنًا، أظن أنه ليس لدي خيار إذن».

طرفت عينا ستيف دهشةً، ثم ابتسم لها: «شكرًا لك».

- جيري، أديري ظهره. أنا على وشك أن أصير مثالًا سيئًا.

امتثلت جيري. وراحت الطبيبة أولساس تُنظّف الخدوش على ظهر ستيف بمحلول ملحي، ثم حقنته بمادة لا يعرفها. وبعد دقيقة أو أكثر، كان ظهره خدرًا.

- هلاًّ أحضرت لي الرابد؟

غلّفت جيري يديها بقفّاز، وغابت لثانية، ثم عادت بأداة بلاستيكية شفّافة بحجم كتاب ورقي ولها مقبضان قابضان.

- ما هذا؟

- كبّاسة.

أخرج إروين تلك القيود البلاستيكية التي تشبه روابط الكابلات من جيبه الخلفي.

لم يحرك ستيف ساكنًا. كان يفكر في الباب الأمامي، وسياج الأشجار خلف المركز التجاري، وسيارة الأجرة.

عندما رآه إروين متوترًا، قال: «لا، لا يجدر بك فعل ذلك».

- لا؟

قال إروين: «لا». وأشار إلى الخلف باتجاه غرفة الانتظار: «هناك رجلٌ على سطح البناء خلف مغسلة التنظيف الجاف. لقد اعتدتُ العمل معه، وهو قنَّاصٌ ماهر. حاول أن تأتي بأي فعل، وسيطلق رصاصة على وسط جسمك. ستترك فتحة في ظهرك عمقها قدم تقريبًا. وستخرج أحشاؤك مع الرصاصة. ستموت قبل أن تعرف حتى ما الشيء الذي أصابك».

خرج ستيف إلى الفناء وتلصص من النافذة.

- أوه. أوه، رائع.

كان هناك رجلٌ بالفعل فوق سطح المغسلة يصوبُّ عليه بندقية. كما رأى أيضًا نحو عشر سيارات شرطة في ساحة الانتظار، وأضواؤها الزرقاء تومض. وعلى بعد مئة ياردة تقريبًا يندفع الناس راكضين إلى خارج وول مارت، خافضين رؤوسهم. دقق ستيف النظر في خط السطح فوجد قنَّاصًا آخر أعلى مطعم مسيو تاكو: «تبًا. أهذا ما ألقاه بعد كل ما حدث؟».

- نعم. أعرف أنه شيء مزعج. (حرَّك الأصفاة البلاستيكية في الهواء). هل

ستدعني أقوم بعملتي، أم نحن مضطرون لإطلاق النار عليك؟

نظر ستيف إلى الباب الأمامي، واختبر تأثير وزنه على كاحله المضمد.

وفكر: «ربما لو استطعتُ التسلُّل من الخلف و...».

قال إروين: «إذا قررت الهروب، يمكنك أن تمنحني دقيقة أولًا؟ أريد أن أخرج هاتين السيدتين اللطيفتين من خط النار أولًا قبل أن يبدأ الضباط إطلاق الرصاص. إنهم متحمسون كما ترى. ولا أظنهم سيتوخون الحذر حين يرونك خارجًا من هنا مسلحًا. من المؤسف حقًا أن يموت بقيتنا معك».

رفع ستيف راحتيه إلى صدغيه، وراح يتجول في غرفة المعيشة مرددًا:

«تبًا، تبًا، تبًا!». ركل بقدمه حقيبة كبيرة من طعام الكلاب. ثم زفر تنهيدة:

«حسنًا. أنت على حق. لا مجال للهرب. لكن ما تزال لدي مشكلة».

- حقًا؟ وما هي مشكلتك؟
- كنتُ أعرف كيف سينتهي الأمر، لكنني أتيتُ إلى هنا رغم كل شيء. والآن يخطر لي لو أنني أسقطتُ المسدس ...
- قال إروين: «لا تسقط المسدس. ربما تنفلت منه رصاصة. ضعه على الأرض برفق ...».
- ... نعم، نعم. لو أنني أسقطتُ المسدس ...
- الناس على شاشة التلفاز يسقطون المسدسات دومًا. وذات مرة رأيتُ شابًا أصيب برصاصة بتلك الطريقة.
- حسنًا. فهمت. سأضعه على الأرض فحسب. إذا.
- إذا ماذا؟
- نظر ستيف إلى إروين بنظرة ذات مغزى: «إذا وعدتني أنك لن تدعهم يأتون هنا ويقتلوننا. عدني أنك ستتدبر أمرها. أي شيء. حديقة حيوان. سيرك (بحث في وجه إروين عن شيء) من فضلك. إذا أسديت لي هذه الخدمة، فسأساعدك بكل ما أقدر عليه».
- تساعدني؟ كيف؟
- أنا لا أعرف الكثير، لكن أعرف أين يعيشون بالضبط.. أعني كارولين والبقية.
- فكّر إروين في الأمر مليًا: «تعاون تام؟ لا تراجع؟».
- أومًا ستيف بإيجاب.
- أيمكنك أن تعطيني رسمًا كروكيًا للمكان من الداخل؟
- بكل تأكيد.
- فكّر إروين لبرهة: «لا أستطيع أن أصحب هذا الأسد إلى شقتي، أنتَ تفهم ذلك؟».
- أفهم ذلك. كل ما أطلبه منك هو أن تعدني بأنك ستبذل أقصى ما في وسعك.
- حسنًا. أعدك بذلك.
- أومًا ستيف امتنانًا، ومدَّ رسغيه إلى إروين.

- ضع المسدس أولاً.

وضع ستيف المسدس على مكتب الاستقبال، برفق شديد.

- يداك خلف ظهرك.

فعل ستيف ما أملي عليه. أخذت أضواء زرقاء تومض عبر النوافذ. مال ستيف برأسه إلى الوراء وأغلق عينيه. كان صوت الأصفاذ حين أغلقت أشبه بصوت شد رباط بلاستيكي.

قال إروين: «تصرف ذكي منك. كانوا عازمين على قتلك حقاً».

- أعرف ذلك.

مال إروين إلى الوراء ونظر إلى داخل الغرفة اثنين: «هذا أسد كبير حقاً». ابتسم ستيف قليلاً: «أتظن أنها كبيرة؟ كان يجدر بك أن ترى والدها. ذكر مكتمل البلوغ. ربما يزن أربعمئة رطل؟».

بدا إروين قلقاً بعض الشيء وهو يسأل: «حقاً؟ أهو هنا في الجوار؟». هزّ ستيف رأسه: «لا. لم ينج». ثم رفع صوته قليلاً: «هيه، أيتها الطبيبة؟ كيف حالها؟».

كانتا، الطبيبة والمرضة، قد بدأتا حقنها وريدياً، ومنحتها سائلاً شفافاً. انتزعت عنها الضمادة، وانكبّت الطبيبة أولسّاس على ساق ناجا. لم تُجب سؤال ستيف، لكن جيري أسكتته. وسارت إلى الباب وأغلقتها، لكن ببطء، وهي ترفع إبهام يدها الشاغرة إشارة إلى أن كل شيء على ما يرام.

أجابها ستيف بإيماءة مقتضبة. فأومأت بدورها، ثم أغلقت الباب.

سأل إروين: «هل اللبوة تخصك؟ لم يذكر الملف شيئاً عن استئناسك لأسد».

- ليس تمامًا. لقد التقينا لتونا. يمكنك القول إننا نعتني ببعضنا.

- صادفتها في الشارع مثلاً؟

- في الحقيقة، نعم.

نظر إروين إليه، ينتظر جواباً ملائماً. وبعد دقيقة أو أكثر، استسلم وسأل بنفسه: «هل من الممكن أن تزودني بمزيد من التفاصيل عن ذلك؟».

- بالتأكيد. آسف؛ ذهني منشغلُ بأمور أخرى. كنتُ قد خرجتُ للركض وحاولت مجموعة كبيرة من الكلاب الخبيثة - أعني عشراتٍ منها - أن

تأكلني. أطلقت الرصاص على بعضها، لكنها طرحتني أرضاً. وكنت هالكا لا محال. ثم ظهرت ناجا ووالدها من العدم، وأبعدا الكلاب عني. أنقذا حياتي.

- حقاً؟ أنت لا تكذب؟

- لا أكذب.

فكر إروين في الأمر: «هذا غير معتاد».

رفع ستيف كتفيه بلا مبالاة: «اعتقدت ذلك أيضاً. لكن في النهاية إذا رأيت عجباً فلا تعجب».

- أظن أن هذين الأسدين ربما لهما علاقة بفتاتك كارولين هذه؟

قلب ستيف عينيه في محجريهما: «مم. لا أعرف. دعني أفكر في الأمر قليلاً».

- آسف. سؤال غبي. هل... انتظر.

وضع إروين يده على أذنه ثم أضاف: «كم وددت مواصلة الحديث معك، لكن الشرطيين في الخارج متوترون من الانتظار». رفع رسغه وتحدث في كفه: «نعم، آه. تم التحفظ على المشتبه به».

بعد ثانيتين، دفع الباب الأمامي عنوة. واندفع نصف دزينة من معاوني الشرطة مسلحين ببنادق على أهبة الاستعداد.

قال إروين: «على مهلكم يا رفاق. كل شيء على ما يرام. هذا احتجاز فيدرالي، أتذكرون؟».

- أذكر ذلك.

قالها رجلٌ يتقلد الكثير من الأشرطة على كفه. وكان يتكلم وهو يصرُّ على أسنانه: «ماذا عن الأسد؟».

أجاب إروين: «إنها مخدرة. تخضع لعملية. هذا ما جاء به إلى هنا».

قال ستيف: «لا تؤذها، حسناً؟».

نظر له الضابط كأنه حشرة على الطريق: «ماذا؟».

شعر ستيف بأن سلامه الداخلي يتراجع قليلاً: «أرجوك؟».

أجاب الشرطي: «مكافحة الحيوانات الضالة قادمون في الطريق. لا أستطيع الإبقاء على أسدٍ كحيوان أليف في المدينة يا بني. هذا قانون البلدية».

فضحك بعض الشرطيين الآخرين.

شعر ستيف بغضبه يتفاقم: «إروين؟».

- نعم؟

- أتذكر ما قلناه.

- نعم أذكر.

- جيد. إذا أردت، يمكنني أخذك إلى حيث ...

تعالى رنين الهاتف المعلق في حزام خصر ستيف.

سأل إروين: «مَن المتصل؟».

فكّر ستيف مذعورًا: «قد تكون هي المتصلة. أعني كارولين. لقد أعطتني

هذا الهاتف. واتصلت بي بضع مرات بالفعل. أتريد التحدث إليها؟».

فكّر إروين في الأمر: «لا. سنراها في غضون دقائق على أي حال».

- أنتَ تعرف بالفعل أين تعيش؟

- آه، نعم. في حي صغير جميل على بعد ميلين من هنا. طوّقنا المكان

بقواتنا منذ وقت الغداء. إننا ننتظر حتى نُخلي الجيران كلهم، ثم نقتحم.

- أنتَ لا تبدو متحمسًا.

رمقه إروين بنظرةٍ مطوّلة: «الحقيقة هي أنني لست متحمسًا».

- ما المشكلة؟

- لست متأكدًا... (قاطع إروين نفسه) ما يحدث ليس صحيحًا. هذا ما أنا

واثقٌ منه. هناك شيء يحدث تحت أنوفنا، ولا أعرف ما هو. أشعر بما

يشعر به فأر وهو يتشمم زبدة فول سوادني داخل مصيدة. (نظر إلى

ستيف) هل صديقك في ذلك المكان؟

نظر إليه ستيف بنظرةٍ بلهاء. فأوضح إروين سؤاله: «الرجل ذو السكين

الكبير. ذلك الذي هرّبك من السجن. هل هو هناك؟»

- آه. اسمه ديفيد. ونعم، هو هناك. في آخر مرة رأيته على أي حال.

عبس وجه إروين: «هذا ما كنتُ أخشاه».

قال ستيف: «هو ليس صديقي. أنتَ مخطئ في ذلك. ليس لدي أي فكرة
عمن يكون هؤلاء الناس ولا ماذا يريدون مني. وذلك الرجل مجنون. إنه
يرعبني. ويرعب بقيتهم على ما أظن».

- بقية من؟

فتح ستيف فمه ثم أغلقه ثانية، وحاول تغيير الموضوع: «ماذا عن ناجا؟».

- الأسد؟ سأحاول إيداعها في حديقة الحيوان.

بدا إروين شاردًا في عوالم أخرى على بعد ملايين الأميال. فرمقه ستيف
بنظرة متشككة.

رفع إروين عينيه منتبهًا: «لقد وعدتك. سأدبر أمرها».

واصل ستيف نظره المتشككة. فزفر إروين تنهيدة، والتفت إلى الرجل
المقلد بالشرائط على كفه.

- فرانك؟ اسمع. هذا الأسد دليل في التحقيق الفيدرالي. اعتنِ به جيدًا.

علق ستيف: «إنها أنثى».

قال فرانك: «كما تشاء».

التفت إروين لمواجهة الرجل. وخاطبه بهدوء. كان مهذبًا، لكن في تلك
اللحظة فهم ستيف للمرة الأولى مدى خطورة إروين ووجهه الحقيقي.

- لا. بل أقول لك. اتصل بحديقة الحيوان، اتصل بمكافحة الحيوانات
الضالة، اتصل بما تريد، لكن لو حدث أي شيء لذلك الحيوان... ستقع
في مشكلةٍ معي.

كان الشرطي أطول قامة من إروين بفارق قدمين تقريبًا. عندما تلاقت
نظراتهما، كان الشرطي ينظر إلى الأسفل. ظلّ مثبتًا نظره على عيني إروين...
لكن لبرهة فحسب. ثم ذوى بشكل ملحوظ. انحسر صدره، وانزوت نظراته
بعيدًا. كل هذا ورجاله يراقبون المشهد.

- حسنًا. نعم. لا مشكلة.

استدار إروين إلى ستيف: «أهذا مريض؟».

قال ستيف: «نعم، مريض (كان فمه جافًا، فأخذ يبلع ريقه بصعوبة)
شكرًا لك. حسنًا، أنا لا أعرف الكثير. لكن المرة الأولى التي رأيته فيها كانت
هي المرة نفسها التي رأيته أنتَ فيها، في السجن. رأيتُ ما فعله في الردهة

(أحشاء مبقورة تتدلى كالحبال من مصابيح الفلورسنت) وبدأت أتلوى على كتفه. انزعج مما أفعل وضربني على رأسي على ما أظن. ولمّا استيقظت كنت في ذلك المنزل على بعد عدة أميال من هنا، كما قلت أنت. كان في المنزل مجموعة منهم. قالت كارولين إنهم إخوانها وأخواتها، لكنهم لا يبدوون في نظري مثل أي عائلة. هناك رجلان داكنا البشرة يبدو أنهما توأمان، وامرأة مخيفة تفوح برائحة الموتى، أظن أنها بولينيزية أو شيء كهذا، عدا أنها كانت شديدة الشحوب لدرجة أن جلدها أزرق تقريبًا. لا أدري، ربما كانوا إخوة بالتبني. على أي حال يتحدثون جميعًا اللغة نفسها».

- أي لغة؟ هل استطعت تمييزها؟

هزّ ستيف رأسه نفيًا: «لم أسمع شيئًا مثلها من قبل. ربما تشبه الفيتنامية قليلًا؟ عدا أنها لا تشبهها».

- هل كلهم مثله؟ أعني كارولين والبقية؟ خطيرون مثله؟ سأخبرك شيئًا على سبيل الهدية، إذا دخل رفاقي إلى هناك وتأذى منهم أحد بسبب كذبك علينا، فلن يرحمك أحد من قبضتي.

فكّر ستيف في السؤال مليًا، ليس لأن إروين قد هدده فحسب، ثم قال أخيرًا: «لا أعرف. لا أظن ذلك. يبدوون جميعًا خائفين منه».

- جيد. سوف ...

قاطعته ستيف: «لكنني أظن أنهم خطيرون بطرق أخرى. كل شيء أخبرتك به عن كارولين صحيح. كل شيء. هي ليست مثل ديفيد ذاك، لكن أظن أنها... تخفي شيئًا».

- تخفي شيئًا؟

- لا أعرف. هي لا تبدو، مم، مغلوبة على أمرها. بعض البقية بالتأكيد كذلك. بعضهم أنا واثق أن بإمكانني أنا التغلب عليهم. لكن ليس ذلك الفتى ديفيد، ولا هي. هناك شيء حيالها

هزّ ستيف رأسه: «لا أدري. سأتوخى الحذر لو كنتُ مكانك. هذا كل شيء». كان إروين يتفرّس ملامحه: «كم عددهم هناك؟ العائلة».

- لست متأكدًا. لم أحصهم. ربما دزينة، قد يزيدون أو ينقصون عن ذلك قليلًا. بالإضافة إلى السيدة العجوز التي تملك المنزل. إنها امرأة عادية، ليست واحدة منهم.

قرقع إروين لسانه مستغرقاً في التفكير. فسأل ستيف: «ألا تصدقني؟».

- بلى، أظن أنني أصدّقك. قبل بضع ساعات أطلقنا طائرة RC-135 لتحلّق فوق المنزل. وأظهر التصوير بالأشعة تحت الحمراء وجود ثلاثة عشر شخصاً بالداخل. أنت لم تعرف ذلك. ولو كنت تنوي الكذب، فهذه كانت نقطة جيدة تبدأ منها.

«التصوير بالأشعة تحت الحمراء؟». لكن حديثه هذا أثار سؤالاً آخر في ذهن ستيف، فسأل: «مهلاً، كيف وجدتموني؟».

- لقد جلبت أسداً في حافلة صغيرة يا بني. حتى من دون مسدس، شيء كهذا يثير الأحاديث بلا شك.

- إذن... كنت هنا لقضاء عطلة مثلاً أم ماذا؟

- آه، فهمت سؤالك. لا. أنا في المدينة لأنني مستشار خبير لدى فريق الاقتحام. أنا الشخص الوحيد الذي يعرفونه قد رأى الحادث وظلّ على قيد الحياة ليحكي القصة. بخلافك أنت طبعاً.

- فريق الاقتحام؟

- آه، نعم. الكثيرون من أقوياء النفوذ في المدينة اليوم. فريق دلتا، وبعض القناصة من فريق التنمية الحربية البحرية الخاصة، حتى بعض من قوة استطلاع الفرقة البحرية هنا. الآنسة سوباسكي صديقتك على وشك أن تحظى بصحبة ممتعة.

- كيف وجدتموها؟

عبس وجه إروين: «تلك العاهرة المجنونة اتصلت بالبيت الأبيض. أتصدق ذلك؟».

3

سار إروين رفقة ستيف إلى خارج العيادة البيطرية، ثم تركه مُصَفِّدَ اليدين في المقعد الخلفي لسيارة شرطة قرابة نصف ساعة أو أكثر. وبناءً

على طلب ستيف، خلع إروين الأصفاد البلاستيكية التي تُبقي يدي ستيف خلف ظهره، وأعاد إحكامها على يديه من الأمام. كان هذا مريحًا أكثر.

استشعر ستيف في النصف ساعة تلك راحة تثير الغرابة في النفس. كان نهارًا خريفياً رائعاً، ونافذة السيارة مفتوحة بما يكفي لتسمح بدخول النسيم إلى السيارة. لم يكن ستيف معرضاً لخطر الموت الفوري، ولم يجب عليه اتخاذ أي قرارات مصيرية. «كما أنني لست مضطراً للقلق بشأن القبض عليّ مرة أخرى. هذا أيضاً نضعه في الحسبان». لم يستغرق في النوم تماماً، لكن ربما غفا قليلاً. أنهى إروين الإجراءات وتجادل مع ضباط الشرطة. وبعد فترة قصيرة، توقفت شاحنة كُتب عليها «الملجأ الشرقي للقطط الدخيلة». فابتسم ستيف لمرآها.

أمل في رؤية ناجا مجدداً، وقبل أن يخرجوا بها، فتح إروين باب سيارة الشرطة: «صحّ النوم». وأشار بإبهامه من وراء كتفه: «اخرج». طرفت عينا ستيف. ربما استغرق في النوم قليلاً: «إلى أين؟».

- سيارتي.

- أليست هذه سيارتك؟

- هل أبدو لك شرطياً؟

- في الحقيقة ...

رمقه إروين بنظرة ذات مغزى، فاعتدل ستيف قائلاً: «لا. قطعاً لا».

أوماً إروين. وأمسك بكتف ستيف وسار به نحو سيارة فورد سيدان عادية متوقفة على بعد ثلاثين ياردة تقريباً.

نظر إليه إروين بتمعن: «هذه سيارة تابعة لوزارة الخارجية. لقد تحملتُ مسؤوليتك ووقعتُ على السيارة. هل تنوي التسبب في مشكلات لي؟».

- لا أخطط لذلك.

- حسناً. يمكنك الركوب في المقعد الأمامي إن أردت. لكنني مضطر إلى الإبقاء على الأصفاد.

- مفهوم. اسمع، هل ما زلتُ أنزف؟

- قليلاً. ليس كثيراً. في الحقيقة ...

راح إروين يبحث في المقعد الخلفي، ثم أحضر جريدة. بسط أوراقها وفرش الملحق الرياضي على جانب الراكب من المقعد الأمامي: «حسنًا. اجلس على هذا».

بدا ستيف مذهولًا.

- قميصك في حالة فوضى يا بني. كما أنك تحتاج إلى الاستحمام. وأي بقع ستلطخ التنجيد، سأضطر إلى تنظيفها. لا تؤاخذني.
أجاب ستيف: «لا بأس».

في تلك الأثناء، شارفت الساعة على الرابعة و13 دقيقة عصرًا، وفقًا لساعة لوحة القيادة في سيارة إروين. استدارا خارجين من ساحة الانتظار واتجها عائدين إلى الطريق السريع 78. ألقى ستيف نظرة اشتياق لمطعم مسيو تاكو والسيارة تبتعد بهما؛ كان الجوع يلتهم أحشاءه.

- إلى أين نحن ذاهبان؟

- واشنطن العاصمة.

- حقًا؟

- نعم. الكثيرون هناك يريدون الحديث معك.

- عن ماذا؟

نظر إليه إروين نظرة تقول كم أنت غبي، وارتأى لستيف أنه غبي فعلاً. تدارك ستيف سؤاله الأحمق: «آسف. أظن ما قصدته هو «ما الذي يتوقعون مني أن أخبرهم به؟». أنا في حيرة من أمري مثلكم تمامًا. بل وربما أكثر منكم».

- ممم.

- مم ماذا؟

- مجرد مم. أظن أنني أصدّقك.

تساءل ستيف: «حقًا؟» (وشعر بامتنانٍ سخيف حيال سماعه لتلك الكلمات) أنا أقدر ذلك. أقدره بحق».

وبشكلٍ غير متوقع، انحرف إروين عن الطريق الرئيسي، وتوقف في ساحة انتظار لمستودع أخشاب على قمة إحدى التلال. تناثرت سيارات قليلة

في ساحة الانتظار، لكن المكان كان في معظمه خاويًا. حينها سأل ستيف: «ماذا تفعل؟»

- كما قلت لك سأخذك إلى العاصمة. هذه تحويلة بسيطة فحسب.

- تحويلة؟

- نعم. لم يرغب الفريق دلتا في زهابي معهم، حتى ولو كنت مجرد مراقب. أنا هنا لتأكيد هوية ذلك الرجل ديفيد.

أوضح ستيف: «هناك كاميرات مراقبة في السجن. أعني أنني رأيته حين كان يهرّبني من السجن».

- صحيح. المضحك في هذا الأمر هو أنها لم تعمل. أعني أنها سجّلت كل شيء حين كنتُ أتكلم معك. لكن ما إن ظهر ذلك الأحمق الضخم، تعطلت تلك الكاميرات فجأة وعلى نحو غامض.

- هذا غريبٌ جدًّا، صحيح؟

- أعترف بذلك، نعم.

- حسنًا، لهذا السبب أتيتُ إلى المدينة. لكن لماذا نقف في ساحة الانتظار؟

أجاب إروين: «مم. لم يبلغني أحد بأنني لا أستطيع المشاهدة». وأشار بإصبعه إلى الأمام.

كانا على حافة حيد شديد الانحدار، يرتفع عن الأرض قرابة مئة قدم بزاوية عمودية تقريبًا. ومن أسفلهم وعلى بعد نصف ميل تقريبًا تقف مركبتان عسكريتان خارج ضاحية صغيرة.

سأل ستيف: «هل هذه دبابات؟».

- لا. الدبابة لها مدفع أكبر. هذه آلية القتال برادلي. تستخدم في أغلب الأحيان لنقل الجنود.

- وماذا تفعل هنا؟

أجاب إروين: «تسمى هذه الطريقة بطريقة «الاقترحام عنوة»».

ثم سحب حقيبة ظهر خضراء كبيرة من المقعد الخلفي وراح يفتش فيها حتى خرج منها بمنظار ميداني ثنائي. ثم أضاف: «أتيتُ بمنظار ليلي أيضًا. يمكنك استعارته إذا أردت المشاهدة. لن تحتاج إلى ضوء النجوم، وسيكبر لك المشهد إلى ستة أضعاف تقريبًا».

- بالتأكيد.

ناوله إروين منظار بندقية كبيراً بعض الشيء مختوماً على جانبه بعلامة ATN. رفعه ستيف، ورأى أن تكبيره متقن جداً، بل متقن للغاية. استغرق الأمر منه بضع دقائق من البحث حتى حدد المنزل المستهدف.

- ماذا عن هؤلاء الرجال ...

- صه!

صمت ستيف. ثم تناهى إلى سمعه ضجيج ضربات مكتومة، فرفع عينيه عن المنظار. حلقت مروحيتان سوداوان قادمتان من الغرب، على ارتفاع منخفض وبسرعة عالية. أمكنه رؤيتهما بوضوح تام، لكن صوت دوارتهما كان مكتوماً لسبب ما. لم يكن تحليقهما صامتاً، ولا أحدثتا الهدير المتوقع منهما كذلك. وبعد برهة بدأت آليات برادلي تعمل مصدرةً سحابة من دخان أزرق.

حامت المروحيتان فوق منزل السيدة ماجيلكاتي مباشرةً، وحبال سوداء تنزل من كل واحدة منهما. انزلق الرجال على الأحبال، اثنا عشر رجلاً في المجمل. لم يكن تزامنهم مثاليًا، لكنه متقارب، ولامست أقدامهم الأرض في غضون ثوانٍ من بعضهم. راح ستيف يراقبهم وهم يصطفون على جانبي الأبواب الفرنسية التي تفتح على الباحة الخلفية لمنزل السيدة ماجيلكاتي، وأحذيتهم السوداء ذات الرقبة تهبط على الطوب الأحمر في صمت بتكبير 6 أضعاف. ثم تراجعت المروحيات.

أوماً الرجال إلى بعضهم بإشارات يدوية. ضرب اثنان منهم الأبواب يمدك معدني. وألقى رجلٌ ثالث شيئاً بالداخل. تلاًأً وميض، وتلاه انفجار. ثم انساب الرجال إلى داخل المنزل. وراح ستيف يراقبهم وهو يتذكر الكلاب تنساب نحوه من الغابة.

بدأت ومضات تتدفق من فوهات الأسلحة، وميض أول، ثم صمتٌ طويل، ثم ومضتان، ثم رشقة نارية. كان اللمعان المتفجّر باهرًا للعينين في الظلال الطويلة الحاملة لهذا الأصيل الحضري. تناهى إليهما صوت رشقات الرصاص بعد هنيهة، محمولاً بنسمات الخريف الهادئة. وتحطمت إحدى نوافذ منزل السيدة ماجيلكاتي.

تناهى إلى سمع ستيف صريخ امرأة خافت من مسافة بعيدة. ثم أطلق سلاح آلي رشقة نارية قصيرة... ثم رشقة أخرى أطول. ثم صريخ آخر، هذه المرة صريخ رجل. سمع ستيف صوتاً يشبه زئير درسدن، جعل الشعر ينتصب في مؤخرة عنقه.

سأل إروين: «ما هذا الصوت اللعين؟».

هزّ ستيف رأسه جهلاً بالجواب. وفكّر في نفسه: «ربما ديفيد؟».

توالى إطلاق الرصاص في ومضات سريعة متلاحقة. ثم صرخة أخرى لامرأة. والمزيد من النواذ المحطّمة. والزجاج يتراشق كالطر على حديقة السيدة ماجيلكاتي المشدّبة بعناية، ينعكس لمعانه تحت الشمس الذهبية. ظهرت ثقوب في الجدار، تناثر على إثرها شظايا من الألومنيوم في الأرجاء. «جميعهم يطلقون النار الآن». سمع ستيف الصرخات، وأصوات رجال ونساء متداخلة، ترتفع وتيرتها مع مرور الوقت. «لا بد أن الجحيم مسعّرة بالداخل».

علق إروين: «مم».

قفز أحد عناصر القوات الخاصة متشخّاً بالسواد من نافذة صغيرة في مؤخرة المنزل. وجهه مغطى بالدماء وخوذته مفقودة. ولا يحمل سلاحه في تلك الأثناء. ربما أمل أن ينزل ويلف قبل أن يصل إلى الأرض، لكنه لم يقطع إلا نصف المسافة إلى خارج النافذة قبل أن يمسك به شيء. اصطدم جذعه بجانب المنزل. تعالى صراخه وذراعه تضربان الهواء، وهو يُسحب إلى الداخل مجدداً. رأى ستيف وميض معدن ذهبي، ورذاذاً من حُمرة قانية تشبه حُمرة الدماء التي تجري بالشرابين. حدث كل ذلك في أقل من ثانية واحدة.

تتداخل الصرخات الآن، تندمج، وتتصاعد حتى تبلغ ذروتها.

أوما ستيف إلى جهاز إروين اللاسلكي المثبّت في لوحة القيادة، وسأل: «أيمكنك سماع ما يقولونه؟».

- لا. إنهم يستخدمون قنوات مشفرة. لن أستطيع فهم رموزهم، حتى لو عرفت التردد الذي يستخدمونه. (صمت قليلاً) لكن الأمر لا يبشّر بالخير.

واحدة من عائلة كارولين، امرأة ترتدي ثوباً رمادياً أخضر، سقطت عبر الأبواب الفرنسية إلى الباحة الخلفية. رقدت على الأرض حيثما سقطت لا تحرك ساكناً. وصدرها مغطى بالدماء.

قال ستيف: «مهلاً. أنا أعرف هذه المرأة. أظن أن اسمها جينيفر؟».

اقتربت المروحيتان أكثر والأحبال الطويلة ما زالت تتبعهما. بعد برهة تراجعتا ثانية. ثم بدأت آليتا البرادلي أمام الضاحية في السير. وما إن صارتا أمام المنزل، لفظت كل واحدة منهما حشداً صغيراً من الرجال بزي أخضر يحملون أسلحة آلية.

تحرك رجال الجيش نحو الباب الأمامي. بضعة منهم فحسب. إذ انطلقت رصاصات رشاشات آلية من داخل المنزل فأردت بقيتهم في الفناء الأمامي، معظمها برصاصات في الرأس، ومن حسن الحظ أن المشهد ضبابي من تلك المسافة البعيدة. سقط الجنود على العشب، وركدوا جميعاً بلا حراك، عدا واحد فحسب؛ رجلٌ أسود البشرة ظلَّ يتلوى ويصرخ ألماً. وبدأ أن ساقيه مشلولتان.

انفعل ستيف: «ما هذا الجحيم!». نظر من حوله، فرأى وجه إروين يشتعل غضباً. وشعره الأشيب ينتصب في جنون فوق وجهه المحمر من الحقن.

علق إروين: «لقد أخبرتهم. أخبرتهم أن هذه العملية مختلفة. أنا أخبرتهم».

وصل ثلاثة رجال من آليات البرادلي إلى المنزل. وكما فعل رجال المروحيات، وقفوا على جانبي الباب وأشاروا لبعضهم بإيماءات يدوية. فكرر ستيف: «سيفعلونها! سيدخلون إلى هذا المكان. عن عمد».

- سحقة _____!

لكنهم لم يدخلوا. اخترق شيء ما الجدار. ومرة أخرى لمح ستيف وميضاً أصفر لامعاً، خراطيش فارغة ودماء تحت أشعة شمس الأصيل حين انفجرت حنجرة أحد الجنود. بعد برهة سقط الاثنان الآخران أيضاً، واحداً تلو الآخر في تعاقب سريع. فكرر ستيف: «إنه يضربهم عبر الجدار». وذكره المشهد بإبرة ماكينة الحياكة.

سمع ستيف أزيزاً يتردد في الأرجاء. وبدأت ماسورة المدفع الرئيسي في آلية برادلي في التحرك نحو المنزل. علق ستيف في نفسه: «يعتزمون تفجير المنزل. سيفجرونه، حتى مع وجود رجالهم بالداخل».

لكنهم لم يفجروا المنزل. كانت الأبواب الخلفية لآليات برادلي ما زالت مفتوحة، ولذلك حين اندفع ديفيد عبر الباب الأمامي، لم يعرقله أي شيء. علّق ستيف في نفسه على سرعته الشديدة. اختفى ديفيد داخل المركبة. وبعد ثانية انفتحت كوة برج المدفع للأعلى وخرجت منها يدٌ واحدة مغطاة بالدماء. كانت الأصابع تضرب الهواء لا حول لها ولا قوة، ثم انزلت اليد إلى الداخل مرة أخرى.

بدأ سائق آلية برادلي الثانية في إغلاق باب الخلفي. كانت فكرة سليمة، عدا أن سرعته لم تكن كافية. إذ سرعان ما انقض ديفيد على البوابة الخلفية بخفةٍ وانسيابية.

وبعد دقيقة أو نحو ذلك، انفتحت الكوة الخلفية مجددًا. عدا أن آلية برادلي صارت حمراء قانية من الداخل. وقف ديفيد وحده في الخلف، يحمل رمحه -«هل هذا رأس أحدهم؟»- متأبطاً شيئاً ما تحت ذراعه. لبرهةٍ بدا أنه يتبادل النظرات مع ستيف، على بعد نصف ميل تقريباً. فانتصب الشعر في مؤخرة عنق الأخير فزعاً. ضحك ديفيد، ثم استدار وعاد أدراجه إلى داخل المنزل.

اقتربت المروحتان الثانية. وبدأت مدافعهما بالعمل وإصدار هديرٍ صاخب، وهما تقضمان سطح المنزل، وجدرانها، ونوافذه، ومدخنته.

ثم رأى ستيف خيال ظلٍّ لرجل خلف النافذة المتفجرة للمنزل. كان يحمل مدفعاً رشاشاً. أمل ستيف في تلك اللحظة أن يكون الرجل أحد رجال الجيش، لكن الزغب المنفوش حول خصره لا يعني إلا شيئاً واحداً. تنورة باليه. أطلق ديفيد المدفع، لمرة واحدة فقط، ثم تطايرت شرارات من دوار ذيل المروحية. اهتزت ثم دارت حول نفسها، ظلّت على ارتفاعها لكنها تتحرك إلى الوراء. ثم اصطدم ذيلها بالمراوح الدوارة للمروحية الأخرى في سحابة من الشرارات المتطايرة.

سقطت المروحتان عن ارتفاع مئة قدم أو أكثر إلى الأرض. هوت إحداها على أحد منازل الضاحية، وهوت الأخرى نصفها داخل حمام السباحة ونصفها خارجه خلف المنزل نفسه. انفجر المنزل فتصاعد لهبٌ أصفر هائل وسحابة سوداء.

ثم عاد الصمت ليُغلف اليوم مرة أخرى.

علّق ستيف: «سحقاً! ما هذا!».

واستدار إلى إروين، عسى أن يؤكد له تحليله للأمر، أو ربما يضيف رؤى خاصة من عنده. لكن إروين منشغلٌ بشيء آخر. كانت عيناه مثبتتين على كارولين. وهي تقف على بعد قدمين من النافذة المجاورة لمقعد السائق، تصوّب مسدسًا إلى رأس إروين. وفي تلك اللحظة حيثهما: «مرحبًا!».

4

- مرحبًا بك!

استطاع ستيف النطق بهاتين الكلمتين. ومن زاوية رؤيته رأى شعراً أصفر إلى جانب كارولين لأحدٍ يقف على ارتفاع تقريبي من مستوى خصرها. كانت فكرته الأولى هي أنها تقف إلى جانب طفلٍ أشقر في الثالثة من عمره. لكن ما إن اشرأب بعنقه بحثًا عن زاوية رؤية أفضل، التقت عيناه عينيْن صفراوين.

- مهلاً! أهذه ناجا؟

أدرك ستيف ما إن خرج الكلام من فمه أن هذا من أغبى الأسئلة التي طرحها في حياته، فكم عدد الأسود الموجودة في ضاحية عادية كهذه؟ بالطبع هي ناجا. تقف شامخة قوية وحواسها متيقظة.

أجابت كارولين: «نعم، تتبععتكما إلى العيادة البيطرية. وظننتُ أنك قد تريد مني أن أضمدها من أجلك».

ترجّل ستيف من السيارة بعناءٍ وهو ما زال مقيّدًا بالأصفاد، ودار حول السيارة إلى جانب السائق. سار قاصداً ناجا، لكن كارولين وضعت يداً على كتفه وأومات برأسها إلى أصفاده. استغرق ستيف برهةً ليتعرّف على الشيء في يدها. سكين حجري.

- لا أظن أن هذا السكين حادٌ بما يكفي لـ ...

قطعت الأصفاد البلاستيكية القوية بضربة واحدة.

- شكراً لك.

ركع ستيف إلى جانب ناجا وعانق رقبتها. كان جرحها شبه ملتئم. مؤكّد أن فراءها لم ينمُ بعد، لكن ما كان قبل ساعةٍ فقط فتحةً مجوفةً تتدفق منها الدماء، يراه الآن جلدًا ورديًّا. واستجابةً لترحابه بها لعقت ناجا خده.

نطق إروين أخيرًا: «أظن أنكِ كارولين».

أجابت: «تخمين صحيح. كيف حالك يا إروين؟».

- أتعرفيني؟

لم تحر جوابًا. ولاحظ ستيف رعشة سبّابتها، رعشة بسيطة فحسب.

سأل إروين: «هل تنوين إطلاق النار عليّ بهذا الشيء؟».

كان ستيف لا يزال راکعًا إلى جانب ناجا وهو يخاطب كارولين: «لا تؤذيه يا كارولين. هذا الرجل صالح». ثم مخاطبًا ناجا التي ما زالت تعلق وجهه: «اهدئي، حسنًا، هذا يكفي».

- لا أفكر في هذا أصلًا.

أجابت كارولين، ثم فتحت الباب الخلفي لسيارة الفوردي وطرحت نفسها بتثاقل على المقعد الخلفي.

من مكانه في المقعد الأمامي، أومأ إروين إلى ستيف بإشارة مقتضبة.

لوّح ستيف بيده غير مكترث. ووقف إلى جانب الباب الخلفي المفتوح يحدّق إلى كارولين. جلست متكئة برأسها على مسند الرأس الخلفي بعينين مغلقتين، والمسدس يستقر على المقعد إلى جانبها. ألقى ستيف نظرة على أنقاض منزل السيدة ماجيلكاتي المحترق وسأل: «هل علقت في تلك الفوضى؟».

هزّت كارولين رأسها نفياً: «لا. خرجت قبل ساعة من بدء الهجوم. كنتُ أبحث عنك في المنزل (فتحت عينيها ورمقته بنظرة متجهمة) كان من المفترض بك أن تنتظرني هناك. المكان ليس آمناً هنا في الخارج».

أجاب ستيف متشككًا: «هنا في الخارج؟ هنا في الخارج أنا في جنة مقارنةً بذلك المكان. على أي حال، ظننتُ أن المشكلة كلها تكمن في عدم قدرتك على الدخول...».

أمعن إروين النظر إليها عبر مرآة الرؤية الخلفية: «كنتِ تعرفين أن هذا سيحدث، أليس كذلك؟».

أومات بإيجاب: «إما ما حدث وإما شيءٌ من هذا القبيل. هذا الرئيس رجلٌ متفاخر. وحين زعزعتُ سكونه بالأمس، احتاج إلى فعل شيء يظهر به أي وحشٍ مخيف هو».

نظر كلاهما إليها، ثم قال إروين وقد اختفت كل آثار الأسلوب الودود البسيط من نبرته: «نعم. أعتقد أنكِ أصبتِ الهدف. لكنني أشعر بالفضول، كيف وصلتِ إلى الرموز لتجاوز لوحة التوزيع؟».

ضربت بيدها الهواء: «أنا مخادعة».

أجابها ستيف متفقاً: «هي كذلك».

- نعم. بدأتُ ألاحظ ذلك.

سأل ستيف: «ماذا حدث لبقيتهم؟ أعني، مم، إخوانك وأخواتك».

فتحت كارولين عينيها: «كنتُ سأسألك. هل خرج أي حد؟ ربما شخصٌ معه حيوان؟».

إروين: «لم أرَ أحداً. لا أظن ذلك».

بدا من المستحيل قراءة تعبيرات وجه كارولين وهي تقول: «إذن مؤكد أنهم ميتون. هذه النتيجة هي الأكثر احتمالاً».

علق ستيف في هدوء: «هناك أحدٌ في الشرفة الخلفية. امرأة. لها شعْر أشقر مجعد وقصير بعض الشيء؟ يمكنكِ استعارة منظاري إذا...».

هزّت كارولين رأسها وأغلقت عينيها مجدداً: «أفضل ألا أنظر، إذا لم يكن لديك مانع. إنها جينيفر». ثم مخاطبة نفسها: «على الأقل رحلت وهي في حالة انتشاء. كانت لتُفضل الموت بتلك الطريقة».

إروين: «يؤسفني سماع ذلك يا سيدتي».

- شكراً لك يا إروين. لطف منك أن تواسيني. والآن لم يبقَ أحدٌ إلا ديفيد ومارجريت وأنا.

إروين: «مارجريت؟».

ستيف: «تلك المرأة التي تفوح برائحة سيئة».

إروين: «آه، وكيف عرفتِ أنها ليست ميتة أيضاً؟».

ابتسمت كارولين بعينين ما زالتا مغلقتين: «لن يسمح ديفيد أبداً لأي أحد آخر بأن يؤذي مارجريت».

نظر ستيف خلال المنظار. كان المنزل غارقاً في السكون الآن. وخيوطُ رقيقة من الدخان تتسرَّب من النوافذ. وبينما كان يراقب المنزل، خرجت السيدة ماجيلكاتي تترنَّح. كانت مغطاة بالدماء فاقدة للحس، لكنها حية تُرزق: «انظرا، هذه السيدة العجوز! ما هذا الذي تمسكه!».

أخذت كارولين المنظار وألقت نظرةً بنفسها، ثم ناولته إياه مجدداً.
- مافن. تمسك بكعكات مافن. (هزَّت رأسها وندَّ فمها عن ابتسامة بسيطة)
لا بد أن ديفيد أنقذها هي الأخرى. حين تظن أنك تعرف شخصاً حق المعرفة ...

ستيف: «ماذا نفعل الآن؟».

- الآن ننتظر، لبعض الوقت.

ستيف: «ماذا ننتظر؟».

- عودة ديفيد.

إروين: «عودة؟ إلى أين ذهب؟».

- رحل إلى واشنطن.

- لماذا؟

- ذهب ليقتل الرئيس، وجميع من تورَّط فيما حدث. سيستخدم أوسع تعريف ممكن للكلمتي «جميع» و«تورَّط».

نظر ستيف إليها متحيراً: «هذا مستحيل... أيمكنه فعل ذلك؟».

- ديفيد؟ نعم. ربما يبدؤون حفر قبورهم الآن أيضاً. الرئيس في عداد الموتى.

حدَّق إليها ستيف مبهوراً.

- آه بربكما، لقد كانت فكرته «هو» أن يبدأ في قتل الناس، أتذكران؟ قبل أن يأتي رجال جيشه، كان الجميع يسترخون ويأكلون البراونيز. على أي حال، أشك أن يلحظ معظم الناس ما سيحدث حتى. ستقابلهم مشكلات أكبر ليقلقوا بشأنها.

ضيَّق إروين عينيه مرتاباً: «ماذا يعني هذا؟».

- كم الساعة الآن؟

اختلس نظرةً إلى الساعة في لوحة القيادة: «مم. قرابة الرابعة والرربع».

ارتسمت على وجهها ابتسامة بسيطة قاسية: «في أي لحظة الآن».

شعر ستيف بالشعر ينتصب في مؤخرة عنقه: «كارولين، ماذا فعلت؟».

لم تتكلم، واكتفت بالإشارة إلى السماء.

كانت الساعة قد تخطت الرابعة عصرًا بقليل. والشمس لا تزال مشرقة فوق خط الأشجار. والسماء زرقاء صافية. لا وجود لكسوف شمسي. كل تلك الظواهر صحيحة تمامًا، لكن بعد بضع ثوانٍ أجبر ستيف نفسه على قبول ما تخبره به عيناه.

لقد أخذت الشمس تنطفئ شيئاً فشيئاً.

5

طيلة الدقيقة والنصف التاليين، انطفأت الشمس تدريجياً وتحولت من الصُفرة المتأججة التي كانت عادية في ذلك الوقت من اليوم إلى شفق برتقالي رخيم، ثم اصطبغت بالحُمرة. فكَرَّ ستيف وهو يراقب المشهد: «كأن أحدهم يدير مفتاح أحد تلك المصابيح الخافتة ببطء شديد جدًا».

في بادئ الأمر أخرج إروين رأسه من النافذة إلى جانبه ليشاهد هو الآخر. ثم فتح باب سيارة التاوروس -وقد نسي تمامًا أنه تحت الحراسة نوعًا ما- ووقف في ساحة الانتظار إلى جانب ستيف.

سأل ستيف برفق، وهو على يقين بأن ما يقوله ليس صحيحًا: «أهذا كسوف شمسي؟».

هزَّ إروين رأسه: «لا. مستحيل. ربما كان... هل تراها تنكمش أيضًا؟».

- لستُ مؤقنًا... حسنًا... نعم. ربما.

رفع ستيف ظفر إبهامه لمقارنة حجمه بحجم الشمس. كان بإمكانه فعل ذلك دون حتى... انطفأ ضوء الشمس وتحولت إلى كرة بنية متسخة كثيبة. ووقتما كانت تتحول إلى سوادٍ في مرحلتها الأخيرة، رأى أنها تنكمش بوضوح تام، ولو قليلًا على الأقل.

ثم اختفت تمامًا.

شعر ستيف بحرارة ما بعد الظهيرة تنفضُ عن جلده. ونسيم أكتوبر، ببرودته المفاجئة المخيفة، يداعب أوراق الشجر الجافة. تساءل في نفسه: «إلى أي درجة من البرودة سنصل؟ وكيف هي البرودة على كوكب بلوتو؟ الأكسجين في صورته السائلة هناك، أليس كذلك؟». وارتعش جسده رعشة تتجاوز ما تبرره برودة النسيم.

سأل إروين في هدوء: «أترى ما أراه؟».

- أظن ذلك. هل أنت واثق بشأن الوقت؟

متجاهلاً الدليل أمام عينيه، علّق آماله على أن يكون هذا مجرد غروب عادي.

فحص إروين ساعته: «الرابعة وثمانية عشرة دقيقة، تقريباً».

- أأنت واثقٌ حقاً؟

اشتدت خفقات قلبه في صدره. لقد سطعت النجوم. وها هي تلقى بضياؤها عليه كأنها عيون وحوش بعيدة، عيونٌ كبيرة، قاسية، لا ترحم. أضاء أحد مصابيح الشارع، فأغرق ساحة الانتظار بضوءٍ أصفر متقطع. نظرت ناجاً إلى السماء وغمغت في غير ارتياح.

قالت كارولين من خلفه: «في الموعد كما هو مخطط». وبدأت راضيةً عن نفسها كل الرضا.

استدار ستيف منتفضاً: «أأنتِ مَنْ فعل هذا؟ مستحيل. لا بد أن ...». قطع كلامه وضرب الهواء بيده لا حول له ولا قوة: «لماذا تفعلين هذا؟».

- إنها قصة طويلة بعض الشيء.

إروين: «أهذا حقيقي؟». كان صوته جامداً، بلا إحساسٍ بلا عاطفة. وراحت عيناه تتذبذبان بين وجهها والمسدس في يديها: «هذه ليست خدعة؟».

- أنا لا أقوم بخدع.

وأخذت خطوةً إلى الوراء، بعيداً عنهما.

ستيف: «أبطلني ما فعلته! أعيدي ما كان لدينا! إننا جميعاً... أعيدي الشمس ثانيةً!».

هزّت كارولين رأسها: «لا أستطيع».

- بربك يا كارولين! يجب أن تعيدي كل شيء! سوف... الجميع... سنتجمد!

كارولين: «ليس في الحال. لقد تحدثت في الأمر مع بيتر ذات مرة. الغلاف الجوي يعمل كغطاء عازل. ستتلاشى الحرارة المتبقية في نهاية المطاف، لكن ما زال أماننا بعض الوقت».

- ماذا سنفعل؟

فكرت كارولين في الأمر: «هل أنت جائع؟ أنا أتضور جوعاً. ما زال أماننا بعض الوقت. أعرف مطعمًا مكسيكيًا رائعًا في نهاية الطريق. مذاق الجواكامولي...».

- لست مهتمًا بأي شطائر تاكو يا كارولين!

- بربك، هيا. إن مذاقها رائع حقًا.

- اسمعي، أنا سئمتُ من هذا الخراء. الآن أريد منك ...

- أحضر لي بعض الجواكامولي وسأخبرك بأي شيء تريد معرفته.

وقف ستيف بوجه يضح بحمرة الغضب وأخذ نفسًا عميقًا ليصيح في وجهها بشيء آخر... ثم أغلق فمه بصوت صرير أسنانٍ مسموع: «ستخبريني؟ بأي شيء؟».

أومأت بإيجاب أن نعم.

- حسنًا.

استدارت كارولين نحو إروين: «سنأخذ سيارتك».

رفع إروين حاجبه مستغربًا. وقف بهيئة بدنية رائعة وطولٍ يقارب ستة أقدام، حسب تقدير ستيف. وتذكر الأخير كيف ذبل الضابط الضخم تحت نظرات إروين الحادة.

في المقابل وقفت كارولين قابضةً على المسدس في يدها، رافعةً حاجبيها هي الأخرى، تبتسم في بهجة.

إروين: «المفاتيح في السيارة».

ستيف: «النقود. هل أحضرتِ الحقيبة الرياضية؟».

كارولين: «ماذا؟ أه، لا، آسفة. لقد أعطيتها لسائق الأجرة».

- لسائق الأجرة؟ ثلاثمئة وسبعة وعشرون ألف كلها؟

رفعت كتفيها بلا مبالاة: «شعرتُ بشيء من الحزن نحوه. لقد أكلوا بعضًا من أصابعه».

- مهلاً، ماذا تقولين؟ مَنْ... (قطع ستيف كلامه) بعد التفكير مرة أخرى، لا تهتمي. لا أريد أن أعرف أصلاً.

فرك ستيف جبهته، ثم نظر إلى إروين: «هل معك أي نقود؟».

رفع إروين كلا حاجبيه هذه المرة. ثم هزَّ كتفيه مستسلماً وراح يبحث في محفظته. ناول ستيف ثلاث ورقات فئة عشرين دولاراً، وورقة واحدة فئة خمسة دولارات، وبضع ورقات فئة واحد دولار.

- هذا كل ما معي من نقود. أتريد بطاقتي الائتمانية أيضاً؟

- شكراً لك.

كارولين: «شكراً لك يا إروين. كنت عوناً كبيراً لنا».

فتح ستيف الباب الخلفي لسيارة تاوروس وربَّت على المقعد بيده. ترددت ناجا قليلاً ثم قفزت إلى داخل السيارة. واتخذت كارولين مجلسها في مقعد المسافرين. لكن ما إن هيا ستيف سيارة الفورد للحركة، طلبت منه الانتظار.

كان مسدسها مطابقاً لذلك المسدس الذي أعطته لستيف من قبل. أدارت الذراع لتفريغ خزانة الطلقات، ثم جذبت المزلاق إلى الراء، لإخراج الرصاصة الموجودة في الحجيرة. أعادت تلك الرصاصة إلى الخزنة، ثم التفقت إلى ستيف: «كيف أنزل زجاج النافذة؟».

أشار ستيف إلى زرِّ في الباب. ولَمَّا نزل زجاج النافذة أشارت إلى إروين: «خذ هذا (وناولته المسدس الفارغ، والمقبض باتجاهه) هذا لأجل حمايتك. هناك الكثير من المجانين في الخارج الليلة. خذ حذرك».

لاحظ إروين ما فعلته: «لا فائدة منه دون طلقات».

- سأضع الخزنة على جانب الطريق أسفل التلة.

أوماً إروين: «شكراً لك».

لَمَّا ابتعدا قليلاً عن ساحة الانتظار، انحرف ستيف إلى حارة الانعطاف ثم توقف. وضعت كارولين خزانة الطلقات إلى جانب عمود إنارة ولوَّحت إلى إروين. فلوَّح لها بدوره.

- ما سبب كل هذا؟

- يبدو لطيفاً.

وارتسمت على وجهها ابتسامة غامضة.

عرف ستيف آنذاك أنها تكذب مجدداً.

6

ما آثار إزعاج ستيف هو أن كارولين على حق. كان مذاق الجواكامولي شهياً حقاً.

اتضح أن المطعم الذي أحببته هو مسيو تاكو، الذي في نفس المركز التجاري للعيادة البيطرية. أصرت كارولين على أن يذهبا إلى هناك، إلى ذلك المطعم تحديداً ولا مطعم غيره، رغم أن ساحة الانتظار ما تزال تعج بالشرطيين. وقالت إن وجودهم لن يسبب مشكلة. مرّ ستيف بلحظات عصيبة حين نظر الشرطي الضخم الذي أهانه إروين من قبل نحوهم، لكنه لم يفعل شيئاً، صفّ ستيف السيارة في مؤخرة ساحة الانتظار، وغمغمت كارولين بشيء إلى ناجا. أجابتها ناجا بغمغمة مماثلة وتكوّرت على نفسها في المقعد الخلفي لتغط في النوم.

كان المكان مترقفاً على نحو يثير الغرابة بالنسبة لمطعم مكسيكي داخل مركز تجاري. فمن بين عدة أمور غريبة كان لديهم خدمة صف السيارة وحاجب للباب. لكن ستيف صفّ سيارته بنفسه؛ كانت ناجا نائمة في المقعد الخلفي، وظنّ أن الأمر لن ينتهي على خير أبداً. انتابه القلق أيضاً أن تحدث مشكلة بسبب مؤخرته الظاهرة للعيان خلال الفتحة في سرواله الرياضي القديم. لكن أقرب مشكلة واجهتهما هي قدوم كبير الندل. استقرت ذراعه اليمنى في جبيرة، وبدا أنه ميّز وجه كارولين من زيارة سابقة. حين طلبت منه طاولة لفردين، راح يصرخ واندفع خارجاً من الباب.

رمق ستيف كارولين بنظرة استغراب تقول ما-هذا-الخبيل.

أجابت كارولين: «مم؟ آه. لقد جئنا إلى هنا منذ بضعة أسابيع. وديفيد لا يفهم أمور النقود هذه. ولما بدأنا نخرج من المكان دون دفع الحساب، أمسك به ذلك الرجل، و...»

قطعت كارولين كلامها. فعاجلها ستيف: «وبدا الجنون. فهمت».

انتهى بهما المطاف إلى الجلوس أمام البار.

شعر ستيف أنه غير قادر على الأكل، لكن كارولين أصرّت أن يُجربَ تاكو الروبيان. وريثما يصل الطعام تجرّع ستيف نصف كوز من المارجريتا، وهو ما ساعده على الاسترخاء قليلاً. ما إن صارت أطباق الطعام أمامه بالفعل، استعاد شهيته. وعلى النقيض لم تتناول كارولين إلا بضع لقيمات.

قضم ستيف رقاقة بطاطس: «أكره أن أعترف، لكن هذا الطعام رائع». ثم دفع بطبق الجواكامولي نحوها. أكلت كارولين رقيقة بطاطس أو اثنتين، وظلّت تحرّك الطعام في طبقها فحسب.

- هل هناك مشكلة؟ كنتِ تقولين إنكِ جائعة.

رفعت كتفيها بلا مبالاة: «أنا جائعة فعلاً، لكن معدتي تؤلمني. قد أكون متوترة. أمورٌ كثيرة تشغلني».

- مم. قلتِ إنكِ ستجيبين كل أسئلتني؟

- أكيد. لم لا؟ لدينا وقت فراغ طويل، وأسئلتك ستساعدني على التفكير... في أمور أخرى. اسأل ما تشاء.

بدأ المطعم يمتلئ بالزبائن. وامرأة مسنة ترتدي شال المنك راحت ترمق دفاءات القدمين التي ترتديها كارولين وقميص ستيف الملطخ بالدماء، ثم تغضّن وجهها بتعبير متعالٍ. لوّح ستيف إليها بإيماءة الملكة إليزابيث، محرّكاً معصمه فحسب، وارتسم على وجهه ابتسامة عريضة. فهربت المرأة مسرعة. طرق بأصابعه على الطاولة: «مم. من أين نبدأ؟ هل تستطيعين فعلاً التحدث إلى ناجا؟ أعني حقاً تستطيعين؟».

- أستطيع فعلاً. لغات الحيوانات تخصص خاص، لكنني تمكّنتُ من إتقانها. نطقي ليس أفضل شيء، ولا يضاهي نطق مايكل.

- كيف تعلمتم هذا؟

- اكتشف الأب طريقة لتتعلم هذا. وكان يدوّن الملاحظات.

- ملاحظات عن التحدث إلى الأسود؟

- آه، نعم. والحيوانات الأخرى أيضاً. في الحقيقة لكل شيء لغة.

- لا بد أن هذه الرحلة استغرقت وقتاً طويلاً.

- نحو مئة عام أو أكثر بالنسبة للفصائل الأولى على ما أظن. وما إن أتقن الأمر حتى تقلّصت المدة.

لمّا لاحظت كارولين النظرة على وجه ستيف، أضافت: «إنه قديمٌ جدًّا كما ترى. وكان مشغولاً دومًا. وتعلّم اللغات هو الأقل صعوبة من بين كل العلوم الأخرى (زفرت تنهيدة) صدقًا. الأقل صعوبة ومكانة بين كل العلوم. ثق فيما أقوله».

- كم يبلغ عمره فعلًا؟

- لا أحد متأكد من الأمر. لكن على الأقل ستون ألف سنة. وربما أكبر من ذلك. لكن السؤال لا معنى له. لقد قضى معظم حياته في المكتبة. مفهوم الوقت مختلف هناك.

أجاب ستيف في تودة: «فهمت. أهذا هو المكان الذي أتيت منه أيضًا؟ المكتبة؟».

- ماذا؟ حسنًا... نعم ولا. أنا ولدتُ في... كليفلاند على ما أظن. أو مكان يبدأ بحرف كاف على أي حال. (نظرت إليه بابتسامة حزينة) لكن... آه، أظن أنني من المكتبة.

- لا أفهم.

- صدقًا لست متأكدة إن كنتُ أفهم مثلك. أعني أنني أعرف ما الذي فعله بنا بالضبط، لكن ليس لدي أي فكرة عن السبب.

- مَنْ؟

- الأب.

- أبوك؟

هزّت رأسها نفياً: «هذه مجرد تسمية أطلقناها عليه فحسب. لكنه ليس والدي الحقيقي. لست واثقة أن هذا ممكن حتى. لا أحد يعرف ما هو أصلًا».

- إذن... ماذا؟ أهو كائن فضائي؟

رفعت كتفها في حيرة: «ربما. لكني لا أظن ذلك. ولا أظن أنه إنسان أيضًا. أعني في الأصل. إن العالم مختلفٌ كثيرًا عما كان عليه في العصر الثالث. على الأرجح لم يكن هناك أي بشرٍ عندما وُلد».

- العصر الثالث؟

- هذا العصر الذي نحن فيه، العصر الذي يحكمه الأب، هو العصر الرابع. وقبل الأب، وقع حكم الكون في أيدي شيءٍ آخر. كان الزمان آنذاك أكثر

ظلمة. بل الفترة الأسوأ في الزمان، حسب كل الروايات. ذلك هو العالم الذي وُلد فيه الأب، العالم الذي استطاع الأب إخضاعه.

- أنا لا ...

ضربت الهواء بيدها، كأنها تُبعد عنها أي مشتتات: «لا يهم حقًا كيف بدأ الأب».

تساءل ستيف مغتاظًا: «وما المهم إذن؟». لقد جعلته يشعر كأنه طفل صغير.

غمره شعورٌ غامض بالرضا حين أخذت سؤاله هذا على محمل الجد، مقطبةً حاجبيها وهي تفكر كيف تجيبه. ثم نطقت أخيرًا: «إنه ذكي. هذا هو مربط الفرس. أظن أن كل شيء جاء نتاج ذكائه». نظرت إليه وأضافت: «هذا مجرد تخمين، أنت تفهم ذلك، صحيح؟ لأنني لا أعرف حقًا».

- مرحبًا بك في عالمي إذن.

عبس وجهها.

- آسف. أكملني من فضلك. أنا مهتم بمعرفة الحكاية.

أومأت باتفاق، وهي تتأمل مشروب المياه الغازية: «حسنًا. أنا متأكدة إلى حد كبير من ذلك الجزء الأول من القصة. تصور أحدًا مثل إسحق نيوتن، عبقرٍ نادر التكرار على مدار التاريخ. ربما كان بشريًا، وربما لا. كل ما يهمنا معرفته عنه هو أنه في غاية الذكاء. وبالإضافة إلى حقيقة أن الأب وُلد في زمنٍ سيئٍ جدًّا، ربما أسوأ مما يمكنك تصويره. زمن يشبه الجحيم، عدا أنها جحيم حقيقية. ومحكومة من جانب شيءٍ يطلق عليه الإمبراطور».

- أفهمك حتى الآن.

- جيد. عند هذه النقطة بدأت أفكر. في المكتبة لدينا اثنا عشر فهرسًا، لكن الفهرس الأول، الفهرس الأبيض، هو الطب. أظن لكونه الفهرس الأول دلالة معينة. ربما بدأ الأب حياته كنوع من الأطباء في تلك الأيام، وصادف شيئًا مفيدًا في العلاج: نبات أو جرعة أو شيء. وبطريقة أو بأخرى اكتشف طريقة يُطيل بها حياته، ليشتري لنفسه وقتًا. واستخدم ذلك الوقت لتعلم المزيد وليعيش فترةً أطول. وفي نهاية المطاف شعر بالرضا لقدرته على العيش بقدر ما يريد، وأن يعالج أي جروحٍ تقابله. ثم بعد ذلك... استخدم ذلك الوقت ليتعلم أمورًا أخرى.

- مثل ماذا؟

- مم... الفهرس الثاني هو الحرب. أظن أنه لم يتعلم هذا مصادفةً أيضًا. الأب مكرٌ جدًّا. أتصور أنه كان هادئًا في بداية حياته، يُخطط وينظّم الأمور ويحشد قواه. كيف تعبرون عن هذا المعنى؟ آه «يعمل في الظل» وفي نهاية المطاف صار مستعدًّا. (راحت تنقر سطح المشرب بظفرٍ مطلي بلون أسود) ثم حوّل انتباهه إلى مصدر معاناته الأول. أظن أنه فهم الحل آنذاك. المهرب الحقيقي الوحيد من الجحيم هو هزيمته. كان له حلفاء أمثال نوبونونجا، وهو سلاحٌ رئيسي في خطته، وشخص آخر يدعى ميتراجانهي. إنهما الوحيدان اللذان يعرفان ما حدث حق المعرفة، ولا يتحدثان في الأمر.

- ثلاثتهم قتلوه؟ ذلك الإمبراطور؟

- حسنًا... أشك أن الأب تركه يرحل بتلك البساطة. وجوابًا على سؤالك: نعم، أطاحوا به.

- حسنًا. وماذا حدث بعد ذلك؟

- لا أعرف. السجلات مفقودة. لكن بطريقة أو بأخرى، انتهى العصر الثالث. وقعت الكثير من المعارك بعد ذلك، والعديد من الخيانات والحروب. أعداءٌ صعدوا وسقطوا. الدوق، وكيو33- نورث، وآخرون. وفي نهاية المطاف ازدادت قوة الأب بما يكفي لدرجة لم يجرؤ أحدٌ على تحديه.

سأل ستيف: «وما دوركم في كل هذا؟ أقصد بصيغة الجمع أنت وديفيد والبقية».

أخذت كارولين رشفة من مشروب المياه الغازية: «بعد ستين ألف سنة، تقريبًا. ومنذ ثلاث وعشرين سنة. كنّا في أواخر الصيف. ربما كنتُ في الثامنة أو التاسعة من عمري حين... حسنًا. حين تبنا». صمتت مستغرقة في التفكير، ثم استأنفت الحديث: «ربما كلمة «تبنّى» ليست هي الكلمة الصحيحة. كنّا أقرب لتلاميذه من أولاده».

- إذن ماذا ...

سكت ستيف فجأة. كان التلفاز خلف المشرب مثبتاً على قناة سي إن إن. وفي أثناء العشاء تركزت التغطية على الغياب المفاجئ والغامض للشمس، وما قصة هذا الذي حدث. لكن الآن من الواضح أن هناك أخباراً عاجلة.

بدا وولف بليتزر مشدوهاً وهو يتكلم عن بعض مقاطع فيديو ضعيفة الجودة التقطت بكاميرا على الرصيف أمام البيت الأبيض. وكان جزء من السياج الحديدي المزخرف حول الحديقة الأمامية مُدمراً. ثم ترى آثار أقدام عارية مغطاة بالدماء على الرصيف إلى جانب جسدٍ ينتمي لفتى في عمر المراهقة، ربما كان فاقداً للوعي أو ميتاً. ارتفعت عدسة الكاميرا ليتوسع المشهد. في الخلفية كان الجناح الشرقي للبيت الأبيض مشتعلًا بنيران يصعب السيطرة عليها. وألسنة اللهب المشتعلة ترتفع إلى تسعة أمتار تقريباً مخترقةً بذلك سماء الليل المظلمة. وراح وولف بليتزر يكرر عبارات مثل «خسائر كارثية في الأرواح» و«النظام الدستوري للخلافة».

عَلَّقَ سَتِيفَ بِنِيرَةَ خَافَتَهُ: «تَبْ—أُ!».

كانت الصور ضعيفة الجودة، ولم يُحسن ذلك الذي يحمل الكاميرا تثبيتها حتى. مع ذلك، أمكن ستيف تمييز رجل في منتصف المسافة، تبدو هيئته كظلٍ شبحي بسبب النيران من خلفه. كان يحمل عصى طويلة تتلأأ بلونٍ أصفر حين انعكس عليها الضوء. «و... يا إلهي. أوه! رباها!».

تبيين أن الجزء المنتفخ عند خصره لا يمكن أن يكون سوى تنورة باليه.

حينها طلب ستيف مشروب تكيلا.

تتبعَت كارولين مسار نظراته. ولمّا رأت ما يُعرض على التلفاز، أومأت: «هل أنهيّت أكلك؟ علينا أن نخرج بسرعة».

أجابها ستيف بذهن مشتت: «أظن ذلك».

نهضت كارولين وغابت في دورة مياه السيدات. في تلك الأثناء عقد وولف بليتزر مقابلة شخصية مباشرة مع محامٍ قد شهد الهجوم على البيت الأبيض. كان المحامي في حالة هستيرية غير مؤذية، واستمر في تحليل شعره الخفيف بأصابعه وهو يكرر: «لقد قتل ثلاثة رجال يا رجل! ثلاثة دفعة واحدة! دمرهم جميعاً!». راح بليتزر يومئ برأسه بين الحين والآخر في جدية وفي الآن نفسه في تشجيع للمتكلم على الاستمرار. وبينما تنعقد المقابلة الشخصية، فجّر أحدهم مبنى الكونجرس. تطايرت شظايا من الانفجار قد تكون كرسى مكتب

أو شيئاً كهذا، وقطعت الذراع اليسرى للرجل الهستيرى. ارتمى وولف بليتزير على مؤخرته من ارتفاع الضغط. وبعد ثانية واحدة انتقلت إيرين بيرنت إلى مقابلة مسجلة مع والدته لاعبين لكرة القدم الأمريكية في ماريلاند، التي قد رأت شيئاً «أكبر من فيل» يسير على جانب الطريق السريع.

أعاد الساقى ملء كأس ستيف بالتكيلا دون أن يُطلب منه، ثم سكب كأساً لنفسه هو الآخر.

عادت كارولين: «هل أنت مستعد؟».

- نعم. أقصد لا. ربما. هل يمكننا البقاء لدقيقة أخرى؟ أريد أن ...

وأوماً برأسه نحو التكيلا.

- حسناً. لكن أسرع.

- نعم سيدتي. (تجرّع ستيف نصف مشروب التكيلا جرعة واحدة). هل لك علاقة بذلك؟

على التلفاز كانت المرأة التي رأت الشيء الأكبر من الفيل ترفع يدها، وعيناها تدوران في جنون إلى الورا. كانت تصرخ، وجلد ذراعها حالك السواد، كأنما غُمس في الحبر، وأصابعها غريبة كأن بها مشكلة؛ ترتجف، لكن ليس مثل الأصابع العادية مطلقاً. بدت في نظر ستيف أنها تشبه اللوامس.

- ليس تماماً. أعني... بشكل غير مباشر. هذا فعل بارى أوشيا، أو ربما أحد التابعين له. إنهم شديدي العدوى.

- مَنْ؟ شديدي العدوى؟ ما هذا المعدي؟

- إنها تعاني ... هذا الشيء يسمى فيروس الواقع. هو ليس خطيراً في حقيقته، بل يبدو سيئاً فحسب. تعمل هذه اللوامس مثل.. مم، الهوائيات، أو شيء يشبه ذلك. هذا الفيروس يجعلها قابلة لاستقبال الأفكار الخفية. وإذا لم تتلقَّ علاجاً قد تصاب بالاستحواذ.

- استحواذ؟ أتعني استحواذاً من الشياطين؟ ذلك النوع من الاستحواذ؟

ضحكت كارولين: «ماذا؟ لا (لوهلة غمره فيها شعورٌ مفزع ظن أنها قد تلکمه في خده) هذه الأشياء ليست موجودة يا ستيف».

- ماذا إذن؟

- الصامتون. إنهم أفكار خالصة، لكنهم يتجسدون في صورة كائنات كبيرة تتحرك بتثاقل، ولها لونٌ فضي نوعًا ما. هم آثارٌ باقية من العصر الثالث. لا يمكن قتلهم، لكن إشعاع الشمس واسع النطاق له تأثير قوي يكفي لجعلهم كُسالى. ومع زوال الشمس، قرر باري أن الوقت قد حان للتحرك. هل ما قلته مفهوم في نظرك؟

نظر إليها ستيف: «لا. لا، غير مفهوم بالمرة».

- حسنًا... لا تقلق حيال الأمر. حين تستقر الأمور سأتولى حل هذه الجزئية. إن باري خفيف الوزن. (وأومات إلى المرأة ذات اللوامس) على أي حال، هناك علاج سهل لهذا الأمر.

- علاجٌ سهل لتحوّل أصابعك إلى أصابع تشبه أصابع الوحوش؟

- حسنًا... سهل نوعًا ما. من الواضح لك أن أفضل شيء هو أن تتجنب لمسها في المقام الأول.

- آه، واضح جدًا.

- لا تقلق كثيرًا يا ستيف. الناس سيتأقلمون.

- سيتأقلمون على ماذا بالضبط؟ ما زلتُ لا أفهم ما قصة كل هذا.

أجابت كارولين: «كل هذا يتعلق بالمكتبة. الأمر الوحيد المهم الآن هو مَنْ سيفرض سيطرته على مكتبة الأب».

- مكتبة؟ مَنْ يأبه بمكتبة لعينة؟

قلّبت كارولين عينيها في محجريهما: «الأمريكيون».

- ماذا؟

- لقد رأيت قليلًا مما يمكننا فعله: ليزا وأنا وديفيد. ما رأيك فيما رأيت؟

ابتلع ستيف ريقه بصعوبة: «بعضه... نعم، ما تفعلونه رائع حقًا».

غرق وجه كارولين في الضوء الأحمر المنبعث من مصابيح المشرب، لكن عينيها ظلّتا داكنتين: «ما رأيته يا ستيف هو لا شيء. خدع منزلية. وبشكل عام، قوة المكتبة لا حدود لها. والليلة سنقرر مَنْ سيرث السيطرة على الواقع».

- ماذا تقصدين؟

- كما قلتُ لك للتو.

- كارولين... هذا جنون. أعرف أن بإمكانك فعل بعض الأمور الغريبة، لكن ...
- رفعت يدها اعتراضاً: «سنتجادل في هذا الأمر لاحقاً. أما الآن فعلينا الذهاب فوراً».
- إلى أين بالضبط؟
- أجابت: «جاريسن أوكس».
- ولماذا نفعل ذلك؟ لقد هربتُ لتوي من هناك. هذا المكان هو نقيض المتعة. أخبريني لماذا بحق الجحيم أرسلتني إلى هناك في المقام ...
- لاحقاً. الآن علي أن أقابل ديفيد. سيُنهي أمر إروين قريباً.
- إروين؟ هل ديفيد مع إروين؟
- أومأت كارولين بإيجاب: «يحاول إروين تدبير كمين. وإذا لم نُسرع، فسيقتله ديفيد».
- حين قلتِ «أقابل ديفيد» ماذا قصدتِ بكلامك؟ هل... أنتِ لا تتأمرين مع ذلك الرجل، أليس كذلك؟
- لم تحر جواباً. مهما حاول، كان يعرف أنها لن تقول شيئاً آخر.

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

قصة جانبية رابعة



منهك، وفي حاجة إلى الراحة

1

ماتت كارولين بعد خمس سنوات تقريباً من محرقة الثور. حدث ذلك في نهاية فصل الشتاء، في أثناء تلك الأسابيع الستة التي يظلُّ فيها النسيم بارداً لكن ليالي الغابة مملوءة بعواء القطط في فترة التزاوج. كانت في السادسة عشرة أو السابعة عشرة آنذاك.

في أغلب الأحيان حين يُبعث الموتى يستغرقون في النوم لبعض الوقت، لكن كارولين عادت إلى الحياة مثل عود ثقاب يشتعل في منتصف الليل. أحسَّت بأيِّدٍ على جسدها؛ أحسَّت بأحدٍ يلمسها. نهضت بسرعة ممسكةً بشعر أحدهم، ورفعت نفسها لتُطبق أسنانها عليه.

- اللعنة! كارول-آآآه!

بدأت عينا جينيفر مرتعبتين وهي على بعد أقدام منها.
- آه... (طرفت عينا كارولين لوهلة، ثم أطلقت شعرها) آسفة.

تراجعت جينيفر بضع أقدام إلى الوراء، مبتعدةً عن محيطها: «تبًّا لكِ كارولين! (وضعت يدها على قلبها) لقد أخفنتني كثيرًا! يا للهول!». - آسفة.

بذلت مجهودًا لتبدو هادئة ولطيفة. ما حدث -أيًا كان ما حدث، لأن كارولين لا تستطيع تذكره- ليس خطأ جينيفر.

رمقتها جينيفر بنظرات متشككة؛ لم تبدُ منتشية: «لا بأس. من الأفضل ألا تحاولي التحرك الآن».

أومأت كارولين بإيجاب. «ما دامت جينيفر ليست منتشية، فهذا يعني أنني كنتُ في حالة سيئة فعلاً».

- حسنٌ إذن.

عرضت جينيفر يديها الخاليتين، ثم ربّت الهواء كأنها تُهدئ حيوانًا مخفيًا: «أصدقاء، صحيح؟».

أومأت كارولين بإيجاب مجددًا.

شعرت جينيفر ببعض الطمأنينة، فاقتربت من كارولين وراحت تقيس نبضها. وريثما تقيس النبض، جالت كارولين بنظرها في الأرجاء. رأت غرفتها الصغيرة غارقة في الفوضى، تلك التي عادةً ما تكون نظيفة. نصف الأرفف مقلوبة رأسًا على عقب، والكتب والمخطوطات مبعثرة على الأرض. مكتبها مائل على جانبه، وأحد أدراجهِ محشور في مكانه شبه مفتوح، معوجًا ومستقبلًا السماء بواجهته. غَضَنْتْ أنفها وتساءلت: «ما هذه الرائحة؟».

- مم... حسنًا. ربما أنتِ، بعض الشيء.

- ماذا تقصدين؟

- حدث ذلك منذ بضعة أيام. وكما تعرفين... بدأت درجة الحرارة ترتفع. (أشاحت جينيفر وجهها عنها). أنا آسفة يا كارولين. كنَّا نظن أنكِ تدرسين.

- كم بقيتُ؟

- ثلاثة أيام على ما أظن. كيف حال ذراعيكِ؟

- ذراعاي؟ ماذا تعنين بـ... آه. صحيح.

اسودَّ وجهها قليلًا، وبدأت الذكريات تعود إليها.

نظرت إلى ذراعيها، فرأت ندوبًا بيضاء باهتة على عضدها، حيث طُعنَت بالأقلام. اختلست نظرةً سريعةً إلى المكتب، فوجدت أحد الأقلام -قلم مونت بلانك بلون رمادي داكن، المفضل لديها- ما زال مغروزًا في الخشب. وفي بؤرة ندوبها الجديدة رأت آثار حبر سوداء صغيرة. حرَّكت يديها وذراعيها، فلم تؤلمها مطلقًا.

- أنا بخير. أظن ذلك. متألّمة قليلًا فحسب.

- آسفة. لستُ متقنة لذلك الجزء بعد. كيف حال فكك؟

- فكّي؟ (ثم تذكرت). آه صحيح.

فتحت فمها ومضغت الهواء لثانية، وهي تؤرجح عظمة فكها من جانب إلى آخر، ثم أكملت: «بخير. بخير حقًا. شكرًا لك يا جينيفر. أحسنتِ صنعًا».

- عفواً. لقد تدرّبتُ كثيرًا. ويسعدني أنك بخير. كنتِ في حالة (قطعت كلامها). أنا سعيدة أنك بخير.

بعدما اطمأنت جينيفر على أدائها، نَقَبَت في حقيبة أدواتها حتى أخرجت غليونها الفضي. ثم سألت: «هل تمانعين؟».

- تفضلي. إذن... أنا حائرة يا جينيفر. ماذا حدث؟

رمقتها جينيفر بنظرة احترافية: «أما زلتِ لا تذكرين ما حدث؟».

قَطَّبَت كارولين حاجبيها واستغرقت في التركيز: «كل شيء ضبابي في رأسي».

- اصبري دقيقة. سأنتظر إلى جوارك.

ووضعت غليونها جانبًا لبرهة.

جالت كارولين بنظرها في أنحاء الغرفة، كرسيها مقلوب على وجهه خلف المكتب. وسريرها ما زال مرتبًا كما كان، لكن قنينة حبرٍ انسكبت على غطاء السرير. «فسد الغطاء». كان أحد الكتب ملقى على الأرض ومفتوحًا على صفحة تلطخت بضربات فرشاة عريضة وطويلة.

أومض ذلك المشهد الأخير شيئًا في رأسها: «آه، لحظة... كنتُ أنتظر مجيء أليشيا بينما كنتُ أدرس لغة الكُوث».

- تدرسين ماذا؟

- آسفة. الكُوث⁽¹⁾ هي لغة العواصف. إنهم شعراء بارعون، أعني بعضهم. قرأت كارولين في الصفحة المفتوحة مقطعاً من قصيدة عاصفية قديمة تعود لعقود من الزمان من نجم المشتري، أشد المقاطع الشعرية كآبة في عملٍ شعري أكبر. كان المقطع يقول: «الآن، أضلم دركِ في الجحيم».

خاطبت كارولين نفسها بعينين متسعيتين قليلاً: «لا. هذا جزءٌ من الحقيقة فحسب. كنتُ «أتظاهر» أنني أدرس الكُوث». نظرت إلى رف الكتب في الزاوية، لكن من تلك الزاوية بدا مختبئاً خلف المكتب. تظاهرت باسترخاء لا تشعر به حقيقة، حاولت موازنة نفسها وهي تستند إلى رف كتب ووقفت أو حاولت الوقوف على الأقل. تمكنت من المشي بما يكفي ليسمح لها برؤية ذلك الرف البني في الزاوية المختبئ وراء مكتبها ما زال قائماً لم يمسه شيء. ما إن رأت ذلك، تنفست الصعداء حتى خذلتها ساقاها وخارت قواها. انهارت بجسدها على الأرض بلا مبالاة: «سحقاً».

طرفت عينا جينيفر. كانت كارولين رقيقة في العادي.

- على رسلك. هناك احتمال أن قلبك لم يصل إلى دقاته الطبيعية بعد. لذلك... أتذكرين الآن؟

- الذكريات تعود إليّ تباعاً.

رغم الألم الذي ينهش في خلايا عقلها، ما زال صوته.. وابتسامته يترددان في رأسها، وهو يقول: «حاولي أن تصرخي. اصرخي باسمي. فإذا صرختِ باسمي، سأتوقف. إذا صرختِ باسمي، سأتركك وشأنك».

- هل هو ديفيد؟

لم تثق كارولين في قدرتها على الكلام، فرفعت عينيها ونظرت إلى جينيفر، بحاجبين معقودين وعضلات فكٍ ترتجف.

- آسفة. سؤال غبي. ماذا حدث؟

- أذكر معظم ما حدث. لكنني لا أذكر.. كما تعرفين، النهاية.

(1) Quoth هو فعل في اللغة الإنجليزية القديمة، بمعنى «قال» يستخدم عادةً في اللغة الأدبية والشعرية، واشتهر استخدامه من قبل الكاتب إدجار إلن بو في قصيدة «الغراب». استعار الكاتب هنا هذا الفعل وأطلقه في صورة اسم ليميز لغة بعينها، ويحدد لها خصائص شعرية كما ذكرت الشخصية. (الترجمة)

أجابت جينيفر: «هذا طبيعي. هذه المرة الأولى التي تموتين فيها، صحيح؟ لا أحد يتذكر المرة الأولى. في المرة القادمة ستحتفظين بقليل من الذكريات، وهكذا».

- آه. سمعتُ بذلك. لماذا؟ هل تعرفين؟

- أنا أعرف، لكن لا يمكنني القول. هذا من صميم فهرسي. آسفة.

هزّت كارولين رأسها تفهّمًا: «لا بأس».

استحثّتها جينيفر بنبرة ما تزال لطيفة: «أكملي. أخبريني بما حدث».

ظَلَّت كارولين صامته لوقتٍ طويل، شاردة بعينيها في الأرجاء. ولمّا بدأت الحديث، كانت نبرتها هادئة تمامًا، بل ومملة حتى. كأنها تتحدث عن طعام الغداء.

- هل يهم؟

رفعت جينيفر حاجبها قليلًا، وأعادت غليونها إلى داخل الحقيبة.

- أليس مهمًّا لك؟

ثمّة شيء في نبرة جينيفر قد دقّ نواقيس الخطر في رأس كارولين. فتداركت الأخيرة كلامها: «بالتأكيد! أعني بالطبع الأمر مهم. أنا، مم، مستاءة جدًا. هذا واضح».

- هل تودين التحدث عن الأمر؟

الجواب الحقيقي لذلك السؤال هو أنها كانت لتفضل خوض جولة أخرى مع ديفيد. «تقريبًا». لكنها لا تستطيع قول ذلك، لا تستطيع حتى التفكير في الأمر. لو أن جينيفر ظنّت أنها... مهما يكون... هذا قد يجذب الانتباه إليها. وربما تنقل خبرها إلى الأب.

- أكره أن آخذ الكثير من وقتك. أنا واثقة أن لديك مشاغل أخرى ...

مدّت جينيفر يدها ولامست عضدها: «نعم، لكن هذه أمورٌ يمكنها الانتظار. لهذه الأسباب وُجد الأصدقاء. وعلى أي حال، هذا جزءٌ من وظيفتي».

كان الباب المؤدي إلى غرفتها عازلاً للصوت، لكن جينيفر تركته مفتوحًا. وفي الممر الرئيسي سمعت بيتر يتدرب على طبوله. ترددت الدقات في غرابة، كأنها تتدحرج في جنبات الممر المعدني. شعرت كارولين بها بقدر ما سمعتها؛ شعرت بدمدمة خافتة في صدغيها، وفي قلبها. حاولت التقوّي

بذكرى آشا، ورسمت على وجهها أفضل نظرة كئيبة لديها. ثم قالت بصوت خافت: «حسنًا، أمهليني ثانية».

- لك ذلك بالطبع.

رَكَزَتْ، وبعد هنيهة، تمكَّنت من ذرف دمعة وحيدة. تركتها تتدحرج على خدها الأيسر لعدة سنتمترات، ثم مسحها بطرف يدها. «ممتاز».

جلست جينيفر إلى جانبها على الأرض، على مسافة حميمة منها.

- هل تمانعين؟

بالطبع تُمانع لكنها قالت: «لا، بالطبع لا. حسنًا... بدأ الأمر حين جاء ديفيد إليّ بلفيفة ورق. قال إنه يريد مساعدتي في ترجمتها». نظرت إلى جينيفر وأضافت: «لكنه كان عاريًا».

أومأت جينيفر برأسها إيماءة بسيطة مبهمة. لم يكن التجول في الأنحاء عاريًا انتهاكًا لسلوكيات اللباقة بالنسبة إلى المكتبيين كما هو الحال مع الأمريكيين. فمن بين جملة الأمور المختلفة هو الحمامات المختلطة، لكن التجول عاريًا كان أمرًا غير معتاد. ولمّا عاد مايكل لتوه من المحيط، كان ينسى أحيانًا ارتداء ملابسه. وهو ما جعل الناس يسخرون منه. «لكن لا أحد يسخر من ديفيد». ولهذا ثمة سببٌ وحيد فعلاً قد يجعل ديفيد يأتي إلى غرفة كارولين عاريًا.

- وماذا فعلت؟

نظرت إليها كارولين: «طلبتُ منه أن يرحل. ورحل فعلاً، هكذا انتهى الأمر».

قصدت بذلك نوعًا من المزاح، لكن حين نطقت به بصوت عالٍ بدا كلامها مريّرًا نكدًا. واستها جينيفر ثانية، لكنها ترمق كارولين بنظرةٍ فاحصة غير مبالية لم تُعجب كارولين مطلقًا.

خاطبت كارولين نفسها: «ركزي». ثم أوضحت: «بدأت أشعر بالتوتر حين نظرتُ إلى لفيفة الورق. لم يكن محتواها غريبًا، مجرد نصٍّ باللغة البيلاوية، لكنه قديمٌ بعض الشيء. كأن تقولي «من غير ريب» أو تدخلي «لام التوكيد» على الفعل، أتعرفين ذلك؟».

- هذا ما احتاج مساعدة في ترجمته؟

- لا. بالطبع لا. هذا مجرد عذر.

- لماذا سمحت له بالدخول؟

كان لأبواب المسكن عين سحرية، كما أنها تُغلق من الداخل والخارج معاً.

- قد تكون كلمة «سمحت» غير دقيقة. كنتُ بانتظار أليشيا، لذلك تركت

الباب موارباً. كان من المفترض بنا أن نتدرب على السواحلية. إنها لغة

شائعة في كل مكان في القرن الثامن والعشرين -مهلاً! هذا يذكرني

بشيء قلته - قلت إنني متٌ لمدة طويلة؟ ثلاثة أيام؟

- نعم. تقريباً.

- ألم تأت أليشيا إلى حجرتي؟

- لا. استدعيت إلى مهمة في القرون المستحيلة. ذهبت لتجلب أسناناً

تتغذى على الهواء أو شيء كهذا. مايكل هو من وجدك.

- هل عاد مايكل؟

أومأت جينيفر برأسها إيجاباً: «لاحقاً سأخبرك. أما الآن فنحن نتحدث

عنك. ماذا حدث بعد ذلك؟».

جاهدت كارولين رغبةً لا تقهر في اختلاس النظر إلى رف الكتب الصغير

في الزاوية. إما أن ديفيد قد وجد ما هو مخفيٌ هناك، وإما لم يجده. وظننتُ

أنه لم يعثر عليه، فلو عثر عليه حقاً، لاستيقظت داخل الثور، أو لم تستيقظ

على الإطلاق. لكن من المهم الآن أن تركز. هذا الحديث بينها وبين جينيفر

قد يكون نهايتها الفعلية. خاطبت نفسها: «حاولي أن تبدي مترددة، كأنك

تتحسسين طريقك في غرفة مظلمة. كأنك تتجنبين شيئاً».

حين فُكرت في ذلك، استعادت ذاكرتها صوت فُكّها يتحطم تحت قبضة

ديفيد. وكلماته تتردد: «حاولي أن تصرخي. اصرخي باسمي». لكن النبض

في عنقها لم يتسارع إلا قليلاً، ولمّا تكلمت كانت نبرتها مناسبة تماماً. لقد

كانت تتدرب على ذلك. ومع ذلك، ما زالت الرعشة في سبّابتها واضحة تماماً.

خاطبت نفسها: «أريد التدرب على ذلك».

قالت كارولين: «حسناً... ترجمت القطعة التي طلبها ديفيد. كانت تتكلم

عن معركة مجدو، منذ بضعة آلاف سنة. وجيوش أبلا خان ...».

- مَنْ؟

- أبلّا خان. إنه اسم آخر للأب. أبلّاخا، أبلّا خان، آدم بلاك!
- آه. طبعًا. آسفة.
- المهم، أسقطوا مدينة مجدو. لكن -وهذا هو الجزء الذي أراد مني ديفيد قراءته- النصر كلّفهم ثمنًا باهظًا. لذلك... (لم تعد كارولين تزيف تعابير وجهها كليًا، اعتصرت عينيها لتدفع عنهما الذكرى). وبعد ذلك... وعندما رأى أبلّا خان محاربيه مقهورين ومنهكين وفي حاجة شديدة إلى الراحة، قال لهم: «اذهبوا إلى المدن، اغتتموا منها ما تجدونه هناك. هذا المكان لكم الآن، وكل ما هو موجود بداخله. استغلّوهم لخدمتكم، الرجال والنساء على حدّ سواء، وافعلوا بهم ما تريدون».
- فتحت عينيها وأضافت: «لَمَّا وصلتُ إلى ذلك الجزء، بدأ ديفيد يضحك».
- أجفلت جينيوفر: «يا إلهي، كارولين...».
- وبعد ذلك قال ديفيد يا لها من مصادفة. ها هو الآن، محاربٌ في جيش أبلّا خان. وصُوِّفَ أنه مقهور أيضًا -صدفة أخرى- ثم
- ثم ...؟
- ثم ها أنا ذا... الغنيمة.
- أومات جينيوفر إيماءة حانقة مقتضبة.
- ثم... تقدّم إليّ وأمسك بي.
- وأشارت بيدها إلى صدرها.
- هكذا؟
- نعم. هكذا. الأغرب هو أنه لم يُبدِ أي قسوة فيما يفعله.
- رفعت جينيوفر حاجبيها مشدوهة وهي تجول بعينيها في أرجاء الغرفة.
- حسنًا، ليس في البداية. كان يتصرف كأنه يظن نفسه مغرّبًا. كأنه يُسدي لي معروفًا حتى.
- فكّرت جينيوفر في الأمر: «أفهم ما تقولين. لطالما ظنّ أنه مركز الكون. أخبريني ماذا فعلتِ؟».
- لا شيء. حدّقتُ إليه وحسب.
- رفعت جينيوفر حاجبيها مشدوهة مرة أخرى.

- لم أرد إثارة غضبه كما تعرفين.
- أومأت لها جينيفر بنظرة مطمئنة: «أتعرفين يا كارولين أنك رابطة الجأش بالنسبة إلى دودة كتب. هل أخبرك أحدٌ بذلك من قبل؟».
- لا. أنتِ أول من يخبرني بذلك.
- في الممر بالخارج كانت الطبول تدق وتدق.
- هل حدث ذلك حين
- لا. أعني أنه حاول. لكن جاءتني ضربة حظ.
- «ضربة حظ»؟
- ألقى بي على الأرض، فركلته ركلة قوية نوعاً ما.
- أنتِ ركلتِ ديفيد!
- قليلاً.
- ألم يصدّها أو شيءٌ من هذا؟
- لقد فاجأته. ولا أظن أنه توقع مني مقاومته.
- نظرت إليها جينيفر بنظرة حائرة: «لا. لا أظن ذلك. لكن يا كارولين... إذا لم تمانعي سؤالي... لماذا؟».
- ماذا تقصدين؟
- ألن يكون الأمر... أسهل... لو أنك واكبتِ رغبته؟ ما أقصده أن فكّك لم يكن مكسوراً فحسب، بل مهشّماً، في حالة هي أسوأ ما رأيت في حياتي. ثم إنه علّقك على ...
- أذكر ما فعله يا جينيفر. كنتُ حاضرة.
- آسفة. لكنكِ تفهمين مقصدي، صحيح؟
- كانت جينيفر محقة. ما زال ديفيد هو التلميذ المفضّل لدى الأب. وله امتيازات أكثر من غيره. وكان من الأسهل أن تنعزل داخل نفسها، وتسايهه حتى ينتهي مما يفعله. كان هذا ما فعلته أول مرة جاء فيها ديفيد إلى جناحها عارياً. ولا شك أنها ستفعل ذلك مرة أخرى. لم يكن ما دار بينهما ممتعاً، ولم يكن شيئاً كذلك، مثل مآدبة عودتها إلى الديار مثلاً.

عدا أن عزلتها داخل نفسها لم تكن خيارًا متاحًا هذه المرة. فمن زاوية سقوطها سيصبح رف كتبها الصغير في الزاوية على مستوى نظر ديفيد. ربما تقبل اغتصابه لها، لكن السماح له بالنظر إلى رف الكتب في زاويتها. هذا ما لا تستطيع القبول به مطلقًا.

اخترقتها نظرات جينيفر الثاقبة. ودقات قلب كارولين تتردد في جنبات رأسها. «إذا صرخت باسمي، سأتوقف». وفي الممر تتصاعد وتيرة طبول بيتر حتى تكاد تقارب الذروة. «إذا صرخت باسمي، سأتركك وشأنك». الآن، كما فعلت مع ديفيد واستفزته لكي يسحلها ويضربها بعيدًا في ركن آخر قبل أن يغتصبها، فهمت أن عليها -يجب عليها- ألا تسمح لجينيفر بتخمين السبب. فكرت كارولين في عجالة، وقررت أن تسمح بشيء مما تخبئه من حقيقة بواطنها بأن يظهر على وجهها. «لماذا؟».

وراح إيقاع الطبول يتردد في الممر مثل دقات تتردد في قلب عملاق عاصف.

كارولين: «لماذا؟».

قالتها مجددًا، لكن هذه المرة بصوت أعلى. إن أفضل الأكاذيب تحمل في طياتها شيئًا من الصدق. ثم أضافت: «أتسألين «لماذا؟» ألم تجمعكِ أنتِ وديفيد لحظة من قبل؟».

- مم، صحيح. لكن ...

- إذن لا تسأليني لماذا يا جينيفر. لأن جواب لماذا يجب أن يكون واضحًا حتى للأعمى.

وكادت كارولين تصرخ وهي تنطق بكلماتها الأخيرة.

- بالتأكيد.

أجفلت جينيفر وهي تتراجع مبتعدة عنها، وعلى وجهها لمحات من اليأس والعجز لم تدم إلا لجزء من الثانية قبل أن تعود إلى هدوئها المهني: «أعتذر». كان بإمكان كارولين أن تستشف مدى صدقها كذلك. لقد صدقت كل كلمة نطقت بها. وسواءً أكانت جينيفر جبانة أم لا، هذا لا ينفي أن لها قلبًا طيبًا. ولا تقصد شيئًا إلا المساعدة دومًا. أعادت كارولين نبرة صوتها إلى مستويات الحوار العادية، وأعادت غضبها إلى مكانه مجددًا.

- لا بأس. أنا آسفة أيضًا. لقد كان يومًا طويلًا. أسبوعًا طويلًا. أو أيًا كان هذا.

- أتفهم ذلك. أما زلنا أصدقاء؟

- بالتأكيد.

هذا صحيح تمامًا، ولا يمت للموضوع بصلّة أيضًا. فتساءلت كارولين إن كانت جينيفر تفهم ذلك.

- رائع. أنا آسفة يا كارولين. لم أقصد أن أضغط عليك. لكننا نحتاج حقًا إلى التحدث. أعتقد أنك أكثر انزعاجًا مما تبدين.

أجابت كارولين: «أود كثيرًا (كانت تشعر برغبة في الصراخ، لكن في المقابل اكتفت بابتسامة بسيطة) لكن ليس اليوم، اتفقنا؟».

- اتفقنا. لكن قريبًا.

- بالتأكيد.

أومأت جينيفر متفهمة. ما إن أنهت واجباتها المهنية حتى حوّلت انتباهها إلى غليونها الفضي الصغير. وبعد لحظة نفثت سحابة هائلة من الدخان على شكل مخروط وأصدرت آهة خافتة، ثم استطردت: «مع ذلك عليّ أن أعترف أنك تتمتعين بمهارات باهرة في التأقلم. (هزّت رأسها). بيني وبينك، لست أول شخص يعلّقه ديفيد بمسمارٍ في المكتب. ربما ما يفعله هو نوعٌ من الشهوة أو شيء كهذا؟ لقد فعل الشيء نفسه مع بيتر الشهر الماضي. على الأقل ظلّ بيتر حيًا بعدما فعل به هذا، لكنه محطّم نفسيًا. وإذا لم أبقه مخدرًا طيلة الوقت، يتكور على نفسه في أقرب ركن وينتحب. (توهّجت مقدمة غليونها بلونٍ برتقالي وهي تسحب نفسًا آخر). أنا لا أحكم عليك أو أستنكر ما فعلته. لو حصل لي ما حصل لك، لكنّ أنا نفسي في حالة مزرية تمامًا».

نظرت إليها كارولين مشدوّهة. لقد افترضت أن ديفيد قد زارهم جميعًا في غرفهم في وقتٍ ما. لذلك سألت: «ألم يأتِ...؟».

- لا. ليس أنا. ليس بعد، على أي حال. لكنني بدأت أظن أنه لن يأتي أبدًا.

- حقًا؟ (هذا مثير للاهتمام). لماذا تظنين ذلك؟

رفعت كتفها في تشكك: «لست متأكدة. ربما الامتحان هو السبب. مرّت أوقاتٌ كان ليغرق خلالها في ألمٍ شديد لولا مساعدتي».

- أتذكر ذلك. لكن... امتنان؟ وديفيد؟

تنهّدت جينيفر: «نعم. أنتِ محقة. ربما ليس هذا هو السبب. أنا أحاول دومًا أن أحسن الظن بالناس. إنها نقطة ضعف. ربما الاحتمال الأرجح هو أنه يخشى أن أتركه ميتًا ذات يوم».

استغرقت كارولين من قبل في البحث عن طريقة تطرح بها هذا الموضوع تحديدًا. وظنت أنها تعرف الجواب سابقًا، لكنها تدين لجينيفر باليقين. فسألتهما: «هل تفعلين؟».

- أفعل ماذا؟

- تتركينه. ميتًا.

رفعت جينيفر عينيها عن غليونها: «مم. من المثير للسخرية أنكِ تسألين مثل هذا السؤال الآن. فقد حدث شيءٌ مشابه تمامًا مؤخرًا. كان هو ومارجريت يقضيان إحدى لياليهما (ورفعت حاجبها بإيماءة ذات مغزى) وكان من المفترض بي أن أمرّ بهما في الصباح وأقوم بعملتي».

- تعاليجيهما؟

- أعيدهما إلى الحياة.

- حقًا؟ كلاهما؟

أومأت جينيفر بإيجاب: «على الأقل مرة كل شهر، هذا مؤخرًا. أظن أنها فكرة مارجريت. بدأ الأمر منذ عدة أعوام بأذرع مكسورة. ثم تصاعدت الوتيرة منذ ذلك الحين. ما إن ينهي حاجته منها وينهي حياتها، ينصب لنفسه حبل المشنقة».

- فهمت.

- حقًا؟ اشرح لي الأمر لي إذن. (زفرت جينيفر تنهيدة). على أي حال، وقفتُ أنظر إليهما، كانا في حالة فوضى عارمة، وهو ما يحتاج إلى عمل نصف يوم كامل على الأقل. حينها خطر ببالي أنه ما من أحدٍ لديه أي فكرة عن مقدار الوقت الذي مضى حين أعيدهما إلى الحياة. ومع هوس أليشيا بالساعات. (تحطّم أليشيا الساعات ما إن تراها، وكارولين تحتفظ بساعاتها في درج). يبدو من الصعب تحديد اليوم الواحد من غيرهِ هنا. (أخذت جينيفر نفسًا آخر). لذلك فكّرتُ في الأمر لدقيقة فحسب، ثم أغلقت الباب وذهبت لتناول الفطور.

هزّت كارولين رأسها غير مصدقة وعلى وجهها ابتسامة عريضة: «مدّش. يوم أو اثنان من دون ديفيد، ها؟».

ابتسمت جينيفر ابتسامة عريضة هي الأخرى: «لم أظن أن أحدًا سيمانع».

- كنّا لنقيم لك موكبًا استعراضيًا. لمّ لم تقولي شيئًا؟

اضطربت ملامح جينيفر، واغتم وجهها: «حسنًا... لم ينجح الأمر تمامًا».

- ماذا تقصدين؟

أجابت جينيفر بنبرة هادئة: «عاد الأب إلى الديار مبكرًا. تلك الظهيرة. وكان هو من وجدهم وأعادهم إلى الحياة».

شعرت كارولين بدفعة باردة من الخوف من أجل جينيفر. فكما هو من واجب كارولين أن تقدم خدمة الترجمات وقت الحاجة، كانت مسؤولية جينيفر أن تعيدهم إلى الحياة حين يموتون، سواء كان في وقتٍ محدد سلفًا طلبه المتوفى أو في أسرع وقتٍ ممكن في حالات الحوادث. إن التخلّي عمدًا عن ممارسة علوم فهرسك ليس بقدر السوء الذي تجنيه من مشاركتك إياها، لكنه يظل سيئًا ومستحقًا للعقاب.

- يا إلهي... لا. ماذا فعل؟

رنت جينيفر إليها بنظرة هادئة: «أخذني إلى الثور».

- يا إلهي!

- صحيح. لم أخف هكذا خوفًا في حياتي كلها. لم يحملني على الدخول إليه أو شيء من هذا، بل ذهبنا إليه فحسب. ثم وجّه إلي حديثًا قاسيًا. عن المسؤولية المهنية، وحياة المريض التي تعتمد عليّ، وما إلى ذلك.

رمقتها كارولين بعينين جاحظتين: «أهذا كل شيء؟».

ربما كانت عقوبة قاسية كالثور مبالغ فيها بعض الشيء في هذا الموقف، حتى بمعايير الأب. لكنها توقعت عقوبة مثل خمسين جلدة. خمسين جلدة على الأقل. على أي حال، ما من عقوبة ستفاجئها مثلما فعل «السلخ حيًا».

أومأت جينيفر بإيجاب: «هذا كل شيء».

- ألدك فكرة عن السبب؟

هزّت جينيفر كتفها في عدم معرفة: «لم يكن يومًا قاسيًا عليّ كقسوته على الآخرين، لكن فيما يتعلق بشيء كهذا... حسنًا، أنا متفاجئة مثلك تمامًا».

رمقتها كارولين بنظرة ترقُب. فأجابت جينيفر: «أنا لا أعرف حقًا، لكن... اسمعي، هذا بيني وبينك، اتفقنا؟».

أومات كارولين بإيجاب.

- خطر لي أنه لو أصاب الأب أي مكروه، فربما أكون أنا الوحيدة التي بإمكانها إعادته إلى الحياة.

- ماذا عن ...

أجابت جينيفر: «ليزل (أحد أفراد حاشية الأب) ليزل تتقدم في العمر، وصراحةً هي ليست بارعة كما تتخيلين. على أي حال، سمعتُ شائعات عن احتمالية وجود... مشكلات سياسية. وما كانت هذه الهدنة سهلة قط. وقيل إن ليزل ليست راضية نهائياً عن هذه النسخة من الواقع. وعلى حد علمي، فأنا وهي الوحيدتان اللتان درستنا الكتاب الأبيض».

والكتاب الأبيض أي مجال الطب هو المخطوطة التي دوّن فيها سر الإحياء. فكَرَّت كارولين: «مدهش. هل فكرت فيما ستفعلينه لو وصلت الأمور إلى ذلك الحد؟».

- أي حد؟

أوضحت كارولين بنبرة هادئة: «لو مات الأب، وكنتِ أنتِ الوحيدة الباقية التي يمكنها إعادته إلى الحياة».

اتسعت عينا جينيفر. ولمّا تكلمت، اختارت نبرة رسمية كأنها تتكلم إلى جمهورها، وقالت: «سأعيد الأب إلى الحياة بالطبع».

- بالطبع.

ثم همست جينيفر: «أنا... كارولين، لا أعرف إن كنتِ تعرفين ذلك، لكن هناك أمورًا لا يجدر بكِ حتى التفكير فيها. لا وأنتِ في حضرة الأب، وربما ولا في أي مكان آخر. وأعني كل كلمة أقولها. لا تفكري حتى». (توقفت عن الكلام قليلاً، ثم تابعت بهدوء تام): «يمكنه أن يسمع».

همست كارولين بدورها: «أعرف ذلك».

كانت تعرف أيضاً، فحدّثت نفسها: «لكن هناك أيضاً ما يسمى بالمخاطر المحسوبة». وتساءلت إن كانت جينيفر تعرف شيئاً عنها. ربما

لا. ثمة احتمال أن يتجنب هؤلاء اللطفاء المرتعدون دومًا التفكير كثيرًا في المخاطر المحسوبة.

ثم أضافت: «لا يمكنه أن يكون في كل مكان، طوال الوقت. أليس كذلك؟». ضاقت عينا جينيفر. وأشاحت بوجهها بعيدًا وانشغلت في سحب حامل حقيبتها. ثم قالت: «لا أريد سماع المزيد عن هذا الأمر. أنا أعني ما أقوله يا كارولين. لا الآن، ولا في أي وقتٍ آخر. لن أنطق بأي شيء عن هذا. لن أفكر حتى في أي شيء يتعلق به، إذا استطعتُ تجنبه، لكن إياك أن تحدثيني عن شيء كهذا مرة أخرى أبدًا. فإذا فعلتِ، سأخبر الأب فورًا. هل كلامي مفهوم؟». أجابت كارولين: «مفهوم».

لاحظ الجانب المهني في عقلها أن جينيفر استخدمت عبارة «هل كلامي مفهوم؟» -النسخة المفضلة للأب- عوضًا عن التعبير الأكثر عامية «فهمتني؟» الذي يستخدمه بقيتهم فيما بينهم. فكَرَّت كارولين: «لا بد أن هذا نتاج قضائها وقتًا طويلًا معه».

ثم أضافت: «لن أفعل. ولا أقصد أي شيء حقًا يا جينيفر، أنا...».

- نعم. لا بأس. لا مشكلة على الإطلاق. سنتظاهر أن هذا لم يحدث قط.
- أومات كارولين. وبدا لها من الأسلم ألا تنطق بحرف.
- دَسَّت جينيفر الملاقط في حقيبتها ثم ضيَّقت رباطها: «حسنًا، اسمعي. عليَّ الذهاب الآن. كما أتوقع أنك بحاجة إلى الاختلاء بنفسك قليلًا».
- وأحتاج إلى الاستحمام كذلك. لكن شكرًا لك يا جينيفر. على كل شيء.
- على الرحب والسعة. (ترددت جينيفر قليلًا). اسمعي... في وقتٍ لاحق هذه الليلة سنجتمع أنا ورايتشل وأليشيا لندخن الحشيش ونصعد لنشاهد مجرة درب التبانة. ليلة فتيات فحسب، لكن بيتر أعدَّ لنا سلة نزهة. ونحب أن تنضمي إلينا.
- هذا لطفٌ منك حقًا، لكن لا أستطيع. أنا متأخرة في دراستي قليلًا. ولدي امتحان قريب ...

رفعت جينيفر يدها لتقاطعها.

- ماذا؟

- سامحيني يا كارولين لكن ما تقولينه مجرد هراء. أنتِ لستِ متأخرة في دراستك. فبالمعدل الذي تدرسين به، قد تموتين لمدة عامٍ كاملٍ وستظلين متقدمة على جدول دراستكِ بأسبوعين. لماذا لا تنضمين إلينا؟ سنقضي وقتاً ممتعاً. أنتِ ما تزالين تذكّرين المتعة، صحيح؟

ارتسم على وجه كارولين ابتسامة أخرى، لكنها باردة بشكلٍ ملحوظ: «لا أستطيع حقاً».

نقرت جينيفر بأصابعها على إطار الباب: «نعم. لم أنوِ إثارة هذا الأمر حتى وقتٍ آخر، لكن ...».

- أنا حقاً في حاجة إلى ...

- أمهليني لحظة. حسناً؟ سأنجز كلامي.

أومأت كارولين بإيماءة شديدة الاقتضاب، ولم تعد تبتسم مطلقاً.

- شكراً لكِ. (أخذت جينيفر نفساً عميقاً) اسمعي... جزءٌ من علوم فهرسي تعني بتعليمك كيف تتحدثين إلى الناس. يفضلُ بعض الناس الحديث بحذر حول موضوع بعينه. بينما يفضل آخرون تلطيف الأمور، وإظهارها بأفضل صورة ممكنة.

- حقاً؟ كم هذا رائع!

- لكن مع الأشخاص ذوي الشخصيات القوية، فالنهج الأفضل هو الاستغناء عن هذه الأساليب. والاكتفاء بطرح الحقائق كما هي. وهذا النهج هو ما سأتبعه معكِ.

أجابت كارولين: «أقدّر لكِ ذلك. لقد كنتِ دوماً صديقة جيدة يا جينيفر. لقد كنتِ دوماً ...».

رفعت جينيفر يدها لتقاطعها مجدداً: «اعفيني من هذا الحديث. أنا صريحة ومباشرة معكِ يا كارولين. بادليني الاحترام نفسه».

أومأت كارولين بإيجاب: «حسناً. كما تشائين. ماذا تريدين أن تخبريني؟».

- شكراً لكِ. إليك ما أفكر فيه: هناك نوعٌ محدد من الجنون متفشٍّ بين الناس هنا. مارجريت مصابةٌ به، وحالتها أسوأ من أي شخصٍ رأيته أو سمعت به في حياتي. ديفيد مصابٌ به كذلك. كلاهما حالة ميؤوس

منها. ومع أنني عازمة على محاولة علاجهما، لكن إذا لم تتغير الأمور
تغيراً جذرياً، فما يعانيناه هو مرضٌ لن أقدر على علاجه أبداً.

- وما علاقة هذا ...

أجابت جينيفر بجدية: «أنتِ تظهرين علامات أيضاً. كنتِ سأتثير الموضوع
معكِ على أي حال، حتى قبل تلك... المسألة... مع ديفيد».

- أي علامات؟

- المصاب بهذا النوع المحدد من الجنون، يتوقف عن محاولة تحسين
الأمر. يبدأ في محاولة تكبير المشكلات. ويتظاهر بأنه مستمتع بها.
وفي نهاية المطاف يبدأ في جعل كل شيء أسوأ بأقصى ما يستطيع.
إنها آلية هروب. (حدّثت جينيفر بعينها إلى عيني كارولين). لكن الأمر
لا ينجح فعلياً، ولهذا يسمونه جنوناً.

كارولين: «فهمت. هذا أمرٌ مثير للاهتمام حقاً. شكراً لكِ على تلك المعلومة».
تنهّدت جينيفر وهي تستند بظهرها إلى إطار الباب: «نعم. على الرحب
والسعة. فكري في الأمر فحسب، اتفقنا؟».

- سأفكر.

فتحت جينيفر الباب وخرجت إلى الردهة شاعرةً بالارتياح.

- اسمعي، إذا كنتِ لا تريدين الانضمام لنا الليلة، فلا بأس. لا يمكنني
إجبارك على أي حال. لكن أظن أن عليكِ القدوم. هذا هو رأيي المهني،
ورأيي كصديقة لكِ أيضاً. وفي حال رغبتِ، وهي رغبة غير متوقعة
لكنها مرحبٌ بها، في الحديث أكثر عن، كما تعلمين، الأمور الأخرى،
فأنتِ تعرفين أين تجدينني. وإلا، فلكِ تمنياتي بالتوفيق، وتعازيٍّ عما
حدث.

نظرت الفتاتان إلى بعضهما لوقتٍ طويل. ثم سألت كارولين أخيراً: «أهذا
كل شيء؟».

قلّبت جينيفر عينها في محجريهما: «نعم. هذا كل شيء».

- شكراً لكِ مجدداً.

- عفواً، في أي وقت. سنلتقي عند سلالم اليشم الأخضر عند غروب
الشمس.

2

لمّا رحلت جينيفر، هبطت كارولين إلى الحمامات للاغتسال. كانت الحمامات عمومية ومشتركة بين الجنسين، لكنها لم تجد أحدًا هناك في ذلك الوقت. ملأت أحد أحواض الاستحمام بأشد الماء حرارةً، ثم غسلت نفسها. ولمّا أنهت نهضت وجففت جسدها.

أخذت رداءً نظيفًا لترتيديه، لكنها نظرت إليه، ثم علّقته في مكانه مرة أخرى. ملأت حوض الاستحمام بالماء مجددًا، وهي تشعر بقذارته ما زالت عالقة بها. بحثت في الخزانة حتى عثرت على فرشاة خشنة جدًّا وقطعة صابون من مادة كاوية كانت تستخدم لإزالة القطران أو مواد سامة معينة. ظلّت تفرك جسمها حتى احمرّ جلدها، وواصلت الفرك حتى نزف جلدها. ولم تتوقف إلا حين شعرت بنفسها تبكي. لملمت شتات نفسها ثم جففت جسمها للمرة الثانية.

دخلت رايتشل إلى الحمام حين كانت كارولين ترتدي ملابسها. ورمقت كارولين بنظرة مليئة بالشفقة وهي تقول: «مرحبًا! كيف حالك؟».

انشغلت كارولين بتجفيف شعرها ورفعها على رأسها: «بخير. لماذا؟».

- أنا، مم... كما تعرفين. سمعتُ بما حدث. (سارت رايتشل إليها ووضعت يدها على كتفها). إذا أردت الانضمام إلينا لاحقًا، يمكنني وأليشيا أن ... نظرت كارولين إلى يد رايتشل على كتفها: «شكرًا لك. لكني بخير. حقًا، لم يحدث شيء».

- مم... حسنًا. كما تشائين. لكن إذا غيرت رأيك ...

- أنتِ طيبةٌ جدًّا.

أشبهت نبرتها نبرة ديفيد قليلًا. لم تع أيتها ذلك التشابه، لكن رايتشل تركت يدها تسقط عن كتف كارولين.

رايتشل مجددًا: «حسنًا».

قطعت كارولين الردهة المؤدية إلى غرفتها. وفي طريقها مرّت بديفيد والأب يتمشيان في الردهة. كانا مغطينين بدروعٍ واقية من رأسهما إلى أخمص قدميهما، وينزّان عرقاً.

بدا أن الأب لم يلحظ وجودها من الأصل، لكن ديفيد استقبلها بابتسامة عريضة أظهرت غمّازتيه: «مرحباً كارولين!».

أومأت له بوجهٍ جامد يخلو من أي تعبير: «مرحباً ديفيد».

غمز لها بطرف عينه. فلم تحر كارولين ردّاً على الإطلاق.

لمّا دخلت إلى غرفتها، أغلقت الباب من ورائها وأقفلته. لم تُضَيّع مزيداً من الوقت في التفكير في ديفيد. صحيحٌ أنها المرة الأولى التي يقتلها فيها، لكنه أوجعها من قبل، وتجاوزت هي ذلك الوجع. هذا هو عالمها الآن، وقد تأقلمت عليه.

بدأت في تنظيف الغرفة. كانت بطبيعتها شخصاً مرتّباً، وهذه المسألة تركت غرفتها فوضوية. كانت تصرُّ على أسنانها وهي تعيد ترتيب الكتب في الأرفف أولاً، ثم أعادت المكتب إلى وضعه الصحيح، وفركت الدماء. دُمّر قلم مونت بلانك الذي عذّبها به، لكنها فكرت أن قلم مونتجربا الذي استخدمه في جرح ذراعها الأخرى سيعود إلى حالة جيدة بعد تغيير سنّ القلم. عضلات فكّها تتقلّص، وبراجمها تنفر منها الدماء، نظّفت القلم بمحلول أمونيا وماء، ولمّعته، ثم وضعت في كوب القهوة الذي تستخدمه كحامل للأقلام.

بحلول المغرب، حين كانت جينيفر ورايتشل وأليشيا في طريقهن إلى النزهة، كانت كارولين قد أعادت الغرفة إلى نظامها السابق. وعندئذٍ عادت إلى قصاصة الورق التي كانت تحملها حين جاء ديفيد إليها. لمّا أغلق الباب وراءه، استخدمتها كعلامة مرجعية للنص في كتاب كُوث. لكنه لم يلاحظ.

عثرت كارولين على العلامة المرجعية تلك منذ ثلاث سنوات في أحد النصوص الإسبانية؛ مسودة أولية من كتاب يتناول طرق السفر المتنوعة. لم تكن جزءاً من علوم فهرسها، وبدا أن أحدهم تركها داخل النص الإسباني بالمصادفة. كانت تصف شيئاً يسمى «ألشاك أوركون» وهو ما يعني «الذي يجعل الضوء يمر». وهذا يتعلق بشيء يطلق عليه «ألشاك سابوليث» وهو ما يعني «الذي يجعل الأشياء البطيئة سريعة» من الناحية النظرية. واتضح أن لك «ألشاك سابوليث» بعض الآثار الجانبية التي جعلت استخدامه غير عملي.

أما «الشاك أوركون» فهو عملي للغاية. ويجعل الأشياء المادية شفافة للطف الكهرومغناطيسي، يجعلها غير مرئية من بين جملة أشياء أخرى. وحين يجري تفعيله على إنسان مثلاً، فذلك الشخص يتجول بحرية ودون أن يلاحظه أحد، مهما كانت طبيعة مَنْ يراقبه.

لكن له بعض السلبيات كذلك، وأسوأ هذه السلبيات هو أن الخلايا المستقبلية في العين شفافة للضوء أيضاً، وهذا يعني أنك ستظل فاقداً للبصر طوال المدة التي يطبّق فيها الـ «أشاك». لكن إذا توخيت الحذر، وخططت طريقك مقدماً، يمكنك التجول دون مشكلات.

التقطت كارولين الكتاب المخفيّ في رف الكتب الصغير في الزاوية، الكتاب الذي أخفت وجوده عن ديفيد مقابل ذلك الثمن الرهيب. لا شك أن ديفيد كان ليميزه على الفور بالطبع؛ كان مغلفاً بغلاف من الجلد الأحمر، كما هو حال جميع الكتب في علوم فهرسه. أما الكتب في فهرس كارولين فمغلّفة باللون الأخضر. كان عنوان الكتاب الأحمر هو «الحرب النفسية، المجلد الثالث: إخفاء الأفكار والنيات». وهو نصّ على مستوى متقدم؛ أنهت كارولين قراءته في الليلة التي تسبق ليلة وفاتها.

وقفت على أعتاب صومعتها، ثم أدت طقوس الـ «الشاك أوركون». لم تحتج إلى الاسترشاد بقصاصة الورق، لم تعد بحاجة إلى ذلك. صار كل شيء تحتاج إليه محفوظاً في ذاكرتها. ولما أنهت الطقوس، استحال العالم إلى الظلمة. استدارت إلى اليمين والكتاب الأحمر بحوزتها. أمامها سبع وثلاثون خطوة تقطعها في الممر لتصل إلى السلم. ثم ثلاثون درجة لكي تصل إلى الطابق الرئيسي للمكتبة؛ ارتفاع كل درجة منها 9 إنشات. هذا يأخذها إلى أرضية اليشم. ومن هناك، ستقطع ألفاً واثنين وثمانين خطوة لتصل إلى أرضية الياقوت، حيث تُرتّب كل الكتب ذات الأغلفة الحمراء.

أخرجت الكتاب الذي خبّأته، وهي ما زالت تحصي خطواتها، وأعادته إلى الرف الذي جاء منه: الرف الشعاعي الثامن، الخزانة الثالثة والعشرون، الرف التاسع. أعادته كارولين إلى الفتحة الثانية عشرة إلى اليمين، تماماً حيث وجدته قبل أسبوع. ما عادت بحاجة إلى الاسترشاد بالكتاب ثانياً، فقد درسته بتمعّن. وأتقنت مهارة إخفاء الأفكار والنيات. والآن حان الوقت للانتقال إلى أمورٍ أخرى.

أخذت كتابًا مختلفًا من الرف الثاني للخزانة نفسها، الفتحة الثامنة. عرفت أن الكتاب سيكون أحمر كذلك، وغلافه بلون أحمر قانٍ يشبه الدماء التي تسير في الشرايين.

ما إن عادت إلى صومعتها، أغلقت الباب وراءها. توجهت إلى مكتبها، وجلست إليه ثم أوقدت مصباحًا زيتيًا. حتى مع تلاشي بقع الدم، تأذى مكتبها بندبتين، على بعد ذراع تقريبًا. فكَّرت في إغلاق الندبتين، ثم عدلت عن الفكرة. ستنظر إليهما من وقتٍ لآخر، وسوف تساعدانها على التركيز. ثم ارتسمت على وجهها ابتسامة بسيطة وهي تفتح الكتاب الأحمر الذي سرقتة -بل استعارته- من فهرس ديفيد.

كان هذا نوعًا من الغش. تذكر أول مرة صادفت فيها العلامة المرجعية التي ورد فيها ذكر «ألشاك أوركون» قبل ثلاث سنوات. ومنذ ذلك الحين وهي تنهمك في الدراسة. بدأت دراستها بفهرس جينيفر، ثم تنقلت بين الفهارس ما إن بدأ مخططها يتخذ شكلًا. لم يكن المسار الدراسي الذي وضعته ليوصلها إلى ذلك المجلد قبل شهرٍ أو اثنين آخرين. لكنه المجلد الذي ظَلَّت تتطلع لدراسته بشغفٍ تام، وفكَّرت أنها تستحق مكافأة الليلة بعد كل ما حدث. طُبِع العنوان واسم المؤلف على الغلاف بورق الذهب وفقًا للتقليد الغربي. وعُنون الكتاب باسم «تخطيط وتنفيذ القتل الانتقامي» لمؤلفه آدم بلاك.

فتحت الكتاب على «الفصل الثاني: ملاحظات حول إخضاع العدو المتفوق عسكريًا».

واصلت القراءة حتى وقتٍ متأخر من الليل.
وشعرت خلالها بارتياحٍ شديد.

الفصل الحادي عشر

ملاحظات حول إخضاع العدو المتفوق عسكرياً

1

كارولين: «هنا مناسب».

توقّف ستيف على بعد ربع ميل من مدخل جاريسن أوكس. لم يكلف نفسه عناء التوقف على جانب الطريق. كانت كارولين متوترة وعصبية وتتأرجح للأمام والخلف في مقعدها. لم يرها ستيف على هذه الحالة من قبل، وناجا تراقبهما من المقعد الخلفي مشدوهة.

شارفت الساعة على التاسعة مساءً. ولاحظ أن ضوء النجوم نفسه قد اختفى هو الآخر. خاطب نفسه: «هل السماء مليدة بالغيوم فحسب، أم فعلت شيئاً بالنجوم هي الأخرى؟». وأدرك بشيء من التيه أنه يمرُّ بحالة تشبه الصدمة.

- لماذا توقفنا؟

أشارت كارولين. ومن مكانٍ ليس ببعيد عن لافتة الضاحية، أضواء مصباح الشارع، مثل جزيرة صغيرة من النور وسط بحرٍ من الظلمة لا قرار له. حدّق

ستيف في المشهد، فلاحظ ثلاثة أشخاص يقفون تحت ضوء المصباح. لم يكن نظره صحيحًا بما يكفي ليتبين ملامح الوجوه، لكن من الواضح أن أحدهم يرتدي تنورة باليه. وفي عمق أعماقه شعر ستيف بالخوف ينساب بداخله، باردًا متوهجًا.

- أهذا ديفيد؟

زمت كارولين شفيتها مستغرقة في التفكير، ثم أومأت: «إنه ينزف. لا بد أن مهارات إروين أفضل مما توقعت. لقد مرَّ وقتٌ طويل منذ أن تسبب أحدهم في نزيفٍ لديفيد».

- أهذا إروين هناك؟

أومأت مجددًا.

- ماذا يفعل هنا؟

- إنه غاضب. لقد أتى ليمزق الأوغاد.

- هل يقصد أحدًا بعينه؟

- الأعداء. أنا، وديفيد، وكل من تبقى منّا. لقد أدرك أننا سنعود إلى هنا في النهاية. إنه ذكي حقًا.

- لكن ماذا ...

- صه!

رفع إروين المسدس في وجه ديفيد، فابتسم الأخير ابتسامته العريضة. مال إلى الأمام ووضع أنفه على فوهة المسدس. أطلق إروين الرصاصة. فأصاب المزلق حجارة فارغة. وسدد ديفيد لإروين لكمة في الفم.

كارولين: «حسنًا. حان وقت اللعب».

- ماذا؟

- لاحقًا سأخبرك. أما الآن فأريد منك أن تذهب إلى المكتبة. هل تذكر في أي منزل هي؟

- أذكر، لكن... أنت لن تذهبي إلى هناك، أليس كذلك؟

أشار ستيف إلى مصباح الشارع وديفيد. وفي المقعد الخلفي زمجرت ناجا.

- سأذهب. وأنت ستذهب إلى المكتبة. ستكون في أمانٍ هناك. وسألحق بك ما إن أنهي مهمتي.

- ماذا؟ هل أنت مجنونة؟ أليدك أي فكرة عما يستطيع هذا الرجل فعله ... كارولين: «ستيف، يجب أن تنصت لما أقوله. ليس أمامنا وقتٌ طويل. لا بد أن أذهب إليهم، وأنت لن تأتي معي».

- ستذهبين إلى هناك؟ بمفردك؟

أومات بإيجاب.

- سأذهب معك. ربما أستطيع ...

- ستيف. أنصت إليّ. أنا لا أقول ما أقوله لإهانتك، لكن إذا وصل الأمر إلى الشجار مع ديفيد، فلن تحظى بأي فرصة للفوز مطلقًا. نهائيًا. مستحيل أن تفوز.

فتح ستيف فمه ليجيب، ثم تذكر أنّ ديفيد كان قادمًا إلى السجن مسلحًا برمحه فقط، وامتلأت ممرات ذلك المكان بجثث رجالٍ مسلحين. أغلق فمه، وبعد برهة أجاب: «حسنًا. فهمت وجهة نظرك. وأنت لديك فرصة لهزيمته؟».

- أكثر من مجرد فرصة.

- كارولين، إذا لم تستطيعي القتال بمهارةٍ أفضل كثيرًا مما تظهرين ... قاطعته: «ستيف. اذهب. ارحل فحسب. أستطيع إنجاز الأمر. ستكون في أمانٍ داخل الـ «ريساك». لا أحد ذا أهمية يستطيع الوصول إليك هناك».

- كيف لك أن تتأكدي من ذلك؟

ترددت كارولين: «أنا متأكدة فحسب. منذ وقتٍ طويل، أقيم... شيء يشبه حفل العودة إلى الديار. مأدبة. وكانت الوليمة الرئيسية هي ظبيان مشويان. هذا هو محفّز الريساك. لا يستطيع أحدٌ ممن ذاقوا لحوم الظبيان الاقتراب من المكتبة. وهذا يشمل جميع من هم ذوو أهمية. ستكون في أمانٍ هناك».

- لكن ...

- اذهب يا ستيف. سيكون كل شيء على ما يرام إذا تركت لأمر لي. حدّقا إلى بعضهما. وبعد برهة نطق ستيف: «حسنًا. اتفقنا. لكن ماذا تريدني أن أفعل إذا لم يسر الأمر كما خططتِ له؟ هل عليّ العودة، أم ...».

- لا. (كانت نبرتها جامدة). لا تحاول فعل أي شيء. ثمة احتمال أن أخسر الحرب. هذا ليس مستبعداً. وقد يحدث. سنعرف النتيجة في غضون الدقائق القليلة القادمة. إذا لم آت إليك في غضون ساعة أو أكثر، أو إذا رأيت ديفيد، أو لمحته حتى، لا تحاول فعل أي شيء. اعثر على مسدس وفجر رأسك. أو اشنق نفسك. أو أقفز من فوق جسر. افعل أي شيء من هذا. لا يتقن ديفيد مهارة إحياء الموتى، ليس بعد. وريثما يتقن تلك المهارة، ربما يكون قد نسي أمرك.
- فغر ستيف فاه في زهول. فأكدت: «أنا أقصد كل كلمةٍ نطقت بها. لا أمزح، وهذه ليست نكتة. أخبرني أنك فهمت ما قلته».
- بعد وقتٍ لا بأس به، هزَّ رأسه بإيماءة لا تذكر: «نعم. فهمت». ولم يدرك ما إذا كان صادقاً فيما قاله أم لا.
- ارتسمت على وجهها ابتسامة مقتضبة، ثم زفرت نفساً طويلاً.
- لكن الأمور لن تصل إلى ذلك الحد. (تكلمت بهدوء جليّ، وثقةٍ لا مثيل لها). لن أسمح بذلك. (نظرت إلى يديها وأمعنت النظر إليهما. نظر ستيف إليهما هو الآخر. كانت أطراف أصابعها ثابتة لا ترتجف). ما زلتُ أحبكِ يا ستيف. يجب أن تفهم ذلك أيضاً.
- ماذا؟ (قطع كلامه، ثم استأنف). ما زلتِ؟ (توقف عن الكلام مرتبكاً، يخلو رأسه تماماً من أي كلمات ينطق بها. وبعد لحظةٍ محرّجة فتح فمه): كارولين، أنا... (سال لعابه على ذقنه).
- ابتسمت كارولين في شيء من الحزن: «انتظر حتى ينشغلوا بي، ثم تسلل أنت وناجا إلى هناك (وأشارت من وراء كتفها إلى الظلمة الدامسة) السياج لا تحيط بالمكان كله. ستكون في أمان».
- تتبّع إصبعها، فلم يرَ شيئاً: «وماذا عن الكلاب؟».
- ماذا؟ لا. لن يكونوا مصدر إزعاج لك.
- فكّر ستيف: «كانوا مصدر إزعاج لعين بالأمس». لكنه تراجع عن معارضتها. ثمة شيء غريب فيها الآن، شيء يجعلها تشبه كوبرا ملتفة حول نفسها، تتأرجح للأمام والخلف. لذلك تساءل: «كيف لك أن تكوني بهذا اليقين؟ ظننتُ أن الكلاب ملك لوالدك...».
- لن تؤذيك الكلاب يا ستيف. إنها تُطيعني؛ ملك لي منذ وقتٍ بعيد.

حَدَّقَ إِلَيْهَا سَتِيف، ثُمَّ اسْوَدَّ وَجْهَهُ غَمًّا. وَفَكَّرَ: «مَاذَا عَنْ دَرَسْدَنْ؟».

- كَارُولِين ...

قَاطَعَتِهِ بَنْبِرَةً هَادئةً لَدَرَجَةِ تَثِيرِ الْحَنْقِ: «لَا حَقًّا!».

ضَاقَتْ عَيْنَا سَتِيف. «دَرَسْدَنْ! مَنْقُضًا عَلَيْهِ الْقَطِيعَ، مَدْفُونًا تَحْتَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ ظَلٌّ يِقَاتِلُ مِثْلَ ...».

أَضَافَتْ كَارُولِين: «أَنَا مُضْطَرَّةٌ إِلَى الْذَهَابِ الْآنَ. هَلْ فَهَمْتُ مَا تَحْتَاجُ إِلَى فَعْلِهِ؟».

بِالْكَادِ أَتَى سَتِيف بِإِيْمَاءَةٍ دُونَ أَنْ يَظْهَرَ وَجْهَهُ مَدَى اسْتِيَاءِهِ.

- سَأُشْرِحُ لَكَ لَاحِقًا. أَعْدُكَ.

أَمَعْنَتْ النَّظَرَ إِلَيْهِ لِبَعْضِ الْوَقْتِ، فَبَدَأَ وَاضِحًا لَهَا مَدَى اسْتِيَاءِهِ مِمَّا قَالَتْهُ. قَطَّبَ وَجْهَهَا، ثُمَّ مَالَتْ إِلَى الْأَمَامِ وَطَبِعَتْ قَبْلَةً وَاحِدَةً، سَرِيعَةً، عَلَى خَدِهِ الْأَيْمَنِ. وَانْتَهَتْ الْقَبْلَةُ قَبْلَ أَنْ يَدْرِكَ بِحَدُوثِهَا حَتَّى. ثُمَّ غَاصَتْ فِي مَقْعَدِهَا مَرَّةً أُخْرَى. أَغْلَقَتْ عَيْنَيْهَا، وَأَخْرَجَتْ مِنْ رَتْنِهَا زَفِيرًا طَوِيلًا. وَدُونَ كَلِمَةٍ أُخْرَى، فَتَحَتْ بَابَ السَّيَّارَةِ وَتَرَجَّلَتْ لَتَقْفَ أَمَامَ الْأَضْوَاءِ الْأَمَامِيَّةِ. تَمَدَّدَ ظِلُّهَا، حَاجِبًا الضَّوْءَ عَنْ دِيفِيدٍ وَإِرْوِينَ وَمَارْجَرِيتَ.

رَاقِبَ سَتِيفَ الْمَشْهَدَ لِبَرْهَةٍ مَبْهُوتًا.

وَقَفَتْ كَارُولِينُ حَافِيَةً الْقَدَمَيْنِ، تَرْتَدِي الْمَلَابِسَ السَّخِيفَةَ نَفْسَهَا: سُرْوَالٌ قَصِيرٌ ضَيْقٌ، وَسُتْرَةٌ صُوفِيَّةٌ، وَدِفَءَاتُ سَاقَيْنِ، الَّتِي ارْتَدَتْهَا فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ رَأَاهَا فِيهَا، وَصَارَتْ الْآنَ مَمْزُقَةً وَقَذَرَةً. وَخِيطُ دَمٍ جَافٍ يَمْتَدُّ عَلَى جَانِبِ فَخْذِهَا. رَأَى سَتِيفُ نَفْسَهُ وَنَاجَا فِي مِرَاةِ الرُّؤْيَةِ الْخَلْفِيَّةِ، غَارِقِينَ فِي الدَّمَاءِ وَالتَّوْتَرِ، وَالْأَسَدُ يَدُقُّ النَّظَرَ فِي الْمَشْهَدِ مِنْ وَرَاءِ كَتِفِهِ مِنَ الْمَقْعَدِ الْخَلْفِيِّ. رَأَى سَتِيفُ كَارُولِينَ تَسِيرَ نَحْوَ الثَّلَاثِيَّ بِانْتِظَارِهَا وَفِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ لَاحِظَ عَضَلَاتِ رِبْلَتِهَا تَبْرُزُ تَحْتَ أَضْوَاءِ الْمَصَابِيحِ الْأَمَامِيَّةِ مَعَ كُلِّ خُطْوَةٍ.

ثَمَّةُ شَيْءٍ فِي هَذَا الْمَشْهَدِ، لَمْ يَحْدُدْ كُنْهَهُ قَطُّ، يَذْكُرُهُ بِدَرَسْدَنْ، وَهُوَ يَسْتَدِيرُ لِيُوَاكِهَ قَطِيعَ الْكَلَابِ أَمَامَهُ، وَكُلَّ عَضَلَةٍ فِي تَشْرِيحِ جَسَدِ ذَلِكَ الْأَسَدِ تَبْرُزُ فِي جَاهِزِيَّةِ حَذَرَةٍ، كَأَنَّهَا وَسَائِلُ صَامِتَةٍ تَخْضَعُ لِإِرَادَتِهِ الْغَاضِبَةِ الْجَبَّارَةِ.

راح ديفيد يلف مسدس إروين على طرف إصبعه كأنه لعبة، وإروين راكعًا أمامه يحاول النهوض. صوّب ديفيد فوهة المسدس إلى رأس إروين وقال: «بوم!». ثم ضحك وقذف بالمسدس في أغوار الظلمة. جلست مارجريت تحتضن رأس الرئيس المقطوع في حجرها، وتهدل له في رفق. تحرّكت شفّتا الرئيس الميت في صمت.

لم تتبين كارولين ما يحاول قوله.

- مرحبًا ديفيد!

استدار ديفيد. مغطى بالدماء من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، دمًا تكاد تكون جافة. تصلّبت طبقات الدانتيل في تنورته القصيرة، وبرزت كالأشواك. وعلى جلده علقت قطع من اللحم هنا وهناك. فاح برائحة معدنية، ونفحة من العفن تختفي في طياتها، أو ربما فاحت رائحة العفن تلك من مارجريت. رسم ابتسامته العريضة من الأذن إلى الأذن، وبدا سعيدًا كما لم يبدو من قبل.

قالت كارولين: «يبدو أنك قضيت ليلة صاخبة».

انفلتت ضحكة مكتومة من مارجريت.

ديفيد: «مرحبًا كارولين».

غمز ديفيد بعينه إلى مارجريت، وسدد لكمة إلى وجه إروين. ترنّح إروين حتى طرح أرضًا، في حالة بين اليقظة والإغماء. ثم التفت ديفيد إليها.

- إذن... كل هذا من فعلك أنت؟

أومأت كارولين بإيجاب.

- عليّ أن أعترف، أنا مستغرب جدًا. أنت... هادئة جدًا.

- الهادئون بخاصة هم الذين يجدر الحذر منهم.

- سأضع ذلك في الاعتبار. إذن، الأب ميت، أليس كذلك؟

أومأت بإيجاب مجددًا.

اتسعت ابتسامة ديفيد العريضة قليلًا، حتى ظهرت أسنانه قوية وبنية:

«أنت قتلتته؟».

أومأت بإيجاب مرة أخرى.

ألقي ديفيد برأسه إلى الوراء وانفجر في الضحك، ضحكات عالية طويلة.

- مذهل! مذهل فحسب. أراهن (ووجّه إصبعه نحوها) أراهن أن إحداهن كانت تقرأ خارج علوم فهرسها. ها؟ ممم؟

ابتسمت كارولين، رافعة كتفها اعتراضًا بنفسها.

تعالّت ضحكاته مجددًا: «أمل أنك كنتِ حذرة. قد تقعين في المشكلات

بسبب ذلك».

- كنتُ كذلك.

- كيف قتلتَه؟ إذا لم يكن لديك مانع من سؤالي. الأب - كان - ماهرًا

جداً. حتى لو تجاهلنا بقية مهاراته، أظن أنه أفضل مقاتل بالأيدي في

العالم. أخبرني ذات مرة أنه يشعر بشيء من تيبُّس العضلات، لكنني لم

أستطع ملاحظة ذلك حتى. أنا - أنا - ما كنتُ لأرغب في مقاتلته. ليس

بعد، على أي حال. من فضلك أخبريني كيف قتلتَه. الرغبة في المعرفة

تقتلني. اعتبري الأمر فضول الباحث وما إلى ذلك.

- استخدمتُ سكينًا.

ردد الكلمة بنبرة متشككة: «سكينًا».

أومأت كارولين: «وأفضلية عنصر المفاجأة بالتأكيد».

على الأسفلت خلف ديفيد، تحرّك إروين محاولاً دفع نفسه للنهوض.

تقطّب حاجب ديفيد تحت خصلات شعره السميك الغارقة في الدماء

الجافة. وركل إروين شاردًا. كان يمعن النظر بها، محاولاً تحديد ما إذا كانت

تكذب عليه أم لا. تعرف كارولين أنه يتمتع بقدرة على التخاطر. لا تصل

بالطبع إلى درجة إتقان الأب، لكن بإمكانه رؤية صورٍ في عقول أعدائه،

وبخاصة حين يحمي وطيس المعركة. كان لها أن تخفي عنه حقيقة ما

تحدث عنه، وكان لها أن تتركه يتساءل بلا جواب، لكنها لم تفعل.

ردد ببطء: «عنصر المفاجأة. نعم، أعترف أن لك الأفضلية في ذلك. مع

وجود سكين (هزّ رأسه إعجابًا) مدهش. لعلمك، كنتُ سأميل إلى استخدام

السكين لو كنتُ مكانك. الأسلحة البسيطة هي الفرصة الوحيدة للتعامل مع

أحدٍ مثل الأب. وكثيرون ما كانوا ليفهموا ذلك الأمر (نظر إليها شزراً وراح يفكر) أظن أنني استخففتُ بك يا كارولين».

لم ترغب كارولين أن يواصل التفكير في ذلك الاتجاه، فسألت: «هل نجا أحدٌ من منزل السيدة ماجيلكاتي؟».

تمكَّن إروين من الوقوف على ركبتيه الآن، وراح يزحف ببطءٍ بعيداً عنهم.

- لا! أنا واثق أنه لم ينجُ أحدٌ سواي ومارجريت. هؤلاء الجنود بارعون، بالنسبة إلى طبيعة الأمريكيين. ربما تمكَّن فأر من التسلل. ليس أكثر من ذلك. آه، آسف يا كارولين. أنتِ ومايكل كنتما أصدقاء، أليس كذلك؟

شعرت كارولين بنظرات مارجريت تخترقها، جشعة محرقة. فحرصت على ألا تسمح لأي مشاعر تظهر في نبرتها حين تتكلم.

- لا. ليس تمامًا.

قطَّبت مارجريت حاجبيها يائسةً، ثم ركزت انتباهها على رأس الرئيس مجدداً.

- وأظن أن الريساك أريال من صنعكِ أيضاً؟

بدت نبرة ديفيد عادية، لكنه لا يخدع أحداً. لو أن حيلة الريساك أريال من صنعها، فهذا يعني أنها عملت بمفردها. وحين تموت، ستصير المكتبة دون حراسة. وسيجد ديفيد طريقةً للدخول عاجلاً أم آجلاً. ثم يستولي ديفيد ومارجريت بالتركية على جميع علوم الأب. وسيدخل الكون في ظلمة تجعل من العصر الثالث جنَّة إذا ما قُورن به. من طرف عينها، رأت كارولين أن إروين قد وصل إلى الرصيف. فأجابت: «نعم، من صناعي».

- ظننتُ ذلك. ماذا كانت خطتكِ إذن؟ ربما ظننتُ أنني ونوبونونجا سنقتل بعضنا؟

- كان هذا احتمالاً أخذته بعين الاعتبار. (ما قالته صحيح، مع أنها رفضت تلك الفكرة كذلك). لكنه مات أبكر مما توقعت.

كان إروين يترنَّح وهو يلتقط المسدس الفارغ. ونظر إليه كأنما لا يذكر كنهه من الأصل.

- إذن... ماذا بعد؟ هل كان من المفترض بالجنود أن يقضوا عليّ؟ أمريكيون؟ يقتلونني أنا؟ (ابتسم). أهذا ما فكرت فيه؟

هزّت كتفيتها بلا مبالاة: «احتمالٌ وارد. جنودٌ كثيرون، ومدججون بالسلاح. أنتَ لستَ منيعًا يا ديفيد».

ابتسم ديفيد: «صحيح تمامًا. وكذلك أنتِ».

- ماذا لو قلتُ لكَ إنَّ لديَّ عر ...

وكالسهم الشارد، اندفعت إليها يد ديفيد. ثم تفجّر الألم في خدّها الأيسر. أحسّت بطعم الدماء في فمها: «... عرض. يمكننا توحيد قوانا يا ديفيد. لطالما أعجبتُ بك، وأنتَ تعرف ...».

صفعة أخرى.. مزيدٌ من الألم، لكن هذه المرة على الجانب الأيمن. تعالت ضحكات مارجريت.

«... ذلك. أعجبتُ بقوتك». تغلّف قلبها ببرودة الثلج. سقطت على ركبتيها، ووجهها على بعد سنتمترات من منفرج حوضها. ثم تابعت: «وقد أكون ملغًا لك. بإرادتي الحرة. لطالما أردتُ ذلك وأنتَ تعرف. أحيانًا كنتُ أفكر فيك. سرًا. كنتُ لألمّح لك، لولا أنني خجولة جدًا».

كانت تروس خطتها تتجه نحو التعشيق النهائي. في بادئ الأمر رفضت هذا التوجه بشكلٍ قاطع، فقد بدا خدعةً شديدة الوضوح. ولم تفكر فيه بجدية إلا بعد دراسة عميقة. كانت نصوص الأب قاطعة في مدى فاعلية ذلك التوجه، وكما هو موضح في عدد كبيرٍ من الحواشي، يزداد غباء الرجال دومًا بنسبة 50 إلى 60 بالمئة تقريبًا في الأمور المتعلقة بأعضائهم التناسلية. والقرب الشديد يعزز التأثير. والآن بعد تحقيق الموافقة السريرية لهذه التجربة، رأت شيئًا يهيج في أعماق تنورة البالية التي يرتديها ديفيد.

رفعت مارجريت حاجبها مشدوهة. وفي الوقت نفسه إروين يترنّح بقدمين متعثرتين متجاوزًا لافتة جاريسن أوكس، إلى داخل حدود الريسك.

فكرت كارولين: «آمنٌ في الوقت الراهن».

ثم صبّت كل انتباهها على ديفيد. بدا متشككًا، لكنه تشكك لا يخلو من الاهتمام.

قالت وهي تتجه نحوه: «دعني أريك». مدّت يدها، وداعبت ساقه بأطراف أظفارها الحادة.

فاح ديفيد برائحة لحمٍ عفنٍ وعرقٍ حامض. رفعت يدها تتلمّس التلايف القماشية، وراحت تستكشف برفق. وهي تقول: «هكذا، هكذا».

تمت بحدة: «هكذا». وفي الوقت نفسه تغرز أظفار يدها اليسرى الطويلة ذات الطلاء اللامع في إلبته، وتعصرها، وتشدّها إلى الأسفل بأقصى استطاعتها. لم تتمكّن كلياً، أدركت أن تدريبه سيعزز من قدرته على التحمل -وبعد كل ما عاناه داخل الثور، فلا حدود تقريباً لقدرته على تحمل أي شيء وارد- لكنه سيستغرق برهة لحشد قواه. وهي كسبت لنفسها بضع ثوانٍ.

زمجر ديفيد. وراح يهاجمها دون تفكير، محاولاً صفعها بظهر يده، فانحنت كارولين وتفادتها. هي لا تضاهيه سرعة، لكنها ظلّت تتدرب على تلك اللحظة كل يوم طيلة عشرة أعوام. ثم أرخت قبضتها عن عانته. وبدافع غريزي، قفز خطوة إلى الوراء.

كانت ملاحظات الأب واضحة تماماً في تلك المسألة كذلك، إذ إن هناك طرقاً عديدة لإخضاع الرجال على الفور، ولم تكن إصابة عانتهم واحدة منها. سيستغرق الأمر ثانية أو اثنتين قبل أن يصفعه الألم الحقيقي. قالت في هدوء: «مهلاً. أنا آسفة. هل أخطأت في شيء؟ ظننت أنك تحب الخشونة».

حدّق إليها ديفيد في ذهول متزايد وهي تنطق بكلماتها... لكنه أنصت إلى الجملة بأكملها. هذا يعني أن الأمر استغرق أربع ثوانٍ.

ما إن أنهت جملتها حتى شارف على بلوغ ذروة آلامه. فتعالى صراخه. ارتسمت على وجه كارولين ابتسامة شامته وهي تُنظّف أظفارها من حبيبات الدم المتجلط: «أوه لا بأس. إنها غلطتي».

زمجر ديفيد مجدداً. وكوّر يديه في قبضتين قويتين، ثم تقدّم نحوها، وإحدى قبضتيه تحمي منفرج فخذه، بقامة منحنية إلى خصره تقريباً.

تدحرجت كارولين إلى الوراء، وهي تقفز على قدميها، تنطلق ركضاً نحو البوابات. كان ديفيد أسرع من أي شخص آخر... عادةً. حينها خاطبت نفسها: «أما الآن، فهو ليس كذلك».

مع ذلك، لم تستطع كارولين التفوق عليه في الركض لفترة طويلة. سيصل إليها ما إن يسيطر على الألم الذي يصفعه. قفزت كارولين نحو مدخل جاريسن أوكس. وفي خلال اثنتي عشرة خطوة، عبرت البوابة... وتجاوزت محيط الريسك. حينها توقفت، واستدارت إليه.

بدأت ندف الثلوج تتجمّع بعضها فوق بعض على الأرض. وآثار قدميها الحافيتين تمتد إلى حيث يقف ديفيد، أو بالأحرى ينحني إلى خصره من الألم. انفرجت أساريها وشعرت بالغبطة لما رأت بضع قطراتٍ من الدماء تُلطِّخ الثلج من أسفله.

زفر ديفيد نفساً دافئاً، فاستحال إلى سحابةٍ بيضاء من البخار تحت ضوء مصباح الشارع. عدّل من وضعيته وانتصبت قامته عالياً. ناولته مارجریت رمحه ثم تراجعت، كأنما تنفر من نيرانٍ محرقة.

نظر ديفيد إلى آثار أقدامه في الثلج، ثم في أغوار الظلال. تأججت في عينيه شهوة القتل، شهوة عتيقة همجية، نظرة خبيثة تعلو وجه تمثالٍ أسود لإله الموت.

- ستندمين يا كارولين.

3

بملاح شخصٍ يغوص في مياه باردة، خاض ديفيد في الريساک. راقبته من كُتب. لم يظهر على وجهه أي ألم عندما قطع الخطوة الأولى، ولا الثانية، ولا الثالثة. لكن مع الخطوة الرابعة، أصدر أنيناً.. أنيناً خافتاً للغاية.

ما تزال كارولين واقفةً وحدها في الظلمة تنصت لأنينه وتبتسم. تقول بنبرة مرحة ساخرة: «هنا!». ابتعدت عنه خطوة واحدة محسوبة، تقترب بها من المكتبة: «من هذا الاتجاه!».

جر جر ديفيد قدميه ورائه، بخطواتٍ متثاقلة دؤوبة.

يقدر ديفيد على الغوص في أعماق الريساک أكثر من أي شخصٍ آخر، بل وأبعد كثيراً مما اختار أن يتوقف عنده في المرة الأولى. كانت تعرف بألعيه التي يسيطر بها على الألم، ويقلل بها الضرر الداخلي. لهذا الأمر أساليب معينة.

ومع ذلك، شعرت بالرهبة عند رؤيتها لقوته بأم عينيه؛ إرادته الوحشية النقية. أصابته على غفلة منه في موضع حساس. وربما كان يلاعبها هو الآخر. لكن لا تمثيل فيما يفعله الآن. نفرت أوتار عنقه مثل أحبالٍ سميكة.

وانساب العرق منه كما ينساب مجرى ماء حقيقي، يسيل على امتداد ذراعيه ويتقاطر من طرف رمحه ليتبخر في الثلوج.

أعدت نفسها لما هو قادم.

- هل اكتفيت؟ يفترض بك العودة فعلاً قبل أن... آآآآه!

أفلتت صرخة، من المفاجأة بقدر الألم. إنه سريعٌ جداً. ألقت نظرة إلى الأسفل لترى طرف رمحه ينغرز في ساقها اليسرى حتى خرج من الجهة الأخرى، فشعرت بخوفٍ حقيقي. خاطبت نفسها: «تراجع إلى الوراء، وقذف بالرمح، وعلّقني على السيخ بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وبسرعة كبيرة لم أتمكن من رؤيته». رسم ديفيد ابتسامته العريضة وشدّ السلسلة بأقصى قوته. خذلتها ساقاها، ولم تشعر بنفسها إلا راقدةً على ظهرها فوق الأسفلت.

بدأ يسحلها نحوه. والألم المमित يتعاضم. بادلت كارولين بين شد السلسلة من جهتها والزحف على أطرافها من الخلف لكي تتجنب أن ينسلخ جلد ظهرها من احتكاكه بالأسفلت.

أضافت شيئاً من الرجفة إلى صوتها وهي تقول: «أوه، ديفيد، لا...». مُدركة أنّ كلماتها ستزيد من حماسه. مع ذلك ظلّ قلبها مجمّداً كالجليد. ولمّا ارتأت لها اللحظة المناسبة، مدّت يدها إلى ساقها وكسرت طرف الرمح.

سمحت لنفسها بإصدار آهة واحدة محسوبة، ثم استدارت وراحت تزحف إلى الخلف.

- آه، أنتِ يا عاهرة.

بدل ديفيد طرفي الرمح. وبعد لحظة، انغرز الرمح فيها مجدداً، هذه المرة استقر في قدمها. كان الألم الذي شعرت به يفوق كل ألم شعرت به من قبل في حياتها بأكملها. وبينما هي تتشبث بأظفارها في الأسفلت، انتزعت الأظفار من مكمناها، وبدا الألم الناتج عنها مثل لسعة شمعة مقارنةً بالسنة لهبٍ مشتعلة في قدمها. وراح ديفيد يشدها نحوه مجدداً. وكادت هي لا تلاحظ ما يحدث لها.

قبضت يده على كاحلها، قبضة تشبه الملاقط الحديدية، وأصابع خشنة تملؤها الثغفات. قلبها على ظهرها، وراح صدرها يحتك بالأسفلت الخشن، ومن شدة يأسها تشبّثت أطراف أصابعها بالطريق. مزّق الحصى الصغير

لوحى كتفيتها. كانا قد توغلا في أعماق الريساک لدرجة ظنَّت معها أن بضعة إنشآت أخرى ستقتله.

لكنها عجزت عن الحركة. وكان هو قويًّا جدًّا.

كان يشدها نحوه، ثم مدَّ يده وقبض على ركبتها. طقطقت العظام الصغيرة في قبضته. عرفت في تلك اللحظة أنه عازمٌ على الوصول إلى... لا لا لا لا... لقد وصل. وغرز سبَّابته في الفجوة التي أحدثها رمحه في ساقها. وراح يضغط عليها.

شعرت بصرخةٍ تتأجج بداخلها تحت وطأة يديه، تمامًا كما شعرت مراتٍ عديدة من قبل. كتمت الصرخة. وراحت تركز الأسفلت بكعبيها الحافيين، تجاهد لتتحرك إلى أعماق الريساک. وفي الآن نفسه راح هو يضاعف من الألم في جرحها، ثم مدَّ يده قاصدًا عظمة ترقوتها. فعل بها شيئًا مريعًا فانكسرت العظمة، وانكتم صوت كسرها بطبقة الجلد فوقها.

سمحت لصرخةٍ تنفلت من بين شفتيها.. صرخة واحدة فحسب. كان هذا ضروريًّا؛ الإغراء الذي تحتاج إليه لشده تلك الإنشآت القليلة الباقية، لكنه كلَّفها كذلك ثمنًا ما كانت لتتوقعه قط. وقد كان هناك مسحةٌ من الحقيقة في تلك الصرخة.

صارت يده الآن قابضةً على حلقتها. غرز إصبعه الصغيرة في موضع الضغط أسفل فكِّها مباشرةً بينما تنهمك بقية يده في قطع الهواء عن رئتيها. فكَرت كارولين في تلك اللحظة: «هكذا قتلني في المرة الأولى. كما في الأيام الخوالي».

غرق رأسها في حالة من القلق والفوضى، وراحت تتصفح كتابها العقلي بحثًا عن أي شيءٍ قد يساعدها. ضربته بيديها الصغيرتين، وخدشته، وفقأت عينيه. لكن ...

ديفيد لا يقهر. ديفيد صخرةٌ لا تتزعزع.

بدأت سحابة من الضباب تُخيم على حدود رؤيتها. فحدَّثت نفسها: «خطتي لا تنجح. سينتصر ديفيد. سيقتلني مرةً أخيرة». فكَرت في ستيف حين كان في الثانية عشرة من عمره، طويلًا نحيفًا، يبتسم تحت شمس الصيف المبهجة. ومن وراء عينيها، تفتَّحت زهور سوداء.

همس ديفيد: «هذه مجرد البداية. حين أتقن العلوم الأخرى، سأعيدك إلى الحياة. وسأفعل بك هذا مرة وراء مرة. سنفعل ذلك كل ليلة إلى الأبد».

بعيداً من خلفها في أصداء الليل، سمعت صوت نقرة معدنية خافتة، صوتُ الترس الأخير يتعشّق في مكانه. وما إن سمعت ذلك الصوت، توقفت عن الانجراف، ولملمت شتات عقلها، ثم عادت إلى رشدها.

«الآن».

فتحت عينيها، فكاد نقص الأكسجين يحجب رؤيتها تماماً... لكنها رأت جيداً. لملمت شتات نفسها، وتوقفت عن المقاومة. رسمت على وجهها ابتسامة، ومدّت يدها تتلمّس غمّازته برفق بما تبقى من أحد أظفارها المنتزعة المغطاة بالدماء.

ذبلت ابتسامة ديفيد تحت وطأة لمستها. وجاءها صوته كأنه من مسافة بعيدة، وهو يتساءل: «ماذا؟ ماذا؟ توقفي! لماذا تبتسمين لي؟».

تحركت شفتاها، بلا صوت.

راح ديفيد يصرخ: «ماذا؟! ما الأمر أيتها العاهرة المجنونة؟!».

لم يكن سؤاله بلاغياً فحسب، فبينما يسألها رفع يديه عن حلقها.

شعرت كارولين برغبة في اللهاث والسعال، لكنها سيطرت على الأمر. ثم أخذت نفساً واحداً بارداً من هواء الليل، وسحبته إلى داخل رئتيها في ببطء، مستمتعة بأول نفسٍ تلتقطه في بقية حياتها. ولما صارت على أتم الاستعداد، تكلمت.

«و...». (بصقت، فتناثرت الدماء على وجهه في دفقة لا بأس بها). «من الشرق...». (خرجت الكلمات همساً من حنجرتها الممزقة المجروحة وهي تبعد إصبعها عن خده). «قديم الرعد».

فتفجّر وجه ديفيد.

الوقت ضيقُ الآن. كانت الرصاصة قد أصابت ديفيد بشيء من عدم الدقة، أعلى عظمة الخد بنصف إنش أو نحو ذلك؛ خطأ بسيط في الحساب. أحدثت الرصاصة تدميرًا شبه تام في نصف وجهه الأيسر. وأمكن كارولين رؤية تلافيف دماغه. ومع وضع تدريبه في عين الاعتبار، سيموت ديفيد سريعًا، ولن تستمر دقات قلبه لأكثر من دقة واحدة أو دقتين.

لكن كلتا عينيه ما زالتا سليمتين، وكذلك أذن واحدة. وأي من تلك الأعضاء ستكفي. لفتت كارولين يديها حول مؤخرة عنقه ورفعت جسمها. ألقت نظرة فاحصة على الفجوة في رأسه، ومدت طرف إصبعها، وبرفق شديد لمست نقطة عميقة في دماغه. ومضت شرارة صغيرة استجابةً للمستها. وفي أثناء دقة القلب الثانية، مالت بالقرب من ديفيد وهمست في أذنه، ناطقةً بالكلمة التي همس بها الأب في أذن ميتراجانهي منذ زمن بعيد جدًا، حين أعلن بزوغ فجر العصر الرابع.

«ما إن يسمع ديفيد هذه الكلمات ...

... يتوقف ...

... الزمن».

ارتمت كارولين على الأسفلت. خرج زفيرها سحابةً بيضاء تحت ضوء مصباح الشارع. ثم ندّت عنها ابتسامة بسيطة، وعجزت عن حمل نفسها على فعل المزيد. فكّرت: «لقد فعلتها. فعلتها حقًا ونجحت». ومع ذلك لم تشعر بأي انتصارٍ حقيقي، ولا حتى شعورٍ بسيط بالارتياح. كانت فاقدةً للحس. لكنه نوعٌ من فقدان الحس الممتع.

من الآثار الجانبية للبقاء خارج حدود الزمن، فقد ديفيد كتلته المادية. دفعته كارولين بأبسط لمسة ممكنة، فعلق مجمدًا مكانه في هواء الليل، يطفو قليلًا مثل بالون ينفث الهواء.

سمعت كارولين خطوات أقدام من خلفها، فقالت: «مرحبًا إروين». خرج صوتها مبحوحًا جدًا. فجلست وسعلت، ثم احتضنت ركبتها بذراعيها.

- هل يمكنك مساعدتي؟

إروين: «مم...». تحدّث من بين شفاهٍ منفرجة ومتورمة: «لست واثقًا إن كنتُ أستطيع. لكنني سأحاول».

عرج على ساقه نحوها بشيءٍ من السرعة. وكان يسدُّ بيده اليسرى جرحًا ينزف في ساقه. وبيده اليمنى قبض على المسدس الذي أطلق منه الرصاصة على ديفيد، وسحابة من دخان تتصاعد من فوهته.

مدّ لها إروين يدًا قوية. فأمسكت بها، ثم رفعها على قدميها بسهولة. أشار إروين بإصبعه إلى ديفيد: «ماذا حدث له؟».

كان ديفيد يدور في الهواء بسهولة، على ارتفاع قدمين أو أقل عن الأرض. علّقت كارولين: «لا تدفعني للمشي. اتركني في مكاني لبرهة من فضلك». نظر إليها، ثم هزَّ كتفيه بلا مبالاة وتراجع إلى الوراء.

أوقفت كارولين دوران ديفيد، ثم وجَّهت رأسه نحوها لتستطيع فحص جرحه. لا شك أن جرحه مميت، حتى بالنسبة إلى شخصٍ مثل ديفيد. كان الجانب الأيسر من رأسه مفقودًا. علّقت: «رمية جيدة. بل شبه دقيقة حقًا». غمزت لإروين بعينيها: «كانت الزاوية غير دقيقة قليلًا، لكن هذا خطئي. كان من المفترض بنا أن نكون بزاوية سبع درجات تجاهك، لكننا كنا بزاوية تسع درجات. ومن الصعب طبعًا التركيز مع ذلك الجرح المزعج في ساقي».

أجاب إروين في تمهل: «صحيح. أظن ذلك. كيف عرفتِ أنني...».

- الرقيب الأول إروين تشارلز ليفنجتون، ضابط متقاعد في الجيش الأمريكي. مولود في 8 أبريل من العام 1965، ضابط سابق في لواء المظلات اثنين وثمانين. وقبل ذلك، قضيت عامين في وحدة الرماية التابعة للجيش الأمريكي. متى كانت آخر مرة أخطأت فيها التصويت يا إروين؟

- تقصدين قبل ما حدث الليلة؟ (كان ديفيد قد سمح لإروين بإفراغ رصاصات المسدس كلها عليه قبل وصولهم كنوعٍ من التسلية). لا أذكر تحديدًا. لقد مضى وقتٌ طويل.

- لا تلم نفسك على ما حدث. ما كان لك أن تُصيبه في وقتٍ أبكر. ما كان لأحدٍ من الأصل أن ينجح في ذلك. تعال إليّ؛ دعني ألقي نظرةً على تلك

الساق. (جلست كارولين القرفصاء لتفحص الجرح في فخذ إروين). أنت بخير. لا وجود لأي نزيف شرياني. كان ينوي العبث معك لبعض الوقت. (استلقت على أرضية الشارع). أنا آسفة لما أصابك؛ كان عليّ الانتظار حتى تصبح منهكًا من الضرب. هكذا لن يعتبرك تهديدًا.

- لا بأس. لا أمانع تلقي بعض الركلات في سبيل قضية نبيلة. (بصق إروين). وذلك الرجل كان أوغد الأوغاد.

- أنت ليس لديك فكرة عنه.

أغلقت كارولين عينيها، وراحت تستجمع أفكارها، وتردد في قرارة نفسها: «لقد فعلتها. فعلتها حقًا».

سأل ستيف: «إذن... ماذا فاتني؟ ماذا حدث هنا؟».

كان يسير بصحبة ناجا قاطعًا الطريق المؤدي إلى المكتبة.

صاحت كارولين: «تَبًّا لك يا ستيف! قلتُ لك أن تنتظر في المكتبة. ألا تُنصت أبدًا؟».

- أنت لستِ رئيستي.

نظر إروين من وراء كتفه: «أهلاً بك يا فتى. كيف حالك؟».

أوماً له ستيف بإيماءة بسيطة، ثم تساءل: «هيا، لا تتركاني في ترقب. ماذا حدث؟».

إروين: «مم، في الحقيقة ذلك الوغد كان يخنقها، لذلك أطلقت النار عليه. أعني أصبته في وجهه».

كارولين: «شكرًا لك بالمناسبة».

قطَّب ستيف حاجبيه حائرًا: «كيف حدث ذلك؟ حين جئنا إليكم، كانت الرصاصات قد نفدت منك».

إروين: «حيرني هذا الأمر مثلك تمامًا. وكان أغرب شيء حدث لي في حياتي. عندما وصلتما، تركني الرجل الضخم ذاك. وكنتُ منهكًا جدًا لا أقوى على القتال. لذلك قررتُ أن أتسلل إلى ذلك المنزل هناك. (وأشار إلى المنزل الوحيد المضاء في الشارع بأكمله) وأطلب دعمًا من الشرطة. لكن في أثناء تدريباتنا، حفروا في داخلنا عقيدة ألا تترك سلاحًا أبدًا في الميدان - واعدتُ أن أعاقب رجالي كثيرًا على ذلك الفعل - لذلك وأنا في طريقي أمسكتُ

بالمسدس، رغم أنه فارغ من الطلقات. كرد فعل تلقائي. وبينما كنتُ أدور حول عمود الإنارة، صادف أنني نظرتُ إلى الأرض. يا رجل، تبًّا لي إن كنتُ أكذب. لكنني وجدتُ خزنة رصاص كاملة أمام بالوعة الصرف. لم تكن نظيفة قطعًا، لكن بعدما مسحتها في قميصي، صار لا بأس بها. لم أستطع تصديق ما رأيته. كان هذا سحرًا».

زفرت كارولين عمودي دخانٍ من فتحتي أنفها، وهي تعلّق: «لا شيء من هذا القبيل».

أردف ستيف: «واو! أراهن أنني أعرف من أين جاءت هذه الخزنة. هل لي أن أراها؟».

رفع إروين المسدس لكنه لم يناوله إياه. سأل ستيف: «أهذا المسدس نفسه الذي أخذته معي حين خرجتُ للركض؟ ذلك المسدس الذي أعطيته لإروين في وقتٍ سابق؟». كارولين: «نعم، هو».

ستيف: «إذن خزنة الرصاص التي وجدتُها أنتِ لا بد أنها الخزنة نفسها التي أسقطتها أنا حين انقضّت علي الكلاب».

ضحكت كارولين: «مهلاً، أراهن أنها هي! هل تتصور!».

راح الرجلان ينظران إليها الآن. ثم قال ستيف بحذر: «إذن... أنتِ من رتب هذا الأمر كله؟ خروجي للركض بالأمس... والكلاب... حتى تسقط مني خزنة الرصاص، حيث يتسنى لإروين العثور عليها؟ في تلك اللحظة تحديداً، حينما كان ديفيد يمسك بك؟».

لمعت عينا كارولين كأنها أضواء كشافاتٍ مشتعلة في الليل: «نعم. أنا من رتب هذا كله؟».

- لماذا؟

- مم، كان ديفيد وغداً بعض الشيء.

- لا، بل أعني لماذا تتكبدين كل هذا العناء؟ ألا يمكنكِ فقط ...

- لا وجود لشيء اسمه «فقط». (راحت تدور حول جثة ديفيد الطافية، تتفحصه وهي تتكلم). ليس مع شخصٍ مثل ديفيد. إنه بارعٌ للغاية. كان أستاذًا في علوم فهرسه بأكملها ما عدا الاسم. ذات مرة رأيته يقتل

مئة جنديّ إسرائيلي -رجالٌ مسلّحون- بسكينه هذا. وهذا ليس سوى تمرين، جزءٌ من تدريبه. إذا لم تتخذ إجراءات احترازية لمنعه، فبإمكانه سماع أفكارك. ما من أحدٍ على وجه الأرض بإمكانه هزيمته في قتالٍ عادل. لكن هنا، داخل الريسك ...

قاطعها إروين: «الـ ماذا؟».

أبدى ستيف ملاحظة: «ريسك أريال. إنه شيءٌ يشبه نظام دفاع محيطي. متقدّم للغاية!».

رمقه إروين بنظرة ذات مغزى.

- لا علاقة لهذا الأمر بالموجات متناهية القصر. هذا التفسير كان هراء.

- أنت من النوع المتحذلق، أليس كذلك يا فتى؟

أوماً ستيف في تواضع، وراح يغرز قدميه في الوحل مثل مثل جون واين وهو يتحدث إلى المربية الحسنة: «بلى».

- حسنًا، ألم تفكري في ...

- استدعاء الجيش مثلًا؟ الإتيان بعدد كبير من المحترفين، رجال ضخام

البنية، ذوي تدريب عالٍ، مسلّحين بالكثير من الأسلحة؟ ربما -احتمالٌ

فحسب- أمكنني العثور على طريقة تدفع أناسًا مثل قوات دلتا

للانضمام إلى المعركة. مؤكّد أنّ هذا كان ليحل المشكلة، صحيح؟

تظاهرت باستنشاق الهواء، فجاءها النسيم حاملاً نفحةً من رائحة زيت

محترق هو ناتج عن المروحيات المحطّمة: «آه، مهلاً». ثم ضحكت مجددًا.

إروين: «حسنًا. لكن كيف أمكنك أن تعرفي أنني سـ ...».

كارولين: «هل تحب عملك مع الأمن الداخلي؟ أراهن أنه عملٌ مثير للاهتمام.

في مجال تخصصك تمامًا».

- نعم ...

- كيف انتهى بك الحال هناك؟

إروين: «شيءٌ من المصادفة. خرجتُ لتناول الغداء، ثم ...».

- صادفتَ صديقًا قديمًا لك؟ شخصٌ تعرفه من أيام دراستك الثانوية؟

مجرد صدفة، صحيح؟ فرصة بعيدة جدًا، ها؟

لم يحر إروين جوابًا، بل اكتفى بالنظر إليها فحسب. وعيناه تعكسان محاولة استيعابه.

أدرك ستيف حقيقة ما حدث كذلك: «يا إلهي!».

كارولين: «بدأت العمل على هذا الأمر منذ وقتٍ بعيدٍ جدًا. أنا أحب التخطيط؛ مهارة أجد نفسي بارعةً فيها. هل رأيتما هؤلاء الرجال الذين يؤدون حركات استعراضية في لعب البلياردو؟ يجعلون كرات الدفع تقفز أو تتدحرج إلى الوراء أو ما شابه؟ هذه هي حركتي الاستعراضية».

نظر إروين وستيف إلى بعضهما. وبعد برهة، أومأ إروين مصدقًا: «حسنًا. كما تشائين. أظن أنني أصدقك. لكن لماذا يطفو هكذا؟».

- هذا من صنعي أيضًا.

إروين: «نعم، لاحظتُ ذلك. ما أعنيه هو كيف؟».

- وضعته في حالة خارج الزمن.

- عفواً؟

- غيرتُ بعض الثوابت الفيزيائية داخل جسمه. وفي حالته هذه، توقف الزمن.

بحَّ صوتها، وتمزَّق حلقها. سعلت، ثم بصقت دماءً على الثلوج. وأضافت: «لن يسقط ديفيد، لأن السقوط، كما تعرف، متغيرٌ. لكن إذا كان الوقت لا يمر، فلا يمكن أن يكون هناك متغير على هذا النحو، أليس كذلك؟».

راح إروين يلوك الفكرة في رأسه، ثم أرجأها لمزيد من التفكير لاحقًا.

- نعم، حسنًا. لكن ما السبب؟

- سبب ماذا؟

- لماذا، مم، فعلتِ به هذا؟ أظنُّ أنه كان ليموت في غضون ثانية واحدة أو اثنتين على الأكثر.

أومأت كارولين بإيجاب: «صحيح. كان ليموت. وهذا هو السبب».

- لا أفهمك.

- هل متَّ من قبل؟

رمقها إروين بنظرة ذات مغزى: «لا يمكنني القول إنني متُّ من قبل».

- أنا متُّ من قبل، بضع مرات. الأمر ليس سيئاً كما تظن. ليس سيئاً بما فيه الكفاية بالنسبة إليه.

- وما هو فيه الآن سيئ بما يكفي؟

- لستُ متأكدة. لكن هو يظن أنه أسوأ. هذا هو ما يهم.

- كيف تعرفين ذلك؟

- مم، مات ديفيد كثيراً من قبل. هذا جزءٌ من تدريبه. بالطبع ليس أكثر من مارجريت، لكن كثيراً بما يكفي ليعتاد الموت. ومنذ بضع سنوات، سمعتهما يتحدثان عن الأمر. في ذلك الوقت، لم تعد مارجريت تهتم. كانت لتقتل نفسها لو تأخر العشاء. لكنها قالت إن هناك شيئاً واحداً ما زال يزعجها. ولا أقصد بكلامي الألم، فبإمكانهما التعامل مع الألم. بإمكان أيٍّ منّا التعامل معه. لكنها كرهت «الإدراك».

توقفت كارولين عن الكلام لبرهة، ثم استأنفت: «لا. حسناً، هذه كلمتي أنا، وليست كلمتها. كيف صاغت الأمر؟ آه، قالت إنها ما زالت تشعر به، حتى الآن، في أحشائها وفي باطن قدميها. تشعر بأنها تموت. حين تُصاب بالجرح وما من أحدٍ لينقذها، يدرك جسمها ما يحدث. أتعرف، لقد ماتت مارجريت بكل طريقة يمكنك التفكير بها، لكنها قالت إن ذلك الجزء هو أسوأ ما شعرت به وأدركته. ووافقها ديفيد الرأي (ارتسمت على وجهها ابتسامة) هذا هو المكان الموجود فيه ديفيد الآن. تلك اللحظة التي تنقبض فيها أحشائه ويُصعق باطن قدميه. إنها «وازن نياتاً» وتعني اللحظة التي يموت فيها الأمل الأخير. سيظل يعيش تلك اللحظة إلى الأبد».

عند رؤية ابتسامتها، تراجع ستيف نصف خطوةٍ إلى الوراء. حتى إروين أجفل قليلاً.

عادةً ما تدفعها غريزتها لرسم تعبيرٍ محايد على وجهها. «لكن لماذا؟ ما من سببٍ للاختباء. ليس بعد الآن». أطرقت ناظرةً إلى يديها. لم تعد أطراف أصابعها ترتعش.

- لقد أثار حنقكِ أنتِ الأخرى، صحيح؟

- نعم، قليلاً. أليدك سيجارة يا ستيف؟

إروين: «قبل أن تفعل... ما فعلته به... قبل أن يتجمد، أنتِ لمسته. أعني أدخلت يدك في جرحه. لماذا فعلتِ ذلك؟».

ناولها ستيف علبة سجائر مارلبورو، ثم أشعل سيجارة لنفسه.

- رأيتَ ذلك، ها؟ نعم، أصبته بصعقة بسيطة. شحنة كهرباء استاتيكية، تمامًا في القشرة الجزيرية الجدارية.

سأل ستيف: «الـ ماذا؟».

إروين: «مركز الألم في المخ».

كارولين: «بالضبط. لم يكن ألمًا فظيًّا. بالكاد يزيد على الألم الذي يتولد من لمسك لمقبض باب بعدما تفرك قدميك بالسجادة. لكن بالطبع أنت لا تحتاج الكثير، ليس عندما يظهر تشريح المخ أمامك بتلك الطريقة».

إروين: «لقد أجروا تجارب، أعني رجال تشيني، يحاولون من خلالها معرفة ما يتعين عليهم فعله مع بن لادن. ووصلت إلى مسامعي قصص. حين تصيب أحدهم بصعقة كهذه، فسيشعر بحصيلة، حسنًا، ليس كل ألم شعر به، بل كل ألم يمكن أن يشعر. أعني كله في آن واحد».

- صحيح.

ستيف: «ثم جمّدته؟ في تلك اللحظة تحديدًا؟ (فكّر ستيف في الأمر مليًّا، ثم أصدر صفيّرًا خافتًا) لماذا؟».

تذكرت كارولين دفء المطر المنهمر، تذكرت المذاق المعدني المالح لدماء آشا، ثم أجابت: «لأن «وازن نياتا» ليس كافيًّا. ليس بالنسبة إلى ديفيد. أما هذا الألم... أنا واثقة أنه أسوأ شيء حدث لأي أحد في أي مكان مطلقًا. على الإطلاق! أظن أنه أسوأ شيء قد يحدث؛ الحد النظري الأقصى للمعاناة. اليأس والعذاب. مشاعر مطلقة. سرمدية».

إروين: «سحقًا! هذا مروّع».

كارولين: «شكرًا لك يا إروين. هذا الإطراء يعني لي الكثير، وبخاصة أنه منك أنت (نفثت دخان سيجارتها نحو سماء الليل الحالكة) أردتُ خوزقته على رمحه، أو ربما تثبيته بمسمارٍ في مكتب. لكني لم أعثر على طريقة تُنجح تلك الأفكار. ما هو فيه الآن يفي بالغرض. (فحصت ديفيد بعيني جراح ماهر وضعينة لا قرار لها) وأظن أنه سينجح. نعم. إنه ينجح بالفعل».

- ما هو؟

- انظرا إلى عينيهِ، وأخبراني بما تريان.

مال ستيف وإروين على ديفيد. ثم قال ستيف: «عيناها سوداوان. لا أقصد أنهما مكدومتان. بل بياض عينيه صار سوادًا. و... هل يلمعان قليلاً؟».

- نعم. (لقد رأتها هي الأخرى). ظننتُ ذلك مثلك، لكنه قد يكون انعكاسًا للضوء.

أدارت كارولين جثة ديفيد لتواجهها.

خيم ظلام دامس الآن.. لا قمر، ولا نجوم. ندف الثلج التي تتساقط عليها لا تذوب. احتجب حاجباها بالظلال، لكن حين أخذت نفسًا من سيجارتها، توهج انعكاسان مزدوجان بلون برتقالي في بؤبؤي عينيها الداكنين. ثم قالت بصوت خافت وباللغة البيلابية: «اصرخ. حاول أن تصرخ. إذا صرخت باسمي، سأتوقف (راحت تبتسم الآن) إذا صرخت باسمي، سأتركك ترحل. ترحل مرة... ترحل مرتين... لا؟».

5

أخذ ستيف وإروين يرمقانه بنظراتٍ ذات مغزى.

حدّث نفسها: «على أي حال، ديفيد لا يستطيع سماعي». تركت يدها تسترخي. ولمّا نطقت ثانية، بذلت جهدًا جهيدًا لتبدو طبيعية.

- نعم، هذه علاقة جيدة وقوية. لا بد أنني اخترتُ التوقيت المناسب.

راحت ناجا تتشمم ديفيد، ثم زارت.

سأل إروين: «هل أطعمت ذلك الأسد مؤخرًا؟».

ربّت ستيف على ظهر ناجا: «ستكون بخير». فانزاحت على فخذه بكتفها، وهو يتابع: «هذه حبيبتي الكبيرة. أليس كذلك يا فتاة؟».

ابتسمت كارولين وسحقت سيجارة المارلبورو تحت قدميها الحافيتين: «لديك سيجارة أخرى؟».

أخرج ستيف من العلبة سجائر أخرى. وأشعل الاثنان سيجارتين جديدتين، ثم عرض ستيف العلبة على إروين.

أوما إروين رافضاً، وقال: «هذا الخراء سيقُتلُك». ودسَّ في فمه بعض النشوق.

ستيف: «أنتِ تنزفين». والقلق البادي في صوته حقيقي.

أطرقت كارولين، فرأت الدماء تتقاطر من جرحٍ في فخذه. لم تتفجَّر دماؤها كما هو الحال حين يُصاب شريان، لكن الجرح سيئ حقاً.

- آه. هذا. صحيح. ستيف، أيمكنك أن تركض وتحضر شيئاً من أجلي؟

- بالتأكيد. ماذا تحتاجين؟

- أحتاج إلى ربط الجرح في ساقِي، وكذلك ساق إروين. أتذكر تلك الكومة

التي تركتها لك في غرفة المعيشة في ذلك المنزل الأبيض؟

- نعم، أذكرها.

- هناك حقيبة قماشية كبيرة مربوطة بخيط قنّب. أحضرها إليّ، ومع

بعض الضمادات، والكثير من الماء بقدر ما تستطيع حمله. وضمادات

ضاغطة، إذا تبقى منها شيء.

أجابها ستيف: «سأفعل». وانطلق في طريقه.

- إروين، هلاً ناولتني رباط حذائك؟

- مم... نعم. كما تريد.

خلع إروين حذاء ريبوك، وحلَّ الرباط، ثم ناولها إياه: «فيمَ تحتاجينه؟».

ربطت كارولين أحد طرفي الرباط بإصبع قدم ديفيد غزيرة الشعر،

والطرف الآخر بصندوق بريد. ثم قالت: «ما زال أمامنا أمرٌ واحد نتعامل معه،

ولا أريد أن يفلت مني».

لم تكن كارولين بمهارة جينيفر، لكن جروحهما ليست خطيرة جداً. راحت

تحشو الجرح في قدمها وساقها بمسحوقٍ رمادي، ثم سكبت عليه الماء.

وبينما كانت تداوي جرح إروين، استحال المسحوق إلى لحم، جديدٍ ووردي.

وما إن خرجا من البوابة، وجدا مارجريت هناك، ما زالت تتلاعب برأس

الرئيس.

لم تنظر مارجريت إليهم وهي تسأل: «قتلتِ ديفيد! كيف أمكنكِ أنْتي قتلِ ديفيد؟».

غمر كارولين شعورٌ بالوحشية والانتصار... ورغم ذلك ظَلَّت حذرة. بدا من الصعب أن تتنبأ بما يدور في رأس مارجريت: «ليس تمامًا. اكتشفتُ أن الموت نهاية أفضل مما يستحق. وعثرتُ على طريقة أفضل».

- أسوأ من الأراضي المنسية؟

ظهرت ابتسامة كارولين مخططة بالدماء: «كثيرًا».

انتبعت مارجريت إليها، وبدأت مفتونة لأول مرة في حياتها: «حقًا؟».

أمعنت النظر في وجه كارولين: «هذا صحيح. لقد فعلتها. أنتِ الظلام في حد ذاته. لم أدرك ذلك (ابتسمت مارجريت) إننا أخوات. (ثم خاطبت الرأس على حجرها) قال ديفيد إنكِ تقرئين خارج علوم فهرسك، لكنني لم أصدقه. بدوت في نظري شخصًا محبوبًا وجبانًا». وشددت على كلمتي «محبوبة» و«جبانة» بوخز وجنتي الرئيس بأصابعها. حاول الرأس أن يتأوه، لكن لا وجود للهواء في حنجرتة.

تأوهت مارجريت نيابةً عنه، ورأسها يترنح إلى الأمام والخلف في ظلمة الليل. ثم خطر لها خاطر، فعلقت: «سيستاء الأب». وجعلت الرأس يمتط شفته السفلى.

- مات الأب أيضًا. لقد قتلتة.

- سيعود. دومًا يعود.

- ليس هذه المرة.

اضطربت مارجريت، ثم تكلمت بنبرة خافتة: «أنتِ قضيتِ على الأب؟ قضيتِ عليه إلى الأبد؟».

ظنَّت كارولين أنها رأت أدنى وأبسط بادرة تعبير على ملامح مارجريت. الأمل؟ ربما. لكنها لم تستطع التمييز.

- نعم. لقد رحل.

- إلى الأبد؟

- إلى الأبد.

- حقًا!

مجددًا تومض تلك الأمانة على وجه مارجريت، ومجددًا يصعب قراءتها. «أنا أصدّقك (أطرقت ناظرةً إلى الأرض، ثم رفعت عينيها مرة أخرى، كأن خاطرة جديدة خطرت لها) إذن أنتِ سيدة الظلام والموت معًا. صحيح؟». ورمقت كارولين بنظرةٍ جادة، منتظرةً الجواب.

طرفت عينا كارولين: «أعتقد أن بإمكانكِ قول ذلك».

- إذن أظن أن هذا يجعلكِ سيدتي.

حطّت مارجريت رأس الرئيس على الأرض، ووقفت، ثم انحنت في احترام. «بماذا تأمريني يا سيدتي؟».

لم يخطر لكارولين أن تتصور ذلك المشهد. لكنها أجابت: «شيءٌ واحد فحسب». ثم نظرت إلى إروين وأومات. فرفع إروين المسدس.

عادت مارجريت إلى مللها المعهود: «آه. أنتِ تعيدينني إلى ديارى؟».

- نعم.

- مم. (صمتت قليلًا). هل لي بطلبٍ أخير؟ سيدتي؟ معروفٌ أخير من فضلك؟

في تلك الأثناء كانت كارولين متعطشة لإسعاد الآخرين. فلمست كتف إروين، وقالت بالإنجليزية: «ليس بعد». ثم باللغة البيلابية مخاطبةً مارجريت: «بالتأكيد. لمَ لا؟».

- هل تذكرين تلك الطريقة التي مات بها ديفيد؟ في المرة الأولى.

- نعم. لكن مارجريت، ما كنتُ ...

- أود العودة إلى الديار بتلك الطريقة. عبر الثور. الطريقة التي رحل بها ديفيد في تلك المرة.

نظرت إليها كارولين من بين جفنين مغمضين، متشككة مما سمعته: «هَلَّا أعدتِ ما قلتِ؟».

- أود أن أشوى داخل الثور. قال الأب إن هذا سيكون درسي الأخير. وأظن أنني مستعدة له.

- مارجريت... لماذا قد ترغبين في شيء كهذا؟

بدت مارجريت يائسة وهي تسأل: «ألا تعرفين؟».

- لا. لا أعرف حقًا.

أوضحت مارجريت: «ديفيد أيضًا لم يفهم الأمر قط. وددت لو أسمع صوته، لكن... لم يستطع تخطي الحواجز. لم يعد يستطيع ذلك. منذ وقتٍ طويل جدًا. لكن أنا وأنتِ أختان على ما يبدو. لذلك ربما... (عبست مارجريت، وهي تبحث عن الكلمات المناسبة). أنا الآن بعيدة جدًا. بعيدة عنكم جميعًا، بعيدة حتى عن نفسي. أنا أهيم في الظلام الخارجي كما ترين. (طرفت عينيها استجداءً) إنني أهيم على وجهي منذ وقتٍ طويل جدًا. أنتِ تفهمين ما أقوله جيدًا، صحيح؟».

أومأت كارولين بإيماءة بسيطة: «أفهمك».

- كثيرًا ما أفكر في الثور. هل تفكرين في الثور؟

- أحيانًا.

- تذكرين كيف توهج؟ تذكرين كيف صبغته النيران بلونٍ برتقالي، تحت

ضوء القمر، وديفيد يغني؟

جفَّ حلق كارولين، وهي تجيب: «أذكر».

- لو أنَّ أحدهم أشعل نارًا هائلة كهذه من أجلي... أظن أنني سأحس بها.

حتى في تيهي هذا في أعماق الظلام، ربما أحس بها. و... لو اشتدت

النيران، وطال اشتعالها... لربما أستطيع الاهتداء بها. (مارجريت،

بملامحها الشاحبة الكريهة، وعمرها الذي يناهز الثلاثين، رسمت على

ثغرها ابتسامة توقي حزين). لكي أعود إلى نفسي. لربما يتولد لحنٌ من

أعماقي. أشعر أن هناك لحناً وحيداً ينتظر الخروج إلى النور. (نظرت

إلى كارولين وشبحُ أملٍ يتراقص في عينيها). لحنٌ وحيد. هذا كل ما

أطلبه. ما رأيك؟ تعتقدين أنه ممكن؟

أجابت كارولين بهدوء: «نعم. ممكن».

- إذن ستبئين طلبي؟

تبادلت المرأةتان النظرات. وتلَوَّت اليرقات في شعر مارجريت. فكَّرت

كارولين: «حينما كنَّا صغارًا، امتلكت مارجريت أفضل الألعاب. دمي

صغيرة جميلة. وكانت تسمح لي باستعارتها أحيانًا».

أجابت كارولين: «نعم. كما تشائين». ثم خاطبت إروين بلغة إنجليزية:

«إروين، ضع هذا المسدس جانبًا. سننفذ خطة جديدة. ترغب مارجريت في

أمنية أخيرة».

- أَلن أطلق النار عليها؟

- لا. اتضح أن هذه الخطة ليست مجنونة بما يكفي.

نفرت العروق في صدغ إروين: «ماذا إذن؟».

- الأسهل أن أريك. من المفترض أن هناك عربة يد في ذلك المرأب هناك.

أيمكنك وستيف أن تحضراها من أجلي؟ وبعض الحطب من كومة الخشب في مؤخرة المنزل؟ سنلتقيكما أعلى التلة.

رمقها إروين: «تمام (ثم أنزل زناد مسدسه، وفعل وضعية الأمان. وبعد لحظة تردد، ناول المسدس إلى كارولين، مصوبًا مقبضه نحوها) أتريدين استعارة هذا؟».

راحت مارجريت تقفز على ضرة قدميها مثل طفل صغير أمام واجهة متجر حلوى.

- شكرًا لك، لكنني لا أظن أنني سأحتاج إليه.

اعتاد الموتى أن يطلوا تمثال الثور كل بضعة أيام. وحتى في الأيام المظلمة تحت شعاع الضوء القادم من مصباح الشارع البعيد ظلّ محتفظًا بلمعانٍ باهٍ. بعد خمس عشرة دقيقة، كان العرق ينزُّ من كل أنحاء جسم إروين وهو يدفع بعربة اليد إلى آخر درجة من سلالم منحوتة في الجرف أشبهت عوارض السكك الحديدية. كانت عربته مملوءة بحطب صنوبري عُقدي، جاف ومتلاصق بالصمغ. ترك العربة إلى جانب الثور، ومسح العرق الذي يرشح من جبهته بظهر يده. ثم راح يلامس ببراجمه الهيكل البرونزي للثور وهو يسأل: «ما هذا الشيء؟».

أجابت كارولين: «هذا أسوأ موقد شواء في العالم».

لم تُطق مارجريت الانتظار. وراحت تسحب الحطب من كومة الخشب بيديها، وهيئتها الضئيلة ترزح تحت وطأة الحمولة الثقيلة. حملت الحطب إلى الثور اثنتين اثنتين، ورتبته بدقة. وما إن رأت كومة الحطب الصنوبري التي أتى بها إروين، ابتسمت.

- هل سنقيم حفل شواء؟

بدا صوت إروين متشككًا وممزوجًا... بشيءٍ آخر.

ما إن سمعت كارولين صوته، فكَرَّت في النمط الألماسي لحراشف الأفعى الجرسية، شبه المختبئة تحت أوراق الخريف الصفراء. فكَرَّت في إبعاد إروين عن المكان، وحدثت نفسها: «هو ليس ديفيد، لكنه ليس لا شيء كذلك».

- ليس تمامًا. هذا... شيءٌ اعتدنا أن نفعله. نوعٌ من الطقوس.

تحركت يد إروين اليمنى إلى كتفه اليسرى وفركتها. تعرف كارولين أن هناك رقم «4» موسومًا على تلك الكتف؛ جميع من في وحدته يحملون هذا الرقم منذ أن كانوا في أفغانستان. وعاجلاً سيفهم إروين تلك الطقوس.

ألقت مارجريت حمولة يدها من الأغصان المكسورة. وحيَّت إروين بابتسامة متلهفة، ثم انتزعت جذعًا من عربة يده.

فَكَرَّ إروين فيما سمعه، ثم قال: «آه. حسنًا. أتريدان مني تحميل بعض من ذلك الحطب؟».

- بالتأكيد. لطفٌ شديد منك.

بدأ أربعتهم العمل في إيقاع منتظم؛ ستيف وإروين يملآن العربة، وإروين يدفعها ويفرغها. كان من المفترض أن تمد كارولين يد العون إلى مارجريت، لكن الأخيرة لها رؤية مثالية لترتيب كومة الخشب في ذهنها، وظلَّت تصفع يد كارولين وتبعدها.

وبعد عشرين دقيقة أو نحو ذلك، خطت مارجريت خطواتٍ إلى الوراء وراحت تمعن النظر في صنع يدها: «هذا يكفي».

- مارجريت، هل أنتِ واثقة أنكِ ...

- نعم. إذا زاد ارتفاع الحطب عن ذلك، ستأتي نهايتي سريعة جدًا.

أمسكت مارجريت بمقبض الكوة، لكنها امرأة نحيلة. نفرت الأوتار في عنقها ما إن أرهقت نفسها بفتح المقبض، وكان أقصى ما تمكَّنت من فتحه هو بضعة إنشات. اتجهت كارولين إليها للمساعدة. وممَّا رفعنا المقبض حتى تجاوز نقطة الميل. وتردد صرير اصطدام البرونز السميك بظهر الثور.

- هل أنتِ واثقة أنَّ هذا ما تريدينه؟

أجابت بنبرة متلهفة: «آه، نعم».

خاطبت كارولين إروين بلغة إنجليزية: «أيمكنك مساعدتها في الصعود؟».

- ماذا؟

- هذا جزءٌ من الطقوس.

- آه.

رمق إروين كارولين شزرًا، ثم مارجریت. أومأت مارجریت مشجعةً إياه، وهي تقفز على ضرة قدميها. ركع إروين وشبك يديه صانعًا منهما درجة سلم. رفعت مارجریت قدمًا حافية قدرة، ثم ترددت.

أخرجت مارجریت قدّاحتها زيبو وقدّمتها إلى كارولين: «خذي. هذه من أجلك».

لم ترغب كارولين في لمس ذلك الشيء: «لا بأس. لدي واحدة».

- خذيها.

- حقًا، أنا ...

- خذيها. ستحتاجين إليها عاجلاً أم آجلاً. (ابتسمت مارجریت، وظهرت أسنانها السوداء). أنتِ مثلي الآن.

شعرت كارولين بموجةٍ من الرعب تندفع بداخلها عند سماع تلك الكلمات، لكنها قمعت ذلك الشعور. وخاطبت نفسها: «أنهي هذه المسرحية فحسب». ثم تناولت القدّاحة بإصبعين، محاولة تلافي لمسها قدر المستطاع.

اندفعت مارجریت إلى داخل الثور.

ستيف: «أنا لا أفهم ما يحدث».

- ولا أنا أيضًا. ليس تمامًا. لكن هذا هو ما تريده هي.

اتسعت عينا مارجریت، وتلألأ بياضهما وسط السواد المشحّم الذي يُبطّن أغوار الثور... يغمرها الحماس، لكنها لا ترغب في الشعور بتفاوتٍ زائد.

علّقت كارولين: «لم تكن دومًا هكذا. حين كنّا صغارًا، كان... كان لديها بيت دمية كبير جدًّا. وكنّا نلعب معًا أحيانًا (زفرت تنهيدة مثقلة) هلّا ساعدني أحدكما في غلق تلك الكوة؟».

تساءل إروين: «ماذا تفعلين؟». لكنه يعرف سابقًا. هو أمريكي، بشري عادي، وليس غيبًا.

- كيف يبدو لك؟ ساعدني.

إروين: «مم. لا. لا أستطيع السماح لك بفعل ذلك».

تنهّدت كارولين في حلق. وفكّرت: «ربما بإمكان ستيف أن يساعدني؟
لا. ادفعي الكوة فحسب. تستطيعين إغلاقها».

حدّق إليها إروين بعينين ناريتين: «تريدان قتلها، لا بأس بذلك. بإمكانني قتلها بنفسي. لكن لا يمكنكِ حرقها. ليس من العدل فعل ذلك بأحد. وامرأة ذكية مثلكِ ينبغي لها أن تعرف ذلك».

ستيف: «وأنا أوافق إروين فيما يقوله».

عبست كارولين، وراحت تنقر أسنانها بأطراف أظفارها: «إذا كنتما لا تريدان الانخراط في ذلك، فلا بأس. لا ألومكما. ساعداني على إغلاق الكوة، وسألتقيكما عند البوابة».

كرر إروين: «لا أستطيع السماح لك بفعل ذلك».

التفتت إليه. وتكلّمت برفق كأنها تشرح شيئاً لطفلٍ صغير: «إروين... هذه ليست مفاوضة. لا وجود للكلمة «سماح» هنا. هل ستساعدني أم لا؟».

لم يحرك إروين ساكنًا.

قلّبت كارولين عينيها، ثم استدارت نحو الثور. بذلت جهدًا جهيدًا في رفع الغطاء، وذراعاها ترتجفان من فرط المجهود. ومع ذلك، لم تتمكن من رفعه لما هو أعلى من نقطة الميل قبل أن تخور قواها. انفتح غطاء الكوة مرة أخرى، مصدرًا صخبًا مدويًا يصم الآذان. تردد الصوت في أرجاء جاريسن أوكس مثل الناقوس. وفي أنحاء الضاحية أسفل التلة، بدأت أبواب المنازل تُفتح. وسمعت كارولين أحد الموتى يصيح: «هيا يا كلاب! اخرجوا من تلك القمامة!». لكن صوته كان مضطربًا.

ومن خلفها، سمعت نقرة خافتة ما إن أزال إروين فتيل الأمان من المسدس. وكرر كلماته: «لا أستطيع السماح لك بفعل ذلك».

تناهى إلى سمعها هديرٌ عميق خافت. كان الصوت لا يزال بعيدًا، لكنه يقترب بسرعة.

- ضع المسدس جانبًا يا إروين.

- أفكر في ألا أفعل.

رفعت ناجا بصرها إلى السماء وزارت. وفي الضاحية أسفل التلة خرجت الكلاب من أوكارها لتنضم إلى الموتى. وعلى إثر سماع صوت ناجا، نبح كلبان منها. وصاح أحد الموتى: «ها تعالي يا قطة يا قطقوطة».

فجأة تحوّل الليل الدامس إلى نهار مشرق، نهارٍ صاخب. وحلّقت مروحية على مستوى منخفض حول منحني خط التلال. مزودة بمصباح بحث، مثل شمسٍ ساطعة مشرقة. وجناحها القصيران على الجانبين يعجان بالقنابل والمدافع والأسلحة.

صاحت كارولين، ليُسمع صوتها من بين هدير الدوارات: «ما هذا؟».

فأجاب إروين: «مروحية آباتشي مسلّحة من طراز AH 64».

بعد لحظة برزت في الأفق مروحية أخرى. وراحت الاثنتان تحومان فوق الساحة المكشوفة للثور، ومصابيح البحث في باطنيهما تتألق. امتلأ الهواء بقش السنوبر، والقاذورات، وأوراق الأشجار، والغصون الصغيرة. كل هذا والأضواء ساطعة على نحو يسبب الألم.

أطلّت مارجريت برأسها من داخل الثور لترى ما يحدث. علّقت بنبرة خافتة جداً لم تسمعها كارولين، ثم استلقت على الأرضية داخل الثور.

سأل ستيف: «ماذا يفعلون؟».

زوّدت إحدى المروحيات بنظام صوتٍ عام: «ضعوا عنكم أسلحتكم. ضعوا عنكم أسلحتكم وابتعدوا عن الكلب».

زارت ناجا ثانية، فربّت ستيف على كتفها.

- هي ليست كلباً!

لامست ناجا خصر ستيف بكتفيها، وأرجحت ذيلها امتناناً. فابتسمت كارولين وفي نفسها علّقت: «إنهما ينسجمان معاً مثل قطعتي أحجية».

- أظن أنهم يبحثون عني.

وضع إروين مسدسه على الأرض، ولوّح إلى الطيارين. ثم صاح بصوتٍ أعلى من هدير الدوارات: «هذا مدفع رشاش من طراز M230، عيار 30 ملم» (رفع أصابعه منفرجة ليوضح مقصده) رأيتُ رجلاً أُصيب في صدره بأحد المدافع الرشاشة. كان كل ما تبقى منه هو الساقان».

كارولين: «اطلب منهم أن يرحلوا».

- لا أستطيع. ليس معي جهاز لا سلكي. وعلى أي حال، لن يسمعونا من الأساس.

- أأنت واثق أنك تريد إنهاء الأمور بتلك الطريقة؟
لمس ستيف كتف إروين: «إروين، أظن أن عليك حقاً أن...».
قاطعته إروين: «ما من شيء أستطيع فعله».

كارولين: «حسناً. لا بأس». استدارت كارولين نحو الضاحية، وتحدثت بصوت هادئ، لا تخاطب أحداً بعينه: «أورلات كيه تالاتي». خلیطٌ من اللغة الأوزبكية والمالطية والهندية.

صرخ ستيف: «ماذا تقولين؟».

- أقول «طوّق العدو ودافع».

5

في البداية، لم يكن هناك شيء.

ثم انبثق، من الدروب المظلمة لجاريسن أوكس، صوت... ما هذا الصوت؟
ارتجف ستيف مفكراً: «هناك شيء قادم! شيء فظيع!». تناهى إليه الصوت رغم الصخب الذي تحدثه المروحيات، خافئاً في بادئ الأمر، لكنه يزداد قوة.. مثل صراخ عميق لمسامير تُنتزع من ألواح الخشب، وأزيز تهشم زجاج، وأغصان صنوبر سميكة تتكسر إلى شظايا.

كان الضوء القادم من عمود الإنارة خافئاً، وبالطبع لا أثر للقمر في السماء. ورغم الظلام ضيق ستيف عينيه ونظر إلى الشارع، فاستشعر حركة بعيدة في الظلال. «أياً كانت طبيعة هذا الشيء، فإنه كبير». لمح حركة خاطفة، فنظر إلى إروين. وفي تلك اللحظة أدرك: «هو أيضاً يرى ذلك الشيء».

بدت تجاعيد القلق حول عيني إروين عميقة وقديمة. استدار نحو المروحية ذات مكبر الصوت، ولوّح للطيار بذراعيه فوق رأسه: «ارحلوا! اغربوا من هنا!». وجّهت كارولين حديثها إلى ستيف: «أغلق عينيك».

- ماذا؟

تجاهلت المروحيّتان تلويحات إروين، فغيّر طريقته إلى إشارات يدوية معقّدة، وهو يقول: «ارحلوا قبل أن ...».

- ستيف. أغلق عينيك.

لكنها لم تنتظر امتثاله لكلامها؛ تراجعت وراء ظهره وحجبت عينيه بيدها. وفي لحظة خاطفة، وقع وميضُ برّاق، كأن آلة تصوير في حجم ملعب كرة قدم قد التقطت صورة.

إروين: «آه! تَبًّا. أنا أعمى!».

كارولين: «هذا عمى مؤقت. لم تكن أنتَ المقصود به. أمهل نفسك بضع دقائق وستكون على ما يرام».

أخذ صوت دوارات المروحيّات يزداد حدته، وهدير المحرك يستحيل إلى صرخة مدوية.

سأل ستيف: «هل تغادر المروحيّات؟».

كان صوته هادئاً جدّاً لدرجة يصعب سماعه خارج رأسه.

إروين: «ماذا؟».

صرخت كارولين: «هذا مؤقت!».

- ماذا! لا أستطيع سماعك. الصوت عالٍ جدّاً.

ارتعشت مصابيح البحث المسلّطة عليهم قليلاً، ثم انطفأت تماماً. طرفت عينا ستيف وهو ينظر لأعلى متتبّعاً مسار مروحية الأباتشي. مالت المروحية على أحد جانبيها كأنها استدعت لمهمة عاجلة. وبعد برهة، وفي حركة دقيقة واحترافية، توجّهت مقدمة المروحية إلى الأسفل في سرعة متزايدة على نحو مفاجئ، واصطدمت بالطريق على بعد مئة ياردة أو يزيد. وحتى من تلك المسافة، كانت حرارة كرة النار المشتعلة هائلة لا تحتمل.

ستيف: «سحقاً! سحقاً بحق الجحيم!».

إروين: «آه، تَبًّا! أوقع ما ظننتُ أنه وقع؟».

بعد هنيهة أدت المروحية الأخرى الحركات نفسها؛ وجّهت مقدمتها إلى الأسفل، وزادت من سرعتها، ثم اصطدمت بالأرض في حركة دقيقة واحترافية. وفي ضوء كرة النيران المشتعلة ميّز ستيف الجرف الذي ركض

حوله ذلك الصباح. وفجأةً بات هواء الليل دافئاً على نحو غير مريح. ودون هدير الدورات الصاخب، صار ممكناً أن يتبادلوا حديثاً طبيعياً.

- قلتُ إن الأمر مؤقت.

سأل ستيف: «ما هو المؤقت؟».

- العمى الذي أصاب إروين. إنها آلية خاصة. والإشارة مخصصة، لا تقتل إلا المعتدين، لكنها تسبب العمى للجميع.

ستيف: «مخصصة! ماذا تقصدين؟».

إروين: «تعني «مصممة خصيصي». أي إشارة؟».

- ذلك الضوء الذي رأيته هو آلية دفاع. ينتشر من العصب البصري وينشط الخلايا العصبية المستعبدة.

- ما هذا؟

- الخلايا العصبية المستعبدة تجعلك سهل التأثر بالمؤثرات الخارجية. تنشط عند تعرضها للضوء، وما إن تصير الخلايا جزءاً من بنية التفكير، سيفعل الشخص ما يُملى عليه.

إروين: «مثلما حدث مع صرّافي البنك؟».

ما إن سمع ستيف ذلك التحليل، بدا له في غاية المنطقية، وفكّر: «ما كنتُ لأستنتج شيئاً كهذا. إروين هذا رجلٌ ذكي حقاً».

- بالضبط.

سأل ستيف: «وماذا طُلب من الطيارين أن يفعلوا؟».

كارولين: «انتحارٌ سريع. دون ألم إن أمكن، لكنه فوري». صمتت قليلاً، ثم استأنفت: «إذا كنت مهتماً، فهما لم يعانيا. بلغني أن التجربة برمتها كانت ممتعة».

شعر ستيف بالغثيان. وتساءل في قرارة نفسه: «خلايا عصبية مستعبدة؟».

- بربك يا كارولين. ما ذنب هؤلاء الرجال، إنهم يؤدون وظيفتهم فحسب. ولربما لديهم عائلات، وأطفال ...

هزّت كتفها في لا مبالاة: «هذا اختيارهم».

- كارولين، هم ...

- هذه أخطار إعداد نفسك لتصبح شخصية خطيرة. هناك دومًا فرصة أن تصادف أحدًا أفضل منك في ذلك.

انزاحت شفتا إروين عن أسنانه في ابتسامةٍ عدائية تشبه ضحكة القروء. وكارولين تراقبه في تعبيرٍ يصعب تفسيره.

وقف ستيف بينهما وهو يردد في نفسه: «أناسٌ خطيرون بلا شك». ثم بصوتٍ عالٍ: «انظرا، ما هذا؟».

- ماذا؟

- هناك شيءٌ يتحرك في الخلف هناك. في السماء. أستطيع أن أراه يطمس الأضواء في المدينة، لكنني لا أستطيع تبين ماهيته. (التفت إلى كارولين) هل هذه... أعني، سفينتك الأم؟ أو شيء كهذا؟

تجاهلته كارولين ووجهت حديثها إلى إروين: «هل تحسنت عينك؟».

إروين: «نعم، قليلًا». ثم مخاطبًا ستيف: «لا أظن أنها كائنٌ فضائي يا فتى».

- جيد. ستتحسن في غضون بضعة دقائق. ستيف، عُد إلى أسفل التلة. سألتقيك هناك بعد بضعة دقائق.

رمى ستيف الثور بنظرةٍ خاطفة في غير ارتياح: «كارولين، لا أظن حقًا أنه يجدر بك...».

- اذهب يا ستيف. أعرف أنك لا تستوعب الموقف، لكن هذا ما تريده مارجريت. وسأمنحها ما تريد. (تلطّفت نبرتها وهي تضيف) لكنك لن تحبذ رؤية ما سيحدث. انتظرني هناك في أسفل التلة. سألحق بك.

- ماذا عن إروين؟

- سيتحسن في خلال ساعة أو أكثر.

- إلى أين سنذهب؟

- إلى الديار.

- هيا بنا يا ناجا.

أولى ستيف ظهره لكارولين وإروين، وهبط الدرج. عائداً إلى الطريق السريع 78، قطع بضع درجاتٍ أخرى باتجاه مروحية محترقة، وهو يفكر في البحث عن ناجين. لكن حتى من تلك المسافة البعيدة، كانت الحرارة المنبعثة من النيران المشتعلة كافية ليتجعد شعر يده. حينها فُكّر: «ما من أحد سينجو من هذا». اقترب قليلاً على أي حال، محمومًا بالدهشة، ثم سمع سلسلة سريعة من الانفجارات. بوم! بوم-بوم-بوم!

الذخيرة تنفجر!

«آه، تبّاً!».

استدار هاربًا، مندفعًا نحو لافتة جاريسن أوكس. اتخذ غطاءً موليًا ظهره إلى العمود الحجري المزخرف. رأى زمرةً من الناس يتجولون في الحي، وبعض الكلاب كذلك، وبدأ كلاهما لا يهتم بوجوده.

بعد بضع دقائق، تناهى إليه رنين معدني من أعلى التلة. ففكّر: «أظن أن كارولين وجدت طريقة لإغلاق الكوة». فضوله محموم ورجفته مكبوتة، وقف ستيف ونظر صوب قمة التلة. أُضرمت نيرانٌ جديدة هناك، أصغر من النيران المشتعلة من المروحيات المحترقة. ثم رأى كارولين تسير نحوه، ظلًا داكنًا وسط لهيب النيران الأصفر.

كانت بمفردها.

سألها ستيف ما إن اقتربت منه: «ماذا فعلتِ؟ هل ...».

هزّت رأسها: «انتهى الأمر. هذا كل شيء. هيا بنا».

تجاوزته دون أن تُبطئ من خطواتها. غرق الحي في ظلام دامس، وبعد بضع خطوات فحسب، اختفت في الظلال.

- ماذا عن إروين؟

- لن يأتي. يريد البقاء مع أقرانه. هيا بنا يا ستيف.

ألقي ستيف نظرةً أخيرةً على قمة التلة. كانت النيران الثالثة تتأجج في مرجح الآن، نيران شواء كما يجب أن تكون. فُكّر في يد مارجريت، بشرتها

الشاحبة وسط البرونز الأسود لأحشاء الثور. فارتجف ثانيةً، وتبادر لذهنه أن المروحيات المحترقة ستؤدي عملاً جيداً في عرقله الطريق. حدّث نفسه: «ما من أحدٍ سيتجاوز مشهد الطائرات حتى الصباح. على الأقل. إننا وحدنا الآن».

كان استنتاجه صحيحاً، لكنهما ليسا بمفردهما. لقد خرج الموتى -عشرات منهم، وربما مئات- رجال ونساء وأطفال. يرتدون خرقاً بالية تعود إلى عقود ماضية من البوليستر، والجينز العتيق والبيزلي. وقف أحد الأطفال ممسكاً بذراع تحكم لعبة أتاري، والسلك يتدلى بين قدميه الحافيتين القذرتين. بدا السلك وكأن أحدهم مضغه بأسنانه. ثم نظر الصبي إلى ستيف وهو يقول: «حان وقت المتحولين».

- بالطبع.

ركض ستيف لاحقاً بكارولين، ممتناً لوجود ناجا إلى جانبه. كانت كارولين تحل رباط الحذاء الذي قيّد ديفيد بصندوق البريد. ورأى ستيف أن فقاعة السواد التي بدأت من عينيه قد نمت في حجمها. وصار طولها الآن أكثر من قدمين. غلّقت رأسه تماماً، وجزءاً لا بأس به من صدره.

راحت كارولين تشير إلى المتجمعين في الشوارع، وهي تخاطب ستيف: «لا تقلق. لن يؤذونا».

بدا ستيف متشككاً: «حسنًا، هذا جيد».

تتأجج النيران من خلفهما في مرج الآن، وقد غمرت الضاحية بقدر مذهل من الضياء. وقف الموتى يراقبون المشهد، وجوههم مغطاةً بوهجها الأصفر. ذرفت عيون البعض دموعاً سالت على وجناتهم. ظنّ ستيف في بادئ الأمر أنهم متفجّعون -على مارجریت ربما؟- وفكّر: «هل كانت زعيمتهم العزيزة أو شيئاً كهذا؟». ثم لاحظ أن كثيراً منهم يبتسمون في الآن نفسه. فحدّث نفسه: «ربما هذا هو البكاء الذي تراه في حفلات الزفاف؟».

- مهلاً يا كارولين. لماذا يبدو هؤلاء الناس في هياجٍ شديد؟

- إنها النيران. النيران هنا لها معنى.

- حقاً!

رأى ستيف كلاباً أيضاً، حتى إنه تعرّف على بعضهم من ذلك الصباح المشؤوم. لكنها بدت لا تتذكره، أو ربما لا تهتم لأمره. تجوّلت الكلاب بحرية

بين الناس، لا يدللها أحد. ثم رأى حيواناتٍ أخرى أيضًا، ثعلبًا، أو شيئًا يمكن أن يكون قطعة برية، أو ربما فهدًا، و... «يا إلهي!».

- ماذا؟

- هل هذا نمر؟

- هو كذلك. لا تقلق. لن يؤذيك. إنه واحدٌ من الحرَّاس.

وجَّه ستيف حديثه إلى ناجا وهما يتبادلان النظرات: «أسمعتِ ذلك؟ لا تقلقي». ثم مخاطبًا كارولين: «وما ذلك الشيء إلى جواره؟».

- إنه من المستقبل. لا تقلق يا ستيف.

تجمَّعت الحيوانات والبشر و... كائنات أخرى... في أنحاء الشارع وفي الأراضي العشبية. وابتعدوا عن الطريق ما إن رأوا كارولين قادمة نحوهم، لكن بعض الموتى مدوا أيديهم للامستها بأطراف أصابعهم وهي تمرُّ بهم. كانوا يتكلمون أيضًا، يغمغمون إلى أنفسهم، يكررون كلمة واحدة مرة وراء مرة في متممة خافتة لا تتزعزع وبلغّة لم يفهمها.

- بماذا ينادونك؟

- سهلاني.

- ماذا تعني هذه الكلمة؟

- لا يوجد ترجمة حرفية مباشرة لها في اللغة الإنجليزية. قد تكون ترجمة «كبير المكتبيين» صحيحة من الناحية الحرفية، لكن المعاني الضمنية خاطئة. (عبس وجهها قليلًا). هذا ما اعتادوا أن ينادوا به الأب.

- آه.

ثم أخيرًا وصلا إلى منزل رقم 222 جاريسن أوكس. أو ما تبقى منه على أي حال. فكَّر ستيف: «المكتبة! بعد رحلة طويلة مؤلمة، وصلنا أخيرًا». ثم رَمَقها بعينٍ فاحصة، وهو يهمس في قرارة نفسه: «أيًا كانت القوة التي خرجت من هنا - «تطوَّق العدو وتدافع» فقد أحدثت فوضى عارمة في المكان». كانت الواجهة الأمامية ما زالت قائمة، لكن هذا كل شيء. انهارت جوانب المنزل ومؤخرته فوق بعضها. ومن وراء الواجهة المزيّفة لا وجود لشيء الآن سوى الانقراض.

سأل ستيف: «أهذه هي؟».

استشعر شيئاً من خيبة الأمل. وحتى قبل أن تنقُصَ جدران المكتبة على نفسها، لا بد أنها كانت مبنًى عادياً؛ منزل من الطوب على طراز صندوق الملح⁽¹⁾، وأربعة أعمدة، ونافذتان.

رفع ناظره. وعلى بعد بضعة مئاتٍ من الياردات فوق رأسه، مرَّ بهما شيءٌ، أيّاً كان كنهه، فقد كان شديد الكبر في حجمه شديد الظلمة في الليل. شعر ستيف بالريح المضطربة من عبور الشيء على وجهه. وفجأة عاوده شعور القلق مجدداً.

- هل سندخل إلى ذلك المكان؟

- نوعاً ما. ليس تماماً. ذلك الشيء في الأعلى ما هو إلا إسقاط. أما المكتبة الحقيقية فهي، مم، بعيدة. وهذا الباب هو الممر.

صعدت كارولين الدرجات الحجرية إلى الشرفة، ووضعت يدها على المقبض: «هياً».

قلَّب ستيف عينيه: «ممر سري؟ كان يفترض بي أن أعرف ذلك (صعد الدرجات بدوره، لكنه توقف قبل الانضمام إلى كارولين، وقرقع أصابعه كأنما خطر له خاطر. ثم نظر حوله) مهلاً، انتظري لحظة...».

- ماذا هناك؟

كانت الشرفة خاوية على عروشها. «ولا حتى سجادة ترحيب؟».

- أين ذلك الرمز؟ ذاك الذي أرسلتني إلى هنا من أجله؟

- ليس مهماً. لم يعد مهماً.

- ما زلتُ أريد معرفته. أشعر بالفضول رغم كل ما حدث.

هزَّت كارولين كتفها بلا اكتراث، وأشارت إلى الظلال عند قاعدة أحد الأعمدة: «هناك».

مشى ستيف إلى حيث أشارت وجلس القرفصاء. هناك، مثل فأرٍ يختبئ في جحره، وجد الرمز: «إنه كتاب!».

(1) Saltbox: مبنى سكني مسقوف بالجلتون ويتكون عادةً من طابقين في الأمام وطابق في الخلف. إنه أسلوب تقليدي للمنازل في نيو إنجلاند، مؤطر بالخشب في الأصل، والذي أخذ اسمه من تشابهه مع صندوق خشبي ذو غطاء كان يُحفظ فيه الملح آنذاك. (المترجمة)

ابتسمت كارولين: «بالتأكيد هو كتاب».

التقط ستيف الكتاب. كان قديمًا ومهترئًا، اصفرَّت صفحاته بفعل الزمن والأوساخ المتراكمة من كثرة القراءات. كما أن غلافه مفقود، لكن ثمة شيئًا حياله، شيئًا مألوفًا ...

- مهلاً! أنا أعرف ذلك الكتاب.

- حقًا؟

- نعم! كانت لدي نسخةٌ منه حين كنتُ صغيرًا. إنه يتناول قصة ذلك الحصان، صحيح؟ الحصان الذي أُخِذَ من منزله إلى تلك الحياة المريعة. أظن أن اسمه الجمال المظلم، صحيح؟

استدارت كارولين نحوه، وعضلات رببتها وفخذيها تتلألًا تحت ضوء النيران المشتعلة، ونصف وجهها مختبئ في الظلال: «شيءٌ من هذا القبيل». عبس ستيف: «أمرٌ غريب. أعرف أنني قرأتُ هذا الكتاب، لكنني لا أستطيع تذكر نهايته».

- هل أنتَ قادم؟

- نعم. أظن أنني قادمٌ معكِ. هل أجلب الكتاب؟

- لا. اتركه.

- ماذا لو تساقط المطر، أو ...

- اتركه. لقد شهد ذلك الكتاب معارك كثيرة. هو أصْلَبُ مما يبدو عليه مدَّت كارولين يدها إلى مقبض الباب ثانيةً، لكنها توقفت قبل أن تلمسه: «هل أنتَ مستعد؟».

- مم... أظن ذلك. ما الأمر المهم في ذلك؟

- الأسهل أن ترى بنفسك. ألف كلمة لا تساوي صورة.

لمست كارولين مقبض الباب في رفق بأطراف أناملها، ثم تراجعَت خطوةً إلى الوراء.

ترددت نقرَةٌ خافتة، صوتٌ معدني زلق كالحرير. ربما كان الصوت لألسنة نحاسية تتعشَّق في متاريس القفل الأكبر في العالم. تأرجح الباب منفتحًا على ظلمة دامسة. وتدفق الهواء الدافئ من الداخل، جافًا مثل ريح الصحراء، مشبَّعًا برائحة غبارٍ قديم.

من خلفه زارت ناجا بصوتٍ وحشي غريب، لم يسمعه ستيف منها من قبل. ولمّا استدار ليطمئنّها، أحس بفرائها منتصبًا خشنًا تحت يده: «ما المشكلة يا فتاة؟». لكنه عرف المشكلة. بل شعر بها هو الآخر.

أجابت كارولين: «الحيوانات لا تحب هذا المكان. وربما لن تدخل معنا. ناولني ديفيد».

ناولها ستيف رباط الحذاء الذي يتأرجح ديفيد في طرفه الآخر: «ما هذا...». قطع كلامه وهو يحدّق في الظلمة.

قطعت كارولين الخطوات إلى الداخل، وهي تحثه: «تعال».

طرفت عينا ستيف. ما إن وطئت قدما كارولين العتبة حتى ارتد جسمها كأنها أصيبت بقذيفة مدفع. فعلق ستيف: «مم. لا أريد الاستمرار في ذلك».

استدار لينزل عن الشرفة، ثم تجمّد. من خلفه رأى الموتى والحيوانات يقفون في المرح يراقبون المشهد. وما إن قطع خطوة واحدة نحو الدرجات حتى نبج أحد الكلاب نباحًا بسيطًا. وعلى بعد ربع ميلٍ أو أكثر إلى الشرق والغرب على الطريق السريع، تأججت مروحيات الأباتشي مثل نيران حفلات الشواء. وتشبّع الهواء برائحة كيروسين محترق، وكل بضع ثوانٍ يتردد دوي أو فرقة مع انفجار الذخيرة.

ومن وراء كل ذلك، تعالت صافرات الشرطة المقتربة. فكّر ستيف في نفسه: «إلى متى سأظل حيًّا خارج هذا المكان؟ وحيدًا، مفلسًا، أكثر المجرمين المطلوبين للعدالة في البلاد. حتى لو لم أعد إلى السجن من فوري، إلى أين يمكنني الذهاب؟ إفريقيا؟ بوليفيا؟ القمر؟».

من فوق التلة تنهى إليه صوت امرأة. لم يستطع تبين ما إذا كانت تصرخ أم هذه بداية أغنية.

تنهّد ستيف، ثم عاد إلى الشرفة، وهو يسأل ناجا: «أأنتِ مستعدة لتلك المغامرة؟».

نظرت إليه ناجا طويلًا في تشكك، ثم أرجحت ذيلها في إيماءة بسيطة. ومعًا اجتازا العتبة فلا يفترقان.



الفصل الثاني عشر

المكتبة

1

عند التفكير في الارتداد الذي حدث لكارولين ما إن وطئت قدمها العتبة، تَوَقَّع ستيف... حدوث شيء. جرّة مفاجئة، إحساس بالاندفاع إلى الأمام. أي شيء. لكن ما حدث كان خلاف ذلك. خطأ بقدميه في أغوار الظلمة. وبعد هنيهة وقف على أرضية من خشب البلوط الجاف والقديم. وكارولين بانتظاره، تمدّ يديها استعدادًا لإمساكه.

ستيف: «حسنًا، هذا ليس.... (لكن ما إن رأى أين تطئ قدماه، ترنَّح إلى الوراء مستندًا إلى الحائط من ورائه) يا إلهي! تبًّا!».

بدأت كارولين مسترخية قليلًا: «نعم. هذه هي ردة فعلي تمامًا. على الأقل أنت لم تفقد وعيك». وازنت نفسها مستندة إلى خزانة كتب قريبة، وبدأت تخلع دفاءات ساقها.

- ما... أقصد... يا إلهي... ما هذا المكان؟

أجابت كارولين: «هذه مكتبة الأب (ثم خطر لها خاطر) حسنًا... أعتقد... مكتبتي أنا الآن (طرفت عينيها) مم. ملكٌ لي».

أجاب ستيف بصوتٍ فاتر لا يشي بشيء: «المكتبة (إلى جانبه زمجرت ناجا. فربّت على كتفها) نعم يا عزيزتي. أنا أيضًا». جال بنظره في الأنحاء فاغزًا فاه، وهو يقول مجددًا: «يا إلهي! تبًا!». هذه المرة بمهابة حقيقية. كانت المكتبة شاسعة.

بلا شكّ كانت المكتبة أكبر بناء دخله، أو سمع به، أو حتى تخيله في حياته. امتدت رفوف الكتب المتراسة على مد البصر. ورأى كرة ضخمة من الضوء تتدلى من السقف، على ارتفاع ناطحة سحاب مثلًا، وسقفًا يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك. بدا مستحيلًا أن تقدّر ارتفاع السقف، ربما آلاف الأقدام؟ آلاف الأميال؟ كان ارتفاع الساحة التي يقف فيها أعلى من ارتفاع ملعب السوبردوم⁽¹⁾، وأكثر اتساعًا من مبنى الركاب في مطار أتلانتا.

- يمكنكِ تحليل طائرة هنا. ربما ليس طائرة 737، لكن من السهل تحليل طائرة سيسنا. ربما حتى طائرة لير.

أجابت بصوتٍ مكتوم بالقماش: «نعم، أظن ذلك».

رفع ستيف عينيه ورأى كارولين تخلع سترتها. فغضّ بصره بيده، وهو يسأل: «ماذا تفعلين؟».

- أخلص من تلك الملابس السخيفة. أتريد ثوبًا فضفاضًا؟ مقاس واحد يناسب الجميع، كما أنها نظيفة.

أصدرت الثياب الملقاة على الأرض حفيفًا خافتًا.

- ماذا؟ لا، أنا على ما يرام.

اختلس نظرة سريعة. تكوّم سروال كارولين الضيق عند كاحليها. أولاهها ظهره وفتح عينيه. وبعد هنيهة، ظهرت أمامه مرتديّة ثوبًا فضفاضًا بلون أخضر رمادي من قماشٍ خشن بعض الشيء، يشبه رداء الكهنة. وبدا أن الثوب يلائمها أكثر من سترة عيد الميلاد.

- هل أنت جائع؟ أنا أتضور جوعًا.

- ماذا؟

(1) ملعب مرسيدس بنز سوبردوم: كان يعرف في السابق باسم سوبردوم ولاية لويزيانا، هو الملعب الرئيسي لفريق نيو أورلينز سينتس في مدينة نيو أورلينز، لويزيانا، الولايات المتحدة. تم وضع خطط البناء لأول مرة في عام 1967 من قبل شركة نيو أورلينز المعمارية. (المترجمة)

- طعام! (رَبَّتْ على بطنها بيدٍ واحدة). أشعر فجأةً أنني أتضور جوعاً.
سرّ إلى جانبي، حسنًا؟ سأخذك في جولة.
- آه ...

طرفت عيناه، متذكراً المنزل المتواضع ذا الشرفة المتهالكة. حين رددت سابقاً كلمة «مخفية» تصور أنها مستودعٌ تحت الأرض، شيءٌ أشبه بملجأ طوارئ. ففكر في نفسه: «لكن هذه ...». ثم أكمل كلامه بصوتٍ مرتفع: «هذه كبيرة. أنى لها أن تكون بهذا الحجم الكبير؟».

- ليست كبيرة كما تتصور. قمتُ بقياسها ذات مرة. يبلغ طولها نحو ميلين تقريباً في كل جانب.
- ماذا تقصدين بكلمة جانب؟

أشارت بإصبعها للأعلى: «إننا داخل هرم. ألا ترى؟». متتبّعاً إصبعها رأى ستيف قمة الهرم، حيث تتلاقى ثلاثة مثلثات متساوية الأضلاع في نقطة شديدة الارتفاع لدرجة يصعب الوصول إليها.

- يا إلهي! أرى الآن. لكن ما أعنيه هو أن... (أجری بعض العمليات الجبرية السريعة في رأسه)... ميلان هو مساحة مربعة كبيرة جداً مقارنة بمساحة هذه الضاحية. ألا تنتهكون هكذا قوانين البناء؟ أو قوانين الفيزياء؟

- ربما ننتهك قوانين البناء. لأنه لا يوجد أي تأريض للأسلاك. لكن قوانين الفيزياء لا تنطبق هنا.

- ما هذا الهراء الذي تتحدثين عنه يا عزيزتي كارولين؟

- هل يمكنك أن تفزع وتجزع ونحن نسير؟ أرجوك؟

هزّت رباط الحذاء في نفاد صبر. وديفيد، الذي كاد السواد الحالك يبتلعه كلياً، يتمايل من طرفه الآخر.

تغطّت الأرض بألواح خشبية لم يفرغ من معظمها؛ ألواح كبيرة وزلقة، كأنها فدادين ممتدة. لكن ستيف وكارولين كانا يقفان على أرضية من اليشم، هي نهاية مسار رئيسي - أم هو طريق؟ - يمتد على طول الأرضية الشاسعة. بلغ عرضها كعرض طريقٍ سريعٍ من ثلاث حارات، تبلّطت جميعها في أناقة

ببلاطٍ من اليشم الأخضر، عكس لمعةً خافتة تحت الأقدام. شرعت كارولين تقطع الطريق مهرولةً، لا تنتظر لتتأكد إن كان ستيف يتبعها أم لا. هرول ستيف وراءها يشير ويتساءل: «ما هذا؟».

في منتصف الطريق بينه وبين الجدار البعيد رأى شيئاً يشبه تكوين الحمض النووي ممتداً حتى عنان السماء، ربيعاً ونحياً. كان مكللاً بقرص من اليشم الأخضر. تساءل ستيف في نفسه: «ربما هذه منصة مراقبة؟ مثل تلك التي توضع على سطح ناطحة سحاب؟». وفوق المنصة مباشرةً سحابة من المصابيح تتحرك في بطاء، وتغمر القاعة ببريقٍ دافئ يشبه أضواء الشموع.

- إننا متجهان إلى هناك.

علق ستيف مذهولاً: «يا إلهي! هذا المكان ضخم للغاية. هل ما زلنا داخل المنزل بأي حال؟».

- لا. المنزل ليس مهمماً. الشيء الوحيد المهم هو الباب الأمامي. هو واحد من الأماكن التي تتداخل فيها المكتبة والفضاء العادي. منافذ حراسة محصنة كما ترى. لقد كان الأب انتقائياً جداً بشأن مَنْ يُسمح له برؤية عمله.

- ماذا تقصدين بـ «عمله»؟

بسطت كارولين ذراعيها مشيرةً إلى آلافٍ تُعد ولا تُحصى من خزانات الكتب: «هذا هو عمله».

- رجلٌ واحد هو مَنْ كتب كل هذا؟ الكتب هنا بالملايين!

- صحيح. كما قلت لك، الأب قديم، قدم الزمان كما يقولون. كان يكتب بضع صفحاتٍ في كل يوم، قطرةً من هنا وقطرةً من هناك. وبمرور الوقت تملئ البحار.

- رائع!

على امتداد ممر اليشم هنا وهناك تناثرت أكوام متمائلة من كتب غير مرتبة في الأرفف، حاملاتٌ صغيرة للمخطوطات، وأرفف مصغرة للدفاتر. كانت ناجا تستنشق واحداً الآن. في الواقع... ذكَّرتنا نظرة ناجا بالنظرة التي تعلق وجه بيتي حين يوشك على تلويث السجادة. هرول إليها وربَّت على كتفها وهو يقول: «لا تتبولي على أرضية المكتبة السحرية، اتفقنا يا حلوتي؟».

صاحت كارولين من وراء كتفها وهي تواصل السير: «لا يوجد شيء اسمه سحر يا ستيف».

- كما تشائين.

جال ستيف بعينه في الأرجاء، ثم نظر لأعلى، فطرفت عيناه. تكدّست جوانب الهرم فوقه بالرفوف أيضًا. فتساءل في نفسه: «ما هذا؟ هل هي مثبتة بالمسامير إلى السقف أو شيء كهذا؟». كان هذا كله على بعد نصف ميل أو أكثر فوقه؛ بعيدًا بما يكفي ليسمح لستيف برؤية أن تخطيطها يشكّل نمطًا جزيئيًا، يتكامل مع المساحة الفارغة هنا وهناك. أغمض جفنيه نصف غمضة، فاستطاع تمييز أرائك ومكاتب صغيرة؛ تبدو جميعها محصنة ضد الجاذبية. وثلاثة مسارات عريضة من الياقوت، تنبثق من المركز الهندسي للسقف. بدا المشهد وكأنك تنظر إلى الأسفل في حين أن طائرتك تقترب من الهبوط.

بعد بضع ثوانٍ أصابه النظر إلى الأعلى بالدوار. مدّ يده ليوازن نفسه فاستند إلى كومة من الكتب. أمسك بالكتاب فوق الكومة، مجلدٌ كبير الحجم مغلف بجلد أرجواني، ثم شرع يهرول وراء كارولين، وهي التي تتحرك مبتعدة بسرعةٍ تثير العجب. كان المجلد أثقل مما يسمح بفتحه كليًا في أثناء سيره، لكن نظرة خاطفة إلى داخله مكّنته من رؤية أن الصفحات كلها مكتوبة بخط اليد.

- إذن، إذا لم تكن هذه الكتب سحرية، فما هي طبيعتها؟

- علومٌ مختلفة. هناك اثنا عشر فهرسًا أساسيًا. (ألقت نظرة سريعة إلى الوراء). المجلدات البنفسجية هي علوم الرياضيات. وهذا كتاب تمهيدي في الهندسة البديلة على ما اعتقد.

فتح المجلد قليلًا وألقى نظرة بداخله: «يبدو عتيقًا جدًّا. كأنه واحد من تلك الكتب -ماذا يطلقون عليها- آه، أجنبية⁽¹⁾؟».

(1) أجنبية: ومعناها كتاب المواقيت أو «كتاب السواعي» أو «كتاب الساعات». وهي كلمة ذات أصل قبطي. تستخدمها الكنيسة القبطية الأرثوذكسية. وتضم سبع صلوات تقام على مدار اليوم. وهذه الصلوات مرتبة زمنيًا، وكل صلاة تعبر عن مرحلة من حياة يسوع على الأرض. (المترجمة)

- ذلك الكتاب عمره يزيد على عشرين ألف سنة. ولو كانت محاكم التفتيش قد قبضت عليك بصحبته، لبدؤوا في إحماء لوالب الإبهام⁽¹⁾.
- حقًا؟

اشتد فضوله في تلك اللحظة، فتوقف عند كومة الكتب الطويلة التالية، واستخدمها منضدة للكتاب في يده. ثم فتحه على صفحة عشوائية. كانت صفحاته من الرق السميك، تغص بكتابة تصويرية مرسومة بدقة ومرتبعة في أعمدة رأسية مثل الكتابة المسمارية، أو ربما الهيروغليفية. لم يستطع قراءة المكتوب ولا حتى تخمين إلى أي لغة ينتمي النص. وبعد بضع صفحات وجد رسمًا يمتد على صفحتين متقابلتين، حبرٌ باهت مُطعم بأوراق الذهب، مرسومٌ يدويًا وبهت مع الزمن. كان للرسم جمالية غريبة؛ نصفه رسمٌ تقني، مستويات منظمة بدقة، وزوايا محسوبة، وخطوط متعرجة هي معادلات على الأرجح. والنصف الآخر هو مشهد معركة. وما بين الخطوط ومتوازيات الأضلاع يتخلل المشهد جيش من كائنات طويلة الأعناق بارزة الأسنان تشق طريقها هابطة من ثقب في السماء. تكدّست الغابة من أسفله بجثثها. والقلعة الناجية منها، وهي في مظهرها تشبه الزرافات، تركع صاغرة أمام رجلٍ يتشح برداءً أسود. انتصب الشعر في مؤخرة عنق ستيف عن آخره. واسترجع كلماتها: «عمل الأب».

إلى جانبه زمجرت ناجا. كانت مقوَّسة الظهر وهي تطل بعينيها إلى داخل الظلال بين أرفف الكتب.

حين تتبَّع ستيف موضع عينيها، ظنَّ أنه رأى طرفًا يتحرك، هناك في الظلام الدامس. ربَّت على رقبة ناجا، مطمئنًا إياها بقدر ما يطمئن نفسه. لكن عضلاتها متشنجة وأوصالها ترتعش.

اختلس نظرةً إلى ممر اليشم، فرأى أن كارولين لم تتوقف، وها هي الآن على بعد نصف مساحة ملعب كرة قدم، والكرة السوداء تتمايل من ورائها مربوطة برباط الحذاء.

(1) لولب الإبهام: أداة تعذيب كانت في شكلها الأصلي، أداة ضغط شبيهة بزوج من كسارات الجوز. يتم وضع إبهامي يد الضحية أو أصابع يده بين قضيبين حديديين كبيرين على جانب قضيب أصغر مركزي، والذي يمكن عندها ضغطه بشكل لولبي محكم وشديد. (المترجمة)

- كارولين؟

لكنها لم تجب.

- كارولين؟

ترك المجلد على كومة الكتب وركض ليلحق بها، وهو يمسح أصابعه التي لامست المجلد في قميصه. لحق بها بأسرع ما كان ليتصور أنه ممكن. ثم تراءى له أن أرضية اليشم ربما ساعدته على ذلك بطريقة أو بأخرى، كأنها مثل ذلك الممشى المتحرك في المطار.

قال ستيف وهو يلهث قليلاً: «أظن أنني رأيت شيئاً يتحرك هناك من خلفنا».

- ها؟ آه. صحيح، ربما رأيت ذلك فعلاً. لدينا خدمٌ هنا. أتذكر ذلك الرجل صاحب جازاة العشب؟ مثله تمامًا. يتولون مهامًا بسيطة، ككنس الأتربة وترتيب الكتب وما إلى ذلك. يحاولون الاختفاء عن الأنظار حين يزور المكتبة أناسٌ حقيقيون.

- هذا مخيف حقًا. وما خطب تلك الصورة ...

قطع ستيف كلامه مشدوهاً: «سحق_____!». لقد قطعاً مسافة أكبر مما ظنَّ أنه ممكن. والآن صار الحمض النووي الحلزوني أمامهما مباشرةً. ومن مكانه تبين لستيف أنه درج في حقيقته، لكنه درجٌ ضخم جدًّا. معلقٌ في الهواء، بارتفاع يبلغ مئات الياردات ومن غير عمد، يؤدي إلى سحابة شاسعة من الضوء من فوقهما. حينها سأل ستيف: «ما هذا؟».

أشارت كارولين إلى السحابة: «هذا هو الكون. أقصد الكون العادي. ذاك الذي نشأت فيه».

- مثل نموذج النظام الشمسي، أم ...

- لا. بل الكون الحقيقي. النسخة الأصلية.

- هذا مستحيل ...

تردد في إكمال حديثه وزفر تنهيدة. ثم تساءل: «كيف؟ كيف يكون شيءٌ كهذا ممكنًا؟».

أجابته كارولين بسؤال: «هل تعرف مصطلح «نظرية المجموعة»؟».

- نعم. لا أعرف. ربما أعرفه. أو ليس تمامًا. (فرك صدغيه بأصابعه). يبدو مألوفًا.

رَبَّتْ عَلَى كَتَفِهِ: «لا تلم نفسك كثيرًا. هذه تفاصيل كثيرة لتستوعبها مرة واحدة، وبخاصة في بادئ الأمر. لقد كنتُ مثلك تمامًا».

- لطفُ منك أن تقولي هذا.

- المكتبة هي كَوْنٌ منفصل، مجموعة شاملة تضم عناصر من الكون الذي نشأت فيه. هناك شيءٌ من التداخل بينهما، لكن ليس كثيرًا.

- كون منفصل؟

- نعم. هناك بعض، مم، الأشخاص الخطيرين جدًّا الذين سيفعلون أي شيء ليضعوا أيديهم على عمل الأب. جرَّب من قبل إقامة الحصون الأرضية، مثل الأبراج، والقلاع، وبعض آليات الدفاع المتقدمة جدًّا. لكن أي شيء يمكن غلقه يمكن فتحه. المخاطر هائلة، وكانت هناك بعض المواقف الحرجة. ثم في نهاية المطاف أنشأ هذا المكان.

اعترض ستيف، ثم نظر إلى سحابة الضوء فوقه: «لكن... أقصد... الكون كبيرٌ جدًّا؟ صحيح؟».

- الجواب هو نعم ولا. لأن الحجم مفهوم نظري، ويرتبط ببنية الفضاء. الباب الذي أتينا منه هو بوابة مرور، لكن له وظيفة انتقالية. لن تكون مخطئًا إذا قلتَ إن العبور خلال تلك المرحلة الانتقالية يجعلك أكبر حجمًا.

- أرى أن حجمي لم يتغير.

- حسنًا... لن تكون على صوابٍ إذا قلتَ ذلك أيضًا. هذه مسألة رياضية معقَّدة بعض الشيء.

قَلَّب ستيف عينيه، أو بالأحرى شخص بعينه إلى السماء استمدادًا للقوة. ثم قال: «لا أظن أنها تتعمَّد أن تكون مستعصية على الفهم. وكلماتك تبدو ذات معنى لكن...».

- فكَّر في المكتبة على أنها الورق الذي يغلف شطيرة بيج ماك.

- حسنًا. وما الذي تمثله شطيرة بيج ماك؟

- الكون. الكون الآخر.

ستيف: «هذا مفيد نوعًا ما. شكرًا لك. وما دمتَ تفهمين حيرتي، إليك سؤال آخر: ما الذي سنفعله هناك بالأعلى؟».

- أحتاج إلى تعليق ديفيد؟

هزّت كارولين رباط الحذاء، فتأرجح في الهواء كخفّ الريشة. كان حجم الكرة السوداء قد ازداد وهما يسيران. والآن لم يعد ظاهرًا منه إلا النصف السفلي من قدمٍ واحدة، ورباط الحذاء معقودٌ في إصبع قدمه غزيرة الشعر.

- تعليقه؟

- نعم. كما أنني تركتُ بعض الطعام في المبرد. هناك أيضًا كراسي

حديقة ومشواة. ظننتُ أن بإمكاننا تنظيم نزهة! هل تحب النزهات؟

- م... بالتأكيد. أظن أن النزهات لطيفة حقًا.

أجابته بابتسامة خاطفة، ونَدَّت عنها بعض الضحكات أثارت دهشته. ثم شرعت تصعد السلالم، وهي تصيح بفرح: «طعام!».

شخص ستيف بنظره إلى الأعلى متأهبًا. حتى لو نحى جانبًا خوفه المرضي من المرتفعات وحقيقة أن السلالم تسبح في الهواء من غير عمد، فإن المنارة الحلزونية الشاهقة هي أطول بناءٍ من صنع بشر قد رآه في حياته، بارتفاعه ذاك الذي يبلغ ثلاثة آلاف قدم، بحد أدنى. وربما أكثر من ذلك. «ولا وجود لدرابزين أيضًا». بدا القرص في الأعلى ممنمًا، يكفي ليختبئ وراء ظفر إبهامه.

- أتريدون حقًا أن نصعد كل هذه السلالم إلى الأعلى؟

- نعم. الأمر ليس سيئًا كما يبدو.

بل وفي غضون بضع ثوان، كانت قد صعدت للأعلى، بطريقة غير مفهومة، مسافة خمسين قدمًا أو أكثر.

- ألا يوجد مصعد؟

- لا. رأى الأب أنها قبيحة. يمكنني أن أجعلك تطير إذا رغبتَ في ذلك.

بعد تفكير عميق، أبدى اعتراضه: «أرفض. لكن شكرًا لك على أي حال».

- بربك يا ستيف، هيّا! إنه تمرين جيد. (وقفزت على أطراف أصابعها عدة مرّات، وهي تتثنى عضلات ربلتها). يحافظ على لياقتك البدنية! كما أن شرائح اللحم تنتظرك!

ثم قالت شيئًا بلغة الأسود. ربما كان عند طعام الغداء، لأن ناجا بدأت في صعود السلالم دون حتى أن تنظر وراءها.

صاح ستيف: «خائنة!».

أضافت كارولين: «تنتظرك الجعة أيضًا».

- جعة؟

- جعة.

زفر ستيف تنهيدة: «حسنًا. لا بأس».

2

كان ما زال أمامهما المزيد من السلالم، ما يقارب ارتفاع خمسة طوابق عادية، لكنه لا يضاهي مشقة صعود الجبال، حين يقولون لك احزم بعض الشطائر وسنقضي عطلة أسبوعية ممتعة، التي تصورها حين نظر إلى القاعدة. ذكر ستيف فكرته عن المسارات المتحركة في المطارات، فأجابته أنها تشبهها نوعًا ما، ثم أوضحت -إن كانت هذه الكلمة المناسبة- أن أسطح اليشم تبدل المسافات. بدا ستيف مشدوهمًا. وبعد بضع درجات نظر ستيف إلى الأسفل ليرى أنهما صعدا أكثر من ألف قدم. بعدما أصابه الخدر، أصبحت ردة فعله الوحيدة هي الامتنان لعدم وجود ريح قوية. ولمّا بدأت عضلات ربتله تؤلمه، وصلا إلى قمة البرج.

توّج البرج بشيء يشبه منصة مراقبة من اليشم أيضًا، سمكها يقارب قدمًا، وعرضها كعرض ملعب كرة قدم. كان ستيف عرضة للدوار في الأبنية العالية، لكن هذه التجربة أشبهت الوجود على متن طائفة. ولسبب ما، لم تكن تجربة سيئة. على أي حال، شعر بالأرضية صلبة كالصخر تحت قدميه. وعند أحد الأركان رأى مشواة ونصف دزينة من كراسي الحديقة. حينها زمجرت معدته.

ثم لاحظ شيئًا آخر.

قرب المركز الهندسي للقرص، تدلت سحابة الضوء منخفضة، قريبة بما يكفي لمن يود مدّ ذراعيه ولمسها. وتحت ذلك المكان تحديدًا، رأى كتلة بنية صغيرة على الأرض. قطع بضع خطوات نحوها، مضيقًا جفنيه لينظر من بينهما. لم تتبعه كارولين، وراحت تنظر إلى الأضواء في الأعلى.

سأل ستيف: «انظري، مَنْ هذه؟».

تبين أن الكتلة هي امرأةٌ شابة، بالكاد تجاوزت الطفولة، نائمة على الأرض متكورة على نفسها في وضعية الجنين. فأضاف ستيف إلى سؤاله: «هل هي واحدة من شقيقاتك؟».

عبست كارولين: «ماذا؟ لا. لا يفترض أن يوجد أحدٌ هنا. تحرّك يا ستيف (عادت نبرتها إلى فتورها السابق، النبرة نفسها التي تبنتها حينما كانا في السيارة) لا بد أنها ميتراجانهي».

- مَنْ؟

- ميتراجانهي. واحدة من محظيات الأب، من العصر الثالث. أعتقد أنها شقيقة نوبونونجا. كانت الشمس، حتى بضع ساعاتٍ مضت.

- الشمس؟

- نعم. أتذكر حين أظلمت السماء، منذ بضع ساعات؟ لقد أعدتها إلى حالتها الأولى.

- آه... كما تشائين. وماذا تفعل هنا؟

- لا أعرف. كان ينبغي أن تموت هناك في الأعلى.

استدارت كارولين حول ستيف، متجهةً صوب الفتاة، وهي تضيف: «لا بد أنها هبطت إلى الأسفل بطريقة ما».

- هبطت من أين؟

أشارت كارولين إلى الأعلى. تتبّع ستيف مسار إصبعها، ثم تجمّد في مكانه. لم يلحظ ذلك المشهد حين كان بالأسفل، لكن ما إن صار بهذا القرب، تبين أن نقاط الضوء في السحابة فوق رأسه ليست نقاطاً في حقيقتها. ما يراه الآن هو أن كل واحدةٍ منها تمثّل بمفردها حلزوناً دوّاراً، بالكاد تدور لكنها ليست ثابتة في موضعها. أفضى لنفسه: «إنها مجرّات؟». مدّ ستيف إحدى يديه و...

- ما خطب أبلاخا؟

جاءه صراخ الفتاة عاليًا وطفوليًا. كانت مستيقظة في تلك الأثناء، وملتكة على مرفقيها. لها شعرٌ أشقرٌ بلاتيني، وجمال ملحوظ لولا بعض الوسخ. ولها عينان بلونٍ رمادي لم يرهما إلا في السفن الحربية.

قرفصت كارولين إلى جانبها مبتسمة: «ستكونين معه قريباً».

ثم داعبت جبهة الطفلة بظهر يدها اليمنى. وتحركت اليد اليسرى إلى أسفل ظهرها وأخرجت خنجر السبج.

قال ستيف في نفسه: «ما هذا بحق الجحيم؟». ثم بصوت عالٍ: «كارولين، لا!».

طعنت كارولين الفتاة في رقبتها، طعنة واحدة فحسب، ثم تراجعت إلى الوراء، وهي تستنشق قدرًا كبيرًا جدًا من الهواء. وقفت بوضعية مائلة إلى الأمام متكئة بذراعيها على ركبتيها البارزتين إلى الأمام، والسكين في يدها على أهبة الاستعداد، وعيناها مثبتتان على الفتاة.

تجمد ثلاثتهم في أماكنهم لبرهة. وجال في خاطر ستيف: «كأننا معرض للقتلة في متحف شمع». كان مرتعدًا لدرجة الهذيان بالضحك. تدفقت الدماء من رقبة الطفلة في مجرى بسمك إصبع، رشقة واحدة، ثم رشقة أخرى. سالت الدماء على أرضية اليشم بصوت طرطشة مرتفع. ثم رشقة أخرى. حتى بدأت بركة من الدماء تتجمع.

لامست الطفلة رقبتها بيدها، فتلطخت أصابعها بالدماء. أظهرتها الفتاة في وجه كارولين وسألت: «لماذا؟ لماذا تفعلين ذلك؟».

ابتسمت كارولين كما يبتسم الغرغول، وأجابت: «أوصلي محبتي إلى أبلاخا».

انهارت الفتاة. واندفعت رشقة أخرى من الدم الشرياني، لكنها أقل هذه المرة.

صرخ ستيف: «رباه! كارولين ماذا تفعلين؟».

ركض نحو الفتاة، مفكرًا في وضع يده على الجرح، لربما يتوقف النزيف بطريقة أو بأخرى. لكن مساره جعله أقرب إلى كارولين. وما إن مرَّ بها، تعثر بطريقة لا يفهمها. وارتطم بأرضية اليشم بقوة.

- كل شيء على ما يرام يا ستيف.

شعر بسنّه الأمامية خشنه الآن، وكأنها مشدّبة حديثًا. كما أنه أحس بطعم الدماء في فمه.

- أتقولين كل شيء على ما يرام؟ لا شيء على ما يرام! إنها مجرد طفلة يا كارولين. ما الذي فعلته لك؟

شعر بناجا قريبةً منه، منتفضة العضلات مهتاجة بالغضب.

تكلمت بنبرة تخلو من العاطفة: «إن عمرها ستون ألف سنة، كما أنها وفيّة للأب».

- وماذا. في. ذلك؟

لم يكن يصرخ بالمعنى الفعلي.

طرفت عينا كارولين: «ليس لديك فكرة عن طبيعة المخاطر يا ستيف. أنت لا تعرف شيئاً عن الأب، وعن مدى خطورته».

استجمع ستيف قواه ونهض على قدميه، ثم ذهب إلى الفتاة. قبضت على سرواله الرياضي بيدٍ ملطخة بالدماء، تتوسل إليه بلغة لا يفهمها، وشفتين زرقاوين.

أبعد ستيف يدها وراح يفحص الجرح. كان شريانها السباتي فاغراً، مثل فمٍ بلا شفاه.

ستيف: «لا تتحركي. سأ...».

وضعت كارولين يدها على كتفه: «لا تفعل شيئاً. سينتهي الأمر في غضون دقيقة». لكنها لم تهدده بالسكين.

- هل يمكنني... أتمانعين إن أمسكتُ يدها فحسب؟

وقفت ناجا بينه وبين كارولين لحمايته.

- لا. هذا خطرٌ جداً.

تردد ستيف لهنيهة، ثم أمسك بيد الفتاة في نهاية المطاف. تناهى إليه كارولين وهي تصرُّ على أسنانها، لكنها لم تحرّك ساكناً لتوقفه. كانت يد ميتراجانهي صغيرة، كأنها طائرٌ يستكين في راحته. فنظرت إليه بعينيهما الرماديتين تتوسل مساعدته.

حدّثها ستيف: «لا أعرف ما ينبغي لي فعله. أنا آسفٌ حقاً».

سألت الفتاة مجدداً: «لماذا تفعلين ذلك؟». وصوتها يخفت تدريجياً مع الكلمات.

- ماذا تقول؟

أجاب كارولين: «ما قالته يعني «لماذا تفعلين ذلك؟»».

مدّ ستيف يده إلى خدّ الفتاة، وهو يقول: «أنا آسف حقًا». لكنها أجفلت من لمستة، ونعس جفناها.

ثم فاضت روحها.

- أخيرًا. انتهى الأمر.

أغلق ستيف عيني الفتاة، ثم نظر إلى يديه. كانتا غارقتين في حمرة الدماء. ولمّا أظهرهما لكارولين قال: «نعم. أظن ذلك».

بدا أنها ما إن رأت النظرة على وجه ستيف، حتى عادت إلى رشدها ثانية. فاغتم وجهها وهي تردد مجددًا: «أنت لا تفهم».

وعوضًا عن أن يجيبها، استغرق يفكر في نفسه: «أنت محقة... مهما كانت بارعة في استخدام السكين، فأنا أفوقها حجمًا. ونحن لسنا بعيدين عن الحافة».

اسودّ وجه كارولين. وتحركت يدها إلى أسفل ظهرها: «إياك».

كانت نبرته لطيفة وهو يجيب: «إياي ماذا؟».

- إياك أن تفعل وكفى. اتفقنا؟ أنا لن أقتلك، لكنني سأؤذيك إن اضطررتُ إلى ذلك. لا أريد أن أؤذيك، لا أريد حقًا أن أؤذيك، لكنني سأفعل. (ثم أضافت متوسلة) ستيف... أعطني فرصة لأشرح لك.

- حسنًا. تفضلي.

- ربما تبدو ميتراجانهي طفلة، لكنها ليست كذلك.

- وما هي إذن؟

فركت كارولين جبهتها: «لست متأكدة. ليس تمامًا. السجلات التي تضم تلك المعلومات مفقودة، أو ربما تالفة. لكنها كانت شخصية ذات أهمية. كانت واحدة من كبار الضباط في جيش الأب. وإذا ظلّت على وفائها له، وما من سبب يجعلني أظن غير ذلك، فلربما تجد طريقة لإعادته إلى الحياة».

- حسنًا. لا بأس. فهمت. لكن... وما المشكلة في ذلك؟

نظرت له كارولين في حيرة، بل وضحكت قليلًا: «إننا حقًا من عالمين مختلفين، أليس كذلك؟».

- بلى. بلى، لقد خطرت لي هذه الفكرة مرة أو مرتين أيضًا. هل يمكنك أن تحاولي شرح الأمر لي؟ بكلمات بسيطة.

أجابت كارولين: «الأب هو ... (قطعت كلامها، ثم ضحكت قليلًا) أتعلم، إنني أعرف، بكل ما تحمله كلمة أعرف من معنى، كل كلمة نُطقت على مدار التاريخ، لكنني لا أستطيع التفكير في كلمة واحدة تناسب وتكفي لتكون جوابًا عن سؤالك. الأب هو الأب».

- أنت لا تساعديني هكذا.

- أعرف. (رفعت يدها أمام وجهه). امنحني دقيقة. (راحت تفرك ذقتها لبضع ثوان، ثم نظرت إليه). حين كان أحد إخوتي في التاسعة من عمره، كلّفه الأب بمهمة إقناع أحد كائنات الأعماق ليقبله تلميذًا عنده.

- ماذا تقصدين بكائنات الأعماق؟

- حَبَّار ضخم. شيءٌ كهذا.

- آه!

- حاول مايكل مرارًا وتكرارًا، لكن الكائن البحري لا يلين ولا يقبل. كان لهذا علاقة بمشكلة مع إله الغابة، أو ربما كان يكره البشر فحسب. قد يكون هذا هو الدرس الحقيقي الذي يتعلمه مايكل، لكننا لم نفهم كيف يفكر الأب. كنّا صغارًا آنذاك. حاول أخي أن يشرح الموقف، لكن الأب لم يسمع له. وكل ما قاله هو إن أخي «حماسه في سبات عميق».

ثم ارتجفت.

- أنت بخير؟

- أنا... حتى مع سماع تلك الكلمات «حماسه في سبات عميق» أريد أن أتقيًا.

- يمكنك التوقف إن أردت.

- لا. شكرًا لك، لكنني لا أفضل ذلك. أنت تريد أن تفهم.

استغرقت في النظر إلى الأضواء فوق رأسيهما. وعادت الصلابة إلى صوتها.

- إذن... ماذا حدث؟

- جلب محراقًا ساخنًا وأحرق به عيني مايكل.

- ماذا؟ رياه! هل أصاب الطفل بالعمى؟

- نعم. أصابه بالعمى. لكن ليس بالمفهوم الذي تتصوره. أعني لم يصبه بعمى دائم.

- كيف ذلك ...

- يتناول الفهرس الأبيض، وهو الفهرس الذي درسته جينيفر، علوم الطب. الطب التجرّدي. لم تكن أيًا من جروحنا الجسدية دائمة قط. كان بإمكان الأب أن يشفي أي جرح. وجينيفر فاقت مهارة الأب في ذلك.

- هذا مريح.

- حسنًا... أظن ذلك. لم تخل التجربة من لحظات ممتعة، لكن هناك خسائر أيضًا. خسائر فلسفية.

- الآن أصبحت لا أفهم شيئًا حقًا.

ركعت كارولين إلى جانب بركة دماء الطفلة. أولت ظهرها له، لكن الدماء ما تزال سائلة، لم تتخثر بعد، وتلمع تحت الأضواء. أمكنه رؤية انعكاس وجهها على السطح، وهي تقول: «كان الأمر مختلفًا بالنسبة إلينا. أنتم، الأمريكيين، إذا ساءت الأمور عندكم... مم، لديكم دائمًا طريق للهروب».

- تقصدين الانتحار؟

- الموت.

- لكن... ألم يكن لديكم مهرب؟

- لا. أحرق الأب عيني مايكل. كل ليلة، مرارًا وتكرارًا. وكُتب على بقيتنا أن نحضر، وأن نشاهد. في كل مرة يستغرق الأمر عشرين دقيقة. ينتهي من العين الأولى سريعًا، لكن بعد ذلك تعين على مايكل أن. أن.. أن يشاهد. بأم عينه الوحيدة. كان يشاهد الأب، وهو.. مم، كما تعرف، يسخن المحرك ثانية. وفي الصباح التالي تعيد إليه جينيفر عينيه سلميتين. كليهما، كلتا عينيه. وبعد ذلك نعيد الكرة.

احدودبت عضلات ظهرها والتفت حولها نفسها مثل ثعبانٍ سميك أسفل رداؤها الفضفاض وهي تتكلم.

- ماذا حدث؟ كيف انتهى الأمر؟

جأرت كارولين، وعلى سطح بركة الدماء رأى ستيف وميض أسنانٍ بيضاء، انعكاسًا على السطح الأحمر.

- استيقظ حماس مايكل.

بصقت الكلمات كما يتقيأ الإنسان طعامًا فاسدًا. ثم تابعت: «بعد أحد عشر يومًا من هذا الروتين، دبّر أخي حيلة يُخضع بها كائن الأعماق لإرادته». كانت ترتجف، فخطر له أن يذهب إليها ويلامس كتفها ويقدم لها سبل الراحة والطمأنينة. لكنه لم يجرؤ على ذلك.

- هذا أسوأ شيء سمعته في حياتي كلها.

كارولين: «ذاك هو الأب. لم يكن فعله في الواقع نابغًا من غضبه، وإنما هو الروتين. طريقة للتأديب ليس إلا. أرايت ما أقصده؟».

فكّر ستيف في الأمر قبل أن يجيبها: «نعم. ربما أفهمك. قليلًا على أي حال. وهذه الطفلة، ما اسمها؟ ميتروني تقريبًا؟».

- ميتراجانهي.

- هل هي صديقة مقرّبة لذلك الرجل؟

- مم... نعم، كانت مقرّبة.

تأوه ستيف شاعرًا بالغثيان. ثم سار إلى حافة المنصة ونظر إلى الأسفل. لقد صعدتُ إلى قمة مركز التجارة العالمي ذات مرة. هذا البرج أعلى منه.

- نعم. أعلى منه كثيرًا.

- لنقل إنني أصدّق ما تقولينه عن الفتاة.

- هل تصدّقني حقًا؟

- لا أعرف. ربما. بدت غير مؤذية في نظري. (رفع كتفيه في حيرة). لكنني لستُ معتادًا الصعود إلى ارتفاع شاهق كهذا. ربما تختلف القواعد هنا في الأعلى. أليس كذلك؟

- ليس لدي فكرة عن وجود أي قواعد. لقد انتصرت. وهذه هي القاعدة الوحيدة التي أعرفها.

سألها ستيف بنبرة لينة: «لماذا اخترتني أنا؟ لماذا أنا هنا؟ لا أفهم حقًا؟».

- أنتَ شخصٌ أُخِرَ يا ستيف. وأنا احتجْتُ إلى أحدٍ يسقط خزانة المسدس في الموضع المناسب. لم أستطع فعل ذلك بنفسِي، لم أستطع حتى النظر إليها. كان باستطاعة ديفيد أن يرى الأمر، يرى الأفكار في عقلي.
- أهذا كل ما في الأمر؟ تتوقعين مني أن أصدِّق أنكِ وورطنتي في هذا كله لأنني أُخِرَ؟ ألهذا السبب دمَّرتِ حياتي؟
- بربك، أنتَ تبالغ.
- أبالـ...

قطع ستيف حديثه، وفكَّر قليلاً: «السكينة ليست في غياب الصراع، وإنما في القدرة على التعايش معه». ساعده ذلك الحديث النفسي قليلاً. لهذا استطرد بصوتٍ مسموع: «لقد أوقعتِ بي وورطنتي في جريمة قتل يا كارولين، ثم حاولتِ تسليط كلابٍ مفترسة لالتهامي حيًّا. أتذكرين؟ (رَبَّتْ على كتفي ناجا) ناجا تذكر الأمر جيداً».

- لكزت ناجا ستيف بكتفها في إيماءة تضامن معه، وحدِّقا معاً إلى كارولين.
- حسناً. نعم، هناك أسباب أعمق من مجرد أنك أُخِرَ.
- جيد. إننا نحرز تقدماً. (تبادل وناجا نظرة ذات مغزى) هَلَّا أكملتِ من فضلك. لماذا اخترتني أنا؟

- سأشرح لك. سأشرح لك حقًّا. لكن أولاً، عليَّ أن أُعلِّق ديفيد.

هزَّت كارولين رباط الحذاء. كان السواد قد ابتلعه كليًّا، حتى إصبعه الأخيرة غزيرة الشعر.

أحس ستيف بعينه تتسعان. لقد اتسع السواد حول ديفيد على نحو ملحوظ خلال الدقائق القليلة الأخيرة. والآن، حتى وهو على بعد خمس أقدام، شعر بالحرارة. كأن ديفيد فرن متحرِّك. تراجع ستيف نصف خطوةٍ إلى الوراء، وهو يسأل: «ماذا يحدث له؟».

- أتذكر عندما قلتُ لك إنه عالِّق في لحظة معينة من الزمن؟
- آه... أظن ذلك.

كان للسواد المحيط بديفيد خصائص سائلة، جعلت سطحه يموج.

- وهل تذكر ما الذي كان يفعله حين جمَّدته؟

- هل هذا اختبار؟

- بل أشبه بطريقة تدريس. ستفهم أفضل إذا نطقت أنت بالمعلومة. هل تذكر؟

- حسنًا... نعم، أظن ذلك. كان يموت، صحيح؟ ثم أحدثتِ صعقة بسيطة في مركز الألم في دماغه. ووصفتها بأنها «أقصى حدود الألم الممكنة». (وبصوت خافت) أعني... سحقا ما هذا الجحيم؟

أجابت كارولين: «بالضبط. لكن هناك فرقًا. المعاناة، أقصد المعاناة العادية، زائلة. ما نسميه نحن عاطفة هو مجرد شرارة بسيطة بين فضاء ثلاثي الأبعاد وعوالم مادية أخرى أعلى مرتبة. الغضب والفرح والمتعة وكل تلك المشاعر لها تداعيات وآثار تدوم لسنوات، لكن الرابط الفعلي لا يستمر عادةً إلا لجزء من الثانية».

ابتسمت مجددًا كما يبتسم الغرغول، وهي تردد: «عادة».

- لكن... ليس في هذه الحالة؟

هزّت الكرة السوداء: «بالضبط. الزمن لا يمر داخل تلك الكرة السوداء. وأنا فهمتُ الأمر تمامًا في الوقت المناسب. إن ديفيد مرتبط بمعاناةٍ خالصة ولا يمكنه المضي قدمًا». ثم نظرت إلى ستيف في توقٍ بانتظار ردة فعله. تأمل ستيف ما قالت له لوقتٍ طويل، ثم استسلم: «مم. وماذا إذن؟».

- إذن، ستستمر الطاقة الكامنة بين المستويات في الانطلاق. إنها أشبه ببطارية لا ينضب شحنها.

ستيف: «طاقة». نظر إلى ديفيد، وقد ابتلعه السواد المحيط به كليًا. والكرة صارت أبرز، وأدفاً الآن وهما يتبادلان الحديث: «تقصدان تلك الكرة السوداء؟ تلك هي الطاقة؟».

- بالضبط.

- وما هو الحجم المتوقع لها؟

- لستُ متأكدة. مليون ميل تقريبًا. لهذا السبب صعدنا إلى هنا. نحتاج إلى نقله إلى السماء، حيث المكان يتسع.

- أعيدي ما قلته؟

- بحلول هذا الوقت في الغد، سيكون ديفيد هو شمسنا الجديدة.

مدّت يدها إلى سحابة النجوم فوق رأسها، وحرّكت يدها كأنها تهش الهواء. دارت الأضواء على إثر لمستها، مثلما تدور صينية الطعام على الطاولة الجانبية الكبيرة في مطعم صيني. ولمّا وصلت إلى النقطة المقصودة، أشارت بإصبعها لإيقاف الدوران، ثم سحبتها إلى الوراء. تسارع الفضاء من حولهما، وراحت الأجسام التي يرونها تتقلّص، أولها المجرّات كاملة، ثم السُحب، ثم النجوم الفردية، وأخيرًا الكواكب.

- هل تميز ذلك الذي هناك؟

شعر بشفتيه خدرتين وهو يتكلم: «آه... المشتري؟».

- لا، إنه زحل. ألا ترى الحلقات؟

- صحيح. زحل. هذا ما قصدته.

- لا بأس. والآن اصمت للحظة. أحتاج إلى التركيز.

أخذ ستيف يراقب المشهد ريثما هي تسحب ديفيد من رباط الحذاء، الذي لم يعد بارزًا منه إلا بضعة إنشآت، ثم دفعته برفق إلى داخل غشاءٍ رفيع يفصل الواقع الذي نشأ فيه ستيف عن المكتبة. وبدأ أن ديفيد ينكمش وهو يعبر خلاله.

قالت أخيرًا وهي تنفض يدها بطريقة مسرحية: «ها نحن أولاء. انتهى كل شيء!».

- كم سيمضي من الوقت قبل أن يتحول إلى الشمس؟

- لستُ متأكدة. بضع ساعاتٍ على الأقل. سأعود إلى هنا وأعيد المدارات إلى ترتيبها الصحيح لاحقًا. لا نستطيع ترك الكريات الصغيرة تتصادم ببعضها، أليس كذلك؟

أما ستيف وهو الذي كان سبّاكًا لا يفقه شيئًا في النظام الشمسي، تكلم من بين شفتين جافتين: «لا. لا أظن ذلك. متى سيتحول إلى لونٍ أصفر ساطع؟». اغتمّ وجهها قليلًا: «حسنًا... لن يتحول».

- ماذا تقصدين؟ هل سيظل هكذا؟ أعني غارقًا في السواد؟

- نعم. هذا شيءٌ مرتبط بعالم العذاب الذي يعيش فيه الآن.

- ومن أين سيأتي الضوء؟

عبس وجه كارولين: «لن... مم، لن يكون هناك الكثير. أعني الكثير من الضوء. بل سيكون هناك حرارة شديدة -عالم العذاب شديد الحرارة- وأشعة جاما وما شابهها، لكن الطيف المرئي شحيح الألوان».

- هل سيعيش العالم في الظلام طيلة الوقت؟ حتى مع شروق الشمس؟
إلى الأبد؟

أجابت كارولين بنبرة دفاعية: «سيكون الطقس دافئاً. لن يتجمد أحدٌ من البرد. والناس سيتكيفون مع ظروفهم».

- يتكيفون!

أومأت كارولين: «يستطيع الإنسان التكيف مع أي ظرف مهما كان صعباً». تأمل ستيف كلامها لبعض الوقت، لم يجد في نفسه جواباً مقنعاً. وبعد مضي وقتٍ طويل، استأنفت كارولين الحديث: «حسنًا... هذا يأخذنا إلى السبب الآخر الذي أحضرتك لأجله إلى هنا في الأعلى».

- الطعام؟

- لا. حسنًا، أعني نعم، هذا السبب أيضًا. لكن السبب الأهم هو... إنني أريد أن أقدم لك هدية يا ستيف. أعرف أنك لا تفهم، وسأصل معك إلى ذلك الجزء، لكنني أدين لك بالكثير. ولن أبالغ حقًا إن قلتُ إنني أدين لك بكل شيء. لقد قضيتُ وقتًا طويلًا جدًا أفكر في ذلك اليوم، وأردتُ... أردتُ أن أقول... مم، سيسعدني جدًا إن استطعتُ رد جميلك ولو بهدية بسيطة. لقد أتيتُ بك إلى هنا لكي يتسنى لك رؤية ارتقاء ديفيد.

راحت تراقب تعابير وجهه، مبتسمة وجادة.

- حسنًا. لكن لماذا؟

- في المرة التالية التي سترى فيها شروق الشمس، ستصدق أنني صادقة حين قلتُ لك إنني سأمنحك أي شيء -أي شيء على الإطلاق- يمكن أن تفكر حتى في طلبه.

- أي شيء، حتى لو سيارة مازيراتي، أم ...

- بالتأكيد، إذا كنتَ تود ذلك. لكن أستطيع أن أمنحك أكثر من ذلك. (مالت نحوه). أستطيع أن أجعلك خالداً. منيعاً. أو كلاهما إذا أردتَ ذلك. في

خزائن العطار ما يجعل عقلك أرقى من عقول أذكياء على وجه الأرض.

- آه... (طالت لحظة الصمت وكأن الزمن قد توقف). ما أشتهيه الآن هو بعض اللحم المشوي.

ثم لاحظ للمرة الأولى منذ لقائهما أن كارولين ذات جمال خاص عندما ضحكت.

علق ستيف: «رائع جدًا».

لعق أصابعه استمتاعًا بالطعام. كان هناك شرائح لحم في المبرد، وبضع مأكولات أخرى بدت كأنها عقارب عملاقة وطعمها يشبه لحم الخنزير قليلًا. قالت كارولين إنها انقرضت في العصر الجليدي، لكنها المفضلة لديها. أعرض ستيف عن السؤال. فقد كان الطعام شهياً، وكثرته أغنت عن أي شيء. ناجا وحدها أكلت ثلاثة من تلك الأطعمة الغريبة، إضافةً إلى شريحتي ستيك وثمانى شرائح برجر. ثم تكوّرت على نفسها مثل قطّ منزلي، وغطت في النوم. تردد ستيف في إعطائها ما تبقى من طعامه، ثم أعرض عن إيقاظها. «قطة مسكينة. كان يومًا شاقًا عليها».

أجابت كارولين: «سعيدة أن الطعام أعجبك. شكرًا على طهوه».

رد ستيف بالإسبانية: «عفوًا».

مهما كانت المهارات التي تبرع فيها كارولين، كان من الواضح وضوح الشمس أنها طاهية مريعة. فبعدما حرقت وجبتين من شطائر البرجر، تولى ستيف مهمة الشواء. الآن هو يغوص في كرسي الحديقة زافرًا تنهيدة رضا. في بادئ الأمر لم يكن متحمسًا بشأن الجلوس بذلك القرب من الحافة، لكن بعدما تجرع بضع زجاجات من الجعة استرخت أعصابه قليلًا. وحدث نفسه: «المنظر من هنا خلّابٌ حقًا». راح الكون يدور من فوقهما، ملقيًا بضياء دافئ على أرفف الكتب الملتوية بالأسفل.

غاصت كارولين بيدها في صندوق الثلج وخرجت بزجاجة نبيذ بالفاكهة: «مزيد من الجعة؟».

- نعم، أكيد. سأعود إليها بعدما أنهى طعامي.

أخذ رشفتين من جعة بود لايت، وتجشأ برفق، مستشعرًا مذاق لحم العقرب المنقرض. ثم أضاف: «إذن... بشأن تلك الهدية. أيمكنك أن تجعليني رئيسًا؟».

- رئيسًا لأي بلد؟
- الولايات المتحدة.
- بالتأكيد، إن كان هذا ما تريده. لكنني لا أستطيع أن أتصور لأي سبب ترغب في ذلك.
- وجهة نظر جيدة. ماذا عن إمبراطور الأرض؟
- أسهل من اليسير.
- مم. (فكر في الأمر مليًا). هل يمكنني أن أصبح أسرع من رصاصة سريعة وأقفز إلى قمم المباني الشاهقة في وثبة واحدة؟ وأستطيع إطلاق أشعة ليزر من عيني؟
- أشعة ليزر؟
- حسنًا، أظن أنها تقنية رؤية حرارة. وأنفاس مجمدة. أيمكنك منحي قوة الأنفاس المجمدة؟
- أومأت كارولين بإيجاب: «بكل تأكيد. سيستغرق الأمر مني أسبوعين، لكن يمكنني خلط كل تلك القوى معًا. أهذا ما تريد حقًا؟».
- ها؟... لا. أنا أمزح.
- حسنًا. لا بأس. أنت لا تستطيع تمالك نفسك، أفهم ذلك. لكن ليكن في علمك أنا جادة فيما أقول. أي شيء يخطر ببالك على الإطلاق. حين كنّا أطفالًا، كان الأب أحيانًا يلهو معنا بلعبة مختلفة، ويطلب منّا أن نطرح عليه مهمة مستحيلة. فإذا استطعنا إرباك قدراته، ننال جائزة. (نظرت إلى عينيهِ). لم يسبق لأحد قط أن تمكن من ذلك. مطلقًا. ولا حتى لمرة واحدة.

استطرد ستيف: «ركوب تمساح طائر والطيران به عبر دوامة هوائية على شكل دونات طائرة مصنوعة من الجريئة؟».

- مجلدات التعديلات على الأجسام في الأرضية للؤلؤية، القطر الثالث، الفرع السابع. أما الجاذبية ففي القطر الثاني، الفرع الثالث. وهذا

القسم يغطي علوم الجاذبية المضادة كذلك. وشرائح اللحم البارد في مكان ما من الأرضية الفيروزية. (أمعنت النظر في وجهه). سيتعين عليّ البحث عن ذلك.

تلاشى المزاح كله من صوته آنذاك وهو يقول: «أي شيء؟ أي شيء على الإطلاق؟».

فأومأت بإيجاب.

- هذا... رائع! هذه هدية لطيفة للغاية يا كارولين. شكرًا لك.

أفرغ زجاجة الجعة في حلقه، ثم التقط زجاجة أخرى.

- على الرحب والسعة. أنا سعيدة لأن الهدية أعجبتك. هل بدأت تشعر بالإرهاق؟

- منذ أيام وحتى الآن. لماذا؟

- إذا رغبت في ذلك، يمكنني توضيح المزيد من التفاصيل القليلة. أعني عمّا يحدث الآن. وأجيب عن أسئلتك إن كان لديك أي أسئلة تطرحها. لماذا اخترتك أنت... وكل ما شابه ذلك.

فتح ستيف زجاجة الجعة، فتناثرت الرغوة الباردة عليه: «سيكون هذا رائعًا. لكن ألن ينفطر قلبك لهذا الحديث، أو شيء كهذا؟».

- ماذا؟

- إذا توقفت عن ارتداء عباءة الغموض والحيرة طيلة الوقت. ألن يؤلمك هذا؟

أبرزت له إصبعها البنصر. فسألها: «ماذا تفعلين؟».

- أظن أن هذه الحركة تعني «سحقًا لك» ألا أفعلها بشكل صحيح؟

- الإصبع الوسطى.

عدّلت كارولين أصابعها: «أهكذا أفضل؟».

- نعم، أحسنت. (صمت قليلًا وشرد مفكرًا). اسمعي، لدي سؤال. يبدو أنك تعرفين كل شيء عن العالم العادي: من هو الرئيس، وكيفية استخدام الهاتف، وكل ذلك، إلا عندما لا تعرفين أي شيء. أعني: في تلك الليلة الأولى، كنت تواجهين مشكلة في فتح باب السيارة. كيف ذلك؟

ابتسمت: «مم... أحياناً أمثلُ بعض الشيء، أظاهر أنني أكثر عجزاً مما أنا عليه حقاً. في حال كان هناك من يراقبني، أو شيء كهذا. يظنون جميعاً -أعني ظنوا- أنني أعيش في فقاعة منعزلة. لا يفترض بي أن أعرف الكثير عن أي شيء بخلاف اللغات. لكن هناك أيضاً بعض الثغرات الملموسة. ظننتُ أن «السيد الهاتف الخلوي» هو رجلٌ صنع الهواتف الثابتة. لم تكن الهواتف النقالة متوفرة لدى الناس حين كنتُ طفلة (قلَّبتُ عينيها في محجريهما) ولا أظن أنني سأفهم فكرتكم عن الملابس أبداً».

- إذن، كنتِ طفلةً حقيقية؟ لستِ من الفضاء الخارجي؟
- نعم، مم، لا. هذا سخيْفٌ جدًّا. ما الذي أوحى لك بتلك الفكرة؟
- لا أعرف. ربما التلفاز، أو شيءٌ كهذا. على أي حال... هل أنتم جميعاً مسكونون بالشياطين؟ أم ربما تعاويذ سحرية؟
- يا إلهي. أغلق فمك قبل أن تخرج نفسك أكثر من ذلك.
- اعتذر ستيف منها بصدق: «أنا آسف. كل ما في الأمر... كارولين! لا أستطيع أن أبدأ حتى في تخيل أي شيء يمكن أن يفسر... هذا كله».
- لا. ليست شياطين. وكما قلتُ لك، لا وجود لشيء اسمه السحر.
- ماذا إذن؟
- أنا... الحقيقة هي ما أخبرتك به في تلك الليلة الأولى. لم أكن أكذب عليك. أنا مكتبية.

تأمل ستيف حديثها لهنيهة: «أظن أننا نستخدم تلك الكلمة لمعانٍ مختلفة».

- أومأت كارولين بإيجاب: «صحيح. ربما أنت محق».
- حين أنطق أنا بكلمة «مكتبية»، أفكر في ...
- «فنجان شاي وروايات غامضة دافئة»؟
- صحيح. بالضبط. أترين؟ أنتِ تفهمين الثقافة حقاً.
- ليس تمامًا. مثلاً: أنا أحب الشاي، لكن... لا أعرف حقاً ما تعنيه بعبارة «روايات غامضة دافئة». هذا ما قلته أنت في تلك الليلة الأولى في وورويك هول. هذا ما تفكر فيه حين تقول كلمة «مكتبية».

نظرت إليه كما ينظر حيوانٌ صغيرٌ إليك، مختبئاً في جحره. ثم أضافت: «لكن أمانة المكتبة لم تكن بذلك المفهوم. (همست). لم تكن كذلك على الإطلاق».

عاد ستيف بظهره إلى الوراء: «نعم، بدأتُ أفهم ذلك. لكن ربما ينبغي أن تخبريني كيف كان الأمر معكِ حقاً. فلا أطرح عليك المزيد من الأسئلة الغبية. ما رأيكِ؟».

ترددت كارولين لوقتٍ طويل، محدّقةً إلى فراغٍ لا هو بالقرب ولا بالبعيد. ثم أومأت بإيجاب في نهاية المطاف: «نعم. جزءٌ مني يرغب في ذلك حقاً». لكنها فتحت فمها، وعبست، ثم أغلقتة ثانية.

- لكن ...؟

- الحقيقة هي... يجب عليّ دوماً إخفاء ما أفكر فيه، وما أخطط له. وجب عليّ أن أخفي كل شيء، حتى عن نفسي. دوماً. أتفهم ما أرمي إليه؟ بدا في صوتها طابع من الاستعطف لم يسمعه منها من قبل. أجاب ستيف برفق: «لا أظن أنني أفهمك».

- صحيح. هذا مؤكد. كيف لك أن تفهمني؟ أومأت بقصد طمأنة نفسها مرة أخرى، ثم أكملت: «أنا لا أعرف حتى من أين أبدأ».

- البداية مثلاً؟

- حسناً.

سحبت نفساً عميقاً، ولمّا استأنفت الكلام عادت الصلابة إلى صوتها: «البداية إذن. حين كنتُ طفلة صغيرة، في عمر التاسعة أو العاشرة تقريباً، قضيتُ صيفاً كاملاً أعيش في الغابة. كان ذلك بعد عام تقريباً من تبني الأب لنا، بعد وفاة آبائنا. عقدتُ صداقة مع أيلين، اسمهما إيشا وأشا، ثم...».

أخذت كارولين تتكلم لساعات. وظن ستيف أنها ربما تجاهلت توضيح بعض الأمور، إذ ماذا قصدت حين قالت «قلْبُ جمر»؟ لكنها أخبرته بالكثير كذلك. كلّمته عن ديفيد وحادثته مع الثور. وكلّمته عن جنون مارجريت الذي أكلها من الداخل شقفة وراء شقفة حتى جاء اليوم الذي أصبح فيه لعق الدموع

المناسبة على حدود الموتى عادة ممتعة. كلمته قليلاً عن مايكل الذي أصبح ينظر إلى الأشياء بداخل المنزل بعينين وحشيتين مسكونتين. ثم خاطبته بمصطلحات سريرية منفصلة وكلمته عن كل ما فعله بها ديفيد، وأظهرت له بقع الحبر على عضدها حيث سَمَّرها إلى المكتب بأقلامها.

وفي الساعات الأولى من الصباح وصلت أخيراً إلى إروين، الذي وصفته بـ «الرعد القادم من الشرق».

- حسناً ...

قالت وهي تتجرّع آخر ما تبقى من النبيذ: «ألن تقول لي أي حمقاء أنت؟». هزّ ستيف رأسه نفياً: «لا. لن أقول. ربما ينعتك الآخرون بذلك، أما أنا فلا». انتظرت لبرهة، ثم برهتين: «لكن؟».

- لا يوجد لكن. اسمعي يا كارولين، قد أكون بوزياً هاوياً وسيئاً. لكن أحد التعاليم الأولى التي يخبرونك بها هو أن تنظر إلى الآخرين بعين الرحمة. ليس «الشفقة» بل الرحمة. قد يكون التمييز بينهما صعباً بعض الشيء، وخصوصاً في بادئ الأمر. لكن في حالتك، التعاطف معك ليس صعباً. لو كنتُ أنا مكانك لأطلقتُ النار على نفسي بعد خمس دقائق من رؤيتي لطفل يُشوى حياً. أنا أعجز، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، عن تخيل شعوركِ وأنتِ تمرين بهذا المشهد.

أجابت كارولين بهدوء: «بيتر فعلها. وجينيفر أيضاً على ما أعتقد».

- ماذا تقصدين؟

- إطلاق النار على أنفسهم. بعد وقعة الثور. لكن جينيفر استخدمت السم. (نظرت إليه بعينين تائهتين). أعادهما الأب إلى الحياة. ثم عاقبهما؛ خمسون جلدة أو شيء كهذا. لقد نسيت.

- لكنك لا.

- لا أفهم.

- ألم تحاولي قتل نفسك قط؟ أو الهروب بأي طريقة أخرى؟

- لا. البتة.

كانت عينا كارولين صخريتين، تتحطّم على أعتابهما الأشياء الرقيقة، وهي تتابع: «إن إنجازاتي ما زالت أمام عيني كما ترى».

أدرك ستيف آنذاك: «في هذه اللحظة هي لا تتظاهر، لا تمثّل. هذه هي حقيقتها حين لا تضطر إلى التظاهر». ثم أجابها بصوتٍ مسموع في غاية الرفق: «رباه!»

وفي قرارة نفسه أضاف: «أحرق الطفل حيًّا؟». وشعر بالبرودة تصدم أوصاله.

أغلقت كارولين عينيها. ولمّا فتحتهما مجددًا، كانت الدروع قد رفعت عنهما. وقالت: «أظن أنه قد حان وقت النوم».

- لا، أنا لا ...

- لا بأس يا ستيف. أنا حقًا متعبة. (رسمت على شفّتيها ابتسامة شاحبة).

لقد كان يومًا حافلًا بالنسبة لي. كما... أنا... أنا لا أتكلم كثيرًا. ونادرًا ما أتحدث عن نفسي. أشعر، لا أعرف كيف ...

- هشة؟

صمتُ طويل أعقبه ردُّ قصير منها: «نعم. هكذا».

- يؤسفني ما تشعرين به.

- لا تأسف على شيء. هذا ليس خطأك. كل ما في الأمر... أنا لستُ بارعة في... أيّا كان اسمه هذا.

- التفاعل الاجتماعي البسيط؟

- أيّا كان اسمه هذا. عادةً ما يجعلني أشعر بعدم الارتياح. لكنك سألت، وأنا أجبتك، والآن صرّت تعرف.

أوما ستيف مؤمنًا على كلامها.

- الشيء الوحيد الذي آسف عليه حقًا هو أنني ورطتك في مشكلات كثيرة. لا بد أن هذا كله أصابك بالحيرة. وفقدان الأمل. ربما كان بإمكانني التعامل مع الجزء المتعلق بك من الأحداث بشكل أفضل مما فعلت.

- حقًا؟ أهذا ما تفكرين فيه؟ أحقًا ما تقولين؟

- ستيف، أنا ...

- اسمعي، أقول لك هذا الكلام للمستقبل. ربما كنتُ لأوافق على مهمة الركن تلك مقابل مبلغ صغير من المال. ربما مئتي دولار مثلاً؟ لم

يكن هناك داع لكل تلك الحيل وإلصاق جريمة قتلٍ بي، هذا كله مبالغ فيه. (أوماً برأسه موافقاً عدة مرات، بعينين متسعيتين وأسلوبٍ مبالغ فيه). نعم. مبالغ فيه. كثيرًا.

- حسنًا، أنا واثقة من ذلك. لكن لو لم أُعِدك إلى الحياة، لالتهمك الموتى ...

- مهلاً. توقفي. لو لم ماذا؟

- مم... لا شيء.

- ماذا قلتِ يا كارولين؟

مدّت كارولين يدها نحوه، حتى كادت تلامسه لكنها لا تلامسه حقيقةً.

- ستيف؟

- مم؟

- سأخبرك إذا كانت هذه رغبتك. لكن جهلك في هذه الحالة نعمة.

تأمل كلامها ملياً، ثم أجاب: «حسنٌ. ما دمتِ أنتِ من تقولين هذا، فأنا مستعدٌ لقبول الجهل. (فرك صدغيه بأصابعه). على أي حال، لقد حصلتُ على جائزة ترضية لا تضاهي».

- صحيح. أليدك أي فكرة عما ترغب فيه؟

- لا. ليس تمامًا.

- تمام. فكّر بالأمر. سنكمل حديثنا في الغد.

- هل أحضرتِ أكياس نومٍ أو شيئاً من هذا؟

- ماذا؟ أوه. لا. هناك مساكن للنوم أسفل أرضية اليشم. لقد جهّزتُ لك مسكنًا، على الطراز الأمريكي.

- ماذا تقصدين؟

- حسنًا... يمكنك القول إنني استعرتُ شقة بنتهاوس. أعني استعرتها من فندق. هل سمعت عن فندق المرجان؟ من المفترض أنه فندق جميل. هيا، تعال معي. سأريك كل شيء.

- تصبح على خير. سأكون في الطابق العلوي إن احتجت إلى أي شيء.

ستيف: «ألن تخلدي إلى النوم؟».

- ليس بعد. ما زال أمامي بضعة أمور أود الاعتناء بها أولاً.

- شكرًا لك.

أغلق ستيف الباب وفي نفسه شيء من الارتياح. كان «الرواق» أسفل أرضية اليشم يشبه الوجود داخل شريان معدني لوحش عملاق. لكنها محقة؛ ذاك البنتهاوس، أو أيًا كانت هذه الشقة التي أحضرتها، رائعة حقًا، وإن كان بها شيء من الغرابة عن ذوقه. فكَرَّ ستيف: «الأريكة وحدها قد تكون أغلى من شقتي بأكملها». لكنها مريحة على أي حال، مريحة لدرجة أن ناجا غطت في النوم عليها من فورها. أما ستيف، فأعد لنفسه مشروبًا، وأخذ جولة استكشافية في المكان، ثم ارتمى بنفسه إلى جانبها. توقفت ناجا عن الشخير، ثم رفعت رأسها وكشّرت له عن أحد أنيابها.

فرك ستيف ما بين أذنيها وهو يطمئننها: «عودي إلى النوم يا مشاكسة».

كانت الكتابة على جهاز التحكم كلها باللغة العربية، لكن تمييز زر التشغيل لم يكن صعبًا. عثر على خاصية تقسيم الشاشة في التلفاز، وبعد قليل من التعثر، قَسَمَ الشاشة ليشاهد قنوات سي إن إن، وفوكس، والجزيرة في آن واحد.

بدا أن لعنة ديفيد قد تفاقمت. والآن صار مرئيًا للعين المجردة. كان الوقت ما زال ليلاً في فيرجينيا، لكن في أماكن أخرى مثل سيدني وبيكين وجزر فيجي أخذت حشودٌ من السكان تتجول في شوارع المدن فاغري الأفواه لا يحركون ساكنًا، يراقبون الفجر الأسود لهذا العصر الجديد. وكما وعدته كارولين، ألقى ديفيد بأشعة دافئة، وبلغ حجمه قرص الشمس. ولكن حتى في أسطع حالاته، كان ضوءًا خافتًا، قرصًا رماديًا داكنًا يتناغم مع النجوم من خلفه.

وفي مكالمة فيديو على الهواء، استضافت قناة سي إن إن مجموعة من علماء الفلك. وكان أندرسون كوبر يستجوبهم حول أسباب تحول الشمس إلى ذلك اللون الأسود فجأة. وأين تقع المشكلة تحديدًا؟ ثم رجلٌ من جامعة هارفرد يستطرد في حديثه عن المادة السوداء، وفهمنا المحدود لماهيتها. استمع ستيف للرجل بضع دقائق، ثم حيّاه رافعًا كأس السوككتش إلى التلفاز: «جهد مشكور».

راح يقلّب في القنوات طوال ساعة أو أكثر، يغرق في الثمالة أكثر فأكثر لكنه شديد الانفعال لدرجة تعجزه عن النوم. كانت قناة إم تي في تعيد بث مسلسل بيفيز وبوت هيد كاملاً. كما عُرض عدد لا نهائي من مقاطع مصورة في البيت الأبيض، والانفجار في مبنى البرلمان. كان زلزال قد وقع في كاليفورنيا، ولا شيء يقلق حياله، حقًا! ثم عرضت بعض المقاطع المصورة للشمس السوداء من القبيبة الصغيرة فوق محطة الفضاء الدولية، وكانت مقاطع جميلة حقًا. ثم إعلان أن رئيس الوزراء يحكم شؤون البلاد من موقع سري مُؤمّن. ثم ادعى زوجان نرويجيان يتزلجان أنهما شهدا جزءًا من جبل جليدي يرتفع إلى الأعلى ويرحل بعيدًا. لا شك أنه ادعاء في غاية السخف، لكن الصور الملتقطة قبل وبعد تبين أن جزءًا كبيرًا من الجبل الجليدي المعني قد اختفى بالفعل. كما أن القمر قد يكون متذبذبًا بعض الشيء. وهناك اشتباه بحدوث شذوذ في الجاذبية، ربما تسبب فيه الحادث الشمسي ...

- سحقًا لهذا كله.

خرج ستيف من الأبواب المزدوجة للبنتهاوس، تاركًا إياها مفتوحة في حالة إذا أصيبت ناجا بالقلق. ثم صاح: «كارولين؟».

كان الرواق المعدني للمسكن دائريًا وملتويًا، وقد يصل طوله إلى مئة ياردة تقريبًا. وفوق كل هذا، خيم عليه ظلام دامس.

- كارولين؟

لم يأتِه جواب. فأكمل في طريقه على أي حال، يسير بجواربه متأنيًا على الأرضية المعدنية غير المستوية. بدا أنه أكثر ثمالة مما ظن، ثم اكتشف أنه لو تحرّك في مسارٍ محدد لن يتعثّر كثيرًا. وفي الطرف البعيد من الرواق ظهرت السلالم المصنوعة من السنديان، مستديرة وملساء بفعل مرور أقدام عارية

لا حصر لها، وطافية في الهواء. تسلَّقها ستيف ليقف بين أكوام الكتب في المكتبة.

ساوره القلق؛ كيف سيجدها في ذاك الفضاء الشاسع، لكن الأمر لم يكن عسيرًا. حلَّقت كارولين على بعد مئتي ياردة تقريبًا فوق الأرض، تدور في مكانها كأنها راقصة على الجليد تدور حول نفسها في أناقة. وذراعاها مرفوعتان فوق رأسها على شكل حرف V. وأكامها الفضفاضة ترفرف معها وهي تدور. كانت تصرخ بعزم ما فيها، وتهذي بلغة لم يميزها ستيف. ما زالت مغطاة بدماء ديفيد، التي جفَّت الآن وتخرَّت. تنهمر الدموع على وجنتيها، ولم يستطع ستيف أن يميز ما إذا كانت تنتحب أم تضحك. «ربما كلاهما؟». من أسفلها راحت أرضية اليشم تتلأأ. ولَمَّا نظر ستيف إلى الأعلى، رأى الكون الذي عرفه، معلقًا في الهواء في مركز المكتبة. وظل كارولين يسقط عليه كأنه أجنحة سوداء.

راقب ستيف المشهد لبرهة. كان قد جاء إلى ذلك المكان قاصدًا التحدث إليها، أن يشرح لها مدى سوء الأمور في الخارج، أن يوضح لها الخطأ الذي ارتكبته. وكانا ليضحكا بعد ذلك. لكن ما إن رآها هكذا، لم يقدر على التفكير في أي شيء يمكن أن يقوله. وفي نهاية المطاف، استدار على عقبيه وعاد إلى الرواق المعدني ومنه إلى «البنتهاوس» ثم صفع الباب من ورائه. وعلى إثر الصوت رفعت ناجا رأسها متسائلة.

اتجه إلى دورة المياه، صافعًا الباب من ورائه أيضًا، ثم انحنى إلى المرحاض وتقيأ. مرة، مرتين، مرات أخرى. بصق لعابًا سميكًا في المرحاض. وتقطر عرقٌ دهني على جبينه. فكَرَّ في كارولين وهي تدور وتهذي، فكَرَّ في النبرة الفاترة الناقلة للمعلومات التي تحدثت بها عن جرائم القتل بالبلطة على العشاء، وحديثها عن الأطفال الذين أحرِقوا أحياءً.

عندما رآها في الحانة للمرة الأولى، ظن بطبيعة الحال أنهما متشابهان. لكنه فهم الآن مدى خطئه في ذلك الاستنتاج.

خرج إلى غرفة المعيشة، فوجد ناجا بانتظاره مستيقظة تمامًا، وقلقٌ حقيقي يتلأأ في عينيها. فتح ستيف زجاجة مياه وربَّت على قائمتيها الخلفيتين.

- كل شيء على ما يرام. أنا على ما يرام.

لكنه لم يكن على ما يرام. لقد بدأ يفهم ما يحدث، ولم يكن على ما يرام. حدّث نفسه: «إننا الوحيدان هنا. ولا نصير لدينا ولا مخرج. ما من أحدٍ سيأتي إلى هنا».

سأل ستيف موجهًا حديثه إلى ناجا: «ماذا سنفعل، ها؟ ماذا سنفعل؟». لكن ناجا لم تحر جوابًا.

على شاشة سي إن إن، وصل أندرسون كوبر إلى امرأة عجوز لها عيناان زرقاوان برّاقتان كالنجوم. كُتب على الشاشة أسفل صورتها كلمات مثل: «جريتل أبندروث – أستاذ لوكاسي⁽¹⁾». كانت في تلك الأثناء تجيب عن سؤال أندرسون، أو ربما تحاول الجواب عنه. كادت تختنق بضحكاتها والدموع تنهمر من عينيها وهي تصف الأساتذة الآخرين بالحمقى، وتقول إن النظرية الحالية عاجزة عن استيعاب ظاهرة الشمس السوداء. سخرت منهم وهي تقول: «اعترفوا. أنتم لا تعرفون أكثر مما أعرفه. إن فهمنا للظواهر مزحة سخيفة. ولطالما كان كذلك».

شعر بعض المشاركين في الحوار بالإهانة من ذلك التصريح. وقال أحدهم إنها تبدو مثل قروية متطيرة. وصرح آخر بتصريح فيما معناه: «حسنًا، ربما ليست المادة السوداء، لكن لم لا تشرح هي تلك الظاهرة للجميع ما دامت عبقرية إلى ذلك الحد؟». فأوماً أندرسون كوبر في جزع.

التزمت أبندروث الصمت، حتى ظن ستيف وهو المخضرم في مشاهدة البرامج الحوارية أنها على مشارف البكاء. لكن حين تكلمت بدت في غاية الهدوء.

- أظن أن الرب غاضبٌ علينا.

فجأةً رغب ستيف رغبة شديدة في دعوة الدكتورة أبندروث لتناول مشروب معه. ففي هذا العالم كله، هي الوحيدة التي تفهم الأمر على حقيقته. قال ستيف مخاطبًا التلفاز: «حسنًا، أنيت لست مخطئة. لكن الأمر أسوأ من ذلك».

(1) أستاذ لوكاسي: لقب أستاذية الرياضيات في جامعة كامبريدج بإنجلترا. تأسس اللقب عام 1663 على يد هنري لوكاس الذي كان عضو البرلمان عن جامعة كامبريدج من عامي 1639-1640، وأصبح المنصب رسميًا بعد أن أقره تشارلز الثاني ملك إنجلترا في 18 يناير 1664. ويعد المنصب من أرقى المناصب الأكاديمية في العالم، ومن أشهر شاغلي الكرسي إسحاق نيوتن وستيفن هوكينغ. (الترجمة)

ألقى نظرةً خاطفةً مراوغةً ومرتابةً على الظلال المحيطة، ثم أضاف:
«أظن أنها فقدت عقلها تمامًا».

ما إن سمع تلك الكلمات تخرج من فمه، حتى نزل عليه الإلهام وتبلورت
الفكرة كلها في رأسه: «ستختلف معاني الكلمات التي تنطق بها تلك
المخلوقة عن اللغة التي اعتدتها، وستختلف عما أعرفه».

وفي تلك اللحظة تحديدًا بدأ يفهم لأول مرة ما سيتعين عليه فعله بالضبط.

الفصل الثالث عشر

غناء، غناء، غناء!

بعد ما يزيد على شهر تقريبًا، هبطت كارولين السلالم من المكتبة قاصدةً المسكن، حاملةً بين ذراعيها صندوقًا كبير الحجم من الورق المقوى، كبيرًا لدرجة لا تستطيع رؤية شيء من فوقه. وقبلما تهبط، كانت تجس كل درجة بأطراف أصابعها.

ضم الصندوق إناءً مملوءًا بالفشار، وزجاجتين من إيفركليز، ونصف دزينة من سجائر مالبورو. كان ستيف قد طلب منها إحضار الخمر والسجائر، لكن الفشار فكرتها هي. لم يساورها كثيرًا الأمل في شعوره بالامتنان، لكنها اعتقدت بأنه سيظل مهذبًا معها على الأقل.

فكرت في طلب المساعدة منه، لكنها عدلت عن الفكرة. لم يحب ستيف السلالم، وأزعجه كثيرًا أنها معلقة في الهواء من غير عمد. وقال إنها «تخيفه كثيرًا».

لم يكن هذا التذمر جديدًا، فقائمة الأشياء التي اعترض عليها طويلة ومتزايدة. وهي تضم المكتبة نفسها، التي قال عنها: «أننى للأثاث أن يتدلى من السقف هكذا؟ هذا مخيف». ثم أرضية اليشم، التي قال عنها: «ليس من المفترض باليشم أن يتلألأ بأي بريق». ثم العِطارة، التي قال عنها هي

الأخرى: «ما هذا المكان بحق الجحيم؟ سأخرج من هنا فوراً». ثم ترسانة الأسلحة، فقد جعلته جوائز ديفيد التذكارية يتقيأ. ثم اللغة البيلاوية، التي قال عنها: «إنها تبدو مثل شجار ققط». ثم أرديتها الفضفاضة، وقال عنها: «هل استعرت تلك من الموت؟». لكنها لم تفعل. وعلى رأس القائمة لدينا كارولين نفسها.

كل ما عليك فعله هو السؤال، وسيسر لك التفاصيل كلها. غمغت كارولين وهي تطل من فوق الصندوق، محاولة أن تجد موضع قدمها: «أرديتي؟ وما خطب أرديتي؟ بربك، إنها مجرد أردية».

بالكاد تذكرت كارولين كيف كانت الأمور بالنسبة إليها في بادئ الأمر، حين وجدت نفسها وسط المساحات الشاسعة في القاعة الرئيسية، والشعور المرضي بالحيرة من أن تفقد كل شيء تعرفه. ما من شك أن ذلك كله قد أشعرها بالتية. «لكنك ستعتقد أنه بعد شهر سيبدأ في التكيف».

وهذا ما لم يحدث. تكبدت عناءً كبيراً لنقل البنتهاوس، لكنها سعيدة الآن لتكبد هذا العناء كله. فقد بدا ستيف مصمماً على إقامة معسكر تخييم هناك. حين كانت أصغر سناً، حين كانت تضع خططها وتتجهّز، اعتادت أحياناً أن تستغرق في أحلام يقظة عن الأشياء التي سيفعلونها معاً حين يجتمعان أخيراً. ظلت تحلم بالنزهات والعطلات القصيرة والقراءة معاً إلى جانب نيران المدفأة. لكن عوضاً عن تحقيق تلك الأحلام، يكاد يقضي أوقاته كلها في الثمالة وألعاب الفيديو.

في الواقع، ليس أوقاته كلها. أحياناً يصعد وناجا للعب بين أكوام الكتب، لعبةً للقطط حيث يتبادلان الأدوار في الاختباء في الظلال وينقضان على بعضهما في مزاح. وقد عادا اليوم لتوهما من رحلة استغرقت ثلاثة أيام إلى سيرينجيتي. كان ستيف قد دعاها للانضمام إليهما، لكنها حين أخبرته بمدى انشغالها، كان شعوره بالارتياح بادياً على وجهه.

خطر لها صوت جينيفر، رقيقاً رؤوفاً، وهي تقول: «قلبها جمر». بل والأسوأ حين قالت: «لا تسير الأمور هكذا كما تظنين أبداً».

قالت كارولين: «اللعة عليك يا جينيفر. سأبتين مخرجاً لهذه المشكلة. كما أفعل دوماً».

ما زال المعدن المصقول لأرضية المسكن مريحاً ودافئاً تحت قدميها، حتى بعد الأشهر التي قضتها تسير على السجاجيد الأمريكية والأسفلت. لكن ما من شك أن ستيف كره ذلك أيضاً.

بدا الخشب المصقول والخطوط الدقيقة لباب ستيف غريباً على الانسيابية الأصلية للرواق. وضعت كارولين الصندوق على الأرض، وعينت انعكاسها على إحدى الزجاجات. كانت قد طلبت من أحد الموتى تصفيف شعرها. بدت فكرة جيدة في ذلك الوقت، لكن ...

«على الأقل... يبدو مختلفاً». واهتدت أخيراً أن المشكلة تكمن في أنها ليست واثقة حقاً مما إذا كان يفترض بشعرها أن يبدو هكذا. «ليس سيئاً، صحيح؟ أعني... يبدو مهندياً على الأقل». ربما ليس سيئاً. لكن فكرت في أنه أيضاً علامة على اليأس. «وماذا سنفعل إذا لم تنجح تلك الحيلة يا كارولين؟ ماذا بعد ذلك؟». أجابت انعكاسها في الزجاجاة: «سأجعله ينجح». لكنها بدت غير واثقة مما تقول.

تشممت إبטיها، فكانت رائحتهما جيدة على الأقل. ثم أخذت نفساً عميقاً ورسمت على وجهها شيئاً يشبه الابتسامة. ثم ...

دق. دق.

بعد وقتٍ طويل فتح ستيف الباب، موارباً قيد أنملة.

- مرحباً.

- مرحباً! أيمكنني الدخول؟

- ولماذا تزعجين نفسك بالسؤال؟

على جانب رقبته، راح الشريان السباتي ينبض، وفاح عرقه برائحة الخوف: «يمكنك الدخول دون دعوة. لا أستطيع إيقافك، صحيح؟ لا أحد يستطيع».

- ما كنت... ما كنت لأفعل هذا. وخصوصاً بك أنت.

ارتعد قلبها. وسألت نفسها: «هل حقاً يخاف مني؟». هزّت رأسها رفضاً للفكرة. «بالتأكيد لا. هذا هو عين السخف». ثم سمحت لقليل من المأساة التي تشعر بها يظهر على محياها.

لان وجه ستيف، قليلاً ليس إلا.

- نعم. حسناً. لا بأس. ادخلي.

ما إن خطت إلى الداخل، حتى جاهدت رغبةً شديدة في تغضن أنفها. فاحت الغرفة برائحة كريهة من سجائر قديمة وبول أسد. كانت قد أحضرت حمام سباحة للأطفال وعدة أكياس من الرمال الممتصة للرائحة، لكن ريثما أقنعا ناجا بتجربتها، صارت السجادة ميؤوسًا منها.

ارتدى ستيف على الأريكة متعبًا: «اجلسي».

- شكرًا لك.

كانت الأريكة كبيرة، لكن كارولين اختارت الجلوس إلى جانبه. وفي الظلال من ورائهما، أمعنت ناجا النظر فيها بعيني صياد ذهبيتين.

- ما رأيك في إفريقيا؟

أجاب ستيف: «مظلمة. كيف توقعت أن تكون؟».

- ستيف، أنا ...

رفع يداً لإسكاتها: «آسف. انسي أنني قلت شيئًا. رغم ذلك، قضت ناجا وقتًا ممتعًا. والتقت خالات لها. وأكلنا معًا نواً».

- وكيف كان مذاقه؟

- أحبته ناجا كثيرًا. كان نيتًا بعض الشيء بالنسبة إلى ذوقي، لكن لحمه كان طازجًا جدًا.

- مهلاً! هل خرجت معهن للصيد؟

- نعم. في الواقع، هن أصرن على ذلك.

- رائع!

- ماذا؟

- هذا شرفٌ عظيم يا ستيف.

كان مايكل قد عاش في البراري طيلة عامين كاملين قبل أن يُمنح شرف التدريب، وكان ذلك بفضل توصية من نوبونونجا. ثم أضافت: «عظيم».

- حقًا؟ حسنًا، هذا شيء لطيف.

انتظرت، لكنه لم يستفرض في الحديث. وفي قرارة نفسها، أبدت كارولين لا مبالاة وهي تحدث نفسها: «لا بأس».

على طاولة القهوة، يرقد كتابٌ ضخم ذو حلقات ثلاث، محاطاً بمنفضة سجائر مملوءة عن آخرها.

- كيف تسير دراستك؟

- إنني أحرص تقدماً.

ثم التفت وزمجر إلى ناجا بلغة الصيد قائلًا: «شكرًا لك على عدم التهامي اليوم».

جاء صوت ناجا من أسبار الظلمة: «حبك لا يستهان به يا ضئيل. سألتهمك في يومٍ آخر».

علقت كارولين: «ليس سيئًا».

كانت لهجة ستيف خشنة، لكن نطقه أفضل كثيرًا مما توقعت منه. صمتت قليلًا ثم أضافت: «أظن أن لديك ملكة الإتقان. لكنات القطط مربكة (رمقت بنظرة جانبية الكتاب ذا الحلقات الثلاث. ووجدت أنه قطع شوطًا كبيرًا) متى ستحتاج الكتاب التالي؟».

- ربما أسبوع آخر أو أكثر على ما أعتقد.

- حسنًا. سأبدأ في المجلد الثاني. ستعجب بذلك الكتاب. لأنه يغطي فنون الصيد.

اتسمت نصوص مايكل بنصيب وافر من الرسومات التوضيحية، وهو ما ساهم في تسريع عملية ترجمتها. ومع ذلك، استغرقت وقتًا ثمينًا لا تستطيع توفيره.

- شكرًا لك.

- على الرحب والسعة.

خيّم عليهما صمتٌ مربك.

في هذه المرة كان ستيف هو من كسر حاجز الصمت أولًا: «إذن... ما قصة تصفيقة شعر فارا فاوست؟».

- ماذا؟ أنا... آسفة، لا أفهم ماذا تقصد بكلامك.

رسم ستيف مسارًا خياليًا في الهواء إلى جانب رأسها: «فارا فاوست؟ تلك الفاتنة في ملصق الجدار؟ شعرك... (ما إن رأى ستيف تعابير وجهها، حتى

قطع كلامه، ثم استأنف) آه، انسي الأمر (زفر تنهيدة) تبدين، مم، جميلة. هذا كل شيء».

استشفت كذبه، لكنها ليست كذبة قاسية. واكتفت بجواب يجعلها في مأمن من ثوراته: «شكرًا لك. هل تود بعض الفشار؟». ونزعت الغطاء الحافظ للطعام عن الإناء، وقدمته إليه.

نظر إليها متسائلًا: «فشار؟».

- ألا تحبه؟

- لا. الأمر ليس هكذا. (بدا مترددًا). لم أتصور أنك من الأشخاص الذين يستمتعون بالفشار وتلك الأشياء، هذا كل شيء.

- حسنًا... لقد مرَّ وقتٌ طويل. اعتادت أُمِّي أن تعده من أجلي حين كنتُ صغيرة. أنا أذكر ذلك. وفكرتُ في أنك قد تستمتع بشيء مألوف.

- نعم، صحيح.

وضعت الإناء على طاولة القهوة. فقبض حفنة بملء يده.

- شكرًا لك. مذاقه جيد.

راحا يمضغان الفشار لبعض الوقت. ثم طرح ستيف سؤالًا بنبرة هادئة مزيفة، لكن هذه الخدعة لا تنطلي على أحد.

- هل فكرت فيما تحدثنا بشأنه من قبل؟

تأففت كارولين بينها وبين نفسها. بدا أن ستيف يرفض التخلي عن فكرة أن ضوء ديفيد قد يصير أصفر بطريقة أو بأخرى. كان يثير الأمر في كل مرة يلتقيان، مرةً واحدة على الأقل.

- ستيف، حتى لو أردتُ فعل ذلك. لا أستطيع.

في تلك اللحظة، كادت تقتنع بما يريد. وفكرت: «هل أقبل التضحية بثأر قضيتُ خمسة عشر عامًا أعد له؟ بالتأكيد! سأفعل أي شيء لإسكاته».

ثم أضافت بصوتٍ مسموع: «الأمر ليس ممكنًا من الناحية الفنية. لماذا يصعب عليك قبول ذلك؟».

أجابها بابتسامة ساخرة، كأنما يقول أعرف أنك تخفين شيئًا، لكنني أذكى منك. حينها شعرت برغبة في خنقه.

- حسنًا يا كارولين. لكن آخر شمس أشرقت علينا كانت صفراء، بدت السماء غارقة بالنجوم التي ...
- الظروف مختلفة يا ستيف. لقد تدمرت روح ديفيد، كما أن نصف رأسه مفقود. لذلك فإن توليف أي اتصال بأي مستوى آخر خلاف مستوى العذاب والألم سيخلق مشكلة.
- لكن ماذا لو ...
- يكفي يا ستيف. (ثم بنبرة أهدأ). هذا لن يحدث.
- جلسا في صمتٍ لبعض الوقت، يعضغان الفشار ويتجنبان النظر إلى بعضهما. فكانت ناجا هي من كسرت حاجز الصمت هذه المرة: «سيدي الصياد النبيل؟ هل طرحت قضيتي على سيدة الظلام؟».
- ليس بعد يا حلوتي. سأصل إليها. امنحيني دقيقة فحسب، اتفقنا؟ تذكرني ما اتفقنا عليه.
- كشّرت ناجا عن أنيابها: «حسنًا».
- فغرت كارولين فاها وهي تنقل نظراتها بينهما. فسأل ستيف: «ماذا؟».
- هل سمعتَ ما نادتك به؟
- هزّ ستيف رأسه: «مم... لا؟ أعني، نعم سمعته، لكن ما زال هناك كثيرٌ من الثغرات ...».
- لقد نادتك بـ «سيدي الصياد النبيل».
- أخذ ستيف يداعب أذن ناجا: «أوه! شكرًا لك يا حلوتي. هذا لطفٌ منك».
- ولمّا رأى النظرة في عيني كارولين سأل: «ماذا هنالك؟».
- أنتَ حقًا لا تفهم ما يعنيه ذلك.
- رفع كتفه بلا اكتراث: «ولماذا يدهشك هذا؟».
- «سيدي الصياد النبيل» هو... هو أشبه بلقب فخري. بل أكثر من ذلك. هذا مصطلح ينم عن احترام عميق. ولا تستخدمه الأسود إلا في مناسبات خاصة.
- قطّب حاجبيه: «آه. إذن، هذا الأمر بالغ الأهمية؟».
- صحيح يا ستيف. هذا الأمر بالغ الأهمية. هذا هو المقابل في عالم الأسود لنحت وجهك على جبل روشمور. ومناداة أحدهم بذلك اللقب...

شيءٌ رائع حقًا. لم أسمع بشيءٍ كهذا من قبل. قط. ماذا فعلت لتحظى بذلك الشرف؟

تملئ ستيف في مقعده: «مم. لا شيء. ليس تمامًا». ثم بصوتٍ خافت أضاف: «تحدثنا فحسب».

- عن أي شيء تحدثتما؟

- أمور ما.

- ناجا، ماذا فعل؟

نظرت اللبوة إليها: «سيدي الصياد النبيل سيكون منقذنا جميعًا. هذا ما جرى التنبؤ به. وسوف...».

- ناجا!

قاطعها ستيف بنبرةٍ حادة: «لقد اتفقنا أنني سأتعامل مع هذا الأمر، أتذكرين؟».

أرجحت ناجا ذيلها، ثم اختفت ثانيةً في الظلال.

أجابت كارولين بنبرةٍ مشرقة مفتعلة: «مع أي شيءٍ ستتعامل بالضبط؟».

حطَّ ستيف إناء الفشار على الطاولة: «هل شاهدت الأخبار مؤخرًا؟».

تذمرت في قرارة نفسها. كانت قد قطعت وعدًا في آخر مرة تكلمًا أنها ستشاهد الأخبار، وقد نوت ذلك فعلًا. لكن ذهنها تشتت وهي تتبع شائعة منتشرة عن الدوق، و...

- أنا آسفة. لا بد أنني نسيت تمامًا.

انقبضت عضلات فكِّه. لكن كل ما نطق به هو: «لا بأس. أتفهم مدى انشغالك. هل تمانعين لو ألقينا نظرة الآن؟ أريد أن أريك شيئًا».

أجبرت نفسها على رسم ابتسامة بسيطة: «لا أمانع طبعًا».

ضغط على الزر فأضاءت الشاشة.

- هل أعجبك التلفاز؟ إنه كبير حقًا!

في الواقع كان كبيرًا جدًّا. وقد تمنى كارولين أن يسعده ذلك. يحب الأمريكيون المقتنيات المبهرجة، صحيح؟ لكنه بدا غير مهتم بحجمه على الإطلاق.

- نعم، إنه رائع. (راح يقلّب بين القنوات). ها، هذا خبرٌ جيد. شاهدي هذا.
- كُتِبَ على الجزء السفلي من الشاشة «نقص الغذاء يتسبب في أعمال شغب في أوريجون». وعرض مقطع فيديو صُور بألة تصوير محمولة باليد داخل أحد متاجر البقالة الكبيرة. كانت الأرفف خاوية، والدماء تلتطخ الأرضية. وفي ساحة الانتظار بالخارج، تومض الأضواء الزرقاء.
- سأل ستيف: «هل سمعتِ بذلك؟».
- لا.
- كان من المفترض أن يصل قطارٌ محمّل بالقمح من كانساس، لكنه لم يصل ولا أثر له. أتوقع أنه اختُطف. وما من أحدٍ يفهم كيف يمكن أن يختفي قطارٌ كامل بلا أثر.
- يمكنني البحث عنه إذا ...
- هذا لطفٌ منك، لكن هذا ليس المغزى من كلامي.
- شعرت كارولين بعيني ناجا تراقبانهما من الظلال: «حقاً؟ وما هو المغزى من كلامك؟».
- الأمر يتعلق بأعمال الشغب. اعتدنا أن هذه الظواهر نادرة إلى حدٍّ ما؛ تحدث مرة كل عشر سنوات مثلاً. أما الآن فأعمال الشغب تحدث مرتين على الأقل يومياً. والأوضاع تسوء أكثر فأكثر.
- حقاً؟ هذا مقلق. (خيم عليهما صمتٌ طويل، ظلّ خلاله ينظر إليها في ترقب). مم، وفي رأيك ما السبب في ذلك؟
- أجاب ستيف: «مم... الناس في حالة هياج. يتساءلون عن كل شيءٍ قد مروا به مؤخراً. حريق البيت الأبيض، واختفاء الرئيس، و... الأمور الأخرى».
- لم يأتِ ستيف على ذكر ديفيد، لكنها تعرف جيداً ما يرمي إليه. وكادت أعصابها تنفجر من شدة التوتر.
- أكمل ستيف محاضرتة: «الخوف يقبض على قلوب الناس. في كارولينا الجنوبية، هناك واعظٌ يدعى الأخ إيجين. يواصل وصف ما يحدث بأنه نهاية العالم. إنه يذكرني بأبسوم مسعور، لكن هناك كثيرين يأخذون كلامه على محمل الجد. وقد نصّب نفسه حاكماً. هناك افتراضٌ بأنه انفصل عن الاتحاد».
- هل الأمر يستدعي كل ذلك الضجيج؟

- يستدعي جدًا. منذ عدة أيام حدث تبادل لإطلاق النار بينه وبين الجيش. وشنت الدبابات قصفًا على مبنى السلطة التشريعية. وكان الأخ إلجين قد سلسل زمرة من طلاب الجامعة أمام المبنى واستخدمهم كدروع بشرية. وصل عدد القتلى إلى مئتين. ربما يصلون إلى حلٍّ معه في نهاية المطاف. لكن قبل بضعة أسابيع فحسب، كان كل شيء... كما تعرفين. هادئًا. طبيعيًا.

فكرت كارولين: «منذ بضعة أسابيع؟».

- مهلاً، مهلاً! إذن أنت تلومني أنا على هذا كله؟

- ألا ينبغي لي؟

- قطعاً لا! الناس يبالغون في ردود أفعالهم.

- يبالغون في ...

قاطع ستيف نفسه، ثم طبل بأصابعه على الطاولة الجانبية. وبعدما هدأ قليلاً، تكلم: «حسنًا. ربما هذا صحيحٌ من وجهة نظرك. أنا أعرف أنك لم تقصدي حدوث أي من ذلك كله. وأظن أنك لم تلحظي حتى ما يحدث. هل أنا محق؟».

شعرت كارولين بموجة غضب، لكنها تمكنت من كبتها. تنهدت وحدثت نفسها: «على الأقل يبذل جهدًا ليبدو مهذبًا. كما أنه ليس مخطئًا».

- نعم. صحيح. بعض هذه الأخبار جديد عليّ. لكنني منشغلة للغاية!

- نعم، أعرف ذلك. أفهم ذلك، أفهم ذلك حقًا. أحدث موت الأب فوضى كبيرة. وكل أعدائه يتربصون بالفتاة الجديدة، صحيح؟

- بالضبط. لكن لدي الأفضلية.

- وكيف ذلك؟

- سيستهينون بي.

نطقت بكلماتها وابتسمت. ما إن رأى ستيف ابتسامتها الماكرة، أصابته رجفة مفاجأة. حاول إخفاءها، لكنها أحست بها من غير شك. وفكرت: «إنه يخافني حقًا». لكم ألمها ما استوعبته؛ ألمًا حقيقيًا. ما كانت لتبكي؛ لم تعرف البكاء قط.

لكن الألم ينخر في قلبها نخرًا.

أملت في مهرّب، فنظرت إلى التلفاز. قرأت الحروف المكتوبة على أحد جوانب الشاشة: CNN. وإلى جانبها، الكلمتان «غلاف نيوترونيوم» بحروف بارزة. ومن فوق هذا كله، المكتبة. تتداعى في مكانها مثل نردٍ ملقى، هرمٌ داكن أكبر من أي بناءٍ صنعه الإنسان. أسود من الخارج بالطبع، لكن طاقم التصوير قد سلّطوا نوعًا من العدسات المجمعّة للضوء جعلت من كل شيء يبدو أخضر غريبًا. وتدور المروحيات حول الهرم مثل يراعات تحوم حول كرة شاطئ.

أشار ستيف إلى التلفاز بحفنة من الفشار: «أهذا نحن؟ ذلك هو الشيء الذي أصدر أزيزًا في السماء، ليلة أطلق إروين الرصاص على ديفيد؟ تقنية «التطويق والدفاع»؟».

- نعم.

- أهذه هي المكتبة؟ أعني إننا بداخلها، صحيح؟

ترددت قبل أن تُجب: «نوعًا ما. هذا إسقاطٌ رباعي الأبعاد لكون من سبعة عشر بُعدًا. تشبه الظل نوعًا ما، أو الموضع حيث تتداخل الدوائر في مخطط فن».

على شاشة التلفاز، تحرّكت الكاميرا من المكتبة إلى امرأة جميلة ترتدي معطفًا، وتقف أمام حاجز طريق على الطريق السريع 78. ميّزت كارولين المكان. ولأن الصوت مطفأ، قرأت كارولين شفتي المرأة. كانت تقول أشياء من قبيل «اليوم الثاني والثلاثين» و«نشاط غير معتاد» و«القوات العسكرية لم تستجب». كانت أسنانها ناصعة البياض. وبعد برهة، ظهر من خلفها جنودٌ مكفهرو الوجوه يجتمعون حول الدبابة، ويلوّحون بأذرعهم في إشارات طرد. بحث ستيف عن جهاز التحكم: «ماذا يحدث؟».

- الجيش يُجلي جميع المراسلين.

- ها؟ لماذا؟

- سيبدوون تفجيرنا خلال بضع دقائق.

- حدّق إليها ستيف: «أنتِ تعلمين بذلك؟».

- بالتأكيد.

رفع حاجبه مشدوّهًا: «ألا تريدان الفرار مثلًا؟».

- ظننتُ أن المشاهدة ستكون ممتعة. اعتاد ديفيد تفجير أشياء كثيرة أحياناً. كما أن الأضواء جميلة نوعاً ما.
- ابتسمت ورفعت الإناء إليه: «مزيد من الفشار!».
- لم يحر ستيف جواباً، واكتفى بالتحديق إليها.
- بعد برهة استوعبت المغزى من تحديقه.
- أوه. لن يقدروا على إيذائنا. أعدك بذلك.
- مم. هل سمعتِ بشيء يسمى القنابل النووية؟
- أنا على دراية بها. لكنهم لن يستخدموها. أعني... لقد تناقشا في الأمر، لكنني أظن أنهما عدلا عن تلك الفكرة. أراد إروين وذلك الرجل الصيني استخدامها، لكن الرئيس ظل يردد «ليس على الأراضي الأمريكية».
- أنا واثقة من ذلك على أي حال. رغم أنني شعرت بالملل وتوقفتُ عن الاستماع إليهم.

حدّق إليها بنظرات حائرة: «كيف تعرفين هذه التفاصيل كلها بحق الجحيم؟».

- سرقت الطريقة من فهرس ديفيد. حين يخطط أحدهم لإيذائي، أستطيع أن أعرف. (اختلست نظرة إلى ناجا) أشعر بشيء يشبه الحكّة، هنا. (ونقرت على الجزء السفلي من جمجمتها). حين أشعر بالحكّة، أنصت إلى حديث أعدائي. يتعين أن يبدأ الهجوم في أي لحظة.
- فرك ستيف صدغيه: «كارولين... حتى لو لم يستخدموا الأسلحة النووية، لديهم أسلحة أخرى تسمى مخترقات الحصون. وقنابل أخرى أظن أن اسمها «جرازة الأقحوان»⁽¹⁾؟ شيء كهذا. إنها قنابل ضخمة جداً تكاد تقارب ضخامة القنابل النووية (بحث في وجهها عن أي ردة فعل). هل أنت متأكدة من أن ذلك لن...».

أساءت فهمه وهي تقاطعه وتطمئنه: «اهدأ يا ستيف. لا داعي للقلق. ما من شيء لتقلق بشأنه. أعدك بذلك».

(1) جرازة الأقحوان هو اسم مستعار لنظام السلاح BLU-82 في فيتنام لقدرتها على تسوية جزء من الغابة ليصبح منطقة هبوط مروحية. وهي قنبلة بوزن 6800 كجم. استخدمت في عمليات عسكرية في حرب الخليج وفيتنام وأفغانستان. (الترجمة)

نظرت إلى الحائط وراء شاشة التلفاز وأضافت: «في الحقيقة، لقد بدأ الهجوم بالفعل. لا بد أن المقاطع المعروضة على التلفاز مسجلة، أو شيء كهذا. انظر». وأتت بإيماءة أصبح الجدار على إثرها شفافاً.
غض ستيف بصره من وطأة الوهج المفاجئ.

- هل عادت الشمس؟

- لا. هذا وهج الانفجارات فحسب. انتظر.

أتت بإيماءة أخرى، فخفت الوهج قليلاً: «هكذا أفضل».

امتلاً المجال الجوي بالطائرات الحربية على امتداد البصر. ما إن رأتها كارولين، خطرت لها صور أسراب الطيور المهاجرة شتاءً. اندفع سربٌ من الصواريخ الجواله عبر سماء الليل، لتزهر في وهجٍ على جدار المكتبة، كأنها زهور برتقالية في الليل الحالك.

- أترى؟ أخبرتك كم هي جميلة. (أكلت حبة فشار). ألا تظن ذلك؟

- مم... أظن ذلك.

تلى ذلك ثلاث قاذفات ضخمة، فُتحت أبواب مخزن القنابل في بطونها. ومع اقترابها أخذت تفرغ حمولتها. الآن بإمكانها رؤية المشهد على التلفاز وعلى الحائط كذلك. ترتفع كرات النار على جانب الهرم في صفوف منتظمة تنير الدهشة. ولما كان أحدها ضربة مباشرة، عدلت كارولين الإضاءة مجدداً.

توجه ستيف إلى الحائط ووضع يده عليه.

- لا أستطيع حتى الشعور به. لا شيء.

- بالطبع لن تشعر بشيء.

أشارت إلى الهرم على التلفاز وأضافت: «كما قلت لك، هذا إسقاط. لن تستطيع القنابل الوصول إلى المكان الذي نحن فيه حقيقةً. فكَر في الأمر بالطريقة التي سأشرحها لك. إذا أطلق أحدهم النار على خيالك، فلن يؤذيكَ ذلك، صحيح؟».

- مم.

عاد ستيف للجلوس، لكن هذه المرة أبعد كثيراً عنها مما كان عليه من قبل، والتهم ملء يده من الفشار. ثم تكلم: «أريد أن أعترف لكِ بشيء».

- وما هو؟

- لقد عرفت أنهم يعتزمون تفجيرك. أعني... عرفتُ ما كانوا يفكرون فيه.
 - حقًا؟ وكيف عرفت؟
 - نعم. إنني أتواصل مع إروين منذ مدة. والرئيس أيضًا. أعني الرئيس الجديد. ليس الرأس. بالإضافة إلى رجلين آخرين.
 وأظهر إليها الهاتف الخلوي للسيدة ماجيلكاتي.
 لوّحت بيدها في الهواء بلا مبالاة: «أقدر لك أنك أخبرتني، لكن هذا لا يمثل مشكلة».

- كنت تعرفين ذلك، صحيح؟
 - نعم.
 - هل كنت تسترقين السمع؟
 - ما كنتُ لأفعل شيئًا كهذا. ليس معك أنت.
 - ماذا إذن؟
 - عالمٌ مختلف، أتذكر؟ كان عليّ أن أضبط ناقل ومقوِّي شبكة قبل أن يعمل هاتفك الخلوي. أتذكر كيف حاولت إجراء مكالمة في المرات الأولى، ولم تتلقَ أي إشارة؟
 - آه. (صمت قليلًا) ألسنتُ غاضبة؟
 - لم يحدث شيء لأغضب بشأنه.
 - يمكنك القول إنني تأمرتُ مع أعدائك لقتلك. ألا يغضبك هذا؟
 - هزّت رأسها نفيًا: «لا. على أي حال لقد عرفتُ أن الأمر لن ينجح».
 - ماذا تقصدين؟
 - نقرت على قاعدة جمجمتها: «لا أشعر بأي حكة».
 - ففكرت في نفسه لبضع ثوانٍ، كان خلالها يتبادل النظرات مع ناجا. ثم أومأ في نهاية المطاف، وبنبرة لطيفة قال: «آه. نعم. لا بأس (ثم موجهًا حديثه إليها) هل تودين كأسًا؟ ثمة أمرٌ أريد التحدث إليك بشأنه».
 - بالتأكيد.
 - ففكرت في نفسها: «المشروب يبدو فكرة جيدة حقًا». ثم سألته: «ما الذي يدور في عقلك؟».

- مم، أول هام أردتُ التحدث معكِ بشأنه هو تلك الأمنية.

- أدركتُ أخيرًا ما الذي تريد؟

حاولت كارولين إخفاء الحماس من نبرة صوتها، وفكرت: «ربما بدأ يتغير في نهاية المطاف!».

- نعم. فكرتُ في شيء. أتذكرين حين كلمتك عن كلبى؟ من فصيلة كوكر سبانيل؟

- مم ...

- تلك الليلة الأولى في الحانة.

كذبت كارولين: «آه. بالطبع أتذكر».

- أيمكنكِ العثور عليه؟ وتتأكدين أنه بخير؟ اسمه بيتي.

- نعم، بكل سرور. يمكنني فعل ذلك. لكن ستيف، هذا أمرٌ بسيط جدًا. إذا كان لديك ...

حدّق إليها بنظرة صادقة: «أتعدينني بذلك؟».

- بالتأكيد. أعدكِ. لستُ بارعة في التعامل مع الكلاب، لكني سأجد حلًا.

عاد ستيف إلى مجلسه وأومأ: «شكرًا لك يا كارولين. أقدر لك ذلك».

ترك بقية كلامه معلقًا في الهواء. وبعد صمت طويل، مثّلت بيدها إيماءة

تعني أكمل حديثك، وهي تناديه: «ستيف؟».

- ها؟ آسف. كيف أصيغ ما أريد قوله؟ (زَمَّ شفّتيه). اسمعي، بادئ ذي

بدء أريد أن أخبركِ أنني فكرتُ كثيرًا فيما قلته لي تلك الليلة. ما حدث

لك. وكيف صرتِ... أيا كانت طبيعتكِ.

- لقد أخبرتك يا ستيف. أنا مجرد مكتبية ...

رفع يده مقاطعًا: «لا يهم. اعلمي فحسب أنني أبذل جهدًا حقيقيًا لأضع

نفسي في مكانك. ولأفهم السبب وراء ما تفعلينه. أعني، هذا هو كل ما فعلته

حقًا منذ ذلك الحين».

شعرت بشيء في نبرته لم يعجبها.

- حقًا؟ والآن ماذا؟... كَوْنَتِ رأيك فيما أفعله؟

خلَّل شعره بأصابعه، وأجاب: «فيما يتعلق بما فعلته؟ أعني بديفيد ومارجريت؟ لا. أنا شخصياً أحاول البقاء بعيداً عن أمور مثل هذه، الانتقام وما إلى ذلك. كما أنني لم أتعرَّض لما تعرضتَ له، لم يثبَّتني أحدهم بمسمار إلى مكتب. لذا بأي حق أحكم عليك؟».

قرقعت مكعبات الثلج في كوبها الزجاجي. وفي قلبها، تسرَّب شيءٌ من الدفء.

- شكراً لك.

- لكن لدي وجهة نظرٍ في أمر آخر.

- وما هو؟

- وجهة نظري تتعلق فيما حدث لك من وراء ما تعرضتَ له.

- ماذا تقصد؟

- أعني... على سبيل المثال، معظم الناس الذين أعرفهم لا يشعرون بالملل ويتجاهلون محادثة تدور عن اتخاذ أحدهم قرارًا بإسقاط قنبلة نووية عليه أم لا. حتى لو كانوا على يقين تام من أنهم سينجون منها، سيقصرصهم الفضول ليعرفوا ما سيؤول إليه الحديث. (هزَّ رأسه أسفاً). لكن أنتِ لستِ من هذا النوع. لم يرتقِ الحديث إلى مستوى اهتمامكِ حتى.

-- لستُ واثقة أنني أفهم ما ترمي إليه.

- في بادئ الأمر، ظننتُ أنكِ في آخر مراحل الجنون. وربما أنتِ كذلك، وفقاً لمعايير الأطباء وما إلى ذلك. لكني الآن لا أظن أن كلمة «جنون» هي الكلمة المناسبة لوصفك.

شعرت كارولين بشفتيها خدرتين، كأنها تعاطت سُماً

- وما هي الكلمة المناسبة إذن؟

- لا أستطيع التفكير في كلمة مناسبة. يبدو وكأنكِ تعيشين في بيئة مختلفة عن بقيتنا. المشاعر العادية كالخوف والأمل والتعاطف، لا تتواءم معكِ.

- مم... لا بأس. ربما. ربما هناك جانبٌ من الصحة في كلامك.

- اتسمت نبرتها بالحذر. ومع أن ستيف لم ينو لها شرًا، وهي ستعرف لو نوى على ذلك فعلًا، شعرت أن ثمة شيئًا في كلامه، شيئًا ...
- لا بد أن يسير الأمر على ذلك النحو. أعني ذلك حقًا. وإلا كيف يمكنك النجاة من كل ما مررت به؟ المشكلة هي أن هذا التغير هو سلاح ذو حدين.
- ستيف، عليك أن تفضي بكل ما لديك بوضوح لأفهمك.
- نعم. أنا أحاول.
- سكب قدر إنش من نبيذ إيفركلير في كأسها، ثم ملأ بقية الكوب بعصير برتقال. ثم أفرغ بقية الزجاجاة في إناء كبير من الفولاذ لطهي المرق، وقال: «لنتركه يتنفس». ثم سار نحوها وناولها كأسها.
- ارتشفت من شرابها، فتغضن وجهها من فوره.
- ألم يعجبك؟
- إنه قوي جدًا.
- لكنها شربته على أي حال.
- صحيح.
- لامس بشفتيه حافة كوبه، ثم وضعه جانبًا، واستأنف الحديث: «كما قلت لك، إنني أشاهد الأخبار كثيرًا في الآونة الأخيرة. هل تدرين بأمر المشكلات الزراعية؟ التي تسببت فيها هذه الشمس الجديدة التي أتيت بها؟».
- أي نوع من المشكلات؟
- حسنًا... معظم النباتات تموت. بل في الحقيقة، جميع النباتات تقريبًا. الأشجار والحشائش والقمح والأرز وحوض الأمازون... كل شيء تقريبًا. وهذا ما أثار شيئًا من القلق في نفوس البعض.
- قلقين بشأن النباتات؟
- أصابها حيرة صادقة في تلك اللحظة. لا يتوانى الأمريكيون عن قتل بعضهم باستمرار. وحيثما وجَّهت وجهك تجد حربًا أخرى مشتعلة. لذلك سألت: «لماذا يثقلون أنفسهم بالقلق على النباتات؟».
- المشكلة هي أنه قريبًا جدًا سينفد الطعام.

- حقًا! صحيح. حسنًا، حل هذه المشكلة سهلٌ جدًا. سينبت الكثير من العفن والفطريات وتلك الأشياء الأخرى تحت الشمس السوداء. لديّ كتبٌ تتحدث عن ذلك. وحين أصل إلى قراءتها، سأترجمها، و ...
- هذا رائع حقًا، وأعرف أن الناس سيقدرّون ذلك. لكن المشكلة تتفاقم وصارت عاجلة نوعًا ما.
- تململت في انزعاج: « سأرى إذا كان بإمكانني اقتطاع بعض الوقت الأسبوع القادم».
- تجري قناة سي إن إن سلسلة من التقارير الخاصة تتناول الحصول على قيمة غذائية من أشياء لا تعتبرها طعامًا في العادة. مثل إعداد حساء من جلود الأحذية الصناعية. ووصفات طعام من أجل حيواناتك الأليفة. أشياء من هذا القبيل.
- مم. تذكرتُ للتو، كان المتجر خاليًا من الجواكامولي.
- هل لاحظتِ السعر المكتوب على زجاجة الإيفركليز؟
- ليس تمامًا.
- سبعة آلاف دولار مقابل زجاجة واحدة هو مبلغ أعلى قليلًا من المعتاد. ربما السبب الوحيد الذي يجعلك تجدينها من الأصل هو أنها مركب صناعي وليست منتجًا غذائيًا. لا أظن أن أحدًا بخلاف طلاب الثانوية سيشرّب الخمر. وسيفعلون ذلك لأنهم لا يفقهون شيئًا أفضل منها.
- بالمناسبة، لاحظتُ أن الأرفف بدت خاوية فعلًا.
- أراهن على ذلك.
- ثم عبس وجهه كأنه يتذكر شيئًا، وأضاف: «منذ عدة أيام رأيتُ مقطعًا في الأخبار جعلني أفكر في صديقتك الأيل. إيشا و ...».
- آشا.
- صحيح. قبل أسبوع، قبض على فتى في السادسة عشرة أو أكثر، وهو يصطاد أيلًا من أراضي رجلٍ غني. هذه جريمة يعاقب عليها القانون بالإعدام الآن. قبضوا عليه بأيدي ملطخة بالدماء. وكان يمتص النخاع من عظام فخذ الأيل. ودافع عن نفسه قائلاً بأن الأيل كانت لتموت من

الجوع على أي حال، إذن لماذا لا يتحصل أحدهم على بعض الفوائد الغذائية منها؟ ويمكنني القول إنني تفهمتُ وجهة نظره تقريباً.

شردت كارولين في صباح قضته مع آشا تقضمان البرسيم المغطى بالندى، وتتفرجان على الفجر الربيعي. ثم أومضت تلك الذكرى في رأسها شيئاً آخر... لكنها كبته ودفعت به إلى أعماق ذاكرتها.

وفي تلك الأثناء كان ستيف يراقبها من كُتب.

ثم سألتها بنبرة عادية جداً: «ماذا حدث؟».

ظلّ ستيف صامتاً لوقتٍ طويل قبل أن يجيب بنبرة خافتة: «شنقوا الفتى على أي حال. وبعد ذلك نشب المزيد من أعمال الشغب. وكما قلت لك، أصبحت الثورات عادةً يومية الآن».

تجرّعت كوبها: «أوه».

فسألها بصوتٍ أقوى: «شرابٌ آخر؟».

- بالتأكيد.

توجه إلى المطبخ، وفتح الزجاجاة الثانية. أعدّ لها كوباً من الشراب، إنشين كاملين من الخمر هذه المرة، ثم سكب بقية تلك الزجاجاة في الإناء الفولاذي مع الزجاجاة الأولى.

استأنف ستيف الحديث: «على أي حال، هناك مشكلات أخرى بخلاف المجاعة. الزلازل هي المشكلة الأكبر. يقع زلزالٌ جديد كل يوم تقريباً. لم يتبق الكثير من مدينة سان فرانسيسكو. طوكيو، مثلاً، تهدمت عن بكرة أبيها. ومدينة مكسيكو ليست ببعيدة. ومن الواضح أن هناك بركاناً نشطاً يغلي تحت متنزه يلوستون. في الواقع لم يحدث له شيء بعد، لكن علماء الجيولوجيا قلقون بهذا الشأن. (التقت أعينهما). يقولون إن لهذه الظواهر علاقة بهذا المكان».

- المكتبة؟

- نعم. من الواضح أن البناء الهرمي فوق جاريسن أوكس ثقيل. يقولون إن كتلته تساوي كتلة القمر، أو شيء من هذا القبيل؟ وهذا يحرك الصفائح التكتونية من مكانها.

أخذ رشفة من شرابها قبل أن يناولها إياه: «ألم تسمعي بأي من هذا؟».

هزّت رأسها نفياً.

- نعم. تنبأت بذلك. تراقبين أعداء الأب، صحيح؟ وتتابعين دراستك في كل تلك الأشياء الأخرى... ماذا تسمينها؟

- فهارس. انشغلتُ في دمج الفهارس. ووضع الاستراتيجيات. وإرساء الأسس تحسباً لحالات الطوارئ. إذا تطلب الأمر.

علّق ستيف: «طبعًا. طبعًا. أنتِ تتوخين الحذر. ولديك الكثير مما يشغلك. هذا هو العالم الذي تعيشين فيه، العالم الذي تعرفينه».

خللت شعرها بأطراف أصابعها من فرط الإجهاد: «اسمع يا ستيف. بشأن الزلازل والمجاعة وكل ذلك، سأتبين حلًا لكل تلك المشكلات. لكن هناك الكثير مما يحدث حولنا وأنت لا تعرف عنه شيئًا. كيو33- نورث يتحرّك ضدنا، ولا أستطيع تحديد مكانه. وإذا قرر ليزل أو ربما باري أوشيا التحرك ضدنا الآن، فستحل الكارثة...».

- على الجميع. علينا جميعًا. الأناس العاديون. أفهم ذلك أيضًا. وهذه مشكلات ضخمة جديرة بالاهتمام. أنا لا أشكك بصدقك ولو لثانية واحدة.

طبّل بأصابعه على السطح الرخامي للطاولة: «لكن هذا يترك لي مشكلتي الخاصة».

- وما هي مشكلتك؟

- لقد تحدثت في الأمر مع إروين. والبقية أيضًا: الرئيس ورجال الجيش، لكن بدا أن إروين هو الوحيد الذي يفهم المشكلة حقًا.

- يفهم ماذا؟

- أنني لا أستطيع اقتحام حصنك.

ومدّ يده إليها في رفق، وراحته للأعلى. ثم أضاف: «لقد استنفدت كل الكلمات في التعبير عما أشعر به، لكنك لا تسمعينني حتى. حين تكلمت مع إروين في الأمر، أخبرني أن السبب هو أنه لا وجود للغة مشتركة بيننا». ضاقت عينا كارولين: «إنجليزيتي جيدة جدًّا».

- هذا ما قلته أيضًا، لكن بدا أن هذا ليس مقصده. لقد أخبرني عن حاله حين عاد من الحرب، وظل الجميع يرددون على مسامعه أن ينسى ما

مضى، وأن يجد شيئاً يجعله سعيداً ويتمسك به. قال إنه سمع الكلمات، حتى إنها بدت منطقية في نظره، لكنه لم يشعر بأي رابط بينه وبين ما يتكلمون عنه. ثم قال إنه التقى صبيّاً، وقد ساعده ذلك الصبي بطريقة أو بأخرى. وهذا ما جعله يفهم أن المضيّ قدماً ممكنٌ. وبعد ذلك شعر بأن هناك رابطاً بينه وبين التجاوز عن الماضي.

علّقت كارولين: «داشين. أذكره».

- حينها بدأت أفكر في أنك اضطررت إلى كبت كل مشاعرك، في أعماق أعماقك. وكان عليك أن تكوني باردة الأعصاب، أليس كذلك؟ لتتجاوزي أحداثاً مثل تلك التي مررت بها، كأن تشاهدي رأس طفلٍ صغير يشجب إلى نصفين بالفأس، وأناساً يحرقون أحياءً.

لم تحر كارولين جواباً.

أوما ستيف إلى نفسه مشجعاً، ثم ابتسم.

ثمة شيءٌ مختلفٌ حيال تلك الابتسامة. فتساءلت كارولين في نفسها: «ما الذي تغيّر؟».

- «قلبُ جمر». لم تصرّحي بمعناها قط، لكنني أظن أنني خمنتُ ما تعنيه. ظلّ يبتسم، وهو ينهض ويتجه إلى الإناء الفولاذي.

استغرقت برهة، ثم فهمت المغزى من كلامه. أدركت في قرارة نفسها: «لقد تصالح مع نفسه. هذا هو التغيير الذي طرأ عليه. تلك هي المرة الأولى التي أراه فيها سعيداً حقاً».

واقفاً أمام المنضدة، محافظاً على ابتسامته، التقط زجاجة عصير البرتقال وسألها: «مشروبٌ آخر؟».

أجابت بصوتٍ مبجوح: «لا. ما الذي تفعله؟».

- أنا سعيدٌ لأنك سألت. شكراً لك على التجاوب معي دون مقاطعتي. واثقة أنك لا تريدين شراباً آخر؟

هزّت رأسها بإيجاب.

- حسناً. لا بأس بذلك أيضاً.

أمسك بالإناء الفولاذي المملوء بخمر إيفركليير، وسكبه على رأسه.

فاحت الغرفة برائحة كيميائية نفّاذة للإيثانول النقي بنسبة 90%. وفجأةً فهمت كارولين ما يحدث: «هذا فتيل شديد الاشتعال».

وجّه ستيف كلامه إلى ناجا: «الآن يا حلوتي».

تحركت كارولين بسرعة كبيرة لإيقافه. لكن ناجا تحركت وهي الأسرع من بينهما، لتعرقل طريقها.

ابتسم إليها ستيف، هادئًا ودودًا: «قبل أن أصل إلى النيرفانا، ألتمس منك بكل تهذيب أن تنظري إلى الكائنات الصغيرة في هذا العالم بعين الرحمة».

أغلق عينيه، وبطريقة أو بأخرى استطاع الحصول على قدّاحة مارجريت.

ترددت أصوات: صليل. خدش. نقر.

وفجأةً تحوّلت كل اللحظات العظيمة والأبدية إلى لهيب أزرق. ظلّت ناجا تقطع المسافة بين كارولين وستيف؛ عاصفة هائجة من المخالب والأنياب لا يمكن اجتيازها. ولم يسع كارولين إلا المشاهدة، عاجزة لا تملك من أمرها شيئًا، واللهيب يذيب ستيف إلى شحم مشتعل، ثم يُحيله إلى رماٍ داكن. للمرة الأولى في حياتها أدركت أن البشر العاديين يحترقون بسرعة غير متوقعة. وفي أقل من دقيقة، كان ميتًا. حينها فكّرت: «ربما في ذلك تتجلى رحمة الرب». ومن وراء ذلك، الظلام الخارجي.

وحيدة الآن، شعرت بنظرات إيشا وآشا الباردة تخترقها.

وأحدهم يصرخ.

قصة جانبية خامسة



عملاق

1

ما من شك أن كارولين أعادت ستيف إلى الحياة. استغرق الأمر منها أسبوعين. كانت تحرز تقدماً في تعلم فنون الطب، لكن إتقان علاج الحروق صعب. بعدما أعادته إلى الحياة طلب منها زجاجتين أخريين من خمر إيفركاير. لكنها لم تستطع العثور على واحدة حتى. وبعد أسبوع حين هبطت إلى مسكنه وجدته ميتاً في حوض الاستحمام، وشفرة حلاقة إلى جانبه. اضطرت إلى تخدير ناجا لتستطيع الوصول إلى جثته. لم تستغرق في إحيائه هذه المرة سوى يوم أو أكثر بقليل، لكنها أخطأت في فصيلة الدم - خطأ مبتدئين، وهذا أمرٌ عادي لكنها انزعجت - وما إن عاد ستيف إلى الحياة حتى مات مجدداً بسكتة قلبية. استبدلت جهاز حلاقة إلكترونية مكان شفرة الحلاقة، وأعادته إلى الحياة للمرة الرابعة، لكنه في الليلة التالية ألقى على العشاء خطبته الصغيرة، «انظري بعين الرحمة»؟ ما الذي يعنيه هذا أصلاً؟ قبل أن يتجرع كوباً من منظف اللبالات مع قطعة اللحم المشوي. تركته ميتاً منذ تلك الحادثة. لم تعد تحتمل. ليس بعد الآن.

كان شهرًا أو أكثر قد مضى على ذلك. والآن هي منغمسة تمامًا في دراساتها. ذات يوم وبينما كانت تبحث في الإطار النظري لفيروسات الواقع، صادفت لفيفة جلدية في غير موضعها الصحيح. هناك وسط المجلدات البنفسجية الباهتة لفهرس الرياضيات، عثرت على لفيفة بنية. اتضح لها أنها تدور حول مهارة «ألشاك سابوليث».

تغيرت الموازين باكتشافها.

لم تكن مهارة ألشاك سابوليث ذات أهمية كبيرة في حد ذاتها. فهي من الناحية النظرية تتعلق بالتقنية التي عثرت عليها في العلامة المرجعية، تلك التي مكنتها من التحرك في المكتبة متخفية. والميزة الوحيدة التي تفوق بها على مهارة «ألشاك أوركون» هي سرعة التفعيل، لدرجة أنه من الممكن تفعيلها بكلمة واحدة فقط. وقد رأتها تُستخدم من قبل... لمرة واحدة.

- يوم التبنى.

تكلمت بصوتٍ خافت، لكن بدا أن الفضاء الشاسع للمكتبة ينقض على كلماتها ليتردد صداها عاليًا. نظرت إلى لفيفة الجلد في يدها وقرأت:

«بفضل دراستي للغة الحقبة التي ينطق بها كل ما في الكون، أتقنت مهارة ألشاك سابوليث، التي تجعل الأشياء البطيئة سريعة».

بسطت اللفيفة في يدها بضعة إنشآت أخرى. كانت عتيقة، مكتوبة قبل أن يصل الأب إلى ذروة قوته. وتقتصر على طقوس بسيطة لا تُستخدم إلا في حالات نادرة. ربما كانت لتقضي سنواتٍ، بل ألفياتٍ، دون أن تتعثر بها. صدفة؟ ربما. لكن في الأمور التي يحضر فيها ذكر الأب، تنتابها شكوك عميقة في أي مصادفة.

وفكرت: «لقد أراد أن أقع على هذه».

على الجانب رسمٌ حبري بخط اليد لرجلٍ يفوق في عدوه سرعة وميض البرق، ورسمٌ آخر، أقل بهوتًا، للرجل نفسه يشتعل نارًا ويصرخ. اسودَّ وجهها، وقالت، مختبرةً مخارج الأصوات: «ألشاك سابوليث».

«لكن قارب الألسناك بوجل! إنه فنٌ محفوظ بالمخاطر حتى في أزهى الظروف. قد يكون نبراساً في الظلام، وقد يكون هوةً سحيقة! لا يسلكه إلا الحكماء...».

والى جانب الحبر القديم الباهت، رأَت الخربشة التالية بقلم حبرٍ جاف:

كارولين،

أرضية العقيق 3.7-3-12-5--7

— الأب

هذه رموز مكتبية: أرضية العقيق، القطر السابع، الفرع الخامس، الخزانة الثانية عشرة، الرف الثالث، المجلد الثالث من اليسار. الفصل السابع. جأرت الدماء مندفعَةً في أذنها. فهمست بصوتٍ خافت للغاية: «الأب؟». لم تتلقَ جوابًا.

ثم.. كأنها بركان ثائر يهدر، ألقت بالمجلد البني فوق أكوام الكتب. مما جعل أحد الموتى الذي كان ممسكًا بمنفضة ريشية يفرُّ هاربًا كأنه يعيش كابوسًا.

يوم التبني. هذا ما كانوا يطلقونه على ذلك اليوم: يوم مات آباؤهم، يوم توقفوا عن كونهم أمريكيين وأصبحوا مكثبيين، يوم أصبحوا جزءًا من عالم الأب. قبل ذلك، لم تكن جاريسن أو كس إلا ضاحية عادية. قبل ذلك، وبقدر ما يعرفه الآخرون، كان الأب رجلًا عاديًا يسكن شارعهم؛ كان الأب آدم بلاك وحسب.

ثم تعرَّضوا لهجوم. لم يكن هجومًا ذكيًا، لكنه قويٌّ جدًّا وسريعٌ في تنفيذه. تفاجأ به الأب، أو على الأقل تظاهر بذلك، لدرجة جعلت كارولين تعتقد أن الهجوم قد يقتله. لم يكن احتمالًا كبيرًا، لكنه احتمال وارد على أي حال. كان ذلك الاحتمال، ذلك الشك، وما انطوى عليه، هو ما منحها في النهاية الشجاعة للتصرف. الأب ليس عليمًا، ليس بكلي القدرة. قد يتفاجأ أحيانًا. وإذا كان هناك احتمال لمفاجأته، فهذا يعني أن به شيئًا من ضعف البشر.

وكل ما حدث بعد ذلك قد انبثق من تلك الفكرة.

التهمها شعورٌ بالخدر أفقدها القدرة على التركيز. فسارت من غير هدى عبر الممر الرئيسي لأرضية اليشم، ومنها إلى واجهة العقيق للهرم. تتحرك وحيدةً وسط فضاءات شاسعة خاوية تتجه صوب الكتاب الذي حدّده. تبين أنها وصلت إلى قسم العطارة، جزءٌ من فهرس علوم جينيفر. عُنون المجلد بـ «منوعات من الأكاسير المفيدة». أما عنوان الفصل السابع فكان «عين الذاكرة الخالدة». ثم قرأت:

تعليمات

ما إن يتم تحضير السائل كما هو موصوف، الجأ إلى مكان منعزل. ومن هناك تبدأ تأملاتك. ستجد أن المستحضر ييبُ في عقلك كل نطفة من ذكرى؛ ستشعر كأنك تعيش تلك الذكريات بشحمك ولحمك، وتشهدها بعينين يقظتين.

أخذت الكتاب من موضعه. ومع قليل من البحث في الأرفف القريبة، أضافت إليه كتابين آخرين: أحدهما في الكيمياء، والآخر يتناول تقنيات المختبر. هبطت درجات السلم إلى داخل العطارة، وبدأت في جمع المكونات.

2

لم تكن كارولين كيميائية بارعة بعد؛ استغرقت ثلاثة أيام مضنية قبل أن تتعلم ما يكفي من الأساسيات حتى تستطيع فقط أن تفهم ما هو وارد في وصفة المستحضر. مضى أسبوعٌ آخر، طويل، لم يغمض لها جفن تقريباً، قبل أن تكمل دفعة من الأكسير قد اجتازت اختبار النقاء المطلوب ولم تقتل فأراً.

ولما اطمأن قلبها وهدأ عقلها أنها قد نجحت في إعداد المستحضر، عادت إلى جناحها، وأكلت وجبةً كبيرة، ثم غطت في النوم لاثنتي عشرة ساعة. وفي الصباح التالي –أو ربما كان المساء! صار من المستحيل التفرقة حقاً، كما

أنه مَنْ يهتم إن كنَّا صباحًا أم مساءً- عادت إلى مكتبها في القاعة الكبرى وجلست هناك لبرهة، تحديق إلى القارورة الزجاجية الصغيرة التي تحوي ثمار جهودها. وبرفقٍ وحرصٍ شديدين من ألا تسكب محتواها، نزعت سدادة الفلين، ووضعتها على سطح مكتبها. ثم قطعت ليمونة إلى أربعة أرباع، ووضعتها إلى جانب السدادة.

احتوت القارورة الزجاجية على ملعقتي طعام من سائل بني لاذع، فاح برائحة الدموع. تجهم وجهها وهي تقذف بالسائل إلى حلقها مثل دفعةٍ من الخمر، ثم عضت على واحدة من أرباع الليمونة لتستبدل المذاق اللاذع من فمها.

«ومن هناك تبدأ تأملاتك».

- حسنًا. لا بأس.

تذكرت كارولين أن يوم التبرني كان إجازة من نوع ما. يومٌ هو واحد من نقاط التحول في حياتها، بل وربما نقطة التحول الوحيدة في حياتها، لكنها لم تستحضر ذكره منذ سنواتٍ طويلة. فكَّرت كارولين: «كنَّا في أواخر الصيف، والطقس ما يزال حارًّا طيلة النهار، لكنك لو قضيت الليل في الهواء الطلق، قد تشعر أحيانًا بنفحات الشتاء الأولى، نسيمٌ يهب علينا من الشمال». كان العام الدراسي قد بدأ قبل أسبوعٍ فحسب، وتذكرت كم كان وضعًا سخيفًا؛ أن يبدأ العام الدراسي، ثم تأتي عطلةٌ بعد أسبوعٍ واحد؟ كم كان توقيتًا سخيفًا أن نحظى ...

- بعطلة عيد العمال!

صرخت كارولين بالكلمات. ذكرى مثالية لا شك في ذلك. قبل ساعةٍ فحسب، ما كنت لتستطيع تذكر ذلك الاسم، حتى لو كانت حياتها على المحك. عيد العمال عام 1977. لا بد أنها في الثامنة من عمرها تقريبًا. استيقظت في غرفة نومها في منزل والديها. وإلى جانبها على الفراش دمية محشوة بلونٍ أخضر على شكل ضفدع. فكَّرت كارولين: «كيرمت. اسمه الضفدع كيرمت». وإلى جانب كيرمت تجلس الآنسة بيجي. كانت قد نامت أكثر من المعتاد لأنها سهرت الليلة الماضية لوقتٍ متأخر تشاهد مسلسل The Waltons على التلفاز.

داخل ذكرياتها، هبطت كارولين إلى الطابق السفلي. كانت أمها، امرأة شقراء جميلة في عمر كارولين نفسه الآن، تفعل شيئاً في المطبخ. اتجهت الأم إلى الرف وأخذت منه علبة رقائق محمصة، لأن كارولين كانت أقصر من أن تصل إلى الرف بنفسها، ثم عادت إلى طهيها.

ما عادت ذكريات كارولين تتمخّض عن أي ذكرى واضحة لوجه أمها. ولا تذكر منها إلا سلسلة من الانطباعات: ضحكات.. صوف الكشمير.. رذاذ الشعر.

حتى هذه اللحظة. فكّرت: «مرحباً أمي! سعدتُ بلقائك». وحيدة في فضاء المكتبة، ندّى ثغرها عن ابتسامة رقيقة.

ورغم كل شيء، تنفست الصعداء حين ظلّ وجه أمها غير مألوفٍ لها. ليست واثقة مما كانت ستفعله لو تبين أن أمها واحدة من الموتى. وكم سعدت لأنها لم تكتشف شيئاً كهذا. بذلت مجهوداً مضمناً لتُبقي على وجه أمها محفوراً في ذاكرتها، وهي تفكّر: «أنا آسفةٌ يا أمي. هذه المرة لن أنساكِ».

بالعودة إلى العام 1977، حين أنهت كارولين الصغيرة رقائقها المحمصة، ساعدت أمها في إعداد كمية كبيرة من سلطة البطاطس استعداداً للنزهة التي سيخرجون فيها لاحقاً. جهّزتا البطاطس للسلق، ثم قطعتا خضراوات أخرى، وخلطتا كل ذلك معاً في إناء. وقبيل إنهائهما، عاد أبوها الحقيقي من متجر المعدات والأدوات. كان رجلاً وسيماً، يكبر أمها ببضع سنواتٍ فحسب. بدأ الشيب يغزو شعر صدغيه. لم تناديه بـ «الأب» بل بـ «أبي» وهو ما بدا مألوفاً ومبهجاً لأذني كارولين البالغة. قبّلتها الصغيرة على خده. فشعرت بلحيته الخفيفة خشنة على شفثيها. لم يستحم قبل خروجه، ففاح برائحة العرق، ورائحة أخرى خفيفة هي آثار كولونيا أولد سبايس التي استعملها يوم أمس.

حين صارت سلطة البطاطس جاهزة، غطت كارولين الإناء بالبلاستيك الشفاف، وحفظتها في الثلاجة. ساعدت أمها في التنظيف، ثم عادت إلى غرفتها لتمضية بعض الوقت. لن تبدأ النزهة قبل الظهرية. والآن وبعد مضي ربع قرن من الزمان، تتوق توقاً مؤلماً للبقاء في ذلك المطبخ، لتكون برفقتها مجدداً ولو لمرة أخيرة، لكن الذكرى لا تقبل التغيير. لطالما كانت كارولين طفلة مولعة بالكتب، حتى قبل دخول الأب إلى حياتها. فكانت تفضل قضاء الوقت في غرفتها تقرأ.

قبيل الظهر، فرك ثلاثتهم كريماً واقياً من الشمس على أجسامهم، ثم عبروا الشارع نحو الحديقة الصغيرة خلف المنازل. مدَّ «أبوها» يده فأمسكت بها، وعشَّقت أصابعها الصغيرة بين أصابعه الكبيرة. تذكرت أن راحتيه خشنتان. وفكرت: «لا بد أنه كان يعمل بيديه. لكن ماذا كان يعمل؟». لم يخطر أيُّ من هذا ببالها يوم النزهة. والآن تلاشى كل شيء، تلاشى اسمه، والحكايات التي قصَّها عليها، وكل الأوقات الأخرى التي جمعتها معاً. تلاشى كل شيء من ذاكرتها.

ابتسم إليها في شروء. حين تذكرت ابتسامته، حدثت نفسها بأن له وجهًا طيبًا. وفي تلك اللحظة، تحررت الدموع من مدامعها وانسابت على وجنتيها دون أن تشعر بها.

أخذهم أقصر الطرق إلى المتنزه عبر فناء خلفيٍّ لرجلٍ يطلقون عليه اسم آدم بلاك. كان في شرفته الخلفية، مرتدياً سروالاً قصيراً ومئزرًا وقبعة طاهٍ. وعلى البلاط الخرساني الذي هو بمنزلة فناء منزله الخلفي تركز شوايته الغريبة، مجسمًا ضخماً من البرونز على شكل ثور. تذكرت كارولين كم كان هذا الشيء مثيراً لإعجابها حين كانت طفلة. وفي أحد الأيام العاصفة، تسللت إلى فناء منزل هذا الرجل ولمست بيدها الصغيرة الساق الناعمة للثور، ورأت انعكاسها في بطنه اللامع. أما الآن، فالدخان يتصاعد من فتحتي أنف الثور. صاح أبوها: «مرحباً آدم. أتمانع إن عبرنا خلال فنائك؟».

رفع «آدم» يده للتحية: «مرحباً بك أنت!».

تكلم بإنجليزية جيدة، حاول بها إخفاء لهجته البيلابية المعهودة.

- لا مانع بالطبع. تفضلوا.

توقفوا في الطريق لدقيقة يتبادلون فيها الحديث. حينها فكرت كارولين: «هذا ما يفعله الجيران الجيدون». وحتى قبل عقدين من الزمان، لم يتغير شكل الأب عما كان عليه في آخر مرة رآته.

أبوها: «يا رجل، هذه رائحة شهية! ماذا تشوي؟».

- القليل من كل شيء. حالياً معظمها لحم كتف الخنزير والبقية لحم الضأن. ينبغي أن تكون جاهزة في خلال ساعة أو أكثر. إنني أدخن اللحم طيلة الليل. وحين يجهز لحم الخنزير، ربما أشوي دفعة من البرجر.

- يوماً ما ستعلمني وصفة الطهي، صحيح؟ أصدقك القول، تلك المشويات التي أعددتها العام الماضي كانت أفضل مشويات أكلتها في حياتي.
- بالتأكيد. لمَ لا؟ لديّ مزاجٌ جيد للتدريس مؤخرًا. (وخز اللحم بشوكة خشبية منقوشة). السر كله في أن تبدأ الشواء بنارٍ حامية، أشد ما تستطيع. فكما ترى تلك النيران ستقتل الجراثيم. كما أن هناك جانبًا احتفاليًا. النيران تمنح المرء شيئًا للتركيز عليه. (فرك الثور ببراجمه وهو يبتسم ابتسامة عريضة). لذلك، نعم كما قلت لك. النار. تلك هي الخطوة الأولى.
- حقًا؟ أهذا كل شيء؟
- بالطبع هناك بعض التوابل التي توضع على اللحم أيضًا، اقتبسستها من وصفة فارسية قديمة.
- هذه المرة سمح لشيء من اللكنة البيلابية أن يطفو على لسانه في كلمة «وشصفهيببي».
- ضحكت كارولين ذات الأعوام الثمانية: «أنت تتكلم بطريقة مضحكة!».
- زجرها أبوها: «كارولين!».
- آدم بلاك: «لا، لا بأس».
- قرفص أمامها على ركبتيه ليصير على مستوى بصرها. تذكرت كيف تلاشت الضحكات من حلقها حين رأت عينيه. ثم قالت: «لا...». وهي تدفن وجهها في ساق أبيها.
- آدم بلاك: «لا تخافي (ومدّ يده ليزيح خصلة شعرها عن عينيها) أنت محقة. أحيانًا فعلًا أتكلم بطريقة مضحكة، لكن معظم الناس لا يلاحظون ذلك. لديك سمعٌ مرهف».
- شكرًا لك.
- أمكنها أن تستشف من نبرة صوته رغبته في طمأننتها، لكنها لم تطمئن. ولا حتى بأقل قدر ممكن.
- كيف ينبغي أن أنطقها يا حبيبتي؟
- أطلت كارولين من وراء ساق والدها: «وصفة».
- وشصفهيببي.

ضحكت كارولين رغماً عنها: «لا، بل «وصفة»!».

بدا أن الضحكات ترضيه، وجعلت وجهه يفعل مجدداً بتلك الابتسامة الرقيقة: «يا رفاق أتودون البقاء والثرثرة معي لبعض الوقت؟ لا أظن أنهم رتبوا المكان في المتنزه بعد. لدي زجاجات جعة في المبرد، ومشروبات غازية لأجل ابنتك».

نظر والدها إلى المتنزه، حيث يثبّت بعض الرجال شبكة الكرة الطائرة.

سألت كارولين الصغيرة: «أبي، هل تسمح لي بمشروب غازي؟».

كانت تفضل سبرايت، لكن لا يسمح لها عادةً بشربها.

فكّر أبوها لبرهة: «نعم، بالتأكيد. لمَ لا؟ أحضر لي زجاجة جعة أيضاً».

كانت كارولين قد جلبت معها كتاباً بالطبع. فجلست على كرسي حديقة معدني للقراءة ريثما يثرثر الكبار.

سأل أبوها: «إذن، أيمكنني أن أسألك من أين حصلت على تلك الشواية؟ لم أرَ مثيلاً لها من قبل».

- لأصدقك القول، أنا لا أذكر. ربما من مكان ما في الشرق الأوسط. لقد اعتدت التسكع هنا وهناك حين كنت شاباً يافعاً.

- حقاً؟ وماذا كنت تفعل؟

- أقضي الخدمة العسكرية بشكل عام. يبدو لي أنني جبت كل تلة في آسيا في وقتٍ أو آخر.

- صدقاً؟ رائع. أراهن أن لديك بعض الحكايات.

- القليل منها.

انتظرا مزيداً من التوضيح، لكنه لم يتطوع لإخبارهما بشيء.

- هل هذا ما تفعله الآن؟ لم نعد نراك كثيراً هذه الأيام.

تعالت ضحكاته: «لا، لا. توقفت منذ سنوات. الخدمة العسكرية لعبة حماسية للشباب. في الواقع أنا في مرحلة التقاعد».

- حقاً؟ تبدو صغيراً على التقاعد.

- هذا لطف منك. لكنني أكبر مما يبدو عليّ.

- إذن، هل تمانع إذا سألتك: من أي وظيفة تتقاعد؟

- لا أمانع بالتأكيد. أنا رئيسٌ لشركة صغيرة. أعني، صغيرة لكنها مؤثرة.
نعمل في مجال الكتب، ويمكنك القول إنه أمرٌ متوارث في العائلة.
- ممتاز. وما رأيك بهذا المجال؟

- عمل ممتع. لكنه قاسٍ بعض الشيء. هذه الصناعة شديدة التنافسية.
وقد يواجه خليفتي صعوبات كثيرة، وبخاصة في السنوات القليلة الأولى.

- أوه، هل اخترتَ خليفتك بالفعل؟
- نعم. في الحقيقة، إنها فتاة. استغرقتُ وقتًا طويلًا لأعثر على الشخص الصحيح. والآن، لا يبقى إلا تدريبها فحسب.

لم تذكر كارولين في ذلك الوقت، ولم تذكر فيما بعد، أن آدم بلاك كان ينظر إليها مباشرةً وهو يتكلم. كان ثمة شيءٌ حيال تلك النظرة في عينيه قد أيقظ غريزة الأمومة في قلب أمها، فوضعت ذراعها حول كتفي كارولين الصغيرة. ولم تعلم حينها أنها آخر لمسةٍ تجمعهما.

والآن.. في حاضرها، تجلس كارولين وحيدة في قلب المكتبة فاغرةً فاهًا. تفكر: «خليفة؟ اختاره؟ مؤكد أنه لا يقصد...».

سألت والدة كارولين في تهكم وهي تمازح زوجها: «ومن هي الفتاة المحظوظة؟».

وهو ما عكس بعض الخلافات البسيطة حول قضايا النسوية بينها وبين زوجها.

- اسمها كارولين. وهي ابنة أختي. أعني، نوعًا ما. في الحقيقة هي قريبةٌ من فرع بعيد في العائلة. لكني أرى كثيرًا من نفسي فيها.

علّق والد كارولين: «حقًا؟ هذه مصادفة غريبة. هذا هو اسم ابنتنا أيضًا».

أبدى آدم بلاك لا مبالاة وهو يقلب الضلوع في الشواية بالمغرفة: «لا تقلها!».

ازدرد أبوها جرعةً من زجاجة جعته: «إذن، ما الذي تتضمنه عملية التدريب بالضبط؟».

- في الواقع، وإن لم تمنع، فأنا أفضل ألا أبحر بكثير من التفاصيل في هذا الأمر. أسرار المهنة وما إلى ذلك.

- صحيح؟ لا بأس. لا مشكلة بالطبع. أفهم ما تقصده.

لكن الواضح أنه لم يفهم.

استطرد آدم بلاك: «مع ذلك يمكنني القول إن أصعب جزء في التدريب هو اجتيازه دون أن يتأثر قلبها». ولمّا رأى النظرة على وجه أمها، أضاف: «أعني من الناحية المجازية».

- عملٌ قاسٍ، صحيح؟

- آه، فعلاً. بعض المنافسين وحوشٌ حقيقيون.

قاطعه أبوها متسائلاً: «حقاً؟ وما هو بالضبط...».

تجاهل آدم بلاك مقاطعة حديثه، لكن شيئاً من الحزم قد تسلل إلى نبرته وهو يستطرد: «لكن، ليس هذا ما يقلقني. إنها تشبهني تماماً. ستفعل ما تراه ضرورياً، كل ما عليّ أنا فعله هو أن ألفت انتباهها».

افتترّ ثغره عن ابتسامة وهو يقلب شرائح البرجر. وعيناه تبرقان بالحماس. بادلته الأم ابتسامة متوترة. والأب يرتشف جعته في غفلة.

- الجزء الأصعب سيأتي لاحقاً.. بعد أن تنتصر. حين كنت شاباً، كانت الحرب هي الهدف الأسمى في حياتي. (نظرة الأب الثاقبة تخترقها). قدّمت كل ما أملك في نفسي لتحقيق أهدافي. ولم أدرك ما خسرت إلا بعد فوات الأوان. وريثما أدركت ما حدث، كان كل شيء قد ذهب أدراج الرياح. (رفع كتفيه في حسرة). ربما تكون الفتاة أكثر حكمة مني.

في أدغال ذكرياتها العتيقة، تذكرت غمزةً من عينيه لها. أما الآن.. في الحاضر، شعرت كارولين بالدوار.

ضاعت عينا أمها. لم ترَ المرأة غمزة عينيه، لكن حديثه الأخير قد دفع بمؤشر الأمومة إلى أقصى درجات التوتر. حينها نطقت: «حسناً. أظن أنه يجدر بنا الذهاب».

أجاب أبوها: «لكني...».

قاطعته بلهجة باردة: «لا نريد أن نأخذ الكثير من وقت السيد بلاك يا

عزيزي».

- آه. مم، صحيح. (ابتسم أبوها إلى آدم بلاك). حسنًا، شكرًا لك على الجعة. هل ستأتي للانضمام إلينا؟ وربما المشاركة في مباراة كرة طائرة؟

بادله آدم بلاك الابتسامة: «سأوافيكم بعد دقيقة. أريد أن أنهي تسوية لحم الخنزير هذا حتى يصبح لونه محمرًا».

تبادل والدا كارولين نظرة ذات مغزى، ثم قال أبوها: «حسنًا. نراك لاحقًا». وأخذ بيد كارولين وهبطوا التلة معًا.

3

في تلك الأيام، ضمت جاريسن أوكس منطقة عامة شبيهة بمتنزه، في رقعة تحولت إلى بحيرة في حاضرتنا اليوم. كانت منازل الضاحية تطوّقها، مما يمنح الجميع شعورًا وهميًا بأن لديه فناءً خلفيًا مساحته ثلاثة أفدنة. امتلأ المتنزه بالناس؛ بالغون يجلسون على مقاعد التنزه ويشربون الكولا أو سبرايت من زجاجات خضراء أو يدخلون سبائر تاريتون. وأطفال يتجمعون أمام الأراجيح وقضبان التسلق الخشبية. انتصب منزل آدم بلاك على قمة أعلى تلة في الحي، لذلك من تلك النقطة، كان على كارولين التي تمسك بيد والدها أن تشق طريقها إلى أسفل منحدر متوسط الانحدار لتصل إلى المتنزه. كانت قبضة والدها لطيفة على يدها ومحكمة في الوقت نفسه. وقد أنقذها من السقوط مرةً واحدةً على الأقل. ولمّا وصلوا إلى سفح التلة، نفضت يدها من يده للمرة الأخيرة.

صاحت كارولين الصغيرة: «انظر يا أبي، إنه ستيف!... مرحبًا ستيف!». كان ستيف يكبرها قليلًا. وفكّرت أنه في الحادية عشرة أو ربما في الثانية عشرة. حين رآته كان منهمكًا في اللعب مع زمرة من أطفال آخرين.

ثم رأت ديفيد، يمد يده ليساعد طفلًا أصغر منه قد سقط على العشب. وهو يقول: «هل أنت بخير يا مايك؟». بصوت عطوف، ما إن سمعه الولد الأصغر، الذي بدا على مشارف البكاء، حتى نهض على قدميه وابتسم. بادله

ديفيد الابتسامة، ثم لكزه بلطف وقال: «دورك الآن!». وانطلقا معًا يملآن الهواء بضحكهما.

ثم رأت مارجریت أيضًا. بدت أكبر عمرًا من البقية، ربما في التاسعة أو العاشرة؟ كانت تقفز على شبكة الحجلة المرسومة على أرضية ملعب كرة السلة بالطباشير الأصفر. تتأرجح جديلتها تحت ضوء الشمس وهي تقفز. وتتلاّأ بشرتها من فرط المجهود، وردية وحيوية.

ستيف: «مرحبًا كارولين!».

شعرت بشيء يقفز فرحًا بداخلها ما إن سمعت صوته. في تلك الأيام عاش ستيف في المنزل المقابل. فكّرت: «كان آباؤنا أصدقاء. وأحيانًا نتناول العشاء معًا. وفي ذلك الوقت رأيته «لطيفًا»». تذكرت أنها ذات مرة التقطت قلمًا وكتبت اسمه واسمها معًا على ورق مقوى وردي اللون، ثم أحاطت اسميهما بقلب. ولم تخبر أحدًا بأي من هذا.

نظر إليها أبوها مستغربًا وربما قلقًا بعض الشيء. ثم لوّح إلى ستيف: «مرحبًا!».

بادله ستيف التحية: «مرحبًا يا سيد سوباسكي!».

- بابا، أيمكنني اللعب مع ستيف؟

- أوه يا عزيزتي، لكن ستيف لا يريد ...

- لا مشكلة يا سيدي.

حين نطق ستيف بتلك الكلمات تسارعت دقات قلب كارولين ذات الأعوام الثمانية. ثم وجّه ستيف كلامه إلى كارولين: «هل تريدان الذهاب إلى «ملعب الحصى» ورمي بعضهما؟».

كارولين: «بالتأكيد!».

سأل أبوها: «تذهبان إلى أين؟».

كارولين: «ملعب كرة السلة. هذا هو الاسم الذي نسميه به».

أطلقت هي وستيف مسميات مختلفة على بضعة أماكن في الضاحية. فملعب كرة السلة، الممهّد بخليط من الأسفلت الأسود والحصى الخشن يُسمى بـ «ملعب الحصى». وفي غرفتها علّقت خريطة رسمت بأقلام تلوين وحددت عليها تلك الأسماء الجديدة. مثلًا: أطلقوا على الغابة في نهاية الطريق «أحراش

موتلاند المفقودة». وُسِّمِي النهر الذي يجري في الغابة بـ «نهر ققط القفز»
بعد وقوع حادث مضحك. وهكذا.

عَلَّقَ أبوها: «آه. صحيح. حسنًا... استمتعا بوقتكما».

سارا معًا إلى ملعب كرة السلة، وفي أثناء سيرهما راح ستيف يرمي الكرة
لترتد إليه.

تساءلت بشيء من القلق: «كيف حالك؟».

لم تره منذ شهور. ففي اليوم التالي لانتهاء العام الدراسي، تعرَّض والد
ستيف لحادث سيارة. وظلَّ السيد هودجسون في المشفى لأسبوعٍ كامل، ثم
مات. وهكذا قضى ستيف وأمه الصيف برفقة جده وجدته في ويسكونسن.

- بخير. أنا سعيدٌ لعودتي. (راحت الكرة ترتد على الأسفلت). إلى ملعب
الحصى كما عهدناه.

ليس بخير، وهو معذور في شعوره. كان أسوأ ما يمكن أن تتخيله كارولين
أن يموت أبوها. ولمَّا حاولت تصور شيءٍ مشابه قد يحدث لها، شعرت بفجوةٍ
لا قرار لها تنفتح في عقلها.

- أنتَ بخير حقًا؟

- نعم. أقصد أن الأمر محزنٌ. لكنك تتأقلم.

رفعت عينيها إليه في إجلال. بالنسبة إلى كارولين، وهي ابنة ثمانية أعوام،
بدا أن تلك الجملة تحمل في طياتها كل ما قد يُعرف من ألوان الشجاعة.

- وأنتَ تأقلمت؟

أجابها بإيماءة من رأسه.

- كيف؟

- تتأقلمين وحسب. التأقلم على كل شيء ممكن إذا لم تستسلم. (افتَرَّ
ثغره عن ابتسامة شاحبة). على الأقل هذا ما اعتاد أن يردده أبي على
مسامعي.

- رائع!

- مم، هل تمانعين لو تحدثنا عن أي شيء آخر؟

- لا مشكلة.

حاولت التفكير في شيءٍ لتقوله، لكن في كل مرة تجد الكلمات المناسبة تنفلت منها في فجوةٍ بلا قرار. وبعد صمتٍ طويل، قالت بصوتٍ خافت: «مثل ماذا؟».

رسم ستيف ابتسامة حانية على وجهه: «ماذا تقرئين هذه الأيام؟».

كان ستيف الصبيّ الوحيد في الضاحية الذي يشاركها شغف القراءة، رغم اختلاف ذوقيهما. لقد أحب القراءة عن المركبات الفضائية والأبطال الخارقين بينما هوت كارولين قراءة قصص الحيوانات وقصص بيفرلي كليري. لكنهما استمتعا بالحديث معًا عما يقرآنه، ومن وقتٍ لآخر، يلتقي ذوقاهما في نقطة مشتركة.

أجابت: «السفر في الزمن. هل قرأته؟».

- نعم! كتابٌ رائع حقًا. أتعرفين أن هناك جزءًا ثانيًا؟

- ماذا؟ أتقصد أن به الشخصيات نفسها؟

- نعم، معظمها. سأحضره لك إن رغبتِ في ذلك.

- شكرًا لك!

مدَّ يده إلى جيبه: «أما في الوقت الراهن، أحضرت لك هذا الكتاب. أعتقد أنه سيعجبك».

أمعنت النظر في الغلاف: «الجمال الأسود. هذا الكتاب يحكي قصة الحصان، صحيح؟».

- نعم.

- هل هو حزين؟ مارجریت قالت إنه حزين.

- قليلًا. مم، أعني نوعًا ما. وفي النهاية ...

- لا تخبرني!

- آسف.

رفع ستيف الكرة ليركلها، ثم تجمَّد في مكانه ومال برأسه منصتًا: «هل سمعتِ ذلك الصوت؟».

- سمعتُ ماذا؟ لا ...

قطعت كلامها في تلك اللحظة، لأنها فعلاً سمعته. صفيرٌ في السماء يزداد حدَّةً ويقترب شيئًا فشيئًا. نظرت إلى الأعلى، فرأت أثر طائفةٍ طويل ورفيع

على شكل قوس. في بادئ الأمر كان عاليًا في السماء، لكنه ظلَّ يقترب وهي تراقب المشهد، ثم اقترب أكثر فأكثر.

علَّق ستيف: «أظن أنه قادم نحونا».

كان محققًا، ولسببٍ أو لآخر وهو ما أثار خوفها. مدَّت يدها لتمسك بيده، ثم ...

... توقف ...

... كل شيء ...

تذكرت كارولين: «لقد أتقنت مهارة الشاك سابوليث، التي تجعل الأشياء البطيئة سريعة». في نظر الأطفال، بدا وكأن العالم قد تجمَّد في مكانه. رأت والدها يتكلم مع السيد كريج في نهاية الشارع. تجمد فم والدها مفتوحًا في منتصف جملة ينطق بها. والسيد كريج ينفث دخان سيجارته، فظلَّت سحابة الدخان عالقة في الهواء.

كانت نقطة البداية لأثر الطائرة متجمدة من فوقهم. تحلَّق ساكنة على بعد مئة قدم فوق رؤوسهم. حسنًا، لم تكن ساكنة تمامًا. فبينما كانت كارولين تراقب المشهد، تحرَّك هذا الأثر إنشًا أو أكثر، ثم إنشين آخرين.

رأت عيناها الصغيرتان ما هو قادم نحوهم. ظنَّت في بادئ الأمر أنه كبسولة فضائية، مثل تلك التي رأتها على التلفاز. لكن ما إن أمعنت النظر فيها من كُتب، أدركت أن تخمينها خاطئ. بادئ ذي بدء، ما رآته كان صغيرًا جدًّا، صغيرًا جدًّا لدرجة لا تسمح له بحمل رجل. كما أنه كان خاليًا من النوافذ. لكنه يشبه كبسولة فضائية إلى حدٍّ كبير؛ مخروطًا بسيطًا من المعدن. كان يحمل علمًا أمريكيًّا، وكتابة على جانبه: USAF-11807-A1. وتحتها وجهٌ مبتسم مصبوغٌ بحمرة قانية وكلمات تقول: «مرحبًا يا آدم!».

تذكرت تلك الخاطرة التي راودتها: «لقد أرسلوا هذه من أجله. إنها من أجل آدم بلاك. لكن ما هذا؟». صارت الآن تعرف. كان ديفيد هو مَنْ أوضح لها ذلك بعد بضع سنوات. «إنه صاروخ بيرشنج. وهو سلاح، محمَّلٌ بكثير من مواد يطلقون عليها اسم «مكافئ TNT». تستخدم عادة في تفجير المدن. وظنَّ الأمريكيون أنها قوية بما يكفي لقتل الأب».

في الماضي، لم يكن لدى كارولين أي فكرة عما تنظر إليه -ألعاب نارية؟ ربما- لكن، أيًّا كانت طبيعة ذلك الاستعراض، فقد اعتقدت أنه جميل. وتذكرت

شقًا صغيرًا قد تصدع في باطن الشيء الذي يحلّق فوق رؤوسهم، تذكرت
البريق المتلألئ بداخله كأنه بيضة على وشك أن تفقس شيئًا سحريًا.

نظرت إلى ستيف. كان يعلّق بشيء، أو تتحرك شفتاه لأي سبب، لكنها
لم تسمع شيئًا. أدركت في حاضرها: «كنّا سريعين جدًا. جعلنا الألسناك
سابوليث أسرع من الصوت».

ازداد حجم الشق وهي تراقب المشهد. وراح الضوء بداخله يتدفق إلى
الخارج كأن الفجر يشرق من وراء الجبال. وابتلع المعدن الذي كتبت عليه
أحرف كلمة USA.

غطى ستيف أذنيه بيديه ونظر إلى أعلى التلة. بعد لحظة سمعت كارولين
الصوت نفسه. تردد بداخل رأسها صدى صوت آدم بلاك. ففكرت كارولين:
«لا، لم يعد آدم بلاك. لقد أصبح الأب الآن».

قال الأب: «من يريد منكم البقاء على قيد الحياة، فليحتّم خلفي».

لم يعد يتحدث بنبرة الكهل الحليمة البهيجة التي خصّ بها أبوها الحقيقي،
بل تحدث بصوته الحقيقي، الصوت الذي تتصدع له الجبال وينبثق لأجله
النور من الظلام. وتردد الصوت في عقول الأطفال مثل الرعد.

عند سماع الصوت، تحرّكت كارولين غريزيًا نحو ستيف لحمايته. حينها
وفي تلك اللحظة لاحظت الاختلاف الطارئ. لمّا تحركت، شعرت بحرارة في
أجزاء بشرتها التي تعرّضت للهواء، مثل تلك المرة التي رفعت يدها فوق فتحة
تدفق الهواء في مجفف الشعر وأحرقت أصابعها.

الآن، في حاضرها، فهمت ما كان يحدث. وحدثت نفسها: «الاحتكاك!
الاحتكاك مع الهواء». تحت تأثير الألسناك، ازدادت سرعتهم لدرجة جعلت
الهواء نفسه يشتعل حرارة.

ومع ذلك، لم تشعر كارولين الصغيرة بشيء سوى الألم. نظرت وستيف
إلى بعضهما فاغري الأفواه غارقين في رعب لا مثيل له. وعلى بعد خمسين
مترًا فوق رأسيهما كانت شمسٌ صغيرة ساطعة تنبض بالحياة.

صرخت تنادي أباه. تحرّكت شفتاه بلا صوت. أخذت خطوة نحوه، وهي
تشعر بالدفع الغريب على وجنتيها مجددًا كلما تحرّكت. كان أبوها جامدًا
كالصخر، وزجاجة الجعة التي أعطاه إياها آدم بلاك مرفوعة أمام فمه.

لقد كان واقفًا أسفل كرة النار مباشرةً.

لاحقًا، وبعدما تعلّمت كيف تصنع الألشاك سابلويث بنفسها، أدركت لماذا تأثرت هي به ولم يتأثر هو. يشعر بتأثيرات الألشاك الموتى أولاً، ثم الأطفال، وأخيرًا الكبار. لذلك كان مصير أبيها محتومًا. حتى في حاضرها لا يسعها التفكير في شيء من شأنه أن ينقذه.

أما هي فكانت في خطر أقل قليلًا، رغم أنها لم تدرك ذلك بعد. لكن سرعان ما تبين ستيف الأمر. فهزّ كتفيها وأشار إلى كرة النار فوق رأسيهما بعينين متسعيتين. ثم أشار إلى آدم بلاك -الأب- منتظرًا إياهم على جانب التلة.

نظرت كارولين إلى كرة النار في السماء؛ كانت تزداد حجمًا. فأومأت إليه في تفهّم، وانطلقت رفقة ستيف نحو التلة.

لكن سرعان ما ظهرت لهما المشكلة الحقيقية من فورها. لقد انطلقا معًا في عدوٍ بطيء. ثم توقفت كارولين بعد خطوتين فحسب وهي تبكي بلا صوت.

صرّ ستيف على أسنانه، لكنه لم يبك. نظر إلى السماء، فتتبعت نظراته. ثم حدّثت نفسها: «إذا لم تتوقف تلك النيران عن الزيادة في الحجم، لربما تبتلعنا».

أمكنها أن تستشف من وجه ستيف أنه يفهم ما خطر ببالها أيضًا. كان وجهه شديد الحمرة، وشعره يفوح بشيء من الدخان. نظر إلى الورا نحوها، بعينين متسعيتين من الخوف والألم، ثم خطا شبه خطوة إلى الأمام، متقدمًا ببطء ووهن دافعًا ذرات الهواء التي تحوّلت إلى محرقة.

قلّدت. ولمّا حاكت طريقته نفسها، كان الهواء ما يزال دافئًا، لكنه لم يعد شديد الحرارة كما كان الحال حين حاولت الركض، ومؤكّد أنه ليس شديدة الحرارة لدرجة تدفعها إلى الصراخ.

ومن قمة التلة، راح الأب يراقبهما، ولم ينطق بشيء. يدًا بيد شقًا طريقهما نحو التلة. أما الأطفال الآخرون فتأثروا بنداء الألشاك بالطريقة نفسها، وكانوا يواجهون المشكلات نفسها. بعضهم تجمّد في مكانه رعبًا، وبعض آخر سقط على ركبتيه ينتحب. أصابت نوبة هلع طفلًا في الثامنة من عمره تقريبًا. تذكرت كارولين: «اسمه جيمي. وهو ليس ذكيًا». انتفض جيمي راکضًا نحو أمه -راکضًا بحق، وليس عدوًا خفيًا كما

حاولت هي- وبعد بضعة خطوات، تقرّح جلده من الحرارة. تعالت صرخاته، لكن على ما يبدو لم يخطر له أن يتوقف. وبعد ثلاث خطواتٍ أخرى، اشتعل قميصه بالنيران. حينها أشاحت كارولين بعيداً عن المشهد.

أخذ كارولين وستيف يتحرّكان بأسرع ما يمكنهما دون أن يصلا إلى السرعة التي تسبب الألم، لكن حركتهما هكذا لم تكن سريعة جداً. كانا متقدمين على القذيفة، تلك الكرة الممتدة في الحجم من البلازما المحترقة بالنيران، من خلفهما، لكنه تقدم لا يذكر.

كان بعض الأطفال الآخرين أوفر حظاً. إذ إن لعبة المطاردة الارتجالية التي انخرط فيها ديفيد ومايكل قد حملتهما إلى سفح التلة. واعتقدت كارولين أنهما سيصلان إلى بر الأمان قبل أن تصلهما كرة النار. أما هي وستيف فقد بدأ رحلتها من أسفل القذيفة مباشرةً. قد يصلان سريعاً بما يكفي ليشملهما وعدُ آدم بلاك بالأمان، لكنهما قد لا يصلان كذلك.

ازداد حجم كرة النار بسرعة مذهلة، وكادت تفوز عليهما. وما إن وصلا سفح التلة حتى لامست القذيفة الأرض. وهناك أودت بحياة ضحيةٍ أخرى؛ فتاة في السادسة عشرة قد بدأت رحلتها من مكانٍ جيد حقاً، لكن وبسبب كبر عمرها، وصل إليها نداء الألساك متأخراً عن البقية. وكادت تصبح أول شخصٍ تشهد كارولين وفاته في حياتها. ما إن اقترب اللهب حتى اشتعل جلدها بالغليان. اتسعت عيناها في ألم وعذاب، وانفتح فمها في صرخة صامتة. وتلك هي اللحظة التي ستطارد كارولين في كوابيسها طيلة السنين التالية.

رفعت وتيرة سرعتها قليلاً، ثم أكثر قليلاً، وخوفها يغالب ألمها.

الآن صارت تعدو تقريباً، لا تبالي بحرارة الاحتراق. فاح قميصها برائحة الدخان. واستطاعت أن تشم رائحة شعر محترق؛ ليست واثقة مما إذا كان شعرها هي أم شعر ستيف. لكن قمة التلة قريبة. وفي تلك اللحظة حدثت نفسها: «سوف أنجح، سوف أصل!».

ثم تعثّرت.

انزلقت حجارة شاردة أسفل قدمها. ولمّا حاولت التصدي لسقوطها، خدشت الحجارة يدها. بل والأسوأ أنها فقدت ما قطعته من المسافة وانزلقت بضعة سنتمتراتٍ ثمينة إلى الوراء.

وصل ستيف إلى القمة. صار في أمان الآن. استدار وشبح ابتسامة بدأ يرتسم على شفتيه، لكن ابتسامته تلاشت ما إن رآها. تحرّك فمه، لكنها عجزت عن تبين الكلمات. لَوَّح لها بيده لتأتي. وقرأت شفتيه تقولان: «انهضي».

لا تستطيع. جُرحت يداها وركبتها. رغبت في وجود أمها؛ كانت خائفة. ارتجف ذقنها. وتذكرت وهي تقول لنفسها: «هذا صعب جدًّا» تذكرت وهي تقول لنفسها: «سأستسلم».

عند رؤيته لحالها، قفز ستيف إلى أسفل التلة. ووجهه يتلأأ بحرارة لا تصدّق، ينعكس عليه ضوء كرة النار المقتربة على بعد خمس ياردات أو أكثر من خلفها. وصل إلى حيث سقطت بقفزتين واسعتين، وأمسك برسغها، ثم أنهضها على قدميها. رأت شعره وقميصه يشتعلان بالنيران، وألسنة لهب صغيرة قد بدأت تتأجج.

النيران تمسك به وهو يمسك بخصرها ويرفعها. صارت كرة النار الآن على بعد قدم تقريبًا من خلفهما. ألمها مفصل كتفها من أثر اصطدامها به، لكنها لم تشعر بالنيران؛ كان ستيف يمسك بها في أعقابها. لقد اشتعلت الحروق كلها في جسده. احترق الجانب الأيسر من قميصه وأصاب الجلد في لمح البصر... لكنهما الآن على قمة التلة.

أسرعا إلى حشد الأطفال يسبقان كرة النار ببضعة إنشات ثمينة. وهناك رأت وجوه مستقبلها: ديفيد، ومارجريت، ومايكل، وليزا، وبيتر، وريتشارد، وآخرين لم تعرفهم آنذاك. تحلّقوا جميعًا وراء الأب، بأفواه فاغرة على شكل دائرة من شدة الفزع؛ صرخات لا يمكن سماعها من شدة سرعتها.

لمّا وصلت كرة النار إلى قمة التلة، رفع الأب يده. ولمّا لامسه الضوء أجفل... لكنه لم يحترق. أخبرها ديفيد فيما بعد أن تلك القذيفة حملت ثلاثين «كيلوطن» من تي إن تي في ذلك الانفجار. بدا مقتنعًا أن هذا الرقم مذهل. وربما كان كذلك. لكن حين وصلت القذيفة التي بلغت قوتها أربعمئة كيلوطن إلى إصبع آدم بلاك، توقفت... اهتزت لبرهة... ثم بدأت تنكمش.

تركت كرة النار المتراجعة حفرة تامة الاستدارة حيث أقيم المتنزه وانتصبت معظم المنازل. وأضاءت شِفَار الحفرة بلون أحمر. تتبّعت كارولين القوس بعينيها حتى وصلت إلى شيء ميّزته: صندوق بريد يحمل الرقم «305» واسم «لافيات» مكتوبين بلون ذهبي. لقد كان آل لافيات جيرانها في المنزل المجاور. نصف منزلهم ما يزال قائمًا، ممزّقًا في دقة بفعل الانفجار.

أمكنها رؤية ما بداخل غرفة نوم ديانا لافيات، التي كانت تملك منزل أحلام باربي الذي كثيرًا ما طمعت به كارولين. أما منزلها ومنزلها عائلتها، حيث أعدت وأمها سلطة البطاطس، فكان يقع داخل الحفرة على بعد عدة أمتار. عندئذٍ فُكِّرَت في البحث عن والديها.

حين رأتها آخر مرة كانا يقفان في المتنزه. والآن أصبح هذا المتنزه حفرة شاسعة بعمق مئة قدم، توهجت الرمال المنصهرة مثل الحمم البركانية في أعماقها. مؤكِّدٌ أن أمها وأباها من أوائل مَنْ التهمتهم كرة النار. عندها أدركت كارولين أنها قد صارت يتيمة.

بعيدًا خارج الحفرة، حيث أقيمت مباراة كرة السلة، تمدد بالغون آخرون موتى كذلك، تفحَّمت أجسامهم من الحرارة وتفتتت جيناتهم. لقد ميَّزتهم كذلك. إنهم «الموتى».

أتى الأب بفعلٍ جعل تأثير الألشاك يتلاشى. وعاد الوقت إلى مساره الطبيعي. بدا أن الأطفال كانوا يتكلمون. ارتفعت أصواتهم كأنما رفع أحدهم صوت مذياع صامت تدريجيًّا. لكنها لم تسمع سوى ستيف، وهو يقول: «... لا أعرف فيمَا كنتِ تفكرين. لا يمكنكِ الاستسلام أبدًا يا كارولين. لا يمكنكِ التراجع أبدًا».

نظرت إليه بعينين متسعيتين.

عندئذٍ، وكأنما يركل أول حجرٍ في انهيار جليدي، قال ستيف: «يجب أن تكوني قوية».

4

استدار آدم بلاك بكامل انتباهه إلى الأطفال، ورمقهم بعينين هادئتين مظلمتين. ثم قال: «لقد مات أبائكم».

انتحب البعض، ونظر البعض الآخر إليه مشدوهين لا يستوعبون ما يقوله. «ليس لدى معظمكم أي أقارب أو عائلة أخرى. وفي أمريكا، هذا يعني أن الناس سيأخذونكم. وستعيشون أيتامًا. أنتم أطفالٌ كبار. أطفالٌ قبيحون. لن تعثروا على عوائل جديدة تضمكم إليها. ولا أحد سيحبكم. لا أحد سيريدكم».

«لكنكم على هذه الأرض لستم أمريكيين. تسير الأمور هنا كما عهدناها في الأزمان القديمة. سأفتح لكم بيتي. وسأربيكم كما تربيْتُ أنا. ستكونون من البيلابيين».

تذكر كارولين أنها سألت: «سكنون ماذا؟».

- البيلابي. إنها كلمة قديمة. ليس لها مقابل وحيد حتى في اللغة الإنجليزية. لكنها تعني «مكتبي» وتعني أيضاً «تلميذ»، أو ربما «طالب».

- بيلابي.

اختبرت صدى الكلمة على أذنها للمرة الأولى. في ذلك الوقت، ظنوا أنه يتحدث إليهم جميعاً. لكن في حاضرها أدركت كارولين أنه لم يقصد أحداً سواها. وحيدة في المكتبة على الطرف الآخر من حياتها، تمتعت بالكلمات مجدداً: «ماذا تريد منّا أن ندرس؟».

- سنبدأ بدراسة اللغة. إنها تسمى اللغة البيلابية أيضاً. وهذا أول ما ستتعلمونه جميعاً.

- لماذا؟

- لأنها اللغة التي كتبت بها دروسكم، في معظمها. ولن يسعكم الدراسة دونها.

سألت كارولين: «أي نوع من الدروس؟».

- بالنسبة إليك، أظن أنك ستدرسين اللغات الأخرى.

- مثل ماذا؟ الفرنسية وما إلى ذلك.

- نعم. هذه وأخرى أيضاً.

- كم عدد اللغات التي سأتعلمها؟

- كلها.

تجهّم وجهها: «ماذا لو لم أرغب في ذلك؟».

- لا يهم. سأجبرك على التعلم على أي حال.

لم تحر جواباً، فقد بدأت تدرك أن آدم بلاك يثير الرعب في نفسها، لكنها تذكرت كيف أجّجت كلماته شعلة التمرد الأولى في قلبها. والآن في حاضرها، ذلك اللهب نفسه يتأجج عالياً أسود فوق جبال الأرض ووديانها كلها.

سأل ديفيد: «وماذا عني؟».

قرفص الأب أمام ديفيد وتحسس عضده: «أنت؟ مم. تبدو مثل رجلٍ قويٍّ رغم صغر سنك. أنتَ تذكرني بنفسِي في سنٍّ صغيرة. أتريد أن تتعلم كيفية القتال؟».

تشدَّق ديفيد: «نعم! هذا رائع!».

تكلم الأب مجددًا، بوتيرة سريعة وبلغة غير لغتنا. في ذلك الوقت، لم تستطع كارولين الصغيرة أن تفهم ما يقوله. مجرد هراء سرعان ما ينسى. أما في حاضرها، حين تذكرت الكلمات، ميَّزت كلمات اللغة البيلابية. وتذكرت التعليمات المكتوبة على وصفة الإكسير: «ستشعر كأنك تعيش تلك الذكريات بشحمك ولحمك، وتشهدا بعينين يقظتين».

أكمل الأب حديثه إلى ديفيد بالبيلابية: «أنتَ أشد ما ستخشاه، لكنها ستهزمك».

لامس ديفيد برفق وعاطفة حقيقية. ثم أضاف: «سيكون دربك شائكًا، وحياتك قاسية وأليمةً. سأضطر إلى إلحاق الأذى بك، حتى تتحول إلى وحش ضار. أنا آسف يا بُني. لقد ظننتُ أنك خليفتي، لكن القوة اللازمة ليست بداخلك. إنها بداخلها هي».

طيلة ذلك الوقت، ظنوا جميعًا أن ديفيد هو الابن البيولوجي لآل كريج، الذين كانوا يتبادلون الحديث مع والدي كارولين حين أصابتهم كرة النار. والآن في حاضرها، حدَّثت كارولين نفسها: «ابنه؟ أيعقل أنه فعل ما فعل بابنه الحقيقي؟». وفي أعقاب ذلك جاء السؤال الأفظع: «أفعلَ هذا كله من أجلي؟».

سألت مارجريت: «وماذا عني؟».

التفت الأب إليها: «مرحبًا مارجريت».

- كيف عرفت اسمي؟

- إنني أعرف الكثير عنك. كنت أراقبكِ لوقتٍ طويل. والآن أخبريني، هل تحبين الاستكشاف؟

رفعت كتفها بلا مبالاة: «أظن ذلك».

- جيد. أعرف مكانًا مميِّزًا جدًّا ستودين استكشافه. لا يعرفه أحدٌ سواي. ويمكنني أن أرسلكِ إلى هناك. ويمكنك أن تشقي طريقكِ وتتعلمي.

- أهو مكانٌ ممتع؟

زَمَّ الأبُ شفّتيه: «عليَّ أن أخبركِ أنه أقرب لمغامرة. هل تودين ذلك؟ هذا الاستكشاف سيجعل منك امرأة مميزة». ثم وجَّه الحديث إلى كارولين ببيلابية ذات وتيرة سريعة: «حين يأتي الأوان، ستكون مارجريت إنذارك الأخير».

تذكرت كارولين ما نادتها به مارجريت: «سيدتي» تذكرت حين قالت: «أنتِ مثلي الآن. إننا أخوات». كيف مرَّت عليها تلك الكلمات بهذه السهولة؟ والآن تنخر برودة تلك الكلمات في عظامها.

تحرك الأب على امتداد طابور الأب، يتكلم إلى كل واحد من الأطفال كلُّ في دوره حتى وصل أخيراً إلى ستيف.

- ماذا عني؟

أجاب الأب: «لقد رأيت ما فعلته في أسفل التلة. أنت ولدٌ شجاع حقاً». انتفخ صدر ستيف بالفخر. لكن حين تمدد الجلد على صدره، أجفل متألماً. كان جذعه محمراً، متقرحاً بفعل النيران حتى تفحّمت بقعٌ من جلده. ومع كل ذلك لم يصرخ ولم يبكِ.

ركع الأب على ركبتيه وفحص الحروق: «هل تؤلمك؟».

بدا صوته مختنقاً وهو يجيب: «قليلاً».

أخرج الأب حقيبة بلاستيكية سحابة من جيب بنطاله الجينز. اعتصر مرهماً أخضر باهتاً، ثم فركه برفق شديد على صدر ستيف. أجفل ستيف في بادئ الأمر، وتراجع إلى الوراء بعيداً عن لمسة الأب. ثم اتسعت عيناه وهو ينحني متألماً.

لما أنهى تطيبه، نهض الأب ونفض التراب عن بنطاله الجينز: «هكذا أفضل؟».

أبدى ستيف امتناناً حقيقياً وظاهراً: «نعم. أفضل كثيراً. شكرًا لك!».

ابتسم الأب قليلاً، حتى إنه ربّت على كتف ستيف. لم يجفل الأخير للمسته.

- على الرحب والسعة. ستشفى جروحك قريباً.

ثم تلاشت ابتسامة الأب: «لكن أخشى أنني مضطّرٌ إلى إبعادك عن هنا. لا حاجة لي بك».

تفاجأ كارولين وستيف في آن واحد: «ماذا؟».

هزَّ الأبُّ رأسه: «هناك اثنا عشر فهرسًا، ولكل منها تلميذ بالفعل. أنا آسف». نظر إليه ستيف، ليس واثقًا مما إذا كان جادًا أم لا. حرَّك الأبُّ يده في إيماءة طرد، وقال: «ارحل. ستحتضنك عمّتك ماري في بيتها على ما أظن. وسأجعل الأمر كأن أمك ماتت في السيارة مع أبيك. وأنتَ أُصبت بجروح بالغة. وأقمت في المشفى طيلة هذا الوقت. لن تذكر أي شيء... أليس كذلك؟». بدا ستيف حائرًا: «ماذا؟ أنا...».

- اذهب فحسب.

ثم أكمل بالبيلاوية: «لا بد أن أنفيك بعيدًا، لتكون فيما بعد الجمر الذي يستدفئ به قلبها. لا شيء أصدق من الذكرى، وستحتاج هي إلى شيء صادق لتنجو. ستعيش على دفء ذكراك حين لا يبقى لها شيء آخر، وستستمر على ذلك».

فرك ستيف رقبتَه حائرًا، وهو يسير في الطريق المؤدي إلى مدخل جاريسن أوكس. توقف هناك، ونظر من وراء كتفه، ثم لوَّح إلى كارولين. في تلك اللحظة رأت توقًا واشتياقًا حقيقيين على وجهه. فبادلته التحية.

ودون أن ينطق بشيء، خطا ستيف إلى خارج جاريسن أوكس عائداً إلى أمريكا. أما كارولين ذات الأعوام الثمانية، فرفعت عينيها إلى الأب وسألت: «ألا يستطيع البقاء؟ إنه صديقي المقرَّب».

أجاب الأب: «أنا آسف. آسف حقًا وصدقًا. هكذا يجب أن تسير الأمور بالضبط، ولا حياد عن ذلك». ثم أضاف مشعلًا جمر قلبها: «لكن ربما سترينه مجددًا يومًا ما».

انهمرت الدموع من عيني كارولين على خديها وهي تومئ برأسها في حدة واقتضاب.

لمَّا رحل ستيف، جفف الأبُّ دموعها. وسمح لأولئك الذين ما تزال منازلهم قائمة أن يعودوا إليها ويحضرُوا ألعابًا أو ملابس أو أي شيء يحبونه. لكن بقدر ما يستطيعون حملة في زيارة واحدة. عاد التوأمان بحقيبة رياضية شبه

محترقة مملوءة بدمى جي أي جو⁽¹⁾. وكَدَّس مايكل ملابسه في عربة يدوية حمراء، ثم جرَّها على امتداد الشارع.

كان منزل كارولين قد تبخَّر من مكانه، لذلك لم يكن لديها ما تحزمه. كل ما تبقى لها في هذا العالم هو الملابس التي ترتديها ونسخة رواية الجمال الأسود التي منحها إياها ستيف. وهكذا مشت مع الأب قاصدين الحوش الخلفي.

راح الأب يمعن النظر في الشارع وهو يقول: «حقيقةً أتمنى أن يسرعوا. ليس لدي وقتٌ لأهدره. سيحين موعد العشاء قريباً، وما يزال عليَّ معاقبة الرئيس لوماي».

- تعاقب الرئيس؟ لماذا؟

- لأنه هو مَنْ أرسل القنبلة. ألا تظنين أنه يستحق العقاب على ذلك؟
- آه. نعم. (فكَّرت في أمها وأبيها، فارتجفت شفتاها). لكن كيف ستعاقبه؟

- حسناً، بادئ ذي بدء، لن يكون رئيساً بعد الآن.

- أيمكنك حقاً فعل ذلك؟

- أوه، نعم. يمكنني حقاً فعل ذلك.

- كيف؟

- مم... سأخبرك لاحقاً. أما الآن لنقل إن الماضي يركع طائِعاً عند قدمي.
- هذا كلام بلا معنى.

هزَّ الأب كتفيه مفكِّراً: «ربما لا يفيد معنى. لكنه حقيقي. أخبريني، مَنْ برأيك يجب أن أستبدل به؟ كارتر؟ موريس أودال؟ جيري براون؟».

- أيهم ألطف؟ يقول أبي إن الرئيس لوماي رجلٌ خبيث.

فكَّر الأب ملياً: «كارتر على ما أظن».

- اجعله رئيساً إذن.

(1) G. I. Joe: مجموعة من شخصيات الإثارة تنتجها شركة الألعاب هاسبرو. قدم المنتج الأول الفروع الأربعة لـ القوات المسلحة الأمريكية مع شخصية الجندي المغامر (القوات البرية للولايات المتحدة) والبحار المغامر (بحرية الولايات المتحدة) والطيار المغامر (القوات الجوية الأمريكية) والجندي البحري المغامر (قوات مشاة بحرية الولايات المتحدة) وأخيراً تم إنتاج الممرضة المغامرة. (المترجمة)

- كارتر إذن. هل تودين مشاهدتي وأنا أغير الماضي؟

أخبرته كارولين أنها تود ذلك. وأوشكت على سؤاله عما إذا كان هذا كل شيء، عما إذا كان عقاب لوماي الوحيد على قتله لأُمها وأبيها هو خلعه من كرسي الرئاسة، لكن الفرصة لم تسنح قط. فكَرَّت كارولين في حاضرها: «من معرفتي بالأب، أشك أن هناك المزيد من الحكاية». ما إن فتحت فمها لتسأل حتى عاد ديفيد، يحمل حقيبة بحجمه الكبير نفسه تقريبًا. ولمَّا علَّق الأب أنه فتى قوي رغم صغر سنه، ارتسم على وجه ديفيد ابتسامة عريضة.

حين عادوا جميعًا، تقدَّمهم الأب نحو الشرفة الأمامية، وفتح الباب المؤدي إلى المكتبة. بدا المنزل عاديًا عند رؤيته من الحديقة، لكن الباب الموارب كشف عن الفضاء الداخلي الشاسع. فضاءً غارقًا في الظلام كأنما ابتلع الضوء.

قال الأب: «ادخلوا. ماذا تنتظرون؟ لقد حان الوقت لبدء دراساتكم».

تقدموا جميعًا واحدًا تلو الآخر. ديفيد في الطليعة، ثم مارجریت، ثم بيتر وريتشارد، ثم جايكوب، ثم إيميلي، ثم جينيفر وليزا، مايكل، وأليشيا، وأخيرًا رايتشل. انتظرت كارولين حتى آخر فرد منهم. ورغم ذلك ترددت عند عتبة الباب.

- لا تخشي شيئًا. سيكون كل شيء على ما يرام، في النهاية. تعالي. سندخل معًا، اتفقنا؟

مدَّ الأب يده إليها مبتسمًا. لكنها ظلَّت على تردها.

لَوَّح بيده في إشارة تعني «لا تتركيني معلقًا» وهو يحثها: «هيا أقبلي. أقبلي الآن».

بعد لحظة مضنية من الترقب، أمسكت كارولين بأصابعه، سميكة وخشنة تحت لمستها. أخذت بيده مرغمة، لكن في نهاية المطاف سار كل شيء وفق إرادتها الحرة. ومعًا تجاوزا عتبة الباب.

«رافقيني إلى أغوار الظلمة يا فتاة». في هذه اللحظة فحسب، نظر إليها الأب بحبٍّ حقيقي. «لأنني سأجعل منك إلها».

الفصل الرابع عشر

القمر الثاني

1

كان المدخل إلى العطاراة في طابق أرضية العقيق من المكتبة، بين فهرسي الشفاء والرحمة. نادرًا ما تتوغل كارولين في المكتبة إلى ذلك الحد. وربما كان ذلك خيرًا لها، فقد فقدت الكثير من الموتى في تلك الليلة حين نقلت المكتبة إلى الفضاء العادي، ولم يبقَ من يعتني بها. لقد مرّت عشرة أسابيع أو أكثر منذ أن نظّف أحدهم المكان أو رتبته، وغطت خيوط العنكبوت الأرفف التي ضمت مجلدات جينيفر، لدرجة أن كارولين خلّفت آثار أقدام في الغبار وهي تسير.

احتفظت بنسخة مصغرة من حقيبة الإسعافات الأولية الخاصة بجينيفر في جناحها، مجهزة بما يلبي احتياجاتها الخاصة. لم تكن دراسة الطب مفضلة لديها، لكنها تدخن سجائر مارلبورو الحمراء بشراهة وقد بدأ يؤثر عليها. كانت جينيفر قد عالجتها من أورام سرطانية مبكرة مرتين، ثم عالجت كارولين نفسها من الانسداد الرئوي المزمن منذ بضعة أسابيع. لكن ما تعانيه اليوم أشد خطورة من السرطان. وستحتاج في علاجه إلى مزيد من الإمدادات.

- افتح.

تفتتت بلاطات الأرضية أمامها، ثم أعادت تشكيل نفسها في درجات سلم. ومن أسفلها، أضاءت مصابيح القاعة من تلقاء نفسها، فأضفت على الجدران البرونزية بريقاً من نوع خاص. أجفلت كارولين عند رؤية المشهد؛ لطالما ربطت بين ذلك البريق وجينيفر. لم تعد خلايا كارولين تتقدم في العمر كما هو الحال مع البشر، لكن الخيارات التي اتخذتها قد بدأت تحفر التجاعيد على وجهها. وخط التجاعيد الذي حفره إجفالها كأنما قد تشقق أخدودٌ عميق في وجهها.

شغلت عطاره جينيفر قاعةً كبيرةً حتى بمعايير المكتبة؛ مساحة عشرة فدادين أو أكثر. حين فتحت كارولين الباب، لفحتها سحابةٌ من الروائح المختلطة؛ عبير البلادونا السامة، والإيثر الإيثيلي، ونفحةٌ من المحار المقلي، وروائح أخرى أثقلت الهواء. افترَّ ثغرها عن ابتسامة بسيطة مفعمة بالحنين. ذات مرة وفي وقتٍ متأخر من الليل، قصدت كارولين جناح جينيفر طلباً للأسبرين، فوجدتها في غاية الانتشاء تقلي المحار على موقد غاز. ولسوء حالتها عجزت عن استخدام الأفعال، فضلاً عن تحديد موضع الأسبرين. وبعد قدر لا بأس به من ثثرة هزلية غير مقصودة، نجحت أخيراً في إيصال فكرتها أن الحشيش سيخفف صداع الرأس الذي تشعر به كارولين. ولشدة يأسها وافقت كارولين على استنشاق بضع نفحات. لكن ما أثار دهشتها هو نجاح الحشيش في تخفيف آلامها. كما أنه أكسب المحار نكهة رائعة. حينها تذكرت كارولين: «كانت ليلة سعيدة. لم يكونوا سيئين إلى ذلك الحد. ليس جميعهم على الأقل».

كانت العطاره أشبه بمتاهة صغيرة من العجائب. ربما تسير الأمور فيها وفق نظام مرتب بدلاً من البحث فيها بشعار «اعثر عني في التيه إن استطعت». لكن كارولين ستحتاج إلى الخارطة. ولحسن حظها، علّقت في مكان واضح في الركن البعيد فوق مكتب جينيفر. بينما تشق كارولين طريقها، مررت أصابعها على الأشياء المتراسة على جانبيها: أدراج خشبية منمنمة مملوءة بجذور مجففة، وكرة برونزية بحجم قدمين تقريباً ومنقوشة برموز ربط سحرية، وصغير ديناصور ستيجوصورس محفوظاً في سائل. طرفت عينا صغير الستيجوصورس دهشةً وهي تمرُّ به.

غرق مكتب جينيفر تحت أكوام من الدفاتر المتمايلة من شدة ارتفاعها في عشوائية أرهقت عيني كارولين. ورغم ذلك، دفعته رؤية الدفاتر إلى الابتسام

قليلاً. إن جينيفر، مثل الأب تماماً، لديها شيءٌ من الهوس بأدوات المكتب. تُرك دفتر من ماركة ميكولريس ذو كعبٍ حلزوني مفتوحاً على المكتب. التقطته كارولين ونفخت الغبار عنه، وهي تكتم عطسة.

في ذلك الصباح الذي أطلقت فيه كارولين الريساک، كانت جينيفر تعمل على رسمٍ تشريحي. فُتح الدفتر على مخطط غير مكتمل لشيءٍ يشبه دودة أم أربعة وأربعين لها جذع فيل صغير، وعضلاته مكشوفة وبارزة. لم تميّز كارولين ذلك الكائن. وفكرت: «أهو من المستقبل البعيد؟ أم من الماضي السحيق؟ (رفعت كتفها بلا مبالاة). مَنْ يدري؟».

بصرف النظر عن ماهية هذا الكائن، فوفقاً للملاحظة المكتوبة على الهامش، كانت لديه «أنداء أربية متضخمة».

حسنٌ، بصرف النظر عن ذلك الذي لديه هو الآخر.

حطّت الدفتر على المكتب وأغلقتها، ثم بسطت يدها على الغلاف، وقالت: «آمل...». ثم تعثّرت كلماتها.

سألت نفسها: «ما بك يا كارولين؟ بماذا تأملين بالضبط؟ أتأملين أنه في المكان الذي تسكنه جينيفر الآن يكون مذاق المحار جيداً؟». وفجأةً تملّكها الغضب: «وفري الكلام لنفسك. ليس لديك الحق في قول أي شيء».

فضلاً عن لوازم الإسعافات الأولية الخاصة بها، احتفظت كارولين بحقيبة مجهزة على نحو جيد بلوازم الإعادة إلى الحياة في الطابق العلوي. لقد تخلت عن إعادة ستيف إلى الحياة، لكن بين كل فينة وأخرى يتعرّض أحد الموتى إلى حادث أو آخر. واليوم ستحتاج إلى وصفات أخرى أيضاً. نزعت الخريطة المثبتة إلى الحائط. ثم توغلت، مسترشدةً بها، في ظلال العطارة تجمع المكونات. زجاجة كلين مملوءة حتى نصفها بدماء أفعى الأناكوندا، ورماد بلوري لمريض زهان نادر، وسبعة وخمسون جراماً من مسحوق زرنikh الجاليوم 67- (المشمع). استغرقت ساعةً كاملة في العثور على تلك المكونات. ولمّا أنهت رحلتها، هربت إلى الطابق العلوي، وهي على شفير البكاء.

انغلقت الأرضية من ورائها بشيء من الطنين. زفرت تنهيدة مثقلة، وأمالت رأسها إلى الوراء. عاليًا في الأعلى، أشرقت أضواء مجرة درب التبانة وألقت

بأشعتها عليها. لقد شارف موعد الغداء، ففكرت: «لِمَ لا أٌصعد إلى الأعلى». بإمكانها التجهيز لنزهة ...
«لا!».

«إن ما تفعلينه يسمى بـ «التسويق»». وفي المقابل، مشيت بخطوات ثقيلة إلى الأعلى قاصدةً أرضية الياقوت، القطر السابع، الصف السادس عشر. لقد تركت رفاته حيث سقط.

تَلَطَّخت الأرضية الخشبية بلون أسود من عصارة التحلل، لكن جثته أحسن تحنيطها. ولحسن الحظ، تبددت الرائحة. بالأمس، أو في يوم ما، قد أخفت عربة يد هناك احتوت على برميل ماءٍ نقي، وجالونين من الأمونيا، وطعام يكفي لأسبوع أو أسبوعين، وحقيبة كبيرة من المنشطات. فعلى الأرجح هذه عملية شاقة، وستستغرق وقتاً طويلاً.

بدا التعبير على وجهها حين خلعت عنها حقيبتها كأنها تلتقط عبئاً ثقيلاً بدلاً من أن تحطه عن كتفها. لا شك أن عملية الإحياء هذه صعبة للغاية، حتى على جينيفر نفسها، لكن شعوراً قد خالج كارولين بأنها ستنجح بطريقة أو بأخرى. لأنها تنجح دائماً.

وبتهدئة أخرى مثقلة، جلست إلى جوار الجثة، وشرعت في العمل. استغرقت العملية أكثر مما ظننت؛ ما يقارب ثلاثة أسابيع. أو ربما أكثر من ذلك؟ لقد فقدت إحساسها بالوقت -وقد عانت من ذلك كثيراً في الآونة الأخيرة- لكن الماء كله نفذ، وكادت تنفذ المنشطات كذلك قبل أن ينبض قلبه حتى. ولكن بعد قدر لا بأس به من التجربة والخطأ، وهو ما استغرق ثلاثة أيام أو أكثر، استعاد نشاطه الدماغى الطبيعى. ولم يمضِ الكثير حتى بدأ يُشَخَّر.

آلمها ظهرها، وآلمتها ركبتاها، حتى أصابعها وبراجمها أوجعتها. في تلك الأثناء، تراجعت مسافة نصف دزينة من الأرفف، وارتدت قفازاً بسيط المظهر لكنه شديد الفتك، قد حصلت عليه من مستودع أسلحة ديفيد. ثم جلست القرفصاء، وهي تخطط لمراقبته حتى تتأكد من أن كل شيء بينهما على ما يرام. لكن عوضاً عن ذلك، غاصت من فورها في شيء بين «نوم عميق» و«غيبوبة خفيفة». وبعد فترة، عادت إلى وعيها شيئاً فشيئاً، وهي تدرك أن أحدهم يهز قدمها.

- اتركني وشأني.

لكنه ظلَّ يهزها بقوة. وما إن تذكرت كارولين ما كانت تفعله، انتفضت مستيقظة وضمتَّ اليد المغطاة بالقفاز أمام صدرها مثل درع حماية.

توقف عن هز قدمها، ثم تراجع خطوة صغيرة إلى الوراء حاملاً كوباً يتصاعد منه البخار.

- مرحباً كارولين.

استنشقت الهواء، ولما انتبهت إلى «رائحة قهوة؟» رمقته بحذر لبرهة أخرى، ثم خفضت القفاز المدرع.

- مرحباً أيها الأب.

2

عادةً ما تكره القهوة، لكن أحدهم قد خبأ منشطاتها وهي نائمة. أخذت الكوب وأومات بالشكر، ثم سألت: «منذ متى وأنت مستيقظ؟».

- اثنتا عشرة ساعة أو أكثر. منذ متى وأنا ميت؟

فركت عينيها: «لست متأكدة تمامًا. منذ وقتٍ طويل. أشهر كاملة».

أوماً موافقاً: «ظننتُ ذلك».

- كيف؟

- الرائحة ليست سيئة جدًّا. كما أن كل شيءٍ مغطى بالغبار.

- آه.

خطرت لها فكرة، فأضافت: «أنا، مم، آسفة بشأن... كما تعرف».

- قتلكِ إياي؟

أومات كارولين بإيجاب.

- انسي الأمر. كلانا يعرف أنني استحققتُ ذلك، أحسنتِ صنعاً. لقد مرَّ وقتٌ طويل منذ أن خدعني أحدهم هكذا.

- حقًّا؟

في ضوء الكشف عما حدث يوم التبني الكبير، ساورتها شكوك أن الأب هو من منحها الفرصة لقتله.

- آه، نعم. أعرف فيما تفكرين، لكنني لم أمنحك الفرصة لقتلي. لو توقعت حدوث ذلك، لأوقفك. ولأوقفك بقوة. لكن لا. لقد هزمتني بإنصاف. كما أنك صغيرة جدًا. ما توقعت أن تقبلي على تلك الحركة قبل خمسين سنة أخرى على الأقل. حتى لو مرَّ قرن من الزمان، ما كنت لأندهش. (رَبَّتْ على كتفها برفق). أنا فخور بك حقًا يا كارولين. وآمل ألا يزعجك قولي.

- يزعجني؟ (فَكَرَّت فيما قاله مليًا). لا. لم يزعجني.

- إذن... مَنْ تَبَقَّى؟

هَزَّتْ رأسها أسفًا: «أنا فحسب».

- أوه!

- أنت مدهوش؟

- قليلًا. ساورتني شكوك بأن يطاوعك قلبك لـ... حسنًا. ديفيد ومارجريت، هذا أمرٌ مؤكد. لن يؤلمك قلبك لقتلهما. لكن الآخرين؟ جينيفر؟ مايكل؟

مايكل! لطالما كان مايكل لطيفًا معها -وهو شيءٌ نادر في حد ذاته- لكن هذا ليس كل شيء. حين قتلها ديفيد أول مرة، كان مايكل مسافرًا إلى أستراليا، لكنه عرف بما حدث لها، بطريقة أو بأخرى. لذا عاد من أجلها. وكان هو مَنْ عثر على جثتها. وبعدها أحضر جينيفر لمداواتها، عاد أدراجها إلى الغابة. ثم عاد عند الغروب، برفقته هذه المرة قطعٌ من الذئب ونمران. انقضوا جميعًا على ديفيد، وهو يتدرب في الحقل الخلفي. لقد أيقن أن ما يفعله عبث وأيقن أن ديفيد سيؤذيه على محاولته هذه، لكنه أقدم عليها على أي حال.

- نعم. حتى مايكل. لا يمكنني ترك أي أمور عالقة. أنتَ تفهم ذلك، صحيح؟ المخاطر أكبر من أن يُستهان بها.

علَّق الأب: «ما فعلته هو القرار الصائب. سأخبرك بشيء، وآمل أن يخفف عنك قليلًا: لقد رَتَّبْتُ الأمور بطريقة لا تتيح لك خيارات كثيرة. ومع إلمامك بكل ما عرفته في ذلك الوقت، لكان ترك أحدهم على قيد الحياة مخاطرة غير مقبولة».

- أفهم ما تقوله. لكنه لم يحسن من شعوري في شيء. ليس تمامًا.
- لا. هذا مؤكد. إذن... ماذا فعلت؟ لجأت إلى ليزل؟
- هزّت رأسها نفياً: «الأمريكيون».
- آه. نهج مدهش.
- لقد أدى الغرض وهذا يكفي.
- سأل الأب بنبرة رقيقة: «وماذا عن ستيف؟».
- لم تجب كارولين بالكلمات، بل اكتفت بتجهم وجهها.
- أهو ميت؟
- نعم.
- انتحار مأسوي على ما أظن؟
- طرفت عينيها دهشة: «كيف عرفت ذلك؟».
- إنها طبيعة تكوينه؛ فطرة ورثها عن جدته السابعة عشرة.
- تقنّع الأب بوجه درامي، وتظاهر كأنما يطعن نفسه في القلب: «أطلق سراح شعبي يا أبلًاخا! (وأمال رأسه إلى الجانب تاركًا لسانه يتدلى على جانب فمه) أ يبدو ذلك مألوفًا؟».
- إلى حدّ كبير.
- كيف قتل نفسه؟
- في المرة الأولى لجأ إلى النار. وبضعة أمور أخرى.
- أجفل الأب: «يؤسفني ذلك. لا بد أن هذا كله صعب عليك».
- هزّت كتفها في لا مبالاة: «يعتاد المرء كل شيء».
- أوما الأب بإيجاب: «صحيح، نحن نعتاد. لكني ما زلتُ أشعر بالأسف عليك (صمت قليلًا) أيمكنك أن تتقبلي نصيحة أبوية؟».
- أنتَ تسأل؟
- نعم، صحيح. أنتِ صاحبة اليد العليا الآن يا كارولين. إذا أردتِ مني أن أصمت، أخبريني فحسب.
- اعتدلت كارولين في جلستها: «لا... لا. لفظة كريمة منك أن تسألني، لكني سألتقى أي درس قد يتفضل أبلًاخا بتقديمه. إنه شرفٌ لي».

وأحنت رأسها قليلاً.

ردّ الأب بانحناءة أكثر تبجيلاً من انحناءتها. ثم سأل: «كيف كان ستيف في المرة الأولى؟ حين مات محترقاً بالنيران؟ هل لاحظت شيئاً مختلفاً فيه؟».

- نعم.

- وما هو برأيك؟

- بدا... سعيداً، على ما أظن. أسعد من أي مرة رأيته فيها. أعني... ربما ليست «سعيداً» هي الكلمة المناسبة تماماً. بل بدا متصالحاً مع نفسه. وهذه أول مرة أراه فيها على تلك الحالة.

أوماً الأب موافقاً: «كان قصده خيراً، وهو فتى شجاع. لكن لو لم تكوني موجودة في حياته، لعثر على شيء آخر ليستشهد من أجله (راقب ردة فعلها من كتب) أو ربما كان ليموت كمداً على غياب ذلك الحافز».

- أنت تقول إنه مجبول على ذلك؟

- نوعاً ما. الاحتمال قائم. اسمعي، يميل البعض ميلاً شديداً للشعور بالذنب أو الاستحقاق أو أي مشاعر أخرى. وحادثة وفاة صديقه هي القشة التي قصمت ظهر البعير. ولمّا وصلت إليه أنت، كان الأوان قد فات على إصلاح ما حدث له.

قالت كارولين: «نعم، هذا واحد من الأمور التي أردتُ الحديث معك بشأنها. لقد كنتُ أدرس طيلة الوقت. وأظن أن بإمكانني...».

قاطعها الأب في لين: «بإمكانك ماذا؟ إصلاح ما ألمَّ به؟ تغييرين كل شيء حتى يتسنى لكما أن تكونا معاً؟».

- لا! ليس هكذا. أعني، ربما... لكن هذا ليس ما أقصده.

- إذن ماذا تقصدين؟

أجابت كارولين بنبرة هادئة: «لقد كان صديقي».

- هل جربت الحديث معه؟

أومات بإيجاب.

- وكيف سار الأمر؟

- كان... طيباً. رقيق القلب. هذه هي الكلمة التي ظل يرددها على أي حال. لكن ...

- لكن ماذا؟

زفرت تنهيدة مثقلة: «لكن رقة القلب هي كل ما لديه. لم تعد علاقتنا كما كانت حين كنّا أطفالاً. لم تتلاقَ أرواحنا. ثمة فجوة كبيرة بيننا. إننا نتكلم اللغة نفسها، لكن المعنى بيننا مختلف، و... و... لم أستطع التفكير في طريقة لإصلاح الأمر».

- لست متفاجئاً. لقد عشتما حيوات مختلفة تماماً. (شردت عينا الأب بعيداً لبرهة). يؤسفني ما مررت به. لأنني أعرف حقاً ما تشعرين به الآن.

- كيف أتصرف في هذا كله؟

هزَّ الأب رأسه نفياً: «لا أستطيع الجواب عن هذا السؤال يا كارولين. لكن من وجهة نظري، أمامك ثلاثة خيارات. (رفع إصبعاً). أولها: أن تغيري الماضي، لتجعلني ستيف من البيلابي منذ البداية».

- فكرتُ ملياً في هذا الاحتمال.

- وإلى ماذا توصلتِ؟

- لا أعرف. اسمع، أنا أفهم لماذا ربيتنا -ربيتني- بتلك الطريقة، لكن... مرّت أوقاتٌ ...

- كانت حياتك قاسية. أعرف ذلك، وأنا آسفٌ لما مررت به حقاً يا كارولين. لكنها الطريقة الوحيدة لتصبحي ما أنتِ عليه.

- أفهم ذلك أيضاً. لكنني ما كنتُ لأريد لستيف أن يمر بهذه الحياة القاسية. ما كنتُ لأريد لأي أحد أن يمر بها. (زفرت تنهيدة مثقلة). إذن، ما هو الخيار الثاني؟

- يمكنك أن تتنحي. وتغيري الماضي لتظلوا جميعاً أمريكيين وتنشؤوا على ذلك. ويمكنك أنتِ وستيف أن تكبرا جنباً إلى جنب. في هدوء وسلام كما تحلمين.

قلّبت كارولين الفكرة في رأسها، وتساءلت عما كان ليحدث لو أنها خرجت من الصورة؟ سيتحرك الدوق أولاً، هذا أمرٌ مؤكد بلا شك. لكن باري أوشيا وليزل لن يستطيعا البقاء ساكنين في حين أن الدوق يمحي آثار الحضارات المتقدمة؛ لن يتبقّى لهما شيء ليأكلاه. وسيضطران إلى التحالف ضده، ولو

مؤقتًا على الأقل. عبس وجهها وهي تفكر. على أي حال لن يمضي وقتٌ طويل قبل أن يصبح الناس ...

أحسَّت بعيني الأب تخترقانها، ووجهه يحمل شبح ابتسامة. سألت كارولين بعد فترة: «حسنًا... ماذا ستفعل أنت؟ إذا تنحَّيتُ؟».

رفع الأب كتفين متناقلتين: «سأضطر إلى بدء البحث عن خليفتي من جديد. لقد اعتنيتُ بهذا العالم طويلاً ولا أظن أنني سأتحمل فكرة تدميره على يد أي أحد (رسم على شفتيه ابتسامة وحشية مقتضبة) يمكنك القول إنني مرهف الحس».

طرفت عينا كارولين ذهولاً: «قل ما تشاء. لكن أخبرني ماذا سيحدث من الناحية التطبيقية؟».

- مم مم. لأصدقك القول لستُ واثقًا تمام الثقة. لقد استغرقتُ وقتًا طويلاً لعزل سلالتي، ووقتًا أطول لترتيب اجتماعكم كلكم في جاربسن أوكس. سأضطر إلى إعادة كل ذلك من جديد. (زَمَّ شفتيه). أو ربما أبدأ من الصفر؟ أبني نفسي وأشق طريقي من الطين الخام؟ ربما يسعني ذلك. حسنًا، لا تهتمي. على أي حال، ستتعدَّد الأمور أكثر هذه المرة، وسينتهي جانبك من القصة. أقصد جانبكم جميعًا. في عيد العمال من العام 1977، سيحظى الجميع بنزهة لطيفة ويعودون إلى منازلهم مُلتاحين ومتخمين. وبعد أيام قليلة سيلاحظ أحدهم اختفاء السيد بلاك، وهكذا ستنتهي الحكاية.

نظر إليها وسألها: «أهذا ما تريدن؟».

لمرة أو مرتين تساءلت عما إذا كانت تريد ذلك حقًا. ثم أجابته متسائلة: «في رأيك إلى أي حال كنَّا لنصير؟ دون المكتبة.. ودونك؟».

- يمكنني أن أخبرك بالضبط. هل تودين ذلك؟

- من فضلك.

استطرد الأب: «لطالما كنتُ هادئة، وجبانة بعض الشيء. ربطتكِ وستيف علاقة طيلة دراستكم الثانوية. ومارستما الحب لأول مرة بعد حفل تخرج سنتكم الأولى في الثانوية، لكن علاقتهما لم تدم (هزَّ كتفيه بلا اكتراث) وانتهى بكما الحال بالزواج بأشخاص آخرين. ومع ذلك، بقيتما أصدقاء، وبقيتما على اتصال حتى سن الأربعين».

- ماذا كنتُ أفعل؟

- تقصدين مهنتك؟

أومأت بإيجاب.

أجاب الأب: «في الواقع، كنتِ مكتبية. وفقًا للمفهوم الأمريكي».

انفجرت في الضحك: «جدياً؟».

ضحك الأب هو الآخر: «أقسم لك. لا يمكنكِ اختراع أشياء كهذه. لقد عشتِ حياة لطيفة وهادئة. عملتِ في جامعة أوريغون. كنتِ بارعة في سياسات العمل، لكنكِ لم تواجهي أي تحديات كبيرة. اكتسبتِ قليلاً من الوزن بعد ولادة الطفل الثاني، لذلك بدأتِ المنافسة في السباقات الثلاثية».

- ما هذا؟

- نوعٌ من السباقات. تسبحين لبعض الوقت، ثم تركضين، ثم تقودين دراجة.

- أوه!

ارتسم على وجه الأب ابتسامة ساخرة: «كما أنكِ درستِ اللغة الفرنسية في أوقات فراغك».

- صدقاً! هل كنتُ بارعة؟

- مقبول. حصيلة كلماتك ومعرفتكِ بالقواعد كانت جيدة، لكن لكنتكِ مريعة. كما أنكِ لم تتمكني من زيارة باريس. أصابكِ سرطان الغدة الدرقية وأنتِ في التاسعة والخمسين.

- أوه.

فكرت لبعض الوقت، ثم سألت: «وما هو الخيار الثالث؟».

- أن تدعيه وشأنه.

انتظر طويلاً، لكنها لم تحر جواباً. فاستطرد هو في نهاية المطاف: «حسنًا، فكري في الأمر. ماذا عن بقية الأمور؟».

- معذرة؟

- قلتُ إن استشارتي في أمر ستيف أحد الأمور التي أردتِ الحديث معي عنها. ما هي بقية الأمور؟

- آه. صحيح. أظن أنني أفهم ما فعلته.. أقصد تدريبي. لكنني ما زلت لا أفهم السبب. وماذا كنت تقصد حين قلت إنك في مرحلة التقاعد؟ هل.. مم.. ستستقل مقطورة سكنية وتذهب إلى بوكا راتون مثلًا أو شيء من هذا ...
- تعالى ضحكات الأب: «ليس تمامًا. لقد قلت إنه قد مرَّ.. كم من الوقت؟ ستة، ثمانية أشهر؟».
- شيء من هذا القبيل.
- وعلى أي فهارس كنتِ تركزين دراستك؟
- أولويتي كانت دراسة الإستراتيجيات والتكتيكات. إن كيو33- نورث يتحرَّك بجيوشه، وهناك بعض الشائعات عن إله الغابة أيضًا. لديه كاهنة تقول... حسنًا، لا عليك. لم تعد هذه الأمور مشكلتك.
- وهل تدرسين الرياضيات؟
- دراسة سطحية فحسب. لماذا؟
- هل أنتِ على دراية بمفهوم تكامل الارتداد؟
- لقد سمعت المصطلح في مكان ما، لكنها لا تستطيع تذكر معناه.
- لا.
- إنه الإيمان بأننا مهما فهمنا من بواطن الكون، ومهما حللنا من ألغازه، سيظل كل جواب يولّد سؤالًا جديدًا.
- آه.
- تعرفين أنني لم أخلق هذا الكون، صحيح؟ بل تركتُ بصمتي عليه فحسب، وكم يعجبني أنني أضفت التحسينات، لكنني أعمل وفق القواعد المطبقة من العصر الثالث. كان الضوء إحدى لمساتي، وكذلك المتعة.
- أجابت كارولين: «تساءلنا كثيرًا. لكن لا أحد واثق من حقيقة الجواب. لو لم يكن أنتَ مَنْ خلقه، فَمَنْ إذن؟».
- هزَّ الأب رأسه في غير معرفة: «لقد طرحْتُ السؤال نفسه ذات مرة. ولو كان هناك جواب عنه، فقد ضاع».
- أوه!

- مهما كان كنه ذلك الخالق، فإنه صانع ماهر. لقد قضيتُ وقتًا طويلًا أدرس صنيع يده، ومنه تعلمت بعض الحيل. (أشار بيده في إيماءة شملت أفدنة من المكتبة تُعد ولا تُحصى من الكتب والمخطوطات والأوراق). لكنني لا أقترُب حتى من فهم الصورة الكاملة عما كنتُ عليه حين بدأت.

- أهذا رأيك حقًا؟

- لقد أثبتُ ذلك. الكون هو اكتمال مرتد. لن أفهم جُلَّ أسرارهِ. ولا أحد سيقدر. لذلك أنا مغادر.

- مغادر؟

- إنني أصنع عالمي الخاص. مكاني أطبّق فيه قواعدي. هكذا أتقاعد.

- تبدو لي حياةً معزولة.

هزَّ الأب رأسه نفيًا: «بل لدي أصدقاء».

- أصدقاء؟

- بينما أنتِ نائمة، أعدتُ نوبونونجا إلى الحياة. وميتراجانهي كذلك.

تذكرت كلمات مايكل وهو يتحدث عن معلّمه: «تفهمين أن نوبونونجا أكثر من مجرد نمر، صحيح؟». تذكرت نوبونونجا وهو يمشي مجهّدًا متوغلًا داخل محيط الريسك، وإيمانه الذي لا يتزعزع بالأب. «لقد قال إن الأب لن يسمح بأن يطاله أي أذى. واتضح أنه كان محقًا».

شعرت بارتباكٍ شديد وهي تسأل: «أين هما؟».

أجاب الأب مشيرًا إلى سلالم اليشم: «بانتظاري. هل تودين رؤيتهما؟».

استرجعت كارولين مشهد ميتراجانهي وهي تمد يدها الصغيرة المغطاة بالدماء وتسألها: «لماذا تفعلين ذلك بي؟». ثم هزّت رأسها نفيًا، وقالت: «لا أظن أنها فكرة جيدة».

أومأ الأب بإيجاب: «أتفهمك».

لوهلةٍ تصورت الثلاثة معًا، الأب ونوبونونجا وميتراجانهي، يتسكعون وربما يلعبون الكرة الطائرة أو شيء من هذا القبيل. بدا المشهد خارجًا عن طبيعته المألوفة. لكنها بدأت تفهم أن طبيعة الأب ربما تختلف عما كان يعرضه لها طيلة السنين الماضية.

- هل لي أن أطرح عليك سؤالاً؟

- بالتأكيد.

- أتذكر... يوم الثور؟ حادثة ديفيد مع الثور؟

- قطعاً.

- لماذا كنت تبتسم؟

حدّق إليها الأب للحظة طالت عن المعتاد، وحين نطق أخيراً قال: «رافقيني يا كارولين».

نهض في رشاقة بقوامه الذي ما يزال لدناً، وانطلق يسير بين الأرفف.

هرعت كارولين لتلحق به: «إلى أين نذهب؟».

- مكان ليس ببعيد.

قادها إلى خارج الفهرس الأحمر - فهرس علوم ديفيد؛ تأملات حول القتل والحرب - ومنه إلى أكوام الكتب البنفسجية. تلك الأكوام البنفسجية هي فهرس صغير وجزء من عالم بيت. ترددت كارولين حتى في معرفة نوعية الحجر الكريم الذي صنعت منه أرضية هذا الفهرس. يا ترى أهو الجَمشت؟ أم الجرانيت؟ أم الترانيت؟ لا تذكر حتى أن قدميها قد حلتا في هذا المكان من قبل.

توقف الأب أمام رف طويل مغطى بالغبار يمتلئ بعناوين من قبيل «موسوعة فن الطهي» بالفرنسية، و«كيفية إعداد الكوردون بلو في المنزل» بالفرنسية، و«متعة الطبخ» بالإنجليزية. فتساءلت كارولين: «ما الذي نفعله هنا بحق الجحيم؟».

انتقى الأب مجلداً بكعبٍ من ثلاث حلقات. كان ورقه واهياً ومهترئاً، شبه مخفي خلف كتابٍ عن فطائر اللحم الكورونوالية. طُبِع الغلاف بعبارة «ملائكة تشارلي»، وزينته صورة لثلاث نساءٍ جميلات.

حين ناولها الأب الدفتر، شعرت بشيءٍ يجذب انتباهها. في الظلال العميقة للمكتبة، لمحت حركة بارقة، وصوتاً خافتاً.

- ما هذا؟

أجاب الأب: «هذا هو المجلد الأسود».

نظرت إليه كارولين: «صدّقاً؟».

من المفترض أن المجلد الأسود يحوي التعاليم الخاصة بتغيير الماضي. وبذلك فإن قوته الفعلية لا حدود لها. في سنواتها الأولى قضت كارولين سنين طويلة تبحث عنه، ثم خلصت في النهاية إلى أن وجوده أسطوري. أوما الأب بإيجاب: «أخشى أنني وضعت في الرف الخاطئ. لم أرد أن تتعثر في فيه قبل أن تصيري جاهزة».

فتحت كارولين المجلد. كانت صفحاته من رَق عتيق، والكتابة اليدوية عليها لا تخص الأب. طرفت عينيها زهولاً، وبينما هي تتأمل الكتاب، تغيرت الكتابة على الصفحة. وبعد لحظة تغيرت الكتابة مجدداً. ولمّا تغيرت الكتابة للمرة الثالثة، أدركت أنه في حين لم تشهد العبارات المدونة في المجلد الأسود أي تغيير، فإن اللغة التي كتبت بها تتغير. وكل بضع ثوان يعيد الحبر على الصفحة ترتيب نفسه. فتشكّلت أولاً اللغة العربية، ثم السواحلية، ثم شعر العواصف.

- يا إلهي!

أوما الأب: «أوافقك الرأي».

«المجلد الأسود!».

سألت كارولين: «من كتبه؟ وكم عمره؟».

- لا أحد يعرف. (رمقها الأب بنظرة هادئة). لقد أخذته من إمبراطور العصر الثالث. ولم تكن هذه الكتابة اليدوية تخصه أيضاً.

أغلقت كارولين المجلد: «ولكن ما علاقة هذا بـ...».

- السبب وراء ابتسامتي حين وضعنا ديفيد في الثور هو استجداؤه.

اغتم وجه كارولين: «ماذا؟».

رفع يده معترضاً: «لا أقصد بذلك المعنى الذي خطر ببالك».

هزّت كارولين رأسها في حيرة. فاستطرد الأب موضحاً: «تعرفين أنه ابني، صحيح؟ أعني، لقد كنتم جميعاً أبنائي بشكلٍ أو بآخر - وأنتِ بالأخص من بين الجميع يا كارولين - لكن والدة ديفيد هي المرأة الوحيدة التي مارست معها جنساً حقيقياً».

- أيها الأب! هذا مقرف.

- آسف.

- لكن... أقصد... أظن أنني لا أفهم. ألم يزدد الأمر سوءًا بما فعلته به؟
خصوصًا أنه ابنك.

أجابها الأب بنبرة وقورة: «نعم، زاد الأمر سوءًا. بل أسوأ كثيرًا. أسوأ مما تتصورين. وأسوأ مما قد يخطر على مخيلتك من الأصل».

- إذن لماذا ابتسمت؟

- لأن ديفيد استجداني. أما أنتِ فلم تستجديني قط. ولا حتى لمرة واحدة.

- لربما استجديتك لو حاولت وضعي في ذلك الشيء اللعين.

- لا. لن تفعلني.

- ماذا تقصد؟ أنا لا ...

نقر على المجلد الأسود وقال: «الماضي يركع طائعا عند قدمي يا كارولين».

- ما زلتُ لا أفهم...

ثم فهمت.

بعد هنيهة أعادت ترتيب كلماتها: «ديفيد... كان من المفترض به أن يكون وريثك؟ في... نسخة أخرى من الماضي؟».

- بالضبط.

- لكن... ألم ينجح الأمر؟

- لا.

- لماذا؟

أجاب الأب: «لأن ديفيد لم يحمل في قلبه القوة الكافية. إن اكتمال التدريب يكمن في هزيمة وحش. لكنه لم ينتصر قط. منحته فرصًا كثيرة. كثيرة جدًا. تسع مراتٍ أشوي طفلًا بريئًا، أحرقه حيًّا لكي يواجه ديفيد وحشًا كاسرًا. تسع مراتٍ مختلفة ينتصر فيها الوحش. ثم تبين لي في نهاية المطاف أنني أدرب الطفل الخطأ (هزّ كتفيه في تردد). لذلك منحتُ الوحش فرصة. في ذلك اليوم، حين استجداني ديفيد، عرفتُ أنني حُللتُ معضلتي في نهاية المطاف، ووجدتُ وريثي أخيرًا».

- تسع مرات؟ حرقنتني أنا تسع مرات؟

«أغوار الثور، باطنه، تتوهج ببريقٍ برتقالي في سماء الليل
الحالكة».

- لم تستجديني قط. ولا لمرة واحدة حتى. ما زلتُ لا أصدق ما رأيت.
أنتِ لا تذكرين بالطبع، لكنني امتطيتُ ذلك الثور بنفسِي عدة مرات.
(ارتجف الأب قليلاً). ذات مرة أحرقتكِ حية مرتين متتاليتين، حتى
تعرفِي، حق المعرفة، بماذا تمرّين. أردتُ أن أرى ماذا ستفعلين. لم
تفعلي شيئاً سوى **التحديق** إليّ. (هزَّ رأسه وكأنه ينفض ذكرى). ما
زلتُ أعاني كوابيس تلك النظرة.

- كيف كنتُ؟

أجاب الأب: «مثل ديفيد. لكن أسوأ كثيراً. أسوأ مني شخصياً، أسوأ من
الإمبراطور... أسوأ من أي شيءٍ رأيته في أي مكانٍ على الإطلاق. كنتِ شيطاناً.
طاغوتاً».

- مم.

انتظر هنيهة، ثم سأل: «هل لديك أي أسئلة أخرى؟».

- لا. أنا

كان على طرف لسانها أن تشكره، لكنها لم تفعل. ولن يمضي طويلاً حتى
تندم على ذلك: «لا».

- إذن، يعلن أبلاخا انتهاء هذا العصر الرابع من العالم. العالم ملكٌ لكِ
الآن يا كارولين. «مبارك لكِ» ليست الكلمة المناسبة، لكنني أعرف أنكِ
ستبكين بلائاً حسناً.

نهض الأب ونفض التراب عن ملابسه: «وهذا يعني أنه قد حان وقت
رحيلي».

فكرت كارولين: «بتلك البساطة؟».

سألته: «هل سأراك ثانية؟».

هزَّ رأسه نفيّاً: «لا. أبداً. لا رجعة مما نحن ذاهبون إليه».

- أوه!

استدار الأب وبدأ يمشي إلى سلالم اليشم، متجهاً نحو نوبونونجا
وميتراجانهي وما هو محبوبٌ لأناسٍ أمثالهم.

راقبته كارولين وهو يقطع بضع خطوات، فلم ينظر إلى الوراء. حينها نادته: «انتظر! ثمة أمرٌ آخر».

- ما هو؟

- كيف عرفت أنني سأعيدك إلى الحياة؟

- لم أعرف.

- إذن كيف ...

- لم أعرف يا كارولين. آمنتُ بكِ فحسب.

تلاأت عينا الأب: «يجدر بك أن تبدئي في اعتياد الأمر».

لم تفهم كارولين المزحة. فتنهَّد الأب: «أنتِ امرأةٌ قوية يا كارولين، لكن هل ستموتين إذا ابتهجتِ قليلاً، ربما بين فينة وأخرى؟». قرقع أصابعه وأضاف: «أه! كدتُ أنسى. لقد تركتُ لك هدية».

- ما هي؟

- مفاجأة.

لطالما انتباها القلق من مفاجآت الأب: «مفاجأة سعيدة؟».

أجابها بابتسامة وحسب.

راقبته وهو يمشي مبتعداً حتى تأكدت أنه ما عاد قادراً على سماعها. حينها فحسب همست: «الوداع أيها الأب».

ولم تره عيناها ثانية قط.

3

عاد ستيف إلى الحياة على أرضية البنتهاوس. لقد اعتاد الموت الآن، وكانت لديه ذاكرة تفصيلية لكل شيءٍ حتى اللحظة الأخيرة. استيقظ على شقةٍ مغطاة بطبقة سميكة من الغبار. والكوب الذي شرب فيه المنظف قد جفَّ جزئياً وتبلور في أثناء غيابه. وجده مستقرّاً في البقعة نفسها حيث تركه... كم من الوقت مضى؟ تذكَّر مذاقه، يشبه المعدن لكنه ليس كريهاً أيضاً، تذكَّر أيضاً كيف كان يغلي في أحشائه. تبلور قاع السائل، لكن ثمة

القليل يطفو في حالته السائلة ويكفي لرشفةٍ أخرى. حدّث ستيف نفسه:
«لقد كان ينتظرني. تعالَ إلى المشرب يا رفيق!».

لسببٍ أو لآخر وجد ذلك مضحكًا، فتعالت ضحكته.
- لا تفعل ذلك.

- ماذا؟

استدار مستجيبًا إلى صوت كارولين. كانت مفترشة بلاطات الجرانيت بين
أرضية المطبخ وغرفة المعيشة مثل غارغول، تدخن سيجارة.

- لا تضحك هكذا. تبدو مثل مارجريت.

- لكنني مغطى بالغبار. كح. كح.

- لقد مرَّ وقتٌ طويل.

قذفته بعلبة سجائر مارلبورو نصف فارغة، وقدّاحة مارجريت.

أمسك بهما: «شكرًا لك. أين ناجا؟».

أجابت كارولين: «عادت إلى ديارها».

- عادت إلى إفريقيا؟

أومأت كارولين بإيجاب.

- لماذا؟

- أرادت أن تكون رفقة قطيعها. كما تعرف، حين تأتي ...

قطعت كارولين كلامها، فأكمّله ستيف: «حين تأتي النهاية؟».

أومأت بإيجاب مجددًا.

- رباه يا كارولين. إلى أي مدى ساء الأمر في الخارج؟

ظلّت كارولين صامئة لبعض الوقت قبل أن تجيب: «حسنًا، ليست النهاية».

ثم بصوتٍ خافت: «ليس بعد».

أومأ ستيف: «لم تتغيري البتة». نظر إلى سائل المنظف، وكبت رجفة.

وراح يحدث نفسه: «ها نحن أولاء مجددًا. ربما يمكنني هذه المرة

الحصول على بعض المتفجرات ...».

- في الحقيقة، لقد تغيرت.

ثم تتبعت نظرته إلى كوب المنظف، وبعدها قدّمت إليه مسدسًا وهي تقول: «خذ هذا. سأجعل الأمر أسهل عليك. أم أن الموت بالمسدس ليس مريعًا بما يكفي؟».

- أظن أن بإمكانني إنجاح الأمر. هل بلغك مقصدي؟

اكتفت بالنظر إليه في صمت.

نهض ستيف، ونفض الغبار عن أحد كراسي المطبخ، ثم أشعل سيجارته: «أنتِ تحسنين في أمور إعادة الإحياء تلك. هذه المرة لا أشعر بأي ألم حتى».

- شكرًا لك.

رمقها من بين جفنين ضيقين من فوق سيجارته: «تبدلين مختلفة. قلتِ كم من الوقت مضى؟».

- ثلاثة أو أربعة أشهر على ما أظن. أنا لا أراقب الوقت. لكن أي اختلاف تقصد؟

- لستُ واثقًا. لا تظهر عليكِ أي علامات تقدم في السن.

سحقت سيجارتها في المنفضة: «لن تظهر. أنا لا أتقدم في العمر. لم أعد كذلك. إنها حيلة من صنع الأب».

- لكن ظهرت لديكِ بعض التجاعيد.

ومرّ بيده على خدها.

- نعم، صحيح. ماذا تسمونها يا رفاق؟ «العمر ليس بالسنين، بل بآثار الدروب التي سلكتها»؟

ثم أبصر ستيف الاختلاف.

- أعرف ما الذي تغير. لا تبدلين غاضبة. حسنًا... ربما متأففة. لكن لم تعودتي كما كنتِ.

- ماذا تقصد؟

- اعتدتِ تقطيب حاجبيكِ طيلة الوقت. (تغضن وجهه مقلدًا إياها).
وعضلات فككِ تنتفض حين تظنين أن لا أحد ينتبه إليك. أما الآن فالأمر أقل.

- مم.

- إذن، ماذا كنتِ تفعلين طيلة كل ذلك الوقت؟

- انشغلت بالدراسة، هذا أهم الأمور. ثم التفكير في أمور كثيرة. وبعدها عقدت حديثاً مع الأب.
- حقاً؟ ظننتُ أنه ميت.
- هزّت كتفيها بلا اكتراث.
- مم. مجرد حديث؟ لا شجار، ولا أي شيء من هذا القبيل؟
- نعم. في الواقع كان حديثاً في غاية التحضر. لماذا؟
- في الحقيقة... أراهن أن نقاشاً دائراً بينكما هو شيء يستحق المشاهدة. هل شاهدت يوماً ذلك الفيلم حيث يقاتل كينج كونج الديناصور الكبير؟
- ليس لدي أي فكرة عما تتحدث.
- يا للأسف. أنا فكاهي بعض الشيء.
- قطّبت كارولين حاجبيها... ثم استرخت ملامحها، وقالت وهي تبتسم قليلاً: «نعم. أنت كذلك. لقد افترقت سخريتك. وربما يكون تخمينك صحيحاً. أنا فعلاً أقل غضباً».
- ومدّت يدها إليه طلباً للقداحة.
- ناولها ستيف إياها: «هذا رائع. تحتاجين إلى التخلص من الذكريات الموجعة. إذا تركتها تتراكم، ستلتهم روحك».
- كانت كارولين ترمقه بنظرة مستغربة، فسألها: «ماذا هنالك؟».
- أنت... لا تشغل بالك.
- إذن... مرّ أربعة أشهر، ها؟
- تقريباً.
- هذا أطول من المرة الأخيرة.
- نعم.
- ولماذا انتظرت؟
- لم أخطط لإعادتك إلى الحياة من الأصل.
- هل أنت غاضبة مني؟
- أجفلت كارولين: «لا. لست غاضبة. أنا... لا أظن أن بإمكانني التحمل إذا... فعلت شيئاً. مجدداً».

فَكَرَّ سَتِيفَ مَلِيًّا: «آه. مم... أنا آسف».

- لا بأس. أفهم السبب وراء ما فعلته. أو أظن أنني أفهم على أي حال.
مشت كارولين إلى منضدة تجهيز الطعام في المطبخ وجلبت نسخة من
رواية الجمال الأسود عن الطاولة.

أخذه منها: «أهذا الشيء هو -ماذا تسمينه- آه، الرمز؟ ذاك الذي وجدناه
في الشرفة؟ صحيح؟».

- نعم، إنه هو. افتحه.

أعاده إليها، ثم قال: «لا أحتاج إلى فتحه».

- ماذا؟ ماذا تقصد...؟

- اسمي موجودٌ على الغلاف الداخلي، صحيح؟ مكتوبٌ بخط اليد وقلم
حبر أحمر. هذا لا يشبه الكتاب الذي كان لدي، بل هو الكتاب الذي
كان لدي. أعني حين كنتُ صغيرًا. صحيح؟

- أتذكر؟

- نوعًا. راودني حلمٌ بكل ذلك. بعد الحريق. أول مرة، مم كما تعرفين ...

- حقًا؟

- نعم. وراودني ذلك الحلم مجددًا.. الآن. حلمتُ أنني أقرأ الكتاب وأنا في
السيارة، ذلك اليوم الذي مات فيه والدي... كما تعرفين، يوم التصادم
والحطام. ثم حلمتُ أنني أناوله لطفلةٍ كانت صديقتي، فتاة صغيرة من
الضاحية. لم أفكر فيها منذ سنين طويلة. (هزَّ رأسه أسفًا). اعتدنا
الحديث عن الكتب وأشياء أخرى. لكنني لم أستطع تذكر اسمها.

أضاء وجهه بابتسامة وهو يضيف: «ثم استطعتُ التذكر. كنتُ شقراء
كالشمس».

بادلته الابتسامة: «لقد تغيرتُ».

- نعم. أظن ذلك. وأنا أيضًا تغيرت، إذا كان هذا يهمك. كنتُ أتساءل لماذا
بدا ذلك المنزل تحديدًا -المنزل الذي كان يتسكع كلب البيجل أمامه-
مألوفًا للغاية. لكنني لم أتعرف على أي من المنازل الأخرى.

- ولن تتعرف عليها. لقد نشب حريق، وأعيد بناء معظم المنازل.

- حقًا؟ (عبس وجهه). يبدو أنني أتذكر ما حدث، لكن... يستحيل أن يكون ما أذكره حقيقيًا. **مستحيل** لقد فعل الأب خاصتك شيئًا، صحيح؟ أعني فعل شيئًا بعقلي، بذاكرتي.
- نعم، صحيح.
- إذن ماذا حدث بالضبط؟ انتظري! لا. (فرك صدغيه مترددًا). لقد غيرت رأيي، لا تخبريني. مهما كان ما حدث، أراهن أنني تصرفت بحماقة بطريقة أو بأخرى.
- طرفت عينا كارولين مشدوهة: «لا. لم تتصرف بحماقة. على الإطلاق. ما تقوله هذا بعيدٌ كل البعد عن الصواب».
- رفع عينيه متشككًا، لا يدري هل يصدقها أم لا. لكن تعابير وجهها كانت ألطف مما رآها من قبل.
- لدي عرض لك يا ستيف. ما رأيك لو أخبرتك أن هناك طريقة لتصحيح كل ما حدث؟
- رمقها ستيف بنظرة حادة: «عمّ تتحدثين بالضبط؟».
- الشمس. والزلازل. وكل شيء.
- ستعيدين تلك التي لا أدري ما اسمها إلى مكانها؟
- ليس تمامًا. في الواقع لا أستطيع إعادتها إلى مكانها. إن ميتراجانهي بصحبة الأب الآن.
- تقصدين ميتة؟
- لا. ليست ميتة. لقد رحلوا بعيدًا. ميتراجانهي ونوبونونجا والأب. لن نراهم ثانيةً.
- رفع ستيف حاجبه مستغربًا مما يسمع: «ماذا تقصدين بـ «بعيدًا»؟».
- أظن أنه عالم جديد. أبدعه الأب. عالم حيث تنطبق شروطه وأحكامه هو.
- هزّ ستيف رأسه: «أنتم يا رفاق تعيشون فعلًا في عالم مختلف كليًا. أتعرفين ذلك؟».
- مم... ربما تندesh لما سأقوله، لكني لا أختلف عنك كثيرًا. وأي أحد في مكاني كان ليفعل ما فعلت.

- أشكُ في ذلك صراحةً.

أطرقت برأسها واكتنفها صمتٌ طويل. ولمّا تكلمت خرجت نبرتها هادئة ولطيفة: «لكن لكل شيء ثمنًا. وفي سبيل تحقيق رغبتى، جرّدتُ نفسي من وقود الكراهية».

أومأ ستيف مؤمنًا: «نعم. لا حظتُ ذلك أيضًا».

نظرت إليه متسائلة: «لاحظتَ ذلك؟ حقًا لاحظته؟».

- نعم. لاحظته حقًا.

ابتسمت كارولين: «أتعرف.. أنا أصدّقك. شكرًا لك (ومدّت يدها لتلامس خده. فشعر بأطراف أناملها دافئة على غير العادة وهو ما أثار دهشته) لكنى سأتعلم من أخطائى وأتصرف بذكاء».

- صدقًا؟

- صدقًا. (تركت يدها تسترخي عن خده). سأصلح ما حدث يا ستيف.

كان يجدر بي أن أنصت إليك. لقد كنتَ على حق دومًا.

رفع ستيف حاجبه مستغربًا: «أوه؟ هل ستعيدى الشمس؟».

أومأت كارولين بإيجاب: «سيعود كل شيء كما كان تمامًا فى الوقت نفسه غدًا».

- ظننتُ أنكِ قلتِ باستحالة عودة الشمس. وإن ديفيد لا يمكن ...

- لقد رحل ديفيد. تركته يموت.

- ماذا؟ متى؟

- منذ بضع ساعات.

- وماذا عن مشروع انتقامك؟

هزّت كتفها بلا مبالاة: «كفى انتقامًا. لا أريد المزيد».

- مم... أظن أن بإمكانى القول هنيئًا لك. لكن إذا لم يكن هو الشمس، فكيف ستعيدى ...

نظرت إليه مقاطعةً كلامه: «وجدتُ طريقة أخرى».

- رائع. هذا مذهل يا كارولين. حقًا مذهل. لكن ماذا عما يحدث بالخارج؟

هناك مجاعة، صحيح؟ ما زال الناس يموتون جوعًا. وذلك البركان ...

- الوضع ليس سيئاً إلى ذلك الحد، لم يصل إلى تلك الدرجة بعد. ولن أسمح بأن يسوء أكثر. لقد تحدثتُ إلى البركان أسفل متنزه يلوستون وهدأته. أما بالنسبة إلى المجاعة... فهناك خدعة أعرفها. طريقة لإنتاج خبزٍ من الغيوم. يستغرق طاقة هائلة ووقتاً أقل، وأنا لدي متسع للثنيين. ما إن تشرق شمس الغد، سيتساقط الطعام من السماء. على العالم بأكمله. وسأفعل ذلك كل بضعة أيام حتى تنمو المحاصيل ثانية.

- لا أصدق. حقاً؟

أومأت كارولين بإيجاب.

- وماذا عن المكتبة؟ والزلازل؟

- عادت المكتبة إلى مخبئها. والزلازل ستتوقف. لقد أعدتُ القمر إلى مداره القديم، وسيستقر المد والجزر. قريباً.

- كارولين... هذا... هذا مذهل. لكن ما السبب؟

- أنتَ هو السبب يا ستيف. بسبب ما فعلته.

- أنا؟ وماذا فعلتُ أنا بحق الجحيم؟

- كنتَ صديقي. هذا ما أقصده. وقد كنتَ صديقاً مخلصاً بحق. أفضل ما لدي في هذه الحياة. وهذا ليس حكرًا علي أيضاً.

ضمتَ يديها أمامها كأنها تمسك كوبًا، فارتفع السديم من بين راحتيها، متجمعاً في شكل كرة. استغرق ستيف برهةً ليدرك أن الكرة بين راحتيها هي الأرض، لكن في حجم كرة سلة ومرئية من الأسفل، فكان القطب الجنوبي أنتاركتيكا في الأعلى، وأمريكا الجنوبية في الأسفل، والغيوم والمحيطات. راحت الكرة تحلّق على بعد إنشات من راحتها وتدور حول نفسها في ببطء. ولمّا نظر ستيف من بين جفنين ضيقين رأى مسارًا خافتًا لطائرة نفاثة تحلّق فوق المحيط الهادئ.

- انظر يا ستيف. على هذه الأرض، ملياراتُ من الناس. سيكون حالهم على ما يرام الآن. أعني كما كانوا من قبل ذلك. أعدك بذلك، أعدك أنني سأصلح الأمور. وكل هذا بسببك أنتَ.

نظر ستيف إلى الكرة، ومدَّ يده ليلامسها، ثم عدل عن الفكرة. علّق نظره على كارولين، عاجزاً عن فهم اللغز بين يديه. لكن عينيها تتلألآن.

أردفت كارولين: «لقد أنقذتهم يا ستيف. أنقذتهم فردًا فردًا. ناجا. وبيتي. لقد أنقذتهم جميعًا. أنت وحدك من أنقذهم».

- حقًا؟

- نعم.

ابتسم ستيف مبتهجًا، لكن دمعًا واحدة تفرقت من عيني كارولين وسقطت على خدها.

- كارولين، لماذا ...

أبعدت يديها، والأرض ما زالت معلقة في الهواء من غير دعم. تدور حول نفسها وتدور. راح ستيف يراقبها مشدوهاً، ومسار الطائرة النفثة يزداد طولاً ببضعة إنشات.

فكر ستيف: «أنقذتهم؟ أنا؟». في مخيلته الواسعة، لمح جاك يخرج من الظلال الحالكة لضوء الشمس البراق.

دارت كارولين حتى وقفت إلى جانبه وهمست في أذنه، متفوهةً بالكلمة التي همس بها الأب لميتراجانهي منذ وقتٍ طويلٍ جدًا حين استدعى بزوغ فجر العصر الرابع.

ما إن يسمع ستيف هذه الكلمات ...

... يتوقف ...

... الزمن.

4

طفا ستيف بخفةٍ في المطبخ الملحق بشقة البنتهاوس. أخرجت كارولين زجاجة مياه غازية من الثلاجة وجلست إلى طاولة المطبخ. لكنها لم تمسّ

مشروبها، وراحت تدخن السجائر في تودة، واحدةً تلو الأخرى. أحياناً لا تلامس شفيتها، بل تشعلها وتدعها تحترق لتنتهي إلى عمودٍ متداعٍ من الرماد. وريثما فرغت علبة السجائر، كان رأس ستيف محاطاً بكرةٍ ملتهبة من الطاقة.. صفراء برتقالية، شمسٌ جديدة تشبه سابقتها. لاحظت ارتباطه الوثيق بمستوى الفرح، لدرجة أن وهج إشراقه سيفوق وهج ميتراجانهي. ولربما تطوي المكان قليلاً لكيلا يستحيل عطارده إلى جمرة من نار.

حلّت وثاق أحد أربطة حذاء ستيف، وربطته به ليصير مقوِّداً، ثم جذبته من ورائها إلى القاعة الكبرى، صاعدين السلالم المؤدية إلى أرضية اليشم أسفل مجسّم الكون. كانت جثة ديفيد ملقاة هنا، غارقة في الدماء، ومغطاة بمفرشٍ بلاستيكي. صارت آلامه شيئاً من الماضي الآن. وفي وقتٍ لاحق ستطلب من الموتى إخراجه من المكان، وستعثر على ما تبقى من رفات مارجریت وتكفّنهما معاً في كفّنٍ واحد. وستدفنهما معاً.

حلّق ستيف في السماء، ثم أعادت كارولين المدارات إلى ما كانت عليه في السابق. لم تحتج حتى إلى إجراء أي عمليات حسابية معقدة. وحدثت نفسها: «لقد بدأت أستوعب كيف أسير الأمور».

أمامها الكثير لتنجزه، لكنها لم تعد ترغب في البقاء داخل المكتبة. ليس اليوم على الأقل. كان القصف قد سوّى جاريسن أو كس بالأرض وأحالتها إلى ركام، كما أنها ما زالت محاطة بالدبابات والجنود، لكن للمكتبة مداخل أخرى، واجهات أخرى. اختارت منزلاً ريفياً في أوريغون، مكانً هادئاً في الطرف البعيد من طريقٍ طويل.

في ذلك المكان الجديد، مشت إلى المطبخ وأعدت القهوة. وبدون تفكيرٍ انهمكت في تنظيف الأطباق والأكواب. لمّا أنهت عملها، مشت إلى دورة المياه، بعد أن استغرقت دقيقة للعثور عليها، ثم أعدت حماماً ساخناً جداً. كانت الجدران الخلفية لحوض الاستحمام مغطاة ببلاط أخضر ليموني، والمصابيح متببسة من قلة الاستخدام. «لكنه نظيف».

بعدما قضت وقتاً طويلاً، خرجت من حوض الاستحمام وجففت جسمها. لم يبزغ فجر ستيف بعد، والهواء بارداً بعض الشيء، نحو عشر درجاتٍ تحت الصفر. وفشلت في تشغيل الفرن. لكنها ألقت نظرةً على خزانة الملابس فوجدت روب حمام معلّقاً هناك، بانتظارها. كان جديداً وبطاقة التسعير ما

تزال ملصقة عليه. كما أنه كان مقاسها تمامًا. هزّت رأسها في غير تصديق.
«إنه الأب».

على أرضية الخزانة أسفل الروب، وجدت صندوقًا يحوي نعالًا محشوًا
وناعمًا. بدا النعال مضحكًا؛ برز رأسٌ محشوٌ لدمية على شكل قطعة تضحك
فوق أصابع القدم. استغرقت في فحصها مشدوهة، وهي تحدّث نفسها لا أحد
آخر: «تمتع الأب بحسّ فكاهي حقًا. مَنْ كان يدري؟». لكن رغم مظهر
النعال السخيف، كان ناعمًا ودافئًا.

ارتدت النعال، ثم مشت إلى أن وقفت أمام النافذة الخلفية. كانت تطل على
حقلٍ شاسع، أضفت عليه الثلوج بياضًا ناصعًا. ومن ورائه إسطنبول ومجرى
ماء صغير.

طرفت عينيها، وفي الطرف البعيد من الحقل المترامي، رأت رجلًا شبه
مختبئ في الغابة. طرفت عينيها مجددًا: «هذا مستحيل».

نطقت بكلماتها وهي تتذكر الدخان المتصاعد من الأطلال الممزّقة لمنزل
السيدة ماجيلكاتي.

ثم خطر لها ما قاله الأب: «كدت أنسى. لقد تركتُ لك هدية». ثم
خطر لها صوت رجلٍ آخر، خافتًا ومرتبكًا: «كنتُ مع... مع... الكائنات
الصغيرة. أمرني الأب. أمرني الأب أن أدرس طرق الحيوانات المسالمة
والصغيرة».

ثم عاد إليها صوت ديفيد: «ربما تمكّن فأر من التسلل. ليس أكثر من
ذلك».

اتجهت إلى الباب الأمامي، في شيءٍ بين المشي والركض، ودفعت بالباب
لينفتح.

- مايكل!

استجاب لندائها، محاطًا عن يمينه بثلاثة ذئاب وعن يساره بفهد. توقفوا
على أعتاب الفناء الأمامي للمنزل. وحدّق إليها مايكل بعينين متسعيتين، ثم
ناداها بقلب الأب القديم: «سهلاني؟».

فتحت كارولين فمها لتنكر القلب، ثم أطبقت شفتيها، وبعد صمتٍ طويل،
استسلمت للحقيقة وأجابت بأبسط إيماءة ممكنة.

تبادل مايكل والذئاب والفهد بعض الحديث، ثم استلقوا جميعًا على ظهورهم في الثلوج، كاشفين عن بطونهم.

حدّثت إليه كارولين مذعورة: «لا! إياك! ماذا تفعل؟ انهض!».

لكنه لم ينهض، وظل مستلقيًا على ظهره يرتجف خائفًا. ولم يبادلها النظر حتى.

غاصت في الثلوج نحوه، والعينان الصفراوان لقطتها الكرتونية تبرزان من سطح الثلوج. داعبت أذنه برفق: «انهض يا مايكل. انهض من فضلك. ما من أحد هنا غيري».

نهض مايكل بتؤدة: «أنت... الذي فعلته... أنت...».

- آسفة جدًا يا مايكل. اضطرت إلى ذلك. لم يكن أمامي سبيلٌ آخر. ألا ترى؟

راح يرمقها لوقتٍ طويل في تشكك. ولم يحر جوابًا.

ابتسمت يائسة، ثم لامست خده: «البرد قارس هنا. هل أنت جائع؟ هل أحد منكم جائع؟ من الأفضل أن تدخلوا البيت. ربما نجد طعامًا، أو...».

فكّر مايكل في كلامها مليًا، ثم بدأ وجهه يتغضن في ابتسامة. ما إن رأت ابتسامته، شعرت كارولين بشيءٍ ما بداخلها يسترخي. التفت مايكل إلى الذئاب، وتبادل حديثًا معها. لم تفهم كارولين ما دار بينهم، لكنها رأت ذيول الذئاب تتأرجح.

ثم تقدّمتهم إلى داخل المنزل.

تبين أن هناك طعامًا بالفعل في الثلاجة، بل الكثير منه، خمسة صدور لحم بقر مشوي وديك رومي كامل. أكل مايكل وأصدقائه الحيوانات بشراهة، ثم تكوموا معًا وغطوا في النوم أمام النافذة البارزة لغرفة المعيشة. أتت كارولين بوسادة، ثم افترشتها على الأرض إلى جانبهم.

ثم... وللمرة الأولى منذ وقتٍ طويل جدًا، أشرقت الشمس. وتحت وهجها البرتقالي الساطع، تمددت ظلال مايكل وقطيعه طويلة على أرضية غرفة المعيشة.

عند رؤيتها لزاوية الانحراف الشمسي، خطر لها أن «الكلمة الأمريكية لهذا الوقت من العام هي «أبريل» أو أحيانًا يطلقون عليه اسم «الربيع»».

هذا صحيحٌ قطعاً، والصحيح أيضاً أن هذا الوقت في تقويم المكتبيين هو القمر الثاني، أي قمر الأمل المشتعل. جلست كارولين في ثوبها النظيف دافئة تتأمل أصدقاءها النائمين. القطن الوردي لروبها يحتضن بشرتها برقة ونعومة، والرأس المحشو لنعالها ذو القطة الكرتونية يعانق أصابع قدميها. ظلَّت على تلك الحال لوقتٍ طويل، تتأمل الشمس الجديدة وقد بدأت تذيب الثلوج الرمادية لذلك الشتاء الطويل.

وكانت تبتسم.

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

خاتمة

إذن، ما الذي آل إليه مصير إروين؟

وقعت الأحداث التي أُلقت بإروين في السجن بعد ظهيرة يومٍ حار، لكنها كلفته عشرة أعوام خلف القضبان، باستثناء جزءٍ مقتطع من المدة لحسن السير والسلوك. كان هذا بعد الغارة الجوية على الهرم بوقتٍ قصير، حين بدأ الطعام يصبح شحيحاً جداً. عُرض للمحاكمة، لكنها لم تدم سوى أسبوعٍ واحد. ثم أخذ مباشرةً إلى سجن بيج ساندي، وهو سجن فيدرالي شديد الحراسة في كنتاكي. حينها تفاجأ إروين أنه لا يمانع البقاء خلف القضبان.

بادئ ذي بدء، خَفَّ عنه الضغط. بعد أسبوعٍ أو اثنين من القلق والتوتر، أخذ رهيئته أخيراً، متسائلاً عما إذا كان ما فعله هو القرار الصحيح أم لا، وقلقاً في الآن نفسه من أن ينتهي به المطاف في السجن. والآن بعدما انتهى الأمر وفعل فعلته، يمكنه الاسترخاء. الاسترخاء حقاً. وللمرة الأولى منذ سنين، ليس هناك ما يقلق مضجعه.

تميزت الحياة في بيج ساندي بنظام صارم ذكَّره بالتدريبات الأساسية. كان قد أبرم اتفاقاً بالسكوت عما فعله مقابل حكم متساهل نسبياً. بدأ الحكم عليه بالسجن لعشر سنوات سيئاً، لكن في المحصلة كان للأمر أن يسوء عما

هو عليه. وأكّد له الرئيس أنهم سيجدون طريقة يجعلون بها الحكم بالسجن «مدى الحياة» وراء قضبان سجن شديد الحراسة إذا أثار أي ضجة أو سبب لهم أي مشكلة. لكنه أحسّ براحة غير متوقعة في السجن. ليست الراحة التي يحس بها المرء في فندق فاخر بالطبع، لكن زنانيته حديثه التجديد ونظيفة، كما أنه استأثر بها لنفسه. ثم تبين أن معظم الناس قد شاهدوا فيلم نطنز أو قرؤوا الكتاب أو كليهما، لذلك سرعان ما عرفوا هويته. وفي مقابل حكاية من حكايات الحرب يقصصها إروين، تولى أحد الحراس، ويدعى بلاكلي، وهو رجلٌ يملك بطاقة ائتمانية كما أنه مغرم بنطنز، القيام بزياراتٍ إلى مكتبة بارنس & نوبل. وداشين، ذلك الفتى الذي علّمه إروين كيف يتشاجر، قد بلغ العشرينات من عمره آنذاك، وأصبح متداول سندات ناجحًا. وقد أصرّ الفتى على دفع ثمن الكتب التي يشتريها إروين، كما كان يودع مئتي دولار شهريًا في حساب تموين باسم إروين. لطالما قدّر إروين جهود كل من تكبد عناء تخفيف وطأة السجن عليه. كما أنه بدا لطيفًا أن يتمتع المرء بطريقة أخرى لتمضية الوقت إلى جانب الخيالات الجنسية.

لا شك أن إروين قد خضع لاختبارات المستجدين التي يجريها السجناء الآخرون، وقد فهم إروين المغزى من ورائها. لقد أخضعوا مايك تايسون لتلك الاختبارات حين كان في السجن هو الآخر. حاول أحد السجناء أخذ غطاء وسادته، فخلع إروين حشوات ضروسه. وبعد يومين جاء إليه صديق الرجل، وكان رافع أثقالٍ من ألاباما، ليتحدث معه فيما حدث. لكن إروين ضرب الرجل الثاني ضربًا مبرحًا لدرجة أن الرجل المضروب ظنّ طيلة أسبوعين كاملين أن الناس يقرؤون أفكاره. وهو في الحقيقة يحادث نفسه بصوتٍ مسموع دون أن يدرك. كان قد أصيب بتورّم في الدماغ أو شيء كهذا. وقد شعر إروين بالأسف نحوه، لكن الرجل الضخم هو من دفعه لذلك. ومع ذلك كان في الإنصات لأفكاره بصوتٍ مسموع شيء من الفكاهة. كان الرجل يبدي حماسًا حقيقيًا ليلة يقدمون بودنج الموز في مقصف السجن، كما كان يتمتم بينه وبين نفسه بملاحظاتٍ ذهنية عمّا سيراوده عندما كان الجميع يشاهدون التلفاز في الغرفة المشتركة. ثم امتثل الرجل إلى الشفاء بعد أسبوعين، وبعد ذلك صار الجميع مهذبين في تعاملهم مع إروين.

وبخلاف تلك الحادثة، خيم الهدوء على حياة إروين. كان قد وصل إلى كنتاكي بُعيد عودة الشمس الذهبية، لكن طيلة الأسبوعين الأولين من مدة سجنه، ظلَّت وجبات السجناء لا تزيد على لقيمات. فستمئة سعر حراري لا يعطونك طاقة كافية لافتعال المشكلات. ولمَّا بدأ ذلك الخبز يتساقط من السماء، خلس الحرَّاس والسجناء على حدٍّ سواء أن الحل الأمثل في التعامل مع إروين هو أن يتركوه وشأنه.

وهو ما ناسب إروين تمامًا.

لكن لكونه مسجوناً مستجداً، لم يكن من المفترض به تلقي أي رسائل بريدية طيلة الشهرين الأولين من مدته. لكن أحد الحرَّاس عرفه من سنين خدمته في أفغانستان، وحارسٌ آخر قد خدم بالفعل في نطنز. ولهذا كانا يوصلان إليه -سهواً- رسائل من ثورب وداشين وزملائه القدامى في الخدمة. لم يعرفا بالقصة الكاملة وراء سجنه، لكن إيمانهما بإروين لم تشبه شائبة. وهذا لطفٌ منهما.

إذن، كانت تصله رسائل البريد، وتأتيه الكتب، ويستأثر بمكانٍ خاص حين يرغب في الاختلاء بنفسه، وحوله أناسٌ يلاعبهم الشطرنج حين لا يرغب في البقاء وحيداً. صحيحٌ أن الطعام سيئٌ، لكن ماذا عساه يفعل؟ في المحصلة، كان قانعاً بما قُسم له من الحياة.

لكن الليلة تحديداً، باغتته ساعة النوم. كان ما يزال عاكفاً على قراءة كتابٍ جديد طويلاً ما انتظره، وهو رواية السعي إلى الكمال، الكتاب التاسع من سلسلة ستيفاني بلام، ولم ينتبه لانفلات الوقت من بين يديه. كان الحارس بلاكلي قد أبدى استغرابه حين طلب منه إروين اقتناء ذلك الكتاب تحديداً. فأوضح إروين أن من حق الفائز بميدالية الشرف قراءة ما يحلو له. وعلى أي حال، لطالما أحبَّ الجانب الفكاهيَّ الطاغي على كتابات جانيت إيفانوفيتش. فترجع بلاكلي عن استغرابه وسأله خاضعاً إن كان بإمكانه استعارة الكتاب بعدما يُنتهى إروين، فوافق الأخير.

اعتزم إروين على تسليم الكتاب له في اليوم التالي، لكنه تلقَّى خطاباً من داشين اليوم، وقضى نصف ساعة كاملة يجيب على الخطاب، ولهذا تبقت أمامه عشر صفحات حين حلَّ الظلام على المكان. فكَرَّ لهنيهة أن يحاول

القراءة تحت شعاع الضوء المتسلل من فتحة المراقبة في بابه؛ كان الكتاب ممتعاً، وقد بدأ لتوه مضغ قطعة جديدة من النشوق، ثم عدل عن فكرة الاستمرار في القراءة. طوى إحدى الصفحات ووضع الكتاب على الأرض إلى جانب سريره.

وبينما يضع الكتاب على الأرض، قبض أحدهم على رسغه.

لم يصرخ إروين، لكن صراخه كان وشيكا. انقلب على جانبه ليلقي نظرة من طرف السرير. فقد كان الضوء المتسلل كافياً ليرى ذراعاً قد انشقت وخرجت من الأرض.

- ما هذا الخراء؟

جاهد إروين في سحب يده ولفّها، محاولاً تحرير معصمه، لكن زاوية جسمه المستلقي على السرير زادت الأمر سوءاً، وذلك الذي يقبض على يده -سواء أكان بشراً أم غير ذلك- قويٌّ جداً. وبعد برهة، انبثقت أطراف يدٍ أخرى من الأرض. وبحركة من يحاول دفع نفسه إلى خارج حمام سباحة، أمسكت اليد بخرسانة الأرضية وسحبت نفسها للأعلى.

خرج رأس امرأةٍ عبر الأرضية الخرسانية. ثم حرّرت يد إروين، مستعينةً بالأرضية الخرسانية لتدفع نفسها، وتُخرج جذعها من الأرض. وأخيراً رفعت ساقيها، مما جعل ذهن إروين يتشتت لهنية مفكراً: «ساقان جميلتان بالمناسبة». ثم نهضت.

- مرحباً إروين.

ضيق عينيه وهو يفحص ملامحها، ثم تراجع إلى الورا متنفساً الصعداء.
- آه، تبا. أهذا أنت؟

أجابت كارولين: «نعم. ماذا تفعل هنا؟ استغرقت وقتاً طويلاً لاقتفاء أثرك».

فكر إروين في الإشارة إلى أنه قد يسألها الشيء نفسه، ثم عدل عن الفكرة. اعتدل جالساً وهو يجيب: «مم. تعرفين ما يحدث. أدبْتُ أحدهم بعض الشيء. لم يتأذ كثيراً، بضع أسنان مكسورة فحسب. (هزَّ إروين كتفه بلا اكتراث وبصق). لكنه شعر بالإهانة».

قطّبت كارولين حاجبيها في حيرة: «لا أفهم السبب في إعطاء هذا الأمر حجمًا أكبر من حجمه. هذا جزءٌ من طبيعتك، أليس كذلك؟».

- هذا الرجل بالذات كان الرئيس.

ولمّا رأى النظرة على وجهها، أضاف: «الرئيس الجديد. وليس الرأس».

- آه.

فكّرت فيما قاله لبعض ثوانٍ، ثم سألت: «ولماذا ضربته؟».

- ظلّ يتملّص ويتلوى. وخشيتُ أن يطلق المسدس رصاصةً غير مقصودة.

- مسدس؟ هل قتلته؟

- لا، كسرت أسنانه فحسب. كما أنني اتخذته رهينة، قرابة ثلاث أو أربع ساعات.

- أوه! وماذا حدث بعد ذلك؟

- انهار. عرفتُ أنه سينهار بعد ذلك. (بصق إروين في كأسه). جبان.

- ماذا تقصد بأنه «انهار»؟

- احم. يمكنك القول إنني كنت أبتزّه. وهددته إذا لم يطلق القذائف، فسأفجّر رأسه على ذلك الأثاث الخشبي الفخم. فكّر في الأمر قليلًا، ثم أطلق القذائف.

- على مَنْ؟

- مم... عليك.

- حقًا؟ أنا؟ لماذا؟

جلس إروين على سريرهِ، واستدار ليكون قبالتها وجهاً لوجه. كانت عيناه ما تزالان تعتادان الظلمة. ثم أجابها: «أخبرني ذلك الفتى ستيف عما اعتزم فعله إذا لم تنجح غارتنا الجوية. التي لم تنجح كما تعرفين. أمهلته أسبوعًا بعد ذلك لأرى إن كان سيقدر على إقناعك بإبطال ما فعلته، لكن لم يحدث أي تغيير».

صمت إروين قليلًا، ثم سأل: «هل نفّذ خطته؟ أعني إحراق نفسه بخمر إيفركليير... كما تعرفين».

أكملت كارولين: «والقدّاحة. نعم. نفّذ الخطة».

- سحقًا!

ظلّ إروين صامتًا لهنيهة، ثم أضاف: «حسنًا... سواء نفّذ الخطة أم لا، من الواضح أنها لم تنجح كذلك. تراءى لي أننا استنفدنا كل الاختيارات المتاحة. لكن الرئيس لم يتفق معي. وقال إنه «يستكشف خيارات أخرى». ربما. لكنني على يقين تام من أنه كان قلقًا بشأن إعادة انتخابه. (رفع إروين كتفيه في استسلام). وبعد فترةٍ سئمتُ الجدل في الأمر».

حدّقت إليه كارولين: «إذن أنت من فجّر جبل تشار؟ دككته دكًا بالقنابل النووية؟».

- فجّرتُ ماذا؟

- لا أفهم. أعد ما قلته.

- قلتُ إنني فجّرتُ... «جبل تشار»؟

- هل قلتُ ذلك؟

- نعم.

ابتسمت كارولين قليلًا: «ههه».

- حسنًا، أنا تائه لا أفهمك.

- ماذا؟ آه، آسفة. حين كنّا صغارًا، اعتدْتُ وستيف أن نطلق أسماء مستعارة على الأشياء من حولنا. أسماء سرية. هذا أمرٌ معهود بين الأطفال كما تعرف. لدرجة أننا رسمنا خريطة بأسماء الأماكن المستعارة. مثل ملعب الحصى، ونهر ققط القفز، وأشياء من هذا القبيل. أما جبل تشار فهو الاسم الذي أطلقناه على منزل الأب.

- وهل من سبب معين لذلك؟

- كما تعرف، أنا ...

قطعت حديثها وفرقت أصابعها: «في الحقيقة، أنا أذكر فعلًا. هل أخبرك ستيف عن الأب؟».

- قليلًا.

- تذكر أننا آنذاك ظننا أن الأب مجرد رجلٍ عادي. كنّا نراه في الخارج من وقتٍ لآخر، لكنه لم يكن اجتماعيًا قط. أفهم الأمر الآن -رباه، وأي فهم هذا- لكن في ذلك الوقت بدا تصرفه غريبًا جدًا. كان الناس يدعون السيد بلاك للتنزه معهم، وشرب الجعة، لكنه ظلّ يردد دومًا العذر نفسه: «سأنضم إليكم ما إن أحصل على حُمرة الطهو المرجوة من شريحة لحم الخنزير» كل مرة. اعتاد الكبار أن يسخروا من عذره هذا. كما أن منزله كان على قمة تلة شديدة الانحدار. لذلك في نظري أنا وستيف، أصبح منزله هو جبل الفحم، جبل تشار. قبل ظهور المكتبة في حياتنا، و... كل تلك الأمور الأخرى. حين كنّا مجرد أطفال... كما تعرف... كان كل شيء على ما يرام.

ابتسمت كارولين وهي تنهي كلماتها. بدت حزينة في نظر إروين، لكنها ليست بالضرورة غير سعيدة. ثم عادت من شرودها، واستأنفت: «أعني أن الأمر بدا منطقيًا آنذاك. أتساءل عما جعلني أفكر في ذلك الآن. لم أسمّه بذلك الاسم منذ زمنٍ بعيد».

أجاب إروين: «لا أدري». رغم أنه خَمَّن سببًا وراء ذلك.

سألت كارولين مجددًا: «وَأَنْتَ فَجَّرْتَهُ؟ دَكَّكْتَهُ بِقَنَابَلِكِ النَّوَوِيَّةِ؟».

- نوعًا ما، نعم. (نظر إروين إليها). ألم تلاحظي؟ كانت جميعها ضربات مباشرة تمامًا. عشرون ميغا طن في المجمل. كان بإمكانك رؤية سحابة دخانية مثل عيش الغراب على بعد ولايتين.

- آسفة، لم ألاحظ. لا بد أنني فَوَّتُ الحدث. (ثم نظرت إليه معتذرة). لقد كنتُ منشغلة للغاية.

- لا بأس. (تقطَّبَ حاجبا إروين). ظننتُ أنكِ أَتَيْتِ لِقَتْلِي. لتنتقمي مني وما إلى ذلك. لكن ربما هذا ليس السبب.

- أَقْتَلُكَ؟ لا تكن سخيفًا.

- ما سبب مجيئكِ إذن؟

- أنا هنا لأعرض عليك وظيفةً يا إروين.

- أعيدي ما قلته.

- لقد قدمت إليّ مساعدات كثيرة، وما زال هناك الكثير لتحقيقه معًا.
- شكرًا لك، لكنني اكتفيتُ من إطلاق الرصاص على الناس.
- هذا ليس ما فكرتُ فيه. حسنًا، لا يمكننا القول إنني لم أفكر فيه قط، لكن هذا ليس المغزى الرئيسي من مجيئي.
- وما هو إذن؟
- أمور متفرقة. مهمات بسيطة. أشياء لا أجيد فعلها.
- مثل ماذا؟
- أول شيءٍ فكرتُ فيه هو أنني أريد منك البحث عن كلب.
- كلب؟ هناك كلابٌ لعينة في كل مكان.
- لا، أقصد كلبًا بعينه. أحتاج منك حقًا أن تعثر عليه من أجلي. لأنني قطعتُ وعدًا وأنا والكلاب لسنا على وفاق أبدًا.
- آه. حسنًا، أي كلب هذا؟
- اسمه بيتي. من فصيلة كوكر سبانيل.
- لا أعرف أي كلبٍ من فصيلة كوكر سبانيل واسمه بيتي.
- ربما يكون ميتًا.
- خيم صمتٌ طويل عليهما، ثم تساءل إروين: «هل تعبتين معي؟».
- ما كنتُ لأفعل شيئًا كهذا قط يا إروين.
- ثم... ومن قاع المرحاض الفولاذي جاءهما صوتُ رجل: «لن تعبت معك. كارولين معجبة بك».
- ما هذا بحق الجحيم؟
- هذا أخي. اسمه مايكل. (ثم أضافت بصوتٍ خافت) إنجليزيتَه ليست جيدة، لكنه يبذل قصارى جهده. كن صبورًا، اتفقنا؟
- أجابها إروين هامسًا: «نعم، بكل تأكيد (ثم عاد يتكلم بصوتٍ مسموع) حسنًا، سيسعدني البحث عنه في الزنزانة، لكنه ليس هنا، وربما لن أفيديك في هذا الأمر كثيرًا (أشار بإبهامه إلى باب الزنزانة) إنه مقفول كما تعرفين».

- لا تكن غليظًا يا إروين. سأخرجك من هنا بالطبع. سأخرجك، حتى لو لم تقبل الوظيفة. لا شك أنني أدين لك بالكثير. لكن هناك منافع أخرى أيضًا لقبول الوظيفة. يمكنني أن أعلمك أشياء جديدة.

- أشياء جديدة؟

أومأت كارولين بإيجاب: «أشياء مثيرة للاهتمام. في الحقيقة بإمكانني أن أعلمك الكثير. إن لدي مكتبة الآن».

راح يلوك الفكرة في رأسه لبرهة، ثم أجاب: «ربما تبدئين بإخباري عما فعلته في ذلك المصرف؟ كيف أقنعتهما المصرفيين بمساعدتكما هكذا؟».

- بالتأكيد، إذا ...

تناهى إليهما صوت الرجل مجددًا، ثرثرة سريعة بلغة لم يميزها إروين. فأجابته كارولين بثرثرة مماثلة غير مفهومة: «تشا جواي».

- أرو بينه تا ...

كررت كارولين الكلمة نفسها بنبرة صارمة هذه المرة: «تشا جواي». صمت الصوت القادم من المرحاض. فسأل إروين: «ماذا يحدث؟».

- يقول إنهم قادمون.

سمع إروين جلبة في الردهة بالخارج، ضوضاء صاخبة، تشبه الصوت الذي نذ عن انهيار برجى مركز التجارة العالمية. ثم تعالى صراخ متتابع. ومن فتحة النافذة في الباب، رأى إروين سحابة رمادية من الغبار تندفع عبر الممر.

كشّر وجه كارولين، وهي تقول: «اتخذ قرارك الآن يا إروين. سأفعل كل ما تريده، لكنني أحتاج إلى الذهاب الآن حقًا. هل ستأتي معنا؟».

فكّر إروين في الأمر لجزء من الثانية: «اللجنة. نعم، أريد الانضمام».

- هل تحتاج إلى أخذ أي شيء معك؟

- لا. مهلاً. (وأخذ كتاب إيفانوفيتش). هذا فحسب.

ابتسمت كارولين: «ستأقلم معنا تمامًا. والآن، خذ بيدي».

أخذ إروين بيدها. ومن الردهة في الخارج، سمع صريراً معدنياً يصمُّ
الأذان.

- إذن... قلتِ «إنهم قادمون». مَنْ تقصدين؟
- لستُ على يقين بعد. إن للأب أعداء، وصار بعضهم أعدائي الآن كذلك.
وقد بدؤوا يتحركون ضدي.
- أناسُ خطرون؟ أعني خطرون مثلكِ؟
- نعم، بعضهم.
- هممم.
- طمأننته كارولين: «لا تقلق. لديّ خطة».

_____ تمت _____

شكر وعرفان

على مدار السنين، تلقيتُ مساعدة وتشجيعًا من أناسٍ كثيرين لا تسعفني الأوراق لذكرهم. لكنني أقدرُ كل لحظة تشجيع ومساعدة تلقيتها. إذا لم ترَ اسمك هنا كما كان ينبغي، فأنا أعذر لك سابقًا.

أولًا وقبل كل شيء: أتوجه بالعرفان لزوجتي هيدر. إنها أفضل قارئة أولى. لديها قوة الملاحظة التي تمكنها من رؤية الخطأ حين لا تسير الأمور على ما يرام، ولا تخشى أن تلقني درسًا حتى أرى الخطأ بدوري. يجدر بكل كاتب أن يكون محظوظًا بشخصٍ مثلها في حياته.

لقد حضرتُ ورشة «تاوس تولبوكس» للكتابة في عام 2011. وقد تركت تلك التجربة أثرًا كبيرًا على كل شيءٍ كتبتُه منذ ذلك الحين، وأوصي بها كل الطامحين للكتابة في مجال الخيال. إنني ممتنٌ لكل زملائي المشاركين في الورشة على مراجعاتهم القيّمة والأمانة على الفصول الأولى من الرواية. وأخصُ بالذكر: جيم ستريكلاند، وفيونا لين، وكارول آن مولتي، الذين قدّموا ملاحظاتهم القيّمة على المسودة النهائية. والمعلمان: والتر جون ويليامز، ونانسي كريس، هما معلمان موهوبان يتمتعان بكرم الأخلاق.

كما أنني لا أنسى مجتمع الكُتّاب -سواء كان الافتراضي أم المادي- وهو مجتمعٌ متين وداعم. لم أعد أحصي المرات التي تلقيت فيها تعليقات نقدية طويلة ومفصّلة من أناسٍ لم ألتقيهم في حياتي قط، وربما لن ألتقيهم أبدًا. كما أن بعض المصادر الافتراضية مثل absolutewrite.com و sff.onlinewritingworkshop.com قد عادت عليّ بنفع كبير. ألقوا نظرةً على موضوع جيم ماكدونالد «تعلم الكتابة مع العم جيم» على موقع

absolutewrite.com على وجه الخصوص. وهناك الكثير من محترفي الكتابة الذين يتطوعون بخبراتهم عبر المدونات، والمقابلات الشخصية، وما إلى ذلك، لتعليم الكُتَّاب الطامحين كيفية تجنب ارتكاب الأخطاء بشكل كبير أو متكرر، كما كانوا ليفعلوا لو أنهم لم يتعلموا.

لقد قرأ صديقي الفريق جايسون بارنهيل، الحاصل على الدكتوراه، كل ورقة من مخطوطاتي التي لم أنشرها على مدار السنين. وكما كان مهذباً وداعماً حتى حين كنتُ أجاهد للانتقال من مرحلة الفضاة الشنيعة في الكتابة إلى مرحلة الكتابة السيئة فحسب. شكرًا لك يا رفيق، في المرة القادمة التي أراك فيها سيكون العشاء على حسابي.

وقد قرأ بریت ماير وستيفن رايت المسودة الأولى للمخطوطة وقدمًا إلي تغذية مرجعية مفصلة. شكرًا لكما يا رفاق!

أما وكيستي كايتلين بلاسديل، فهي امرأةٌ مهنية مذهلة، كما أنها شخصٌ ودودٌ ولطيف. قبل سنواتٍ من أن تصبح وكيستي، أرسلت إليّ ملاحظة لطيفة حقًا تقول فيها إن هذه الفكرة لن تنجح، لكن أرسل إليّ فكرتك القادمة. وقد كانت رسالة مشجعة للغاية آنذاك، وما زلتُ أقدرها أيما تقدير. لقد مهّدت الطرق الوعرة في هذه المخطوطة، وأنقذتني من نفسي كثيرًا بطرقٍ شتى. أنا محظوظٌ بمعرفتها. شكرًا لك يا كايتلين!

وأخيرًا، وليس آخرًا بالطبع، بصفتي كاتبًا طامحًا أنغمس من حين لآخر في أحلام يقظةٍ عما ستكون عليه عملية النشر الاحترافي. أقول لك إن الجواب هو: إنها رائعة. لقد انبهرتُ بمحترتي جوليان بافيا، ورفاق آخرين عملتُ معهم في دار كراون بطريقةٍ أو بأخرى في كل مرةٍ تواصلتُ معهم فيها. شكرًا لكم يا رفاق، لقد كانت معرفتي بكم شرفًا كبيرًا وامتنيازًا حقيقيًا.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook